الزجل في المغرب

القصيدة

الدكتور
عباس بن عبد الله الجراري
أستاذ بكلية الآداب
جامعة محمد الخامس

كلمة شكر

أتوجه بها للفاضل المحترم الحاج
عبد القادر المكناسي الذي أنفق على
طبع هذا البحث فأتاح له ان يعرف النور

إلى أبي

تصدير

بقلم الدكتور عبد العزيز الاهوانى

اختلف موقف القدماء من الادب العامى وما يتصل به اختلافا يسترعى النظر . فلو بدأنا بفرع من فروع هذا الادب - يعتبر أقرب ما يكون للادب المعرب وهو التوشيح - لوجدنا أن أحد المؤلفين الاندلسيين، وهو أبو الحسن بن بسام ، يرفض أن ينقل منه شيئا فى كتابه «الذخيرة» ، على الرغم من أن ابن بسام ألف هذا الكتاب غضبا لاهل الاندلس ودفاعا عنهم ، وعلى الرغم من أن رأى ابن بسام فى الموشحات الاندلسية أنها «أوزان تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب» وحجته فى رفض هذه الاوزان أن «أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب» لذلك اسقط الموشحات من ديوانه ، ورآها خارجة عن غرض تأليفه .

ومع ذلك فقد عاش فى القرن السادس نفسه شاعر مصرى كبير ، هو ابن سناء الملك ، وقف من هذا الفن الجديد موقفا مناقضا لزميله الاندلسى ، فقد أفرد ابن سناء الملك كتابا خاصا لفن التوشيح ، هو كتابه «دار الطراز» استقبل فيه هذا الفن الاندلسى استقبالا رائعا جعله يقول : «ان الموشحات مما ترك الاول للآخر ، وسبق بها المتأخر المتقدم ، وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وغادر بها الشعراء من متردم» ويمضى ابن سناء الملك فى التعبير عن اعجابه الشديد بالموشحات فيقول عنها «صار المغرب بها مشرقا لشروقها بأفقه ، واشراقها فى جوه ، وصار أهله بها أغنى الناس لظفرهم بالكنز الذى ذخرته لهم الايام ، وبالمعدن الذى نام عنه الانام .»

واذا كان موقف ابن بسام هو هذا من التوشيح الذى يستخدم اللغة العربية أداة للتعبير ، فماذا يكون موقفه من فن الزجل الذى يستخدم اللغة العامية ، والذى ينفر أصحابه من الاعراب نفورا جعل ابن قزمان يرى أن الاعراب «أقبح ما يكون فى الزجل ، وأثقل من اقبال الاجل» ؟

ومع ذلك فان أبا محمد الحجارى الاندلسى ـ وهو من عصر ابن بسام أيضا ـ قد أودع كتابه «المسهب فى غرائب المغرب» عددا ضخما من الازجال ، فضلا عن الموشحات ، نقل منها وأضاف اليها ما أضاف على بن سعيد فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب» ، وكذلك ألف ابن الدباغ المالقى «ملح الزجالين» ثم ألف لسان الدين بن الخطيب «جيش التوشيح» وذكر ابن خلدون الفنين فى مقدمته ، ونقل نصوصا منهما .

وكذلك كان موقف القدماء من الامثال العامية : يفرد لها أبو يحيى الزجالى القرطبى فصلا فى كتابه «رى الاوام» وابن عاصم الغرناطى فى «حدائق الازاهر» ويتحاشى ذلك غيرهما من مؤلفى كتب المسامرات والمحاضرات .

وما يقال عن فنون الادب العامى فى المغرب يقال عن نظائرها فى المشرق ، وعن مواقف مؤرخى الادب المشارقة منها . وما يقال عن المؤرخين يقال أيضا عن الادباء من شعراء وناثرين ، فمنهم من شارك فى النوعين جميعا ، ومنهم من اقتصر على الادب التقليدى أو الرسمى وحده ، ومنهم من انقطع الى الادب العامى دون سواه .

ولا شك أننا واجدون أسبابا شخصية أو فردية وراء كلا الموقفين حين نريد معرفة الدوافع التى جعلت أحد الادباء يتجه وجهة غير التى يتجه اليها الآخر . ولكن هذه الاسباب الشخصية والمواقف المتناقضة بين أصحاب الاقلام من المؤرخين والادباء ، ومن يمتلكون القدرة على التدوين والتصنيف ، لا ينبغى أن تحجب عنا القضية الكبرى .

تلك القضية هى أن عبقرية الامة ، ممثلة فى جماهيرها الغفيرة ، لابد أن تجد لها متنفسا ومنفذا للتعبير عن مشاعرها ، ولابد أن تصطنع لها

من أساليب الفنون ما تصور به ذات نفسها . فاذا ما سد أمامها باب فتحت لنفسها بابا آخر ، واذا كثرت العقبات والعراقيل فى طريق سلكت طريقا آخر ، واذا لم تجد عند الاديب المتفصح الاستجابة الكاملة لذوقها وشعورها وفهمها بحثت عن الاديب العامي والفنان الشعبى ، غير مقتصرة على فن القول وحده ، بل متجاوزة ذلك الى فنون التعبير الاخرى من موسيقى وغناء وتصوير ونحت وعمارة وزخرفة وصنائع يدوية . وكل هذه الفنون ، جملة وتفصيلا ، ميراث لهذه الامة ، يحمل فيضا من مواهبها ، ويبرز جوانب من عبقريتها ، ويظهر سمات وخصائص من حياتها الطويلة العريضة .

وقد أتى على الامة العربية حين من الدهر صار فيه أدباء العربية – لاسباب كثيرة – فى عزلة أو شبه عزلة عن مجموع الشعب . لقد أخذ هؤلاء الادباء يدورون حول أنفسهم فى نطاق ضيق خانق من الموضوعات ومن المعانى والاخيلة ، ويعنون بالصنعة اللفظية ، ويتلاعبون بالصيغ أو الحيل البلاغية تلاعبا باعد بين أدبهم وبين الحياة العامة . وهنالك اتسع المجال أمام الآداب الشعبية ، فعوضت هذا النقص بما انتجه مواهب أصحابها فى ميادين القصص والحكايات والخرافات ، وفى ميدان الشعر بأنواعه المختلفة وأساليبه المتعددة ، وكان الازدهار الذى يعرفه مؤرخو هذه الفنون ابتداء من القرن السادس الهجرى وما تلاه ، فلما عاد أدباء العربية فى نهضتهم الحديثة الى ممارسة مهمتهم الاصيلة ، والى أداء رسالتهم الثقافية الكبرى نحو أمتهم ، أخذت حواجز العزلة ترتفع ، وأخذت الصلات الطبيعية بين صاحب الفن وشعبه تعود سيرتها الاولى شيئا فشيئا ، واقتربت المسافة بين الادب الرسمى والادب الشعبى ، وأصبح الاخير مصدر الهام وإيحاء للاول ، بل اقتربت المسافة بين لغة الثقافة ولغة الحديث اليومى ، اذ ارتفع مستوى الاخيرة بانتشار التعليم وذيوع الثقافة ، ومالت الاولى الى السلاسة والمرونة وابتعدت عن التكلف والتعقيد ، وفى هذا كله ما فيه من كسب ثقافى ومن تفاعل مثمر خصب ، ومن رد الامور الى مجاريها الاصلية .

وهذه الظروف الثقافية والاجتماعية التى ردت أدباء العربية الى

مشاركة الجماهير تعبيرا وأداء فى العصر الحاضر ، هى أيضا التى جعلت المحدثين من مؤرخى الادب العربى يعيدون النظر فى تاريخ أمتهم الثقافى ، فلا يقفون بهذا التاريخ عند حدود الادب الرسمى وحده ، وانما يمدون دراساتهم الى الآداب الشعبية ، ليشعروا أبناء الجيل الحديث بأن تراثهم الادبى أكثر غنى وثراء وخصوبة وتنوعا مما كانوا يظنون من قبل ، فتعود اليهم بذلك الثقة بأمتهم وبماضيها وتراثها . هذا فضلا عن أن دراسة هذه الآداب الشعبية واجب مفترض على كل مؤرخ متى كان عارفا حدود مهنته ، صادقا فى أداء مهمته التاريخية .

وهذه الدراسة المستفيضة التى بين أيدينا للدكتور عباس الجرارى حلقة فى سلسلة طويلة لدراسات جامعية شملت كثيرا من أقطار العروبة ، نهض بها وينهض أبناء من علماء تلك الاقطار . ولقد أخذ كثير من هـذه الدراسات طريقه الى المطابع شرقا وغربا .

ولا شك أن الجهد الذى بذله الباحث جدير بكل تقدير وثناء ، وأنه به يسدى يدا الى تاريخ الثقافة العربية ، لاسيما وميدان هذه الدراسة هو هذا المغرب العربى الذى قام بدور رائع فى الادب العامى ، حيث استحدث فنين ذاعا فى الوطن العربى كله ، هما التوشيح والزجل ، بل ان اثرهما تجاوز الوطن العربى الى الآداب الاوربية فى القرون الوسطى ، فكان لهما فضل - يعترف به اليوم - على تلك الآداب .

ومطالعة هذه الدراسة وقراءة النصوص التى اشتملت عليها يؤكد لدارسى الادب العربى حقيقتين :

أما أولاهما فهى أن هذا الادب العامى قد استوعب الى حد كبير الثقافة العربية فى أصولها الكبرى ومنابعها الاصيلة . لقد وجد الشاعر العامى فى القرآن الكريم وفى الاحاديث النبوية وسيرة الرسول والخلفاء من بعده معينا لا ينضب ، كما وجد فى أخبار فرسان العرب وعشاقهم فى الجاهلية والاسلام نماذج يشيد بها ، بل اننا لنجد هذا الشعر العامى وثيق الصلة بالشعر العربى فيما يتصل بالاغراض والموضوعات من غزل ووصف

وخمريات ومديح ورثاء ، وفيما يتصل بالمعانى والصور البيانية والاخيلة وأساليب المعالجة ، فضلا عن المثل العليا المشتركة ، وذلك الى ما يضيفه هذا الادب العامى من أصالة وصدق ، ومن وثبات للمواهب تنطلق بين حين وحين هنا وهنالك ، ومن تعبير رائع عن الجماعة التى عاش فيها بكل ما لها من أحلام وآمال .

أما الحقيقة الثانية ، وهى بغير شك مرتكزة على الاولى ، فهى هذه القربى بين الادب العامى فى المغرب والآداب العامية فى المشرق ، فالدراسة السريعة المقارنة بين هذه الاشعار المغربية ونظائرها فى الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر تكشف عن تشابه لا يمكن أن يكون عرضيـــا ، وأحسب أنها لا ترتد الى مجرد الشبه الحضارى القائم فعـــلا بين هـــذه المجتمعات كلها فى ماضيها وحاضرها ، بل أعتقد أن شعراء العامية هؤلاء كانوا يتدارسون تراثا عاميا مشتركا ، وكانوا على صلة مستمرة فيما بينهم وان بعدت الدار . ولعلنا نجد مصدا قهذا فيما ذكره ابن سعيد من أنه رأى أزجال ابن قزمان القرطبى مروية ببغداد أكثر مما رآها بحواضر المغرب ، ويؤكد هذا أيضا العناية الفائقة التى خص بها صفى الدين الحـلى زجالى المغرب فى كتابه عن الفنون العامية المسمى «العاطل الحالى» .

وكم كنت أتمنى أن يبذل الدكتور عباس الجرارى جهدا آخر فى الكشف عن صلة هذا الشعر المغربى بالشعر العربى ، وفى مقارنته بالشعر العامى المشرقى ، ولكن من الحق أن يقال اننا لا نزال اليوم فى مرحلة التجمع والدراسة فى نطاق البيئات الخاصة . حتى اذا قطعت أشواط فى هذه المرحلة جاءت المرحلة التالية : مرحلة المنابع والدراسات المقارنة . وحسبنا أن نجد هؤلاء الدراسين من أولى العزم فى كل قطر عربى لنطمئن الى أن ما نطمح اليه من دراسة شاملة مقارنة سيجىء حتما ، وفى وقت قريب ، وأملنا فى صاحب هذا البحث وزملائه كبير .

القاهرة فى مارس 1970

بسم الله الرحمن الرحيم



لكل امة تراث هو عنوان شخصيتها الوطنية يعبر عن قدرة عقليتها ، ويحدد مدى عبقريتها ، ويكشف عن قوة ارادتها ويبرز طابعها القومي الاصيل في مجالي الحضارة والثقافة . وقد مضى زمن غير يسير كان الناس - عامة وخاصة - يظنون ان هذا التراث لايتمثل في غير ما الف العلماء من كتب تحويها بطون الخزائن والمكتبات ، وفيما اقامت الاجيال خلال حقب التاريخ من آثار لم يتلفها توالى العصور والازمان ، ويغفلون جانبا من التراث ، لعله لايقل عن هذين الجانبين في توضيح معالم كيان الامة وملامح وحدتها وابراز مقوماتها وقيمها ، ان لم يكن اكثر منها عكسا لروحها القومي وذاتيتها الجماعية ، وهو الجانب الممثل في الآداب والفنون التي صدرت عن الشعب فردا وجماعة ، متخذة وسيلتها في التعبير الوانا من القول والكلام والنغم والايقاع والحركة والاشارة والرسم والتشكيل .

وانطلاقا من هذه الحقيقة بدأنا نهتم بالتراث الشعبي في المغرب ، نحاول جمعه ودراسته ، فألفينا مادته متنوعة غزيرة ، وهي على تنوعها وغزارتها تنقرض وتضيع في غمرة التيار الحضاري الجديد الذي بهر الناس بريقه فجعلهم يدوسون هذا التراث ، جاهلين او متجاهلين انهم يدوسون فيه مقومات ثقافتهم الوطنية ومظاهر حضارتهم الاصيلة .

وكانت رغبتنا ملحة واكيدة حين عزمنا على اختيار موضوع لرسالة الماجستير ، ان نتناول جانبا من الادب الشعبي ، وهو أدب يغرينا ويجذبنا اليه فنحس له ميلا غير قليل ، فقد رافقنا رفقة عمر منذ عرفناه ترنيما في

المهد ، لاندركه ولا نعيه ، الى ان طربنا له واعين روعته ومدركين جماله ، فأحببناه وغدونا من حبه نشعر بمزاج متجاوب معه ومنسجم بالطبيعة والسليقة دون ماتكلف او تصنع ٠ ولكنا لم نحس الجرأة على مواجهة الجمهور المثقف المغربى بمثل هذه الدراسة ، لاسيما بعد تجربة سابقة عانينا فيها الكثير وكنا قد نشرنا (1) بحثا مسلسلا عن «الفولكلور» ٠

عدلنا فى الماجستير عن الادب الشعبى وسجلنا موضوعا فى الادب المغرب المغربى ، متصلا بعهد الموحدين ، ادرنا دراسته حول الشاعر الامير ابى الربيع سليمان الموحدى ، ولكنا وعدنا نفسنا بضرورة انجاز بحث الدكتوراة فى احد فروع التراث الشعبى ٠

وهانحن نفى اليوم بهذا الوعد حيث نقدم اطروحة جعلنا موضوعها لونا من الادب الذى اتخذ اللهجة العامية اداته ٠

وتعتبر هذه الاطروحة خلاصة جهود متواصلة فى الاعتناء بهذا الجانب من التراث الشعبى أكدت لنا الدوافع التى كانت حافزنا الى الاقبال عليه ، وهى :

1 ــ ان الادب الشعبى صورة للشخصية الوطنية ، مهما كانت باهتة فهى اوضح من الصورة التى يعكسها الادب المدرسى المثقف ٠

2 ــ ان دراسته تعزيز لاقليمية الادب وتقرير لمذهبه الذى نؤيد الداعين له منهاجا للكشف عن ادب الاقاليم العربية المختلفة وسبيل الامة العربية الى لم شتات ادبها المبعثر المجهول ٠

3 ــ ان الادب اشعبى مكمل للادب المدرسى وان من شأن دراسته ان تساعد على الربط بين الادبين واجتياز الهوة الكبيرة التى تفصل بينهما ٠

❁ ❁ ❁

وقد صادفنا فى انجاز هذه الرسالة **متاعب ومصاعب**، بعضها يتصل بموقف المثقفين فى المغرب من الادب العامى ، واغلبها يتصل بمصادر الدراسة اما موقف المثقفين فواجهنا فيه انكارا مطلقا علينا ان نتخذ الزجل

---

(1) فى مجلة «دعوة الحق» وفى ثلاث حلقات ابتداء من عدد نوفمبر 1962 (السنة السادسة)

موضوعا لرسالة جامعية ، وحاول كثير من الباحثين الاصدقاء تحويل فكرنا عنه واغراءنا بموضوعات في الادب المعرب المغربي او بما يرونه التراث الحقيقي الاصيل . وهم في هذا بين عدم معتبر للآداب والفنون الشعبية من التراث ، لايتمثل قيمتها ولايراها جديرة بالبحث ، وبين معترف بها ومقتنع بجدية الدراسة التي ندير عليها ، ولكن يراها تستهدف التسلية والترويح وتاتي بذلك في المرتبة الثانية بعد التراث المدرسي ، لايعدو الاهتمام بها أن يكون ترفا للعقل وترفيها عن النفس ، وآخر يرى ان العامية اثر من بقايا فترة التاخر والانحطاط ورواسب عهد الاستعمار ، وان الاعتناء بها يعرقل سير التعريب الذي يسعى المغرب الى تحقيقه ، وانه لايمثل غير حركة رجعية هدامة تتستر خلف المحافظة على الآداب الشعبية .

ولعلنا ان نؤكد لهؤلاء جميعا ان الادب الشعبي جزء ركين من التراث وأنه تعبير عن مقومات الشخصية الوطنية والذاتية الجماعية ، وان الاهتمام به اهتمام بهذه الذاتية وتلك المقومات ، وانه لو لم يكن كذلك ما حاول الاستعمار ان يعنى ببعض جوانبه ليتسنى له ان يتسرب من خلالها الينا ليفهم عقليتنا ويدرك اعماق ثقافتنا واصول حضارتنا لينسفها من الاساس

ونحن مع استاذنا الجليل الدكتور عبد الحميد يونس نخطىء من يتصور ان الآداب والفنون الشعبية «تستهدف التسلية والترويح عن النفوس المكدودة بعد عمل النهار الطويل تلتمس لها المواسم وتنتخب لها اماكن التجمع . ان التسلية والترويح وظيفة ثانوية ، اما الوظيفة المحورية فقومية على الدوام تطلب المحافظة على ذات الفرد العزيز في امته وتطلب المحافظة على الجماعة كلها في آن واحد (1)» .

ولعلنا ان نؤكد كذلك ان العامية ليست مظهرا من مظاهر اللغة الفصحى في صورة منحطة متأخرة ، وانها مزيج مركب من العربية كما وفدت الى المغرب ومن اللغة المحلية يومئذ ونعني بها البربرية ، وانالعربية التي وفدت لم تكن الفصحى وحدها وانما كانت معها لهجات عربية قبلية ،

---

(1) من المقال الافتتاحي لمجلة (الفنون الشعبية) بعنوان «المأثورات الشعبية» العدد الاول السنة الاولى 1965

وان الصراع اللغوى الذى دار فى المغرب لم يكن بين الفصحى والبربرية وانما بين هذه ومختلف اللهجات التى كان يتكلم بها العرب الوافدون ٠

ومن هنا ـ واذا ما تهيأت دراسة اللهجات العربية فى كل الاقاليم ـ أمكن التعرف الى صفاتها وخصائصها والى مابها من عناصر أصيلة ، واتضحت بالتالى كثير من ظواهر اللهجات العربية القديمة ، بل اذا ماتهيأت هذه الدراسة سهل تحديد مناطق التقريب بين العاميات وتوحيدها وسهل كذلك تطوير الفصحى وامدادها بكثير من الجديد ٠

ولعلنا ان نؤكد بعد هذا حقيقة أخطأ فى ادراكها من كان يتصور ان الاستعمار كان يحاول القضاء على الفصحى لحساب العامية ، فمن المؤكد انه كان يقصد الى محوهما جميعا ليحل لغته وينشرها اداة للتخاطب والفكر على السواء ٠ ولسنا فى حاجة الى القول بأنه لم يعد يخشى على الفصحى ان يقضى عليها او تزول بعد ان عادت سيادة الوطن العربى الى ابنائه ، فاللغة العربية الفصحى هى الرباط الجامع لشمل العرب وعماد قوميتهم وعنوان وحدتهم ، وهو واقع لاينكره الا الجاهلون والمعاندون ومن بقيت فى نفوسهم وأفكارهم رواسب الاستعمار ، ولكنه انكار لايؤثر على هذا الواقع فى شىء ٠

وحقيقة اخرى فى نفسنا نرجو ان نصرح بها للذين يرفضون دراسة الزجل خشية على العروبة ولغتها ، وهى ان اتخاذ المغاربة للهجة عامية عربية اداة للتعبير الشعرى دليل واضح وقاطع على عروبتهم وحيويتهم وحبهم للغة العربية ، ولكن حذار الظن بأنا ندعو لها لغة للفكر ، فهى قاصرة وعاجزة عن أن تتعدى نطاق ذلك التعبير ٠ ثم اننا فى غنى عنها بلغتنا الفصحى التى يتوفر لها من الامكانيات مايجعلها قادرة على استيعاب كل جديد ٠

واما المصادر فعلى اربعة انواع :

1 ـ الابحاث التى تتصل مباشرة بالدراسة ، وهى جد قليلة لاتتعدى بضع مقالات ٠ وكان قد ذكر لنا الاستاذ محمد الفاسى انه مهتم منذ خمس وثلاثين سنة بوضع عروض للشعر الملحون المغربى فاعتبرناه بذلك

رائد البحث في الادب الشعبي ، وسألناه اكثر من مرة ـ بالاتصال الشخصي وبوسائط والرسائل ـ ورجوناه وألححنا في الرجاء عساه يمدنا بما قد يفيد ، ولكنه كان ابدا يردنا ويصدنا مهولا لنا امر هذا الادب ، بخيلا علينا بما قد يكون جمع من نصوصه او كتب عنه ، وشحيحا حتى بالكلمة الطيبة، تنير لنا الطريق أو تبعث التشجيع في نفسنا على الاقل ٠

2 ـ الاشياخ : سواء منهم الشعراء أو الرواة ٠ وقد اتصلنا في مختلف المدن المغربية بعدد منهم غير قليل ، وكان اعتمادنا عليهم كليا في التعرف الى الزجل والزجالين ، ولكنا وجدناهم يختلفون في العلم الى حد التناقض في بعض الاحيان ، ويروون اخبارا اقرب الى الخوارق والخرافات منها الى الحقائق ٠ وكان علينا ان ننظم مانأخذ عنهم من معلومات واخبار ، فوضعنا فهرسين بالجذاذات احدهما خاص بالزجل والثاني بالزجالين مرتب ترتيبا تاريخيا ، وكان علينا بعد هذا إن نصفي ما نأخذ عنهم من معلومات ونغربلها وننسق فيما بينها ٠ ومع اننا وجدنا في ذلك مشقة وصعوبة ، فقد تمكنا في النهاية ان نصل الى تحديد مقاييس الزجل وقواعده والتأريخ له ٠

3 ـ النصوص الزجلية وتتمثل في :

أ ـ النصوص المطبوعة : وهي جد قليلة لاتتعدى ديوانا صغيرا وبضع قصائد متفرقة ٠

ب ـ النصوص المخطوطة : تتضمنها مجموعة الكنانيش التي وقفنا عليها في المكتبات العامة والخاصة ٠ ونسجل هنا اننا لم نتمكن من الاطلاع على مجاميع الخزانة العامة المرقمة في حرف د : 474 ـ 1426 ـ 1504 1535 ، وقد تبين لنا بعد البحث الطويل عنها انها اخرجت من الخزانة وانها في حوزة الاستاذ الفاسي ٠ وخاطبناه في ان يسمح باطلاعنا عليها ولكنه لم يستجب ٠ كذلك سألناه اكثر من مرة ان يمدنا ببعض القصائد وخاصة قصيدة ـ المصرية ـ وهي قصيدة طويلة لايحفظها الاشياخ كان قد نظمها محمد بن علي العمراني في احتلال بونابارت لمصر ٠ وكنا سألناه عنها فأخبرنا انها مدونة لديه ٠ وطلبنا منه ـ شفاها وكتابة ـ ان يطلعنا

عليها او على جزء منها ولكنه للاسف لم يفعل ·

ج – النصوص المروية وقد جمعنا منها عددا غير قليل بواسطة التسجيل الصوتي والتدوين الكتابي سواء من الاذاعة أو من أفواه الشعراء والمنشدين · وقد لاحظنا ان الاذاعة لاتتوفر الا على عدد قليل من القصائد بسبب حداثة عهدها بنظام التسجيل الصوتي ، كما لاحظنا ان محفوظات الاشياخ تدور في نطاق عدد معين من القصائد لاتخرج عما يرغب الجمهور في الاستماع اليه ، بل ان تقرير جمعية - هواة الطرب الملحون - بمراكش لسنة 64–65 يثبت ان محفوظ اعضاء الجمعية – منشئين ومنشدين وهواة – لايتعدى سبعا وتسعين ومائة قصيدة ، وان اكثر الشعراء حظا وهو التهامي المدغري لايحفظ له اكثر من اثنين وثلاثين قصيدة · ويثبت تقريرها للسنة التالية ان عدد الاشياخ الذين انشدت اشعارهم لايتعدى الخمسين ·

ولم يكن سهلا علينا ان نفهم هذه النصوص ، وخاصة منها المدونة ، بسبب تطور اللهجة وعدم معرفتنا بمعاني كثير من الكلمات وكيفية النطق بها وطريقة قراءة البيت بما يقيم الوزن · وحتى بالنسبة للنصوص الملفوظة فقد كان الامر غير يسير ، اذ ان الحفاظ يختلفون في نقل النص الواحد ، وغالبا مايروونه محرفا غير صحيح الا من كانوا منهم عارفين بالفن مدركين لمقاييسه ، ومثل هؤلاء يحاولون التصرف في النص بالتبديل والاصلاح ·

وكان احساسنا بهذه الصعوبة قويا حين حاولنا – مجتهدين في الغالب – ان نضبط النماذج التي اوردنا ونشكلها لتسهل قراءتها ويقرب فهمها (1) ولنفس الغاية حاولنا كتابة النصوص حسب نطقها او بالاحرى حسب النطق الذي اهتدينا اليه ، بالاضافة الى اننا قدمنا شروحا لما رأيناه غامضا من الكلمات والتراكيب ، والى اننا لجأنا في باب الموضوعات الى نثر ما استشهدنا به من نصوص ·

4 – ماكتب بالعربية او غيرها في الموشحات والازجال واللهجات والتاريخ والتراجم والآداب · وقد حاولنا ان نقف فيها على تجارب الآخرين وخبراتهم العلمية والعملية عسانا نستخرج منها بعض ما قد يساعدنا فيما

(1) الاسف شديد اننا لن نتمكن من اثبات الشكل في هذه الطبعة لان الحروف المستعملة في الطباعة بالمغرب لاتتيح ذلك ·

نحن بصدده من دراسة لموضوع بكر جديد • وقد اتيح لنا خلال الرحلة العلمية التى قمنا بها لتركيا واسبانيا ان نقف فى خزائن اسطنبول ومدريد والاسكوريال على مصادر انارت لنا بعض مسالك السير • وكان املنا ان نجد فى مصادر الآدب المغربى القديمة بعض النصوص الزجلية ، ولكنا وجدنا المؤلفين يعرضون عن ايرادها بل حتى عن ايراد الموشحات على حد مايقول عبد الواحد المراكشى متحدثا عن عبد الملك بن زهر : واما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده اليها ، هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا ان العادة لم تجر بايراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة لاوردت له بعض مابقى على خاطرى من ذلك» (1)

❁ ❁ ❁

وكان **المنهاج الذى سرنا عليه فى البحث** هو نفس المنهاج الذى ندعو له فى دراسة كل ادبنا وتراثنا عامة ، ويتلخص فى اربع مراحل ، يحتاج انجازها ـ كلها او بعضها ـ الى جهود فردية وجماعية تعمل فى تكتل وتناسق وتكامل ، وهى :

1 ـ التعرف الى المصادر والتعريف بها بوضع فهارس لمخطوطات الخزائن العامة والخاصة •

2 ـ اخراج النصوص مجردة أو محققة ان امكن •

3 ـ دراسة هذه النصوص دراسة تحليلية تقوم على الوصف والتقرير

4 ـ دراستها دراسة نقدية ومقارنة •

فقد بدأنا بحصر مصادر الزجل الموجودة فى كل المكتبات العامة وبعض الخزائن الخاصة ، بالاضافة الى ما سجلناه من الاذاعة وافواه الاشياخ ، وتجمع لنا من ذلك نحو الف نص ، منه مايقرب من ربعه مكرر ، ولكن تكراره اتاح لنا مقابلة بين النصوص التى وقفنا منها على اكثر من نسخة • وقد صنفنا هذه النصوص ووضعنا لها فهارس على هذا النحو :

---

(1) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص 92 مطبعة الاستقامة ـ القاهرة سنة 1949

اولا : فهرس لكل مجموع او كناش ·

ثانيا : فهرس بالجداذات للقصائد مرتب حسب الموضوعات ·

ثالثا : فهرس للقصائد مرتب حسب الشعراء ·

رابعا : فهرس للقصائد المنشدة ·

خامسا : فهرس للقصائد التى لم نهتد لاصحابها ·

سادسا : فهرس للقصائد التى يروى الحفاظ المغاربة لبعض زجالى الجزائر ، وكانوا فى معظمهم كثيرى التردد على المغرب والاتصال بأشياخه وجماهيره ·

وفى كل من هذه الفهارس اشرنا الى عنوان القصيدة ولازمتها واسم صاحبها ومرجعها وكذلك اسم المنشد ومدة الانشاد بالنسبة للقصائد المسجلة بالصوت ·

بهذا التحديد للمصادر وتسهيل الرجوع اليها فيما نظمنا من فهارس، **مهدنا السبيل امام الذين يرغبون فى اخراج النصوص ونشرها** ، وما كان فى استطاعتنا أن نقوم بذلك ونحن بصدد انجاز الرسالة لاسيما وأن عددها كثير · لهذا حاولنا ان نمثل اثناء الدراسة بنماذج متعددة ومختلفة من النصوص وخاصة فى باب الموضوعات · وقد كان فى نيتنا ان نقتطف منها مختارات نلحقها بالرسالة ، ولكننا اعتبرنا الحاق ـ دليل للزجل ـ أهم من الحاق مختارات · والامل عندنا ـ اذا ما أتيحت لنا فرص النشر ـ ان نخرج هذه النصوص سواء فى مختارات او فى دواوين بالنسبة للشعراء الذين تجمع لنا من قصائدهم عدد كثير ·

ورأينا ان تكون دراستنا للزجل وصفية تسجيلية نقصد منها فى المقام الاول الى التعريف بالزجل تقريرا وتحليلا ، دون محاولة لمقارنته بالادب المعرب او ادب اللهجات العامية الاخرى ، وهى طريقة تتفق والمنهاج الذى فرض نفسه علينا بعد ان خططناه والذى اقتضى منا فى هذه المرحلة من الدراسة ان نركز على الوصف والتقرير والتحليل ، وهى مرحلة نراها ضرورية فى الكشف عن اى ادب مجهول · وعسى ان نوفق فى المستقبل الى القيام بدراسة مقارنة يكون اساسها ما أمكننا حصره من الوان الشبه بين

الزجل المغربى والزجل الاندلسى او بينه وبين الادب المعرب وما أشار بـه علينا استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانـى اثناء اشرافـه علـى الرسالة وتتبعه لمراحلها المختلفة ·

وما نقوله عن الزجل نقوله كذلك عن لغته ، فقد حاولنا مـن خـلال البحث ان نتعرف اليها حيث سجلنا بعض ظواهرها وخصائصها فى محاولة أولية للوصف بعيدا عن مقارنتها بغيرها مـن اللهجات والحكم عليها بـأى لون من الوان الحكم أو محاولة استنباط قواعدها وقوانينها التى خضعـت لها · وقد احسسنا فى المحاولة البسيطة التى قمنا بها فـى هذا المجال أن أمر المرحلة الوصفية ليس باليسير ، يحتاج انجازه الى لجان من المتخصصين لا الى فرد او مجموعة أفراد ، وأنه متى تهيأ انجاز هذه المرحلة امكن تقديم مادة أولية لدارسى اللهجات وعلمها المقارن ·

❀ ❀ ❀

واقتضى منا منهاج البحث ان نقسم الدراسة الى مدخل وثلاثة ابواب وان نشفعها بملحق :

المدخل : القصيدة الزجلية والغناء الشعبى ·

استعرضنا فيه مختلف انواع الغناء فى المغرب وتناولنا القصـيـدة الزجلية كلون من اهم الوان هذا الغناء ومايقوم عليه انشادها مـن نـوبات الموسيقى الاندلسية وميازينها ، وما يصاحب هذا الانشاد من آلات وكيفية ادائه · وناقشنا شعبية الزجل شعرا وغناء ، واثبتناها على الـرغم من ان جمهوره لم يكن محصورا فى العوام ، وعلى الرغم مـن انا نعرف اسماء منشئيه ، ومن ان بعض قصائده مدونة ·

الباب الاول : الشكل

ويتكون من ثلاثة فصول :

الفصل الاول : مفهوم الزجل وانواعه

وهو جزءان

1 ـ مفهوم الزجل ·

اوضحنا فيه مدلول كلمة الزجل سواء فى اللغة او الاصطلاح الادبى ،

وعللنا لاطلاقنا هذه الكلمة على الادب الشعبى المغربى بدلا من تسميات أخرى كثيرة يعرف بها عرضناها كذلك ·

2 ـ انواع الزجل

تناولنا فيه اهم انواع الزجل المغربى بعد ان بينا أننا سنقصر البحث على نوع واحد منها وهو القصيدة المنظمة التى يعرف منشئها ·

الفصل الثانى : اللغة والفنية ·

جعلناه خمسة اقسام :

1 ـ مراحل التعريب : تحدثنا فيه عن الظروف والعوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى المغرب منذ الفتح الاسلامى حتى عهد الموحدين الذى اعتبرناه آخر مرحلة شهدت تمام استعراب المغاربة ·

2 ـ نشأة العامية : تناولنا فيه طبيعة اللهجات وأسباب نشأتها وأوضحنا ان العربية حين وفدت الى المغرب لم تكن معربة ونقية كما قد يظن وأنها كانت تتمثل فى الفصحى لغة القرءان وفى لهجات الفاتحين القبلية ، واوضحنا كذلك ان الصراع اللغوى فى المغرب لم يكن بين البربرية ولغة القرءان وانما كان بينها وبين لهجات الفاتحين ·

3 ـ خصائصها : جعلناها على نوعين :

أ ـ خصائص عامة تشمل اللهجة الدارجة المنتشرة فى اهم المدن والمناطق المغربية ·

ب ـ ظواهر خاصة بلغة الزجل كما طورها الزجالون وطوعوها لتعبيرهم الفنى ·

4 ـ جوانب بلاغية : عرضناها بعد ان بينا أن البلاغة قد تكون فى الشعر المعرب والعامى على السواء ، وتتمثل عند الزجالين المغاربة فى :

أ ـ التجنيس أو الجناس ·

ب ـ التصريف وهو ان يتصرف الشاعر فى كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها

ج ـ التضمين أو التلزيم وهو أن يجعل القافية على اكثر من حرف

د ـ النشب وهو أن يستهل الشاعر الشطر بكلمة أو بكلمتين من

الشطر الذى قبله والبيت بشطر من البيت السابق عليه ·

هـ ـ استخدام نوع معين من الكلام كأن ينظم الشاعر قصيدة كـل حروفها مهملة أو كأن يلتزم بدء كل بيت من قصيدته او انـهـاءه بكلمات معينة ·

5 ـ فنية الاسلوب ـ وتتمثل فى :

أ ـ التشبيه والمقارنة ·

ب ـ الحركة والحيوية والتشخيص ·

ج ـ الحوار ·

د ـ القصـــة ·

هـ ـ الرمز ·

كما اضفنا اليها بعض اللمحات النقدية التى لاحظناهـــا على لسان الاشياخ سواء منها ما يتصل بالشعر أو الشاعر ·

الفصل الثالث : العروض

ويتكون من ثلاثة اجزاء :

1 البـحـور

ناقشنا فى اول هذا الجزء مايقال من ان بحور القصيدة الزجلية غير محدودة ومايقال كذلك من انها محدودة فى نطاق عروض الخليل ، وانتهينا الى ان هذه القصيدة لاتسير على تفعيلات هـذا العروض فـى تناسقـهـا المعروف ولا تخضع لاوزانه ، وان كانت لاتبتعد عن ايقاعه · ثم فصلنا القول فى البحور التى تعارف عليها الزجالون ، وهى :

أ ـ المبيت : وينقسم الى المثنى والثلاثى والرباعى والخماسى ·

ب ـ مكسور الجناح ·

ج ـ المشتب ·

د ـ السوسى ·

2 ـ بناء القصيدة :

ويتكون مـن :

أ ـ مقدمة يطلق عليها السرابة ·

ب ـ اجزاء القصيدة ، وهى :

1 ـ الدخول ٠

2 ـ الحربة (اى اللازمة) ٠

3 ـ الاقسام (من حيث عددها وعدد الابيات داخل كل قسم)

ج ـ مقدمات الاقسام ، وتتمثل فى :

1 ـ العروبى ٠

2 ـ النواعر ٠

د ـ القسم الاخير : ويضمنه الشاعر اسمه ـ تصريحا او رمـــزا بالحروف والارقام ـ وتاريخ النظم واهداء السلام والصلاة والـدعاء وهجاء الخصوم ٠

هـ ـ الدريدكة : وتتضمن ـ حين توجد ـ مايتضمنه القسم الاخير فى العادة ٠

وختمنا هذا الجزء بمنوذجين يوضحان البناء : احـدهما من المبيت والثانى من مكسور الجناح ٠

3 ـ نظام القافية :

تناولنا فيه :

أ ـ براعة الشاعر فى التقفية ، وتتمثل فى نظم القصيدة كلها بقافية واحدة وفى استعمال قوافى داخلية فى الابيات ٠

ب ـ القافية فى الاقسام حيث تتبعنا نظامها فى مختلف البحور ٠

ج ـ القافية فى المقدمات ٠

د ـ القافية فى الدريدكة ٠

هـ ـ عيوب القافية ، وتتمثل فى :

1 ـ القوافى الصيادية وهى التى لاتستوحى حرفها من موضوع القصيدة

2 ـ اتخاذ الهمزة قافية ٠

3 ـ الخلط بين الحروف المتشابهة المخرج ٠

الباب الثانى : الموضوعات

ويتكون من أربعة فصول :

الفصل الاول : المرأة

عرضنا فيه لاربعة جوانب :

1 ـ المحبوبة : يمثل هذا الجانب نظرة الزجال المغربى للمرأة وافتتانه بجمالها كما تهواه نفسه وليس كما هو فى الـواقـع ، فجاءت بذلك الصورة التى رسم لها نموذجا لاتختلف ملامحه من شاعر لآخر ٠

2 ـ المحب : تتبعنا فى هذا الجانب حال الشاعر فى معاناته من حب المرأة ، ضعيفا ذليلا يقاسي مختلف ألوان العذاب ويسعى للوصـول اليها بشتى الوسائل ٠

3 ـ الحب : ويبدو تمثل المحب له قويا طاغيا ومتجبرا لايقوى على مواجهته ٠

4 ـ ملاحظات ، تناولنا فيها :

أ ـ تغزل الشاعر فى النص الواحد بأكثر من امرأة واحدة ٠

ب ـ التغزل بالمذكر ٠

ج ـ الرمز بالغزل فى المرأة الى معنى سامى ٠

د ـ مدى صدق الشاعر فى غزله ٠

الفصل الثانى : فى الحياة

حددنا فيه نظرة الزجال المغربى للحياة فى جانبيها الحسى والتجردى:

1 ـ الجانب الحسى : ويمثل ابتسامه للحياة واستمتاعه بملذاتها ، وتناولنا فيه :

أ ـ اقباله على الخمر ٠

ب ـ افتتانه بالكون والطبيعة ٠

وختمناه بملاحظة عن شعر الفكاهة ٠

2 ـ الجانب التجردى : وجعلناه عن «الزهد والحكمة» ٠ فقد عبـر بهما الشاعر عما يعتمل فى نفسه من برم وضيق بحال الدنيا وسلوك المجتمع ومايعلل به للوقائع والاحداث فى استسلام لقضاء الله وقدره وعما يراه وعظا ناجعا للناس عساهم يحسنون سلوكهم ويقتنعون بأن الدنيا ليست غير دار عبور لايغتريها الا مغفل مجنون ٠

3 ـ وذيلنا الفصل بملاحظات عن :

أ ـ مدى اتصال الزجال المغربى بالحياة فى ابسط مظاهرها واصغر مشاكلها ·

ب ـ لجوئه فى الوعظ الى أسلوب الخطاب يوجهه لنفسه او لغيره ·

ج ـ تخصيصه قصائد للتذكير بعظمة الله وقدرته بقصد تنبيه الغافلين المتهافتين على الدنيا ·

الفصل الثالث : مع الناس

تناولنا فيه :

1 ـ المدح : وهو فن لم يعن به الزجال المغربى لما احس فيه من فتور العاطفة وتكلف التعبير وزيف الدوافع وخلوه نتيجة ذلك من امتاع الذهن والشعور ·

2 ـ الرثاء : وهو كالمدح لم يقبل على النظم فيه ، بل انه كان اكثر منه عرضة للضياع لعدم مناسبة موضوعه للانشاد والترديد ·

3 ـ الهجاء : وكان من اكثر الموضوعات التى الهبت قريحة الشاعر وجذبت المنشد والجمهور لما يبدو فيه من صدق الدافع وانطباع شخصية صاحبه عليه ولما يترك فى نفس السامع من احساس بالمتعة وهو يشاهد عروض المنافسة · ويلحق به الفخر و «السولان» وهى قصائد فى السؤال والالغاز ، والخصام او «المحاورة» وهى قصائد فى المفاخرة والمنافرة ·

والحقنا بهذا الفصل ملاحظة عن مدى ولوع الشاعر الشعبى بفن الخصام ، اذ لم يقصره على الاشخاص فقط ، وانما تخيله كذلك فى النبات والحيوان والجماد وبعض مظاهر الكون ·

الفصل الرابع : فى حمى الله والرسول

تتبعنا فيه مع الشاعر الشعبى حبه للرسول عليه السلام واستعراضه لاوصافه وشمائله وجوانب من سيرته كالمولد والوفاة والمعراج ، وماخصه به من صلاة · وهو فى ذلك لايسعى الى غير زيارة قبره والفوز بشفاعته يوم القيامة ، وهى غاية جعلته يتحدث عن هول هذا اليوم وعن شوقه والحنين

الى البقاع المقدسة ٠ ثم انه لايلبث ان يكشف عن حال ضعفه ورجائه الملح في ان ينقذه الله ويعفو عنه متخذا وسيلة اليه او الى رسوله الكريم وساطات مختلفة من الاشراف والاولياء يتوسل بهم ويمدحهم كذلك ٠

وختمنا الفصل بملاحظة عن العشق الالهى الذى يكاد لايوجد الا نادرا وعند بعض الزجالين المتصوفين ٠

الباب الثالث : الاعلام

قصدنا منه الى التعريف بتطور القصيدة الزجية من خلال التعريف بأعلامها ، وجعلناه ثلاثة فصول تمثل ثلاث مراحل :

الفصل الاول : مرحلة النشأة

وجعلناه جزءين :

1 ـ اسماء ونصوص قديمة ٠

استعرضنا فيه بعض الاسماء والنصوص التى امكننا العثور عليها منذ عهد الموحدين فى اوائل القرن السادس حتى عهد المرينيين قبيل منتصف القرن التاسع الهجرى ٠

2 ـ الاصول الاولى للقصيدة الزجلية ٠

حاولنا فيه ـ استنادا الى ما اهتدينا له من اسماء ونصوص ـ أن نرى ان كانت القصيدة الزجلية المغربية امتدادا للزجل الاندلسى أم محاكاة مباشرة لفن التوشيح كما عرفه المغاربة ام تأثرا بشعر اهل الامصار العرب الوافدين الى المغرب أم استمرارا لعروض البلد الذى استحدثه أهل المدن بالمغرب أم تطورا للاغانى والمرددات الشعبية المحلية ؟ وانتهينا الى ان هذه الاغانى والمرددات هى الاصل الاول للقصيدة وانها قد تكون حاكت عروض البلد وتأثرت بأشعار العرب الوافدين وخاصة منهم الهلاليين وحلفائهم ، ثم بالزجل الاندلسى فيما بعد حين انتقلت من البيئات الشعبية الصرف الى بيئات راقية

الفصل الثانى : مرحلة التطور ٠

بدأت قبيل منتصف القرن التاسع على يد عبد الله بن احساين وامتدت زهاء ثلاثة قرون حيث وقفنا بها عند المصمودى فى اوائل القرن

الحادى عشر · وهى مرحلة كانت القصيدة الزجلية تكتسب خلالها كثيرا من الجديد وتحاول احراز كيانها الذى ستستقر عليه سواء من حيث الشكل أو المضمون ·

ولاحظنا فى ختام الفصل ان هذه المرحلة توقفت ، وان توقفها دام زهاء قرن ونصف ، وملنا فى تعليل ذلك الى اهمال الحفاظ لرواية ازجال المغاربة واقبالهم على ازجال الشعراء الجزائريين الذين وفدوا الى المغرب فى هذه الفترة ، وكانت لهم مكانة فى الدولة · وخاصة منهم سعيد التلمساني · كما لاحظنا ظاهرة انتشار الزجل فى بيئة المتصوفين المغاربة

الفصل الثالث : مرحلة الازدهار ·

بدأت على عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله العلوى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى ، وتجدد ازدهارها فى الربع الاخير من القرن الثالث عشر على عهد سيدى محمد بن عبد الرحمان الذى كان بدوره من الزجالين · وكان آخر بريق لنهضة الزجل فى هذه المرحلة فى اوائل القرن الحالى ايام السلطان المولى عبد الحفيظ الذى كان من كبار علماء عصره وزجاليه ·

وتعتبر هذه الفترة من اخصب فترات الزجل لكثرة مانبغ فيها من الشعراء ، وقد حاولنا ان نستعرض أعلامهم الذين أتيح لنا ان نهتدى الى بعض اخبارهم وأشعارهم ، فبدأنا بالجيلالى امتيرد ، وختمنا بالحاج محمد العوفير · وذيلنا الفصل باستعراض لاسماء كثير من الزجالين المعاصرين مرتبة حسب مدنهم ، ولاحظنا ان الزجل عند هؤلاء تجمد فى صور ونماذج تقليدية بعيدا عن أية محاولة للتعبير عن الاحساس الذاتى والتكيف مع روح العصر بله التطوير والتجديد ·

ملحق :

وقد ارتأينا ان نذيل الرسالة بدليل ضمناه جميع الفهارس التى سبق أن أشرنا اليها (1) ·

وبعد ، فلسنا نزعم اننا قلنا جميع مايمكن قوله فى الموضوع ولا اننا

---

(1) نأمل نشره على حدة ان شاء الله ·

أتينا بالقول الفصل فيه • وحسبنا اننا فتحنا بابا جديدا للبحث الادبى فى المغرب ، واننا بذلنا فى سبيل ذلك جهدا يشهد الله أنه كان مخلصا ومتواصلا• وأملنا ان يجد الدارسون من زملائنا الشباب فى هذه الرسالة مايغريهم بمواصلة البحث من أجل احياء التراث بجميع أنواعه ، وأن يجد فيها المسؤولون عن جامعة محمد الخامس مايقنعهم بضرورة ادراج ادب المغرب الشعبى فى مقررات كلية الآداب الى جانب أدبه المعرب الذى نتحمل عبء تدريسه بها •

وواجب علينا ان نزجى الشكر جزيلا الى أستاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى الذى كان لاشرافه ما انار لنا السبيل وشجعنا على المضى والاستمرار ، والى سيدنا الوالد حفظه الله لما قدم لنا من نصائح وتوجيهات وفوائد ومابذل من جهد ـ باتصالاته العديدة وخلال مختلف أسفاره ـ فى البحث لنا عن مزيد من النصوص ، والى زوجتنا الحبيبة التى ساعدتنا فى التسجيل والتدوين وتحملت فى صدق وصبر وتقدير ماكانت تفرضه ظروف انجاز الرسالة من استغراق كلى فى البحث وانشغال عما سواه ، والى كل من أمدنا بنص أو أشار علينا بفائدة أو دلنا على مصدر ، الى الاساتذة الاجلاء السادة : ادريس بن الماحى وعبد السلام بن سودة ومحمد الهسكورى ومحمد المنونى وعبد الله كنون وعبد الوهاب بن منصور وسعيد اعراب وعبدالله الرجراجى وابراهيم الكتانى والمهدى الدليرو ومحمد السفيانى والصمدى المزوار وحسن الوجراجى وجعفر الكتانى وعبد القادر زمامة ومحمد الشليح والاخ عبد الواحد الجرارى والدكتور عبد السلام الهراس ، والى اشياخ الزجل الافاضل السادة الحاج محمد بن عمر الملحونى وبنعيسى الدراز ومولاى احمد بن عبد السلام العلوى واحمد سهوم والحاج محمد العوفير وعبد القادر الجرارى ومحمد بن الهاشمى وادريس المرونى وهاشم السفيانى ومحمد حسن التطوانى •

والله نسأل ان يوفقنا للخير ويهدينا للصواب •

القاهرة 28 ذى القعدة 1388 ـ 15 فبراير 1969

عباس بن عبد الله الجرارى

مـدخـل

القصيدة الزجلية

والغنـاء الشعبي

يمكن تقسيم **الغناء في المغرب** الى انواع تختلف لغة ونغما واداء باختلاف مناطق هذا الغناء . ومن الالوان التى تتخذ العربية اداتها فى التعبير نستطيع ان نذكر :

1 ـ القصيدة الزجلية التى اتخذناها موضوعا للرسالة ، وسنتناول انشادها فى هذا المدخل .

2 ـ المواويل والعروبيات والسلامات والعيطة والطقطوقة وأعيوع والدقة وغيوان بن يازغة والمزوكى : وسنتحدث عنها كأنواع للزجل فى الجزء الثانى من اول فصل فى الرسالة .

3 ـ الموسيقى الاندلسية وتسمى «الآلة» تطرب لها مختلف الطبقات، وهى تمثل لونا من التراث الذى انتقل الى المغرب من الاندلس ، فحافظ عليه المغاربة واضافوا اليه . وسنستعرض نوباتها وميازينها بعد سطور .

4 ـ الغناء العصرى وهو متأثر فى أغلبه بالغناء المشرقى والمصرى خاصة .

5 ـ اغانى العمل وارقاص الاطفال وماإليها من المرددات البيئية اليومية

6 ـ الاغانى والانشادات الدينية ، وتنقسم قسمين :

أ ـ الامداح وأغلبها فى المدح النبوى ـ ومن هنا جاءت تسميتها ـ وقد اشتهر بأدائها منشدون يطلق عليهم «المسمعين» وهى ابيات ومقطوعات تنشد حسب نوبات وميازين الموسيقى الاندلسية ، ولكن دون أن تصحبها الآلات الموسيقية .

ب ـ أناشيد الطرقيين وفقراء الزوايا ، وهى اشعار فى الذكر أغلبها لابن الفارض والششترى والحراق ، او اوراد وأقوال لاشياخ الطرق ، تعتمد فى تلحينها على بعض الطبوع الاندلسية يصحبها رقص الذاكرين ، وهو رقص يختلف حركة وقوة وحدة باختلاف

الطوائف ، فاذا كان مثلا رقص درقاوة والقاسميين هادئا ليس فيه غير الهز العمودى للجسم والاكتاف فان رقص احـمـادشة وعيساوة يعتمد على تحريك قوى للجسم والاطـــراف مـع الضرب العنيف بالاقدام على الارض • وغالبا مايصاحب الانشاد والرقص عزف على الالات الموسيقية ، وتختلف هـذه الآلات باختلاف الفرق ، فـــآلات درقاوة مثلا هى آلات الموسيقى الاندلسية وأن قل اعتمادهم عليها ، والقاسميون يعتمدون على الطبلة ، اما عيساوة واحمادشة فـعلـى النفير والغيطة والطبل والدعدوع •

وتعتبر القصيدة الزجلية من اهم الوان هذا الغناء يطرب لها العامـة والخاصة من الناس ، يقوم انشادها على نوبات الموسيقى الاندلسية وميازينها• وعلى الرغم من أنه لم تتهيأ لنا دراسة موسيقية من شأنها ان تتيح لـنـا تناول هذا الجانب الفنى عن دراية وادراك ، فقد ارتأينا ـ تكميلا لمختلف أطراف الموضوع ـ أن نشير فى استعراض سريع الـى هذه الميازين وتلك النوبات ، تسعفنا فى ذلك بعض المصادر (1) التى عنيت بتسجيلها وبعض

---

1) وهى : 1) مجموع يضم قصائد وموشحات فى المديح النبوى مرتب على نوبات فى الانشاد جمعه احمد بـن محمد العربـى احضرى المراكشى (مخطوطة خاصة بالكاتب)

2) كتاب «الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب» لابى عبد الله محمد بن الطيب العلمى ت سنة 1134 هـ لـدى ترجمة ابى عبد الله سيدى محمد البوعصامى (ط حجريـة غير مؤرخة) •

3) كتاب الحايك فى الموسيقى الاندلسية ، وهو مخـطـوط ، وكان اعتمادنا على مخطوطة الخزانة العباسية • وقد نشره فرناندو مارتينز ولكنه اقتصر على ايراد كلام الحايك فـى التعريف بالنوبات وترجمته دون ايراد النصوص :

El concionero de AL-HA'IK : Fernando Valderrama Martinez Instituto General Franco de estudios E investigation hispano-Arabe Tetuan 1954

4) منظومة قصيرة للحوات مخطوطـة بالمكتبة الملكية رقـمـهـا 4229 ، اولها :

وها أنا رتبتها منظمة نظم لآل فـى سلوك محكمة

5) منظومة لعبد الواحد الونشريسى اولها :

المعلومات التى اخذناها من المتخصصين فى هذا اللون من الموسيقى بالمغرب·

اما **النوبات** فاحدى عشرة ، هى :

1) **رمل المایة** : ذكر الحايك عن احد طبوعه (1) وهو الحسين ، انه يستعمل «فى جميع الاوقات ونغمته الذ النغمات والحانه اطيب الالحان» (2)

2) **الاصبهان** : ويقال «ويقال ان ملائكة الرحمن يسبحون بهذه النغمة ، ونغمته حادة رقيقة حلوة» (3) ويقال كذلك ان مرددات المتسولين قائمة عليها وأن باب الجنة يطرق بنغمتها لملاءمة رقتها للتذلل والرجاء والاستعطاف

3) **المایة** : قال عنها الحايك «انها تجلب النوم» (4) وتنذر بالفراق ، لذلك فهى غالبا ما تؤدى فى العشايا والامسيات · ويقال ان السلطان الحسن الاول كان يتشاءم منها ويدعو الى عزف نوبة العشاق بدلا منها ، واشتهر ذلك حتى قيل فى المثل : «اعكس لقضيا افلعشيا» ·

4) **رصد الذيل** : وقد شاع عن رجال الفن انه «اذا طال الليل فعليك برصد الذيل» وهى قولة تدل على ان هذه النوبة تساعد على السهر وما يقتضى

طبائع مافى عالم الكون اربع ففى مثلها اضرب للطبوع مجملا
وهى واردة فى : أ ــ مخطوط بالمكتبة الوطنيه بمدريد رقمه 5307
ب ــ كتاب الحايك مخطوط الخزانة العباسية ص 12 ــ 13
ج ــ مجموعة احضرى ص 20 (بترتيب مختلف للابيات منسوبة للامام الوجدى ، ولعله خطأ فى انتساخ اسم عبد الواحد)

1) لكل نوبة مجموعة من الطبوع · يقول الحايك : «ان الطبوع فى هذا الزمان بهذا المغرب الاقصى اربعة وعشرون طبعا ويزاد طبع الصيكة وهى من اعذب مايكون ، ولكل تواشى وأغنية وطبوع كثيرة ... منها الجركة والرهاوى والراست والروكة ... وطبوع كثيرة يطول ذكرها وتنتهى الى ثلاثمائة وستين كما وقفنا عليه فى غير ما تأليف» (ص 52 من **El Concionero de AL-H'AIK**) وفى رأى بعض المعتنين أن الطبوع تبلغ ستة وستين وثلاثمائة على عدد ايام السنة الشمسية بما فى ذلك السنة الكبيسة ·

2) المصدر السابق ص 85

3) المصدر السابق ص 92

4) المصدر السابق ص 99

من صبر وتحمل لفراق الاحبة .

5) **الاستهلال** : ويعتبر مما أضافه المغاربة الى الموسيقى الاندلسية على عهد دولة السعديين ، وهو عند الحايك «من الطبوع المجهولين ويقال ان الذى استخرجه هو رجل يسمى بالحاج علال البطلة فى اوائل ايام مولانا السلطان الاعظم أمير المومنين عبد الله محمد بن الشيخ الشريف الحسنى ... استخرجه لمدينة فاس» (1) ويقال فى سبب تسميته انه كان يستهل به

6) **الرصد** : يقال انه يوحى بالدلال والعناد ، وانه «رقيق النغمات حلو الالحان» (2)

7) **غريبة الحسين** : وهى نوبة حزينة يقال ان مستخرجها سلطان اسمه الحسين كانت لـه جارية «تسمى بالغريبة لانفرادها عن أهلها وأوطانها وكان السلطان مغرما بها فلذلك سميت **بغريبة الحسين** ، ولها من الاوقات طلوع الفجر ، وهذا الطبع نغماته وألحانه تؤثر فى قلوب السامعين الرأفة والحنان وسكبان عبر المقل» (3)

8) **الحجاز الكبير** : ويعرف بـ «الحجاز» يوحى بالعمق والسمو

9) **الحجاز المشرقى** : ويعرف بـ «المشرقى» قال عنه الحايك انه «يستعمل فى سائر الاوقات وانغامه حلوة رقيقة مفرحة» (4) وقال عنه احضرى : «فيه تفريح لسامعه لانه يزيل الغم ويسلى عن المصيبة» (5)

10) **عراق العجم** : ذكر الحايك ان مستخرجه صيكة بن تميم العراقى وانه «رقيق النغمات حلو الالحان وله تأثيرات فى نفوس المستمعين ويدخل للقلوب الفرح والسرور ويجلى عنها الهموم ... ويكسب الفضل للنفوس والشرف ويقوى عزمها على الخير والعفاف ، وما من انسان كريم الشيم سمعت نفسه نغماته الا طربت اعضاؤه ورشحت انامله» (6)

---

1) المصدر السابق ص 111
2) المصدر السابق 117
3) المصدر السابق ص 124 – 125
4) المصدر السابق ص 138
5) صفحة 24
6) صفحة 144

11) **العشاق** : قال عنه احضرى : «نغمته حلوة لذيذة وله من الاوقات من ابتداء الصبح الى الزوال» (1)

واما الميازين التى تؤدى عليها كل نوبة فخمسة ، هى:

1 ــ البسيط ·

2 ــ القائم ونصف ·

3 ــ البطايحى ·

4 ــ القدام ·

5 ــ الدرج ·

وتكاد اغلب القصائد تؤدى فى الدرج ، وهو ميزان لايوجد فى غير الموسيقى المغربية ، اذ لا اثر له فى «المألوف» و «الغرناطى» وهما الاسمان اللذان يطلقان على الموسيقى الاندلسية التى انتقلت الى تونس والجزائر · ويؤكد اكثر المختصين انه من اضافات المغاربة لهذه الموسيقى ، وقد ذكر احضرى فى مجموعه انه تفرع من «البطايحى» (2)

وتصاحب انشاد قصائد الزجل آلات يطلق عليها «لماعن» او «لمواعن» (3) نجد ذكر بعضها عند الشعراء على حد مايقول المدغرى فى «الساحى» :

ماهزك توشيح * والبستان القيح

والعيدان اتصيح * والرباب اللى نايح

ويقول فى «الصبوحى» :

شف العود والقانون والجناح اجنك (4) آمنجا واسنتر احداها

وارباب امع الآلى ايجاوبو بنغايم لوتار

شف الآلى موسيقتو شهات اعلى حسن انغايمو فى ميزان احضاها

واكمل اصبوحنا اعلى الرضا ماغزلو حرار

ويقول فى «الكاس» :

---

1) صفحة 24

2) صفحة 12

3) أصلها المواعين ج ماعون ·

4) لم تعد هاتان الآلتان تستعملان (الجنك والجناح) ولم نوفق الى التعرف اليهما ، وقد بدالنا من سؤال بعض المختصين انهما

كب الخمر الكافح * اصاحي واتراوح * بالتعريجا واكباح

ويقول الرجراجى فى «الساقى» مشيرا الى بعض الطبوع :

شف القانون امع الرباب شف الجنك الجناح

وانظر للكمنجا او شوف العود ارجيح

ينغم بالموال والرصد والسانو مصلوح

شف اصبهان امع الحسين والمايا فى تنقاح

شف العشق الصافى الزم العفا باش اتريح

والتوفيق من الكريم نعم الحى الصبوح

وقد تقل الآلات او تكثر حسب الاجواق ، لكنها لاتخرج عن نطاق الآلات المستعملة فى معظم الوان الموسيقى المغربية وهى :

اولا : آلات النفخ :

1 — النيرة او الليرة : وهى نوع من الناى ، تصنع من القصب المجوف وتكون مفتوحة من الطرفين وبها ثقب يتراوح عددها بين خمسة وسبعة ·

2 — الغيطة : وهى نوع من المزمار تتخذ من الخشب ، تبدأ ضيقة فى طرفها الاعلى ثم تأخذ فى الاتساع حتى طرفها الاسفل · تثبت فى فمها قطعة مدورة من العاج او العظم بها فتحة منها يكون النفخ · ويكون بها فى الغالب سبع ثقب ستة من فوق متساوية الابعاد وواحدة فى الاسفل · وهى شبيهة بالمزامير المصرية التى تتخذ احجاما مختلفة وتسمى :

أ) المزمار البلدى وهو اطولها ·

ب) المزمار الصعيدى : متوسط ·

ج) السبس : وهو اصغرها ·

3 — النفير : وهو فى شكله كالغيطة الا انه طويل ومصنوع من معدن

آلتان وتريتان شبيهتان بالهارب Harpe والليـر Lyre الغربيتين ، وبالسمسمية التى تستعمل فى بور سعيد ، والطنبورة المعروفة فى نوبة مصر ، وهما من معروضات متحف مركز الفنون الشعبية بالقاهرة ، وقد أفدنا من هذه المعروضات فى المقارنة بين الآلات المغربية والمصرية ·

النحاس فى الغالب ، وتؤدى به النغمات الغليظة العميقة ٠

ثانيا : الآلات الوترية ، وهى نوعان :

1 ـ مايستخرج نغمها بواسطة القوس ، وهى :

أ) الرباب الفاسى : وهو عبارة عن صندوق خشبى من كتلة واحدة تغطيه قطعة جلد ماعز ويكون فى طرفه الاعلى مشط معوج يشد اليه وتران غليظان يمران وسط الصندوق ، ويثبت فى طرفه الاعلى مفتاح لشد الوترين يتخذ شكل زاوية ٠

ب) الرباب السوسى : وهو عبارة عن دائرة خشبية تغطيها من الجهتين قطعة مثقوبة من جلد الماعز ، ويمر فى وسط الجلد الاعلى مشط ثبت فى طرفه مفتاح لشد الوتر وهو وتر واحد مصنوع من شعر الخيل ، اما القوس فقضيب من خشب معوج بعض الشىء يشد طرفيه وتر من نفس النوع ٠

ج) الكمان او الكمنجة : وهى آلة معروفة ٠

2 ـ مايستخرج نغمها بالنقر والنبر (1) وهى :

أ) العود : وهو معروف ٠

ب) القانون : وهو معروف كذلك ٠

ج) الماندولينة : وهى اصغر من العود وليس لها جوف كبير ، وتكاد تكون اشبه الآلات بالقيتارة الغربية فى رقة نغمها وحدته الا ان جوفها صغير ومستدير ٠

د) الكمبرى : وهو عبارة عن قيتارة بجوف خشبى صغير مغطى بقطعة جلد ماعز مثقوب تشد اليه ذراع طويلة بها مفتاح لشد الاوتار ، وهى لاتزيد عن اثنين او ثلاثة ٠ وذكر هذه الآلة وارد عند ابن بطوطة فى رحلته (2) وعند والدنا حفظه الله ان الكمبرى نوعان : «هجهوج يحتوى اوتارا ثلاثة ، وسويسد ويحتوى وترين ، واللفظة بربرية الاصل ، جوفها من خشب كغالب الآلات واحيانا تتخذ من ظهور السلحفاة ٠ والذى يظهر انها

---

1) قد يكون النقر والنبر بالمضراب او مايطلق عليه : الصدعة والوترة والريشة ، وقد يكون بالاصابع وهو مايسمى بالحس ٠

2) ج 2 ص 190 وج 4 ص 106 ط باريز حيث ذكر القنابر ٠

آلةمغربية ، وبواسطتها والدس على اوتارها يبتدىء المتعلمون دراسة الفن»(1)

ومن انواع الكمبرى كذلك «السنيتر» وقد وجدنا ذكره عند العلمى فى «الانيس المطرب» حيث قال : «وأما الآلات التى اتخذت للغناء فكثيرة منها العود وهو اشهرها والرباب والشبابة والجناح والسنطير وغير ذلك مما هو شهير» (2) ٠

ثالثا : الآلات الايقاعية ، وهى الآلات التى تعرف بالصدمية :

أ) البندير : وهو عبارة عن دائرة من الخشب شدت عليها قطعة من جلد الماعز غير مدبوغة يمر فى وسطها قطريا ومن الداخل بعض الاوتار عددها اثنان فى الغالب ، تزيد الصدى حدة حين الضرب ٠ وبالاطار الخشبى ثقبة يدخل منها الضارب ابهامه حتى يتمكن من مسك الآلة ٠ ويكون الضرب باليد اليمنى على وسط البندير او على اطرافه مما يعطى نغمتين احداهما رقيقة حادة والثانية غليظة عميقة ٠ ويطلق على البندير فى المدن اسم الطارة وغالبا مايكون اطارها أعرض ٠ وتجدر الاشارة الى ان هذه الآلة تعرف فى مصر بنفس الاسماء حيث يطلق عليها البندير والطارة ٠

ب) الدف : وهو عبارة عن مربع صغير مغلق بجلد من الجهتين ، ولعله قريب من الآلة الطبلية التى كانت معروفة عند العرب بالمربع ٠

ج) الطر : وهو بندير صغير توجد فى اطاره ثقب بها ازواج من الصنوج المعدنية الرقيقة تضيف الى النغم صدى وحدة وزخرفة ، وهو المعروف فى مصر بالمزهر والرق والدف ٠

د) الطبل : وهو معروف ويطلق عليه فى مصر الطبل البلدى ٠ وتجدر الاشارة الى انه يضرب عليه بقضيبين احدهما غليظ ومعوج الرأس يسمى «الساهلا» والثانى رقيق ويسمى «الربيب» ٠

هـ) الطبلة او الطبيلة : وهى عبارة عن نقارتين او طبلين صغيرين ومن حجم مختلف ، يتخذان من الطين الناضج ، تغطيهما قطعة جلد يوقع عليها بقضيبين رقيقين ، وهى أشبه بالنقاقير فى مصر ، الا ان هذه تتخذ

1) من مادة «الآلة» (الموسيقى) التى كتب لموسوعة المغرب العربى التى يشرف عليها المكتب الدائم للتعريب فى الرباط ٠

2) ص : 138

من معدن النحاس فى الغالب وتكون منفصلة ٠

و) التعريجة : ويطلق عليها فى لهجة اهل الرباط «لكوال» وهى الآلة المعروفة فى مصر بالطبلة وغالبا ماتوضع فوق الركبة او فى راحة اليد ويضرب عليها بالوسطى والسبابة ، وتعتبر اهم آلة يضبط عليها منشد الزجل الايقاع ٠

ولعل اصل تسمية «لكوال» : «القوال» او «الجوال» وهما افتراضان يدلان على أهمية الدور الذى كانت تؤديه هذه الآلة فى مصاحبة المنشد ٠ ومن انواعها :

1 — الدربوكة : وهى معروفة ٠

2 — الهرازى : ويطلق عليه فى لهجة اهل الرباط «الدعدوع» وهو عبارة عن تعريجة كبيرة توضع فوق الكتف ويضرب عليها بكلتا اليدين ٠

ز) الهندقة : وتعرف فى مصر بالصاجات وهى عبارة عن زوجين من الصنوج تثبت فى الابهام والوسطى من كلتا اليدين ، وغالبا ماتتخذ من المعدن لانه يقوى النغم ويحليه ، وقد تتخذ كذلك من الخشب او العظم ٠

بهذه الآلات وعلى تلك الانغام **يؤدى المنشد القصيدة** ، والعادة الا يكون الناظم ، ويطلق عليه «شيخ النشاد» و «الحفاظ» (1) وقالوا فى امثالهم : «السجاى تيولد والحفاظ تيربى» يقصدون ان الزجال ينشىء ولا يستطيع ان ينشد ويحتاج فى ذلك الى الراوى الذى يروج له قصائده ٠

---

1) من أشهر المنشدين المعاصرين المرحوم المعطى لحسوك من مراكش والمرحوم محمد بوزوبع والتهامى الهروشى وهما من فاس ٠ وقد ذكرنا اسماء غير قليل منهم فى فهرس القصائد المنشدة بآخر الدليل الملحق بالرسالة ٠ وتجدر الاشارة الى ان كثيرا من الشيخات اشتهرن بحفظ الزجل وانشاده نذكر منهن : فطومة الشرقاوية ومريم الشاوية وسلطانة الاسلامية (كانت يهودية وأسلمت) وهن من فاس ، والحجوية وملكة وزهور الضخامة والحاجة زينب والجامعية وفطومة الرباطية وهشومة بزغانو والسعدية الوزانية وبلارة وابريكة ومشطونة وطاطا الغالية التى يقال انها كانت مقربة للسلطان المولى عبد الحفيظ ، والحاجة بنت العنبر وهن من الرباط ٠ ويبدو انهن فى الاصل من فاس وهاجرن الى الرباط بعد ان اوقفهن الباشا البغدادى عن العمل فى فاس ٠

والمنشد لايحفظ القصيدة ونغمات الحانها الا سماعا ، او «بالدمغى» كما يقولون ، وحتى لايقترف فى الميزان كسرا او «تركيكا» على حد اصطلاحهم فانه يستمع الى اللحن ويردده ليستأنس به وتألفه اذنه حتى «ايطيب الميزان» اى يطبخه ان صح التعبير ·

ومن براعة المنشد ان «ايركب» اى ان يتسلم الغناء من منشد سابق عليه بقصيدة اخرى يؤديها على نفس الميزان الذى ادى عليه هذا المنشد · ومن براعته كذلك ان «ايفجج» اى يستعرض نغمات وطبوعا مختلفة فى القصيدة الواحدة ، وهى عملية اطلقوا عليها «لبدال» ومنه مايقدم به بعض المنشدين قصيدة «المزيان» التى يقول التلمى فى حربتها (1) :

حن واشفق واعطف برضاك يالمزيان * لاسماحا ميعاد الله يالهاجر

فانهم يبدأونها على طبع الاستهلال ثم ينتقلون الى رمل الماية فالحجاز فالصيكة ·

وقالوا عن المنشد الذى لايستطيع ذلك انه يغنى «اعلى جنب واحد» وهو دليل على قصر باعه · ومع هذا ففى رأى المنشدين أن بعض القصائد لاتحتمل تغيير الميزان ، او على الاصح جرت العادة بعدم تغييره فيها ، ويذكرون منها :

1 ـ «خال وشاما» للمدغرى وحربتها :

اللايم لاش اتلوم رح سالم دعنى كف لملام ماحجت امن اغرامى
بين خال وشاما

فانها لاتؤدى الا على عراق العجم ·

2 ـ ومثلها قصيدة «الكناوى» للمدغرى كذلك ، وأولها :

معظم ذاك اليوم فاش صدوا ناسى وامشاوا
تركونى نواح فالرسام اضميرى كاوى
يحسن عون اللى امشاوا ناسو من بعد اكوا

ويقولون ان بعض المنشدين حاول اداء هذه القصيدة على ميزان رمل

---

1) الحربة اللازمة (انظر الجزء الخاص ببناء القصيدة من فصل «العروض») ·

المابة ولكنه افسدها ٠

3 ـ قصيدة «الهاجر» التى يقول العلمى فى حربتها :

آش اعملت اسلطان مهجتى حتى سلمت افخلطتى واضحيت من ساحتى اجفيل
راقب فيا وجه الله عف ياهاجر لوكر مسجونك سرحو اتفوز بحسانه

فانها لاتنشد الا على الحجاز المشرقى ٠

4 ـ قصيدة «التوبة» لابن سليمان ، وحربتها :

يـــاراسى لاتشـــقـــى * التاعب لابد من لفراق
لاتـــامـــن فـــالـــدنيا * ابـــنـــاســـهـــا غـــــرارا

فانها لاتنشد الا على عراق العجم ٠

5 ـ قصيدة «خناثة» للحبابى ، وحربتها :

عـــشـــقـــى فـــخـــنـــاثـــا * ياترا فالعاهـــد والـــقـــول ثابتا
من تاهت بجمالها احياتى * راحت روحى الصايلا عل لبدر بنعوت

فانها لاتنشد الا على الصيكة والحجاز ٠

ومن قصر باع المنشد ان يؤدى الميزان «امصور» اى غير متقن لاتنسجم نغماته مع طبقة صوتـه ومـع كلمات القصيدة ولايتجاوب معه الجمـهـور والعازفون . والتجاوب عندهم دليل الاتقان ، ويقولون عن الميزان الـــذى يؤدى فى انسجام انه «انفق» ٠

والعادة ان يبدأ المنشد البارع باحدى هذه المقدمات :

1 ـ **السرابة** (1) وهى قطعة قصيرة تؤدى على غير ماتؤدى بـــه القصيدة ، وهى اربعة انواع :

أ) **المزلوك** : وتنشد رقيقة حادة ٠

ب) **الكباحى** : يصاحبها ضرب قوى متواصل بالكـف ، وتكاد اغلب السرارب اليوم تكون من هذا النوع ٠

ج) **الحضارى** : تنشد فى استرسال سريع ٠

د) **السماوى** : يستهل انشادها ببطء كالموال ثم يأخذ صوت المنشد فى العلو والارتفاع كأنه يصعد بها الى السماء ٠ ويطلـق على هـذا النوع

1) سنتحدث عنها فى الجزء الثانى من فصل «العروض» لدى الحديث عن بناء القصيدة ٠

«السرارب الحسناويين» . ويقال ان اشياخ فاس كانوا مشهورين بانشاده

2 ـ **الموال** : والغالب ان يكون فى لغة معربة ، ومن الامثلة عليه قول الشاعر (1)

ومن عجب انى احن اليهم * واسأل شوقا عنهم وهم معى

وتشتاقهم عينى وهم فى سوادها * ويطلبهم قلبى وهم بين اضلعى

وقد يكون فى لغة ملحونة كقولهم (2) :

تانحبك ونهواك * وفى امسبتك ايكرهونى

ماراحتى حتى نلقاك * وعليك يتحلوا عيونى

3 ـ **التمويلة** : ويقولون ان لكل قصيدة تمويلة تكون على قالبها وميزانها ، ويذكرون منها :

أ) تمويلة قصيدة «التوبة» لابن سليمان ، وقد تقدمت حربتها ، وتنشد على ميزان عراق العجم :

آمالى يامالى أسيدى ياسيدى

للا ياموالاتى للا

أمالى مصبرنى

اغرايبى لامونى

ب) تمويلة لقصيدة «المرسم» لابن على وتنشد على الصيكة :

أنا يامالى للا ياموالاتى للا ادوى

حيانا واجا ايلاكى قاولت ابلمجى اوجيتنا يالغزال

وهذه حربة القصيدة :

أنا والمرسم ياحمام ثالثنا فالزهو انت

---

1) ذكرهما العمرى فى «مسالك الابصار وممالك الامصار» منسوبين لابى الصفا خليل الصفدى . (الورقة 59 ظهر من مخطوط جامعة اسطنبول رقم 4355 A Y) حيث اورد الشطر الثانى على هذا النحو :

واسأل شوقا من آتى وهم معى

2) انظر الموال كنوع من أنواع الزجل فى الجزء الثانى من الفصل الاول من باب «الشكل» .

المرسم يبكى اعلى الشماعا وانت تبكى اعلى النثا ونا على **لغـزال**

وبنفس التمويلة يقدم كذلك لقصيدة «خناثة» للحبابى ، وقد سبق ذكر حربتها •

والاسف أن هذه المقدمات فى طريق الضياع بسبب جهل المنشدين لها نتيجة قلة تداولها •

وتجدر الاشارة الى ان قصائد مكسور الجناح والسوسى ـ باستثناء الحراز ـ يستهل انشادها بمثل هذه العبارات : «قال يانا سـيـدى» و «وهو ياسيدى» ويطلقون عليها «الدخول» • ومن الامثلة على ذلك قصيدة «ام الغيث» للحاج ادريس لحنش ، وحربتها :

قولـوا للاغيثا مـولاتـــى * رف بوصالك عل لعشيق يام الغيث

فان انشادها يبدأ على هذا النحو :

قال ياناسيدى عمدا على لعشيق الكاوى كيفى ابنار لبنات

مهما اتقول نارو بردت واطفات

حين ينظر زين الخودات

كيراها زندت واكدات

ومنها كذلك قصيدة «القاضى» التى يقول المدغرى فى حربتها :

اقاضى قصا اجرات لى معناها * ماجـرات الحد افناس لغرام

ولـفـى لـك ادعـانـى

فان انشادها يبدأ هكذا :

وهو ياسيدى قصا اجرات لى نحكيها الهل لغرام

بينى وبين بوخال اكحل لرماق

قصتى فيها مـاينسـاق

للرخاخ اضماير لمساق

نـاس لشـواق

وقريب من هاتين العبارتين عبارات اخرى تسمى عندهم **«التشحيرة»** و **«الترتيحة»** يضبط بها ايقاع الميزان او «يشد» و «يقبض» كما يقولون ، وغالبا ماتؤديها المجموعة او من يطلق عليهم «الشدادا» وكـأن المنشـد

يحس بنقص فى الميزان وعدم انسجام الكلمات معه فيعوض بهذه العبارات، علما بأنه يلجأ الى اطالة مقاطع بعض الكلمات ومدها حسب احتياجه للنغم، وهـى عملية لاشعورية تقترب مما يسمى بـ «الكم» فى العروض العربى ، على حد مايبدو من بحر الطويل حيث تحذف نون فعولن الثانية وتصبـح فعول ولكن المنشد يمد اللام تعويضا لسكون النون المحذوف . ومن الامثلة عليها :

1 ـ **ياسيدنا** : ونجد الشيخ عمر شد بها بين اشطار قصيدته فـى «مولاى بوبكر» على حد مايبدو من الحربة التى يقول فيها :

تاك اليقبال والسرور اسلوانـــى * يـاسيدنـا * بخلافت عـالـى لقدر
نجل الملك طلعت البدر السانـــى * يـاسيدنـا * سيدى مـولاى بـوبكر

2 ـ **اسيدنا سيدنا** : على حد ماعند التهامى المدغرى فى سرابته التى يقول فى أولها :

داك اللايمنى فعشق ولفى والحال الهالك	اسيدنا سيدنا
ماذا وعظت فيك ماكفيت امـن اعتابـك	أسيدنا سيدنا
انصحتك افلحديـث مآردتى لـى سالك	اسيدنا سيدنا
واليوم ابلاك ربنا شف اخدود اغزالـك	اسيدنا سيدنا

3 ـ **ياللا ياللا** : وقد جعلها المدغرى بـيـن اشطار أبيات قصيدتـه «عشية الجمعا» كما يبدو من حربتها التى تقول :

أنا اعشيت الجمعآ شاب اشبابى	ياللا ياللا
هـلـكتـنـى عـزبـا وشـابـا	ياللا ياللا
مـن شاهـدهم يسخا بشدبابـو	ياللا ياللا

4 ـ **دادامى اللا اهيالا** : وهى تشحيرة «طامو» للمدغرى ، وتـردد بعد حربتها التى يقول فيها :

جيش لغرام ياطامو مانقدر اعلى الطامو
دادامى اللا اهيالا

ومن الشد ان يلتزم الشاعر كلمة أو أكثر فى البيت تبدو فى سياقها كأنها من صميم الموضوع وصلبه ، وهـى قد تتغير فـى كل الابيات وقـد

لاتتغير ، من ذلك :

1 ـ قصيدة بوعبيد الشرقى فانه التزم فيها كلمة «الفقى» فى أول البيت ووسطه ، يقول فى أول أبياتها :

الفقى جيت لـك تنظر شوقـــى — الـفـقـى

مـن خـاطـرى ابغيت انسالـك

ألفقى افتى لى نـعـرف ذوقـك — الـفـقـى

الخـمـر واش عـنـدك سالـك

ألفقى الخمر فى اشرابو عشقـى — الـفـقـى

نـبـغـى انحـلـلـو بمقـالـك

ألفـقـى لحضرت لـمدام اترقـى — الـفـقـى

افـتـى امـن احسان اكمالـــك

ويقول فى حربتها :

ألفقى لـوشيفت اعـويشا تسقـى — الـفـقـى

والـكـاس مـن يدهـا يحلالـك

2 ـ قصيدة «صارم الطعن» للشاوى وحربتها :

آش را من لاجرد صارم الطعن ❀ ويركب اسفون لحروب وايعيط دانى

هـا جنـا هـنـا — ويكون ادراعـو ابـحـال السانـو

فان القصيدة من البحر الثلاثى ، ولكنه اضاف اليها بين الشطريـن الثانى والثالث عبارة يتوهم منها أن القصيدة رباعية ، فـى حين أن هـذه العبارة لايقصد منها غير قبض الميزان حيث كان يمكن ان يقول بـدلا مـن «ها جنا هنا» : «أسيدنا» وبلغت براعة الشاوى حدا انه فعل ذلك فى كل الابيات وبعبارات مختلفة على حد مايبدو فى دخول القصيدة حيث يقول :

آش را من لابات امساهر الجفن ❀ والفكرا جايـلا افزاخر لـمـعـانـــى

بالمفاتـنـا — باش ايسود اعلى لـوشا فازمانـو

آش را من لابحث افجهد مـامكن ❀ واعمل مايرتضى القاصى والـدانـى

والفراعـنـا — يـقـطـع زى ازعيـطـا بـوزانـو

آش را من لالهل الطايـــلا اركن ❀ واترك فزوايت لهمل هل لضغانـــى

والمراكـــنـــا   واعـــمـــل هـــل لعلوم مـــن رفقانـــو

آش را من لاصحب الثابت الدهن ❀ يسلك بـــه الطريـــق جهر اكتمانـــى

وقتما بـــنـــا   يـــبـــنـــى بنيانوا عـــلـــى يتقانـــــو

آش را من لاله اشياخ افلوطـــن ❀ واروى منها اكـــمـــا اروينا بعلانـــى

من اشياخنا   اقلـــيـــل الطاعـــــا امـــزدرى شانـــو

والعادة ان ينشد آخر القصيدة ـ وخاصة اذا كان ادريدكة ـ (1) سريعا وقويا على طريقة الكباحى التى تكون عليها السرابة ·

والجدير بالملاحظة ان **بعض القصائد لاتنشد وتغنى وانما تتلى وتسرد** ولايكون ذلك الا فى القصائد الطويلة من امثال «هول القيامة» لعبد العزيز المغراوى التى حربتها :

لسم الله المعين افلسطار   يهدينى منهاج لقوام

وقصيدة «الذرة» لابن على وحربتها :

يالساهى من نومك فق سبح الرب   لمتا وانت تايه افلغرور لـــــواب

الصلاة والسلام اعلى اخيار لنسب   سيدنا محمد طـــه اشفيع لعراب

وقصيدة «الجمهور» لعبد القادر العلمى وأولها :

يامن يشفى اضرار عبدو بعد السقم   ويفرح من اقوات فالصدر احـــــزانو

والغالب ان تتم «السرادة» فـــى زاويـــة او مسجد او «لمســـيـــد» كما يقولون (2) وفى مناسبات دينية وخاصة ذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ·

وللسرادة مثل الانشاد أسلوب معين وانغام خاصة تختلف من قصيدة لاخرى ، وتقتضى التركيز على بعض المقاطع والضغط على حـــروف القافية واطالة اواخر الكلمات بعثا للتأثير فى نفس السامعين ·

ونلفت النظر الى احدى قصائد «السرادة» فريدة من نوعها فى البناء جمعت أقسامها بين أبيات معربة وأخرى ملحونة ، وهى القصيدة «الفياشية»

---

1) انظرها فى الجزء الخاص ببناء القصيدة فى الفصل الثالث مـــن باب «الشكل» ·

2) المسيد هو الاسم الذى يطلق على الكتاب القرآنى ، ولعل اصله المسجد ·

التى تنسب للشرقى والتى حربتها :

أنا مالى فياش　　　　واش اعليا منـى

فقدق دم لكل قسم منها ببيتين معربين على حد مايبدو فى القسم الثانى منها حيث يقول :

يقول لما شاء كن فيكـون　　　ويبـدىء سبحانـه ويعيـد

ويحكـم فـى خلقه مـايشـا　　　ويفعـل فـى ملكه مـايـريـد

فـى ظـلـمـة الارحـام　　　صـورنـى مـن نطـفـا

وابـدانـى بـالانـعـام　　　نعما مـن كـل صـفـا

واخـلـق لـى مـا واطعام　　　وانـعـايـم مختـلـفـا

وكما انفردت هذه القصيدة فى بنائها فكذلـك انفردت فى طريـقـة تـلاوتها ، حيث يسرد البيتان على غير طريقة سرد بقية ابيات القسم ، وتكاد تكون تلاوتهما مجرد قراءة خالية من كل لحن على عكس بقية الابيات٠

ونظن فى غير قليل من الميل للترجيح أن هذا الاسلوب السردى اثـر باق من الطريقة التى كان يؤدى بها الزجل فى مراحله الاولى ، وقبـل ان يغنى به ، نقصد من ذلك الى القول بأن تلحين قصائد الزجل واستخدامها فى الغناء تم فى مرحلة متأخـرة لعلها بـدأت فى الربع الثانى من القرن العاشر ، حين حكم الاشياخ على قصائد بوعمرو الغزلية ان تنحى من ميدان السرد فى المجالس العامـة ، عقابا على نظمه فـى المـرأة ٠ وسنـرى (1) أن هذه القصائد انتقلت الى مجالس خاصة كان جمهورها النساء والشباب، وأن الشاعر اضطر الى مسايرة جمهوره الجديد فأخذ ينظم له قصائد غنائية خفيفة ، لعلها كانت السبب فى تحويل انظار الزجالين الى اتخاذ قصائدهم للغناء ٠ وفى هذا العصر سنصادف عند الحاج اعمارة — وهو متأخر فـى الوفاة عن بوعمرو — بيتا يدعو فيه راوى شعره الى التغنى به دون خشية من خصومه ، يقول فى آخر قصيدة «فاطمة» :

ياراوى لبيات عنى　　　　غنى اوصول لاتخشى من عديانـى

وللحاج اعمارة قصيدة فى رثاء بوعمرو يصفه فى احد ابياتها أنه خير

---

1) فى الفصل الثانى من باب (الاعلام) لدى الحديث عن بوعمرو ٠

من غنى وشدا بالشعر وهو قوله :

النبيل الفد النشاد   سيد من غنى او اشدا

بل انا سنرى (1) ان الزجل المغربى حتى بداية الربع الثانى من القرن التاسع لم يكن يخضع لنظام معين فى الوزن والقافية ، وهما حجرا الاساس لتلحين اى كلام . وسنجد عند عبد الله بن احساين — وهو أول من سبق للاوزان فى الزجل (2) — رفضا لنوع من الشعر لم يكن يخضع للوزن يبدو من تسميته أنه كان يعتمد على القص والحكاية ، وهو «كان حتى كان»

يقول ابن احساين فى أول بيت من أول قصيدة موزونة :

نبدا لسم الله انظامى ياللى ابغى لوزان

لوزان خير لى انايامن قول كان حتى كان

ويزيد فى تأكيد هذا الرأى أن القصائد تغنى على انغام الموسيقى الاندلسية كما بينا ، ونحن لانستطيع القول بأن انتقال هذه الانغام الى المغرب تم قبل انهيار الاندلس وهجرة مسلميها الى بلاد الشمال الافريقى ، بل انا لانجد قبل الحايك — وكان يعيش فى القرن الثانى عشر للهجرة — من عنى بهذه الموسيقى وجمع شتاتها من ميازين ونصوص . ولسنا نزعم ان الغناء بالزجل تأخر حتى هذا القرن ، فميازين تلك الموسيقى كانت معروفة لاشك قبل ان يجمعها الحايك ، ولكنا لانعرف ان كانت تلاحين قصائد بوعمرو ومعاصريه قائمة على هذه الميازين ام انها كانت لها نغمات خاصة . و الاسف اننا لانستطيع معرفة اللحن الذى بدأ به غناء الزجل ، كما أننا لانستطيع معرفة الاسلوب الذى كانت تؤدى به القصائد قبل اتخاذها للغناء ، وان كنا لانشك فى ان «السرادة» اثر لهذا الاسلوب . والسبب ان الزجل الذى وصلنا ملفوظا لايسير على غير ميازين الموسيقى الاندلسية .

مهما يكن فان القصيدة الزجلية غدت غناء شعبيا يطرب له الجميع ، والسر فى ذلك انها جمعت امرين :

---

1) فى الفصل الاول من باب (الاعلام) .

2) حسب ما وصلنا اليه فى البحث .

1 — كلمات يفهمها العوام والخواص من الناس .

2 — الحان قائمة على ميازين الموسيقى الاندلسية ، وهى أغنى وأعذب ألوان الموسيقى فى المغرب .

من هنا كان جمهور الزجال أوسع من جمهور الشاعر المثقف الذى ينظم لطبقة معينة هى طبقة المتعلمين المتقنين للغة المعربة ، ومن هنا كذلك كان الزجال يحاول ان يرضى هذه الطبقة الخاصة فيقتبس من لغتها غير قليل من المفردات والتراكيب ، ويضمن قصائده ألوانا من البلاغة وفنية الاسلوب (1) . وليس هذا فحسب بل انه كان يحاول أن يقدم لها معلومات تاريخية او فقهية ، لاشك انه — وهو أمى فى الغالب — كان يتعب فى جمع مادتها بالسؤال والبحث ومجالسة العلماء وحضور دروسهم .

وسنرى حين نتعرض فى الموضوعات للقصائد التى تناولت السيرة النبوية (2) مثلا ان الزجال كان يبذل جهدا غير يسير فى عرض جوانب من هذه السيرة تجعل المثقفين لايرضون عن تلك الازجال فحسب ، وانما يقبلون عليها ويفتحون لها آذانهم وقلوبهم وبيوتهم كذلك .

ويزيد فى الدلالة على هذا الجهد مايلجأ اليه بعض الزجالين من استعرض أسماء بعض الكتب والمؤلفين ، ومن خير الامثلة على ذلك هذه الابيات من آخر قسم فى قصيدة «الجدول» للحاج الصديق المسفيوى ، وهى قصيدة شبيهة بـ «الحراز» أخبرته فيها حبيبته بواسطة وصيفتها انها محرزة بسبعة عفاريت ولن يستطيع الوصول اليها اذا لم يهزمهم ، فعزم على مواجهة هؤلاء العفاريت ودرس علم الجدول وما يتصل به من علوم يمكن ان تفيده فى الوصول الى مفاتيح النصر . يقول :

حلا انشيتها ياراوى

للعاشقين واللى هاوى

فتراجم اللباقا واعقل والميز والرشادا

صنعت الدهرى افقير

---

1) انظر الفصل الثانى من باب «الشكل»

2) انظر الفصل الرابع من باب «الموضوعات» .

قارى علم التوحيد اعلى لشياخ ارويتو

واقريت الالفيا والمواق (1) الشهير

وابن عاشر واقريت الرسالا (2)

والخزرجى اوكيد (3)

وابن عطاء الله والسمرقندى واعلوم لكتوب (4)

والدمياطى وامشاكل الزناتى

والسريانى اعلى اوفاه انحقو (5)

وابن سيرين والموطا وكذاك افلبلاغا ندرى سيدى خليل (6)

والبخارى وامعاه دعوت البسملا (7)

واكمل بالرضى مقصودى

واظفرت بالسعادا

على أنا لانريد ان ننفى عن الزجال غاية اخرى من هذا الجهد ، غير ارضاء المثقفين ، كان يقصد بها الى افادة العوام وتنوير فكرهم وفتح ذهنهم وعيونهم على جنبات من عالم الخواص ، وهم فى الغالب — وعلى الرغم من عاميتهم وأميتهم — على جانب غير يسير من الثقافة ، وخاصة منها

---

1) الفية محمد بن مالك الجيانى (ت سنة 672 هـ) فى النحو • اما المواق فهو احد شراح مختصر خليل فى الفقه •

2) عبد الواحد بن عاشر صاحب المنظومة المشهورة فى الفقه والتوحيد • والمقصود بالرسالة رسالة ابى زيد القيروانى فى الفقه كذلك •

3) ضياء الدين الخزرجى السبتى صاحب المنظومة «الخزرجية» فى العروض ، وتعرف فى المشرق بـ «الرامزة» •

4) يقصد ابن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم «والسمرقندى» المشهور فى علم البيان •

5) الدمياطى والزناتى والسريانى اسماء مشهورة فى علم الجدول وسر الحرف •

6) محمد بن سيرين المشهور فى الرؤيا وتعبيرها ، وصاحب «منتخب الكلام فى تفسير الاحلام» ، اما الموطا فهو كتاب الامام مالك ت سنة 178 هـ ، ولعله من الغريب ان يذكر علم البلاغة ويعتمد على مختصر خليل ، وهو كتاب فى الفقه ، ومانظنه الا يقصد الى مهارته فى فهم بلاغة هذا المختصر وحل رموزه ومعمياته •

7) الامام البخارى صاحب الصحيح المشهور •

ماتحتم معرفته ضروريات الدين ·

ولعلنا ان نضيف غاية أخرى لامجال لاغفالها هى وليدة المنافسة التى كانت بين الزجالين ومحاولة اظهار تفوق بعضهم على بعض ، وهو جانب يؤكده لنا الصراع الذى كان ينشب فيما بينهم والذى سنعرض له لدى الحديث عن فن الهجاء (1) ·

ولم يكن الزجال يحاول ارضاء المثقفين فحسب ، وانما كان يحاول كذلك ارضاء الحكام والامراء والملوك يسعى الى قصورهم يمتعهم ويؤنسهم بقصائده ، وهى ظاهرة اضطرته الى ان يبتعد عن واقع مستوى الشعب ، مصورا حياة القصور تارة ومحلقا بخياله تارة اخرى (2) ولاجئا الى الرمز والتلميح والاشارة تارة ثالثة ·

ومن المتوقع عندنا ان مثل هذا الجمهور الواسع المتباين فى مستوى حياته وتفكيره قد يدفع البعض الى الطعن فى شعبية الزجل المغربى اوالشك فيها على اقل تقدير ·

ومن المتوقع عندنا كذلك أن تكون ظاهرة تدوين بعض قصائد هذا الزجل ذريعة لكى يتخذ آخرون مثل هذا الموقف من شعبيته ، معتبرين وجوب التداول الشفوى فى كل ادب شعبى ·

ومن المتوقع عندنا بعد هذا ان معرفة أسماء منشىء هذا الزجل قد تدعو غير هؤلاء وأولئك الى اتخاذ نفس الموقف من شعبيته ، لان تلك المعرفة — فى رأيهم — تنفى عنه الجماعية التى تعتبر السمة البارزة لكل أدب شعبى والتى تقتضى أن يكون مؤلف هذا الادب مجهولا ·

ولسنا ننكر ان كل هذه ظواهر واضحة فى الزجل المغربى لامجال لتجاهلها أو اغفالها ، ولكنا لانرى فيها مايبعده عن الشعر والغناء الشعبيين فليس فرضا على أى عمل ليكون شعبيا أن يظل محصورا فى نطاق طبقة العوام الاميين ، ولعله من التحجير على الفنان الشعبى أن نحبسه فى هذا النطاق ولانبيح له أن يربط علاقات وصلات بطبقات اخرى راقية ،

---

1) الجزء الثالث من فصل «مع الناس» ·

2) انظر فصل «المرأة» والجزء الاول من فصل «مع الحياة» ·

وأن يتسرب اليها بفنه ويؤثر عليها ويتأثر بها فـي محاولة لاكتساب بعض الجديد مما لاعهد له به في بيئته • بـل انا نذهـب الى أبعد من ذلـك في النظر الى هذه الظاهرة بما فيها من رغبة للاقتباس والتنويع ، وفـي خلط غير منظم ولامدروس ، فنعتبرها دليلا مؤكدا لشعبية هذا اللون من الشعر• ثم ان المؤلف الشعبي يعبر عن واقع مجتمعه ، ولكن لامناص له من النظر الى عمل غيره والاستفادة منه وتقليد اشكاله وموضوعاته ، وخـاصة تلك التي حظيت عند الجماعة بالقبول وغدت انماطا ينسج عليها ، وقد يسرف في ذلك فيغدو عمله مجرد نقل وتقليد • وهو كفنان لامناص لـه كذلك من تحكيم تجربته والاستنتاج منها ، وهي كلها اشياء قد تبعده قليلا او كثيرا عن الواقع •

ومانظن تدوين بعض نصوص هذا الشعر يؤثر على شعبيته طالما أن الجماهير توارثته عبر القرون والاجيال وتداولته عن طريق الرواية الشفوية، لم تلجأ في ذلك الى ماهو مكتوب • ولايساورنا أدنى شك في أن الذيـن قاموا بتسجيل نصوص من الزجل في كنانيش هم من غير طبقات العوام•، وأنهم فعلوا ذلك اعجابا بهذا الزجل او تلبية لرغبة الكبراء والحكام •

اما معرفة منشيء الزجل فلانـرى فيها مايتنافـى والجماعية ، فليست الجماعية ان يجهل الفرد وتهدر الجماعة حقوق انتاجه وتمتص فنه وابداعه فيه ، وانما الجماعية أن تتبنى الجماعة انتاج الفرد الذى يستطيع ببراعته وعبقريته ان يقنعها به ، فتتقبله وتعجب به ، وترتضيه وتتداوله وتـذيعه وتحافظ عليه ، طالما ان هذا الانتاج الفردى يلائم ذوقها ، وطالما انه لايصبح له كيان مالم توافق عليه (1) •

---

1) لعلنا ان نشير الى ان انتشار الطباعة اليوم سيؤثر على وسائل تداول هذا الشعر ، وسيحافظ على اسم صاحبه وحقه في الانتاج ، لاسيما ونطاق محو الامية آخذ في الاتساع •

البـاب الاول

الشكـــل

الفصل الاول

مفهوم الزجل وانواعه

أولا : مفهوم الزجل

اذا رجعنا الى النصوص القديمة نحاول البحث فيها عن ورود كلمة «الزجل» فانا نجدها متعملة منذ العهود الاولى للعربية . حقا اننا لانعثر لها على ذكر في القرآن الكريم ، ولكننا نصادفها واردة في الحديث النبوى الشريف. يقول ابن كثير في تفسيره لدى اول حديثه عن سورة الانعام: «... قال شريك عن ليث عن شهر عن اسماء قالت نزلت سورة الانعام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد طبقوا مابين السماء والارض ... وقال ابوبكر بن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا ابراهيم بن درستويه الفارسي حدثنا ابوبكر بن احمد بن محمد ابن سالم حدثنا ابن أبى فديك حدثنا عمر بن طلحة الرقاشى عن نافع بن مالك بن أبى سهيل عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نزلت سورة الانعام معها موكب من الملائكة سد مابين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والارض بهم ترتج» . ورسول الله يقول : «سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم» ثم روى ابن مردويه عن الطبرانى عن ابراهيم بن نائلة عن اسماعيل بن عمر عن يوسف بن عطية بن عوف عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نزلت على سورة الانعام جملة واحدة وشيعها سبعون الفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد» (1) ويقول ابن الاثير : «زجل (هـ بـه فيه) انه اخذ الحربة لابى بن خلف فزجله بها أى رماه بها فقتله ، ومنه حديث عبد الله ابن سلام : فأخذ بيدى فزجل بى اى رمانى ودفع بى (ن ، وفى حديث

---

1) تفسير القرآن العظيم لاسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت سنة 774 الجزء الثانى صفحة 122 الطبعة الثالثة مطبعة الاستقامة القاهرة 1956 - 1375

الملائكة) لهم زجل بالتسبيح اى صوت رفيع عال» (1)

كذلك نجد الكلمة واردة فى الشعر الجاهلى ، يقول الاعشى :

تسمع للحلى وسواسا اذا انصرفت   كما استعان بريح عشرق زجل

أى ريح مصوتة ٠

ويستعرض الزبيدى فى «تاج العروس» معانى كلمة الزجل فيقول :

«... (والزجل محركة اللعب والجلبة و) خص به (التطريب) وانشد سيبويه

له زجل كأنه صوت حاد   اذا طلب الوسيقة او زمير

(و) الزجل ايضا (رفع الصوت) وللملائكة زجل بالتسبيح والتهليل اى صوت رفيع عال وقد (زجل كفرح) زجلا (فهو زجل وزاجل) وربما اوقع الزاجل على الغناء ٠ قال : وهو يغنيها غناء زاجلا (ونبت زجل صوت) كذا في النسخ والصواب صوتت (فيه الريح) ٠٠٠ والزجل محركة نوع من الشعر معروف محدث ٠٠٠» (2)

ومثل هذا نجده فى كتب الادب على حد ما نقرأ فى «العاطل الحالى والمرخص الغالى» حيث يقول صفى الدين الحلى : «والزجل فى اللغة الصوت، يقال سحاب زجل اذا كان فيه الرعد ، ويقال لصوت الاحجار والحديد ايضا والجماد زجل ٠ قال الشاعر :

مررت على وادى شيات فراعنى ❀ به زجل الاحجار تحت المعاول

تسلمها عبل الذراع كأنما ❀ جنى الدهر فيما بينهم حرب وائل

فقلت له شلت يمينك خلها ❀ لمدكر او مخبر او مسائل

منازل قوم اذكرتنا حديثهم ❀ ولم أر احلى من حديث المنازل» 3

ويحاول الحلى أن يجد تعليلا للربط بين الاستعمال اللغوى والاستعمال الاصطلاحى فيضيف : «وانما سمى هذا الفن زجلا لانه لايلتذ به ويفهم

---

1) النهاية فى غريب الحديث والاثر للمبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن الاثير الجزء الثانى صفحة 122

2) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدى مادة زجل الجزء السابع ص 355

3) مخطوط مكتبة بايزيد باسطمبول رقم 5542 الورقة 17 ظهر

مقاطع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى به ويصوت فيزول اللبس بذلك» (1)

وليس من شك في ان بداية استعمال كلمة الزجل فى معناها الاصطلاحى مرتبطة بظهور هذا الفن ٠ واذا رجعنا الـى مختلـف المصادر الـتـى عنيت بالاشارة الى نشأته فاننا نجدها تكاد تجمع على أن الذى اخترعه هو ابـن قزمان ٠ وليست تهمنا فى الواقع معرفة اسم السابق الى نظمه بقدر مـا يهمنا أن نعرف كيفية انتقال اللفظ الى الاستعمال الاصطلاحى الادبـى ـ هنا يعرض احمد الرباط فى كتاب «العقيدة الادبية فى السبعة فنون المعنوية» حكاية تقول « ان أول من تناشد به الشيخ أبوبكر بن قزمان المغربى ، وقيل لما انه كان فى الكتاب وكان مراهق السن ، فدخل على شيخه الفقيه غلام جميل الصورة حسن الـوجـه حلو الجانب فنده عليه ابـن قزمان وأجلسه بجواره ثم صار يحييه بالسلام ويوادده بالحديث فبص الفقيه ففهم وعرف مافى ضمير ابى بكر مـن الحب للغلام فعبس الفقيه فـى وجه أبـى بكـر وأمر الـى العريف بضربه ، فضرب العريف ابن قزمان فلما فرغ العريف من ضربه اخذ أبوبكر لوحه ومسك القلم وقد كتب هذا الوزن ، وهو أول اوزان الزجل :

المـلاح أولاد امـاره ✻ والـوحـاش اولاد نصـاره

وابن قزمان جـا يغفر ✻ ماقـيـل لـه الشيخ غـفـارة

فأحس الفقيه على ابى بكر فأخذ اللوح من يده فرأى فيه ماتقدم ذكره، فقال الفقيه :

«هجيتنا يابن قزمان بكلام مزجول يعني مقطع ، فسموه زجلا» (2) ٠

---

1) مخطوط مكتبة بايزيد باسطمبول رقم 5542 الـورقـة 17 ظهر و 18 وجه ٠ ونفس الكلام نقرأه فى «بلوغ الامل فى فن الزجل» صفحة 68 مخطوطة الزيتونة رقم 4467 ٠ ونقرأه كذلك فى «تاريخ خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر» لمحمد المحبى لدى ترجمة ابى بكر بـن منصور بن على العمرى الدمشقى المتوفى سنة ثمان واربعين والـف حيث تعرض للفنون السبعة المستحدثة ومنها الـزجـل (الجزء الاول 108 ـ 109 ـ 110 المطبعة الوهبية بمصر سنة 1284) ٠

2) مخطوط اسعاد افندى (السليمانية ـ اسطنبول) رقم 2867 الورقة 6 ظهر 7 وجـه

ولكنا نجد استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى يرى انـــه استعمل قبل ابن قزمان وفى نوع من الشعر الشعبى غير الزجل ، يقول : «ولعل لفظ الزجل كان فى الاصل يطلق على النوع الشعبى ثـم أطلق على النوع الشبيه بالتوشيح لفظ (هزل) ثم اختلط اللفظان فيما بـعـد (1)» ويعتمد فى ذلك على نص ينقله من كتاب «جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس» منسوخ سنة 1046 اى قبل وفاة ابن قزمان بما يقـرب من قـرن كامل ، جاء فيه : «لايجوز للقلارقين ان يحضروا الملاهى والزجل فـــى العرائس والمشارب بل يجب عليهم الانقلاب قبل دخول تلك الاطراب والازفان والتنحى عنهم» (2) ويعلق على هذا النص بقوله : «وهذا نص فيما نعتقد عظيم الاهمية ، وقيمته ليست فى أن الزجل كان موجودا قبل ابـن قزمان فحسب بل انه كان شعبيا له مكانة فى العرائس بين الموسيـقـى والرقص والاغانى» (3) ٠

ومن لطيف ما يستأنس به فى البحث عن أصل التسمية ماذكـر لنا احد المعتنين من أن لها صلة بسيدى «زجل» صاحب الضريح المعروف فى شمال المغرب ٠ وقد وجدنا له ذكرا عند سليمان الحوات فـى «ثمرة انسى فى التعريف بنفسى» حيث قال عنه : «... سيدى زجل دفين بومنار مـــن القبيلة التى تنسب اليه (بنى زجل) وقد قدم على المغرب مع موسى بـــن نصير سنة تسعين من الهجرة فى خلافة الوليد بن عبد الملـك واسمه محمد ولقبه زجل وكان خيرا عالما شاعرا ...» (4)

ومع هذا فان المغاربة لايطلقون الزجـل فى الغالـب على غير النوع الاندلسى المعروف ، أما شعرهم الشعبى فيطلقون عليه أسماء أخرى أهمها «الملحون» ٠ فهذا سيدى ابراهيم التادلى فى «فتح الانوار فى بيان مايعين على مدح النبى المختار» يقول : «واعلم ان المديـح النبوى يكون بـالاشعار

---

1) الزجل فى الاندلس صفحة 59
2) مخطوط المكتبة الاهلية فى مدريد رقم 4879 ورقـة 333 وجـه ٠ ويشرح القلارقين بأنهم Clérigos اى رجال الكنيسة
3) الزجل فى الاندلس صفحة : 59
4) من مخطوطة خاصة للاستاذ سعيد اعراب — اللوحة الرابعة ٠

الموزونة ذات البحور الخمسة عشر ... ويزاد ما اخذ من هذه البحور كمخلع البسيط ومجزو الرمل ومشطور الرمل ومشطور الكامل . ويكون أيضا من الازجال والموشحات وكذا الملحون كالقصائد والبراول لكن الملحون منه ما يوافق الاوزان الخمسة عشر المتقدمة ومنه ما يخالفها ...» (1)

ونجد التفرقة بين النوعين الاندلسى والمغربى واضحة عند اصحاب الموسيقى الاندلسية الذين يفرقون فى الاشعار التى تنشد فى هذه الموسيقى بين الازجال ، يقصدون بها الشعر الاندلسى المعروف بهذا الاسم ، وبين البراول (2) ، وهى اشعار عامية مغربية تنشد فى بعض ميازين هذه الموسيقى .

لهذا قد يلاحظ علينا فى اتخاذ اسم «الزجل فى المغرب» عنوانا لرسالة تبحث فى لون من الشعر الشعبى المغربى ، طالما أن المغاربة لايطلقون «الزجل» على شعرهم الشعبى ، وطالما انهم لايقصدون من هذه التسمية غير النوع الذى عرف فى الاندلس . ولكننا نرد على مثل هذه الملاحظة بما يلى من نقاط :

اولا : على الرغم من أن لفظ الزجل شاع اسما للفن الشعرى الذى سبق اليه الاندلسيون ، مجردا من الاعراب متعدد القوافى متجدد الاوزان ، فانا لانشك فى أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل ماكانوا ينظمون باللغة العامية . وقد سبق أن ذكرنا ما ذهب اليه استاذنا الجليل الدكتور الاهوانى من أن الزجل كان فى الاصل يطلق على النوع الشعبى وان الهزل كان يطلق على النوع الشبيه بالتوشيح . ونجد الحلى ينسب التعميم لغير الاندلسيين حين يقول معقبا على ذكر الموشح والزجل والمزنم والمكفر : «وباقى البلاد لايعتبرون هذا الفرق بل يسمون كل ما اعرب موشحا وكل ماخلا من الاعراب زجلا وما اشترك فيه الاعراب واللحن مزنما فى أى فن قصد الناظم» (3) . بل اننا نجد احمد الرباط يذهب الى «ان الشعر هو أصل كل فن معرب وأن الزجل هو أصل كل فن ملحون» (4) . كذلك نجد الحلى

1) مخطوط خزانة الرباط العامة رقم 3285 D صفحة 27 — 28 .
2) سنعود اليها فى الجزء الثانى من هذا الفصل كنوع من أنواع الزجل.
3) العاطل الحالى الورقة 19 وجه 4) العقيدة الادبية الورقة 18 ظهر .

يعتبر من الزجل شعرا عاميا لايسير على نظام الزجل المعروف ، ويعتبر نظم هذا الشعر مرحلة سابقة على نظم الزجل ، فهو يقول : «وأول ما نظموا الازجال جعلوها قصائد مقصدة وأبياتا مجردة على عروض العرب بقافية واحدة كالقريض لايغايره بغير اللحن واللفظ العامي وسموها القصائد الزجلية ...» (1) ثم ذكر ان لمدغليس في ديوانه ثلاث عشرة قصيدة من هذا النوع أشار الى مطالعها (2) ، ومنها قوله :

مضى عنى من نحبو وودع ✻ ولهيب الشوق فى قلبى قد اودع

ثانيا : اطلق بعض المغاربة لفظ الزجل للدلالة على ماينظمون من شعر بالعامية ، فعند الشاعر الشعبى سعيد التلمساني فى احدى قصائده متحدثا عن نفسه :

اذا كنت زجال فيها كيف تريد (3)

وعند زجال آخر اسمه على يهجو ويفخر (4) :

انكمل زجلى ولى فالزجول ✻ انكمل زجلى

قولوا للعكلى يترك لفضول ✻ قولوا للعكلى

والاديب على ايفوق فى لغزول ✻ والاديب على

وفى «نشر المثانى» لابى عبد الله محمد بن الطيب بن عبد السلام القادرى لدى ترجمة الشيخ ابى عبد الله محمد بنمبارك الزعرى دفين تاسوت: «وخاطبه سيدى محمد الشرقى :

ياساكن ارض البوادى ✻ لاتتعداشى الموارد

اصحب هداة الطريقا ✻ تحصل له كل الفوائد

فأجابه صاحب الترجمة بقوله :

تالله ما كان هذا ✻ الا من مجدوب سالك

---

1) العاطل الحالى الورقة 22 وجه .

2) المصدر السابق من الورقة 22 حتى 25 . ويبدو ان الحلى خلط بين الزجل والشعر الملحون الذى كان معروفا فى الاندلس والذى سنعرض له بعد سطور .

3) مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 1644 صفحة 70 .

4) من مجموع مخطوط بالمكتبة الوطنية فى مدريد غير مرتب رقمه 5307 .

يسقى خمر الرجالا ☼ مملوك من الحق مالك» (1)

ثم قال بعد ذلك : «وماجلبه من قوله : يالساكن الخ ... هو زجل فى وزن المجتث» (2) . وعند ابن عسكر فى «الدوحة» لدى ترجمة محمد بن يحيى البهلولى (3) ان «له زجليات» (4) . ويقول محمد الكانونى فى «جواهر الكمال فى تراجم الرجال» فى ترجمة احمد بن على الغنيمى : «له قصائد ملحونة (ازجال)» (5) .

ويقول ابن زيدان فى ترجمة عبد القادر العلمى (6) : «ومما ينسب للمترجم من الازجال هو له حقيقة» (7) .

ثالثا : يبدو أن المغاربة على الرغم من ميلهم للتمييز بين الفنون ، وقعوا فى خلط بينها وتصور ان لم يكن خاطئا فهو على الاقل غير واضح . يقول التادلى فى «فتح الانوار» متحدثا عن أركان السماع واولها الشعر : «ان الكلام الذى يتكلم به الانسان من حيث هو اما معرب او ملحون ، وكل منهما اما منظوم او منثور ، لكن جرى فى الاصطلاح ان الموزون يطلق على النظم المعرب والملحون يطلق على النظم غير المعرب ... والملحون هو موشحات وبراول وقصدان» (8) . حيث جعل الموشح لونا من الوان الشعر الملحون (9) . كذلك نجد القادرى فى «نشر المثانى» فى تعليقه على الابيات

---

1) الجزء الاول صفحة 47 طبعة فاس . وانظر المساجلة كذلك فى «ممتع الاسماع» صفحة 128 — 129 لدى ترجمة محمد بن مبارك الزعرى.
2) المصدر السابق .
3) سنعود اليه فى الفصل الثانى من باب «الاعلام» . 4) ص 46 .
5) ص 26 وسنعود اليه فى الفصل الثالث من باب «الاعلام» لدى ترجمة المدغرى .
6) سنترجم له فى الفصل الثالث من باب «الاعلام» .
7) اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ج 5 ص 340 .
8) صفحة 4 — 5 — 7 .
9) مع اعتبارنا ان هذا خلط نشير الى ان الموشح الملحون عرف فى اليمن على حد مايذهب صاحب «سلافة العصر» من ان لاهل اليمن نظما يسمونه الموشح غير موشح اهل المغرب ، والفرق بينهما ان موشح اهل المغرب يراعى فيه الاعراب بخلاف موشح اهل اليمن فانه لايراعى فيه شىء من الاعراب بل اللحن فيه اعذب وحكمه فى ذلك حكم الزجل . صفحة (243) .

السابقة يذهب الى ان الزجل كلام معرب وملحون حيث يقول : «هو زجل في وزن المجتث على طريقة الازجال من كونها ملفقة من الكلام الملحون والمعرب» (1) ٠

رابعا : لم يطلق المغاربة تسمية معينة على شعرهم الشعبي وانما اطلقوا عليه تسميات كثيرة سنستعرضها ونمثل لها بعد قليل ٠

خامسا : قد تكون لتسمية الملحون الغالبة على الشعر الشعبى المغربى وما يوحى به الشبه بينها وبين تسمية الملحون التى تطلق على القصائد التى كانت تنظم فى الاندلس خالية من الاعراب ، مايدعو الى الظن بأن الشعر الشعبى المغربى ربما كان امتدادا لهذا اللون من القصائد وبالتالى امتدادا للتسمية ٠ ولكنا حين ننظر فى الشعر الملحون الاندلسى والشعر الملحون المغربى ، نقيسهما بالزجل فى الاندلس ، نجد الملحون المغربى فى تعدد اوزانه وتنوع قوافيه وعدم خضوعه لبحور الخليل اقرب الى الزجل منه الى الملحون الاندلسى الذى التزم شكل القصيدة المعربة لم يختلف عنهاالا فى ابتعاده عن الاعراب ٠ فعند ابن سعيد متحدثا عن احد الشعراء بعد ان اورد له زجلا قال : «وله شعر ملحون على طريقة العامة منه :

صحبتي والعنق لمليح لمخلخل ✻ حبى منك ثابت ودينى مخلخل
وعلام بعت دينى ابحبك ✻ لو عطيت مرغوبى فيك لس اتسال
فلقد عندك حلاوى لى منوع ✻ وجمالا طوع الامر يخذل» (2)

سادسا : ليس من شك فى أن اسم الزجل غدا فى العصر الحديث وفى معظم البلاد العربية يطلق على كل ألوان الشعر التى تنظم باللهجات العامية المحلية ؛ على الرغم من بعد هذهالالوان شكلا ومضمونا عنالزجل الاندلسيالذى لميعد ينظم،وليس منشك كذلك فى أنالناطقين بالعربية فى البيئات المختلفة يحسون الفوارق اللغوية التى تحول دون توحيد السنتهم ، وان حماة هذه اللغة يسعون جاهدين الى هذا التوحيد وخاصة فى مجال المصطلحات

---

1) الجزء الاول صفحة 47 ـ 48 ٠
2) الجزء الثانى من المغرب صفحة 222 ومثل هذا الشعر هو الذى اطلق عليه الحلى «القصائد الزجلية» (انظر العاطل الحالى الورقة 22 وجه)

ونحن نرى فى هذا خطوة بعيدة نحو توحيد الرؤية والتفكير والتعليم فضلا عن محو فوارق التفاهم والتعبير ، ونرى كذلك ان دراسة الاشعار العامية بصفة خاصة واللهجات العربية المحلية بصفة عامة هى السبيل الموصل الى الوحدة اللغوية المنشودة ٠

لذا ، واعتمادا على هذه التعليلات ، فانا نفضل اطلاق «الزجل» على كل أنواع الشعر الشعبى المغربى ، وندعو الى هذه التسمية بدلا من أية تسمية اخرى تطلق عليه مهما بلغت من الذيوع والانتشار ٠ ويشجعنا على ذلك اننا لازلنا فى المرحلة الاولى للبحث عن التراث واستخراجه وتنظيمه ووضع معاييره وتحديد مصطلحاته ثم دراسته والتعريف به ، وهى مرحلة اشبه ماتكون بمرحلة وضع الحجر الاساسى لاى بنيان ٠ واذا كنا نقول هذا بالنسبة للتراث عامة ، فانا نلح عليه بالنسبة للتراث الشعبى خاصة ، لاسيما فى بلد كالمغرب لايعنى فيه بهذا اللون من التراث ، بل لانبالغ اذا قلنا انه لايعترف به مادة جديرة بالدرس والبحث او أى مظهر من مظاهر الرعاية والاهتمام ، وهو موقف يكاد يتساوى فيه العامة والخاصة من الناس

اما الاسماء التى يعرف بها هذا الشعر فى المغرب ، سواء عند الجمهور أو عند الاشياخ منشئين ومنشدين فهى :

اولا : الملحون :

يقول بوعمرو فى آخر القسم الثالث من قصيدة له فى الاخلاق والطباع :

ملحونا اقنادل تضوى فالداج ماخطا سرداق

والناس رايدا تطفى نور اقنادلو افكل اغسيق

ويقول حسون وتير من ابيات يعرض فيها ببوعمرو :

مليت امن السجيا ولى فيها العار والشنار

واغضب اعلى الشعر الملحون اللى ناظمو فاضها

ويقول المصمودى فى آخر قصيدة «الجار» :

إنا حر افقلب كل اكريه ازنجار

لوينظم بالذهب انا لو عيار

بالميزان الرجيح نـعـرف غايت ملحونى

ويقول المدغـرى :

فالملـحـون اعليه لـنـظـار

واعلى اللفاظ والمعنى حق انظارو

نعنـى جـوهـر تـاج خنار

بها عـل لـعـوارم تفخر خنارو

ويقول عبد الرحمن بن لفقيه فى آخر قصيدة «للاحسنا» :

خـذ الـحـافظ اتـراجمنا

من اصميم لفكر عبد الرحمان بالميازن

خترعها فى اتـراجم الملحون

ولعلنا ، قبل الانتقال الى الالفاظ الاخرى التى اطلقت على هذا الشعر أن نقف قليلا عند اصل التسمية بالملحون • والحقيقة أنا فى محاولة التعليل أمام افتراضين مصدرهما معنيان مـن معانى اللـحـن ، هما الغناء والخطأ النحوىوقد استبعد الاستاذ محمد الفاسى ان تكون التمسية مشتقة من اللحن بالمعنى الثانى حين قال : «والحقيقة ان لفظة الملحون هنا مشتقة من اللحـن بمعنى الغناء لان الفرق الاساسى بيـنـه وبين الشعر العربـى الفصيـح أن الملحون ينظم قبل كل شيء لكى يغنى به» (1) وقال كذلك : «اول مايتبادر للذهن انه شعر بلغة لااعراب فيها فكأنه كلام فيه لـحـن ، وهذا الاشتقاق باطل من وجوه لاننا لانقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون ولـم يرد هـذا التعبير عند أحد من الكتاب القدماء لا بالمشرق ولا بالمغرب • والـــذى أراه أنهم اشتقوا هذا اللفظ من التلحين بمعنى التنغيم لان الاصل فى هذا الشعر الملحون أن ينظم ليتغنى به قبل كل شيء • ونجد مايؤيد هذا النظر من قول ابن خلدون فى المقدمة فى الفصل الخمسين فى أشعـار الـعـرب وأهـل الامصار لهذا العهد بعد ان تكلم على الشعر باللغة العامية فقال : وربـمـا يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية» (2) • ونحن

1) مقال : «نظرة عن الادب الشعبى بالمـغـرب» ـ مجلة البينة ـ السنة الاولى العدد الرابع غشت 1962 •

2) مقال : «الادب الشعبى المغربى الملحون» ـ مجلة البحث العلمى ـ العدد الاول السنة الاولى (يناير ـ ابريل 1964) •

يرى على العكس من هذا ان التسمية اشتقت من اللحن بمعنى الخطأ النحوى ونعلل لذلك مناقشين رأى الاستاذ الفاسى من وجهات ثلاث :

الاولى : ان هذا الشعر لم يكن ينظم اول الامر ليغنى به وان اتخاذه للغناء تم فى مرحلة تالية ، وقد فصلنا فى ذلك القول فى المدخل .

الثانية : اننا حقا لانقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون لان الفصاحة قد تكون فى الملحون ، وغير الملحون ، كما سنتعرض لذلك فى الفصل الثانى من هذا الباب . وقد جانب الاستاذ الفاسى الصواب حين استعمل كلمة «فصيح» ليقابل بها كلمة «ملحون» ومانظنه يجهل ان الذى يقابل الشعر الملحون هو الشعر المعرب وليس الفصيح .

اما ثالث هذه الوجهات فهى ان استعمال هاتين التسميتين : المعرب والملحون متعارف عليه عند كل الذين تعرضوا للونين من الشعر . فابن سعيد يقول متحدثا عن بعض الشعراء : «وله شعر ملحون على طريقة العامة» (1) ، والحلى يتحدث عن الفنون المستحدثة فيقول «وهى الفنون التى اعرابها لحن وفصاحتها لكن وقوة لفظها وهن ، حلال الاعراب بها حرام وصحة اللفظ بها سقام» (2) ويقول : «... وبعض البلاد لايعتبرون هذا الفرق بل يسمون كل ماعرب موشحا وكل ماخلا من الاعراب زجلا وما اشترك فيه الاعراب واللحن مزنما فى أى فن قصد الناظم» (3) ثم يقول : «ثم تداوله العامة ومن لاأنس له بالقواعد ومن عجز عن الاعراب حتى صاروا ينظمونه ملحونا» (4) ، بل اننا نجد الشعراء انفسهم يستعملون الاصطلاحين على حد مايقول ابن مقاتل فى نهاية احد ازجاله :

كم خصم فى المقاتل ❋ صابوا بن مقاتل ❋ وكم ذا فى المحافل
قد انشأ غصن حافل ❋ من حل بيت فى مربع ❋ ملحون بألف معرب (5)

---

1) الجزء الثانى من المغرب – ص 222 .
2) العاطل الحالى – الورقة 15 ظهر .
3) المصدر السابق – الورقة 18 ظهر .
4) المصدر السابق . (5) روض الآداب لاحمد بن الحجازى مخطوط آيا صوفيا (السليمانية – اسطنبول) رقم 4017 الورقة 101 ظهر .

اكثر من هذا ان المغاربة استعملوا الملحون فى مقابل المعرب على حد ما نقرأ عند التادلى فى «فتح الانوار» حيث يقول : «والملحون يطلق على النظم غير المعرب» (1) ·

اما استدلال الاستاذ الفاسى بكلام ابن خلدون فمطعون فيه من ثلاثة وجوه :

اولها : ان كلام ابن خلدون لايقصد به الشعر العامى المغربى ، فهو يقول : «فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الاعاريض على ماكان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات .. فأهل امصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات ... وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى وربما يلحنون فيه الحانا بسيطة» (2) ·

ثانيها إن ابن خلدون لم يذهب الى ان اللحن الموسيقى والغناء من خصائص هذا الشعر ومميزاته اللازمة له ، وانما ذهب الى أنه قد يتخذ للغناء فى بعض الاحيان ، وهذا مايفهم من استعماله «وربما» ·

ثالثها : ان ابن خلدون حين تحدث عن «عروض البلد» الذى استحدثه أهل الامصار بالمغرب ونسجوا عليه فى أشعارهم الشعبية لفت النظر الى خلو هذه الاشعار من الاعراب ولم يشر الى أنها كانت تغنى ، ولو كانت كذلك لما أهمل مثل هذه الاشارة ، فقد قال : «فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه اصنافا» (3) ·

ثانيا : العلم الموهوب ، يقصدون انه هبة من الله مصدره الالهام :

يقول التلمسانى يرثى المغراوى :

بستان الزهر صاحب السر المكنون ❊ علم الموهوب ماتنهيه اقراطس (4)

ويفول المدغرى فى احدى قصائد «الساقى» :

---

1) صفحة : 5 ·
2) المقدمة صفحة 510 طبعة بولاق ·
3) المصدر السابق صفحة 530 ·
4) الكناش ك 1644 صفحة 31 مخطوط خزانة الرباط العامة ·

واسلام الله اعلى الشراف واعلى الطلبا ناس لحديث واعلى شراحو

واعلى من يتلى قول ربنا واقرأ بالترتيل

واعلى ناس الموهوب كافة واعلى من قصد النبى اوزار افمر كاحـــو

واعلى ملت لسلام كلها يبقى جيل افجيل

ويقول شاعر لعله احمد ابجوات فى آخر قصيدة «الحب احرك لـــى بجيوش» :

واسلامر بنا للشرفا والقاريين ※ واعلى اهـل العلم المـوهـوب

ثالثا : السجية :

يقول بوعمرو :

فامهامه انسجيا نغرس حرجات كلها روناق

بالنور والنواور والطيب والشــجـر لبسيق

والقلب فالسجيا قوتو وامعيشتو اعلى نسق

والفاهمين طـرز الغايا يدريو قولتى تحقيق

ويقول حسون وتير من ابيات يعرض فيها ببوعمرو :

مليت امن السجيا ولى فيها العار والشنار

ويقول الجيلالـى امتيرد فى آخر قسم من خلخاله :

ماضرت اعلى طلبا اولا مشى لى عمرو خلـخـال

غير ابديوان اشطارتى وعقلى واكمال اسجيتى وترتيب اشغالى

جـلـت فى هـذا الـحـلا ودرتها فـرجا للعقال

ويقول ابن على فى آخر قسم من محاورته :

بلطافا واسجيا جبت هذا القطعا بالفاظها ومعناهم

اذكى امن الزهر واحلا من سكر فقلوب اهل التسليم ولجحود اتجيهم زقوم

رابعا : لكلام ، يقصدون انه الكلام الحق الصادق ، وكأنهم باستعمال هــذه التسمية على صيغة التعريف المطلق لايعتبرون ماسواه من الكلام .

يقول المغراوى فى آخر قسم من قصيدة له فى الاشتياق لمكة المكرمة :

ماهوشى من والى اللى ايجيب لكلام

واعسى اللـى قاصر فـى اهـوى افنون الكذب

ويقول ابن على فى آخر الحجام :

وامشالى عند الناس يرحامو

يذكار فى ابساط الملوك اكلامنا ويروى القلب الملهوف

ويقول محمد بن على بن ريسون :

واللى يحفظ هاذ لكلام * ينجا من كل اعذاب

ويقول المدنى التركمانى فى دريدكة قصيدته فى «السولان» :

وانهيت لكلام افختم السولان

خامسا : النظم أو النظام :

يقول المغراوى فى «هول القيامة» :

نرجع لحديثنا المنظوم * فتمام امشاهد لقصيد

ويقول كذلك فى قصيدة الشوق لمكة المكرمة :

يامن يهجرنى هكذا انصيغ النظام * نعت الدر المنظوم فى اسلوك الذهب

ويقول المدغرى فى آخر قسم من الزهو :

خذ طرز اختيم العنوان

للرواسخ فيه اعلوم لكتوب لانقصانى

لازيادا نظم اترجمان

ويقول ابن على المسفيوى فى آخر «الموسول» :

يالحافظ نظمى بين لمحافل اتصول * كررو بلسانك بكرا مع لصلا

سادسا : الشعر :

يقول بوعمرو :

الشعر فيه اشفا لمريض ايلا افنا وزاد ارقاق

ايصيب فيه لونيس الناطق بالسكات والتحقيق

ويقول ابن على فى اول سولانه :

بسؤالى استفخر واتلق كل من ايعاتب

اللى ايعاتبك كنو عاتبنا * وغاتبك كنو غاتبنا * وهكذا فالشعر اكتبنا

ويقول فيه كذلك :

وانسال امن ادعاو اعلى علم الشعر ولمواهب

ويقول فى اول قسم من المحاورة :

افراجا مقصيا اكما اسمعت انعاود للسامعين ترضاهم

برجاحت لعقل وابلاغت لحبار جبت اخصام الخودات فى انهايت شعرى منظوم

سابعا : القريض :

يقول الحاج اعمارة فى آخر قسم من فاطمة :

يـاراوى لبيات عـــنـــى ✻ غنى اوصول لاتخشى مـــن عـديـانـى

انظامـى وقــريض وزنـــى ✻ شــلا ايطيق عـنـو مطمـوس اعدانـى

ويقول ابن عمر الكفيف فى حربة «الداعى» :

انـا زنجار فـى اعيون امـن ادعـا ✻ قـول لـلايـم الـوغـد الداعى

برضا ناس لقريض حزت اشجاعا وابراعا

ويقول احمد ابجيوات فى «عرصة الرضا» :

افلـمـواهب لقريـض ✻ ساسو طايـح لهلا اينوضـــو

ثامنا : لوزان : اى الاوزان

يقول العلمى فى آخر «المزيان» :

لو امدحت من لعجام ارديل فى لوزان ✻ ايعود ساخى مهما فقصايـد ينظر

ويقول كذلك فى ختام قصيدة «كآن اخلاكى هانى» :

واتـــهــــلا فـــوزانـــى ✻ واكتم ابياتها عـن هـل لعـقـول لخشان

ويقول ابن على المسفيوى فى نهاية «الورشان» :

والحاضريــــن رحموا ناظم لوزان ✻ فـى بابـكـم ديـمـا مسـؤول

تاسعا : اللغا : يقصدون الكلام ، وهى فى الاصل اللغة ٠

يقول امتيرد فى «ضيف الله» :

قـال افصيـح اللـغـا الحبر الجيلالـى ✻ لـفـقـت اجواهـر النظام

ويقول ابن على فى اول قسم من الشمعة :

يستغرب من لاتحدثو بخطابـك ✻ لغريم فاللغا يسطابـك

ويقول ابن سليمان فى آخر قسم من «خدوج» :

ولعبير اسلامى ✻ لاهل اللغا اعمامت هـامـى

والجاحدين تحت اقدامـى

ويقول ابن عمر الكفيف فى آخر «الداعى» :

ياحافظ اللغا اتواضع ✻ لاهل المعنى اتريع

بل اننا نجد عبد الله بن احساين فى أول قسم من قصيدة له فى مدح الرسول عليه السلام يستعرض ثلاث تسميات هى : اللوغ واللغا واللغوا ، فيقول :

مداح مادحو بلساني والشوق ليه من لكنان

والمادحو ابغب اكنانو يرضاه ما اعيا بلسان

اللوغ واللغا واللغوا بين اللها امع لسنان

والحب د الشفيع الشافع فالقلب او لدخال اتصان

وقد شرح لنا بعض الاشياخ هذه الاسماء فذهب الى ان المقصود باللوغ العربية الفصحى وباللغا العربية الدارجة وباللغوا اللهجة البربرية.

عاشرا : العلم الرقيق :

يقول المدغرى فى آخر قصيدته فى الخصام بين الزهور :

نهيت حلتى لارباب العلم الرقيق

الحادى عشر : لكريحة ، سموه كذلك لصدوره عن القريحة .

يقول محمد بن الوليد التنسيطى الدرعى فى حربة احدى قصائده :

ناديت بكريحتى اصوتى ✻ وارفعت اكفوفى الرب الملكوت وادعيت

اقلت فى ادعوتى ✻ يامن نجيت يونس افبطن الحوت

اما قبل الموت ومابعد الموت ياربى كن لى افموتى

ثــانيا : انواع الـزجـل

يقدم لنا عبد الرحمن الفاسى فى «الاقنوم فــى مبادىء العلوم» تحت عنوان «علم ميزان الملحون» (1) انواعا من هذا الفن يوصلها الى خمسة عشر ينظمها فى قوله :

علم بـأنـواع مــن الملحــون ✻ وردهــا لضابط المـــوزون

لــه مــن الاوزان خمسة عشر ✻ على الذى كثر فيه واشتهر

اولها الشرقى الكبير والثانــى ✻ شرقى صغير باختلاف الاوزان

والثالث الشرقى الذى قد طرزا ✻ من وزن ذاك العروبى بــرزا

والرابع الشرقى الصغير صاحب ✻ الــتــاء فيه زائــد يناســب

والخامس العواد والمرشــوق ✻ ثم المـزوج الــذى يلــيـق

وبعد البهلون (2) والمسناوى ✻ وبعده القفر كـذا العذراوى

وبــعــده الحورشــة العشارى ✻ ثم العروبى والقصيد الجارى

ولكنا باستثناء العروبى الذى سنتحدث عنه بعد سطــور ، وباستثناء القصيدة التى هى مدار هذه الرسالة ، لانعرف من هذه الانواع الا العذراوى، وهو من القطع التى تنشد فى الموسيقى الاندلسية ، وقد يــكــون مــوشحا او زجلا ٠

فمن التوشيح العذراوى مانجده ينشد فى صنعتى الــدرج والبسيط من نوبة الاصفهان ، وهو (3) :

---

1) من أواخر الجزء الثانى من «الاقنوم» مخطوط الخزانة العامة بالرباط D 21 II والاقنوم عبارة عن دائرة معارف نظم فى حوالــى خمسة آلاف بيت مقسمة على مائتين وواحد وثمانين علما او بابا ٠ وقــد كتب عقب الابيات المذكورة «بياض قدره ورقة» مع ان الناسخ يقول انه نسخ من نسخة المؤلف ٠

2) فى نسخة اخرى من «الاقنوم» رقمها ك 15 : البهلول

3) انظره فى «نوبة الاصفهان» ص 20 و 29 تنظيم Arcadio de Larrea ٠

=

يـامـن ملك عقـلـى رهيـن ※ رأيـت على خـده اليمين

الزهـر والورد والسوسـان والياسمين

قلت له آش ذاك اعـلـى خدك ※ قـال لـى القـمر

قلت له آش ذاك اعلى ثـغـرك ※ قـال لـى الـدرر

قلت له آش ذاك اعلى شفـرك ※ قـال لـى الـحـور

ومـا هـو تحت الجبيـن ※ حـاجـبيـن امعـرقيـن

قلت لـه انت المليح بالـحـق ※ قـال لـى مـلـيـح

قلت لـه انـت كحيل الحدق ※ قـال لـى وقـيـح

قـلـت هل بالـوصال تشفق ※ قـال لـى شحيـح

قـلـت لـه امـا تليـن ※ وتنـيـل الـعـاشـقـيـن

الزهر والورد والسوسـان والياسمين

ومما ينشد زجلا من العذراوى هذه القطعة (1) :

لسم المالـك الديان ※ نـعـم المستـعـان ※ نبدا فى اطريز لوزان

نمدح سيد الثقلين ※ ذو النور والـبيـان ※ والآيـات والـبـرهان

لسم الملك الاعلـى ※ جـل البسـمـلا ※ نبدا فـى النظام اولا

نمدح سيد الـرسلا ※ مصـبـاح الـعـلا ※ احمد سيـد الفضـلا

من به نرغب المولـى ※ يـوم الـزلـزلا ※ ينقدنـا مـن الـوحلا

بـدرة لـرسال ※ غـدا يـلـى صولا

نرجا مـن المتعال ※ قـوتـى على الملا

وانقول غير محال ※ لارب غـيـر اللـه

يبدأ على هذا النحو ثم تستمر الاقسام على حروف مختلفة فـى

Palacin بمساعدة الفريد البستانى ـ نشر معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية تطوان سنة 1956 · وانظره كذلك فى كتاب «الحايك» ص 47 (مخطوطة الخزانة العباسية) وانظره بعد هذا غير تام فى الكناش المخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 1518 D ص : 41 ·

1) الكناش رقم 2097 ص 1 ـ 2 (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) · انظر بنفس المصدر نموذجا آخر مما يستعمل من عذراوى الحجازى الكبير (ص 57) ·

القافية مع التزام قافية النون فى البيتين اللذين يبدأ بهما القسم ·

كذلك يقدم لنا ادريس الادريسى فى كتابه «كشف الغطا عن سر الموسيقى ونتائج الغناء» تقسيما لالوان لكريحة يقول فيه : «فن لكريحة هو الفن الشائع فى المغرب والمعمول به فى مدنه وحواضره وهو المعبر عنه ايضا بالملحون وذلك لان جميع الاشعار التى تستعمل فيه ملحونة يعنى الاشعار الجارية على ألسنة العامة والخارجة عن البحور الستة عشر وعن الاوزان الملحقة بها ، وهذه الاشعار لاتقل عن أربعة فنون هى الزجل والكان كان والمواليا والقوما» (1) ·

وهو تقسيم غريب وبعيد عن واقع المغرب وحقيقة الفن فيه ، بدليل أن المؤلف حاول ان يخص كلا من هذه الفنون بفقرة فلم يجد غير نقل ماقاله المشارقة ، دون محاولة للبحث عن نماذج مغربية لهذه الفنون ــ ان كانت موجودة ــ باستثناء فن الزجل الذى مثل له ببيتين للشيخ محمد النجار(2) او محاولة للبحث عن شبيه لهذه الفنون فى المغرب · ولسنا ننكر ان فن الزجل موجود فى المغرب ، وهو المعروف بالملحون ، بل انا نعتبره شاملا لكل الاشعار الشعبية ؛ ولسنا ننكر كذلك ان للفنون الاخرى ما يماثلها ، فعندنا الموال وكان حتى كان ، وعندنا اناشيد ونداءات ومرددات وألوان مختلفة من الاغانى والاشعار ، ولكن هذا لايكفى لحصر انواع الكريحة فى تلك الفنون كما لايكفى لجعلها فنونا مغربية خاصة وأنها غير معروفة بهذه الاسماء ·

والحقيقة أنه يصعب استقصاء كل ألوان الشعر الشعبى فى المغرب ، والسبب ان له مواطن مختلفة وأدوات متباينة ، فهناك المدن والقرى والبوادى والجبال ، وهناك السهول والريف والاطلس وسوس ، وهناك لهجات متباعدة ، الريفية والشلحية والسوسية والعربية مع تباين بين البيئات التى تتحدثها سواء فى المدن او خارجها · ولكل لهجة من هذه اللهجات شعر شعبى خاص ، ولكل موطن من تلك المواطن أدبه الذى يختلف

---

1) صفحة : 108 الطبعة الاولى (مطبعة الرباط) سنة : 1935 ·
2) انظر صفحة : 109 ــ من المصدر السابق

شكلا ومحتوى عن أدب المواطن الاخرى · وعلى الرغم من أنا قصرنا هذا البحث على نوع واحد من الزجل هو القصيدة المنظمة المقننة المعروف منشئها ، فانا نرى _ خاصة ونحن بصدد فصل تعريفي _ ان نستعرض اهم ألوان الزجل الاخرى الصادرة بلهجة عربية ، لانقصد الى حصر او استقصاء ولا الى دراسة مفصلة وانما نقصد الى التنبيه اليها وتحديد أهم الملامح المميزة لها ·

ولعلنا نستطيع أن نقسم أنواع الزجل المغربى الى شقين : احدهما يعرف منشئه وهو القصيدة التى جعلناها مدار هذا البحث ، والثانى لايعرف منشئه وقد وقفنا منه على هذه الالوان :

اولا : البرولة :

ولعلها أقرب الانواع الى القصيدة من حيث الميزان ونظام القوافى والابيات ؛ وهى من صنائع (1) الموسيقى الاندلسية يغلب وجودها فى ميزان القدام والدرج (2) ، وتعتبر بالنسبة لهذه الموسيقى كالدريدكة بالنسبة للقصيدة (3) · واذا كانت مجهولة المؤلف فليس لانها من انشاء جماهير الشعب كما هو الشأن بالنسبة للالوان الاخرى المجهولة المؤلف وانما لان اسم منشئها ضاع ولم يعن بذكره ، والسبب ان الكلام فى الموسيقى الاندلسية يأتى فى المرتبة الثانية بعد النغم ، بل لايقصد منه الا الى حفظ اللحن ، وهذا مايفسر ظاهرة انشاد القطع قبل عزفها بالآلات(4)· وقد اخترنا نموذجين من البرولة : الاول ينشد فى قدام الاستهلال والثانى فى الحجاز المشرقى :

---

1) الصنايع ج صنعة وهى القطعة فى الموسيقى الاندلسية ·
2) ميازين الموسيقى الاندلسية اربعة هى : أ) البسيط ب) القايم ونصف ج) البطايحى د) القدام · وزاد المغاربة عليها ميزانا خامسا سموه الدرج وهو غير معروف فى الموسيقى الاندلسية التى انتقلت لتونس والتى يطلق عليها (المألوف) وغير معروف كذلك فى الموسيقى الاندلسية التى انتقلت للجزائر والتى تعرف بالغرناطى ·
3) انظر الجزء الثانى من الفصل الثالث من هذا الباب ·
4) وهو مايطلق عليه «لجواب» فى الموسيقى الاندلسية ·

1) برولة من قدام الاستهلاك

بالعنس طلعت بدر التمام ✲ يادات المحيا الجميل
فاق اجمالك طلعت التريا ✲ والشمس الواسما
حرمت اجمالك ياقد لعلام ✲ يامولات التهليل
زرني يازينت السميا ✲ بجمالك حاكما
اغزالي كان غشاك لمنام ✲ مازال الليل اطويل
خدي راحا سندى اعليا ✲ مولاتي فاطما
ربي اعطاك صولي ✲ بالحسن ياغزالي
سمعي اغنا اسجولي ✲ والنوم مازهالي
لاتنهري ارسولي ✲ يا عنس لغوالي
حضرا انقيم ياريم ✲ يالحظ الرشا الغايم
سالي اسليم ماني اهميم ✲ بين السرور والنعايم
فرح لكريم لنا ايديم ✲ ايعود فرحنا دايم (1)

2) برولة من الحجاز المشرقي :

غدر كاس الجريال ✲ زار احبيبي واعطف وجاد هذا الوقت ازيان
احي الدبلا ياساقي واسقي جمع الغزلان ✲ أرى لي كاس امكان
نشرب من كف اغزال ✲ خمرا تضوى فالكاس لونها مثل الشمس اتبان
واتلوح اعلى خد لمليح تشعل كيف العقيان ✲ وتطرد كل احزان
نعت البرني الخصال ✲ مول الهما والسر ولبها والزين الفتان
اغزالي اللي خدو اشريف نحكيه البلعمان ✲ او الورد افلغصان
في اعيوني سحر احلال ✲ واغعيني النوم احرام ما نرمش عمري لجفان
طول الديجور انبات كانراعي للفجر ايبان ✲ غير امولـه حيران
يتبسم عن الآل ✲ جوهر منظوم انفيس في الماء احكيت المرجان
والمبسم خاتم من اذهب صنع الله الرحمان ✲ فيهم حارت لدهان (2)

---

1) كناش 8 صفحة 152 (مجموعة الجرارى) .
2) مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 2097 صفحة 71 ، وانظر كذلك كناش رقم 17 صفحة 62 (مجموعة الجرارى) .

ثانيا : العروبى :

ولعله تحوير لرباعى ، وكأنه كان فى الاصل ينظم على شكله ، وهو فى الواقع لايتقيد بعدد معين من الابيات ولايخضع لنظام ثابت للقافية ، كما هو الشأن فى العروبى الذى يتخلل القصائد (1) وانما ينطلق فى الالسنة قصيرا أو طويلا ، متعدد القوافى أو محدودها ، ولكنه مع هذا يمتاز بخصائص فى انشاده أهمها أنه يستهل بـ «آنانانانا» ويختم بالولاويل والزغاريد • وهو بعد هذا غناء خاص بنساء المدن يرددنه فى حفلات التنزه حين يخرجن للحقول والبساتين ، وفى المواسم والاعياد والمناسبات وخاصة موسم «الطيش» الذى يقام فى البيوت والمنتزهات طوال ايام عيد الاضحى، حيث تعلق «المطيشة» (2) لتركبها البنات واحدة تلو الاخرى ، وتأخذ المغنية فى الانشاد ، وهى فى الغالب أم أو جدة أو خالة ، فتستهل بمثل هذا القول :

آنانانانا والمحبوب اللى اهويت

يبقى ديما قدامى

وبعد ان تستعرض بعض أوصاف الطائشة ومحاسنها تذكر اسمها على هذا النحو :

هاذيك هى «افلانة»

لضويا اعليا قلبى واعيانى

والمستعرض للعروبيات — بعد هذا — يجدها تعكس فى الغالب وبصدق عاطفة الحب عند المرأة ونظرتها للرجل وتعلقها به ، وكأنها فرصة أتاحتها لنفسها لتعبر عما يخالج قلبها ، بعيدا عن أى حرج ، طالما أنها لاتنشد فى غير الحفلات والمناسبات الخاصة بالنساء ؛ ومن نماذج هذه العروبيات :

---

1) سنعرض له فى الفصل الثالث من هذا الباب لدى الحديث عن بناء القصيدة •

2) وتسمى فى المشرق «المرجيحة» وينطقها أهل الرباط بفتح الميم وكسر الطاء • أما أهل فاس فينطقونها بضم الميم وفتح الطاء على صيغة التصغير •

1) اطـريــق سـيـدى مخلوف ❊ واطـريــق سيـدى داود
اتـنـزهـوا يـا لـبـنـات ❊ رالصـغـر مـايتـعـاود

2) اوليد عـمـى اوليد عـمـى ❊ يـاوريـدا فـى كـمـى
كـان الـدى بـيـنـتـنـا ❊ واش جـابـو لامـى
اوليد عـمـى اوليد عـمـى ❊ يـا وريـدا فـالـكـاس
كـان الـدى بـيـنـتـنـا ❊ واش جـابـو للـنـاس
اوليد عـمـى اوليد عـمـى ❊ يـاللـه الـبـبـرا
انـعـلـقـو المطـيـشـة ❊ فـالليـمـون بـوصـرا

3) ارميت عينى الدراكم ولاصبت انجيكم
❊ وليت من وحشكم كيف المطعوما (1)
لو كان صبت طير ايحوم من جهتكم
❊ وايقول شخبار ولكم وكيفانتما
وامحبتكم فـى قلبى مـلـمـومـا
❊ وامحبت غيركم اعليا محرومـا

4) الطير الطير ابنيت لـوشباك احرير
❊ ولا انويتو ايطير بعد مـا والف
اخـوا قـفـزى وعمر اقفز الغـيـر
❊ وارمانى فى لبحور خلانى تالف (2)
لاصارى لاقلوع لاباش انقاذف

5) الطير الـحـر شفتك فـالـدلالا
واش دوك العينين امكحلين ولا اخليقت مـولانا
كنت فالما انصيفط لك (3) سبع اطيور عواما
كنت فالسما انصفط لك زوج اطيور حـوامـا
مـتـى نبنى اعليك زليجا وارخـامـا
ابـقـيـت عـايش مـا نـاخـذك غـيـرانـا

1) المسحورة ·
2) ضائع هائم ·
3) أرسل لك ·

6) قدك يسوا اميا

وخدك يســوا ثلث اميا

وادراعك يازينت الوقفا

يسوا آلــف

ألف فى غشوا

والف فى عشهوم

والف من خادم تگدى فالنار

يامحبوبى ودنى نوبا فالشهر

واعطينى كلما من لحديث متمورا (1)

دخلت اعليك ابعينك واحواجبك يالبدر

دخلت اعليك باالنبى زين الصورا

يما ياميمتى للا امنيين الزين

يغلب على لحمورا

وقد عنى الاستاذ محمد الفاسى بــفــن العروبيات فترجم منها الــى الفرنسية نحو مائة وخمسين اخــرجها بعنوان «الاغنــيــات القديمة لنساء فاس» (2) ولكنا نأخذ عليه أنه لم يقدم النص العربى واكتفى بالترجمة ، فكان أن ضيع فرصة التعرف الى هذا الفن فى قالبه ولفظه الاصليين ٠

ثالثا : المزوگى (3) :

يكثر انتشاره فى مناطق السهول ، وهو كالعروبى فى البناء لايختلف عنه الا فى الاداء حيث لايستهل بـ «آنــانــانــا» ، وانما يغنى البيت او الشطر فتجيب المجموعة بـ «يوى» وينتهى مثله بالزغاريد ٠ ويبلغ الشبه بين النوعين أن كلماتهما تختلط الى حد انه لايفرق بينهما ٠ أما التسمية فيبدو انها من ازگا اى صوت وصاح ٠

---

1) جدية من التمارا بمعنى الجد ٠

2) « Chants anciens des femmes de Fès » Editions Seghers Paris 1967.

3) سمعناه ينطق كذلك بتاء بدل الميم : اتزوگى ٠

رابعا : الموال :

وقد سبق أن رأينا (1) أن الموال عند المغاربة ــ سواء أكان مستقلا أو تقديما للقصيدة ــ غالبا مايكون بالعربية الفصحى وقلما يكون عاميا . والموال المغربى شبيه بالموال المشرقى من حيث الشكل لايختلف عنه الا فى الاداء واللحن . ومن خصائصه انه يستهل بــ «آنانانانا» كالعروبى ، وهذه بعض نماذجه :

1) تانحبك ونهواك * وفى امسبتك (2) ايكرهونى
ماراحتى حتى نلقاك * واعليك يتحلو اعيونى

2) مصابنى (3) طير طيار * واجوانحى تونسية
وانطير من ابلاد لبلاد * وانبعود ماساربيا

خامسا : السلامات :

جمع اسلام ، وهى فى الغالب لاتتعدى بيتا يتضمن التحية والشوق ، تكون أول كلماته «صفطت لك اسلامى» اى أرسلت لك سلامى ، وهى قريبة فى أدائها من العروبى . ومن السلامات :

1) صفطت لك اسلامى فالمشماش
واش (4) احبيبى فالقلب ولاما ابقاش

2) صفطت لك اسلامى فالتفاح
واش احبيبى اهنا ولا راح

3) صفطت لك اسلامى فالمشموم
واش احبيبى فارح ولا مهموم

سادسا : العيطة :

بمعنى النداء من عيط اذا نادى . وقد تحدث عنها الادريسى فى «كشف الغطا» فقال : «والعيطة نوعان : ملالية ومرساوية ، اما الملالية فمكانها بنى ملال والجبال المجاورة لها وبعض النواحى من تادلا ، ونغماتها

1) انظر المدخل لدى الحديث عن انشاد الزجل .
2) سببك .
3) ليتنى .
4) هل .

دائما فى غاية العلو والارتفاع شبيهة بصـيـاح الندب والبكـاء ، والالفاظ المستعملة فيها فى الغالب ممزوجة بكلمات بربرية ، ويتولد منها السوسى ، وهو عبارة عن خفة الميزان وانصراف الدور ، وأما العيطة المرساويـة فانها بخلاف ذلك تماما ومكانها بسائر قبائل العرب المتمدنة وهى تفوق الاولـى فى كثير من المواد والتأثير كما انها اجملها فنا والطفها صناعـة ٠ وكثير منها بقبائل الحوز كعبدة ودكالة والرحامنة والشاوية ٠ والمركز الاصلـى لها والذى تنشأ فيه وتنظم هو عبدة ٠ ثم من هناك تتفرق فى القبائل وتذاع، ويوجد مركز آخر بالشاوية قريب من سطات يسمى قبال وبالوادى الاخضر ٠٠٠ وتتشكل العيطة المرساوية الى أنواع تتردد فيها وتنحصر وهى اكباح ويؤخذ منه الثلثى وهو عبارة عن الميزان الحضارى ثم السوسى ثم الحريزى وهو خاص بقبائل الشاوية» (1) ٠

وقد حاول الادريسى أن يخضع فن العيطة الشعبى بكلماته وألحانـه للشعر المعرب على حد ماشرح فى حديث كان القاه بالمؤتمر الاول للموسيقى العربية المنعقد بفاس فى سادس مايو 1939 ، حيث قال : «من بضع سنوات وأنا أفكر فى فن العيطة وكيف يمكن لى اصلاحه ، والتقدم به سريعا الـى الامام حتى لايبقى محتقرا فى نظر المتمدنين ممقوتا لدى الفضلاء وأربـاب المروءة والوقار فوجدت الامر لايخرج عن مسألة واحدة وهى ابدال الالفاظ المستعملة فى أدوارها بالابيات الشعرية فى الادب والاخلاق ، اذ كل مـا نشاهده من التأخر والتقهقر الواقع بالعيطة وبالمشتغلين بها ليس الا مـن ناحية تلك الالفاظ الشنيعة والاقاويل المملوءة سفها وقبحا» (1) ٠

ويبدو هذا الرأى مشروحا فى مقال كتبه الاديب العباس الشرفـى مشيدا بما قام به الادريسى اذ «اعتبر أن ماقام به اصلاح كبير على فـن الموسيقى المغربية التى هى الطرب الوحيد الشائع بكثير من جهات القبائـل المترامية الاطراف المعبر عنها فـى لسان العامـة بالعيطة ، وذلـك باجراء ادوارها فى الشعر العربى الفصيح بدلا من الكلام العامى المبتذل المشتمل

---

1) كشـف الغطا صفحة 117 – 118 ٠

2) المصدر السابق – 119 ٠

في الغالب على ألفاظ يستحى من ذكرها ومن سماعها لما فيها مـــن السفه والحث عليه • وقد يكون في المجلس الرجل وولده والرجل وصهره والتلميذ وشيخه مثلا فيصير ذلك الطرب المقصود به التسلية والانشراح في نظرهم وسيلة من وسائل الكدر والاتراح يجب نبذه والتنزه عن مجلس يحتوى عليه اذالمؤمن لايقف مواقف التهم • اماالآن بعدأنادخل عليها مولاى ادريس المذكور هذا الاصلاح الكبير الذى تلقاه أرباب الفن بجزيل السرور والابتهاج فقد اصبح فنا أدبيا لايستحى منه ولا ينهى عنه •••» (1)

ولكن المؤلف لم يورد لنا نماذج من هذه الاشعار التى أخضعها لادوار العيطة ، كما أنه لم يذكر ولو نموذجا واحدا من العيطة فى لهجتها المحلية • فكان أن ضاعت ، خصوصا وأن الاذاعة لم تحتفظ بشىء منها لانها لم تكن قد عرفت التسجيل الصوتى فى ذلك الوقت ، وخصوصا كذلك وان هـــذه العيطات لم تستمر طويلا على لسان المغنين البدويين الذين لاشك أنهم لــم يستسيغوا الشعر المعرب فهما واداء • وكان ممكنا تطهير كلمات هذا الفن فى اطار العامية ، فلعل ذلك كان سيخدم العيطة ويطورها ويطهرها مـــن الشوائب • واذا كنا نقول مثل هذا الكلام فليس لاننا ننكر ادخال الفصحى الى العيطة أو الى أى لون آخر من ألوان الغناء الشعبى ، بل لاننا نرى أن الاحتفاظ بفن من الفنون يقتضى الاحتفاظ بـأداتـه ، وأداة العيــطـة اللغة الشعبية • ومن الممكن التطوير داخل هذه اللغة أو بالاحرى اختيار النقــى منها والقريب الى الافهام فى البيئات المجاورة •

ثم ان عملا مثل هذا يحتاج الى دراسة موسيقية لهذا الفن يتـعــرف منها الى المقامات والنغمات التى يؤدى عليها ، ويحتاج بعد ذلك الى تأليف كلمات تناسب هذه المقامات والنغمات • ثم ان تأليف كلمات لغناء شعبى بدوى كالعيطة ينبغى ان يستوحى البيئة التى تطرب لهذا الغناء ، وتتذوقه حتى تنسجم الكلمات مـع اللحن وحتى يتجاوب المطرب وجمهوره مـع هذا اللحن وتلك الكلمات • أما أن يأتى أحد الى هذا الفن ويحاول اخضاعه للغة لايستسيغها أداء واستماعا فتلك جناية على الفن لاخدمة له •

---

(1) كشف الغطا — 116 — 117 •

والعيطة كما سجلنا من أفواه المغنين نوعان : قصيرة وطويلة :

اما القصيرة فتتكون من بيت واحد يكون فى الغالب قصيرا ومتضمنا أمثالا أو حكما وعظات ، مثال ذلك قولهم :

1 – مادا بنا * كون اتاوينا (1)

2 – ياك اخونا * ابغاو ايفرقونا

3 – أنا انتمتم * وانت تفهم

4 – ابقى فيا لكرين * اتوسدوه اخرين

5 – كلت لك الكليب * لا تخرج عيب

على ان سهولة نظمها جعلت كثيرا من الناس ينشؤونها الى حد خرج بها كثير من المتطفلين عن روحها الحكمى الوعظى بل خرج بها بعضهم الى الهزل والى ما فيه السفه وينكره الذوق السليم ، مثل قولهم :

1 – قلبك عامر * فيه لمسامر

2 – الروزى (2) لحنين * تيخلى دين

3 – الدرى مزوينو * شارب البينو (3)

وأما الطويلة فأقرب الى القصيدة من حيث نظام التقفية والتبييت واللازمة ، وان كانت بعيدة عنها فى اللحن والاداء . ومن نماذجها ماغناه المرحوم بوشعيب البيضاوى فى نفى المغفور له محمد الخامس وعودته الى الوطن :

1) وامن لقنيطر المكناس * تم اتحفر الساس

لعمرين ولغراس * شبعوا عافيا (4) وقرطاس (اسيدى)

أياخوتنا لسلام * هزوا بنا لعلام * سيرو بنا الكدام

دابا مول الحق ايبان (5)

---

1) معنى البيت : ليتنا كنا نتفق .
2) النبيذ الاحمر والكلمة من الدخيل .
3) الدرى بمعنى الصبى أو الشاب ، مزوينو اى ما اجمله . أما البينو فالخمر ، والكلمة من الدخيل الاجنبى .
4) العافية بمعنى النار .
5) سوف يظهر صاحب الحق . وهذا البيت هو لازمة العيطة

وجدا والريف ✻ كل شي اظريف ✻ ابن يوسف يـرجع بالسيف

سيدى سيدى تم اتصاب هو والدرارى

أيا خوتنا لسلام ...

الملك امشى وارجـع ✻ العديان اقبضهم لـوجع

لقلوب ابـدات اتشـفـع ✻ لكلاوى والمقرى لـقـرع

(ياسيدى)

أيا خوتنا لسلام ...

ارجـع احبيبى للـربـاط ✻ والناس اتحييه ابلغوات1

حـيـو الملك الشجيع ✻ هـو والامـرا اجمـيـع

أيا خوتنا لسلام ...

اللـه ينصـر السلطـان ✻ اولـدو مـولاى الحسـن

ويـزيـن لـوطـيـان ✻ دابـا مـول الحق ايبان

أيا خوتنا لسلام ...

2) انا زينى يازينى زينى فالهاما

سيدى مولاى السلطان

نرسل ليه احماما

أيا خوتنا لسلام ...

رحموا الشهدا اللى امشـوا ✻ عبد الله والزرقطونى اقضاوا

والفدائـيـيـن اللـى ابـقـوا ✻ فيهم هماالرجالا اللى اسواوا

أيا خوتنا لسلام ...

أيـا خـوتـنـا لمسلمـيـن ✻ عـيـنـوا الـفـدائـيـيـن

ولـو ابـلـكـلام الـزيـن ✻ ينصرهـم رب العالـمـيـن

أيانا يانا اوين أوين أوين كـلا (2) يلغى بلغاه

أيا خوتنا لسلام ...

والله مانتحسر ولانرد القلبى

خلى لهموم اتصرف

---

1) ابلغوات اى بصوت مرتفع .

2) كل واحد .

دابا يفرج ربى

أياخوتنا لسلام

أياناياانا أوين أوين أوين كلا يلغى بلغاه

ينشد المغنى البيتين ثم تردد المجموعة اللازمة ، ويستمر كذلك مرتين او ثلاث مرات أو أكثر تنشد المجموعة بعدها اللازمة مع عزف موسيقى قوى وحاد ــ او كباحى كما يقال ــ وينتهى بذلك جزء من العيطة ليبدأ جزء آخر على نفس الاسلوب والنظام • ويلاحظ انه يشد (1) البيتين فى البداية أو فى النهاية أو فيهما معا بكلمة يقبض (2) بها النغم (سيدى) أما فى نهاية العيطة اى فى الجزء الاخير فالغناء كله كباحى وسريع مع ترديد كلمات القبض (أناياانا •••) وأما العزف فيبدأ بجرات للكمان تعقبها موسيقى سريعة تعتمد التعريجة والطارة والهندقة ثم يبدأ الغناء •

سابعا : الطقطوقة (3) :

وهى نوع من الغناء الخاص بالجبل فى شمال المغرب ، ولكنها اخذت تنتشر حتى فى المدن وتجد عليها كثيرا من الاقبال • وهى عبارة عن مقطوعة تتكون من عدة مقاطع يتركب كل منها من بيتين بقافية واحدة ، والغالب ان تختلف المقاطع فيما بينها تقفية ومعنى • أما الانشاد فيبدأه المغنى ثم تتلوه المجموعة تردد المقطع بعده ، على انه تضاف عند الغناء فى نهاية الشطر الاول من كل بيت عبارة «يالولاد» او «ياسيدى» حتى يشد الميزان ، كما أنه يفصل بين المقاطع بعبارة كهذه «أيامولات الدلال» يقصد بها المغنى الى أن يسوى الميزان او «يخاويه» على حد تعبيرهم •

---

1 ــ 2) سبق فى المدخل ان تعرضنا للشد والقبض فى الانشاد

(3) تجدر الاشارة الى أن الطقطوقة نوع من الاغانى الشعبية المعروفة فى مصر • وقد قامت السيدة بهيجة صدقى رشيد بتدوين كلماتها وأنغامها فى مجموعة بعنوان : (الطقاطيق الشعبية) وقالت عنها فى المقدمة (أن أصلها قطقوطة وهو مايطلق على الشىء الصغير وانها نوع من الاغانى الخفيفة بسيطة فى تركيبها الموسيقى انتشرت فى الربع الاول من القرن العشرين) (ج 1 نشر اللجنة الموسيقية العليا ــ سلسلة تراثنا الموسيقى) •

وقد اخترنا من الطقطوقة هذا النموذج :

لسم الله ابـدينا (يالولاد)
وعلى النبى صلينا
سيدنـا محمد (يالولاد)
هو الشافـع فينا
(أيا مولات الدلال)
يالقايل قل الله (يالولاد)
به عمر اوقاتك
ماتوجد غير الله (ياسيدى)
عند موتك واحياتك
(أيا مولات الدلال)
أيا نجوم القبلا (يالولاد)
هاذى مورا هاذى
ارفعت عينى لله (ياسيدى)
يوفى لى مـرادى
(أيا مولات الدلال)
أيا جبيل زرهون (يالولاد)
فيه لحجر فيه الديس
الله إيقوى حرمو (ياسيدى)
سيدنا مولاى ادريس
(أيامولات الدلال)
جانى النوم وتكيت (يالولاد)
فالظل دا لمسكيا
دوك لعيون الكوحل (ياسيدى)
حرقوا التوب اعليا
(أيامولات الدلال)
أيابنات العدوا (يالولاد)

لعدو داير بكم

سيدى علال الحاج (ياسيدى)

هو احجاب اعليكم

(أيامولات الدلال)

ثامنا : أعيوع :

وأصله الجبل عند بنى عروس وبنى امسور وجبل حبيب ، ولكنه انتقل الى مدن الشمال ٠ وهو أقرب الانواع الى الطقطوقة بل هو مثلها من حيث أنه مجموعة مقاطع تتكون من بيتين بقافية واحدة قد يكون بينها رابط وقد لايكون ، والغالب أنه لايكون وخاصة فى الموضوع ، بل انه قد يفتقد أحيانا حتى داخل المقطع الواحد حيث يكون الشطر الاول او البيت الاول كله بعيدا فى كلماته عن موضوع بقية المقطع ، ولكن الامر عندهم لايهم طالما أن الوزن يستقيم والقافية تتحد ٠

ولاعيوع مناسبات ينشد فيها ، هى :

1) الصيف ، ويقصد به فصل الحصاد حيث يخرج الرجال والنساء والاطفال للحقول يحصدون ويعيعون (1)

2) الزيار ، أى موسم زيارة الاولياء وخاصة مولاى عبد السلام ٠

3) مناسبات الافراح كالاعراس ٠

اما انشاده فقد يكون فرديا او ثنائيا او جماعيا ، ولكنه حتى حين لايكون جماعيا فان المجموعة تردد ؛ وفى كل الاحوال تلتزم اثر البيت او المقطع كلمة «آياه» ومن الامثلة على أعيوع :

1) اجديدا السبنيا (2) * اجديدا وماشى انبيعا (3)
ماتسالوشى اعلى الزين * سالوا على الطبيعا

2) زوج دا المسمرات اجدود * فالحيط مارا موشى
وخا (4) ايجيونى عشرا * ابحالك (5) مايكونوشى

---

1) يغنون أعيوع ٠ 2) المنديل ٠
3) أصلها نبيعها ولكنهم يحذفون الضمير ٠
4) ولو ٠ 5) مثلك ٠

3) التفـفـحـات دا الحـمـر ※ بين لحزام لايبانـو (1)
ذوك لـعـيـون الكـوحـل ※ هـمـا اديالـو كانو (2)

4) رانـى افـراس الـنـخـلا ※ ريـح لـهـوا يـديـنـى
عـيـطـت يـا مـحـمـد ※ من دالعـبـاد نجيـنـى
رانـى افـراس الـنـخـلا ※ ريـح لـهـوا يـديـنـى
عينى اعلى كـل اطريـق ※ آش مـن اخبر ايجينـى

5) يـالـلـه امـعـايـا يـالـلـه ※ يالله امعايا نلحـوز (3)
الـظـل والمـا يـجـرى ※ والنزاها تحت الـجـوز

6) صـلـوا عـلـى مـحـمـد ※ صـلـوا عـلـى نبيـنـا
سـيـدنـا مـحـمـد ※ هـو احجاب اعليـنـا

7) يـايـلـى احيببى العالـى ※ عـالـى اوفيه انزاهـا
يـاد الـعـم يـاخـوتـى ※ غالا (4) انساعف واهـا
سيدى مـولاى عبد السلام ※ عـالـى اوفيه انزاهـا
الجلسا امـع لـحـبـاب ※ عـمـرى مـاننسـاهـا

تاسعا : الدقــة :

وهى خاصة بمدينة مراكش وتعرف بالدقة المراكشية ، والواقع انها من حيث الشكل والكلمات لاتختلف عن الطقطوقة او أعيوع ، ولكنها تختلف عنهما فى طريقة الاداء حيث يسبق الانشاد ويعقبه «التكفاف» ٠ اى الضرب بالاكف ، ومن هنا جاءت تسميتها بالدقة ٠ ومن الـدقـة هذه الاغنية التى تؤديها احدى فرق مراكش :

آش اداك (5) تمشى للزين

---

1) نهود البنات الحمر اما اضافة لا «فى لايبانو» فتفيد عندهم الـحـال والاستمرار ٠
2) اديالو بمعنى له ٠
3) يستعملون النون بدل لا م الجر ٠
4) تضاف غالا للمضارع فيفيد الحال والاستمرار وهى عندهم ك : «لا» السالفة الذكر فى «لايبانو» ٠
5) حملك وأخذك ٠

وانتيا راجل مسكين
والزمان ايغلبك فالحين
ماسمعتشى آش ادانى

كان فالاول حب ازوين
يجمع مابين القلبين
واصبح العاشق مسكين
فالآخر اصبح نصرانى

درتها (1) بيديا واعلاش (2) مانخمم (3)
كون ماجابونى رجلى ما نجى ليه
اللى دارها بيديه ايفكها ابسنيه
درتها بيديا واعلاش مانخمم

عينى تبكى
دمعى يحكى
لما حبو ادمى قلبى
ادمى قلبى

تمضى ليام
وايمر العام
جسمى فنيان
ياناس دا حرام

ولما العين شافت فالعين
قلت لو يازين أنا مسكين
قـال لى صافى
صافـى صافـى

عاشرا : غيوان بن يازغة :

اى غناء بن يازغة ، وهو منتشر فـى مدينة صفرو ومنطقة البهاليـل

1) عملتها 2) اعلاش بمعنى لماذا وأصلها على اى شىء ٠
3) خمم بمعنى فكر ٠

ويازغة والمنزل . ومن اشهر مقطوعاته «فاطما وردا معروفا» وهي تتكون من ثلاثة اشطار بقافية واحدة ثم شطر رابع بقافية مختلفة :

فاطما وردا معروفا

هى السلسلا دالشرفا

ماصلحت لى نخطفا (1)

وانعبى لبنات فحوص (2)

ومنها هذه المقطوعة مكونة من أربعة أشطار بقافية واحدة ثم شطر خامس بقافية مغايرة :

خرجوا يالشبابيا

لبلاد شدت الحريا

وازهور قبضت الصينيا

اتكب غير لك اوليا

كل واحد ايشد كاسو

وقد تكون المقطوعة من ثلاثة اشطار فقط يتفق الاولان فى القافية ويختلف عنهما الثالث كقولهم :

كانخمم والقيت الراس ڭاع (3) خاوى

كانموت وسلطان الزين كايداوى

او ما الطبا (4) والو ماعرفوا اشبيا

ومثلها قولهم :

كانخمم والقيت الراس فيه لفوات (5)

اشحال من كيا فيها اديال حب لبنات

مايداويها حد ابلا اطبيب تدوا

هذه ألوان من الزجل لم نقصد من ذكرها الا الى اظهار مدى انتشاره

---

1) أصلها نخطفها ولكنهم يحذفون الضمير .
2) انعبى بمعنى ناخذ وفحوص من حوص اى خطف وسرق .
3) كـلـه .
4) الاطباء .
5) لفوات بمعنى الزائد أى أنه غير طبيعى .

وتكيفه مع مختلف البيئات لغة ونغما وأداء ، وهو انتشار لو شئنا تحديد مداه لاضطررنا الى تتبع كل المرددات والاغنيات • واذا كنا قد قسمنا الزجل الى نوع يعرف منشئه ، وهو القصيدة التى جعلناها مدار هذا البحث وآخر لايعرف منشئه ويمثل بقية الالوان ، فان هناك نوعا آخر من الزجل خاصا فى شكله وموضوعه يعرف منشئه ولكنه بعيد عن القصيدة وعن كل الانواع الاخرى ولايغنى به ، وهو «**الحكمة**» ويتكون من بيتين غالبا مايكونان مصرعين ومتضمنين لحكمة او اكثر • وقد اشتهر بنظمه الشيخ عبد الرحمن المجدوب (1) الى حد اصبح ينسب له كل مايردد من حكم بين الناس حتى ولو لم تكن له • ومن الامثلة على حكمه :

1) سافر تعرف الناس ✻ واكبير القوم طيعو
اكبير الكرش والراس ✻ ابنص فلس بيعو

2) ولد ابنادم لا تربيه ✻ بعد ماتربيه نادم

---

1) توفى سنة ست وسبعين وتسعمائة للهجرة ودفن بمكناس • انظر فى ترجمته وحكمه :

أ ـ مناقب محمد بن احمد الحضيكى ج 2 من صفحة 190 حتى 197 (الطبعة الاولى)

ب ـ مرآة المحاسن من أخبار الشيخ ابى المحاسن لابى حامد محمد العربى بن أبى المحاسن الفاسى صفحة 11 ـ 13 ـ 18 ـ 19 ـ 20 43 ـ 189 ـ 190 (الطبعة الحجرية)

ج ـ كتاب ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع ومالهما من الاتباع من صفحة 101 حتى 107 (ط حجرية) •

د ـ ابتهاج القلوب بخبر الشيخ ابى المحاسن وشيخه المجدوب لعبدالرحمن الفاسى حيث خصص لترجمته الباب الاول (الباب الاول فى التعريف بالشيخ المجدوب رضى الله عنه) ويستمر من صفحة 14 الى 65 (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 326 ك) وتوجد من الابتهاج نسخة اخرى بنفس الخزانة مسجلة تحت رقم ك 2302 ويبدو أنها متأخرة عن الاولى •

هـ ـ القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجدوب • تصنيف نور الدين عبد القادر المطبعة الثعالبية بالجزائر •

و ـ Les gnomes du Medjdoub - H. Decastries Paris 896

ز ـ Les quatrains de Medjdoub — : le sarcastique, Poète maghrébin du XVI=siècle par J. Scelles-millie et B. Khelifa G. P. Maisonneuve et Larose - Paris 1966.

ياسايلني اعلى الغول ✻ الغول هو ابنادم

3) المال يا المال ✻ اليه لبنات مالوا
اللي ما عندوشي المال ✻ مايعمل حتى كلبي ابحالو

4) احفر السرك ودكو ✻ فالارض سبعين قاما (1)
خلى لخلايق ايشكوا ✻ الى يوم القياما

5) من لايطعمك عند جوعك ✻ ولايحضر لك في امصايب
لاتحسبوا من افزوعك ✻ قد (2) حاضر قد غايب

6) الغرب امريض ✻ وابوذني اسمعت انذيرو
والله ما يتمنوا لمغاربا ✻
غير اللي كان شمرير اعلى شمريرو (3)

7) ياسيلني اعلى قرن الثالث عشر
✻ اكحل مافيه مارا
الكسوا اكسوت لمسلمين ✻ ولقلوب اقلوب النصارا

8) ياذ الزمان يالغدار ✻ ياكاسرني امن اذراعي
طيحت من كان سلطان ✻ وركبت من كان راعي

9) اقبض الاجر اقبل الدوا ✻ واترك اعليك احديث اللي هاوي
لمريض اذا ابرا ✻ ينسى خير لمداوي

10) البس قدك والعب امع ندك ✻ واشرب او كل ماتريدو
وماتخالط غير اللي يعرف ✻ قيمة اباك وجدو

كذلك اشتهر بالنظم في هذه الحكم الشيخ محمد الشرقي (4) ٠ ومن اقواله :

---

1) القامة من مقاييس الطول ٠ 2) قد بمعنى سواء ٠
3) الشمرير القبعة وهي كناية عن النصارى والكفار ٠
4) توفي سنة عشر وألف ودفن بجعيدان من بلاد تادلة ٠ انظر في ترجمته وحكمه :
أ — كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر لمحمد ابن الصغير الافراني صفحة 25 — 26 — 27 (ط حجرية) ٠
ب — مناقب الحضيكي — الجزء الثاني صفحة 91 — 92 — 93 (الطبعة الاولى) ٠

1) احفظ العلم واقراه ❊ الجهل ظلما اعظيما
من لايقرا مايلو جاه ❊ فى ادنيتو كالبهيما

2) حب الناس ريح افريح ❊ من ريحهم اسقيت لمراير
واللى ايكيل امن الريح ❊ ماتمتلالو اغراير

3) خلطت الناس تفسد الدين ❊ ياصاحبى رد بالك (1)
وايفرقوا بين لثنين ❊ وايضيعوا راس مالك

4) لابد من يوم معلوم ❊ ترتد فيه لمظالم
أفرحت من كان مظلوم ❊ أويل من كان ظالم

5) اطلع الفجر وعلا ❊ يالغابطين فالمنعاسى
انبات نسجد ونركع ❊ اياك (2) ننجا ابراسى

ج ـ مرآة المحاسن صفحة 266 (ط حجرية) ·
د ـ نشر المثانى لمحمد بن الطيب القادرى الجزء الاول صفحة 47 ـ 48 (الطبعة الحجرية) ·
هـ ـ ممتع الاسماع من صفحة : 110 الى 115 ·
و ـ كناش مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم ك 3027

1) خذ بالك وانتبه ·
2) علنى أنجو ·

الفصل الثـــاني

اللغة و الفنية

مراحل التعريب

لايخفى ان الفتح الاسلامى كان يستهدف أمرين : نشر الدين من جهة، ونشر العربية أداته ولغة القرآن من جهة ثانية • وكان طبعيا – واللغة تساير الفتح وتواكبه – أن تستقبل بسهولة ويسر حيث يستقبل بسهولة ويسر ، وأن ترفض بقوة وعنف حيث يرفض بقوة وعنف •

لذلك تعرضت حركة التعريب فى المغرب لمختلف الهزات والانتكاسات التى تعرض لها نشر الدين (1) ، بل اكثر من ذلك نستطيع أن نقول انها سارت أبطأ منه ، خلافا لطبيعة الامور وماكان ينبغى أن يكون ، لسبب بسيط هو أن فاتحى المغرب لهذا العهد الاول كانوا فى أغلبهم جنودا «يدخلون اليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم فيفضون الوطر من فتح الاقطار والامصار ثم ينقلب جمهورهم الى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب» (2) •

لهذا كان ينص على عدد رجال العلم الذين يصاحبون جيوش الفتح حين يوجدون على حد مايروى من أن موسى بن نصير ترك فى البربر ،

---

1) لم يكن أمر الفتح الاسلامى يسيرا فى المغرب كما قد يظن ، ففى الوقت الذى استطاع المسلمون أن يقيموا خلال بضع سنوات دولة واسعة الرقعة فى المشرق ، فانهم ظلوا زهاء قرن من الزمان يحاولون تثبيت دعائم الدين فى بلاد الشمال الافريقى والمغرب خاصة • ويكفى للدلالة على ذلك أن نعرف أن البربر ارتدوا اثنتى عشرة مرة على حد قول ابى زيد القيروانى ، وأن اسلامهم لم يستقر الا بعد فتح الاندلس (انظر تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 110) ، وأن نعرف أن الحملتين اللتين وجهتا لفتح المغرب أو بالاحرى لمواجهة تفشى المذهب الخارجى فيه سنة 122 – 123 لقيتا فشلا ذريعا حيث هزمت الاولى فى معركة طنجة وقضى على الثانية عند وادى سبو وكانت بقيادة كلثوم •

2) الاستقصا ج 1 ص 165 طبعة القاهرة •

«سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن والاسلام» (1) ؛ وعلى حد مايروى كذلك من ان عمر بن عبد العزيز بعث مع اسماعيل بن أبى المهاجر «عشرة من التابعين أهل علم وفضل ومنهم عبد الرحمن بن نافع وسعيد بن موسى التجيبى» (2) .

ويذكر أبو عبد الله المالكى فى «رياض النفوس» أسماء تسعة من هؤلاء الفقهاء العشرة هم :

أبو الجهم عبد الرحمن بن نافع (3) .

أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبى (4) .

أبو عبد الرحمن الحيلى (5) .

اسماعيل بن عبيد الانصارى المعروف بتاجر الله (6) .

موهب بن حى المعافرى (7) .

حيان بن أبى جبلة القرشى (8) .

أبوتمامة بكر بن سوادة الجذامى (9) .

أبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير (10) .

اسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر (11) .

وأغلب الظن أن مايقال من أن حسان بن النعمان «دون الدواوين» (12) ونشر العربية وجعلها لغة البلاد الرسمية لايخلو من مبالغة ، وأغلب الظن أن مايقال كذلك من ان خطبة طارق بن زياد دليل على انتشار اللغة العربية بين البربر لايخلو بدوره من مبالغة .

وربما كان تسرب المذهب الخارجى الى المغرب فى هذه الفترة (13)

---

1) البيان المغرب ج 1 ص 37 طبعة لبنان .
2) المصدر السابق ص 45 – 46 .
3) ص : 72 4) ص : 66 – 67 5) ص : 64
6) ص : 69 – 72 7) ص : 73 8) ص : 73
9) ص : 74 10) ص : 75 11) ص : 75 .
12) البيان المغرب ص : 29 .
13) ماكادت حركة الفتح تبدأ فى المغرب حتى بدأت فئات الخوارج المنهزمة فى المشرق تفد عليه وخاصة منها الاباضية والصفرية تحاول الترويج لمذهبها الذى وافق طبيعة البربر الاستقلالية وميلهم الى رفض كل سيادة تفرض عليهم سواء كانت عنصرية أو دينية .

عاملا من أهم عوامل تأخر حركـة التعريب عن أن تسايـر نشر الاسلام ، والسبب أن أمر الدين والمذهب غلب الخوارج وسيطر عليهم ولم يدع لهم مجالا لنشر اللغة ، فقد أغفلوا امرها ولم يكونوا ينظرون اليها سـوى أنها لغة الكتاب المقدس ولغة العلم لاحاجة تدعو اليها فى الحياة العامة • ولعل هذا ما يفسر لنا سر بقاء كثير من المناطق التى انتشر فيها المذهب الخارجى على لهجتها البربرية لم تحاول ابدالها بلغة الدين الجديد •

وربما كان من الادلة على ان اللغة كانت لاتزال تتعثر أن العملة التى ضربت فى نهاية القرن الاول للهجرة والتى كان بعضها يحمل اسم موسى ابن نصير ، كانت مكتوبة باللاتينية ، على الرغم من أنها متأخرة عن حركة الاصلاح النقدى التى قام بها عبد الملك فى المشرق (1) ، بل انه توجد سبع رسائل بعثت من رومة الى رجال الـديـن المسيحى فـى الاقاليم الافريقية مؤرخة فى منتصف القرن العاشر الميلادى ومكتوبة باللاتينية ، مما يدل على أن الذين تلقوا تلك الرسائل كانوا يعرفون هذه اللغة (2) •

ومهما يكن ، فقد استطاع المغرب على عهد الادارسة ان يعيش فى ظل نوع من الاستقرار ساعد على توطيد الاسلام ونشر اللغة فى مناطـق غير قليلة ؛ ونستطيع أن نعزو توسع حركة التعريب فى هذا العهد الى خمسة عـوامـل :

1 ـ **حالة الإستقرار** التى سادت مناطق نفوذ الادارسة ، خاصة وأن مؤسس دولتهم لم يدخل المغرب غازيا وانما دخله لاجئا ، وخاصة كذلـك ان البربر سعوا اليه وولوه أمرهم وبايعوه عن رضى وطواعية •

2 ـ **عروبة الادارسة** •

3 ـ **انشاء جامع القرويين** الذى كان له دور كبير فى النهوض باللغة العربية والفكر الاسلامى فى المغرب • وربما كان ذلك الدور ضعيفا فى هذه

---

1) انظر مقالا حول تعريب الشمال الافريقى لوليام مارسى W. Marçais « Annales de l'institut d'études orientales ». Faculté des lettres de l'université d'Alger T 4 1938 P. 8

2) المصدر السابق ، ومن أهم ماتفيده هذه الرسائل انه كان يوجد سنة 1050 م خمسة قساوسة وأنه لم يبق منهم سنة 1076 الا ثلاثة •

الفترة ولم يقو الا في الفترات التالية ، ومع ذلك لانريد ان ننكره حتى في مراحله الاولى ، خاصة ونحن نعرف أن المساجد جميعها وفي كل البلاد الاسلامية كانت تعتبر مدارس علم الى جانب انها مراكز عبادة • لذلك لاينبغي ــ ونحن نشير الى هذا العامل ــ أن نغفل اثر الجوامع الاخرى ، وخاصة في سبتة التي ظلت تحمل مشعل الثقافة فترة غير قصيرة •

4 ــ خروج المغاربة في رحلات علمية الى المشرق والقيروان والاندلس وعودتهم الى بلادهم وقد صقلت السنتهم وزودوا بأفكار وعلوم جديدة لم يكن لهم بها عهد من قبل ، نذكر منهم :

أ ــ دراس بن اسماعيل الفاسي ، رحل الى المشرق والقيروان والاندلس ، دارسا ومدرسا ، وعاد الى فاس حيث توفي سنة 357 •

ب ــ أباجيدة بن احمد اليزنسني الفاسي ، رحل الى المشرق وكان عالما بالفقه المالكي والشافعي ، وهو صاحب كتاب «الفتوى» الذي الف في الوثائق على المذهب الشافعي توفي بفاس سنة 365 •

ج ــ عبد الرحيم بن احمد الكتامي السبتي المعروف بابن العجوز ، رحل الى الاندلس والقيروان ، وكان من فقهاء المالكية ، توفي سنة 413 •

5 ــ كثرة الوفود العربية التي قصدت فاسا في هذا العهد ، قادمة اليها من الاندلس ، والقيروان • أما القيروانيون «وكانوا ثلاثمائة أهل بيت» (1) فقد وفدوا حوالي سنة 189 وأقاموا في العدوة اليسرى ، وعمروها حتى عرفت بعدوة القرويين • وأما الاندلسيون «وكانوا جما غفيرا يقال أربعة آلاف أهل بيت» (2) فنزلوا بالعدوة اليمنى وعمروها حتى اصبحت تسمى عدوة الاندلس ، وكانوا قد هاجروا من بلادهم على اثر ثورة الربض التي قامت على عهد الحكم بن هشام سنة 206 •

ويعرض ابن ابي زرع أسماء بعض القبائل والاشخاص الوافدين فيقول:

---

1) الاستقصا ج 1 ص 73 •
2) المصدر السابق •

«وفى سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على ادريس رضى الله عنه وفود العرب من بلاد افريقية وبلاد الاندلس فى نحو الخمسمائة فارس من القيسية والازد ومدحج وبنى يحصب والصدف وغيرهم ، فسر ادريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقربهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر فاعتز بهم لانه كان فريدا بين البربر ليس معه عربى فاستوزر عمير بن مصعب الازدى وكان من فرسان العرب وساداتها ولابيه مصعب مآثر عظيمة بأفريقية والاندلس ومشاهد فى غزو الروم كثيرة ، واستقضى منهم عامر بن محمد ابن سعيد القيسى من قيس عيلان وكان رجلا صالحا ورعا فقيها سمع من مالك وسفيان الثورى وروى عنهما كثيرا ثم خرج الى الاندلس برسم الجهاد ثم جاز الى العدوة فوفد بها على ادريس فيمن وفد عليه من العرب ؛ ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق فكثر الناس وضاقت بهم مدينة وليلى» (1) ·

ولعلنا نستطيع أن نضيف الى هذه العوامل اربعة عوامل أخرى لاشك أنها ساعدت على التعريب :

1 — **قرب اللهجة البربرية** — وقد تأثرت بالفينيقية — من اللغة العربية ·

2 — **عدم مقاومة اللهجة البربرية** للغة العربية الا فى المناطق الداخلية النائية ؛ اما فى المدن والسواحل والمراكز الهامة فقد كان السكان لايرون بأسا فى تعلم اللغة الجديدة طالما انها لغة الفاتحين ، فقد الفوا اتخاذ لغة الفاتح ومزجها بلغتهم ، اذ ليس من شأن هذه الطبقة من السكان — وهى طبقة لها مصالح — ان تقاوم ، بل انها تهادن وتداهن وتتملق لتبلغ اغراضها وتحقق مصالحها · ومن هنا كانت هذه الطبقة اسرع من غيرها الى تعلم اللغة العربية ·

ولعل مما يعطى اهمية لهذا العامل ان اللغة لاتوجد فى الواقع

---

(1) «الانيس المطرب القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» لابى عبد الله محمد بن عبد الحليم المعروف بابن ابى زرع : مطبوع على الحجر بفاس دون تاريخ · صفحة (14) ·

ولاتمارس ولاتنطلق الا فى المدن والمراكـز المتجمعة حيث يتـحـرك الناس ويتحدثون ، على عكس البوادى حيث يغلب الصمت على الفلاحين الذيـــن يقضون الساعات الطويلة فى الحقول متباعدين ساكتين ·

3 ـ **تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم** واعجابهم بلغته واعجازه ·

4 ـ **تهجير افواج من المغاربـة** فى شكـل سبى الـى المشرق وعودة بعضهم الى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية فقد «قال الليث بـن سعد : لما قدم موسى بن نصير الى افريقية قبل فتحه الاندلس ومعه جماعة مـــن الناس اخرج ابنا لـه يسمى عبد الله الـى بعض نواحيها فأتاه بمائة الـف رأس ثم وجه ابنا له آخر يسمى مروان الى ناحية اخرى فأتاه بمائة الـف رأس ، ثم توجه بنفسه الى ناحية اخرى فأتى بمائة ألف رأس ، فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس · قال الليث فلم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير فى الاسلام · قال أبوشيبة الصدفى : قدم مروان بن موسى بن نصير من السوس الاقصى وهو يجر الدنيا جرا بالسبى ، فلما قدم رسوله على موسى خرج معه وجوه الناس تتلقاه فلما التقيا قال مروان بن موسى : مروا لكل من يلقانى مع أبى بوصيفة وصيفة ، فلما أمر بـذلـك سمع موسى للناس ضوضأة وصياحا ورأى لهم حركة فقال : ماهذا ؟ قالوا : مروان ابنك امـر للناس بوصيفة وصيفة ، قال موسى : مروا لهم من عندى بوصيف وصيف· فانصرف الناس كلهم ومع كل واحد منهم وصيف ووصيفة» (1) ·

وليس من شك فى ان المغرب ـ لهذه العوامل مجتمعة وخاصة قـدوم الاندلسيين فى هجرة منظمة تضم كثيرا من الفقهاء ورجال العلم ـ قـطـع مرحلة فى التعريب لايستهان بها ، كان من المنتظر أن تعقبها مراحل اخرى لولا انه تعرض فى أواخر أيام الادارسة وبعدها لاضطراب شديد ظل يعانيه حتى عهد المرابطين ·

---

1) ضميمة فى بحث الدكتور محمود مكى :
Egipto y la historiographia arabico - espanola
صفحة 224 (مجلة معـهـد الـدراسات الاسـلامية بمدريد ـ العدد الخامس سنة 1957 عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنـوات على انشاء الصحيفة) ·

وكان محتما ان يتأثر سير التعريب بهذا الاضطراب ، خاصة وأنه كانت لاتزال للبربر قوة ومنعة ومراكز لم تخضع بعد للاسلام • ومن غريب الامر أن تكون العوامل التي ساعدت ـ وكان من الممكن أن تساعد أكثر ـ على نشر اللغة العربية هي نفسها العوامل التي خلقت هذا الاضطراب وأضرمت ناره • فقد بدأ العرب ـ بعد أن عزوا وكثر عددهم ـ يستبدون بالامور ، ويوزعون بينهم المناصب واخذتهم النخوة العربية والعصبية القبلية فكان أن شق المغاربة لهم عصا الطاعة ، وكان أن دخلت البلاد في عهود مظلمة من الفوضى نتج عنها أن تأخر أمر اللغة وأمر الدين كذلك •

وبعد قرون من الاضطراب والخمول ، أتيح للمغرب أن يعرف على عهد المرابطين حياة مستقرة لم تلبث أن خلقت نهضة شاملة اثرت فيمختلف مجالات الحياة وخاصة في مجالي اللغة العربية والثقافة الاسلامية • وأظننا نستطيع أن نعزو هذه النهضة التي شملت التعريب الى عوامل أهمها :

1 ـ **قوة الدولة** في مجالات الدين والسياسة والاقتصاد ومانتج عن هذه القوة من استقرار بعث الطمأنينة في نفوس المغاربة وثبت العقيدة في قلوبهم وأتاح لهم فرص التعلم والدرس •

2 ـ **الوحدة مع الاندلس** وما حملت الى المغرب من روافد في جميع ميادين العلم والحياة فتحت للمغرب آفاقا حضارية وثقافية ، فقد اقبلت وفود العلماء والفقهاء والادباء من الاندلس الى المغرب في تدفق لم يكن له مثيل ، ووفد على ابن تاشفين «من كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ••• من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار» (1) • وكذلك فعل ابنه علي ، فلم «يزل ••• من أول امارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك» (2) •

3 ـ **انشاء المدارس والرباطات** في مختلف المراكز بقصد تثبيت الوعي

---

1) المعجب لعبد الواحد المراكشي تحقيق العلمي والعريان (ط القاهرة) صفحة 163 ـ 164 •

2) المصدر السابق صفحة : 173 •

الدينى والاصلاح الاجتماعى ، وبقصد نشر التعليم وتعميم الثقافة .
وأهم هذه المعاهد كلها جامعة ابن يوسف التى أسسها على بن يوسف بن تاشفين فى مدينة مراكش .

4 — **عناية المرابطين بالثقافة** ، فقد كانوا شغوفين بالعلم محبين لرجاله فى كثير من الصدق والتفانى والاخلاص . ولاعجب فالدولة قامت على اساس من العلم والاصلاح . واذا كان يوسف بن تاشفين قليل المعرفة باللغة والثقافة العربيتين ، فانه كان — باجماع المؤرخين — محبا للعلم مقربا لاهله، ونقول قليل المعرفة ولانقول جاهلا — كما يحلو لبعض الباحثين ان يصفوه — لانه لاشك نال من هذه المعرفة قسطا ابان دعوة ابن ياسين ومرابطته معه

ومع ذلك فالباحث فى كتب الطبقات سواء منها الاندلسية او المغربية لايلبث ان يكشف النقاب عن أسماء كثير من أمراء الدولة وكبرائها الذين كانت لهم عناية خاصة بالعلم امثال :

زاوى بن مناذ بنعطية الله بن منصور الصنهاجى المشهور بابن تقسوط (1) .

خلوف بن خلف الله الصنهاجى (2) .

عمر بن امام بن المعتز الصنهاجى الملقب بالفقيه القائد (3) .

الامير المنصور محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجى اللمتونى (4).

الامير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تعيشت (5) .

ابوبكر بن ابراهيم المعروف بابن تافلويت (6) .

ولعل حركة التعريب سارت بعيدا على عهد الموحدين حيث نشط نظم

---

1) التكملة لكتاب الصلة لمحمد بن الابار القضاعى ج 1 صفحة 89 طبعة كوديرا .
2) الجذوة لابن القاضى صفحة 115 طبعة حجرية .
3) التشوف الى رجال التصوف ليوسف بن يحيى التادلى المعروف بابن الزيات تحقيق ادولف فور نشر معهد الابحاث العليا المغربية سنة 1958 صفحة 198 .
4) التكملة ج 1 صفحة 193 .
5) المصدر السابق ج 2 صفحة 616 ووفيات الاعيان ج 2 صفحة 488 .
6) مقدمة ابن خلدون صفحة 519 — 520 .

مسائل اللغة العربية ، وحفظ متونها ، وازدهرت دراستها ودراسة العلوم اللسانية المتصلة بها ، وشاعت فى لغة التخاطب بين مختلف طبقات الشعب لدرجة أن من يتتبع المقابلات التى أوردها ابن هشام فى كتاب «لحن العامة» بين الكلمات العربية والكلمات المغربية العامية لايجد الفروق كامنة الا فى المعنى الجديد الذى اكتسبه اللفظ العربى من جراء انتقاله من بيئة الى بيئة أخرى مغايرة ومختلفة ٠

ومع ذلك فقد لجأ الموحدون الى البربرية وسيلة للاتصال بالجماهير والتأثير عليها ؛ فالمهدى يدرس بالبربرية ويؤلف بها كتبه فى المذهب ويأمر بالنداء للصلاة بها على حد اتهام المأمون له (1) ، وعبد المومن يكتب لولاته بأن «يؤمر الذين يفهمون اللسان الغربى ويتكلمون بـه ان يقرأوا التوحيد بذلك اللسان» (2) و «كانوا لايقدمـون للخطابـة والامامة الا مـن يحفظ التوحيد باللسان البربرى» (3) ٠ ولكنا نرى ان مجال البربرية كان محدودا لايتعدى الدعوة الدينية ، وان العربية لانتشارها كانت قد غدت أداة الدولة فى جميع المصالح والمرافق ٠

ونستطيع أن نعزو هذا الانتشار الى العوامل الآتية :

1 ـ **هجرات بنى هلال وبنى سليم للمغرب** ، وكان قد استقدمهم المنصور (4)

---

1) الاستقصا ج 2 ص 212 (2) رسائل موحدية صفحة 39 نشر بروقنسال

3) القرطاس لابن ابى زرع ، صفحة 46 ٠

4) انظر تفاصيل اخبار هاتين القبيلتين فـى الاستقصـا ج 2 من ص 145 الى 158 والقرطاس صفحة 154 وتاريخ ابن خلدون ج 6 صفحة 12 ٠ ويبدو أن استدعاء العرب واستقدامهم للمغرب بـدأ على عهد عبد المومن (انظر المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ص 172 ـ 173 تحقيق عبد الهادى التازى) وعلى عهد يوسف بعده (المصدر السابق ص 412 ـ 413 ـ 414 ـ 415) ٠ ويقول ابن صاحب الصـلاة ان يوسف امر فى مراكش «بدخول اشياخ العرب والوفود للمبايعة واخذ العهد عليهم فى ذلك فدخلوا ٠٠٠ وتمت بيعتهم» ٠ (ص 433) وكان قد امر «٠٠٠ بتمييز العرب المذكوريـن وان يحضروا بين يديه فى رحبة قصره العتيق بدار الحجر داخل حضرة مـراكش ٠٠٠ فابتدأوا بالدخول عليه ٠٠٠ على ترتيب توحيدهم اولا فى قبائلهم السابقة لهذا الامر العزيز وعشائرهم فكان الذى ابتدأ أول يوم قبيلة زغبة لتقدمهم فى التوحيد وأمروا ان يدخلوا فى كل يوم بعدد معلوم مـــن

بعد أن قدموا الطاعة اثـر انتصاره على حليفهم ابن غـانية . وكـان لهذه الهجرات اثر كبير جعل ابن خلدون يرى ان «العرب لم يكن المغرب لهم فـي الايام السابقة بوطن وانما انتقل اليه في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك فكانت أخبارهم من أخبارها ... وأما آخر مواطن العرب فكانت برقة» (1) ومـثـل هذا يـراه ابو القاسم الزياني حيث يقول انه « لم يكن بالمغرب كله أحد من قبائل العرب الى ان جرهم المنصور الموحدي بمكيدة الجهاد» (2) .

2 ـ **وفود جماعة من غز مصر** (3) ، وهم طائفة من الموالـي اتـراك الاصل حالفوا بني هلال وبني سليم في انضمامهم لثورة ابن غانية .

3 ـ **وفود جماعة من عرب بني معقل** كانوا بدورهم حلفاء لبني هلال (4) .

4 ـ **زيادة توافد الاندلسيين** على المغرب بعد ان تمغربت الاندلس .

كل هذه العوامل كان لها اكبر الاثر في انتشار اللغة العربية عـلـى نطاق واسـع شمل الحواضر والبوادي والجبال والسـهـول حيث عـاش الوافدون مع البربر حياة واحدة جعلتهم يتجانسون معهم ويتبادلون أساليب العيش والاعراف ، مما زاد في تغلغل العربية وتمكنها مـن الالسنة لدرجة اصبح البربر كلهم على حد قول الفريد بيل يتقنون اللغة العربية في جبال

القبيل المأمور له فتمادى تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوما يدخلون غدوة حتى صلاة الظهر ثم يرجعون بطائفة اخرى من بعد صلاة الظهر الى آخر النهار على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر» (ص 434 ـ 435) .

1) ج 6 ص 4 من تاريخ ابن خلدون .

2) الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا صفحة 69 نشر الاستاذ عبد الكريم الفيلالي (وزارة انباء المغرب سنة 1967) وقد علق الناشر على هذا الكلام برأي غريب قال فيه : «يلاحظ ان المؤلف لم يصل علمه الى ان قبائل بني سليم وبني هلال ورباح وصباح وبني معقل وهي قبائل قدمت منذ الفتح العربي الاول من صعيد مصر الى عموم المغرب توجد خصوصا بالجنوب» .

3) انظر المعجب صفحة 288 .

4) انظر الاستقصا ج 2 من صفحة 159 حتى 162 .

الاطلس (1) وغدوا – كما يقول كـوتيبى – يستنكرون الاصـل البربـرى ويـرفضون الانتساب اليه ولايكتفون باستعمال اللغة العربية فحسب بـل يؤكدون انهم عرب وأنه لاتجرى فى روقهم نقطة من الدم ليست بعربية (2) وهو رأى يؤكده ماجاء فى دائرة المعارف الاسلامية مـن أن البربر «تغيروا تغيرا عظيما لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم فى أغلب الاحيان (3)

(1 A. BEL
LA RELIGION MUSULMANE EN BERBERIE
(établissement et développement de l'Islam en Berbérie)
P 204

(2 F.F. Gantier
LES SIECLES OBSCURS DU MAGHREB
P 410

3) الترجمة العربية مادة : بربر .

نشأة العـامية

لسنا نريد أن نذهب أبعد من هذا فى تتبع مراحل التعريب ، فليس من شك فى أن عهد الموحدين شهد تمام استعراب المغاربة ، وليس من شك كذلك فى أن هذا الاستعراب سار فى اتجاهين :

الاول : انتشار العربية الفصحى لغة للكتابة والعلم : وتتمثل فـى نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والعلوم والآداب ، وهى لغة مشتركة بين أبناء العربية والاسلام فى كل الازمنة والاقاليم · ولسنا بصدد التعرف الى هذا الاتجاه ·

الثانى : انتشار العربية لغة للتخاطب والحياة العادية اليومية ، وهـى لغة لم تكن معربة بأى حال من الاحوال ، وانما كانت لهجة دارجة (1) تختلف فى المغرب عن غيره من الاقاليم ، وهى التى يهمنا ان نتعرف اليها ·

و «اللهجة فى الاصطلاح الحديث هى مجموعة من الصفات اللغويـة تنتمى الى بيئة خاصة ويشترك فى هذه الصفات جميع افراد هذه البيئة · وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عـدة لهجات لكـل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعا فى مجموعة من الظواهـر اللغوية التى تيسر اتصال افراد هذه البيآت بعضهم ببعض وفهم ماقد يدور بينهم من حديث فهما يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات · وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات هى التى اصطلح على تسميتها باللغة · فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص» (2)

---

(1) كان علماء العربية القدماء يطلقون على اللهجة : اللغة واللحن · أمـا ما نسميه نحن لغة فكان يطلق عليه «اللسان» وبـه ورد معناها فـى القرآن الكريم ·

(2) «فى اللهجات العربية» للدكتور ابراهيم انيس ص 13 الطبعة الثانية لجنة البيان العربى — القاهرة سنة 1952 ·

وتتميز اللهجات داخل اللغة الواحدة بثلاثة عناصر :

اولا : طبيعة الاصوات ·

ثانيا : مبنى بعض الكلمات ·

ثالثا : معنى بعض الكلمات ·

على أنه مهما اختلفت اللهجات فى الاصوات ، فانـه ينبغى ان تظل مشتركة ـ ولو الى حد ـ فى مبانى الكلمات ومعانيها ، لانه متى اتسع نطاق الاختلاف فى بناء الكلمات ودلالتها واصبح كبيرا ومبعدا للفهم ، استقلت اللهجة لتصبح لغة ·

ونستطيع ان نعزو تكوين اللهجات الى عوامل أهمها :

اولا : توارث الكلام جيلا اثر جيل ·

ثانيا : طبيعة الاقاليم ·

ثالثا : الاحتكاك بالاعاجم والاتصال بهم ومدى هذا الاتصال ومابنقل به من كلمات وتراكيب اجنبية ·

رابعا : اختلاف الالسنة والحناجر قوة وضعفا وصلابة ورخاوة ·

وقد تنبة ابن حزم الى بعض العوامل حين قال : «··· والعربية التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكـن اهلها فحدث فيها جرش (1) كالذى يحدث من الاندلسى اذا رام نغمة اهـــل القيروان ومن القيروانى اذا رام نغمة الاندلسى ومن الخـراسانى اذا رام نغمتها · ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد ان يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهـل قرطبة · وهكذا فـى كثير من البلاد فانه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديـــلا لايخفى على من تأمله · ونحن نجد العامة قد بدلت الالفاظ فى اللغة العربية تبديلا وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق فنجدهـــم يقولون : فى العنب العينب وفى السوط اسطوط وفى ثلاثة دنانير ثلثدا · واذا تعرب البربرى فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة واذا تعرب الجليقى ابدل من العين والحاء هاء فيقول مهمدا اذا اراد ان يـقـول محمدا · ومثل

1) الجرش الحك ويريد احتكاك اللغات بعضها ببعض ·

هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن ان اختلافها انما هو من نحو ماذكرنا من تبديل الفاظ الناس على طول الازمان واختلاف البلدان ومجاورة الامم وانها لغة واحدة فى الاصل» (1) .

ويذهب الدكتور ابراهيم انيس الى أن تكون اللهجات يعزى الى عاملين رئيسيين هما :

«1 ـ الانعزال بين بيئات الشعب الواحد .

2 ـ الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات» (2) .

حقا لقد اتسع نطاق العربية باتساع رقعتها فى بلاد مختلفة فصلت بينها حواجز طبيعية وسياسية جعلت اتصال أبناء هذه البلاد محدودا . فكان أن نشأت فى كل اقليم وبعد فترة ما ـ طويلة او قصيرة ـ لغة جديدة متطورة عن اللغة الاصلية تطورا يخضع لطبيعة البيئة والسكان وظروف الحياة فى مختلف نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وحقا كذلك ان الصراع بين العربية ولغات البلاد المفتوحة يختلف قوة وضعفا من اقليم الى آخر . ولكن من الخطأ الظن بأن العربية حين وفدت الى هذه البلاد كانت معربة ونقية بل انها كانت تتخذ شكلين :

الاول : اللغة المعربة المتمثلة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وما حمل الفاتحون من علوم .

الثانى : لغة الفاتحين ، وتمثل لهجات مختلف القبائل والطبقات التى شاركت فى الفتح .

ولعله من الانصاف أن نقول ان الصراع بين العربية واللغات المحلية لم يكن صراعا بين لغة القرآن وتلك اللغات ، وانما كان بين هذه وبين اللغة التى كان يتكلم بها الفاتحون ويتخاطبون فى حياتهم اليومية العادية ، أى بين اللغات المحلية وبين مجموعة من اللهجات العربية ؛ اذ من الخطأ الظن

---

1) «الاحكام فى اصول الاحكام» لابى محمد على بن حزم الظاهرى ج 1 ص 31 ـ 32 الطبعة الاولى مطبعة السعادة . مصر .

2) «فى اللهجات العربية» ص 18 .

بأن هذه اللهجات لم تكن موجودة ، بل انها كانت تعايش العربية الفصحى فى موطنها الاصلى ومنذ أول عصورها حتى فى غير التخاطب ٠ فليس من شك أن العرب فى جاهليتهم كانت لهم اشعار غير تلك التى وصلتنا والتى تمثل مرحلة نضج الشعر والتى يرجع تاريخها الى حوالى قرن ونصف قرن قبل البعثة ؛ وليس من شك كذلك أن هذه الاشعار التى لم تصلنا كانت بمختلف اللهجات العربية ولم تكن بلغة قريش وحدها لان قريشا لم تكن قد تمت لها السيادة ٠ وحتى بعد ان أصبحت للغة قريش مكانتها فى بلاد العرب — وهى المكانة التى عززها الاسلام حيث اصبحت لغة الدولة والدين — لم يقض على اللهجات القبلية الدارجة ٠

ومع ذلك كان العرب فى صدر الاسلام يأنفون من الابتعاد عن النطق الفصيح ٠ فقد كان اللحن على عهد الرسول صلوات الله عليه يعتبر ضلالا، ويروى عنه أنه قال ، وقد لحن احد المسلمين بحضرته : «ارشدوا اخاكم فانه قد ضل» و «يروى ان عمر رضى الله عنه كان يضرب على اللحن ٠ فأما العرب فاذا لحن الواحد منهم لقربه من الحاضرة ونزوله على طريقة السابلة سقطت عند اهل اللغة منزلته ودفعت ورفضت لغته» (1) ٠

وكان بنو مروان يبعثون اولادهم للبادية حتى تنشأ السنتهم مستقيمة، فانه يروى أن عبد الملك الزم ابنيه هشام ومسلمة بالبادية فكانا فصيحين ٠ أما ابناه الوليد ومحمد فلم يخرجا فكانا لحانين ٠ وكان يقول : «اضر بالوليد حبنا فلم نوجهه للبادية» ويروى كذلك انه : «قيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المومنين ، قال : وكيف لايعجل على وانا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين ، يعنى خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من أمور» (2) ٠

---

1) «نقد النثر» لابى الفرج قدامة بن ابى جعفر الكاتب البغدادى ٠ تحقيق د ٠ طه حسين وعبد الحميد العبادى ٠ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة 1938 ٠

2) «البيان والتبيين» للجاحظ ج 1 ص 135 طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — سنة 1948 — تحقيق عبد السلام هارون ٠

وماكاد امر الدولة الاموية ينتهى ـ وهى الدولـة العربية الخالصة ـ حتى تفشت العجمة وانتشر اللحن ، فقد غلب الطابع الاسلامى على دولـة بنى العباس ، وهى دولة فارسية ما فى ذلك شك ، اتيحت فيها فـرص المناصب الكبيرة ومراكز السلطة لغير العرب ، فلم يكن غريبا ان تتعرض اللغة لهزات عنيفة وتواجه انماطا من اللغات ومن اللهجات ، ولم يكن غريبا بالتالى أن يصيب العربية تغيير كبير أبسط مظاهره شيوع الاخطاء وتفشى اللحن وانتشار الاساليب المولدة . يقول ابوبكر محمد الزبيدى فى «لحـن العوام» : «ولم تزل العرب فى جاهليتها وصدر من اسلامها تبرع فى نطقها بالسجية وتتكلم على السليقة حتى فتحت المدائن ومصرت الامصار ودونت الدواوين فاختلط العربى بالنبطى والتقى الحجازى بالفارسى ودخل الدين اخلاط الامم وسواقط البلدان فوقع الخلل فى الكلام وبدأ اللحن فى ألسنة العوام» (1) .

وبذلك دخلت الفصحى فى صراع مع العاميات كان من نتائجه أن بدأ الناس ـ وحتى المتعلمون منهم ـ يعتبرون العربية النقية التى لـم تتأثـر بالتيارات الجديدة لغة خشنة جافة ، واصبح اللحن يغتفر . يقول قدامة : «وربما اغتفر فى دهرنا هذا اللحن والخطأ للانسان فى كلامه لكثرة اللحـن فى الناس وانه قد فشا وعظم وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الاعاجـم والاقباط وسائر الاجناس (2)» . بل اصبح يجب على المتكلم ان يلحن فى بعض المواقف وفى هذا يقول قدامه : «وأما المواضع التى يجب أن يستعمل اللحن فيها ويتعمد له فى أمثالها ويكون ذلـك مما يوجبه الرأى فهو عند الرؤساء الذين يلحنون والملوك الذين لايعربون ، فمن الـرأى لذى العقـل والحنكة والحكمة والتجربة الا يعرب بين ايـديهم وأن يدخـل فـى اللحن مدخلهم ولايريهم أن له فضلا عليهم ، فان الرئيس والملك لايحب ان يرى احدا من تباعه فوقه ... ومن ذلك مايحكى عن بعض من تكلم فى مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون فلحن فعوتب على ذلك فقال : لو كان الاعراب

1) صفحة 4 طبعة اولـى ـ القاهـرة سنـة 1964 تحقيق د . رمضـان عبد التواب .

2) نقد النثر ص : 143 .

فضلا لكان أمير المومنين اليه أسبق (1)» ·

لذا لم يكن عجيبا ان نرى الجاحظ يتحدث فى «البيان والتبيين» عن لغة مختلف طبقات الناس ويجعل بابا للحن وآخر للحانين البلغاء ، ويذكر انه «قيل لابى حنيفة : «ماتقول لرجل اخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، اتقيده به ؟» قال : «لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس (2) وأن أبا شيبة قاضى واسط قال : «أتيتمونا بعد أن أردنا أن نقم (3)» ·

ولم يكن عجبا كذلك ان نرى مجموعة من العلماء فى حدود المائة الثالثة تؤلف فى لحن العامة امثال أبى عبيدة وأبى حنيفة الدينورى وابى عثمان المازنى وأبى قاسم السجستانى والفراء والمفضل بن سلمة ، وان نرى مجموعة أخرى تؤلف فيما بعد عن لحن الخاصة امثال ابى هلال العسكرى والحريرى ، فى وقت ظل آخرون يؤلفون فى لحن العامة امثال ابى بكر الزبيدى (ت سنة 379) وأبى منصور الجواليقى (ت سنة 539) ·

يتضح لنا من هذا كله أن اللغة العربية التى انتشرت فى المغرب كانت تتخذ شكلين :

الاول : معرب تمثله النصوص المدونة والمروية ، وقد تكيف — ولو الى حد — بالاقليم الذى القى بظلاله عليه وأكسبه طابعا محليا يميزه عن غيره ·

الثانى : عامى ، وتمثله خمس مجموعات من اللهجات :

1 — لهجات الفاتحين الاول ·

2 — لهجات الوافدين من الاندلس والقيروان ·

3 — لهجات بنى هلال وبنى سليم وحلفائهما ·

4 — لهجات المغاربة الذين كانوا يحاولون أن يتعلموا اللغة العربية فى المغرب ·

5 — لهجات المغاربة الذين رحلوا الى المشرق أو الاندلس والقيروان وعادوا الى بلادهم ·

---

1) المصدر السابق ص 144 ·
2) البيان والتبيين ج 2 ص 212 ·
3) المصدر السابق ص : 222 ·

ولعلنا نستطيع ، مما نعرف من مواطن نزول مختلف الوافدين ، أن نذهب الى ان لهجات أهل الاندلس والقيروان كانت منتشرة في فاس والمناطق المتاخمة لها فى الشمال ، وأن لهجات بنى هلال وبنى سليم كانت منتشرة فى الجنوب . ومع ذلك فالواقع ان من كل هذه المجموعات ومن اللغة العربية الفصحى كذلك ، وبالتأثر لاشك باللهجة او اللهجات البربرية المحلية ، «نشأت بالضرورة لغة للتفاهم لايمكن ان نصورها بسهولة كافية الا اذا ضربنا مثلا Lingua franca أو Pidgin english او غيرهما من اللغات المصطنعة لتقريب التفاهم عند الضرورة . وقد استعانت لغة التفاهم المذكورة بأبسط وسائل التعبير اللغوى فبسطت المحصول الصوتى وصوغ القوالب اللغوية ونظام تركيب الجملة ومحيط المفردات وتنازلت عن التصرف الاعرابى واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها كما ضحت بالفرق بين الاجناس النحوية واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة فى مواقع الكلام للتعبير عن علاقات التركيب (1)» .

---

1) «العربية دراسات فى اللغة واللهجات والاساليب» تأليف يوهان فك : Johann Fuck ترجمة استاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة دار الكتاب العربى . القاهرة سنة 1951 .
وفى تعليق بنفس الصفحة ان Lingua Franca اصطلاح اوربى يقابله فى بلاد الشرق تعبير اللغة الافرنجية ، وهى خليط من الكلمات الايطالية والفرنسية واليونانية وغيرها ، يستعمله المشارقة فى التفاهم مع الاوربيين . و Pidgin english اصطلاح على لهجة انجليزية مبسطة محررة من القيود اللغوية يجرى التفاهم بها بين الانجليز والاجانب على الاخص فى بلاد الشرق الاقصى .
و Pidgin كلمة محررة عن business الانجليزية .

خصـائصها

الاسف شديد أنا لانعرف حال العامية حين نشأت فى المغرب ولاحين تطورت عبر القرون ــ وما أسرع ما تتطور ــ طالما أنها غير مقيدة بكتابة او قواعد · ولسنا نجد من وصفها الا اشارات عابرة خفيفة كالتى قدم المقدسى حين تحدث عن اقليم المغرب فقال : «ولغتهم عربية غير انها منغلقة مخالفة لما ذكرنا فى الاقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومـى ··· والغالب على بوادى هذا الاقليم البربر وأكثرهم بكـورة السوس وهم قـوم على عمـل الخوارزمية لايفهم لسانهم ولاترضى طباعهم (1)» ·

كذلك نجد ابن هشام اللخمى فى «لحن العامة (2)» يتعـرض للغات العامية فى مختلف الاقطار ومنها المغرب · وقد نشر استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى بحثا بعنوان «الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة (3)» اختار منه بعض الالفاظ الاعجمية التى تسربت للهجة المغربية الاندلسية من البيئة المحلية كما اختار بعض الالفاظ التى اكسبتها هذه البيئة معنى جديدا ·

ولو شئنا أن نتعرف الى حال هذه اللهجة بعمق واستقصاء وتفصيل لاحتاج منا ذلك الى بحث مستفيض ومجال واسع لايتهيآن لنا فى هذا الفصل ولايتيحهما موضوع الرسالة نفسه · لذلـك فاننا نكتفى بالقاء الضوء على بعض الخصائص التى من شأنها أن تقرب هذه اللهجة الى القارىء البعيد عنها وتسهل فهمها عليه ·

وقد قسمنا هذه الخصائص الى قسمين : احدهما عام يشمل اللهجة

---

1) «أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم» ص 343 طبعة ليدن 1909 ·

2) مخطوط بالاسكوريال حيث توجد منه نسختان رقم الاولى 46 ورقم الثانية 99 ·

3) مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة 1957 ·

الدارجة المغربية ، ونقصد اللهجة العامة المنشرة فى أهم المدن والمناطق ، والثانى خاص بلهجة الزجل ، وهى تدخل فى نطاق اللهجة العامة لاتختلف عنها الا فى بعض الجوانب التى حاول الشعراء تطويرها او اضافتها تطويعا للغتهم حتى تسعفهم فى التعبير الفنى ·

اولا : خصائص عامة (1) :

1 ـ فتح عين اسم الفاعل فيقال فى :

صالح = صالح (بفتح اللام)

عـالم = عالـم (بفتح اللام)

باستثناء لهجة الجبل فانها تحتفظ بالكسر·

2 ـ تسكين عين فاعله فيقال فى :

جاريه = جاْريه (بتسكين الراء)

قابلة = قابلة (بتسكيـن الباء)

نادمة = نادمة (بتسكين الدال)

3 ـ حذف ياء مفاعيل مع تسكين الميم وفتح العين ، فيقال فى :

مفاتيح = مفاتح (بتسكين الميم وفتح التاء)

مزامير = مزامـر (بتسكين الميم الاول وفتح الميم الثانـــى)

4 قلب (ا ء) النهائية الى تاء تانيث مربوطة فيقال فى :

حمـراء = حمـرة

ثلاثـاء = ثـلاثة

صحراء = صحـرة

5 ـ حذف الياء فى وادى فيقال : واد بتسكين الدال

وكذلك فـى جـوارى فيقال : جوار بتسكين الجيم والراء

---

1) انظر فى ذلك : I — Louis Brunot ; a) Introduction à l'arabe marocain. G-P. Maisonneuve et Cie Paris 1950
b) Sur le thème verbal F'al en dialectal marocain Mélanges W. Marçais Paris 1950 P. 56.

2 — G. S. Colin : Notes de dialectologie arabe Hesperis - T. X 1930. Fas I.

6 استخدام صيغة المثنى للجمع فيقال :

ويدان (ج واد)

فيسان (ج فاس)

7 ـ استخدام الجمع للمثنى فيقال فى :

ضربتهما = ضربتهم ابزوج (تضاف ابزوج لتأكيد التثنية)

قـرأتهما = اقريتهم ابزوج

8 ـ استخدام الجمع بمعنى المفرد ، فيقال فى :

جـنـة = جـنـان

قـبـر = قـبـور

روض = ريـاض

خـلـق = اخـلاق

عضـو = اعضـا

9 ـ نطق اسم الموصول : الذى = اللى ، وهو نطق تكاد تشترك فيه جميع اللهجات العربية ٠

10 ـالتزام بعض الاسماء الخمسة لحالة واحدة ، مثل :

ابـاك ـ خـاك

احمـوك

11 ـخضوع الاضافة لاسلوبين :

1 ـ مركب باستخدام كلمة متاع او ديال ، فيقال فى :

كتابى = الكتاب اديالى

دارنا = الـدار امتاعنا

2 ـ بسيط باستخدام الضمائر والتزام الحركات على هذا النحو:

أ ـ النصب فى حالة الخطاب فيقال :

عمك ـ خالك ـ كتابك ـ دارك ٠

ب ـ الرفع فى حالة الغائب المفرد ، فيقال :

راسو ـ جدو ـ بيتو ٠

ج ـ السكون فى بقية حالات الغياب فيقال :

حبيبها — رجلها (للغائبة)

بلادهم — دارهم (للغائبين والغائبات)

12 — ورود اسم الاشارة على هذه الصيغ :

هـاذوك

هـاذول

ذوك

ذوكـا

13 — تسهيل الهمز ، فيقال فى :

رأس = راس

بئـر = بيـر

14 — تشديد الضمير الغائب المفرد ، فيقال :

هـو — هـى

15 — نطق حـرف الجر (فـى) دون مـد الفاء مع ميل الى فتحها ، وكتابتها — ان كتبت — متصلة دائما بمجرورها : فـالـدار — فالبيت .

16 — نطق (له) و (به) على حالتين :

1 — له بكسر اللام وتسكين الهاء (ومثلها به)

2 — لـو بالضـم والمـد (ومثلها بو)

17 — ابدال هاء الغائب واوا فيقال فى :

كتبه = كتبو (مع تسكين التاء)

ضربه = ضربو (مع تسكين الراء)

وقد تحذف هاء الغائبة كذلك فـى لهجة الشمال ومنطقة صفرو والبهاليل فيقال فى :

كتبها : كتبا (مع تشديد الباء)

ضربها : ضربا (مع تشديد الباء)

18 — تسكين أواخر الكلمات وعـدم اتخاذ الحركـات وجواز التقاء الساكنين .

19 ـ ورود الفعل المضارع فى حالة المتكلم المفرد على صيغة الجمع ، فيقال :

نكتب ـ نلعب (بتسكين آخر الفعل)

20 ـ ورود الفعل المضارع فى حالة الجمع على نفس الصيغة مع مد آخر الفعل وضمه فيقال :

نكتبو ـ نلعبو

21 ـ حذف نون الجمع فى المضارع ، فيقال فى :

ياكلون : ياكلوا

يمرحون : يمرحوا

22 ـ زيادة حرف (الكاف) أو (التاء) فى أول المضارع للدلالة على الحال والاستمرار ، فيقال :

كيخدم ـ تيقرا

ويلاحظ أن لهجة الشمال تزيد (اللام) وعبارة (غالا) فتقول :

لايلعب ـ غالا يقرا

23 ـ اضافة حرف الشين للتعبير عن النفى فيقال :

ماتلعبش ـ ماتجريش ـ (بتسكين الشين أو كسرها)

24 ـ استخدام صيغة افعال للدلالة على الصيرورة ، حيث تبنى عليها :

1 ـ افعال مشتقة من الالوان ، فيقال :

احمار : صار احمر

اصفار : صار اصفر

2 ـ افعال مشتقة من بعض الصفات ، فيقال :

اعراج : صار اعرج

ارطاب : صار رطبا

أطوال : صار طويلا

احماض : صار حامضا

اصلاح : صار صالحا

25 ـ استعمال صيغة مفعال (بفتح الميم وكسرها) لمجرد الوصف ، فيقال :

محساد ـ مغيار ـ مبراص ـ مزيان

ثانيا : ظواهر خاصة :

نظرا لان اللغة العامية لاتستعمل الا للشؤون العادية فانه «من الصعب على من يريد التعبير بواسطتها عن احساساته الخاصة وأفكاره أن يكتفى بمفرداتها المحصورة فيضطر الى الاقتباس من اللغة الفصحى ، ولم يتأت هذا بالطبع فى أول الامر الا لشعراء كانوا من المثقفين الذين تعلموا العربية الفصحى وأجادوها مثل سيدى عبد العزيز المغراوى فى القرن العاشر» (1)

فقد ادخل اشياخ الملحون ـ والمثقفون منهم خاصة ـ كثيرا من المترادفات وكثيرا من الغريب · وجاء الاميون منهم فقلدوهم فى استعمال هذه الالفاظ · ثم ان هؤلاء الاميين كانوا يجلسون الى العلماء ويستفيدون من الدروس والمجالس مما قوى ثروتهم اللغوية · ومع ذلك لم يكونوا يتقيدون وكانوا يتصرفون فى الصيغ والتراكيب · ومن هنا نلاحظ جملة ظواهر ، منها انهم :

1) جمعوا قصيدة على قصدان وأنملة على نمول وكأس على كيوس وحاجة على حيجان ·

2) نجأوا الى الصفات وسموا بها كقولهم للقلب الخبير والساكن ، وللبحر الزخار والمالى ، ولشمس العشية الذهبية ، وللغزال الحذار أى الذى يحذر الصياد ، وسموه الجفال والشرود · وكثر ذكر الغزال فى شعرهم لتشبيه المحبوبة به فأطلقوا عليه الدامى والدروج والربراب والريم والزهزام والزهزوم والمها والصياح والعراض والعمهوج والقرهوب والشادى وشارد العفا والشرشة والشريد والوسنان واليطلول واليعفور ·

من هذا قولهم فى أسماء العيون : أبصار وأتماد وأحداق وأرماق

---

1) مقال «لغة الملحون» للاستاذ محمد الفاسى ـ مجلة البحث العلمى عدد 4 ـ 5 السنة الثانية يناير غشت 1965 ·

وأرماش وألحاظ وأعيان واغلاس وأغناج وتمود ورموق وروامق ومقلات وانجال ونجلات ونواجل ونيام ٠

3) اشتقوا من الاسماء صفات فقالوا : رجيل للرجل الشجاع الصابر ، ورجول لكامل الرجولة ٠ وقالوا : مبشور ـ مشتقة من البشر ـ اى فرح مبتهج ، واشتقوا من الادب : مدوب ٠

4) استعملوا المفرد بمعنى الجمع وخاصة فى صيغة فعول ، فقالوا : حسود يقصدون الحساد وجحود بمعنى الجاحدين ٠

5) استعملوا صيغة تفعال فى المصادر فقالوا :

التحقاق بمعنى التحقيق

التجفال بمعنى التيه والصد

التغراد بمعنى التغريد

التفراد بمعنى الانفراد

6) استعملوا صيغة تفعيل فى غير المعنى الذى تؤديه هذه الصيغة فقالوا:

التزهيد بمعنى الزهد

7) استعملوا صيغة فعيل بمعانى :

1 ـ فاعل فقالوا : جهيل بمعنى جاهل وحسيد بمعنى حاسد

2 ـ منفعل فقالوا : سكيب بمعنى منسكب ٠

3 ـ متفعل فقالوا : حبيك بمعنى متشدد ٠

8) استعملوا صيغة افعال بمعنى استفعل فقالوا :

اسقام بمعنى استقام ٠

9) استعملوا مركبات اضافية للدلالة على بعض الكلمات والمعانى ، فقالوا: للقلب أمير الاكنان وأمير الحشا وأمير الاسيار (اى الدواخل) ، وللخمر بنت الدوالى ، ودم العنقود ، وللمحبوبة ام التيوت (اى الشعور السوداء) وأبو دلال وأبو دواح (اى صاحبة الحلق) وللفراشة أم الوبرات ٠

10) استعملوا بعض الالفاظ فى معانى معروفة فى العربية فقالوا :

الاحبار بمعنى الشعراء الكبار ٠

البطارق بمعنى العلماء الراسخين ·

الميــز بمعنى الذكاء مع لباقة وظرف ·

11) استعملوا كلمات عربية فى غير معانيها المعروفة مثل :

الوسنان للغزال ·

العانس للفتاة الجميلة

12) تصرفوا فى بعض الالفاظ اخضاعا لها للوزن والقافية ، فقالوا فى :

البنفسج : بلفجج وبلفجوج وبنفجيج ·

اتمـــاد : تمـود ·

13) أضافوا ياء الى بعض الكلمات ، مثل :

اطوادى : فى اطواد بمعنى الجبال ·

كتمانى : فـــى كتمان

14) استعملوا التنوين فى بعض الظروف : قبلا وبعدا ·

15) استعملوا التنوين فى بعض الافعال : ليس · وتكون بمعنى ما النافية وبمعنى لم · وجعلوها تدخل على الماضى · ومع ذلك فكثير استعمالها بدون تنوين ·

16) استعملوا ذى فى هذه ·

17) استعملوا اللذى فى الذى

18) استعملوا لان او لان (بنون ساكنة مشددة او مخففة) فى لأن

19) استعملوا كـن فـى كـأن

20) ثـم انهم تـوسعوا فـى لغتهم «فاستوعبـوا أسماء الازهار والالوان والاطعمة والطيور والحيوانات والاشجار والملابس والاسلحة وآلات الموسيقى وأوانى المنزل والاثاث وأدوات الصنائع فأدخلوا كل ذلك فى لغتهم حتى صارت من أوسع اللغات وأغناها بل حتى صار ذلـك من العوائق عن تفهمها وتذوقها لكثير ممن ليست لهم ممارسة ومعرفة خاصة بهذا الانتاج الادبى الضخم» (1) ·

---

1) مقال «لغة الملحون» للاستاذ محمد الفاسى ـ مجلة البحث العلمى عدد 4 ـ 5 السنة الثانية ـ يناير غشت 1965 ·

جــوانب بــلاغــيــة

تنطوى اللغة العامية بطبيعتها على شفافية وفعالية ومرونة وحيويــة تجعلها قادرة وباستمرار على امتصاص المعانى والافكار الجديدة واكتساب الالفاظ والتراكيب الوافدة ، يساعدها فى ذلك عدم تقيدها بقواعد وقوانين متجمدة تحول دون تكيفها مع الواقع واستقبال كل الروافــد واحتضان اى جديد ٠

ولكنها مع ذلك لاتكون صادقة وساحرة وجميلة الا اذا كانت متصلة بمنشئها محتفظة برهافتها وقدرتها على التعبير فى مستوى بلاغى رفيع ٠

أما الاتصال فليس من شك فى «أن اللغة اذا كانت منفصلة أو شبه اجنبية بالنسبة للشاعر فقد بطل سحرها فى نفسه وسقط التجاوب العاطفى بينه وبينها فأصبحت عاجزة أو أصبح هــو عاجــزا عن أداء هــذا التعبيــر الوجدانى فى صورته التامة الكاملة الدقيقة التى تشعر بالراحة وتزيـــح عن صدره ما يجثم عليه ويمتلىء به من انفعال وجدانى ٠٠ ان الشاعر لابد أن يمتلك أداته اللغوية امتلاكا كاملا ليكون قادرا على تصريفها فى اغراضه واستخدامها فى نظمه» (1) ٠

وأما البلاغة فان الحديث عنها قد يثير غضب الذين لايعترفون باللغة العامية اداة للتعبير الجميل ، وهم كثيرون ٠ وقبل أن نكشف لهؤلاء عــن جوانب البلاغة ومظاهرها فى شعر اداته اللهجة الدارجة ، فانــا نــرى أن نستعرض أقوالا لابن الاثير وابن خلدون لعلها أن تخفف مــن حدة غضب الرافضين للعامية وأدبها وأن تبعث فى نفوسهم بعض الاستعداد للنظر فى هذا الادب ٠

---

1) «ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر» لاستاذنا الجليل الدكتور عبد العزيــز الاهــوانــى ص 16 – 17 – مكتبة الانجلــو المصرية – القاهرة سنة 1962 ٠

يقول ابــن الاثير متحدثا عــن الطبع والآلات ، وهــى العلوم ، ومنها اللحن : «وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبــع فانه لاتغنى تلك الآلات شيئا ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فــى الزنــاد والحديدة التى يقدح بها ، ألا ترى أنه اذا لم يــكــن فى الــزنــاد نار لاتفيد تلك الحديدة شيئا (1)» . ويقول كذلك مبينا أن اللحن لايقدح فى الفصاحة والبلاغة : «.. أن الجهل بالنحو لايقدح فى فصاحة ولابلاغة ولكنه يقدح فى الجاهل بــه نفسه ، لانه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فــوجــب اتباعهم ، والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغــرضه منه رفــع الفاعل ونصب المفعول أو ماجرى مجراهما وانما غرضه ايراد المعنى الحسن فى اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة . ولهذا لم يكن اللحن قادحا فى حسن الكلام لانه اذا قيل : جاء زيد راكب ، ان لم يكن حسنا الا بأن يقال : جاء راكبا ــ بالنصب ــ لكان النحو شرطاً فى حسن الكلام ، وليس كذلك ، فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر اقامة اعــراب كلماته وانما الغرض أمر وراء ذلــك ، وهكذا يــجــرى الحكم فــى الخطب والرسائل من الكلام المنثور (2)» .

والى نفس الرأى يذهب ابن خلدون فى قوله : «ان العلم بقوانــيــن الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة المهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتــلــك القوانين اذا سئل فى كتابة سطرين الى اخيه أو ذوى مودته او شكوى ظلامة او قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الكلمة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهــو لايحســن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولاشيئا من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هى غير صناعة العربية وانها مستغنية

---

1) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر «لابى الفتح ضياء الدين بــن الاثير ج 1 ص 8 طبعة الحلبى مصر سنة 1939 .

2) المصدر السابق ص 18 ــ 19 .

عنها بالجملة (1)» ·

ويضيف مدافعا عن شعر أهل امصار المغرب من العرب ومحددا معنى البلاغة : «··· ولهؤلاء العرب فى هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول · والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا انشد ويعتقد أن ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها ، وهذا انما اتى من فقدان الملكة فى لغتهم ، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ان كان سليما فى الآفات فى فطرته ونظره ، والا فالاعراب لامدخل له فى البلاغة ، انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فاذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت البلاغة ، ولاعبرة بقوانين النحاة فى ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ماعدا حركات الاعراب فى أواخر الكلم (2)» ·

ومثل هذا يؤكده مختصرا فى تاريخه حيث يقول : «··· الا ان الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الاعراب ويحسبون أن الاعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك (3)»

اما مظاهر البلاغة (4) فى القصيدة الزجلية فيحصرها الاشياخ النقاد

---

1) المقدمة (فصل فى أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها فى التعليم) ، ص 492 طبعة بولاق ·

2) المقدمة (فصل فى اشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد) ص : 511

3) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 18 طبعة بولاق ·

4) يجدر بالذكر أن الشاعر الشعبى استعمل كلمة بلاغة · يقول ابن على فى أول قسم من «المحاورة» :

افراجا مقصيا اكما اسمعت انعاود للسامعين برضاهم
برجاحت لعقل وابلاغت لحبار جبت اخصام الخودات فى انهايت
شعرى منظوم

ويقول كذلك فى آخر قسم من «الحجام» :

غير ابلاغا فالشعر وانظامو
عمرى ماوشمت ولانعرف واشما ولانا داخل لكلوف

فى أربعة عناصر (1) :

اولا : التجنيس او الجناس ، ولايكون عندهم الا تاما ٠

ومن الامثلة عليه قول الكندوز فى «غاسق لنجال» ، وهو اكثر الشعراء براعة فيه :

بجفاك عمدا لى عدت انحيل

ماشفك تعذابى اولا محانى

سيف لجفا امحانى

لعباد لامحانى

فامحانى الاولى جمع محنة ، والثانية فعل محا فاعله السيف ، والثالثة فعل لمح بمعنى رأى فاعله العباد ٠ ومن الامثلة عليه كذلك :

دمعاتك القلب الدامى ملو الحوف

واتمزق لكسا واكذاك الحافى

والردا وقماش الحافى

ازحفت من ذا القدم الحافى

فالحافى الاولى بمعنى الغطاء والثانية بمعنى الفراش والثالثة بمعنى حافى القدمين ٠

ومن الجناس الوارد فى هذه القصيدة :

كمن امليح به اصيارى باتو اهتوف

واغضبت عن النفس وقلت اكتافى

انت اسباب اكيود اكتافى

وبلمليح احماوا اكتافى

فاكتافى الاولى فعل أمر من اكتفى ، والثانية بمعنى التقييد من كتف أى كبل وقيد ، والثالثة بمعنى الاكتاف ج كتف ٠

ومنه كذلك قول ابن احساين فى قصيدة «فاطمة» :

كيفى يانا انهار ناموا ※ عينى فعيون موحرام

---

1) نلفت النظر الى أنا سنعود الى هذه المظاهر البلاغية فى «الباب الثالث» لنرى نشأتها وتطورها ٠

واعقيلى مـن الهام هـــام ❊ بالحال اللى افقلب شاما

فـوق الـــوردا الـنـاسـمـا

فالهام الاولى بمعنى الرأس والثانية فعل الهيام ٠

ويقول الزلايجى فى «الدعى» :

نهزم الدعى دون انصال ❊ حتى يرضى بالقهرا عن افصالى

وانفصلوا افصالـــى

فافصالى الاولى مـن الفصال والمفاصلة ، والثانية جمع فصلة ، اى قطعة ٠

ثانيا : التصريف :

وهو فى الواقع نوع من الجناس حيث يتصـرف الشاعـر فـى كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها ، وغالبا مايفعل ذلك باسم الحبيبة ٠ يقول المدغرى فى «زهرة» :

مانظرت اغزالى زهرا

انجمت الزهـر

او لنظرت الخد فزهـر

ابطيب ازهـــاروا

ويقول فى «مسعودة» :

ݣولوا المسعودا ياطلوع اكواكـب لسعاد

انا مـن سعدى اسعادتـك وانت مسعـودا

انت بدر السعود وانت لهلال اسعود

ويقول ابن على فى «كنزة» :

ماكيف اوصالك كنز

وافضل من مال ايلا كنزوا

عالجنى ياشمس لمحاسن ياكنزا

ومن التصريف فى غير اسماء الحبيبات قول عباس بن بوستة فـى حربة قصيدة له تأملية :

لاتغرب فالغرب امع لمغاربا ❊ الغرب اغريب سايرا فيه اغريبا

مـن اغرايبوا عـن اهلو غـربـا

ثالثا : التضمين او التلزيم :

وهو أن يضمن الشاعر القافية اكثر من حرف ويلتزم ذلك فى كل القصيدة او فى بعض اقسامها. وهو مايسمى فى الادب المعرب بلزوم مالايلزم. وقد برع فيه الحاج احمد الغرابلى ، ومن خير الامثلة على تضمينه قصيدة «ملكة» يقول فى القسم الاول منها ملتزما حرفى اللام والكاف :

يامن اطلوع اهلالك
يفجى اظلام لحلاك
نحكى اشموس لفلاك
لله جد لى بوصالك
ننكى ابزورتك عدالك
لنى اغلام حسن اجمالك
قبل الصيام يامولاتى وناغلام مملوك
ومن لفراق مهلوك
ويلا تزورنى تتعافا ذاتى الهالكا
لو تجفى قلبى ايواصلك
ويلادزتنى ابقى العار اعليك

وفى القسم الثانى منها يلتزم حرفى الراء والكاف ، فيقول :

امحاسنك واسرارك
فتنا الكل من راك
وابهاك ليس يدراك
لازلت نرتجى بشارك
يأتى المرسمى بخبارك
وايفيدنى ابصح امزارك
وانقول سعد سعدى واكمل قصدى ابيوم مبروك
واضحى الرقيب متروك
انجدد لفراح ونغنم ساعا امباركا
وانقول لك الله اينصرك

من ارقى متواك مامعاه اشريك

رابعا : النشب ، وهو ثلاثة انواع :

1 ـ **نشب كلمة** ، وهو ان يستهل الشطر بكلمة من الشطر الذى قبله والبيت بكلمة من البيت السابق عليه وغالبا ماتكون آخر كلمة فى الشطر او البيت ، وهكذا وكأن القصيدة سلسلة مرتبطة الحلقات . ويطلق على الاجزاء المنشوبة : «لمطارش» (1) وقد برع فيه محمد بوزيان .

ومن خير الامثلة على نشبه قصيدة «المحبوب» التى يقول فى احد أقسامها :

محبوب خاطرى من فكدو عمدا لى ❊ عمدا لى والنوم ضج من لنجال

لنجال على الخد دمعها سلسالى ❊ سلسالى يهو اكما لمطر هطال

هطال امن افراك اللى زاد اهبالى ❊ اهبالى منفكد امن اهويتاغزال

اغزال افلبها غيرو مايحلالى ❊ يحلالى وصلو ايلا نعم بالوصال

ومن هذا النوع كذلك ماجاء فى قصيدة «الجار» للكبير بن عطية المراكشى:

أمن اهواك هيج وجدى وافنانى ❊ وافنانى خلا امدامعى طوفان

طوفان فوق خدى والنوم اجفانى ❊ واجفانى محبوب خاطرى ببيان

ببيان ياهلى واش ايعطف جيرانى ❊ جيرانى لغدر عيب للجيران

جيران ماتدوز الجار ❊ والجار ما بقى مهجور

مهجور بين صهد النار ❊ والنار تتزيد اشرور

اشرور ماطفا بامطار ❊ وامطار امن اماج ابحور

ابحور فايضا زادت تمحانى ❊ تمحانى زاد بالتيهان

2 ـ **نشب كلمتين** : على حد مانجد عند الحاج احمد الغربلى فى قصيدته «عين الرحمة» ومنها :

أعين الرحما الراحما ياقرت لنيام ❊ ياقرت لنيام جد لى يابحر التعظيم

يابحر التعظيم والفضل ياعين الرحما

---

1) لعلها من الطرش بمعنى القذف وكأنه يقذف بها من شطر لآخر . وعند بعض الاشياخ أن «لمطارش» تطلق على كل الكلمات التى يقصد الى تكرارها حتى ولو على غير نظام النشب كقول الدراز فى حربة «زهرة» : بمزارى بمزارى ـ جد لى بوصالك نبرا ـ يامولاتى زهرا

3 — **نشب شطر** ، وقد بــرع فيه التهامى المدغــرى ، وخاصة فـــى قصيدته «فارحا» التى يقول فى أحد اقسامها :

سلـتـك بـبـهـاك يالرايـح * مالـك سـكـران دون راح
ونـا عـقـلـى امـعـاك راح * بايـت مـن ليعت لجرايـح
سـاهـر والـنـاس رايـحـا

بـايـت مـن ليعت لجرايـــح * عقلى بـهـواك ما ارتـــاح
وانـــبـــرد ابـغـيـر أح أح * بين التنهاد والجوايـــــح
كـاوى بجـمـار لافـحـا

بـيـن التنهاد والـجـوايـــح * بالشوق اتكـمـد لـجـراح
اللـى مـن دكـــت اللـمـاح * والـغـالـب مابقى ايسامـح
ولايـــدرى امســامـحـا

الغالـب مـــا بقى ايسامــح * سيـفـو مملوك اللـكـفـاح
وخيولـــو تـكـلـب لمـراح * بـيـن المسمار والصفايـح
كـمـن قـومـان طايحـا

بـيـن المسمار والصـفـايـح * واسـنـون الهند والرمـاح
تـزلـغ من شوفـهـا المـاح * قولوا لصبيـغـت اللوامـح
عطفى بـخـلاك فـارحـا

قـولـوا لصبيـغـت اللوامـح * يـاغصـن ايميس فـالدواح
أمـهـر اشـــرود افلـبـطـاح * رفـدى يـالـلا الـطـايـح
بـالـلـى سماك فـارحـا

ولم يكتف الشاعر الشعبى بهذه المظاهـر يكشف بها عن قدرته على التعبير الفنى الجميل ، وانما حاول اظهار هـذه القدرة فـى استخدام نوع معين من الكلام ، وهى محاولة لاتخلو مـن تكلف ولاتعنى غير تطويعه للغـة وبراعته فى ذلك ومهارته · وقد وقفنا من ذلك على نوعين :

أحدهما أن ينظم الشاعر قصيدة كل حروفها مهملة (1) ، ومن الامثلة

---

1) هذا قريب مما ذكره الرباط فـى «العقيدة الادبية» لدى ذكره أنـواع الصنعة فى الموال حيث قال : «صنعة المخزوم وتعريفها أن يـجـعـل

=

على ذلك قصيدة للنجار يقول فى حربتها :

ململا لعلا الصمد الاه

عل الماحى صلى واعطاه سر ملكو

ويذكرون أن الشيخ محمد بن الشليح السلوى عارضها بقصيدة كل نقط حروفها من فوق وأن الشريف البقالى المكناسى عارضها بقصيدة كل نقط حروفها من أسفل ، والاسف انا لم نتمكن من الوقوف ولو على بيت واحد من هاتين القصيدتين .

ومن الامثلة كذلك على الشعر الخالية حروف كلامه من النقط قصيدة للكبير بن عطية تسمى «الناشمة» يقول فى حربتها :

روم حرم الهادى واسع امكارم احماه

لمرام اموصل والود ولمكارم

ماممسى محروم الساعى لوراد احماه

والثانى أن يستعمل الشاعر اسلوب «الخاتم» ، وهو ان يلتزم بدء أبيات القسم او انهائها بكلمات معينة ، على حد مانجد عند بوعمرو فى قصيدته «زهرة» حيث يقول بادئا كل بيت بـ «زهرة»

زهرا زهوا للذات * مصباح الخودات

الناظم جميع أحرف مواله مهملة عدا آخر حروف القوافى معجمات . ومثاله أقول :

أمحمد محمد رسول مرسل ومدحه لز

واعمل اكما اعمل العالم واهل العز

كم له مدد كم هلك ساحر وسهمه حز

ورمحوكم دحا حاسد واعداه دز» . (الورقة 149 ظهر)

وتجدر الاشارة الى ان المغاربة عنوا باظهار مثل هذه البراعة حتى فى غير هذا المجال على حد مانجد عند المرحوم احمد بن العياشى اسكيرج فى رسالتين الفهما بالحروف المهملة هما :

أ) مطالع الاسرار لمدارك الاحرار فى شرح صلاة الفاتح لما اغلق (مطبوعة على الحجر) .

ب) مدد الوصول لادراك السول على حل كمال الصلاة على رسول الله على روحه السلام (مطبوعة على الحجر بفاس سنة 1332) .

زهــرا عــل لـبـنـات ✻ حــازت لبها وثـبـاتــا

زهــرا شمس انـبــات ✻ بـالــحــســن اتـجـلات

زهــرا مــن عــدات ✻ زيــن عـبــلا وخناتــا

وعلى حد مانجد كذلك عند الشريف محمد بن لحسن فى قصيدة «هنية» فقد ختم كل بيت من أبيات القسم الاخير منها باسم «هنية» ، يقول :

خـذ اراوى روض لفـنـان ✻ فمديح للا بوتيتين اهنـيـا

بـهـا زال الـهـول واهـوان ✻ صعبى واشهدت باللحظين اهنيا

وقد برع فى ذلك التهامي المدغرى الذى يقول مثلا فى قصيدة «طامو» بادئا كل شطر بكلمة : «مال» =

مال جفنى ساهـر طول البهيم ✻ مال جفنك فسرور امقيـمـا

مال خدى ساقط ورقو اسقيم ✻ مـال خـدك ففـراح انعيما

ويقول فى قصيدته «مير لغرام» بادئـا الفراش بكلمة «أنـت» والغطا بكلمة «أنـا» :

أنـت اغلا وزيـن مـن الياقوتـا الضاويا

ونا بزيـن غالى مملوك اولا يلـى احميا

أنـت ابها مـن الشمس المـرفوعـا الغاليا

ونا بنار شمس خدودك كـاوى بنار حيا

ومن اروع ما نظم الشعراء على هذا الاسلوب قصيدة ينتهى كل بيت منها بـ «اقفل» فى الشطر الاول و «قفلو» فى الشطر الثانى . وقد ذكر لنا منها الشيخ بنعيسى الدراز هذا البيت :

ياحاضى (1) باب افلخلا من غير اقفل

مايحضى باب غير من كان ابقفلو

وأخبرنا أنـه عارضها بقصيدة على نفس الاسلوب لـم يـذكـر منها غير بيت واحد يقول فيه :

عندى مفتاح به نفتح كل اقفل

لو يجتمعوا جميع لقفال ايقفلو

---

1) حـارس .

فنيـــة الاســلوب

لسنا نريد أن نختم هذا الفصل عن لغة القصيدة الزجلية وفنيتها دون أن نقف عند بعض خصائص الاسلوب فيه ، وهى :

1 ـ التشبيه والمقارنة ·

2 ـ الحركة والحيوية والتشخيص ·

3 ـ الحـوار ·

4 ـ القصـــة ·

5 ـ الرمـز ·

والحقيقة أنا سنبسط الحديث عـن هـذه الخصائص فـى «بـاب الموضوعات» عرضا وتمثيلا ، ونتتبعها فى مختلف المواطن التى وردت فيها بما يعطى عنها صورة واضحة الملامح مكتملة الاجزاء ، ولكنا مع ذلـك نرى لزاما علينا فى هذا الفصل أن نقف عند تلك الخصائص وقفات قصيرة تكون بمثابة اشارات تنبيه لما سيأتى مفصلا فى ذلك الباب ، وهى وقفات نـراها ضرورية لاسيما وان تتبعنا فيه لهذه الخصائص ، رغم ما سنعمد اليه مـن تفصيل ، سيجىء خاضعا لتقسيم الموضوعات وتابعا لسيرها ومـا يقتضيه تسلسلها ·

أولا : التشبيه والمقارنة :

لم يترك الزجال المغربى أى شىء لم يخضعه للتشبيه والمقارنة ، مستعينا بكل ماحوله فى الحقيقة والواقع او بما يجود عليه به خياله ، سواء فى ذلك باستعمال أدوات التشبيه أو عـدم استعمالها · فقد شبه المـــرأة بالغزال والطائر والياقوتة والقمر والزهرة والمصباح ، وتتبع جميع مـلامحها فشبه الثغر بعقد الجوهر ، والقد بالراية وغصن الآس ، والخد بالوردة ، والخال بالغلام ، والغرة بالبرق ، والانف بزهر السوسان وعصفور صغير ، والصدر بقطعة رخام ، والبطن بقماش صاف مرقوم ، والنهدين بالتفاح ، والذراعين

بالسيوف ، والاصابع بالاقلام ، والسرة بالكاس سالت عنها الخمر ، والافخاذ بأعمدة من ذهب ، والسيقان فى حمرتها بقطعة من البلور اشعلت فيها شمعة كبيرة ، واللون الابيض بالعاج ، والاسمر بالخمر او ماء الذهب ، ثم عكس فعمد الى هذه الاشياء المشبه بها فشبهها بمفاتن المرأة ٠

ونظر فى مظاهر الطبيعة والكون وتأملها فشبه الشمس حين تغرب بفرس شقراء ارخى عنانها فغدت تغير على الروابى والسهول ، وحين تتجلى فى كبد السماء كعذراء فى عنفوان النمو وعز الجمال ٠ وشبه الفجر عند الطلوع ببدر مضىء وعروس برز من الحجاب وحوله الكواكب كالفاتنات وشبه الليل بسلطان من السودان يقود جيوشا من الفرسان تمتطى خيولا دهماء ٠ وشبه الارض فى حلتها الربيعية الجميلة بعروس سلطانة ، واديمها المنور بزرابى مفروشة من نسيج الخالق ٠ وشبه النخلة بعروس بكر وعناقيدها بالياقوت والجواهر والعقيان ، فى حين شبه عناقيد الدوالى بالثريات ٠ وحين تأمل الدنيا وجدها كالحسناء الفاتنة يعشقها كل الناس٠

ولم يكتف الشاعر الشعبى بالتشبيه المجرد فحسب ، وانما عمد كذلك الى المقارنة فاعتبر جمال محبوبته يفوق الشمس والقمر ، وأن البدر يغار من نور جمالها فيحتجب ، وأنها ياقوتة يتضاءل أمامها الجوهر والذهب والفضة ٠ وحاول أن يقارن بين حاله وحال محبوبته فقابل بين قلبه المشتعل وقلبها المرتاح ، بين لونه الاصفر الذابل ولونها البهى الجميل ، بين سهره يرعى النجوم ونومها الهادىء ، بين سلوها وانشغاله ، بين قوتها اللذيذ وقوته المر ، بين صحتها ونشاطها ومرضه ووهن عظمه ومزاجه ٠

وقارن كذلك بين حاله المعذب وقد فارقته الحبيبة وبين بعض الاشياء الاليفة لديه كالشمعة المحترقة لفراق مملكتها ورعاياها ، والحمام الباكى لهجر انثاه ، والرسم الخالى من الاحبة ٠

وقابل بين الصبح والليل ، بين الصبح فى قدومه كسلطان ارخى ذيل ازاره لابسا حلة من الديباج وبين الليل فى توديعه كغراب أسود شابت عذاره ، بين الصبح كنسر يعلو فى تحليقه وبين الليل سال دمع غرابه ٠

وقابل كذلك بين نفسه ومظاهر الطبيعة فبعث فيها من ذاتيته ماجعلها

تعكس حال نفسيته وحيوية عاطفته فى تجاوب وامتزاج مع هذه المظاهر كتشبيهه الشمس فى غروبها وذبول لونها بالحبيب الذى هجرته محبوبته فاصفر لونه ٠

ثانيا : الحركة والحيوية والتشخيص :

يكاد هذا العنصر فى الواقع يطغى على القصيدة الزجلية ، فالمحبوبة ليست نائمة فى خدرها او محجبة ، وانما هى دائمة التحرك تصول بجمالها فى قوة واعتزاز ، وتتبختر فى ثيابها وتميل بقدها مع هبوب النسيم ٠ والمحب فى حاله المضنى كسفينة تتقاذفها الامواج ، وهو لايفتأ عن الحركة سعيا للوصول الى حبيبته ، يذهب الى المنجمين ويقصد الاضرحة ويزور محبوبته ليلا متنكرا فى هيئة «ضيف الله» فتنهض من منامها ، وتدخله وتكرمه ؛ وقد لايتهيأ له ذلك فيتنكر فى صفات أخرى يحاول بها ان يغرى محرزها ؛ ثم انه دائب الحركة فى البحث عن التذكار الذى اعطته محبوبته اياه يوم جادت عليه بالوصال فضيعه ٠

والحب سيف قاطع وسلطان طاغية يهجم فى جماعة من الابطال ، وأمير جائر مروع يقود الجنود للقتال وقد لمعت اسلحته وخفقت أعلامه ، وبحر هائج لانهاية لحدوده ما مخرت عبابه سفينة الا اغرقها وشتت الواحها

وشخص مايعانى المحب من التيه والضنا والشغف والهيام فجعلها ملوكا للعشق تطغى وتجور ٠ كذلك بعث الحياة فى الشمعة فجعلها تتكلم وتحاور ، وفى الدوالى فصورها تتمايل معربدة بل جعلها تتزوج وتنجب بعد أن شخصها وشبهها فى نموها بصبيات يكبرن فى حجر امهاتهن وصونهن ٠ والحركة فى مجلس الشرب لاتفتر ، فمن العربدة الى الوقوع على الارض الى النهوض الى الموسيقى والغناء والرقص ٠

أما الطبيعة والكون فحاول تشخيصها وابراز اوصافها فى صور حسية ملموسة نابضة بالحركة والحياة ، فالليل يهجم والشمس تروح وتشرق ، وضوء الصبح يطرد الظلام ويزيحه ، والربيع يقبل ويحيى الارض بعد موتها ، والمطر يتزوج الارض فتحمل منه وتنجب ٠

وينعكس هذا العنصر حتى على الهجاء حيث يستوحى الشاعر معانيه

من المعارك الحربية فينظم قصائد «البوغاز» و «الرامى» و «المهراز» (اى المدفع) والقرصان (أى السفينة الحربية) والغطاس (أى الغواصة) ، وهى قصائد لاتشم منها الا رائحة القذف والضرب والتحطيم ·

ثالثا : الحوار (1) :

وهــو نوعــان :

1) **حوار قصير** يمكن أن نقول انه يأتى عرضا غير مقصود لذاته ، كالذى يجريه الشاعر بينه وبين محبوبته يشكو اليها فيه مما يقاسى فــى حبها عارضا لحالـه المعذب ، فتجيبه كاشفة عــن أوصافها من خلال مقارنة مع حاله هو ؛ ومثله الحوار الذى يديره مع الشمعة والحمام ·

2) **حوار طويل** يقصد الشاعر اليه كالذى نجده فى قصائد «الحراز» حيث يتنكر المحب فى هيآت مختلفة ، وفى كل مرة يدخل مع محرز حبيبته فــى حوار ·

ومثل «الحراز» المرافعات كقصائد «القاضى» التى تصور لـجـوء المحب الى ممثل القضاء عساه ينصفه من جور محبوبته ، وكقصائد «الخصام» او مايطلق عليه «المحاورة» · والحوار فيها قد يدور :

أ – بين اناس كما بين الحضرية والبدوية ، والخادم والحرة ، والــزمنية والعصرية ، والشابـة والعجوز ، والسمراء والبيضاء ، والطويـلـة والقصيرة ، والسمينة والنحيفة ·

ب – بين نباتات كالورود والزهور ·

ج – بين طيور ·

د – بين جمادات كالقلة والغراف ·

هـ – بين مظاهر كونية كالليل والنهار ·

و – بين أشياء وهمية يشخصها الشاعر كالحوار الذى اجراه المدغرى للتيه والضنا والشغف والهيام مع محبوبته التى رفع اليها المحب دعوى ضد هذه الاطراف ، وقد جعلها ملوكا للعشــق اغتنمت فـرصـــة غـياب محبوبته فاستقرت فى قلبه ؛ وتستمع المحبوبة الى شكوى حبيبها والى

---

1) انظر الفصل الثالث من باب «الاعلام» لدى ترجمة الجيلالى امتيرد ·

دفاع خصومه ثم تجيب لتبت في الامر وتحسمه ٠

وقد كانت تتخذ بعض هذه القصائد لادوار تمثيلية او ماكان يطلق عليه «البساط» ٠ والحوار في كلا النوعين يتعدد مجاله بتعدد الاطراف المشتركة فيه ، وهو في الغالب حوار مباشر يقدم له بفعل القول ٠

رابعا : القصة (1) :

يبدو الشاعر الشعبي مغرما بالسرد والقص مستوحيا في ذلك الخيال أو الواقع أو التاريخ ٠

1) فمن القص الخيالي مايحكيه في قصائد «الحراز» و «الخصام» و «الخلخال» و «الدمليج» وقصائد «الحجام» و (الفصادة) و (الوصال)٠

2) ومن القص الواقعي مايحكيه عن الخمر متتبعا مختلف مراحلها منذ غرست الدالية الى أن نمت ونضج عنبها وعصر وعتق ثم عرض للشرب ٠

ومنها كذلك مايحكيه مثلا في قصيدة «المطر» (2) عن الفقير ومعاناته من البرد والمطر في فصل الشتاء ٠

3) ومن القص التاريخي نظمه لصفحات من السيرة النبوية في قصائد «لمخلوق» و «الوفاة» و «المعراج» او نظمه لنكبة الحسين أو لبعض الحوادث والاحداث التاريخية على حد مافعل الكفيف الزرهوني في هزيمة ابي الحسن المريني في القيروان ٠

ويدخل في هذا النوع مايطلق عليه «القصائد الايوبية» أو «الغزوات» وهي التي تحكي قصص الانبياء والاولياء ومحاولة ابراز مافيها من خوارق وكرامات ٠ ويقول الاشياخ ان المغراوي كان اكثر الشعراء نظما في هذا الباب ، ويذكرون له أسماء قصائد منها : «المؤودة» و «الشدادية» و «جرير بن جرير» ٠ ويذكرون كذلك «النباش» للجيلالي امتيرد و «العيواجية» للكبير بن عطية و «الكهفية»

---

1) انظر الفصل الثاني من باب الاعلام لدى ترجمة محمد بن عبد الله بن احساين وكذلك الفصل الثالث لدى ترجمة الجيلالي امتيرد ٠

2) انظر تحليلها في الفصل الثاني من باب «الموضوعات» (ملاحظة) ٠

لغانم القصرى و «النمرودية» للغرابلى و «البغدادية» للمكى بن القرشى ؛ ولكنه لم يبق من هذه القصائد الا الاسم ، والسبب أمران:

أولهما : انها قصائد طويلة يمكن ان يطلق عليها : «ملاحم» ومن شأن القصائد الطويلة أن يقل حفظها والا يقبل على سماعها فتضيع ·

الثانى : ماذكره الاستاذ محمد الفاسى حين قال : « وقد كان رجال الاستعمار أيام الحماية يمنعون انشاد هذه القصائد فى الاسواق ، وكان المراقبون اذا تقدم لهم أحد المداحين يطلب الاذن فى السفر للتجول فى المدن والقبائل قصد ترويج بضاعته اول مايسألونه عنه هل يحفظ «الغزوات» فان أجاب بالنفى اعطى الاذن والا منع لانهم كانوا يخشون بعث العاطفة الوطنية والدينية فى النواحى التى كانت ماتزال بعيدة عن اثر الدعوة الاستقلالية»(1)

خامسا : الرمز (2) :

ويتمثل فى ثلاثة جوانب :

1) رسوم الوشم ، وتصور حيوانات وأسلحة وابطالا وبساتين ، وهى وغيرها أشياء يقصد الشاعر أن يرمز بها الى مختلف حالات المحب ، فالغزال للهجر والنفور ، والخيل والاسلحة لمدى القوة والمقاومة ، والاغراس والورود للوصال ·

2) الجفريات : وهى القصائد التى تأمل فيها الشاعر أحوال المجتمع والناس واستعرض المناكر والعيوب ، ولكن فى رمز واشارة وتلميح · وغالبا مايلجأ فى ذلك الى الحيوانات ، فيمثل بالضفادع والذئاب والبوم للسفلة الذين غدوا سادة وبالسباع والنسور لكبار القوم الشرفاء الذين أذلهم الدهر ·

3) بعض قصائد الخصام ك «النجمة» للفلوس (3) ، وهى تمثل خصاما بين الليل والنهار وصراعا من أجل الفوز بالنجمة ، وهى قصيدة

---

1) مقال «الادب الشعبى المغربى الملحون» مجلة البحث العلمى ـ عدد 1 سنة اولى · يناير ـ ابريل 1964 ·

2) انظر الفصل الثالث من باب «الاعلام» لدى ترجمة العميرى ·

3) انظر تحليلها فى آخر فصل «مع الناس» من باب الموضوعات ·

وطنية رمز الشاعر فيها بالنجمة الى الحرية وبالليل للاستعمار وبالنهار للوطن ·

والجدير بالاشارة أن الشاعر لايلبث فى قصيدته أن يفك الرمز ويخرج منه الى التوضيح والتصريح بالرأى والفكرة وهو مايطلق عليه الاشياخ النقاد «الدميس د المعنى» كأنه يدس المعنى للسامع حتى لايظل يبحث عنه ويحاول الوصول اليه او مايسمونه «تيحسس على المعنى» ومن الامثلة على ذلك ماورد فى قصيدة جفرية لعبد الله اعلى يقول فى أولها رامزا الى أن الاحوال تغيرت وأن الدنيا صفت للسفلة فغدوا سادة :

فرعنت البوم اعلى البيزان اتولت ·

بينت انيابها ودركت الصولا ·

والسبع اخشى امن الضبع بعد الزهرات ·

لزم التحدير خاف من ولد الغولا ·

ويستمر كذلك فى رمزه بالحيوانات ثم يكشف فى الآخر عما يقصد اليه من نقد لواقع الناس والزمان فيقول :

لمساجد كتعود افلنعات ·

ترجع لقوام عن القبلا مشغولا ·

يقوا لبنى عند لتجار لطغات ·

ويكثر المال ولثياب المشكولا ·

الى جانب هذه الفنية وتلك البراعة والمظاهر البلاغية نلاحظ عند اشياخ القصيدة الزجلية لمحات نقدية مختلفة نستطيع أن نجمعها فى فرعين : أحدهما خاص بالشعر والثانى بالشاعر ·

أما مايخص الشعر فيتمثل فى تقسيمهم له من حيث جودته ووضوح معانيه وأفكاره واستقامة وزنه الى الاقسام التالية :

1) كلام بالغ : بمعنى بليغ

2) كلام مرصع : بمعنى منمق جميل (مرصع)

3) كلام ابيض : بمعنى بسيط واضح المعانى لاغموض فيه

4) كلام اكحكل : بمعنى معقد وصعب

5) كلام‌امسلس : بمعنى مستقيم لاكسر فى ميزانه

ونظروا الى الشعر بعد هذا من حيث لغته فاعتبروا من عيوبها استعمال الاعراب والكلمات الفصيحة أو ما اطلقوا عليه «البرص» (1) ٠

وأما ما يخص الشاعر فيتمثل فى تفريقهم بين السجاى والوهبى أى بين صاحب السجية والموهبة ٠ وعندهم أن السجاى هو الذى ينظم شعرا فيه عواطف ومعانى وأفكار ٠ وفرقوا فى السجية بين أنواع ثلاثة :

الاول : المنقول وهو ان يروى الشاعر ما فى الكتب وينظمه كما هو الشأن فى قصائد مولد الرسول عليه السلام ووفاته ، وهى قصائد تحكى ماورد فى السيرة النبوية ٠

الثانى : الهيض وهو أن يصف الشاعر الواقع وينقل الحقيقة كما فى المحاورات ٠

الثالث : الغيظ وهو أن ينقل الشاعر احاسيس نفسه وانفعالاتها كما فى القصائد التى تملاها العاطفة سواء كانت عاطفة حب أودين٠

أما الوهبى فهو الذى له قدرة على النظم فى سهولة ويسر ، دون أن تكون له عواطف ومعانى وافكار ٠ ومن هنا قالوا «لامعرب على وهبى» أى لاجدوى من مناقشته فى المعانى ٠

ويذكرون أن من الشعراء الوهبيين أحمر المرياق وهو من كبار أشياخ مراكش المعاصرين (2) ٠ وكان يملى على حفاظ شعره فى وقت واحدخمس قصائد أو أكثر ، وكأنه المدرر يملى آيات القرءان الكريم على التلاميذ فى الكتاب ٠ وذكر لنا الشيخ محمد بن عمر المراكشى أن من الامثلة على شعره الوهبى قوله فى قصيده من باب (السماء فوقنا والارض تحتنا) :

شوف اولاد اليوم من كثرت لحرام اعماوا

ماقبطو فيمانهم غير الله ايداوى

---

1) وهو كالتزنيم بالنسبة للموشح والزجل (انظر العاطل الحالى الورقة 17 ظهر و 18 ظهر) ٠

2) كان من جلساء السلطان المولى عبد الحفيظ ٠ توفى سنة 1365 هـ ، ولقب بالمرياق لانه كان دائما فى حالة جذب يبلل الريق لحيته ٠

وايلاغاب الصح لاطبيب ايداوى بدوا

واش المركب دون رايس وقومانو بر ساوا

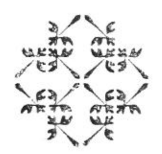
واش لغنم ابدون سارح ترعى لخطاوى

ويعتبر الشيخ محمد الجابرى فى فاس كالشيخ المرياق فى مراكش ، اذ يحكون عنه أنه كان درازا وكان يملى على صناعه اكثر من قصيدة فــى الوقت الواحد وهو امام منواله ينسج ٠

وكما فرقوا بين السجاى والوهبى فكذلك فرقوا بينهما وبين نوعين آخرين من الشعراء ، هما : السلاخ والمساخ ٠

أما السلاخ فهو الذى يسطو على شعر غيره فيحتفظ بالمعانى ويبدل فى الالفاظ ، ويطلقون عليه كذلك «الخياط» أى الذى يخيط ويربط بين مايأخذ من هنا وهناك ؛ وقالوا فى أمثالهم عن عمله «اخياطا مــزيانا احسن امن اسجيا امذبرا» يقصدون ان خياطة متقنة خير من سجية غير ناضجة ٠

وأما المساخ فهو الذى يسرق شعر غيره ويمسخه بمحاولة القلب فى المعانى والالفاظ ٠



الفصل الثالث

العروض

البحـــور

يظن كثير من الناس انـه لاحد لبحور الـزجـل ولاحصر لها ، وأن «صاحب الف وزن ليس بزجال (1)» . ويظن آخـرون أن عروض الزجـل محدود لايخرج عن نطاق بحور الخليل ، وأن من الممـكـن تطبيق تفعيلات هذه البحور وأوزانها عليه .

أما أن بحور الزجـل غير محدودة فقول لايخلو من مبالغة وتهويـل وتعجيز . حقا ان الزجالين ـ سواء فى المغرب أو غيره ـ نظموا اشعارهم على أوزان لانجد لها مثيلا فى العروض العربى الذى حدده الخليل ، وحقا كذلك انهم مزجوا فى الزجل الواحد بين اكثر من وزن ، وهى ظاهرة تبدو معها بحور الزجل كثيرة وجديدة وبعيدة عن العروض العربى ؛ ولكننا مـع هذا لانرى لا نهائية لتلك البحور ، بل على العكس من ذلك نحس ونحـن نستمع الى ما ينشد عليها ـ مهما كان جديدا ـ أنه لايختلف عما الفنا سماعه فى الشعر المعرب ، تكيفه نفس الروح ويضبطه نفس الايقاع ، بل نحس ـ فى ظن غالب ـ ان الذوق العربـى العام يستسيغ مـوسيقاه ويـطرب لها ويرتاح حتى عند الذين لايفهمون كلماته .

وأما أن أوزان الزجل محدودة فى نطاق العروض العربى لدرجة امكان تطبيق تفعيلات الخليل عليه ، فقول نراه بدوره جانب الصواب ، والسبب أن الذين يذهبون اليه يغفلون أمرا لعله أهم عنصر فى هذا الشعر ، الا وهو موسيقيته التى لاتتيح مثل ذلك التطبيق ، بل تتكسر وتضيع لمحاولاته. وليس يخفى أن فى تفعيلات الخليل وما نشأ عنها من أوزان جانبا صناعيا أساسه الاسباب والاوتاد وما تتعرض له من علل وزحافات . وقد بلغ هذا الجانب عند الفراهيدى ـ وهو جانب تأثـر فيه بعلم الصرف ومقاييسه ـ

---

1) هو قـول شائـع ، وقريب منه مـاورد فى «العقيدة الادبية» مـن ان «الحافظ لالف وزن فشلان» (الورقة 24 ظهر) .

درجة جعلته يعتبر «مستفع لـن» و «فـاع لاتـن» تفعيلتين مستقلتين عـن «مستفعلن» و «فاعلاتن» مـع ان الايقاع واحد ٠ بـل اكثر مـن ذلك نجد العروضيين يفترضون لبعض البحور اصولا تطورت عنها كقولهم فى المديد أن اجزاءه ثمانية هى :

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن (مـرتين)

ولكنه لم يرد فى الشعر الا مجزوءا حيث سقطت التفعيلة الاخيرة ، وكقولهم فى الوافر ان أجزاءه ستة ، وهى :

مفاعلتن مفاعلتن (مرتين)

ولكنه لايرد صحيحا حيث تقطف عروضه فتصير مفاعل ، ثم تحول الى فعولن ٠

ومثل هذا وذاك يقال فى الهزج والسريع والمضارع والمقتضب ، بل انه لاتكاد توجد قصائد على الوزنين الاخيرين ، ولـم تـرد فيهما الا ابيات متفرقة ، لعلها بقايا أوزان عربية قديمة ، مثلها فى ذلك مثل الشواهد الشاذة فى اللغة أو النحو أو غيرهما ؛ ومن يدرى فقد تكون من اختلاق بعض الرواة العابثين الذين كانوا يحاولون اثبات سعة روايتهم وارضاء الامراء والخلفاء واتحافهم بالطريف النادر ولو باختلاقه ٠ ومع ذلك نجد الخليل يعتمد هذه الابيات المتفرقة القليلة ويعمل فيها صناعته ويضع لها وزنا وأصلا لـهـذا الوزن ٠

لذا ، فانه ليس من السهل القول بأن الـزجـل يسير على التفعيلات العربية ، او بالاحرى انه يسير عليها فى تناسقها المعروف ٠ ومع ذلك فمن المؤكد انه يخضع لايقاع العروض العربى وليس الـى أوزانه وتفعيلاتـه ، فأوزانه تختلف ، وتفعيلاته تتباين فى العدد والمقدار ٠ وهذا ما يجعل من الصعب ، بل من المستحيل ، أن نزعم أن هـذه القصيدة او تلك مـن بحر الكامل أو الوافر أو غيرهـمـا ٠ ولو هيىء لـلاوزان المجزأة مـن يحصيها ويدرسها وينظمها لامكن ارجاع بعض قصائد الزجـل الى أنماط مـن هذه الاوزان ٠

ويزيد فى خطأ الرأى الذى يذهب الى ان اوزان الزجل محدودة أن

اتخاذ مثل هذا الرأى يقتضى بادىء ذى بدء حصر كل النصوص الزجلية ، اذ عملية تحديد الاوزان لايمكن ان تتم الا بعد جمع هذه النصوص واستقراء ماتسير عليه من بحور • ومادامت هذه العملية غير ممكنة ، طالما ان مابين ايدينا من نصوص لايمثل الا نسبة ضئيلة مما انتجه الزجالون ، فمن العبث والخطأ أن نسطر احكاما مسبقة ونحاول اخضاع الازجال لها ، وانما العكس هو الصحيح والصواب ، أى أن نستقرى ما عندنا من ازجال ونحاول أن نستنبط منها أحكاما ونستخرج قواعد •

ثم انا لانرى جدوى — ونحن نريد أن نتعرف الى عروض القصيدة الزجلية فى أن نثبت مطابقته أو مخالفته للعروض العربى المعروف ، طالما أن لاشياخ الزجل النقاد ميازين تعارفوا عليها ، نرى من الانفع والاجدى أن نعرضها ، بعيدا عن أية مقارنة بالبحور العربية أو حتى مقاييسها وحركاتها الموسيقية ، لان ادراك نسب الايقاع وابعاده فى الزجل يقتضى الاستماع اليه ودراسته ملفوظا ومغنى به ، وهو شرط لايتوفر لنا الا فى حالات نادرة معروفة •

وللزجالين المغاربة تفعيلات خاصة يزنون بها أشعارهم ، أساسها النغم والايقاع (1) ، يطلقون عليها «الصروف (2)» وهى نوعان :

---

1) لعلها لاتخرج عما ذهب اليه اخوان الصفا فى الرسالة الخامسة من أن «قوانين الغناء والالحان ••• ثلاثة أصول وهى السبب والوتد والفاصلة • فأما السبب فنقرة متحركة يتلوها سكون ، مثل قولك : تن تن تن تن ، ويكرر دائما • والوتد نقرتان متحركتان يتلوهما سكون مثل قولك : تنن تنن تنن • يكرر دائما والفاصلة ثلاث نقرات متحركة يتلوها سكون مثل قولك تتنن تتنن تتنن فهذه الثلاثة هى الاصل والقانون فى جميع مايركب منها من النغمات ومايركب من النغمات فى جميع اللغات من الالحان ومايتركب منها من الغناء فى جميع اللغات» (رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا ط صادر — بيروت — الرسالة الخامسة من القسم الرياضى فى الموسيقى ص 197 — 198) وقد استعرضت الرسالة بعد ذلك جميع أنواع الايقاع المركبة من هذه النقرات وانتهت الى أن منها ثلاثة مفردة وتسعة ثنائية وعشرة ثلاثية •

2) يطلق هذا الاسم اساسا على القطع المعدنية التى تتخذ مقاييس لوزن الكيل أمثال الكيلو ونصفه وما اليهما •

1 ـ **الدندنة** : وهى قائمة على «دان دانــى» وهــو مقياس موسيقى صرف ۰ ومن الامثلة على تطبيقها قــولهم بالنسبة لهذا البيت مــن شمعة ابــن على :

الا بــاكيا بسقامــك شــوفــى اسقام حــالــى
مــــن قيس وارثو بعد افـنــاه اغرام حــب ليلى
أدان دان دانــــى دانــــى يــادان دان دانـــى
أدان دان دانــــى دانــــى يـــادان دانـــــى

وقولهم بالنسبة لحربة «المزيان» للعلمى :

حـــن واشفــق واعطــف بــرضــاك يالمزيــان
لا اسمــاحــا مــيـعــاد اللــه يــالــهــاجــر
دان دانــــى يــــادانــــى دان دان يـــــادان
دان دانــــــى يـــــادانى دان دان دانــــــى

2 ـ مالى مالى :

ويبدو أنهم وجدوها لاتكـفـى وحدها لضبط الايـقـاع الموسيقى ، فـأضافــوا اليها بعض الكلمات مــثــل : «الــرادا ــ الــعــادا ــ سيدنا ــ للا مولاتى للا ۰۰۰» أو ما اليها مما يشد به الميزان ، كما سبق أن رأينا فى الانشاد (1) ۰ والغالب فى قياس الميزان أن يبدأوا بهذه الكلمات ثم يختموا بــ : «مالى مالى» ۰ ومن الامثلة على ذلك قولهم فى هذا البيت من «وردة ابن سليمان» :

لاتلومونى فى ذا الحال جيت نشهد وانودى
يــاعــدولى فــالمـوت اسبابــى خــد الـــوردا
لــلا يامولاتــى لــلا ويــامــالــى مــالــى
لــلا يامولاتــى لــلا ويــامــالــى مــالــى

ومع ذلك فالشعراء حين ينظمون لايقيسون بهذه «الصروف» ،وانما يقيسون ببعض القصائد المشهورة التى غدت نماذج أو شبه نماذج لــهــذا الوزن أو ذاك ۰ ومثل هذا نلاحظه حتى عند المنشدين ، فانهم لقلة معرفتهم

(1) انظر المدخــل

الموسيقية لايدركون ميازين الانشاد الا بهذه الطريقة ، كقولهم ان «فضيلة» للحاج ادريس لحنش من قياس «الباكى» للتهامى المدغرى ، وكقولهم ان «وقت الزهو» لمحمد بن على على قياس «الـزهـو فبنات وشبان» للمدغرى كـذلـك ·

والعروض عند الزجالين المغاربة يقوم على بحور وعلى أنواع مـن الميازين داخل كل بحر · وأطلقوا على البحور «لمرمات» جمع مـرمة ومعناها المنوال وهو الآلة الخشبية التى يستعمل النساج والـدراز ، وأطلقوا على أنواع الميازين داخل البحر الواحد «قياصات» جمع قياص (1) ·

ويمكننا تقسيم بحور هذا العروض الى اربعة أنواع هى :

1 ـ المـبـيـت ·

2 ـ مكسور الجناح ·

3 ـ المشـتـب ·

4 ـ السـوسـى ·

أولا : المبيت (2) : أى القائم على عدد معين مـن الاشطار فى البيت وعلى عدد من الابيات يلتزم فى كل قسم من أقسام القصيدة ، وهـو الغالب فـى استعمال الشعراء · وربما كان أقرب من غيره الـى شكل بحور الشـعـر المعرب ، ويتفرع هذا النوع الى أربعة أشكال مـن حيث عدد الاشطار التى تكون البيت :

1 ـ **المثنى** : أى الذى يتركب البيت فيه من شطرين ، يطلقون علـى الاول «الفراش» وعلى الثانى «الغطاء» (3) · وله «قياصات» متعددة لاسبيل

---

1) أى القياس ·

2) واضح أن التسمية مأخوذة من البيت · ونجدها عند ابن على فـى آخر «المرسم» حيث يقول : «من حبر معلم» ❋ ياحمام ارويت المعنى لمبيتا»
ونجد عند الحاج عمارة فى آخر قسم من فاطمة :
«ياراوى لبيات عنى ❋ غنى اوصول لاتخشى من عديانى»

3) من عجيب أنا نجد مثل هذه التسمية معروفة فى فن الموال المصرى على حد ما نقرأ عند ميلاد واصف فى «قصة الموال» حيث يقول : «أمـا مواويل الفرش والغطا» وينشدها اكثر من مغن فهى تنظم على طريقة «الموال النعمانى» فى أسلوب التقفية الا ان كل قطعة تتكون من ثلاثة =

الى حصرها ، أساسها النسب الايقاعية فى موسيقى البيت • ومن نماذجها:

أ ـ قصيدة «الحجة» لابن احساين ، وحربتها :

يالحضرا قولوا بالسر والجهار ※ الصلا والسلام اعلى النبـى المختار

وهو أسهل «قياصات المثنى» ، سواء فى النظم أو الاداء ، ويطلـقـون عليه «قياص لمشركى» (1) ويصفونـه بأنه «لـحـويط لقصير» أى الحائط الصغير القصير ، وهى عبارة تقترب فى مدلولها من قول العروضيين فـــى بحر الرجزانه «حمار الشعراء» •

ومنه كذلك قصيدة «الهاوى» لابن على ، وحربتها :

يالهاوى تهوا من لا ايليه سطوا ※ تب ياراسى وارجع للغنى القوى

ومثلها قصيدة «فروح» للمدغرى ، وحربتها :

مانروح اللفراح ولانروح بالراح ※ دون راحت روحى حور اللوامح افروح

ب ـ قصيدة «زهرة» لبوعمرو وحربتها :

زورينـــى قـبـــل الا نقبار ※ ياهلال الدارا زهرا

ج ـ قصيدة «الوردة» لابن سليمان ، وحربتها :

لاتلومونى فى ذا الحال جيت نشهد وانودى

يـاعـدولـى فـالـمـوت اسبابـــى خـد الـوردا

د ـ قصيدة ابن على «صلوا على الصديق الصادق» ، وفـى حـربتها يـقـول :

صلوا على الصديق الصادق جد الشراف نور العين

امام لنبيا بلقاسم محبوب ربنا الرحمان

هـ ـ قصيدة «الساقى» لامتيرد ، وحربتها :

مواويل كل مـوال على حـدة يتحد الشطر الاول والثانـى والثالـث والسابع فى قافية وينشد كل موال من القطعة احد المغنين • يـبـدأ المغنى الاول بالموال الاول وهو «الفرش» عارضا مشكلته فـى الحياة فيرد عليه المغنى الثانى بـ «الغطا» شارحا رأيـه الخاص فـى قضية زميله • أما المغنى الثالث فيعقب عليهما بـ «القفلة» او المغزى العام» • (انظر صفحة 57 ـ 58) •

1) انظر الفصل الثانى من باب الاعلام لدى الحديث عن الحاج اعمارة •

الساقى وكض لريام رد بالك للنوبا لاتغيب عن مولاها

كـــب يــاســاقـــى راح اللـــيـــل

ويلاحظ أن «الفراش» أطول من «الغطا» .

و ــ قصيدة «الديجور» للمدغرى ، وحربتها :

شف الشكايا شى اشكا ابهجرو شى بالتيهان شى ابعشقو واغرامو

شى بالفركا شى جـايـب لهديا يـرحـل ويكيـم

وفيها يلاحظ كذلك أن «الفراش» أطول من «الغطا» ، بل اكثر طـولا من «فراش» القياس السابق .

ز ــ ومن المثنى مايبدو رباعى الاشطار ، وهو فى الواقع ليس اكثرمن من «فراش» و «غطا» ، وأن قسم كل منهما قسمين ، على حد مانجد عـنـد امتيرد فى «انعيد اصيامى» حيث يقول :

انعيد اصيامـى ، وانكلع كـفـارت لـوزر

عنقت اغـزالـى ، فـالـدجا حتى بـان الـحـال

وعلى حد مانجد كـذلـك عند انشاوى فـــى قصيدة «صـارم الطعن» وحربتها :

آش را من لاجرد صارم الطعن ، ويركب سفن لحروب وايعيط دانــى

هاحنا هنا ، ويكون ادراعو ابحال السانو

فالفراش هو قوله «آش را ... دانى» ، وهو مقسم قسمين :

والغطاء هو «ويكون ادراعو ابحال السانو»

أما «هاحنا هنا» فمجرد «تفريشة» شد بها الميزان كان يمكن الا يضيفها الناظم ويترك «الشدادا (1)» يقولونها او يقولون غيرها مـن العبارات التى يشد بها الميزان .

2 ــ **الثلاثى** : اى الذى يتكون البيت فيه من ثلاثة اشطار ، ومـــن «قياصاته» :

أ ــ قصيدة «عبلة» لبوعمرو ، وحربتها :

---

1) انظر المدخل حيث الحديث عن الانشاد .

ايلا تعذبت اعذابى من انـواجلى ✻ ويلايانا اهنيت واسعدنى فالـــى

اسبابى افلهنا اغـزالـى عـبـلا

ب ــ قصيدة «دابل لعيان» للعلمى ، يقول فى حربتها :

روف ادابـــل لــعـــيـــــان ✻ يابو حجبين امــعـــرقا اوزينا

زور لعشيق يزاك امن التيهان ياغـزيـل

ج ــ قصيدة الحمرى فى «التصلية» ، وحربتها :

صلى الله اعليك يالهادى خاتم لرسال ✻ عد ادواب البر والاسماك اللىفالمالى

العايش واللى امضى ومن هو مازال اكبيل

د ــ قصيدة «زينب» لابن على ، يقول فى حربتها :

يابدر ماغطاك احجاب ✻ فى ادجا ياشمس النهار السعيد يازنوبا

فايــن العهد يــازيــنــب

ويلاحظ أن الشطر الثانى أطول من الاول والثالث ·

هـ ــ قصيدة «راحا» للمدغرى ، وحربتها :

ياعيون المهرا ياسالف الظليم اجيد الصياح

أطاوس بين ادواح ، ياقمر ساحــى

اقطيب الياس أخد الشقيق ياراحا

ويلاحظ أن الشطر الاول طويل وان الثانــى قسمان ، وهــو تقسيم التزمه الشاعر فى القافية ، أما فى الانشاد فالشطر واحد ·

و ــ قصيدة «الباكى» للمدغرى ، وحربتها :

شهدوا بين ايلا فنيت وامضيت مــن الوجنا وخـالها واخدود الجلار

والشامـا والــخـال والشــفـر ✻ لهوا خدوج ولغزال السعديا

ويلاحظ أن الشطر الاول جـد طويل ·

3 ــ **المربوع أو الرباعى** : أى الذى يتكون البيت فيه من أربعة أشطار· ومن «قياصاته» :

أ ــ قصيدة «باها» لحسون وتير ، يقول فى حربتها :

غــاوى الــبــاهـــى ✻ مــن ابها مــن لالها اشبيــه

مـــولاتـــى بـاهـا ✻ الحاير اصغر وزيـن وجـاه

ب ـ قصيدة «آمنة» للحاج محمد بن عمر المراكشي ، يقول فيها :

أمينا حبك نيران ❊ اعلى نيران ❊ كاديا فاصميم الوجدان

فاصميم اكناني

ج ـ قصيدة «طامو» للعلمي ، حربتها :

طامو يابهيج الخدادا ❊ الحر المسرارا ياغايت لمجيد

ديري اللعاشق امرادو ❊ ينكي بك كل احسود

د ـ قصيدة في «التصلية» لابن احساين ، يقول في حربتها :

صلى الله امع املايكو عل لحبيب الساري ❊ وامر هل ليمان افلبشر

بصلات الهادي امع اسلامو بايات اسوارو ❊ صلى الله اعليه وافرا

ويلاحظ أن الشطرين الاول والثالث أطول من الثاني والرابع ٠

ومثلها قصيدة في «التصلية» للغرابلي ، يقول فيها :

لسم الله الواحد لعظيم الحي الجوادي ❊ ننشد حلا طيبها اشدا

لسم الله اسما امعظما بها يبدا البادي ❊ وينال امرادو افما ابدا

هـ ـ قصيدة «فارحا» للمدغري ، يقول في حربتها :

دسني تحت لخلال بين ادروعك لملاح ❊ واللبا والدواح

انهيداتك تفاحا ❊ انا خايف امن اعيونك ايجرحوني يافارحا

ويلاحظ أن الشطرين الاول والرابع أطول من الثاني والثالث ٠

و ـ قصيدة «حجوبة» لابن علي ، حربتها :

ياللي زينك فتق الشمس والقمر افلحجاب ❊ صلتي بحروف اعجاب

صغ لوجابي ❊ عالجني بوصالك يالريم حجوبا

ويلاحظ كذلك أن الشطرين الاول والرابع أطول من الثاني والثالث ٠

4 ـ **خامس أشطار أو الخماسي** : اي الذي يتكون البيت فيه من خمسة أشطار ٠ ومن «قياصاته» :

أ ـ قصيدة «فاطمة» لابن احساين ، وحربتها :

قالت يما اتقول طامو ❊ قلت وأبيك يالطام

ياقد اعلام فالطام ❊ قالت ترا يقول طاما

ترات ايقول فاطما

ومنها قصيدة «فارحا» للمدغرى ، وفى حربتها يقول :

سلتك ببهاك يالرايح ❊ مالك سكران دون راح

أنا عقلى امعاك راح ❊ بايت من ليعت لجرايح

ساهر والناس رايحا

ب ـ قصيدة «أساداتى اولاد طه» للحاج ادريس بن على ، وفى حربتها يقول :

أساداتى اولاد طه ❊ برضاكم عالجوا الحال

ياناس الجود ولفضال

آنا فى عار للا فاطما ❊ الزهرا الطاهرا

وقد يختلط مع الثلاثى اذا ما ضم الشطران الاول للثانى والرابع للخامس ، ولكنه ليس ثلاثيا ·

ومنها قصيدة الطيب الواسترى المعروفة بـ «تاج لملاح» ، وفيها يقول:

رغبوا تاج لملاح فيا ❊ ايجينى غير بالسلام

ويراعى صلت لكرام

لاخير فاللى اجفا احبيبو ❊ واغدر بعد لموالفا

ومن هذا القياس ماقد يختلط مع الرباعى اذا ما جمع الشطران الاولان كقصيدة «زهرة» للغرابلى ، وحربتها :

أنا فى عارك أهلال الدارا ❊ ياكوكب السحار

يازهرت دوحت لزهار ❊ أما قاسيت امن امراير

وانت لليوم هاجرا

ثانيا : مكسور الجناح :

وفيه يتكون قسم القصيدة من أربعة اجزاء :

1 ـ **الدخول** : وهو عبارة عن شطر فى استهلال القسم لاغطاء له ، يبدو كالطائر الذى كسر احد جناحيه · ويؤكد هذا التعليل فى التسمية أن الاشطار التى تأتى بعد الدخول غير مبيتة ولاغطاء لها فكأنها هى الاخرى مكسورة الجناح ·

2 ـ **مجموعة من الاشطار** القصيرة تسمى «لمطيلعات» او «لكراسا(1)»

3 ـ **بيت على وزن الحربة** وقافيتها كأنه تمهيد لها ·

4 ـ **الحربة** اى اللازمة ·

ومن الامثلة على مكسور الجناح قصيدة «المزيان» لابن على ، وهـذا أول أقسامها :

1 ـ **الدخول** : ته بجمالك عل لقمار ·

2 ـ **لمطيلعات** : الشمس اتغير ايلا اتشوف زينك ·

لبدر امن اجبينك والبان غار منك

اسبغ من الظليم الوفرا

واضوا مـن لكواكب غـرا

والحاجبين فوق الطرا

نحسابهم نـونين

وامعرقين باثنين

واشفار فوق وجناتك ناموا

3 ـ **البيت** :

اصوارمو استلو مـن لجفان ✻ واجفانك غلبو يافهيم شوف اجفانى

ولخدود اسبغـهـم الجلار ✻ عـــل لـبـيـاض احـمـرار

4 ـ **الحربـة** :

لـيـا قـال الـمـزيـان ✻ وصف هذا الحسن ياللى تهوانـى

قـلـت يـا دابـل لشفـار ✻ تـوصـافـك لايـحـصـار

ومثلها قصيدة «غيثا» للحاج ادريس ابن على ، وقد بلغ مـن براعته فيها أنه التزم قافية التاء فى كل القسم بل فى كـل القصيدة ، والعادة أن تنوع القافية داخل القسم وان تختلف من قسم لآخر كما سنرى بعد ·

يقول فى القسم الاول منها :

1 ـ **الدخول** : عمدا اعلى لعشيق الكاوى كيفى ابنار لبنات

---

1) ولكنها غير لكراسا التى يقدم بها للاقسام كما سنرى فى الجزء الثانى من هذا الفصل ·

2 ــ **لطيلعات** : مهما تقول نارو بردت واطفات

حين ينظر زين الخودات

كيراها زندت واكدات

حتى عاشق مسكين ماسطاب امنام اولا قوت

غير ايشاهد لبنات كيشاهد ببان الموت

والزين اعلى المملوك ليس يرثى

سلطان كيجور ويعدل واايامو اعطاتو

3 ــ **البيت** : ونافساير اوقـاتـي ✻ نسعى ارضاه واقف ولانقول مليت

4 ــ **الحربة** : قولوا للاغيثا مولاتى ✻ رف بوصالك عل لعشيق يام الغيث

ثالثا : المشتـب :

ويتكـون القسم فيه مـن بيت يفصل فيه بين أول أشـطـاره وبقيتها بمجموعة من الاشطار القصيرة تسمى كذلك «لمطيلعات» فكان داخل البيت محشو بهذه الاشطار الزائدة ، وهذا هـو الاصل فـى التسمية اذ الشتـب ما تملا به «اللحوف» و «المضربات (1)» ٠

ومن الامثلة عليه قصيدة «التوبة» لابن سليمان ، وفـى أول أقسامها يـقـول :

1 ــ **اول البيت** : مافيها مايبقى

2 ــ **لطيلـعـات** : غير نعم الباقى

يـاغفيل مـالـك شاقـى

لاين تاتزيد احماقــى

وين من غرتهم بالمال والنصر

مافازوا غير ابلقبر

مانفعهم فيها تدبير

آسعادت من دار الخير

نـــال سلوان

واعليه ماصعاب هـان ٠

1) جمع «مضربة» وهى المرتبة فى اللهجة المصرية ٠

3 ـ **بقية البيت** : وانت ارمتني لهلاكي في ذا الاسواق

نلحقها مخليا

اولا وجدت اعمارا

ويتضح لنا البيت بشبهه وقربه من الحربة التي تقول :

يـاراسي لاتشقى

التاعب لابد من لفراق

لاتـامـن فالدنـيـا

ابناسهـا غـرارا

ومنها قصيدة «قمر الدارا» لعبد السلام الجربي ، وحربتها :

واجب لي نعدار ※ لاتلوموني في حال لغرام ※أناسي مـابيا

غير قمر الـــدارا

وفي القسم الاول منها يقول :

1 ـ **اول البيت** : صابك ابعسكر جرار

2 ـ **لمطيلـعـات** : للطام اتانـي

مايحن من تمحانـي

ونانحيل وفانـــي

غير نرتي وادموع العين حايفا

من فوق الوجنات ساجفا

نعني لسواقـي

وهيجت نيران اشواقي

اولا وجدت الدايا راقي

اعـجـز طـبـي

والجسم صار امهبي

اكساني الظما ياناسي

3 ـ **بقية البيت** : جسمي اسقام

واخـلاكي كطعيا

اولا وجـدت ايمارا

رابعا : السوسى (1) :

ويتكون القسم فى قصيدته من ثلاثة اجزاء :

1 — **بيت من شطرين** يستهل به القسم .

2 — **مجموعة من الاشطار المرسلة** دون تقييد فى العدد والوزن والقافية لايخضع لغير تسلسل الانشاد .

3 — **بيتان أو ثلاثة أبيات** على نفس الوزن والقافية ، تكون كالتمهيد للحربة التى تتحد واياها فى الوزن والقافية .

ومن الامثلة عليه قصيدة «الزمنية والعصرية» لحسن اليعقوبـــى ، يقول فى أول أقسامها :

1 — **بيت من شطرين** : يالحضرا سمعوا ماصار

بين زوج ابنات افلكحار

2 **الاشطار المرسلة** : شابا عصريا بكرا

والاخرى زمنيا عذرا

فرجونى بين الحضرا

وكنت حـاضـــر

نصغى لخصامـهـم

نسمع العصريـا

اتـقـول للزمنيا

يا جارتى اهنيا

سمعى مـنـى اخبار

من يوم اسكنت احداى جارا

وانـتـيا فـاشـفـار

ياحسبى لله سالبا بخصامك جمع لفكار

عمرك ماشفت اتقول شئ مدرسا

ولا احضرت مجالسا

ولا اهواتك الدراسا

---

1) بعض الاشياخ يطلق عليه «المزلوك» ومعناه فى الاصل الخيط الرقيق .

ايــلا اهــواتــك

بك اعــوار الناس

جارحا بلسانك فات لقياس

مشــغــولا بــيــا

ولا العنت شيطانك الشرير

خوذيني نصغاك تتشتمى فيا

جهرا بــــلا خفيا

فالستا ساعــت لعشيا

عند اغروب **النهار**

قالوا للشتاما النار

بلسانك قلت اعلى الشكارا

3 ـ **بيتان** : أ ـ مصحوبا ديما امعايا مملو ابلكتوب عل لفتخار

سابقا بالمـعــيــار

كابرا أميا فالسب الغتب والزورا

ب ـ لالك المدرسيا فايقا عل لبكار

يــاتســمــعــى لخبار

بالزمنيا غشميا اموخرا للورا

4 ـ **الـحـربــــة** : آش را من لارا لبنات يوم قاموا لكحار

زوج هيفات اصغار

شابا عصريا وامع الحاجبا فالجورا

ويكثر السوسى فى قصائد «المحاورات» مثل «الحراز» و «الخصام» بل يكاد يكون خاصا بها ، ولكن مع ذلك نبدى ثلاث ملاحظات :

الاولى : أن بعض قصائد «الحراز» نظمت فى غير السوسى مثل حراز الشاوى ، وحربته :

شف حراز الريم حجوبا ❊

بارت احيالو واظفرت ابدات لجمال بعد العز ولحجــاب

وحراز مولاى الحسن ، وحربته :

شف حراز الدامى كيف صار لو ❋ حتى بارت حيلتو وحزت ام **ادلال**

وحراز خديجة للفلوس ، وحربته :

حراز اخديجا سابغ الشفر حرزها يامن اتسال عن شوف انجالى

واغلبتو بحيالـى او حـزت ولفى سابـغ لنجال

الثانية : ان بعض قصائد «الخصام» نظمت فى غير السوسى مثـل «العربية والمدينية» لمحمد بن على ، وفى حربتها يقول :

مابين العربيا امع لمدينيا حاضر افلخصام وامعاهـم

حتى اتعايرو ودار المعيار من بعد اخصام الباهيات فالصلح اجريت لهم

الثالثة : ان قصائد نظمت على هذا الوزن ، وهى ليست من المحاورة كقصيدة «الربيعية» لمبارك السوسى ، وحربتها :

يوم الجمعا خرجو اريام من بهجت فاس البالى

سربات ايحيروا لعقل نحكيهم غزلان

يـوم الجمعا خـرجـو اريـام

ومثلها قصيدة «الجدول» للحاج الصديق المسفيوى ، وحربتها :

لله يارسول سال الدامى واش ماعند الخاطر باس

أما بعد هذا فيقال فى أصل **تسمية هذا الوزن بالسوسى** قـولان :

1) انه نسبة لمبارك السوسى لسبقه الى النظم فيه ، مع ان الراجح لدينا أن الشيخ امتيرد هو الذى سبق اليه (1) ٠

2) انه شبيه بالفرد السوسى المنسوب لمنطقة سوس ، ومعروف أن سكان هذه المنطقة مشهورون بالتجارة والاقتصاد ؛ ووجـه الشبه ان الجزء المرسل فى هذا الوزن ـ على الـرغـم من عدم وجـود تبييت وتقفية لضبطه ـ يحتوى على مراكز يقف عندها المنشد فى ايقاع معين كأنه يعد الفلوس على طريقة السوسيين ٠

---

1) حسب ما انتهينا اليه فى البحث ٠

بنـــاء القيـصدة

اســم الـقـصـيـدة :

يسمى الزجال المغربى قصيدته «لقصيدا» أو «لقصيد» ويجمعها على «قصدان» . يقول الجيلالى امتيرد فى آخر قسم من «خلخال اعويشا» :

والى سالك عن ناظم لقصيـــــــدا * قل افصيح اللغا الحبر الجيـــلالى

ويقول ابن سليمان فى آخر قسم من « الرعد » :

أحافـــظ لقصيـــدا زد التقـلا اعــلى لبهايـم

احضى اعقول لهل الدعوات الناكرين لحسان

ويقول المغراوى فى آخر « التوسل » :

وامدحتك فــى باب روضتك ابهاذ لقصيـــد

ويقول المدغرى فى آخر بيت من « أم كلثوم » :

أنت ليا مملوك واغلامى * ونا كذاك لك احبيبا خدى الخدها وقصيدى متموم

ويقول ابن على فى آخر بيت من « القمرصان » :

وعــلى الجاحدين حجـا افقصدانى

ويذايجــول فاسلوع يلقاهــا اموضحا بشهــود وتبيان

ويقول العلمى فى أول القسم الاخير من « كان الخلاكى هانى » :

أحافظ قصدانى * سلى اجوارحك قبل ايغموك لكفان

ويسميها كذلك « القطعة » على حد قول ابن على فى آخر قسم من «المحاورة» :

بلطفا واسجيا جبت هذا القطعا بالفاظها ومعناهم

إذكى من الزهر واحلا من سكر فقلوب هل التسليم ولجحود اتجيهم زقوم

مقدمة القصيـدة : السرابـــــة :

يقــدم الزجال المغربى لقصيدتــه بقطعة قصيرة تكون فى نفس البحر يمهــد بها لضبط ايقاع الوزن الذى سينظم عليــه ، تسمى « السرابة » (1) والغالب أن تتكون من هذه الاجزاء :

1 ـ أبيات تمهيدية يطلق عليها « الدخول » (2)

---

(1) لعل أصلهــا من انسرب وتسرب بمعنى دخل .

(2) انظر « الدخول » بعد سطور لدى استعراض أجزاء القصيدة .

2 ـ « ناعورة » (1) وهى أبيات قصيرة نادرا ما تكون أكثر من ثلاثة .

3 ـ بقية الابيات

4 ـ « الردمة » (2) وهى الشطر الذى يختم به ، ويكون كالفاصل بين السرابة والقصيدة .

وعند الاشياخ أن الذى لاينظم السرابة لقصيدتـه لايستطيع ضبط ميزانه بل لايعتبر شيخا ، وقالوا فى ذلك «من لايوزن بسرارب ميزانو يبقى عايب» . ومع أنها تتفق مع القصيدة فى الوزن والموضوع فانها تختلف عنها فى الانشاد ، وقد سبق أن رأينا (3) مختلف أنواعها فى الانشاد ، وهى :

1 ـ السمـــاوى .

2 ـ الحضارى .

3 ـ الكباحى .

4 ـ المزلوك .

ويلاحظ اليوم ـ نتيجة ضعف مستوى النظم والرواية ـ ان الشعراء لم يعودا يقدمون لقصائدهم بالسرارب وان المنشدين لا يمهدون بها كذلك ، وان فعلوا فانهم يخلطون ، حيث ينشدون سرابة هذه القصيدة لتلك ، حتى ولو لم تكن منسجمة معها فى الموضوع ، فكان أن تعطلت هذه المقطوعات وضاع أكثرها ، وما بقى منها ينسب فى الغالب لغير أصحابه أو لا يعرف قائله . ويطلق على السرارب التى يجهل اسم منشئها اسم «اسرارب أحرآميين» ، وكان بعد هذا أن بدأت السرابة تنفصل عن القصيدة وغدت تعتبر عند البعض نوعا مستقلا من الزجل .

وكنموذج لهذه المقدمـة نمثل بسرابة لمحمد بـن عـلى جعلها تمهيـدا لقصيدته «دامى لجدار» يقول :

1 ـ الـدخــول

أقلبى كن عـن امصابك صبار * الصبر مفتـاح اللكنـوز والدخـيرا

محبوبك لا تعاتبو ولـو جـار * وارتجا وصلو بعد السوايع لعســيرا

(1) انظر « النواعر » فى الحديث عن مقدمات الاقسام

(2) انظر « الردمة » بعد سطور عند ذكر العروبى (3) فى المدخل

لو طال الهجر لا غنى من لمزار * يا للى ما جبت لهل لغرام ســــــيرا
انشوف إجمالى واقفا انحيرا

2 ـ الناعــورة

يـا عمهـــوج لجــــــدار * مـا هـو عمهوج الراتــع لقفــارا
يـــا شنيـــار الصغـــــار * يـا بـدر اتجــلى فكمـــال دارا
يـــا كـوكـب السحــــار * يـا مـن حبو فـى ساكنـى اتــوارا

3 ـ بقيــة الابيــات

يا سالب مهجتى ولاجاب اخبار * لا تشوق بصرى فـى ذاتـك لنـيرا
لا ماناطلبت امن الخال والشفار * جرحوا ذاتى جرح الايلوا جبـــيرا
ازديت الكىعن اجراحى بالنار * آش يطفى نارى واغصايصى اكثـــيرا
واهـوايـا مـــا ستـــار * لهـوى طـالـب يفـدى الثــار
هذا عشقى ولا وجدت ما نختار * عشقـى فـاسميتــى تفتـــار
اللا وقت اتجورعلى القليب نارو * يشتـد القلـب امـن إكـــدارو

4 ـ الردمـــة :

(توجدنى كانقول يا ستار)

أجـــزاء القصيـــدة :

يقسم الزجال المغربى قصيدته الى عدة اقسام ، ويطلق على عمليـــة التقسيم اسم «لفصالا» (I) والغالب أن تبدأ القصيدة بمطلع يسمى «الدخول» ولا يعتبره من الاقسام ، تتلوه «الحربة» ثم تتوالى الاقسام بعد ذلك تفصل بينها الحربة فى الانشاد . والعادة أن يضمن القسم الاخير اسمه والصلاة على الرسول والدعاء للاشياخ والعلماء والمنشدين والهجو للخصوم ، وقد يشير فيه الى تاريخ النظم .

وبعض الشعراء لا ينهون قصائدهم بآخر قسم منها وانما يضيفون له جزءا يختمون به قد يطول وقد يقصر ، ويطلقون عليه «الدريدكة» . وفيمـا يلى نتتبع كل هذه الاجزاء التى تتكون منها القصيدة :

(I) اشتق منها فعل «فصل»

أولا : الدخول (1) : ويطلق على أول جزء من القصيدة (2) ، وسيتضح لنا من خلال النموذجين اللذين سنمثل بهما لبناء القصيدة فى آخر هذا الجزء من الفصل ، وهما قصيدة «هنية» من البيت لمحمد بن الحسن و «الذهبية» لانجار من مكسور الجناح .

والجدير بالاشارة ان الشاعر الشعبى كثيرا ما يستهل الدخول بالبسمة أو الخطاب يوجهه لنفسه أو غيره ، والغالب أن يستهل بالبسملة فى قصائد المدح النبوى والتوسل والتصلية والمعراج وما اليها مما يعبر عن عاطفة دينية . من ذلك قول محمد بن احساين فى أول «تصليته» :

بسم الله ابديت حلتى يامن صاغ اشعارى * محلاها مفتاح للشعر

ومنه قول المغراوي فى اول قصيدة له فى مدح الرسول عليه السلام :

بسم الله الجواد * به ابديت السلام * عليك فى دالمقام

ومنه كذلك قول العلمى فى توسل له :

بسم الفتاح المعبود رب الوجود الودود الدايم المرشاد

ومثله عند الفلوس فى أول قصيدته فى «سيدنا الحسين» حيث يقول :

ابديت باسمك يا من هو اعليم لسرار * فى امديح الماحى نور لعضا وليقين

وعند عبد القادر الجرارى فى «المعراج» اذ يقول :

ابديت بسم المولى لمقسم لرزاق * رب لكوان الحق الدايم لحقيق

اما الخطاب (3) فقد يوجهه لنفسه أو غيره .

ومن الخطاب الذى يوجهه لنفسه قول المغراوى فى قصيدته «فى الشوق لمكة المكرمة» يحدث عينه وقلبه :

ابدل نومك ياعين بالسهر ولنواح * احمل يا قلب اكدارى

---

(1) نشير الى ان اصطلاح الدخول معروف فى الموسيقى الاندلسية وهو البيت الاول من الصنعة الخماسية والسباعية اى التى تتكون من خمسة أبيات وسبعة .

(2) ويطلق كذلك على اول بيت فى القسم .

(3) سنرى فى الفصل الثانى من باب الموضوعات ان الشاعر الشعبى لجأ فى الوعظ الى الخطاب (انظر الملاحظة الثانية فى آخر هذا الفصل) .

من هم الغربا والجفا وبعد لملاح ٭ أيـــن عرفـا يـا نــــارى

هطلـوا بالدمـع ابصـارى

ومنه قول المدغرى يخاطب «اللايم» :

الايـــم لاش اتلـــــوم ٭ روح ســـــالــــم

دعنـــى كــف لمــلام ٭ مـا حجت امـن اغـرام

بيــن خـال وشامـا

ومنه قول امتيرد يخاطب السائل فى «مصباح الزين» :

اسايل لا تسال تترك اجوابى واسؤالى ٭ وانظر حالت حالـــى

وجهى يوريك مـا فقلبى من غـير اغشاشا

ومنه كذلك قول الفلوس فى «حراز خديجة» يخاطب المولع بالزهو :

يا من هو مولوع بالزهو اتراجم لغرام صغ لبيات اسجالى

واتأمل كيف اجرى القصت الحراز الختال

ومثله قول ابن على يخاطب «الشعمة» :

سلتك لله عدلى شجرالك ٭ واعلاش باكيا مادالك

واش كـان قصتك واش انهوداك

ثـانيـا : الحـربـة : وهى اللازمة ، وبها تعرف القصيدة وتميز عن غيرها من القصائد التى قيلت فى نفس الموضوع ، ومكانها من القصيدة بعد جزء «الدخول» ثم تكرر فى نهاية كل قسم وبها ترد المجموعة على المنشد .

ويزعم بعض الاشياخ ان اسم الحربة تحريف لـ «خروبة» ولكنــه افتراض لا يفهم منه ما يوحى باللازمة أو التكرار او حتى الانشاد والغناء. وربما كان أقرب الى القبول الافتراض الذى أبداه أستاذنا الجليل الدكتـور عبد العزيز الاهوانى من انها قد تكون تحريفا للخرجة المعروفة فى الموشحات والازجال الاندلسية .

والمفروض ان تكون الحربة على «قياس» ابيات القصيدة اى مـن نفس الوزن ، مثال ذلك حربة قصيدة زهرة لبوعمرو وهى من المثنى :

زورنى قبل الانقبار ٭ ياهلال الدارا زهرا

فان ابياتها تسير عـلى نفس «لقياس» حيث يقول فـى أول بيت مـن القسم الاول :

مال قلبي يرمي بشرار * شاعلا في قلبو جمرا

وهذه حربة قصيدة «فاطمة» لابن احساين من البحر الخماسي :

قالت يما تقول طامــو * قلــت وابيـك يالطـــام

يا قــد اعــلام فاللطــام * قالت ترا يقــول طامــا

ترات ايقول فاطما

وفي أول بيت من قسمها الاول يقول على نفس «القياص» :

قولوا لي اقــوا ملامــو * لو كان انظرت بالنيـــام

مولاتي باشت الريــام * ما تلقى افلهــوا املامــا

ولا تصغــى املاومــا

وقد سبق ان رأينا في الجزء الاول من هذا الفصل انه في «مكســور الجناح» يختم القسم ببيت يكون على وزن الحربة ويمهد لها ، وكذلك رأينا بالنسبة «للسوسي» حيث يختم القسم ببيتين أو ثلاثة على وزن الحربة وتمهيدا لها . ومثل هذا يقال عن «المشتب» الذي يكون فيه البيت على وزن الحربة .

ومع هذا فانا نصادف «حربات» لا تتفق مع أبيات القصيدة في عــــدد الاشطار ، ويطلق عليها : «الحربات المثنية» حيث يضيف لها الشاعر شطرا أو اكثر . ومن النماذج على هذا النوع ما نجده عندالمغراوي في «هول القيامة» وهي قصيدة مبيتة من فراش وغطا ، يقول في أول اقسامها :

نعم القيوم خالق اكوان الكونين * وسير امسيرها على وفق امرادو

ولكنه أضاف في الحربة شطرا ثالثا فقال :

صلوا وسلموا على شارق لنوار * محمد شافع لسلام

انهار البعث والقياما

ونجده كذلك عند الكندوز في قصيدة مبيتة من فراش وغطا يقــول فيهـــا :

ياحباب انشالو صدوا مــع الطريق * كيف يزها لي عــاد العيش

فقد عمد الى حربتها واضاف لها شطرا ثالثا فقال :

يالي قبلتو الصادق الصديق * خبروه ابحالي بكمال جودكم

سيدنا محمد سيدي وسيدكم

ومثل هذا نصادفه عند الجرارى فى «المعراج» حيث يقــول فــى أول بيت من القسم الاول :

بعد تمجد المجد انوضح لخبر ✻ اعلى المعراج اصاح إفليلت السرا

ويقول فى الحربة وقد جعلها ثلاثية الاشطار :

الصلاة اعلى الهادى راكب لبراق ✻ سيدنا محمد لشرف الصديق

من اسرى من حرم الحرم افلغسيق

وقد يضيف الشاعر أكثر من شطر الى الحربة على حد ما فعل ابن على فى قصيدة «الذرة» وهى مبنية من قياص لشركى ، يقول فى اول «الدخول» :

سبح المولى تسبيح اللسان والقلب ✻ وقدس المولى تقديس النجاب لقراب

ومع ذلك فقد جعل الحربة من بيتين فقال :

يا ساهي من نومك فق سبح الرب ✻ لمتــا وانت تايــه افلغرور لــواب

الصلاة والســلام على اخيار لنسب ✻ سيدنا محمد طــه اشفيــع لعراب

ثالثــا : الاقســام : وسننظر فيها من جانبين أولهما عددها وعدد ابياتها والثانى مقدماتها :

1 ـ عدد الاقسام والابيات :

قد يكثر فى القصيدة عدد الاقسام أو يقل ، كما ان عدد الابيات داخل القسم الواحد قد يكثر أو يقل حسب نفس الشاعر وحسب ما يقتضى الموضوع ومــا عند الشاعر أن يقــول فيه ودوافعه اليه ، وهــو تعليل يطلقون عليــه «السبب والمعنى» .

والغالب ان يتراوح عدد الاقسام من اربعة الى عشرة ، وكذلك يكون عدد الابيات داخل القسم الواحد . ومع ذلك فان عدد الاقسام قد يرتفع فى بعض القصائد التى تكون مادة موضوعها غزيرة متوفرة ؛ وقد وقفنا من هــــذه القصائد على اربعة هى :

أ ـ قصيدة «هول القيامة» لعبد العزيز المغراوى فانها تتضمن ستــة وعشرين قسما ، وهى التى يقول فى حربتها :

صلوا وسلموا على شارق لتوار ✻ محمد شافع لسلام

انهــار البعــث ولقيامــا

ب ــ القصيدة «الفياشية» لمحمد الشرقي ، وتشمل تسعة وعشرين قسما، وهذه حربتها :

انـا مالى فياش * آش اعليا منـى

ج ــ قصيدة فى التوسل لعبد القادر العلمي تعرف بـ «الجمهور» بلغ عدد أقسامها اثنين واربعين ، وهى التي يقول في اولها :

يا من يشفى اضرار عبدو بعد السقم * ويفرج من اقوات فالصدر احزانو

د ــ قصيدة «سيدنا الحسين» لمحمد العيساوى الفلوس، فان عدد أقسامها خمسة واربعون ، وفى حربتها يقول :

يا لحضرا سمعوا وفات نور لنوار * ولد فاطما الزهرا سيدنا الحسين

أما بالنسبة لعدد الابيات في القسم الواحد فانه قلما يزيد على عشرة . وقد بلغ فى قصيدة «الشمعة» للشريف مولاى التايك ستة عشر بيتا فـــى القسم الاول واحد عشر فى الثانى وثلاثة عشر فى الثالث واربعة عشر فـــى الرابع والاخير . ومثل هذا الاختلاف بين الاقسام شاذ ولكن الاشياخ يعللونه بـ «السبب والمعنى» كذلك . وسنكتفى بعرض القسم الاول وهو يحكـــى قصة النحلة على لسانها حيث تقول :

بلسان حالها قالت لى نحكى لـــك * اشيخى عما حملت من لـــدراك
ويلا اتصيفشلا توصف فوصافك * عن حالى وماكـان لى اقبل لحـراك
وانت اغرايبى عاودها بلسانـك * وضـح ليفـادا واشرحها بلغـاك
واخبر بكرحتى فالناس اللى سالك * لا تكتم سولان حدث امن اصغاك
ازمان كنت فقصر محبوك امشابك * واكذاك انايا فصـورت التشبـاك
بكمال صورتى صورنى صـوارك * شهدا معلوما افملك من لمـــلاك
بعمالتى انصول اسلطانى ما لك * واجناد ابطالى اتروح التيـــــاك
وظفرت بالسعادا فزمان إمبـارك * ما ضاها لملاكتى املك لتـــراك
وامنين راد ربى بالوعد السالـك * كسروا جندى ماتلا انفع لعـــراك
وابهز فى ابساطى بهاز ابحالـك * كانوا يعتادوه ناسنـا فتـــاك
بعد لهلاك عصرونى عصرا محابك * واهديت اعسولى آولاوجـدت افكاك
ولاوا دوبونى بالصهد الهالـــك * طرحونى حتى اصفيت للتـــدلاك

واصفات لوضايح وارجعت اسبابك ⁂ ولى داى يا شيخى اكثر من ذاك
كالوا انت اعروسا لفتيلا تاجك ⁂ بها يشرق نور مهجتك واضيـــاك
بها افكل حضرا يعلا مرتابـــك ⁂ واعلى الزاهى ماتلا ايفيد إغـلاك

2 ـ مـقـدمـات الاقـســام :

من براعة الشاعر ان يقدم لاقسام قصيدته بأبيات قليلة يمكننا تقسيمها الى نوعين : احدهما «العروبى» والثانى «النواعر» :

أ ـ الـعـروبـى :

وهو غير «العروبى» الذى تغنيه النساء والذى اعتبرناه نوعا مستقلا من الزجل (I) . ويقولون انه كان فى الإصل يقدم به لاقسام المبيت المثنـى ولكنه لم يعد كذلك ، حيث نصادفه حتى فى غير المبيت . ويتركب من عدد من الابيات تنتهى بشطر يتيم يطلق عليه : «الردمة» و «التدبيرة» و «التذييلة» وهى كلها كلمات توحى بمعنى الختم والانهاء .

وعند الاستاذ محمد الفاسى ان العروبى الذى يقدم به للقسم يتكون من بيتين كل واحد منهما بشطرين يضاف اليهما شطر خامس(2) . وهذا تقييد لا أساس له. حقا ان العروبى قد يكون محصورا فى القالب الذى ذكر الاستاذ الفاسى ، على حد ما نجد عند الشيخ إمتيرد فى «فاطمة» اذ يقول مقدمـــا للقسم الاول :

أنا يا فاطما احسانك ما ننساه ⁂ وانت لحسان من تليتو مـن ناسو
إكشفتى سرنا ولو حتى بغطـــاه ⁂ عيار الحب طابعك كشف إنحاسو
حتى بنيان ماعلا دون الساسو

ولكنا وقفنا على «عروبيات» يتعدى ابياتها هذا التحديد، واثبات الدليل يقتضى منا ان نعرض نماذج من هذه العروبيات ، وهى مكونة من :

I ـ ثلاثة ابيات والردمة كما فى «التطوانية» للحاج ادريس لحنش على حد قوله فى عروبى آخر قسم من القصيدة :

ايا حماة دينا لعنو الشيطـــان ⁂ هذا الغفلا اعلى اعداكم حتى ليـــن

(I) انظر الجزء الثانى من الفصل الاول من باب «الشكل»
(2) انظر مقدمة «الاغانى القديمة لنساء فاس» .

ماتتفكروا انهار دخلوا التطــوان ※ وخرج فيها الكافر المسلميــــن
وابقات الناس حايرا بين الطرقان ※ وهل ليمان كاتقول ابصوت احنين
الله ايجود بالنصر لعلام الدين

2 ـ اربعة ابيات والردمة ، ونجدها عند العلمي في «التوسل» حيث يقول في عروبي أول اقسام القصيدة :

يامن رسى اجبال وارصدها بصخور ※ وابحور الطاميا ابقهرو محصــورا
ما يرشفها حفير ما يمنعها ســور ※ وافراتن موجها افماها مكســـورا
واحجب ضو النهار بظلام الديجور ※ واهزم لغسيق ابلفجر باهى الصورا
يا عالم ما بدا وما تخفى لصــدور ※ سلتك بملايك لحجوب المشهــورا
احفظ ذات لهمام من كل اضرورا

3 ـ خمسة ابيات والردمة كما هو عروبي احد اقسام «الجمهور» للعلمي، وفيه يقول :

عبد القادر وصاحبو مول الخلوات ※ بو وحشيا ومن افقربو من لسيــاد
وعلى والحاج والاسعد باهى الخصلات ※ سيدى عبد العزيز لمـام الاستــاذ
يصرخ ويغيث ويحمى عند الحزات ※ ويحل ابقدرت لهيمن كل اعقـــاد
والشيخ اللى ابراهنو كالشمس اضوات
مول البركا الظاهرا سيدى عياد
وارجال اخرين في امنازلها اختفات ※ اسألت ابحق جاهم خالق لعبــــاد
يوفى قصدي ولا يخيب لى مراد

4 ـ ستة ابيات والردمة على حد ما نجد في نفس قصيدة العلمي السالفـــة الذكر حيث يقول :

يابن عزو يا لكوكب الـــــدرى ※ الحاج الطيبى اتوافى مظنونـــــى
العدويا وجارهـا سيـــدى بصرى ※ والخزيو الصالحا والقرموـــــى
سيدى النجار والاشقرثم البدوى ※ والشبلى طيب الشذا زهر افنونى
سيدى الجزار طلعت البدر الزهرى ※ بوطيب منو شمس قلبى واعيونى
والوالى ابن عبود والشيخ الحضرى ※ والشيخ الجنان لا تجهل ملحوـــى
عطفوا عطفا مختترا تشرح صدرى ※ وادعوا بدعوتى الله وعينونـــــي
عبد ارضاكـم مـا نظن اتهينونى

5 ـ احد عشر بيتا والردمة كما فى قصيدة «سيدنا الحسين» حيث يقـول الفلوس فى عروبى آخر قسم من القصيدة :

مهما دخلوا اضريح لحبيب المهتـاد * قالوا يا جدنا الهادى محمـــد
لوريت شين صار بنا دون افنـاد * فى كربلا امع اجيوش الا تنحـد
قتلوا الانصار والاصحاب مع الاولاد * وابن هاشم كلها يـا محمـــد
قتلونا دون حق فامهامه لوهـاد * واحنا فالشوم ولعطش يا محمـد
وقطعوا روس آل بيتك هل لعناد * تركوا لشياخ افلوطا يا محمـد
سفكوا دم لشراف واعصوا الاحد * سبوا على المرتضى يا محمـد
لوريت شين كان دار ابن زيـاد * هو واهلو وشيعتو يا محمـد
طعن الحسين كل من كان افلجناد * ولا رحموا اطفالنا يـا محمـد
قطعوا راسو ولا اخشاو من الجواد * داسوا بالخيل مهجتو يـا محمـد
كشفوا لحريم دون لعدا والحسـاد * وبعدها اسبونا يـا محمـد
داروا لنا احبال واغلال ولكيـاد * ما شفقوا من احوالنا يا محمـد

وجهناهم للقوى يا محمد

6 ـ ثلاثة عشر بيتا والردمة (I) على ما نجد عند العلمى فى «الجمهور» حيث يقول فى عروبى أحد اواخر اقسام القصيدة :

اللهم ارضى اعلى لخلايف عز الدين * قد انجوم السما قد احماس الديجان
قد اعداد لشجار واعشوب البرين * وما فالبحر امن اعجايب عل للوان
قد اعداد لرمال فاقفار الارضيين * وما من هايما اتسبح اعلى لوطان
اللهم ارضى اعلى ملوك الحرميـن * إعداد ما فكل تربا من بستـان
واعداد انسيم زهرها بعد الفجرين * وانغام اطيارها اتزبرج اعلى لفنان
قداما سبحو السمارس وامقنيـن * والحرمل والسرند والطير الحسـان
ما غنى اليتروك وارقص بالجنحين * مهما شاف لهزار لحسن بالترنان
ومابات لحمام اعلى البرج اينيـن * باصوات امرخما اتبكـى بالتحنان
واعداد النحل والنمل وادوا باخرين * وانوار اعلى لصناف بارزامن لغصان

(I) لا توجد فى النص الذى بين ايدينا ردمة لهذا العروبى ولكنا عرضناه على بعض كبار الاشياخ فدلنا عليها .

اللهم ارضى اعلى اهلي السر المبين * رضوان الا ينتهى عـن طول ازمان

ما حملت امن اخلايق اجواف الثقلين * بملايك طايعا اوحش وانس وجان

اللهم ارضى على كوكب هل ليقين * ابا بكر الزكى وعمر وعثمـــان

وابن ابى طالب الافضل قوم الشجعان

ابن عم المجتبى الشافع فالعصيان

وانصر ياذ الجلال لمـام السلطان

ويلاحظ أن بعض الشعراء التزموا نفس «الردمة» فى كـل عروبيات القصيدة على حد ما فعل الحاج ادريس لحنش ، فانه إلتزم قوله «الله ايجـود بالنصر لعلام الدين» فى كل عروبيات قصيدته «التطوانية»

ب — **النواعر** (I) : ويسمى كذلك السويرحات ولكراسا (2) :

I — الغالب ان تكون مكونة من ثلاثة ابيات قصيرة مكونة من شطرين أو ثلاثة أو اربعة فمن الامثلة على ذات الشطرين ما قدم به الشاوى فـــى أول قسم من قصيدة له فى «التصلية» حيث قال :

وجدو من هو حى واجــــــد * قبل لوجود وظهر للخلق اوجـادو

جعلو محبوب احبيب ماجـــــد * كرمو وفضلو واهـدى بـه اعبادو

ويح من اعصاه وكان جاحــــد * جهنم اجـزاه فيها مقعـــــــادو

ومن السويرحة ذات الثلاثة أشطار قول المدغرى مقدما لاول قسم من «الساحـــــى»

(I) من لطيف المصادفة ان نجد عند الرباط فى «العقيدة الادبية» ذكـرا للناعورة تكون فى الموال يقول عنها : «صنعة الناعـورة وتعريفها ان يجعل الناظم اربعة أغصان مواله رتبتهم كل غصن خمس كلمات مطلع كل كلمة ميم ويجعل الميمم حلقا فى الوسط ويطالع من الحلق مجـرى كل كلمة فيصير الموال مثل الناعورة (الورقة I49 ظهر I50 وجه) .

(2) ج كرسى. ولكراسا فى مقدمات الاقسام هى غير الكراسا التى تكون فى مكسور الجناح والمشتب كما سبق أن أشرنا الى ذلك فى الجزء الاول من هذا الفصل .

وتجدر الإشارة الى ان الكرسى فى الموسيقى الاندلسية هو الشطر الاول من البيت الثانى من الصنعة الثنائية اى المكونة من بيتين ويكون مميـــزا فى تلحينــــه .

شف البدر الواضـــح * بين انجومو رايــــح

لغروبو رخف الجناح

وانجوموا لوضايـــح * بالفرحـا تدالــــح

حست بنسيم الصباح

والديجور الجانـــح * تلقى اسريع اجوانـــح

وهرب بخيالو وراح

ومن السويرحة ذات الاربعة اشطار ما نجد عند امتيرد في «الكاس»

حيث يقول في تقديم أول قسم من القصيدة :

طاب اشراب كاســـى * بـوجـود لعناســـى

واحبابى وناســـى * اجميع بالوجد ايميســـوا

مصباح الغلاســـى * داحت عن اسياســـى

واتفاجا اكباســـى * اكل عاشق بونيســـو

رتخـا كـل كاســى * واذهب شر باســـى

انصبـح انماســـى * الكل سلـوان اعريســـو

2 ـ وقد تكون مركبة من اربعة أبيات ، كل بيت :

أ ـ من شطرين كما عند عبد السلام الزفرى في «خلخـال يـامنا»

حيث يقول في تقديم أول اقسام القصيدة :

ابقـــات جـــوالا * لفكار ويـن تعمل هذا الخلخـــال

اهميـــم لا حـــالا * خوفى عليه من لعدو والعـــدال

قلت بمقـــلا * عندى اخزايني فالصونا بقفـــال

د و ن لـــدالا * بالزرد ولقنا وسيوف العســـال

ب ـ أو من ثلاثة اشطار على حد ما نجد عند العلمي في «الساقـــى»

حيث يقول في سويرحة ثاني قسم :

راح الليل اولا ابقـــى * الا وقـت لمعانقـــا

كب ورا وارخى الرواق

والاطيار الناطقـــا * على لشجار الباسقـا

عمرت بلغاها اسواق

كب الخمر الخارقـــا * فى كيسان ابنادقـــا
من زاج ابلاد العراق

تظهر خمـــرا بارقـــا * فـالاوانـــى شـــارقـــا
كلون اسحيق الرماق

3 ـ وقد تكون مركبة من خمسة إبيات كما عند المصمودى فى مقدمة أول قسم من قصيدة «الجار» وفيها يقول :

ما يشبهنى عاشق الجـــــار * بالحب سرت ديوانى واخلاكى اصفر
نـار الحب اقـوى امـن النــار * منها اعذاب قلبى ياصاح ينزبـر
من قوتها سارت اجمـــــــار * بين لحشا اوسط المهجا وامع الصدر
نـــار اتمـــادى فيـــه بشرار * واعييت مانلاهى وانكابد فالصبر
جيت انزور احمامت الـــــدار * لا حى لا مونس لا غاشى لا خبـر

الـقســـم الاخـــير :

قد يطول أكثر من بقية الاقسام ويتضمن فى الغالب اسم الشاعـــر وتاريخ نظم القصيدة واهداء السلام والصلاة والدعاء وهجاء الخصوم :

أولا : ذكر اسم الشاعر : وقد يكون بالتصريح أو الرمز :

1 ـ **فمن الذكر الصريح للاسم** قول المغراوىفى آخر مرثيته **المنصور** السعدى المعروفة بـ «لعزو» واصفا نفسه بالفصيح :

وارحم المغراوى الناظم افصيح لعراب * بالبلاغا غير الجاد أيلفحو

ومنه قول الحاج ادريس بن على فى «فضيلة» واصفا نفسه بالاديـــب وقصيدته بعذراء متوجة :

وختمت القطعا ايقول لاديب الحاج ادريس بن على بهاجر الذيل
حلايا حفاظ صايلا * كعدار تاجها امكلل تكليلا

ومنه قول الحاج اعمارة فى «فاطمة» مشيرا إلى أنه مقيم فى مدينة فاس:
والاسم على اسألنى * الحاج بن الحاج اعمارة ومكانى
ارض الياقوتا الساطعا سلسالت لكرام

مولانا يدريس بن ادريس البدر الضاوى
الرضوان عليه عد مازاروه امن اقوام

ومنه قول عبد الرحمان القرى فى «زهرة» داعيا الله ان يحفـــظ مدينته مراكش :

واسمى ما يخفى القـــــرى * عبد رحمـــان طالب لغنى فاشعارو
يحفـــظ بهجتنـــا الحمــــــرا * ابجاه النبى وازواجو واصهارو

ومنه قول الحاج عبد الفضيل المرنيسى فى «جمهـور الخودات» واصفا نفسه بالذكى وبان خبره مشهور ومصرحا بتلمذته للنجار :

واسمى معروف الحاج عبد الفضيل المرنيسى الا اخفات اخبارو
الذكى تلميذ النجار

2 ـ **اما الرمز للاسم** فقد يكون بالحروف أو بالارقام أو بهما معـا :

أ ـ فمن الرمز بالحروف قول الجيلالى امتيرد فى «طرشون» رامزا الى الجيلالى بالجيم واللامين وواصفا نفسه بأنه أفصح الاشياخ ورئيس الشعراء :

قال افصيح لشياخ جيم الامين رايس لحبار

ومنه قول امبارك السوسى فى «زهرة» مستعرضا حروف مبـــــارك ومصرحا بالسوسى :

واسمى للى يقرا انبينو ميم وباللعارفين تفسارو
والـــرا اموخـــا والكـــاف افتشهــــــار
والكنـــوا سوســـــى

ب ـ ومن الرمز بالارقام (1) قول محمد بن على ولد ارزين فى «الطاهرة»

واسمى اثنين وتسعين فالحروف ظاهرا * واصحـــــاب ابجـــد حاضرا
والحرف الاول رفعو مشهور

---

(1) بناء على قيمة حروف أبجد ... وترتيبها عند المغاربة كالآتى :

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	20	30	40	50	60	70	80
ا	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ى	ك	ل	م	ن	ص	ع	ف

90	100	200	300	400	500	600	700	800	900	1000
ض	ق	ر	س	ت	ث	خ	ذ	ظ	غ	ش

وقد ورد فى القاموس المحيط للفيروزبادى أن «المشارقة» يكتبونها على الترتيب المعروف فى اللغة الآرامية والعبرية وهو :

أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت تخذ ضظغ .

فاثنان وتسعون هى مجموع قيمة حروف م ح م د بالاضافة الى أنه ذكر رفع الحرف الاول .

ومنه قول مولاى على البغدادى فى «خدوج» :

واسمى ظاهر فاميا اشرح منهاجى تسبى البدهاج

فالعين بسبعين واللام بثلاثين ومجموعها مائة .

ومنه قول محمد بن على المسفيوى فى «المحبوب» :

واسمى فبجد محسوب بالمحبوب أربعا والخمسا والزوج فى احسابى

فكتابة الاربعة والخمسة والاثنين متتابعة (4 — 5 — 2) تعطى رقم أربعة وخمسين ومائتين وهو مجموع قيمة حروف م ح م د ا ب ن ع ل.

ج — ومن الرمز بالارقام والحروف قول المدنى التركمانى فى «الزهو» :

واسمى ما يخفى اشهير فبجد المن اقراه

(صمين جب) والجليل من لا يسها وينام

فقد رمز بـ «صمين جب» فالصاد بستين والياء بعشرة والنون بخمسين والجيم بثلاثة والباء باثنين فيكون مجموعها خمسة وعشرين ومائة ، وهى قيمة حروف ا ل م د ن ومنه قول احمد بن رقية فى «الشمعة» .

فى رمز النون اسمى يا سالك * زد جيم لى سالك

فقيمة النون خمسون تضاف اليها ثلاثة فيصبح المجموع ثلاثة وخمسين وهى مجموع قيمة حروف ا ح م د .

ومنه ما نجد عند محمد العيساوى الفلوس الذى كان يخفى اسمه فى قصائده الوطنية بمثل هذه الرموز :

1 — اسمى للل والبا امضمنا

أى بثلاثة لامات وباء ومجموع قيمتها إثنان وتسعون وهى قيمة حروف م ح م د

2 — اسمى كعب

فالكاف بعشرين والعين بسبعين والباء باثنين فيكون مجموعها اثنين وتسعين . ومن هذا ما نجده كذلك عند الشيخ محمد بن عمر المراكشى الذى يرمز لاسمه فى الغالب بـ : «بمن» فالباء باثنين والميم بأربعين والنون

بخمسين ومجموعها اثنان وتسعون وهى قيمة حروف محمد .

يلاحظ أن بعض الشعراء سكتوا عن اسمهم ولم يذكروه لا رمـــزا ولا تصريحا ، وهؤلاء هم المدغرى والعلمى والسلطان سيدى محمد بن عبد عبد الرحمان والسلطان المولى عبد الحفيظ العلويان .

ويقولون عن السبب فى ذلك بالنسبة للمدغرى وسيدى محمد بن عبد الرحمن ان المدغرى كان صديقا لهذا الامير الذى كان بدوره ينظم، ولكنه لم يكن يريد ان يعرف عنه ذلك . وحتى تنسب قصائده للمدغرى طلـــب منه ان يعدل عن ذكر اسمه فى قصائده . ومثل هذه الظاهرة لو ثبتت ــ ستجعلنا نشك فى القصائد التى تنسب للمدغرى، فان بعضها ــ على الاقل ــ من نظم سيدى محمد بن عبد الرحمان . ويذكرون من هذه القصائـــد «عزبا وشابا» التى يزعمون ان الامير نظمها حين شاهد "بزقاق لحجـــر" فتاتين تطلان من الشباك ، وكان فى طريقه لزيارة الاضرحة بفاس عـــلى عادة الامراء والملوك العلويين ، وهى عادة لم تنقطع الا بنفى محمد الخامس سنــــة 1953 .

اما العلمى فانا وقفنا على قصيدتين يصرح فيهما باسمه ، هما :

أ ــ قصيدة «الشافى» وفى آخرها يقول :

والباحث عن اسميتى بعد السولان * عبد القادر اعلام رب الفوقانى

ب ــ قصيدة «بسم الفتاح المعبود» ، وفى آخر شطر منها يقول :

وارحم نساج لقصيدة العلمى

واما المولى عبد الحفيظ فيعلن فى قصيدة «الزين» ان من عادته اخفـاء اسمــــه :

والناظم طبعو يخفى اسميتو فسجالا * خـــذ صافـــى در وعقيـان

ومثل هذا يقول سيدى محمد بن عبد الرحمان فى «الزهو» :

الحافظ ويلا سالك تالف العنوانى * اسمى صونو بالكتمان

كذلك يلاحظ ان بعض الشعراء أشاروا الى اسمهم فـى اول القصيـدة أو وسطها وليس فى الآخر . فابن سعيد فى «التوسل» يذكر اسمه فى البيت الرابع من «الدخول» فيقول :

ابن سعيد السرى جد يالسلطان * غر عنى يانجل ابن الدبيح طاها

وامتيرد فى «لفصادا» يذكر اسمهفى وسط القصيدة على لسان الفاتنات:

قالت اريام الحضرا وين عز لشياخ * لفصيح الجيلالى شندگ لغزارا

على أن ذكر اسم الشاعر فى الزجل تقليد معروف(I) حتى عند المشارقة على حد ما نجد عند ابن مكانس فى وسط زجل له حيث يقول (2) :

يوم وهو جانى بضجـــــة * وجبيـن معقـود وعـابس

قال لى والله مانت حجـــة * فـى الهوى يابـن مكانس

تبقى تشكى لاى من جـــا * وآخـرو مـا قلـت امـس

وعلى حد ما نجد كذلك عند ابن مقاتل فى آخر زجل له اذ يقول (3) :

كـم خصـم فـى المقاتـل * صابـوا بـن مقاتـــل

وكم ذا فـى المحافـــل * قد أنشا غصـن حافـل

من حل بيت فى مربـع * ملحـون بألـف معـرب

وهو تقليد معروف كذلك عند شعراء أهل امصار المغرب من العرب اذ يذكرون اسمهم فى اول القصيدة كقولهم :

قـال الشريف بـن هاشم علـى * ترى كبدىحرا اشكتمنازفيرها(4)

. . . .

تقول فتاة الحى ام سلامـــة * بعين اراع الله من لارثى لهـا (5)

. . . .

يقول بلا جهل فتى الحى خالـد * مقالـة قـوال وقـال صـواب (6)

ثـانيا : تاريخ نظم القصيـدة :

(I) فى «بلوغ الامل فى فن الزجل» ص 9 لدى الحديث عن ابتداعـات الزجالين : «ذكر اسم الانسان نفسه فى آخر زجله ويسمونـه الاستشهاد ويثنى فيه على نفسه الثناء البالغ» .

(2) روض الآداب للحجازى مخطوط آياصوفيا رقم (4017) الورقة103 وجه.

(3) المصدر السابق الورقة 101 ظهر .

(4) مقدمة ابن خلدون ص 511

(5) المصدر السابق ، ص : 518

(6) المصدر السابق ، ص : 517

وقد يكون بالتصريح أو الرمز :

1 ـ **فمن التصريح بالتاريخ** مـا سجل به المغراوى قصيدتـه فـــى «المدح والتوسل» حيث قال :

الشريف ورخ هذا القصيد السعيد * ليلـــة عشر والحـــاد

سنة خمسة عشر والف عـــام * سلمـــك للــه جـــود

2 ـ **ومن الرمز اليه** قول النجار فى «لخلوق» :

تاريخ انظامى مـا اخفى اثلاثين المن يقراه

القاف ونصف الرا * زد الف تكمل حسباتو للهادى نهديه

فاذا أضفنا الى ثلاثين قيمة القاف وهى مائة ونصف الراء وهى مائة كذلك اذ الراء بمائتين ، وزدنا كل ذلك على الف يكون تاريخ نظم القصيدة ثلاثين ومائتين والف .

ومنه قول الفلوس فى قصيدة «سيدنا الحسين» :

خذ تاريخ النظم افعام «شرق» بجهار * ورمز «حا» و «الالف» وبعدهم ستين

فقد رمز بـ «شرق» و «حا» و «الالف» فالشين بألف والراء بمائتيـن والقاف بمائة والحاء بثمانية والالف بواحد ، ثم زاد عليها ستين ، وبذلك يكـــون المجموع تسعة وستين وثلاثمائة والف .

ثالثـا : اهداء السلام والصلاة والدعاء :

يقول ابن على فى «التصلية» مهديا سلامه للعلماء الفاهمين للقـرآن الكريم والاشراف والطلبة وأهل الوفاء والاحسان :

واسلامنا اعلى ناس العلم الماهرين فالمبين

واعلى لشراف واعلى الطلبا وهل لوفا وهل لحسان

ويقول العلمى فى «طامو بهيج الخدادا» يطلب من حـافظ القصيدة ان يهدى سلامه للمنشدين واهل المعانى والطلبة .

أهدى سلامنا للنشادا أهل لمعانى والطلبا يامن احفظ لقصيد

ويقول محمد بن الوليد فى قصيدة له فى «مدح المصطفى» عليه السلام مهديا سلامه للخلفاء الراشدين ولاصحاب الرسول العشرة وازواجـــه وللمهاجرين والانصار والابناء فاطمة ، ومصليا على الرسول الاكرم ، ثـم

مسلماً على الشعراء .

واسلام ربنا يتهيا فى كل حال دايم

اعداد ما فعلمو سبحانو ربنا العالم

وارضـــا على لخلافـــا

ابوبكر الصديـــق اعثمان اعلى اعمر

اللى ايجهد فالسبيل امعـــاك ☆	والرضى للعشرا المهاجر الانصار
واعلى اسيادنـــا لعراب التياك ☆	والازواج ابجملا والطاهرين لقمار
اولادلا بهم الاستمســـــاك ☆	الصلاة والسلام افكل ليل وانهار
اعليـــك يالهادى طيب لمســـاك ☆	قد لرياح قد ارعدها المطـــار
واعداد القلم واللوح الفـــلاك ☆	والعرش والكرسى وكذامياه لبحار
واعداد ماخلق فالدنيا من ياك ☆	دايما مادام الملك لغنـــى القهار
بالطيب ولعبير وعنبر وامساك ☆	والسلام انهيبو للمهدين لجبـــار

رابعـــا : هجـــاء الخصــوم :

ويطلقون على القسم الاخير اذا اشتمل على الهجاء «الزرب» تشبيها له بالسياج الذى يحيط بالحدائق والبساتين ويحميها ، فكأن هــذا الــزرب يحمى القصيدة ويرد عن صاحبها الخصوم .

يقول ابن على فى «صلوا على الصديق الصادق» واصفا قصيدته بأنهـــا ديباج ودرة تضىء لم يملك مثلها سلطـــان ، وطالبا مـــن حافظها الا يخشى المدعين العاجزين :

خذ ادباج ياحفاظ لدرار فى اسلوك الجين

درا على التراكى تضوى ماضم زيها سلطان

يا حافظ اللغا لا تخشى داعى اعليه هاذى دين

لعديم عرفـــو مديانـــى واللى اعديـــم مـــا يـــودان

فعسى اللى انعرفو ما فجيابو الجين ولاعين

فخلاص ابن على ماد الويبقى ايجول كل اوطان

ويقول امتيرد فى «خلخال اعويشا» يطلب من الراوى أن يصـــــول بقصيدته التى شبهها بالابريز وان يهمل الجهلة الجاحدين الفارغين الذيـــن

لا يفقهون رمزا ولا يدركون معنى ، ومتألما لحال الفوضى الذى أصبح عليه الشعر بعد ان كثر مثل هؤلاء المدعين الذين لا موهبة لهم ولا فهم :

خذ اراوى يبريز منظـــوم * غنىاوصول بين ارباب اليضمار

والغى من لا لو قول مفهـوم * عقلو اكفيخ دمر ماجاب اخبار

قولو ما بين الناس مدمـوم * ولا يشبهـو متمـد نكـــار

الجاحد اعماه ولادا يفادا مابين اقماهر اللغا جبحو خـالى

ما يفقـه رمـز ولايحـق معناه عكـلى هرتــال

اولا هى سباب لكلام وامضاو اهلو واتفرقوا وليس اجبو والى

واقـوات البدعـا ولجحـود كثرو والفن اقـــلال

قل للداعى عادم لمواهب لو فيد كرفت لوغا ما يقــوالى

وقت امـا شلا فى اغطاه يصـدف دكت لنبـال

الـدريـدكـة (1) :

وهى حين توجد تتضمن ما يتضنمه القسم الاخير فى الغالب ، وقـد تكون طويلة او قصيرة .

فمن الامثلة على الدريدكة القصيرة ما يقول ابن على فى آخر «المزيان»:

مـا تخفانى طرقـان * سالك فيهـا ببيـان * شفتها بعيانـى

بالبكا والصوم اتكدار * والفركا والتفكـار

والوهم امع الجولان * والفرغ مع الصومان * والسقام اكسانـى

رقت النفس امثيل اشعـار * ابسر الــذات اشهـــار

والسانى كترجمان * ولا مثلـى نـدمــان * والطبع سيسانـى

مايشح العاشق بمـــزار * ايوصلـو لـو يهجـــار

ولا ينكر سـولان * ولا يرحــم رقبـان * فالقصا والدانـى

عفت لصحاب ألنـــوار * مازالـوا فـــى لقطـــار

والاســم فالتبيـان * ابـن على فالعنـوان * شاهر عنوانـــى

والســلام الــلامت لحبـــار * مافــاح انسيم ازهـــار

(1) من دردك اذا ضرب برجله سريعا على الارض ، وربما سميت كذلك لانها تنشد بسرعة .

ومن الامثلة على الدريدكة الطويلة قول الشاوي في نهاية «التصلية» مشبها قصيدته بعذراء يستعرض اوصافها :

صلى الله اعلى المهـــــدي * امام من ادني وسيد امن اتنادا
واعلى الخلفا هل المجـــدي * واعلى الصحاب واعلى الالاف ليعادا
اصـلاة نهديهـا افنشـــدي * للصادق لصــدق كهف التؤادا
من عشقي واشواقي اوجـدي * وامحبتي وغيواني وامعن هـذا
نتهات العــدريــا افرصـدي * فبساط هل المعنى دايرا وقادا
تسقى هل لمحبا اصرخـــدي * واعلى اعشيقها تفجى كل انكادا
بتيوت اتهيج نار فكـــــدي * واكمال قدها يشبـه للطرادا
واجبين ايلوح ونار تكـــدي * غرامع لحواجب واعيـون اسرادا
والانف احكيتو طـير فـردي * والمرشفين قرمز واخدود اورادا
والثغر اجواهر امـن افرندي * والجيد جيد مهرا تـاكت شرادا
وامعاصـم كبرقيـن تـــزدي * واضعود كانعوت اصوارم لهنادا
واصدر عشق المغروم يبـــدي * حقين فيه تتمايـح خرق العادا
والسرا مـن راهـا ايـــودي * فمحاسن البطن تسلب هل لعبادا
والخصر من خسران يفـــــدي * واردافها اتردف والورك ازيـادا
وارفاغ افلون ارخام هنــدي * سيقان والقدام امن اوطاوه سادا
بها رفرف فالجو بنـــدي * فمنازل السعادا تاكت سعـــادا
لرباب الفن السلام نهـــدي * بالصدق ولوفا وامعاني وايفادا
والجـاحد مـا يقـوى الجهـدي * ايلا اطغى ابجهدو باقـى يتـادا
ويح الداعي من نار وقـــدي * خلات فـي اعضاه املاهب لهادا
ويلا شال يمسـى افكيـــدي * شداه للمضايق عمرت لـوغادا
امقلــد بحسامـــي وزردي * يوم لوغى انهد امن ابغى يتمادا
يعرفني وامعايا وعنـــــدي * ليس نمشي انعيرو كيف المرمادا
لفظ ارباعي انظامو امســدي * فمنازل الصفا برضات النشادا
افحصن احماهم فاح نـــدي * وكملت بالرضى واثباتا وانجادا
واصفا شربي من هـل الـودي * حبر الـزمان حاشا مثلي يتعادا

اراحم ترحم ضعف جسـدى * يوم النشور من زفرات الكهادا

كمل لى ياكريم قصـــــدى * «هزمم» (I) دوزو فزمام السعادا

نـمـوذجـان للايضـاح :

وهذان نموذجان لبناء القصيدة احدهما من المبيت والثانى من مكسور الجنـــــاح :

أولا : قصيدة «هـنـيـة» : للشريف محمد بن الحسن ، وهـى مـن المبيت المثلث ومن أربعة أقسام :

1 ـ دخـول الـقـصـيـدة :

يحسن عون العاشق لبها من حر الغيوان * يحسن عونو كل حين نيرانو مگديا

بين الثلج امع الصهود واجمار الولفيا

يحسن عونو بالمصادفا واصدود الهجـــران

كيف ايبات يصبح مايلوراحا قطعيــــــا

يتشكى مـن ملقـاه وادموعو مجريـا

يحسن عون العاشق لبها والزيـن الفتـــان

يحسن عونو مايلواوقات يوجد اسليــــــا

ياك الزين السيوف له بالهجرا مسقيا

يحسـن عونـو لوايتيـــه تيه اشرود الغـزلان

يلقى تيه الزين بالهجر للقاه اتهيـــــــا

هـذا حالـو مايليـه فاحكامـو شرعيا

كيف املكنى من اصباى واترك لونى يرقان

قبل انشوف ابهاك الريم امامن كيــــا

لسعتنى قبل لوصال ألغزال اهنيا

2 ـ الـحـربـة :

نصر الله اجمال صورتك أدابل لعيان * أمبروم التيت لال لغزال اهنيا

بك اغنمنا بالباهيا بشرا واهنيا

(I) رمز بذلك لاسمه فالهاء بخمسة والزاى بسبعة والميمان كل منهمـا بأربعين فيكون المجموع اثنين وتسعين وهى قيمة حروف م ح م د .

3 ـ لكـراســا :

اما من كيا ابنيــــــران * بشواظها اضحيت انصارع نيرانى
نصبح كيف انبات سكـــــران * من غير خمر هايم والوجد افنانى
واخبيرى من هول ولهـــــان * انراقب لوصال اهنيا يوفانى

4 ـ القســم الاول :

وماعــن كهلــى احملت واحمــول الحب ارزان
يدريهم من به كان بالفركا مابيـــــا
ايسلــم عشقى اولا يزيــد امــلام اعليـا
ومــابحت ابما اخفى ودمــع اعيونـــى طوفـان
وما ندهل ساكنـــى اوروح الذات افهــيـا
فمسايف لغــرام صــاك لى بجنود اقويـــا
وما حرمت لمنام باشواقى من لجفان
ومــا حرب بالجيوش مــير العشـــق اعليـا
وما من ليعــات فالحشا منــو مكميـــا
وماغرد فالبهيم طرفى ونــا يقظـان
وما راقبت لهلال فغروب الذهبيــــــا
يطلع كـوكب هلتى امعاه ابغير اخفيـا
وما بحديث لوصال بعد انحدث ادهان
تتزهى وانقول ياهلال الزين انتيــا
مالكاونا غـــلام يابوتيت اهنيـا

ثم تتوالى الحربة والاقسام الباقية كل قسم بكرسيه ، ونذكر منهـا القسم الاخير وهو خال من الاسم والدعاء والهجاء نظرا لان بالقصيدة دريدكة.

الصدر مرمر به يوصــــان * وانوابغو اتفافح زهوا ترضانـــى
والضعديــن ابروق لمـــزان * اكفوف من الكمخا وارطب من فانى
وامقايس زندين البـــان * بخويتم الذهب تكليل اعقيانـــى
والبطـن الطاوى اعـلى اقماش الهنـــداروان
والسرا طاسا اوصافها فتناه امزيــا
مــن لوريق انعوم فى اعتيق من الحميـا

والردف المالى امع لخصر وافخاد السيقان

كن اسوراى فى اوصافها نفها كليـا

والساق المدعوج عن اقدام الوصف اهديا

لجمالك نهدى اعشور لوصاف ابعز وشان

وماوصف ابهاك ما اتحد اثناه اسجيا

لازلت امسلى ابصورتك صبحا واعشيا

نصر الله ابهاك ياوداد القلب اللهفان

ياقد اعلام المبارزا يوم المشليا

يامن لازلت اعلى اوصاف الحسن اصبيا

كب واملا الرايقا بالخمر الكيسان

هات لى حتى انقول فتمام الخمريا

بشرا واهنيا اعلى اقدوم الريم اهنيا

5 ـ الدريدكة :

خذ اراوى روض لفنان * فمديح لال بوتيتين اهنيا

بها زال الهول واهوان * صعبى واشهدت باللحظين اهنيا

بها سعد الفال وازيان * سعدى وراحتى بعد البين اهنيا

ولفى من نهوا افتيهان * وناكبالها فى تحصين اهنيا

واتماضت اهموم لحزان * بوجود مالكى بدر الزين اهنيا

بودواح اسبيغ لجفان * ذات لبها وحمر الرشفين اهنيا

بهنيا لازال فرحان * قلبى اولايلى اعليها فين اهنيا

اهنيا للذات سلوان * هنو الريم كحل الشفرين اهنيا

اهنيا بها العنوان * مختوم فى انهايت تضمين اهنيا

واسلامى من غير بهتان * لهلالها ولها فالحين اهنيا

اعبق اشداه افكل بستان * يهدىانسيم طيبو منطيب اهنيا

قال ابن الحسن يعلان * مملوكها افزوج اتسعين(I) اهنيا

اشريف النسبا المضمان * لازال في امحبتو تمكين اهنيا

واهل الجود احباب واخوان * يتوادو ابطيب التفنين اهنيا

(I) يشير باثنين وتسعين الى مجموع قيمة حروف اسم محمد .

رادف اساقي املا الكيســان * بوجود مالكي بدر الزين اهنيا

ياربي وانت الرحمــان * اجعل لختام حســن ليقين اهنيا

ثــانيــا : قصيدة «الذهبية» لانجار وهي من مكسور الجناح :

1 ـ دخـول الـقـصيـدة :

غـدر كاسي يامديـم قبل اتـروح الذهبيـا

بوجود لامتي والقوم اللي لامـــوا

ماجابوا لنا اخبــار

قرب لي نسطاب فرجتي بعقيق الحميا

بشرا اعلى الرضى كاس كب امدامــو

واحنا مابين الاشجــار

فـي بستان ارفيع امحتفـل وادوات الحسنيـا

فوق الروض امع الورد راها ترقص قدامـو

واتكلــم فركت لطيار

2 ـ الحـربـة :

غدر كاسي يامديم قبل اتروح الذهبيا * شف لبهيم حين اتمكن بظلامو

واغلب عن ضي النهار

3 ـ عـروبـي :

اساقي ساعت الزهو تحيي لقلوب * واتسلي بالفراح بالشوق الجالـي

أساقي صاحب لهوا عقلو مسلوب * مولوع بالريام والكاس المالـي

شف الخودات حين تاكت من لحجوب * هاذيك الذي اتصول بالذكر السالي

ولا فاتـو ابحال ساعت اليـوم اليالي

4 ـ القسـم الاول :

أ ـ دخول القسم (مكسور الجناح) :

لله فين توجد هذا الفرجا اليوم

ب ـ لـطـيـلـعـات :

لاما امحضر برباب وعيدان

بين لتشين امع الرمان

جالسين اريام اشبان

تحت لغصان

هذا الذاك سكران

ج ـ بيت ينتقل به للحربة :

واريامنا ايرقصو من غير اخفيا * هاجوا وهيجو قلبى صاب امرامو

وارشفنا كـاس لعقار

وتستمر الاقسام الثمانية على هذا النحو ، ونقف عند الاخير :

خذ من الدر ولزمرد عقد انفيس * يحيى روض لعشيق ويشرح الجلاس

به انهد لجحود والى كان اعكيس * لنى حبر النظـام معنـوى قياس

واسلامى للشياخ دهات التجنيس * بالندا امع لعبير عن ساير لجناس

من لاطاع لشياخ لابد يمساس

خذ لقماش يامن لاتدرك له سوم

محال اتوجدو فخزاين اتجار

هدبه القوم الفجار

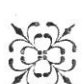
قل لهم قال انجار

هيت انجـــار

نغما الكل فجار

الى ادعا ابجهلو مافيه امزيا * شيخ لكلاب حدو ينبح فخيامو

ما حملوه اهل لجدار



نظـام القـافـية

ويطلقون عليها «القافية» و «الحرف» .

يقول الجيلالى امتيرد فى سرابة له :

قالت ناس الشعر والقوافى * الزين ابلاتيه صورتو تعـداف

ويقول ادريس المرينى فى ثورته(I) على قيود الوزن والقافية :

أنا بغيت ننظم والحرف ابدا يغور

اعلاه مايكون الشعر ابلا حرف

وقد كانت القافية فرصة للشاعر الشعبى ان يظهر براعته . واجماع الاشياخ أن هذه البراعة تظهر فى امرين :

أولهما : استعمال القافية على حرف واحد ، ووصفوا القافية التـى تكون كذلك بأنها على «مخها» اى لم يدخلها خرف آخر . وسنرى ان غـير قليل من القصائد سارت على هذا النوع مـن القافيـة الصافيـة اذا شئنا أن نترجم المصطلح الشعبى .

ثانيهما : استعمال قوافى داخلية فى البيت ، ويذكرون لذلـك نماذج فريدة ؛ منها مانجد عند المدغرى فى «الحاجة» حيث جعله مكونا من سبعة حروف حيث يقـــول :

من بك قالى قلت الحاجا

حـاجـــا

بحواجب نقشات خرقت لمهـــاج

واخدود طاهجا

واغوانــــج

واجعابها افروج

(I) سنتحدث عن هذه الثورة فى الفصل الثانى من الباب الثالث لـــدى ترجمة المرينى .

اعلـــــوج

ومنها ما نجد عند هاشم السعدانى فى «الساقى» حيث جعل البيـــت مكونا من أحد عشر حرفا ، يقول :

غــــدر ياساقـــى
من امدامك نسقى
يا طيب لخلـــوق
اسقينى بالريق
والرحيـــق
واشفـــق
من ذاتى الشايقا
وارحم من شـــاق
للمـــــــلاق
ياك المعشوق
حق يوفى لعشيقـــو

ويقول الاشياخ ان عبد الهادى بنانى زاد فنظم البيت فى «السماحى» مكونا من ثلاثة عشر حرفا. والاسف انا لم نوفق فى العثور على هذه القصيدة أو حتى على جزء منها .

القـافيـــة فى الاقســام :

أولا : المبيـــــت :

1 ـ **المثنى** : يسير فيه نظام القافية على هذا النحو

أ ـ التزام قافية واحدة فى الفراش والغطاء (ا ـ ا)، وقد تكون :

1 ـ بنفس الحركات كما عند الحاج ادريس لحنش فى «المرحــــول» وحربتـــه :

الغادى للرباط هاك اسلامى لسيادى * اولاد الولى بن لمهيـدى

2 ـ بحركات مختلفة كقول الشاوى فى حربة «الوصية» :

يا لنايم فق امن النوم راقب الفجر الطالع
قم تغنم ربحك واتفوز ابلغنايم والطاعـــا

ب ـ التزام قافية فى الفراش وأخرى فى الغطاء (ا ـ ب) كما عند

الجيلالى امتيرد فى قصيدة «ضيف الله» وحربتها :

اضيف الله رد لجواب اصغى لى ⁕ لا تحشـم رد السـلام

وكما عند ابن على فى «الهجران» :

ايـلا تهجرنى اخليلتـى مصبرنـى لجفاهـا

ويـلا تاهت عـن اوصالها مانقطـع لياس

ج ــ قد تسير أبيات القصيدة كلها على قافية واحدة ، وقد تخضع لبعض التغيير ، وخاصة فى «قياص لمشركى» حيث تسير أبيات القسم على قافيتين ، وتكون قافية الحربة على حرف الابيات الاخيرة فى القسم ، ومثلها قافية الدخول ، وتتخذ هذا الشكل :

I ــ الدخول :	ب ب	(فى عدد معين من الابيات)
2 ــ الحربة :	ب ــ ب	
3 ــ القسم الاول :	ا ــ ا	(فى عدد معين من الابيات)
	ب ــ ب	(فى عدد معين من الابيات)
4 ــ القسم الثانى	ج ــ ج	(فى عدد معين من الابيات)
	ب ــ ب	(فى عدد معين من الابيات)
5 ــ القسم الثالث :	د ــ د	(فى عدد معين من الابيات)
	ب ــ ب	(فى عدد معين من الابيات)

وهكذا يبدأ القسم بعدد من الابيات على قافية جديدة ويعود للقافية الاصلية التى تسير عليها الحربة ، ويسمى هذا التغيير أو بالاحرى هـذا الانتقال من قافية الى أخرى ثم العودة الى القافية الاصلية «السراح والرواح» واشتقوا منه «اسرح وراح» (I) .

ومن الامثلة على ذلك «العرصة» للتهامى المدغرى .

يقول فى دخول القصيدة :

حل عينك واتنزهزد شوف واسطاب ⁕ فى ادواح العرصا وازهارها اعجيبا

اغصانها بالفرجات اتعانقوا بترحاب ⁕ كيف عنق لحبيب احبيب بعد غيبا

اتمايلو وعربطو فرياضهم بشراب ⁕ من اكيوس انداهم امرونقا اسكيبا

الزهر يضحك والطل يبكى افتنحاب ⁕ كن عاشق تضحك لبكاه شى احبيبا

ولوتار اتجاوب بانغام عود وارباب ⁕ فيد عدرات أصوات اوتارها اطريبا

(I) كذلك أطلق الاشياخ «الرواح» على نهاية القصيدة او نهاية القسم .

ويقول فى الحربة

يالعرصا صولى فرحى ابطيب لطياب

طيبك سيدي ولد الساكنين طيبا

ويقول فى القسم الاول

شف لبلنزا صانت فى احضان سلطان

قدها واقدرها باثنين زين فى زين

عاليا فسماها لها من لبها شان

فى احجاب احجبان مارات كيفها عين

غرسها ما حاط ابوصفو البيب فوزان

لو يزول اقمعتى انعوتوا سنين فسنين

فى ارياض الملك امربى ابصور واصحاب

ولمياه السلسا فجداولو اعذيبا

امخنت انسيم الصبح بنسيمها الهياب

كابرا افتربت طيبا طيبا اخصيبا

ويقول فى القسم الثانى :

شف رنج اللتشمين اليم كن خودات

من ابنات العربان الصايلات بالتيت

بالعقيق اعقيان امخمسا اكلادات

ابطالها من بهم ستغاث دايم اتغيث

دى اتيه اعلى هاذى كابرات فخنات

زايدات اعقول اللى شافهم تشتيت

فالرحيل ايعجبوك الراشكات لهداب

فالهوادج ومهارو رايدا انجيبا

حايطابهم اسود السروت لنجاب

ويح من شاط ايعاود قصتو اغريبا

وهكذا يستمر فى بقية الاقسام يبدأها بثلاثة أبيات على قافية جديدة ويعود فى البيتين التاليين لقافية الباء :

وليست كل القصائد تقتصر على ثلاثة أبيات ثم اثنين ، بل انا نجـــد بعضها يسير على ستة بدل ثلاثة كما عند الجرارى فى قصيـدة «المعـــراج» مع ملاحظة أنه فى قافية الابيات الستة لم يلتزم حركة واحدة، ونمثل لها بالقسم الثانى حيث يقول :

حين وصل للقدس وعاد فى احماه

ادنا الحلقت لنبيا بعد شافهـــــا

ثـم ربـط البـراق اخلفـــو اوراه

زاد للمسجد احضرتو اينالهـــــــا

ثم صلى ركعتين وئـال مبتغــــاه

بعد صلى ترك البقعا وفاتهـــــا

بعدها جبريل اباناء باش جـــــاه

من خمر والانا لخرا اختارهـــــا

مـن الحليـب اروى الساكنـو اظمـــاه

قال جبريل الفطرا حزت فالهـــا

ليه نصب المعراج وقال فى الغـــاه

عول الجولا لا مخلوق جالهــــــا

الى حضرت من اختارك دون من اسبق

امن الرسال اللى نورك عنها اشريق

ازداد شوق المحبوب أشاق للمـــلاق

حين صعد وجبريل امونسو ارفيق

أما التجربة فعلى حرف القاف كالبيتين الختاميين .

وكما لاحظنا أن القافية فى الابيات الاولى مختلفة الحركات فـــى الفراش والغطاء فانا قد نلاحظ مثل هذا «القياس» ولكن بقافية مختلفة عـلى هذا الشكل :

أ — ب

أ — ب

أ — ب

ج — ع

ج — ج

مثال ذلك قصيدة «الذرة» لابن علي ، وهي على حرف الباء في الحربة والـدخـول :

ما ينقصو في ملك الله مـا يزيـدو

أولا يليهم في ملك رب لشيات تصـــراف

كيف شا يفعل ماشا ولحكام بيـــدو

اولا حدث افسايبر لشميا غير باش يعـرف

كـان فالملك اعلى درا بجـــل جـودو

اولا تحملو درا ولا بحمل يوصـــــــف

غير احمل القدرا والقدرا مـن الرب

افلشيات اقدرتو واعلى لشيات غالـــب

كون الكونين وما من لكوان يوجب

افرض امن الدرا ما شا رب لرباب

على أنه ليس كل قصائد «قياص لمشركي» على هذا النمط في القافيـة حيث نجد بعضها التزم قافية واحدة في كل القصيدة ، مثال ذلك قصيـدة للعلمي في «الحكم» يقول في حربتها :

زال تقليدو من صلى افخلف لمام * ايلا ايكون افسر اضميرو ايقين جازم

فقد التزم الميم الساكن في كل الابيات والاقسام .

2 — **الثـلاثـي** : ويسير نظام القافية فيه على هذا النحو :

أ — التزام قافية واحدة في كل الاشطار وان اختلفت الحركات على حد مانجد عند الفقيه العميري في «زهرة» حيث تتخذ القافية هذا الشكل :

أ — أ — أ

وهكذا في كل ابيات القصيدة ، وهي التي يقول في حربتها :

انت مكمولت لمحاسن زهرا * يارياض امزخرف بثمار

وانت زهرت الزهور وانت لغزال ازهـيرو

ب — عدم التــزام القافية في كل الاشطار ، وتتخذ ثلاثة أشكال :

1 – أ – ب – ب

وهكذا بأن تكون الاشطار الاوائل من حرف والشطرين التاليين من حرف آخر . مثال ذلك قصيدة «الزهو» للمدني التركماني ، فانه التزم حرف الهاء في الاشطار الاولى وحرف الميم في الشطرين التاليين ، على ما يبدو من الحربة التي يقول فيها :

الزهو افلكتوب ألوقات أماقال الله * واصلات المختار والفجر في وقتو والصوم

والحج الجهاد فالنصارى يوم المعلوم

وعلى هذا النمط يستمر في كل أبيات القصيدة .

2 أ – أ – ب

ومثاله «الساقي» لنفس الشاعر ، وفي حربته يقول :

أساقي رادف الرحيق أعلينا ليام راضيا * بوجود الريم راضيـــــا

سلطان ارضى اعلى الرعيا والزين الله ينصرو

3 – أ – ب – ج

وهكذا يكون كل شطر بحرف في كل أبيات القصيدة على حد مانجد عند امتيبرد في «هشوما» ،فقد التزم اللام في الشطر الاول والراء في الثاني والميم في الثالث ، يقول في حربة القصيدة :

غدر كاسي هات نوبتي يا ساقي واسقي الباهيا زينت نقط الخـال

لا تغفل عن رايت النصر * مصباح الـوالعات ولفي هشومـا

ومثلها قصيدة «أم الغيث» للحاج ادريس لحنش ، فقد التزم فيها الثاء فـي الشطر الاول والميم في الثاني والسين فـي الثالث ،يقـول فـي حربتها :

كيف اجري لي ياهل لهوا في حضرت سلطانت النسا لغزال ام الغيث

اشريف العذرات فاطما * ملوك الزين بينهم ضعت افكاسي

3 – **الرباعي** : ويسير نظام القافية فيه على هذا النمط :

أ – التزام قافية واحدة في كل الاشطار على هذا الشكل :

ا – ا – ا – ا

كما عند مولاي عبد الواحد في «البتول» فانه التزم اللام في كـل الاشطار مع اختلاف في الحركات كما يبدو من الحربة التي يقول فيها :

أجى بوصالك ما سخيت واتعالى * يعـدار صاحب الحـال

داوى اجـــوارح اعليـــلا * أشوم ليعتى من افراق البتول

ومثلها قصيدة «فارحا» للمدغرى حيث التزم الحاء مع اختلاف كذلك فى الحركـــــات :

دسنى تحت لخـلال بيـن ادروعك لمـلاح

واللبـــــا والــــدواح

وانهـــداتـــك تفاحـــا

خفت ايشرفنى اعيونك ايجرحونى يافارحا

ب ـ اختلاف فى قافية الاشطار كالتزام الاشطار الثلاثة الاولى لحرف والرابع لحرف آخر على هذا الشكل .

ا ـ ا ـ ا ـ ب

ومثال ذلك قصيدة «طامو» لامتيرد ، فقد سار فى الاشطار الثلاثة الاولى على حرف الجيم بحركة واحدة وفى الشطر الرابع على الميم ، يقول فى حربة القصيدة .

طامو يا طامو الحـــــاج * بـك اقـوى عشقى وهـاج

واسكـن وسط اسيار لهاج * وارضيــت احكـامـــو

مع ملاحظة أنه يسرح ويروح ولكن ملتزما حرف الحاء فـى أول ابيات الاقسام على هذا النحو من قوله فى القسم الثانى :

فالبهجا بيـن لمـــــلاح * بها كل اعشيـــق داح

طاب ارياض اشداها وفـاح * وعبـقـــت ادواحــــو

ويستمر كذلك بضعة ابيات ثم يعود للقافية الاصلية فيقول :

بحرى لام ادلال مـــاج * عذبى مارات اغنـــاج

نردع بها قوم اللجـــاج * مـن لا يـولامــــو

4 ـ **الخمـاسـى :** ويسير نظام القافية فيه على هذا النمط :

أ ـ التزام قافية واحدة فى الاشطار الخمسة مع اختلاف فى الحركات على هذا الشكل :

ا ـ ا ـ ا ـ ا ـ ا

مثال ذلك قصيدة «فاطمة» لابن احساين ، فانه التزم فيها الميم ، يقول فى حربتها :

قالت يما اتقول طامـــــو * قلت وابيك يالطـــــــام
ياقد اعلام فاللطـــــــام * قالت ترا ايقول طامـا
ترات ايقول فاطما

ومثلها قصيدة «لغزال» للجيلالى امتيرد فانه التزم فيها الكاف ، يقول فى حربتهـــا :

هل لى بالفاركا ايلاكـــى * ويبـوح حيهـا لخليـــك
لاين بوصيدها اغليـــك * لغـزال الشاطنا اخلاكـــى
مـا هو فنجوع خالكا

ب ـ اختلاف القافية فى أشطار البيت ، وتتخذ مثل هذا الشكل :

أ ـ ب ـ ب ـ ج ـ د

مثال ذلك قصيدة «أسادتى اولاد طه» للحاج ادريس بن علي، فانه جعل الشطر الاول على حرف الهاء والثانى والثالث على اللام والرابع على الميـــم والخامس على الراء ، يقول فى حربتها :

أسادتى اولاد طاهـــا * برضاكم عالـوا الحـال
يا ناس الجود ولفضال
أنا فى عار للا فاطمـــــا * الزهرا الطاهــــــرا

ومثاله كذلك قصيدة الطيب الواسترى «تاج لريام» فانه جعل الشطر الاول على حرف الياء والثانى والثالث على الميم والرابع على الباء والخامس على الفـــاء ،

يقول فى حربتها :

رغبوا تاج لملاح فيـــــا * ايجينـى غـــير بالســـلام
ويراعى صلت لكرام
لاخير فالى اجفا احبيبــو * واغـدر بعـد لموالفـــا

ثانيـا : مكسور الجنــاح :

تخضع القافية فى هذا الوزن لنفس تقسيم القصيدة ، كما سبـق أن رأينا ، وتسير على هذا النحو :

1 ـ دخول القصيدة ـ ان وجد ـ يكون على حرف قافية الحربة (أ)

2 ـ الحربة : على نفس القافية (أ)

3 ـ دخول القسم : (مكسور الجناح) على قافية مختلفة يلتزمها فـــى دخول كل الاقسام (ب)

4 ـ لمطيلعات : وهى لا تسير على نمط معين داخل القسم الواحـد ، وتختلف حروف قافيتها من قسم لآخر .

5 ـ البيت الممهد للحربة ، يكون على نفس قافيتها (أ) .

ويمكن الرجوع الى النماذج التى مثلنا بها لهذا الوزن فى الجزء الاول والثانى من هذا الفصل ؛ ونضيف اليها هذا النموذج ، وهو قصيـــــدة «الجلار» للمدغرى ، وقد بدأها مباشرة بدخول القسم ، فانه التزم حرف القاف فى كل الاشطار التى دخل بها للاقسام وجعل للمطيلعات قوافى دون تقييد داخل كل قسم وجعلها تختلف من قسم لآخر ، وسار فى قافية البيت الختامى على نفس قافية الحربة وهى الراء ، والتزم ذلك فى البيت والحربة فى كـل القصيدة . يقول فى القسم الاول :

أ ـ الدخول : مهما اتخاصم العنبر والمسك العبيق

ب ـ المطيلعات : واهلال عيدو البرنى والغرار

ولمدام أكاس البلار

والموبرا شغل الحرار

واكداك فوق زخار

صـــارى اقويـم

ج ـ البيت :

والطماج اعليها اتكابحوا بجهـــــارا * ايشمروا الحرب اسقـــارا

بينهم اعلى تاج الزين افلمضامـــــر * شلا نحكى اليوم صـــــار

د ـ الحربة :

بين الورد والزهر والجـــلارا ☼ والظليــــسم والحــــدارا

والرخام اتفاح اقوس والشنابر ☼ خرجوا على عانسى اكحار

ويقول فى القسم الثانى

أ ـ الدخول : واسباب ما حكيت اخرجت افداج لغسيق

ب ـ المطيلعات : نسدر فى ارياض امفتح لكمام

صبتهم ايشيروا بكلام

فى احروف امعانى واخصام

دون تدمام

عن عانسى ام احرام

جالـو او جـولـو

ج ـ البيت

دخلوا لميدان كاخيول الغـــارا ☼ دالـــذا يـعـيــط ورا

بالمعانى واخصام اكثير ولمعاير ☼ ما حشمو مـاتقاوا عـــار

على أن من الشعراء من التزم فى هذا «القياص» حرفا واحدا فى قافية كل القصيدة سواء فى الدخول أو المطيلعات أو البيت والحربة ، مثل الحاج أدريس بن على لحنش فى قصيدة «أم الغيث»، فانه التزم التاء فى كل الاشطار والابيات ، وقد سبق أن ذكرنا جزءا من قصيدته .

ثـالـثـا : المشتب :

يلتزم فيه الشاعر نفس القافية فى البيت والحربة، أما المطيلعات التى يحشو بها البيت فلا تتقيد بقافية سواء داخل القسم الواحد أو من قسم لآخر. وقد سبق أن مثلنا بقصيدة «النوبة» لابن سليمان و «قمر الدارا» لعبد السلام الجربى فـى الجزء الاول من هذا الفصل وهما من خير الامثلة على ذلك ، ويمكن أن نشير لنظام القافية فيهما بهذا الشكل :

القسم : أ (ـ ـ ـ ـ)

أ ـ ب ـ ج

الحربة : أ ـ أ ـ ب ـ ج

رابـعـا : السوسى :

تسير فيه القافية على هذا النظام :

1 ـ تلتزم فى كل الاقسام قافية البيت الذى يبدأ به القسم .

2 ـ لا تخضع الاشطار المرسلة لاى تقييد سواء فى القسم الواحد أو بين الاقسام .

3 ـ تلتزم قافية الابيات التى يختم بها القسم فى كل الاقسام .

4 ـ تلتزم قافية هذه الابيات فى الحربة أو بالاحرى تكون هى على حرف الحربة ، فهى تمهيد لها وزنا وقافية . ويمكن تحديد شكل هذا النظام كالآتى :

البيت : أ ـ أ

المطيلعات : دون تقييد

الابيات الممهدة للحربة : ب ـ ب ـ ب ـ ب

الحربة : ب ـ ب ـ ب ـ ب

ويتضح ذلك من خلال القسم الذى مثلنا به فى الجزء الاول من هذا الفصل من قصيدة «الزمنية والعصرية» لحسن اليعقوبى .

القافية فى المقدمات :

أولا : السرابة :

سبق أن قلنا فى الجزء الثانى من هذا الفصل أن الكثير من «السرارب» ضاع ، ولم يبق منها الا القليل . ثم ان السرارب الموجودة لا تعرف قصائدها فى الغالب ، ومن هنا كانت صعوبة النظر فى قوافيها وتحديد النظام الذى تسير عليه سواء فى أبياتها أو بالنسبة للقصيدة التى تقدم لها . وزاد فى هذه الصعوبة أن الشعراء اليوم قلما ينظمونها ، وان فعلوا فانهم يجعلونها مستقلة .

ومن فحص السرارب التى وفقنا الى جمعها ـ وهى جد قليلة ـ نستطيع أن نذهب الى انها تسير فى القافية (1) على شكلين :

---

(1) نلفت النظر الى أن ارتباط قافية أبيات السرابة بقافية النواعر التي تتخللها شبيه بالارتباط القائم بين قافية أقسام القصيدة وما فيها من سويرحات (انظره بعد سطور لدى الحديث عن القافية فى السويرحات)

I ـ أن تكون على حرف واحد فى القافية ، ومن الامثلة على هذا الشكـل سرابة ابن علي التى يقول فى أولها ، وهى على حرف الراء :

أقلبى كـن عن امصابك صبار ٭ الصبر مفتاح اللكنـوز والذخيرا

ومنها كذلك سرابة المدغرى التى يقول فى أولها ، وهى على حرف الحاء:

أنا الى ابلغرام قلبى مجروح ٭ ولهوى منوفانى ماجبرت راحا

ـ أن تختلف قوافى أبياتها ،ويبدو لنا أنها لا تخضع فى ذلك لنظام معين، وتسير مع طبيعة النغم والايقاع ، وان كنا نلاحظ أنها تكاد تكون فى التقفية قريبة من العروبى ، ويظهر ذلك من أول جزء فى سرابة لامتيرد ، يقول فيه :

اعلاش أمحبوب خاطرى تجفينـــــى ٭ الجافينى واعلاش دالجفـــا

حبيتك من خاطرى ولارديتنـــى ٭ كاتمنينى يا شارد لعفـــا

خالفت فالقول باش وعدتينـــى ٭ ولا وصلت رسمىقاسيت ماكفى

قالت ناس الشعر ولقوافـــى ٭ الزين ابلاتيه صورتو تعداف

والخير صاحبو يعراف

ثـانيـا : الـعـروبـى :

ويسير نظام القافية فيه على هذه الاشكال :

I ـ أ ـ ب

أ ـ ب

ب

حيث تكون «للفراشات» قافية و «للغطاوات» قافية مختلفة ، وعلى حرف «لغطاوات» تكون قافية «الردمة» . ومن الامثلة على ذلك «عروبيات» قصيدة فاطمة لامتيرد ، ومنها عروبى القسم الثانى من القصيدة :

كان اسهيتى اتيقظى من حال اسهوك ٭ ويلاتهتى التيه اتعريك ايامـو

نظرى بملامح لبصار الى سبقـــوك ٭ كما فرغوا يفرغ سوقك وازحامو

سيرى حتى يشرب عودك بالجامو

ويلتزم ذلك مهما كثرت أبيات العروبى على حد ما سبق أن مثلنا فـــى الجزء الثانى من هذا الفصل .

2 — أ — أ
أ — أ
أ — أ
أ

حيث تكون كل الاشطار على نفس القافية ، ولكن مع ملاحظة أن حركة حرفها فى «لفراشات» تختلف عن حركاته فى «لغطاوات» وان حركة قافية «الردمة» تتفق مع حركة حروف «لغطاوات» ونمثل لذلك بعروبى القسم الاول من القصيدة «التطوانية» للحاج ادريس لحنش حيث يقول :

نسعاوا الله فالنصر نعـــم الرحمان * والفتح الايزول والظفر وتمكين
واجب نتوجهو ونحتالو ببيـــان * لقتال الكافرين ونسألو المعين
افلوفق امع ليمان وينصر السلطـــان * نعم المنصور سيدنا سبط الحسنين
الله ايجـود بالنصر لعـــلام الديـــن

وهنا كذلك لافرق بين أن تكون الابيات قليلة أو كثيرة . والملاحظ أن العروبيات فى القصيدة الواحدة لا تلتزم قافية معينة حيث يستقل كل عروبى بنظام معين للقافية .

ثـالثا : السويرحات :

يكون نظام القافية فيها كالآتى :

1 — ان تلتزم ابياتها نفس القافية وان اختلفت الحركات، وفى هذه الحالة إما أن تتفق هذه القافية مع قافية القصيدة أو لا تتفق ، لا فرق فـى ذلك بيــن أن تكون السويرحة كثيرة الابيات أو قليلتها .

أ — من نماذج الاتفاق سويرحات «تصلية» محمد الشاوى ، وهـــذا مثال منها يمثل سويرحة القسم الرابع :

يعجز فوصافو كل ناشـــــد * وافضايلو لكثيرا شلا ينعـــــادو
لو كان البحر امداد نافــــذ * والارض كالواح افتمثال انشادو
والخلق ايوصف فالشواهـــد * لا وصفو اعشـــور افضايل امدادو

فهى على حرف الدال الذى قفيت به كل القصيدة على ما يبدو مـــن

حربتها التى تقول :

صلى الله اعلى الشفيع نور الحق المرشاد

عين الجود الطاهر الزكى ربحى واسنادى

طه مول التاج واللوا والحوض المورود

ب ـ ومن نماذج الاختلاف فى سويرحات قصيدة ادريسية للغرابلى نذكر منها «سويرحة» القسم الثانى ، وهى :

نور اجبينك نور وهاج * يوهج فى ادخال امهاجى فادباجو

يعلا ويفوق نور لتواج * يصرع كل غاوى يفصم باعجاجو

به الحق اشهير لبلاج * واللى ايكون كاره هو بعاجو

فقافية السويرحة على حرف الجيم فى حين أن القصيدة دالية كما يتضح من الحربة ، وهى :

غثنى واحمنى من اعدايا بدر الوقاد

واتشافع فعبيد عاصيا تاهت موكودا

أمولاى ادريس يا هلال العز ألسعود

2 ـ ألاتلتزم أبياتها نفس القافية فتتخذ شكلين :

أ ـ قافية موحدة فى «لفراشات» واخرى «للغطاوات» لا علاقة لها مع قافية القصيدة ان كانت ثنائية الاشطار : أ ـ ب

مثال ذلك سويرحات قصيدة «خذيجة» لامتيرد ، وحربتها :

لوصول اتصول * صولى يامولاتى اخديجا

صولت عبلا وجازيا صولى ياسلطانت الريام

وفى سويرحة القسم الثانى يقول :

عتنون أغبت الصلاح * جيد أركبا ركبة شاد

واضعود اصوارم لكفاح * والصدر امحصل النهاد

ابطن واعكون للفراح * سرا وارداف للعناد

ب ـ على الشكل الآتى ان كانت رباعية الاشطار :

أ ـ أ ـ أ ـ ب

ومنه سويرحات «الدمليج» لمحمد الدمناتى الناصرى على حد قوله

في سويرحة القسم الاول من القصيدة :

يا مسرار الـــذات ٭ بـك احيـات اجـــدات
فخلـــوقك لـــذات ٭ فايقـــا راح اصوابـــح
ما مثلك فخنـــات ٭ كابـــرا فامحنـــات
نظرا فيك اغنـــات ٭ سالبا لاهل التسابـح
صول أبو نجـــلات ٭ فوصافـك نجـــلات
لمحاسن واجـــلات ٭ صورتك كـل امصابـــح

ونلاحظ بعد هذا أمرين :

احدهما أنه قد تتفق جميع سويرحات القصيدة الواحدة في نفـــس القافية كما في قصيدة «التصلية» للشاوى وقد سبق أن أشرنا اليها .

الثانى أن يكون لكل سويرحة ـ داخل القصيدة الوحدة ـ نظام معين للقافية يختلف من واحدة لاخرى على حد ما تكشف عنه قصيدة «خديجـــة» لامتيرد ، وقد سبق أن أشرنا اليها كذلك .

القافية في الدريدكـــة :

تنظر فيها مـن وجهيـن :

1 ـ **قافيـة أبياتها** : والغالب أن تكون موحدة في «لفراش و لغطا» ، وان اختلفت الحركات ، وتكون على هذا الشكل أ ـ أ

وعلى هذا النحو سارت أغلب الدريدكات التى مثلنا بها .

وقد تختلف قافية «لفراش» عن قافية «لغطا» فتتخذ هـذا الشكـل :

أ ـ ب

ومن الامثلة عليها دريدكة قصيدة «هنية» لمحمد بن الحسن ، فهى تسير على هذا النحـــو :

خـذ أراوى روض لفنان ٭ فمديح لال بوتيتين اهنيا

وقد سبق أن اوردناها .

2 ـ **من حيث علاقة قافية أبياتها بقافية القصيدة** وما فيها من سويرحات ، ويكون على ثلاثة أشكال :

أ ـ أن تتفق قافيتها مع قافية القصيدة بما فيها السويرحات ، مثال

ذلك دريدكة «تصلية» الشاوى فانها على حرف الدال كبقية أبيات القصيدة.

ب — أن تتفق قافيتها مع قافية السويرحات وتختلف مع قافية بقية أجزاء القصيدة . مثال ذلك دريدكة «مسعودة» للمدغرى ، فانها على حرف اللام ، وكذلك السويرحات ، أما بقية أجزاء القصيدة فعلى حرف الـدال . يقول فى البيت الاول من الدريدكة :

مسعودا تشفـى المعـــلال * عشقى افحبها عمرو مايتبالا

ويقول فى البيت الاول من آخر سويرحة :

الزين احكامو اعلى حال * حب الله فاز ابهيبا واجلالا

ويقول فى الحربة ، وعلى قافيتها سارت كل حروف القصيدة :

كولى المسعود يأطلوع اكواكب لسعاد

أنا من سعدى اسعادتك وانت مسعودا

وانتيا بدر السعود وانت لهلال اسعود

ج — أن تختلف القافية فى الدريدكة عن قافية السويرحات وسائر أبيات القصيدة ، مثال ذلك دريدكة «الذهبية» للتهامى المدغرى ، فانهـــا جاءت على حرف الحاء فى حين جاءت قافية السويرحات ميمية وقافيــــة الاقسام رائية ، يقول فى أول بيت من الدريدكة :

خذ العشق بين لفصاح * درتو امقابل الصبوحى بفصاحو

ويقول فى أول بيت من سويرحة أول قسم :

شف الشمس ارخات لكمام * عولت للمرواح افتيها واقياما

ويقول فى حربة القصيدة ، وهى على قافية الاقسام :

شوف الذهبيا اخدود هامـن ذهب التشحـار

وارخات اصروع اللجام فوق الوطيان اتغـير

نعنيها شكرا امختنا مـن خيـل المنصور

عيـوب القافيـــة :

وقفنا منها على ثلاثة :

أولا : الـقـوافـي «الصيادية» :

جرت عادة شعراء الزجل المغربى أن يستمدوا قافيتهم مـن موضـوع

القصيدة ، وهى ظاهرة تتضح فى معظم قصائد المحبوبات حيث يكون حرف القافية متفقا مع آخر حرف فى اسم المحبوبة ، ومن الامثلة على ذلك قصيدة «كنزة» لابن على ، فانها على قافية الزاى ، يقول فى حربتها :

ماكيف اوصالك كنز * وافضل من مال ايلا كنزوا

عالجنى ياشمس لمحاسن كنزا

ومنها كذلك قصيدة «للاحسنا» لعبد الرحمن بن الفقيه ، يقول فى حربتها :

ألا حسنا * ماصايلا الحسنك حسنا * أيا روامك الوسنانا

درت لمحاسن * حسنك به لبدور سنا

صولى بكمال زينك المحسون

وتتضح هذه الظاهرة كذلك فى بعض الخمريات مثل «الكاس» للمدغرى ، يقول فى حربته :

الساقى وكض لعناس * رادف الكاس

واسطاب امع الريام طيب اوناسا * لاترتى للبرنيس

ومثله «الساقى» للعلمى حيث يقول فى حربته :

راح الليل أعلم لفجرتاك الصبح الراقى * ياساقى

دور اعلى الحضر بفناجلك تزيان الموسيقى * وازرع للساهى ايفيق

واعتبروا القصائد التى لا تسير على هذه الظاهرة معيبة وأطلقوا عليها «قصائد صيادية» ، ومن الامثلة عليها قصيدة «طامو» للمدغرى ، يقول فى حربتها :

نصرو رايت لكفاح * بو وجنات الوضاحا

والشاما والخال والشفر والغنج الدباح

طامو ياقوت الروح

ومنها كذلك قصيدة «مينا» للحسن بن شقرون ، فانها على حرف الحاء ، يقول فى حربتها :

مينا باشت لملاح * مينا روح ادخالى وراحت واصلاح

من اجفاها جمرى لحلاح * طعنتنى دون اسلاح

ثـانـيـا : اتخاذ الهمزة قافية :

على الرغم من أن شعراء الزجل نظموا قصائدهم على قوافى من مختلف الحروف ، فاننا لم نعثر لهم على قصائد فى حرف الهمـزة . وتبين لنا بعد بحث هذه الظاهرة أن العامية تحذف الهمزة وأن استعمال الهمزة فيها يعتبر من «البرص» الذى سبق أن تحدثنا عنه (1) ، وأن اتخاذها قافية يعتبـر بالتالى برصا كذلك

ثم حدث سنة 1965 أن ولدت لجلالة الملك الحسن الثانى بنية سماهـا «أسماء» فأخذ الشعراء ينظمون قصائد فى التهنئة على قافية الهمزة :

من ذلك قصيدة للشيخ الجيلالى من سلا ، يقول فى حربتها :

بنت اهمام الشعب سيدنا حسن الاسماء

الاميرا أسمـاء

مناى امع ارجائى

قرت عين احبيبنا وراحت لقلوب املاما

ومنها قصيدة لعبد الحميد العلوى ، يقول فى حربتها :

نفحت لعبير العاطر الذكى نور النور الا ايطيق يشفاه الرائى

راحت سلطان اوطانا وفرحت شعبو أسماء

ومن الامثلة كذلك قصيدة لحسن اليعقوبى يقول فيها :

آش را من لا را لوطان يوم لنبـاء

بالخلوق المبروك ابقرت لمرائـى

أرض من بعد ماكانت كنها البيـداء

من ارمال الصحرا صبحت روض مائـى

كلها حرجات وعرصات امن الريـاء

امياها دفاقا واشجارها افيائـى

ولطيار اعليها من زينها ابغنـاء

هيجت الصاحى بانغامها اغنائـى

---

(1) أنظر الفصل الثانى من الباب الاول .

وصار شعرى ينساب امـن الصميـم كالمـاء

في اجداول لحراج أصاح امن احشائى

كيف مانشدى شدو الطير وسط بطحاء

بين ناسى واهلى وايخططو املائـى

وكيف ما يرقى شعرى اعلى اللغا الخنساء

ولبشاير بالسعد أتتنا اصدائـى

وكيف مانطهج كيف طهجو ارجال ونساء

ونطفح كيف طفحو لبساتن لظمائـى

وكيف ما نستوحى ونانرى الايحاء

لهم الكاتب والرسام والروائـى

من اخاوق المصباح اللى اجلا الظلماء

طيب لعبير العابق ساير لجوائـى

ثالثا : الخلط بين الحروف المتشابهة المخرج :

والسبب راجع الى أن العامة لا يفرقون بين هذه الحروف فى النطـق ، من ذلك خلطهم بين الدال المهملة والذال المعجمة ، يقول محمد بن الوليـد فى قصيدة فى «المدح النبوى»

لولاك لا ايغاتا لاجفا لانار لاجسر صراط امعدى

لانهار لا ليل خلف ذا افهاذا

ومنه خلطهم بين التاء المثناة والثاء المثلثة ، يقول محمد ولد افريحـة فى أول قصيدة «خناثة» :

ياذات الزيـن الوارث ✻ امنين امجيك أمولاتى الخنثا

سبحان امن انشاك أقد الرمح الصقيل اراياً فى تشجيع بن شجعان ازناتا

ومنه خلطهم بين التاء والطاء ، يقول محمد بن عمر المراكشى فى حربة «الـزردة» :

واضيغ افرانسا ملا ايليه ضرسات ✻ كيملوج فمضيغو عاد تيسرطو

ومنه خلطهم بين الضاد والظاء ، يقول احمد ابجيوات فى حربـة «عرصة الرضا» :

سولتك بالفاظ * مدرا زعما ياعرصت الرضا * مازلت فالعز وحظا

واحجـــابــك لغليـــــظ * والا ماك الغير خوضو

ونجد عند الحسن اليوسى فى «المحاضرات» نموذجا من الخلط بين الضاد والظاء فى زجل لاحد شعراء هوارة لم يذكر اسمه ، لعله عروبى ، وهو قــولـــه :

ايلا ابرك لى الزمان واركبت اعلية * والى راد بى المولى نلقاه اعراضـــا

برك لى مركوب مانى ضاربـــــه

* ما نحساب ايامى اعليا مغتاضـــا

نصبر لحكام المولى حتى تتقاضى

وقد علق عليه اليوسى بقوله «قوله مغتاضا من الغيظ وابدل من الظاء هنا ضادا» (I) .

(I) كتاب المحاضرات ص 49 طبعة حجرية .

وعند الحلى فى «العاطل الحالى» ان الخلط بين هذه الحروف مـــن الممنوعات فى الزجل . وقد أشار فى الورقة (53) ظهر ، الى شعر لابن قزمان فيه استعمال الظاء مع الضاد والدال مع الذال ، كما أشار فى (54) وجه ، الى استعمال الدال مع الذال فى زجل لابن حسون المغربى .

الباب الثاني

الموضوعات

الفصل الاول

المرأة

يعتبر الغزل بالمرأة اكثر الفنـون ايحاء لشعـــراء القصيدة الـــزجلية بالتعبير ، فتح قلوبهم وعيونهم وأطلق مواهبهم وقرائحهم وأخصب ذهنهم وخيالهم ، فنظروا الى المرأة بحسهم مفتونين بجمالها ، ورسموا لها لوحة واضحة الملامح زاهية الالوان ، ونحتوا تمثالا متحرك الاطراف مكشـــوف الملامح دقيق القسمات ، كل ما فيه رائع فتان ، يحـــرك القلوب ويهيـج الخواطر ، اودعوه تصورهم للجمال كما تهواه نفوسهم وليس كما هو فى الواقع ، فجاء بذلك مثالا لا يعنى امرأة بعينها ، وانما نموذجا نسجوا جميعا عليه ، ولكنه مع ذلك تصور ان لم يكن منبعثا من البيئة فهو متأثر بها الى أقصى حد . فقد وضعوا المراة فى مقام رفيع ، ونظروا اليها مخلـــوقا متفوقا ممتازا هو جوهر الحياة ومحور الكون . وهى نظرة مقدسة للجنس الآخر ما نظنها وليدة البيئة الحضرية التى ازدهر فيها هذا الشعر ، وانما هى وليدة البيئة البدوية الصحراوية التى نشأ فيها كما سنرى بعد . (I) وليس من شك فيما افادت دراسات البيئات من ان سكان المدن أقـــل تقديرا للمرأة من سكان الصحارى والارياف حيث تتمتـع المراة بمركـز اجتماعى لا يقل عن مركز الرجل ، وحيث ترتفع الى مستوى المشاركـة فى العمل وتحمل أعباء الحياة .

ووصفوا حالهم محبين ضعفاء ، يعانون من عشق هذا الجمال أنواعا من الجوى والشجن والشوق ، وألوانا من اللوم والهجر والنفور ، ويسعون الى الوصال بالرجاء والاستعطاف تارة ، وبالعتاب والوعظ أخرى ، ولكنهم حين يفشلون يلجأون الى القضاء عساه ينصفهم مما يقاسون او الى الحيلة لعلها تقربهم من الهدف الذى اليه يسعون ، وكأننا بهم فى اصطناعهـم تلك المظاهر واجتيازهم هذه المراحل لا يقصدون الى غير تعميق الجـــرح وتهويل الموقف والبلوغ بالمأساة الى ذروة تتعدى التـــرغيب والتشويق الى استدرار العطف والاشفاق . وحتى هذا الجانب النفسى من الحب بـــدا

I) فى الباب الثالث .

عندهم متشابها ، فجاءت حكاياتهم وقصصهم واحدة ، وكذلك جاءت آلامهم وأحزانهم وما يتخذون لشفائها من علاج . ومن يدرى فلعل هذا الشعر كان فرصتهم للتعبير عما يعتمل فى نفوسهم من أدواء ليس مصدرها الحب وإنما مصدرها ظروف خارجية أخرى لا نعرف عنها شيئا .

ومن خلال كل ذلك يبدو تمثلهم للحب قويا طاغيا متجبرا لا سبيل الى فل سلاحه او هزيمته .

وفرقوا بين الشعر الذى يغلب عليه وصف الجمال وبين الشعر الذى تملأه العواطف ، فاصطلحوا على الاول العشق ، ومعظم قصائده تحمل أسماء الحبيبات ، ولم يتركوا اسم امرأة لم ينظموا فى صاحبته ، وتعتبر زينب وزهرة وفاطمة وخديجة أكثر الاسماء لهم الهاما . واصطلحوا على الثانى التغزل ، وتعرف قصائده بالمحبوب واللائم والجافى والعاشق والمرسول والشمعة والحمام والمرسم ، وهى كلها اسماء توحى بحال من أحوال الحب والهيام .

ولم يعتبروا من الغزل قصائد اطلقوا عليها « تراجم » ، اعتبرناها نحن من صميمه ، وهى كما يبدو من تسميتها قصائد ترجمها الخيال اى حبكها ونسجها دون ان يكون لها حدوث فى الواقع ، مثل الحجام والفصادة والحراز والقاضى والضيف والخلخال والدمليج ، كما سيتضح من خلال الفصل ، وكانهم غلبوا فى التسمية الشكل على الموضوع ، وكثيرا ما يفعلون .

اولا : المحبوبة

نظر الشاعر الشعبى الى المحبوبة **فوسمها بألقاب وأوصاف** تنم عن بعض ملامح جمالها أو تكشف عن عاطفة من العواطف المتأججة فى قلبه .

فزهرة بوعمرو «هلال الدارة» :

زورينى قبل الا نقبر ✻ ياهلال الدارا (1) زهرا

---

1) الدارة الشىء المستدير او الجماعة من الناس تتخذ مجلسا دائريا وتتحلق ، وبهذا يحتمل وصف «هلال الدارة» مفهومين : اولهما هلال مدور مكتمل وثانيهما هلال مضىء فى جماعة الفاتنات .

وهي عنده « سلطانة الابكار » :

لـلا سلطـــانت لبكـــار ❁ ما يلى ســـواك امـــرا

وخديجة امتيرد «سلطانة الريـــام» يطلب منها ان تصول صـولة عبلة وجازية :

لـــوصـــــول اتصـــول ❁ صولى يا مولاتى اخديجـا

صولت عبلا او جازيا ❁ يا سلطـانت الريـــــام

وجمال حجوبة ابن على يفوق الشمس والقمر والبرق :

يالى زينك فاق الشمس والقمر والبرق افلحجاب ❁ صلت بحروف اعجاب

عالجنى بوصالك يالريـــم حجوبا

وجمال طاهرته يفوق جمال حور الجنان :

صولى اعلى الريام ابديك الغرا الزاهرا ❁ ما تشبه ليك الطاهرا

حريا تسبى امن اجنان الحور

أما زينبه فبدر غير محجوب وشمس النهار السعيد :

يا بدر ما غطاك احجاب ❁ فالدجى يا شمس النهار السعيد يا زنوبا

شايـــق انشوفك يا زينب

وحبيبة ابن سليمان تاج كل جمال ومؤدبة :

لوقات احـــلات * جـــادت لى حبيبـا

حبيبا تاج كل زين * اصبغـت لهـــداب

حبيبا فوصافها امأدبا

ولابن سليمان خديجة هى قمرية البروج وياقوتة فى تاج وريم :

يا قمريت لبـــــروج * أيـاقــــوتا فى تـــاج

يا لريـــم خديجـــا * زورينى يالحظ الدروج(1)

امولاتى خـــدوج

وخديجة المدغرى — زعيم شعراء الغزل بلا مدافع — لها بهاء وهاج، وهى كنز ربحه وشمس ضحى مشرقة :

اسباب كيتى واهجرتى واكرايحى او تهياجى * ذات لبها الوهاج

1) الدروج : الغزال .

سلطانت الريام اغزالى بوسالفين خدوج

شمســـك واضحا * شارقا فى وسط الضحى

والقلب اضحى

ايدوب يا كنز ارباحى * طيبـــك نفجــا

وفاطمته راية الكفاح وياقوت الروح :

نصرو رايت لكفـــاح * بووجنـات الوضاحــا

والشاما والخال والشفر والغنج الدباح * طامو ياقوت الروح

وزهرته قد الخيزرانة جميلة الاسم وراية النصر وتاج العوارم :

دام الله ابها امحاسن ازهيرو * قد الخزران زينت لاسم زهــرا

وهشومته سلطان كل حسن :

نصرو اسباب غيوانى (1) * سلطـــان كـــل حســن

شاما اهشيمتى هشوم من عزها اعليا

وحليمته ذات دلال :

الناس كلها باش اكواونا سباب اعدامى

كى اكويتها مـــن عند بودلال احليـم

وزينبه ذهب التذهيب وسلطان المولعات :

انا زكت فيك اذهب التذهيب * اسلطانت الوالعـات زنــوبا

وفروحه همام الخودات :

ياسباب الصد ولكلاح (2) * ياكمال الزهو ولفـــراح

يا همام الخودات (3) افروح

وفارحته غصن مائس ومهر شرود :

قولوا لصبغت اللوامــح * ياغصن ايميس فالدواح

يامهـــر اشرود افلبطـــاح

رفدى ياللا الطايح (4) * باللى سمـــاك فارحا

---

1) الغيوان غير محدد المفهوم ، ويحتمل الغواية والغنى .
2) الكلاح : الضنا .
3) الخودات : الجميلات
4) الطايح : الواقع ، من طاح اذا وقع على الارض ، ورفده انهضه وأقامه.

أما كلثومه فترياق لسقامه وياقوتة فى سلسلة مـــن ذهب معروف العيار وشمس تضيء اماكنه لم يستطع عنترة بلوغها بشجاعته وسلاحه :

فى كلثوم ترياق لسقامى *

كلثوم كنها ياقوت فى سلسلا امن اذهب تشحارو معلوم

كلثوم شمس اضوات فرسامى *

كلثوم ما ادركها عبسى فضخامتو اشجيع اسناحو (I) مقيوم

وللرجراجى « حبيبة » هى مزاج الخاطر وباشت الابكار والبـــدر الساطع وتهليل العز والنصر وتاج الجمال والمحاسن :

نصر الله بهاك يامراح الخاطر * يا توكت لبدر * ياباشت لبكار

اتهليل العز والنصر * تاج الزين ولمحاسن حبيبا

وللشيخ الشاوى راضية هى مصباح دجاه وضياء عينيه ، وهى مالكة له ببهائها المكتمل :

نصرو المالكنى مصباح ادجايا * مولاتى لغـــزال راضيـــا

مكمولت لبها اضيـــا عينيا

ولمولاى على البغدادى خدوج هى روح راحة مهجته :

زورينى ياروح راحت امهاجى * بهــواك ســاكنى هـــاج

ام اسوالف ازباجـــا (2) * تستاهل النصر مولاتى خدوج

وللشيخ علال الكحيلى زهرة هى باشت الصوارم والريام :

اباشت لعــوارم خنـــــارى * امعاكشرع الله اعلى كل حال يازهرا

مغــروم بـــك لا اتجفينـــى * ابـــاشت الريـــام ازهـــور

وللفقيه العميرى زهور هى تاج بنات الهوى :

هل تعطف بالرضى اسبغت لنجال * مـــولاتى سلطانت الريام

تـــاج ابنات لهوا ازهيرو

ولعبد السلام الجربى محبوبة هى قمر الدارة :

واجـــب لى نعـــدار * لا تلومونى فى حال لغرام

انـــاسى مـــا بيـــا * غـــير قمـــر الـــدارا

I) يغلب على المغاربة قلب لام السلاح نونا .

2) سوالف ازباجة اى سوداء .

اما مبارك السوسي فله زهرة تفوقت عن عبلة وجازية وكل الابكار :

سلبت عقلي زهرا * ابلبها والحسن المكمول حازت اسرارو

بشمايل لبها فاقت عل لبكار * فاقت عن عبلا او جازيا وامحاسن لبكور

وملكة الغرابلي راية المملكة ومالكة وفي حماية الملك :

أرايت لملكا ياامولاتي المالكا * لك العبد او كـــل ما املك

نصرو ملكا احمايت الملـــك

وفطومة المكي الصويرى تاج الريام ومصباح المولعات وراحة الروح وزهو الانظار :

نصرو تاج الريام لغزال الطام * عانس (1) الفرج زهو انيامي (2)

مصباح الوالعات راحت روحي فطـــوما

وفاطمة عبد الهادى العامرى راية الهمام وزينة الريام و «بودواح» (3)

انا في عار قامتك يا رايت لهمام فاللطام * لوجيب (4) زينت لرسام

رفقي بي اوحن واعطف يابودواح فاطما

وتكاد تشبهها طامو ابن عمر الكفيف :

مدرا (5) اتزور رسمي بوسالف طامو * مـــولاتـي لغـــزال فاطمـــا

بودواح اروامك الزهزاما (6)

وفضيلة مولاى احمد بن عبد السلام العلوى هلال الجمال المكتمل :

روفي ياضي انجالي * ياهلال الزين المكمول

ذات لجمال افضيلا

---

1) العانس البكر الجميلة ، وهي من الكلمات التي استعملت في معاني غير معروفة بها في الفصحى حيث تطلق العانس على المراة التي طال بها المكث في بيت اهلها دون ان تتزوج فخرجت من عداد الابكار .

2) النيام : العيون . 3) الدواح : الخرصة أو الحلق .

4) لعلها الشمس من وجبت الشمس وجوبا اذا غابت او لعلها من وجب القلب وجيبا اذا اضطرب وما نظنها تصغير وجبة بمعنى الصدفة الحسنة .

5) مدرا كلمة للتمني لعل اصلها : من درى او من يدرى او مـــن يدريـــك .

6) الزهزاما : الغزال ، والروامك : العيون ، وأصلها مـــن رمـــق اذا نظـــر .

ومارية الفلوس مشموم الورد والزهر وسلطان الباهيات :

نصر الله ابهاك يا هلال الدارا ❀ يارايت النصر يا سابغ لشفار

يا مشموم الورد والزهـــــر ❀ سلطـــان الباهيات ولفى مريا

ولعبد الهادى بنانى «زهور» هى تاج العوانس :

كولوا لدواحـــت لزهـــار ❀ تـــاج لعوانس ازهـــور

رفقى ابعاشقك ونعمى بالزورا عل لوكار

وله «فاطمة» هى الغزال ومشموم البنات وجميلة الاسم ومصباح الجمال:

أيا مشموم لبنات لغزال لزينت لاسم ❀ جـــد اعــلى المغـــروم

يا مصباح الزين فاطمــا

وبشىء من التفصيل ، ولكن فى أوصاف عامة ، تناول شعراء الزجـل جمال محبوباتهم على حد ما يعرض لنا الجيلالى امتيرد فى «خدوج» ، فهــى بديعة الجمال رقيقة الملامح ، وهى فاضلة وعاطفة ، ذات حسن جميل ساطع ، ليست لها مثيلة فى بنات جيلها ، يوافقها خليلها وتوافقه فى طاعة متبادلة :

خدوج ابديعت لجمـــال ❀ خدوج ارقيقت لحــــروف

خدوج امنـــارت لفضال ❀ خـــدوج انهايت لعطوف

خـــدوج مالها امثيـــل ❀ فبنـــات اليـــوم ابلجميع

اخليلا رايما اخليـــل ❀ طاعا وخليلها امطيــــع

ومثل هذا يقوله ابن سليمان عن خدوجته التى لا يعرف لجمالها شبيها فى أى زمان ومكان :

زينـــك ما هو فعلـــوج (1) ❀ ولا هو فمدون او لفلاجى (2)

فاللى امضى او ماجى ❀ مـــا شاهدوا اغنـــاجى (3)

لو صبت ملتقاها بعد التهجيج

---

1) العلوج : الاعجام ، والكلمة واردة فى الفصحى بصيغة علـــوج واعلاج جمعا لعلج بكسر العين وتسكين اللام .

2) الفلاجى : البوادى

3) الاغناج : العيون ، والكلمة واردة فى الفصحى غنجا بتسكـين النون وضمها .

وعند المدغرى أن جمال زينبه معروف في الشرق والغرب ، يشهد لها به البدر والكواكب بل ان ضوء البدر تعجب له فاحتجب :

زينب زينها فالشرق أفالغرب ❀ شاهد لها بدر الدجى واكواكبو

زينك فيه ضى لبدر اتعجب ❀ حتى ادخل امن اغشاه فاحجابو

وتفنن المدغرى في وصف زهرة فاعتبرها زهوا لذاته ومصباح الفاتنات، حازت البهاء والثبات ، وظهرت شمسا تتجلى بحسنها وتفوق بجمالها عبلة وخناثة ، وفية يزهى بها مزاج حبيبها ، تصول وقد اجتمعت فيها ثلاث خصال هى الحياء والطيبة والظرف . ثم انها تنتسب لاحرار أهل الجود ، فلا غرو أن يراها تاجفاتنات الحضر ومصباح البساتينوقرة عينهوزهرة الورود والرياحين، وسلواه وغاية ما يتنزه فيه أولو النظر الفاهمون :

زهرا زهــوا للذات ❀ مصبــاح الخــودات

زهــرا عل لبنــات ❀ حازت لبهـا واثباتـا

زهرا شمس انبات (1) ❀ بالحســن اتجــلات

زهــرا من عــدات ❀ زين عبــلا واخناثـــا

زهــرا من وفـــات ❀ واخلاكـــى زهـــات

زهــرا بالصــولات ❀ حازت لوصاف اثلاثـا

لحيا والطيب امع الظرافا من نسب احرار هل الجود الكبرا

زهرا تاج اعوانس لحضــــر ❀ مصباح لغراسات قرت عينيا

زهرا زهر الـــورد والزهر ❀ والسلوان أغايتلنازه لهل النظرا

وقريب من هذا ما وصف به الحاج ادريس بن علي لحنش ياسمينته ، فهى ياقوتة فريدة يتضاءل أمامها الجوهر والذهب والفضة ، علا شأنها علي جميع بنات جنسها وغدت شمس الضحى تستحى من خيالها وتغيب :

انت اجواهرك مكنونا وامعلقا اثنيــــن

وانت ياقوتا والياقوت اقليل فى امثالـــك

والجوهر الصافــى والــذهب واللجــين

قدام صورتك تتلاشى واينا ظرو اقبالـــك

---

1) انبات : ظهرت ، من نبا الشيء نبوة ونباوة اذا برز وارتفع عن الارض .

انت اللى اعلا شانك عل لبنات كامليـــــن

الشمس فالضحى تستحيا واتغيب امن اخيالك

وعنده كذلك حبيبة هى هيفاء ناعمة ، فازت بالنهمة والسر والطيبة والذكاء والظرف والجمال الحقيقى والوقار والهيبة ، يشيب لرؤيتها شباب أهل الغرام ، وقصته معها أغرب من كل الغرائب ، لو حكاها للجبال لاندكت:

هيفا اوناعما حازت هما اوسر اوطيبا

والميز والظرافا والزيـن اللى اعلى ترتيبو

سبحان امن انشاها واكرمها ابلوقروالهيبا

لوشاهدوا بهاها شبان هل لغرام ايشيبـو

اغربتى امعها عدات اجميـع كل اغريبـا

لوجيت يا عدولى نحكيها اللجبال ايريبـو

ويخاطب عائشة بأن بهاءها غير موجود عند سلطان لافى المغرب ولا فى الصين ، وبأن جمالها عربى وأخلاقها حضرية ، وان أى جمال او خلق غير ذلك ليس بشىء :

ابهاك الا هو عند سلطان ولا افغربنا ولا هو فالصين (1)

يزها قلبى بجمال صورتك سبحان امن انشا

والزين الى ما كان زين عربى واخلاك امدينت لحضر ماهوشى

أما بنعيسى الدراز ففاطمته ليست ياقوته محصنة لا تدرك بقيمة فقط، ولكن مقامها عال رفعه رب السماء ، وهى ليست متفوقة بجمالها على جميع الفاتنات ليس غير ، وانما هى تفرض عليهن الحكم والطاعة فيخدمنها ويقبلن أقدامها . ولكنها رغم الصولة تمتاز باللطف والذكاء والفهم ، يكفى حبيبها أن ينظر اليها ليحس الفوز والنخوة والاكرام ، ثم انها تسبى العقـــول بكياستها وحسن منطقها . واذا كانت تشغل الاذهان وتحير الالباب ، فانها تسلى عند المنادمة وتفرج الكروب :

آياقوتا امحصنا ما تدراك ابقيما ❀ مرفوعـا فمقـام

علاه ربى رافع السمـا

(1) الصين كناية عن اقصى مكان ، أما الغرب فالمقصود به المغرب .

لك جميع الريام طاعوا بالقهر اخديما * واتقبـــل لقـدام

واعلى ساير لغياد حاكما

والصول ولملاطفا واعياقا (1) واشهاما * مـــن شفت المنيـــام

فزت بالنخوا ولمكارما

تسبى لعقول ابلكياس والفاظ احكيما * كتدهـــى لفهـــام

واتسلى فوقات لمنـادما

وينظر الدراز الى زهرة انها ذخيرته وراحة خاطره ومصباح بصره وينبوع كل خير ، تجبر الكسر بجودها الذى يشهد لها بـه الكهـــول والصغار ، وهى عنصر صاف اذا سقت روضا انبت واثمر :

ياراحت لخواطر * يا مصباح لبصار

انت اذخيرتى أينبع الخير * يا جبرت من كان اكسيـر

يادار الجود عالج اضرارى * جودك كتحقو كهل واصغار

يا عنصر الصفا من تسقى روضو اسخار (2)

ونا ابغيت روضى يطفح بزهار * بعد زهرو ينعم بثمـــار

وغالبا ما تكون مثل هذه الاوصاف العامة تمهيدا **لرسم صورة المحبوبة مفصلة الاجزاء مكتملة الابعاد** ، لم يترك الشاعر جزءا واحدا مـن جسدها لم يطل النظر اليه ، مبتدئا بشعرها الفـاحم وعينيها الفاترتين ، ومنتهيا الى ساقها الذهبى الممتلىء وخلخاله ، متتبعا ما بين ذلك لم يترك ملمحـا الا توقف عنده ليمعن فى وصفه وتشبيهه .

وقد برز المدغرى فى تقديم لوحات رائعة كهذه التى رسم لطامـو وهنية حيث يبدو المبسم عقدا من الجوهر تصونه الشفاه الحمر ، والقدود مائلة يمنة ويسرة تساير النسـيم فى هبوبه ، والشعر مظفرا ومسدلا نفوح نسماته الذكية وقد لمع فيه الياقوت الرفيع ، والغرة لامعة كالبرق أو الهلال او الثريا والنجم ، والحاجبان مقوسين كحرفى نون فى سطـر

---

1) العياقة : قوة الادراك .

2) اسخر انتج ، ومنه قولهم : «الله ايسخر» فى الدعاء بالتوفيق والنجاح فى عمل من الاعمال .

وقد مالا على عيون ساحرة ذباحة كالسيوف تغطيها اهداب عالية الريش ، والخد فى حمرة طبيعية غير مصطنعة بالمساحيق كالوردة يحرسها خال فى لون الغلام ، والانف كزهر السوسان ، والذراعان كسيوف يحمدها عنترة يوم الوطيس ، والرقبة تذكر بظبى الفيافى النافر الحذر ، والصدر قطعة من الرخام الصافى برزت فيه تفاحتان ، والبطن يأخذ قلب العاشق فى طياته ، والسرة ككاس سالت عنه الخمر ، والافخاذ أعمدة من ذهب فى قصور العمالقة واللخميين ومن يفخر بهم من الاقوام ، تعلوها قبة تفوق قباب السعديين ، والسيقان حمراء كلون الجمر شبيهة بقطعة من البلور أشعلت فيها شمعة كبيرة ، يسقى من لونها كما سقى ابن الملوح دون خمر :

والمبسم جوهر فالثغر * عقدو مصيون فالشفوف العكريا (1)

واسبابى يوم انظرت لقدود اتميل اتساعف النسيم ايمين وايسار

واسوالف واظفاير الشعر * والياقوت الرفيع بنسوم ادكيا

والغرا واجبين لاح فوق الوفر ابرق اهلال والتريا والغرار (2)

والحجبين نونين فاسطر * عطفو عطفا اعلى السيوف المسقيا

والشفر الدباح بالصوارم واهداب امريشين فوق الغنج السحار

والخد العكرى ابلا اعكر * والخال اغلام فوق وردا محضيا (3)

والمعطس سوسان نيل اركوبوا للسلطان عكدو من ذهب التشحار

والضعدين (4) امسيوف تنشكر * عند ابن عبس فى انهار المشليا

والركبا عراض فى افيافى مايا من حى ما يروم الغاشى حدار (5)

وانوابغ تفاح فالصدر * والصدر ارخامتو اصفاه امر مريا

---

1) العكرية الحمراء ، ويطلق العكار على مسحوق الوجه وقلم الشفاه.

2) الغرار نجم لامع .

3) محضية اى محروسة وفعلها : احضا ولعل اصلها فى الفصحى حظى حظوة عند فلان اذا اصبحت له مكانة عنده .

4) الضعد : العضد (مقلوبة) .

5) الحدار : الغزال ، ومثله العراض ، اما الغاشى فهو الغريب ولعل أصله فى الفصحى غشيه غشيانا بكسر الغين اذا جاءه .

والبطن الطاوى اعلى لمطاوى يطـــوى قلب لعشيق طى الالو تحكـار

والســـرا بالكـاس تنعمـر * والكاس اجرات فى اطرافو حميـا

وافخاد اسوارى امن الذهب فمنازهلعمالق او لخـــم اقوم التفخار

صانوها فى قبت النصـــر * ولا توجد فى اقبوب السعديــــا

والساق اسقانى اكم اسقى قيس ابـــن املوح مــــن دون اعقـار

ساق احمر من واضـــح الجمر * نحكى بلار فيه شمعـا رطليا (1)

ومثل هذه اللوحة يرسمها الحاج ادريس بن على لحنش لحبيبتــه لا يضيف اليها الا بعض اللمسات كتشبيهه القـد بغصن الآس وتصويره ضفائر الشعر ملقاة على الاكتاف تفوح نسمات طيبها كانها تفوح مــــن روض السوسان ، ووصفه العيون بفتـــور لا يفتر معه تعـــذيب العشاق ، وتنوينـــه الخد بلـــون الفضـــة المصقولة بالـــذهب ، وتشبيهه الانف بعصفور صغير ، والرقبة بالكافور وعنق الغزال ، واضافته الشنب الى الثغر والخضاب المنقوش الى الكفوف ، واعتباره وجـــود التفاح على الصدر فى كل المواسم حكمة عجيبة بالغة .

قدك خزران فى روض ناعم اخصيب *

ولا اغصين من الياس هز النسيم اقطيبـــو

واضفاير الشعر عل لكتاف اهوات فى تطييب *

نحكيه فى ارياض السوسان ايلوح فى ترحيبو

وانظرت حاجبين اوشهدت اشفـــاه فى تهذيب *

واعيون فاترا ما يفتـــر لعشيقها تعذيبــــو

واخدود لون قلب الفضى لمشلل ابتذهيب *

وجنا تحت سيف اللحظ الى هدنى تهديبـو

غنجور كطوير يرنى مشروح فى تركيب (2) *

والثغر فيه جوهر منظـــوم امزين تشنيبــو

---

1) يقال شمعة رطلية او شمع الرطل للشموع الكبيرة ، ولعـــل الصفة مأخوذة من الرطل الذى يعنى فى الفصحى المنا الـــذى يوزن به وكأنهم كنوا به عن ثقلها .

2) التركيب : الترقب ، ويلاحظ ان القاف فى غير المدن =

ركبا اشقيقت الكافور فالتجـراد واستلهيب *

اتقول عراض امشوش خايف امن اطليبـــــو

درعين صافيا وامعاصم واكفوف فى تخضيب *

مكتوب فيه جدول له اجميع لعقــول اينيبـــو

وارخامت الصدر فيها حكم بالـــغ واعجيب *

طول لفصول تنظر عينك تفاحهـــا واتصيبو

وهكذا تكاد تكون الصورة واحدة عند كل الشعراء لا يختلفون قليـــلا الا فى تتبع اجزائها وتلوينها على حد ما نجد عند محمد بن عمر الكفيـف الذى لم ينس ان يرسم الاصابع كالاقلام ، ويشبه النهود بتفاح على قدر قبضة اليد ، والبطن بقماش صاف مرقوم ، والسيقان بسمك الشابل (I) الا انها لم تمس الماء :

اصباع كنهم قلوم
وانهود كتفافح للكمشا راموا
. . .
ابطن امن اقماش صافى مركوم
. . .
وافخاذ كاشوابل فالما لا عاموا

ومن لطيف تقديم اوصاف الحبيبة ما لجأ اليه التهامى المدغرى مـن عكس التشبيه وجعل الاشياء التى اعتاد الشعراء ان يشبهوا بها لتحديـد ملامح المراة ، تسعى فى خصام ومنافسة الى التمثل بهذه الملامح والتشبه بها واعتبارها رباطا جميلا يصلها بالمراة . ولم نجد شاعرا غير المدغرى لجأ الى هذه الطريقة المعكوسة فى وصف المراة ، بل لم نجد له فيها غـير قصيدة واحدة هى التى يقول فى حربتها :

بين الورد والزهر والجلار والظليم والحدارا
والرخام اتفاح اقوس ولمناير خرجوا اعلى عانسى اكحار

بالمغرب ينطق جيما مغلقة كنطق المصريين فى المدن للجيم ، وجـــرت العادة بكتابته كافا بثلاث نقط . اما يرنى فلعلها من رنا فى الفصحى بمعنى أطال النظـر .

I) الشابل نوع من من سمك الانهار كبير الحجم ، لا يظهر فى غير فصل الشتاء . ويعتبر من احسن الانواع واغلاها .

قصدت هذه الاشياء الشاعر لتثبت الشبه الذى يربطها بحبيبتـــه فادعى الورد انه شبيه بخدها ، وادعى الزهر ان شذاه قريب من نسيـــم ثغرها الباسم ، وادعى الجلنار ان لونه كلون شفاهها ووجنتها ، وادعـــى الظليم ان لونه من لون شعرها وضفائرها التى تعدت القار :

وادعى الورد قال الخد اشقيقى اشقيق

وادعا الزهر قال الثغر المبسوم

امن اشداه انسيمو منسوم

جاوب الجلار المفهـــوم

قال بقيـــوم

شفا بريق مختوم

لونى ولونها واحد

والوجنا اشقيقتو بتمارا

شامتو اعليه ايمارا

والظليم ادعا قال الشعر والضفاير

من لونى فاق اعلى القار

وتدخل كوكب الزهرة والبدر المشرق والقوس والمنـــائر فادعـــوا قرابتهم مع غرة حبيبته وجبينها والحـــواجب والعيـــون ، وكذلك المسك ادعي أخوته لخالها العنبرى الطيب :

واكذاك نجمت الزهرا والبدر الشريق

القـــوس ولمناير قالوا غـــرا

ولجبـــين أحاجب بترا

ولعيون اجعاب النحرا

على العذرا

فقلوب هل الهجـــرا

والمسك فى اجياب الملوك ادعا انجالها بجهارا

طيبت شامت المسرارا

قالت ذاك العنبر هى اختو او ساقو

عن خيتو غايت لكحار

وادعت الغزالة شبه جيدها وزعم التفاح الشبه بنهدها وزعم الموبر(1) شبه اديمه ولونه بصدرها وساقها ، وكذلك ادعى صارى السفينة شبهه بقدها :

وادوات قالت الحدارا دون النطيق

الجيد والصدر وكذاك التفاح

والموبر شغل الرجاح

قل يفصاح

قالوا جميع ياصاح

انهود فالصدر اساق لمغيون جهارا

حقين على لختيارا

ريت حتى صارى قرصان بالظواهر

فى قدو وقدها احتار

ولم يعجب الحبيبة ان تتسابق هذه الاشياء الى جمالها متخاصمة ومتنافسة فشكتها الى الشاعر متهمة اياها بالزور والبهتان السافرين :

وادوات قالت اصغا ياذا الحبر اللبيق

هاذوا اتخاصموا عن حسنى بجميع

كلها طمع ابلا تطميع

من ابها خدى حسن ارفيع

دايم سطيع

فحماى اطمع ايريع

ادعاوا ابلفجور

او قالوا من صورتى اداوا ايمارا

شوف لامت القرقارا

---

1) القماش الذى يطلق عليه فى مصر القطيفة .

واش شبهوا فى زينى زورهم ظاهر

لامت لبهوت ابلجهار

وأخذ يبحث القضية ويقارن فوجد قدها ناعما والصارى عـــودا يابسا ، ووجد ريش الظليم قصيرا وضوء القمر والنجم يتـــوارى ولا يدوم ، وكذلك ضوء المنائر ، اما جبينها والغرة فنورهما يسطـــع فى كـل وقت وحـــين .

زكيت فى ابهاها وابهاهم نلطريق

واجبرت قدها ناعم والصارى

يابس اعلى عود بـــارى

شفت ريش اظليم اصحارى

ابعيـــد شـارى

فاسواق لمشـــارى

ريش اقصـــير

ونظـــرت الكمـــرا

اموضحا امـع الغرار

نور زينهم اتـــوارى

ولجبين اغرتها فاقت لمناير

يسطع بالليـل والنهـــار

ونظر الى الحواجب والعيون فوجد رميها أقوى واشد مما ترمى به الاقواس والرماح والسيوف حين تكون فى يد الابطال الشجعان ، وكذلك نظر الى لون خدها فوجده فاق لون الورد :

وانظرت حاجب العذرا واللحظ الرشيق

اجبرتهم يخجل منهم حمرى

امن الرما فالوكدا عذرى

بالرماح اسيف اسقطرى

ابسـم يســرى

شدو شجيع دهــرى

ماكيف دكت العين اجوايحها على لعشيق ابارا

بالنشاشب البتـــارا

سلم للوجنا والورد ظل حاير

فى خد اهمامت لبكـــار

ونظر الى المسك والخمر ــ مهما تكن صافية فى البلور ــ فوجدهما من سلع التجار ، اما خالها وشفاهها وريقها ففاقت كل تجارة :

زكيت بالنظر فالمسك أخمر الرحيق

مهما يكون صافى وسط البـــلار

صبتهـــم سلعـا للتجـــار

. . .

الخال والشفايف أريق عانسى المسرارا

فايتـــين كل اتجـــارا

آش جاب البلار أمسك والعواطر

لوصاف اسبيغت الشفـــار

ونظر الى الصدر والنهد والساق فوجدها أصفى من الذهب والفضة ، ووجد الرخام صخرا أصم والتفاح فى الشجر عرضـــة للعب الاطفـال ، والموبر سلعة عند باعة الحرائر ، أما البطن فمنير فاق كل حرير مشهور :

مكنت فالصدر والنهد ابشوف لحديق

اوساق صبتهـــم زهـوا للنظـراً

اصفا من العسجـد والنقـــرا

والرخـــام اجبرتو صخـــرا

اصميـــم حجـــرا

تفـاح فوق شجـــرا

به الطفال تلعب وموبر فى احوانت الحرارا

بين لامت السمسارا

والبطن فى حسن طيو رفيع ناير

يغلب لحرير مشتهار

ولم يلبث الشاعر بعد هذا البحث المقارن فى المزاعم المقدمة له (1) أن دعا كل اصحابها واتهمهم بالزور والتهجم على حبيبته ، واخبرهم انهم ليسوا غير جوار لها يحق عليهم ان يخجلوا ويكفروا عمـــا صدر عنهم ، ونهاهم عن التخاصم اذ يكفيه أنه يسمع مثل تلك المزاعم عند الشعراء :

وانطقت قلت لهم سمعوا قولى احقيق

نتهـاوا كلكـــم اجميع احشمو

يا صحاب الزور اندموا

لاش عن بوتيت اتهجمـــوا

أكتتشتـــموا

ولوا لا تخـــاصموا

يكفا اللى نسمع من امثلكم كيفها بشطارا

بـــين لامت الشعــرا

ياك لها حسن التقـــويم سر ظاهر

وانتما تحتها اجـــوار

وقد يتحرج شاعر كعبد القادر العلمى من تتبع كل اطراف الجسم ويكتفى بالتشبيب العف الكريم ، يصف فيـــه بعض الملامح الظاهرة لا يتعداها ، وفى نطاق المعروف من الاوصاف والتشبيهات ، يقول مثلا فى البتول وقد شبه قدها براية او شجر كبير :

امثيل قامت شى رايا قدهـا العالى *

او ابلنـــزا احكيت فالروض المكدول (2)

زلعتنى (3) بشفار امضى من لعوالى *

والحجبين لعطاف والشفر المصقـول

طال عشقى واهواى فى ابها اغزالى *

ذات الحسن لبهيج والزين المكمول

---

1) يلاحظ ان المدغرى لم يتتبع الادعاءات بدقة وغلبت عليه سجيته فاندفع فى الوصف والمقارنة غير ملتزم بها .

2) المكدول من اكدال فى البربرية بمعنى البستان الكبير .

3) زلع : لسـع .

ومن اللطيف ان نجد المحبوبة تطلب من حبيبها ان يصفها على حد ما طلب «المزيان» من العلمي الذى رد بأنه لا حصر لاوصافه :

ليـــا قـــال المــزيـــان * وصف هذا الحسن يالي تهواني
قلت يا ذابـــل لشفــار * توصـــافـك لا يحصـــار

واكتفى فى الوصف ببعض الملامح الظاهرة على عادته فبدأ بقوله :

ته بجمالك عـــل لقمــار * الشمـــس اتـــغيـــر
الى اتشـــوف زينـــك * لبـــدر من جبينـــك
والبان غار منك

وختم مؤكدا على ضرورة ستر ما عدا ذلك :

والغير ما اتجيبو هدرا (I) ولا عليه تبيين

ويواجه العلمي نفس الطلب من مزيان آخر :

قال المزيان اتصيف لى زينى *
امدح امحاسنى كيف ايمدحو ناس لغرام ابدور لحسان

. . .

ولكنه يجيب بنفس الرد ويضيف أن الهلال ونجوم الليل شاهدة بأنه جميــل :

شيحد (2) اوصافك يالدهينى *
لهلال قلت وانجوم الديجور شهدوا بين انت مزيان

ومثل هذا نجده حتى عند بعض الشعراء الذين لا يتحرجون مـــن الكشف عن المراة ، امثال الحاج ادريس لحنش الذى تطلب منه عائشة أن يصف جمالها فيعبر لها عن عجزه :

قالت لى بوسالفين وصف زينى يا عاشق لمحاسن وانمــا شى (3)
قلت لها مانقو انصيف ذاك الزين اعيشا
اعيشا ما نقدر افلوزان * انصف ذاك لبها وابديع الزين

I) الهدرا : الكلام
2) شيحد اصلها أى شيء يحد .
3) الانماش النقط تكون فى الوجه ، وهى فى الفصحى النمش بفتح النون والميم .

أما شاعر كالفلوس فتطلب منه مارية ان يصفها فيفعل :

لكن يا عاشق لبها وصفنى فمناهج اللغا وامواهب لشعار

قلت لها يا طلعت لبدر أمر تعـــمال فيك روحى مسبيـــا

وكذلك تطلب رشيدة فيلبى طلبها :

قالت يا عـــاشق لبها وصـــف زينى افطرز لنشــــاد

ومن براعة بعض الشعراء انهم لا يعرضون **اوصـاف حبيباتهـم فـي** أسلوب مباشر فقط ، وانما يقدمونها لنا كذلك **من خلال مقارنة بين حالهم وحالهن** ، وقد تكون هذه المقابلة بسيطة على حد ما نرى عند بوعمرو فـي « زهرة » حين يقارن بين قلبه المشتعل وقلبها المرتاح ، بين لونه الاصفر الذابل ولونها الباهى الجميل ، بين نومه الطائر من عينيه وبـــين نومها المغمض لعينين شبيهتين بعينى مهرة :

مال قلبى يـــرمى بشرار * شاعلا فى قلبـــو جمـــرا

مال قلبك ما جاب اخبـــار * واش ما وصلتـك هـــدرا

مال لونى باهت مصفـــار * امن اضرار اعذاب الهجـــرا

مال لونك باهى مســـرار * يالى ما مثلـــك كمرا (1)

مال نومى من عينى طـــار * امن التنهيـــدا والـــزفرا

مال نومك نيـــم لشفـــار * بشفار اعيون المهـــرا

وقد تبلغ المقابلة غاية الحبك والاتقان كما عند المدغرى الذى يقدم لنا فى حوار رائع يتبادل فيه الشكوى مع حبيبته ، ومن خلال مقارنة بين حال كل منهما ، وصفا لـ «راحة» على لسانها حيث جعلها تصف نفسهـا فى ردها على شكواه . فاذا شكا جمر نار قلبه ذكرت له جمر خدودها ، واذا شكا سواد الليل وطوله ذكرت له شعرها الاسود الطـــويل ، واذا شكا سيوف الهوى ذكرت له سيوف عينيها ، واذا شكا قلائد دموعه الهطالة، ذكرت له قلائد جيدها ، واذا شكا هموم صدره الظاهرة ذكرت له التفاح الناتىء فى صدرها ، واذا شكا نحوله ذكرت نحول خصرها ، واذا شكا ثقل

---

1) الكمرة : القمر .

حمله ذكرت له ثقل وركها ، واذا شكا غرقه فى بحـــر حبها ذكـرت له سيقانها السابحة كسمك الشابل ، واذا شكا قيود هواه ، ذكرت لـــه خلخال رجلها الصياح :

امنين اشكيت اجمارى قالت لبدر حتى جمرى لاح
فـــوق اخدودى لجلاح (I) * زاد تلحـــاحـــى
نار قلبك واخدودى ما تزول لحـــلاحـــا
الى شكيت اكحال الليل الطويل قالت زين الدواح
حتى نادون امـزاح * ليلـت اشبـــاحـــى
من اشعور السالف اكحـــل اطويل فجبـــاحا
الى شكيت اسيوف اهوايا اتقول حتى نا عل لكفاح
عندى سيفين اوقاح * غـــايت اســـلاحـــى
فـــوق خدى تدمى بهـــدابها الجـــراحـــا
الى شكيت اقلايد وادموع هاطل بالدمع الكفـــاح (2)
قالت راحت لرواح * صيـــغ تـــوضاحـــى
شوف حتى نا فاللـــب اقـــلايدو امـــراحا
الى اشكيت اغدايد صدرى الناتك ووقوفى لحـلاح
قالت نهدى تفاح * لاح وضـــــاحـــــى
واقف امبنـــد (3) شف اغدايـــدو الطفـــاحـــا
. . .
الى شكيت انحولى تشكى انحول ذاك الخصر افلوشاح
واتقبـــل يارجـــاح * تيـــه ومـــزاحـــى
دابداك اولا صايب امـــن اقيومها راحـــا
الى شكيت اتقال احمولى اتقول وركى فاق ابترجاح
عمر لقميص او داح * افهمـــت اطـــراحـــى
اخلاكك اوركى من تقل الحمول نضاحـــا
. . .

I) لحلاح : ملتهب .
2) الكفاح : السائل المنهمر ، ومنه كفح الماء اذا اهرقه .
3) امبند : بارز ، ولعل أصله فى الفصحى من البند بمعنى العلم .

الى اشكيت اغروقى فبحور حبها قالت لى يا صاح

عندى شابل سباح * فالبحر ضاحى

دايم احشاك أساكى فاللجوج سباحا

الى شكيت اقيود اهوايا اتقول اسمع الخلخالى صاح

كيف اكيودك صياح * قال يالاحى

اسوا لكيودك واسوايا فالنغام صياحا

ومثل هذا نجده عند عبد الرحمن بن الفقيه المراكشى الذى يبدأ شكواه لخديجة بقوله :

اشكيت لها من طول اشكايتى اللبدور افداجى

قالت انظر شعرى كحل اطويل وابدور اسريجا

واذا كان جسم المراة فى القصائد التي تصف الجمال يبدو مجردا عن اى تزيين مضاف ، فان الشاعر الشعبى فى القصائد التى اطلق عليها اسم «الحجام» والتى وصف فيها حفلات **الوشم ، زين جسم المحبوبة بألوان من الصور والرسوم** تمثل حيوانات واسلحة وابطالا وبساتين وخياما وهوادج وغيرها مما يوحى بالتعبير عما يكن من عواطف الحب وما يحس من آلام الفراق وما يتمنى من سعادة اللقاء ، وكأنه يرمز بوشم هذه الاشياء الى مختلف حالات المحب والمحبوب ، فالغزلان للهجر والنفور، والخيول والاسلحة لمدى القوة والمقاومة ، والاغراس والورود للحظات الوصال ، وهكذا تبدو مخيلة الشاعر ذهبت بعيدا فى تامل أحوال المحب المختلفة .

فهذا ابن على العمرانى يخاطب الحجام ويطلب منه أن يختار للبياض الوشم المناسب ، وان يرسم بين حواجبها خمسة الكف لترد نظرات الحاسدين ، وعلى خدها خالا كالنون المتصل بنقطه ، وفى صدرها وحوشا عظيمة وخيولا ملجمة واغراسا لاشجار الفواكه وطيورا مترنمة وبسطا وقصورا من الخزف تكون أبوابها من الرخام تفرش بأرائك الحرير والزرابى واسرة النوم ، تضىء ذلك كله شموع يخسف الهلال لضوئها :

شوف اللبياض اوناسب اوشامو *

بين لحواجب اعمل خمسا تلقى الا ايبارك فيها وايشوف

شوف الورد الوجنات فكمامو *

وفخدها اعمل خال اوشاما نون متصل بالنقط معروف

. . .

فصدرها دير (1) اوحوش يعظامو *

لرخاخ ولفيال وعنقات وما ايعمر المخلوات ولطروف

. . .

فصدرها دير اخيول قيامو

لولا اللجامات ايطيروا لكن كلها بلجامو ملقوف

. . .

فصدرها دير اغراس تنعامو

لوزات بين شي جوزات وخوخات والنكاص ابنسمات ايروف

دير التفاح ايفوح بنسامو

ولمزح وصفرجل متضلل بينهم ضل الا هو مسقوف

فصدرها دير اطيار ترنامو

دير العصفور افصيح لكلام

دير البوح اللى باح بكتامو

فصدرها دير ابساط لمرامو *

من لبديع ابنى اقصور امن الرخام رامت له ادفوف (2)

دير افراشات احرير فرسامو

الحوف والزرابى دير اخوامى امعروجا واتسارح واقطوف (3)

دير النمسيات (4) لمنامو

ديما اقليل نوم العاشق من حرما القاه امنامو مخطوف

دير اشماع للداج واظلامو

اشمعت ايلا قابلها لهلال امن اضياها يضحى مخسوف

---

1) دير امر دار اى عمل .

2) الدفوف والدفيف ج : دفة وهى الباب .

3) اللحوف ج لحاف وهى متكـــآت محشوة بالصوف تعتبر أساس أثاث البيت المغربى ، اما الخوامى فجمع خامية وهى الستارة ، واما التسارح فما يسرح فوق اللحوف ويطلق عليها .

4) الناموسيات : الاسرة .

ومثل هذا نجده عند الشيخ محمد بن موسى فى حجامه الـــذى يقول فيه :

أحجام لغزال ولفى لوجيب للا الطام * فصدرها نيل لوشام

واعمل بين النهود عرص واركمها غـــايت التركيم

ويوصى ابن على حجام محبوبته بان يعنى بآلاته وأدواته من منديل مرقوم وطاس مذهب ومشارط أحد من السيوف مصونة فى اغشية رومية ومناشف للتجفيف :

معونك يا حجام فقوامو *

للناس انوصفو فالميات البالغين من لبلاغ موصوف

منديلك من القماش تركامو *

الزردخان ما يشبه ليه او بنهم من كل امثال اصنوف

طاسك حتى سوام ما سامو *

من خالص الذهب يا حجام اولا ايخلصوه (1) اعداك ابمصروف

وامشارط بالخزنات ينقامو *

وامنبتين بتقات الاكيفو انقات وافرغ من كل اسيوف

واغشاهم رومى صان فرؤامو *

واجفانف لبحر منزولا تحساب من البحر اللى مكفوف

دادى يوصى الحجام ان يكون منتبها حتى لا يؤلم الحبيبة :

يا حجام اوشم للزين * كن عايق فايق فالحين

رطب يدك لا تقصح اغزالى (2) بودواح

أما المدغرى فيغضب لعدم حضور العملية وعدم استشارة الحجام له فيما رسم ويدعوه للقاضى ولكن تتدخل المحبوبـــة وتطلب منـــه ان يسامحـــه :

وجابك يا حجام لغزالى *

لله باش من موجب اجرحت الباهيا طامو بوخلخال

---

1) ايخلص مضارع خلص الشىء اذا دفع ثمنه .

2) قصح : ألـــم .

لو كان كنت حاضر ما تمنع لى *

كيف تجرح زهوت نجلى * يالحجام وتفلت لى

. . .

هذى اكزايت اللى مثلك يدعى افلمسايل من غير اشوار *

اجى بلا اخفا للقاضى مداعيين

قالت المختار اسمح لو ...

وارضيت الحجام بريال من بعد ما اسمحت افحقى مهما اسمعت رغبت دابل لشفار

ومثل قصائد الحجام قصائد الفصادة ، وهى التى تصور الحفلات التى كانت تقام لاخراج الدم حيث تحضر الحسان متزينات على حد ما يقول امتيرد :

آش را (I) من لا احضر امع اوجوه لريام *

يوم حنطـو فثياب العـز اللفصادا

ريت ذاك الدم الوردى ابشوف لنيام *

زنجفور افبـلار اصفا من لعقـادا

ويحاول ان يقارن بين جراح الحبيبة وقد فصدت ، والجراح التى أحسها الحجام فى قلبه وهو يفصد :

اجرح الحجام وانجرح من غير اجراح *

عدات جراحهـم فالقلب اجراحـو

هما تجراحهم اهطـل ادمـاه ساح *

اهو فالضمير دكـات ارماحـو

اما المدغرى فيجعل الحجام ترتعد يده لرؤية ذراع الحبيبة ويفقد وعيه لجمالها :

امنين شاف الدرعين اترعد ايدو غاب من زينت الخدادا

لمعلم عاد فشدا * ما قدر عنهم يتعدا

بـه فاقـوا لعوانس وتنهـدوا

I) آش را أصلها اى شىء رأى ويقصد بها الاستفهام الانكارى .

له قالت وحدا وحدا * مهل اعلى ديك الخودا

لا اتشـوف العينـين اللى ايحكـدو

ومثل هذه المناسبات تكون فى أيام الربيع ، وتقام فى البساتين ، وتستعد لها الحسان يبرزن فى اجمل الحلى وافخر الثياب ، يقول فضول المرنيسى :

اوه يامنـين اتجمعـوا لريـام * فى ازمان النوار (1) وانواو الفصادا . . .

لبسوا من الديام(2)انواع الحجان * فى ارياض امحتفـل مزيان

كيف راحوا ما بين اغصان

حازوا الريام اشمايل الظرافا وحروف الزين *

كل اغزال تقطف فالنوار ايسار ويمين

ثانيـا : المحب

يعانى الشاعر من حب هذا الجمال **الوانا من الآلام والاضرار لا تنقطع منها شكواه .** وقد سبق ان رأينا عند بوعمرو والمدغرى وعبد الرحمن بـن الفقيه مقارنات بين حال المحب والمحبوب كشفت عن أسقـام الاول وأوصاف الثانى ، ونريد ان نضيف اليها مقابلات أخـرى محصورة فى نطاق معـاناة المحب وعدم مبالاة المحبوبة على حد ما نجد عند المدغـرى فى مقارنة بـين سلوها وهنائها فى مراكش واغترابه وانشغال باله ، بين انطلاقها فى سرور دائم والتهابه على الجمر حزينا باكيا سجينا مريضـا لا يجد طبيبا يعـالجه ، بين نومها الطيب الهادىء وسهره الدائم فى رعى النجوم ، بين قـوتها اللذيذ وقوته المر ، بين زهوها فى صحة ونشاط ، ووهن عظمه ومزاجه :

انت امسليا فالبهجا ونا غريب لوطانى * مفـروق عمـن ابغانى

انت مهنى ونا بك اجوارحى تشطنو (3)

انت اعلى اسرورك ونا فوق اللهيب مكوانى * نصلى ابدمعت اعيـانى

انت معافى وناقلبى فى اكياد (4) سجنو

---

1) ازمان النوار كناية عن فصل الربيع .
2) الديام الثياب واصلها فى الفصحى الاديم .
3) اتشطنو اجوارحو فهى مشطونة اى مشغولة ومهمومة .
4) اكياد : قيود .

انت اعلى الزهو والفرجا ونا مريض لكنانى * ولا اطبيب دوانـــى

انت ازيان حالك ونا حــالى ازداد حزنو

انت افطيب نومك ونا نرعى انجوم ديجانى * مارام نوم لجفانى

انت امسكنا ونابك ادواخلى اتسكنو

انت الذاذ قوتك وناقوتى امرار بمحانى * حتى اشفاو عديانى

انت امخنترا ونا عظمى ولخلاك وهنــو

ومثل هذا يخاطب به طامو :

ما لجفنى ساهر طول البهيم * مال جفنـــك فسرور امقيما

مال خدى ساقط ورقو اسقيم * مال خدك ففـــراح انعيما

مال حالى ناحل فانى اهميم * مال حالـــك فنزايه ديما

مال كبدى من هجرك حالجحيم * مال كبدك كاسى ياريمـــا

واذا تركنا مثل هذه المقارنات ـ وسنعود الى نوع آخر منها بعد قليل ـ فانا نجد الشعراء عبروا مباشرة عما يقاسون من اهوال الحب ، فابن سليمان يشكو السهر والقلق ونار خدوج وسلطانها الذى سل عليـــه الحسام فأحس بالفالج يشله :

نارك فالقلب اتروج

واخيالى ما يخفاك عن امهاجى

سهران طول داجى

واعييت (1) مانراجى

اهواك صاك لى سلطان احريج

زادنى فالخاطر تهجيج

سال احسامو للتوديج

سرت مفلوج من زينها المفلوج (2)

والشاوى يشكو بدوره من خدوج ان طرفها رماه بسهم سام ، ويطلب الناس ان يكلموها لتعالجه :

---

1) اعييت اى اعيانى .

2) مفلوج الاولى من الفالج والثانية من فلج الاسنان .

جمری من لهوا مسروج (1) * والحب ياعدو لی ارمی لی وسط لمهاج

حربا مسموما حر سنها وداج

. . .

قولوا اللا خـدوج * روفی اعلى العشيق المجروح من لغناج

ابقی‌مسکین‌اینوح ما ظفر بعلاج

والمكى الصويرى هجم‌عليه سلطان حب فطومة بطغيان وأبطال زعماء فتركه نحيلا يبكى ذاته السقيمة وحاله المذموم :

سلطان الحب صاك ببطال ازعام * ما قصد دونی راد اللطام

وناحالى انحيل ذاتى معدومـا

والحب اطغى واتركنى يافوهام * كانغرد عن طول ايام

لا حالا اتشابه الحالى حالا مدموما

والمحب كما عند امتيرد فى «بحر الهوى» اصم وابكم واعمى ، نحيل سقيم لا دواء لدائه ، يختلط عليه الليل والنهار ويضيق به الفضاء الواسع :

مولاه اخريس اللسان واعمى من بصر الماحو *

زيزون اطرش ما يلو اسمع (2)

تراه افلوقات افقه ادجاه امن اصبوحو *

ترابه ايضيق لوسع

ناحل ساقم ساخف (3) لعضا من تمكين اجراحو *

ما رامو فالدوايا اربع (4)

وهو كما يصوره عبد السلام الجربى فى «قمر الدارة» فى محنة دائمة

---

1) مسروج : مشتعل .

2) هذا تكرار من الشاعر لان الزيزون هو الاخرس وقد ذكره . اما الاطرش وهو الضعيف السمع ، فهو كذلـك فى الفصحى اذ الطـرش بفتحتين الصمم القليل .

3) ساخف اى مرتخى ومغشى عليه .

4) اربع تحوير لربيع اقتضتـه القافية ، والمقصود به العشب (للدواء) .

نحيل فان نواح ، دموعه منهمرة كالسواقى ونيران قلبـــه هائجة ملتهبة ، عليل لا يجد علاجا لجسمه المنهك ، وقد بدا غير قادر على تحمل الحب او على مواساة نفسه بغير البكاء ، بل انه لم يجد طبيبا لدائه العضال :

. . .

ونانحيل فانـــى

غير نرتى وادموع العين حايفا (1)

من فوق الوجنات ساجفا

نعنى لســـواقى

وهيجت نيران اشواقى

اولا اوجدت الداياراقى

اعجز طبى والجسم صار امهبى

. . .

ونامالى مكدار عل لهوا ياناسى

ولا اعرفت انواسى

بالبكا اجرحت احساسى

لا اطبيب ايبرى كيتى امخالفا

. . .

ويشبه العلمى حاله المتقلب فى « المزيان » بسفينة تتقاذفها الامواج وكأنها طائر مكسور الجناح :

مثلى امع لغرام اسفين ما بين موج

موجا تلوحها موجا ترفدها

ولا اقدر رايسها يرصدها

غاديا فالبحر وحـــدها

اعلى جهـــدهـــا

مثل الطير اللى اجناحو واتى

ولا اشفق من تمراتى (2)

---

1) حـــايفة : نازلة .   2) التمرات : المحنة والعذاب .

اما المدغرى فيشبه نفسه فى «البتول» بقمرى سكران فارق طير جنسه ، واسير قيده نصرانى لا يمل من الجفاء ، وطفل فطم قبل الاوان يفوق نواحه نواح جميع الاطفال :

نحكى قمرى اعلى اسطاحو سكران ايظل حالت الى مشمول
فارق طير اعليه ما نـــزل
ولا شى ميسور فى اكبالو واحل والى اميسرو ليس ايطول
نصرانى فجفـــاه ما ايمـــل
ولا صبى اصغير قبل احليبو مفطوم عـــن انهود معـــزول
تنـــواحى ما نوحو اطفـــال

لهذا فان هواه عنيف لو حكاه للحجر لتكلم ودعا له بالشفاء وعذر حاله وقدر قصته التى فاقت كل قصة ، او للغراب لشاب واصفر لونـــه وجرت مدامعه وبكت عليه أمة الطير ، او لجبل رضـــوى لاغمى عليه وذاب وغدا بحرا هائج الامواج :

لو عدت اهوايا اعلى الحجر يتكلم وايقول لى الله ايشافـــى لضرار
حالك من حال الى اينعدر * عدات اقصيتك اعلى كـــل اقصيا
لو عدت اهوايا اعلى الغراب ايشيب اتبكى اعلى امشيبو لامت لطيار
ويولى فى حالتو صفـــر * يرقان المدامعو مـــن الوجد اسمخيا
لو عدت اهوايا على جبل رضوى يسخف ويضحى ايدوب ابصحت لخبار
ويولى بشكايتى ابحر * موجو طوفان ما تسلكـــو بحريا

ويعتبر بهذا حاله كقيس ويدعو الناس الى رؤية صورة ابن الملوح مجسمة فيه :

هذا هو قيس يالى ما شافو أجى اتشوف قيس ابعينك ما صار
قيس اغبر فى ساير الدهر * ونا بعـــد افناتنى لهواويا

ومن لطيف الشكوى ما قدم عبد الرحمن القرى المراكشى متألما من النيه والضنا والشغف والهيام حيث اعتبرها ملوكا للعشق استغلت غيـــاب حبيبته « زهرة » لتستقر سهاما فى قلبـــه بعد أن قسمته بالقرعة ديـــارا

ومنازل ، حيث نصبت الخيام ودقت الطبول وصوتت الرعـــود فسالت جفونه مدرارا :

ملوك العشق اتمكنوا فقلبى جعلوه اقرار

عاد انزل التيه والضنا والشغف الهيام كلها الزم اقرارو

عن لسهام ابقرعت الصبابا قسموه اديـــار

نصبو لخيام ازامت الطبول ازكلمت ارعود هل جفنى مدرارو

وعظم الامر عليه وسعى الى الطبيب فأشار عليه بعلاج وحيد هـــو وصال المحبوبة ، وارسل لها فرقت لحاله وحضرت ، فرفع اليها دعـوى ضد هذه السهام انها جارت عليه وتكتلت ضده :

لك ادعيت التيهان والضنا والشغف الهيام لبلهوا عنى جارو

اتحموا على افغبتك يا زهرت لزهـــار

ولكن السهام حاولت الدفاع عن نفسها فردت لتكشف عن حالها ، وهى فى الواقع تتحدث بلسان حال المحب اذ جعلها تنطق بمـــا يحس وتعبر عما يكن . تقدم السهم الاول فشكا شر سلطان التيه يعظم حـــين تغيب ، ورجاهاان تسكن لواعجه وتفك اسره وتعالجه بعطفها من الاسقام:

وابغيتك يازهرا اتشاهدى سلطان التيهان حين يعظم بشرارو

وقت ما غبت كيـــزيد بعد اللعات اشحـــار

. . .

وابغيتك يازهرا اتسكنى رعدى واتفكى اجوارحى من تيسارو (I)

واتدونى ابمدت لعطـــف تنج مـــن لضـــرار

فأجابته زهرة بان التائه فى حسنها ينبغى أن يساعد ويـــلاين ، والا يعتبر نفسه متعب الفكر ، وبان طالب العطف والوصال ناج ، وان من شكا لنغالب ظهر حقه ، وان العاشق الذى لا يبحث عن دوائـــه ليس جديـــرا بالعشـــق :

وادوات ازهور قالت الذى تاه ابحسنى لا يظن فالتعب افكارو

يسعـــف غرض التيهـــان كـــان لاموا حالو يعـدار

I) التيسار : الاسر ، وفعله يسر

من طلب العطف انجا اومن اشكا للغالب حقو ايبان واضح تشهارو

من لا يبحث فدواه ما يلـــو فالعشـــــق افتخار

وتقدم السهم الثاني يشكو في كدر وحسرة ما اصابه من الضنا بعـــد أن انقضت لحظات البرور والسرور ، ويأمل ان تعجل له بعلاج ناجـــع ينقطع به السهر ومراقبة الطيف وتكف به الدموع المتهاطلة كالامطار تسقى اقحوان الخدود :

زاد السهم الثـانى افحسرا * شاكى امن الضنا متكدر تكدير
قال أزهـــرا بعد لمبـــارا * واسوايع الزهو وليت افتحسير
راشف من خمر اضناك غمرا * نبغى اتبادرى لى بعلاح اجدير

وابغيتك يازهرا اتمهلى عن صور الدمع لغزير هامع بمطار

غرس الكحوان اعلى الخـــدود واسقـــاه امن المدرار

وابغيتك يازهرا اتنولى عطفك لِى فالدجا امراقب غرارو

هاجر لهجـــوع الطيـــف صورتـــك متشخص لبصـــار

فأجابته زهرة بأن من واجـه ضنا القد والشعر الاسود وسهام العيون وغرة الجبين الساطع فان تقبيل الخد يوافقه علاجا يريح أعضاءه ويزيـــل كـــدره :

قالت زهرا من صادف الضنا بين القد اتيت ليل غاسق تعكارو

واسهـــام العين اغرت الجبين الساطـــع بنـــوار

تقبيل الخد اوافقو ايلا عظم اضناه طردوا من اصميم اسيارو

اصيب الـــراح فـــى اعضاه يرتاح مـــن التكدار

وتقدم السهم الثالث شاكيا نار الشغاف التى تذيب جسمه شر اذابة، ثم لا يلبث بعد احتراقه ان يجد الثلج يحيط به والزمهرير ، ويطلب منها أن تعالجه باطفاء جمره وتبريد جسمه :

والسهـــم الثـــالث دون فتـــرا * زاد اشكا امن الشغف ابقول اجهير
قال ازهـــرا نارو الزافـرا * بها ايذوب جسمى تدواب اشرير
بعد ايولى فالنار قاتـــرا * يلقى الثلج حايط به وزمهريـــر

وابغيتك يا زهرا اتعالجى من ولى مثل لحديد مهلى فجمارو

والثلج احذاه (I) ايلا القى من الشغـــف تبـــرد اجمارو

I) احداه بجانبه ولعل اصلها فى الفصحى حذا حذوه .

فاجابته زهرة بان من طغى عليه الشغف واسره وجعله يشكـــو الاضرار لا بد واجد علاجه فى خمر الثغر :

قالت لوجيبا امن اطغا عليه الشغف اجعلوا يسير واشكا بضرارو

لا بد اعلاجو مـــا يكون فمصـــالى من لثغـــار

وتقدم السهم الرابع فى النهاية فرجاها ان تؤمنه حتى لا يفتك به الهيام عقابا له بعد ان شكاه ، وهو غير قادر على مواجهته :

وابغيتك يازهرا اتأمنى خوفى من فتكو امناين افشيت اسرارو

لا ايعقبنـــى بعـــد السكون ونـــا مالى مكـدار

وكان جوابها أن أمرت بنصرة الشاكين :

وادوات المحبوبا او آمرت اسهام الشكيا ابود لعطف ينصارو

كل سهم انظرتو ابعين لعطف سرا واجهار

وكانت النتيجة ان اسر امير العطف ملوك العشق وانتصر على ارباب أهل الجور ، فلم يعد للتيه والضنا والسقم والهيام اى وجود وزال عن القلب همه وكدره :

جاوا ارباب هل الجور عند زهرا طلبوها افلمكار يبقى تكدارو

فى قلبى حاربهم مير لعطـــف بوفـــق لمـــزار

ملوك العشق اضحاوا يسرا * فسنسل لعطف يسرهم امزارو

ما باقى للتيه جـــرا * وكذلك الضنا متضمحل اثارو

والشغف اجنودو افكسـرا * جند لهيام كاشف لعطف عيارو

. . .

زالت عن قلبى الكشرا (I) * فبساط سلطنى اضخام فى تسوارو

ولم يكتف الشاعر الشعبى فى التعبير عن حاله بمقارنته بحـال محبوبته او عرضه فى نوع من الشكوى وانما لجأ الى لون طريـف مـن المقابلة جعله يدخل فى حوار رائع مع بعض الاشياء الاليفـة لديه على حد ما تجد عند امتيرد فى « الشمعة » التى يقول فى حربتها ، مستفسرا عـن سبب نواحها :

I) الكشرا : الغمة .

لله يالشمعا كرى واعلاش د النواح والناس افلفراح

وانت اجواهر ادموع ابكـــاك الـلا اهطيــلا

وعلى حد ما نجد كذلك عند محمد بن الوليد فى شمعته مستفسرا عن نفس السبب :

واعلاش يالشمعا تبكى مالك * عدلى واشنو اسباب ابكاك

ونقف قليلا عند شمعة ابن على العمرانى التى يقول فى حربتها :

لله بالشمعا سلتك ردى لى اسؤالى * واشبك (I) فالليالى تبكى مادالك اشعيلا

فهو يطلب منها أن تخبره بحقيقة أمرها مؤكدا لها أن أمره أعظم واخطر :

ليا دون اخفا اشكى ابما فدخالك واحكى قصتك نصغى لك

وناقصتى بها نتعداك

وقبل أن يتركها ترد على سؤاله يفترض أنها تبكى من نار أو سقم أو فراق ، ويقارن بينه وبينها مبينا أن نار قلبه فاقت كل نار فى جسمه العليل، وأنه ورث سقمه من قيس بعد أن أفناه سقم حب ليلى ، وأنه مفروق عن حبيبته صابر على الفراق . ويتساءل عن سر حالها ما دامت لم تفارق خليلا أو خليلة:

اذا باكيا من نارك نيران فى ادخـــالى

عدات كل نار افذاتى واجوارحى اعليــلا

ويذا باكيا بسقامك شوفى اسقام حالى

من قيس وارثو بعد افناه اسقام حب ليلى

ويذا باكيا بفراقك مفروق عن اوصالى

واعلى لفراق صابر شيصبرنى اعلى لعقيلا

ونت امنين جاك احكى لى اللولى والتالــى

ما فارقا اخليل ابحالى ما فارقا اخليــلا

وتجيبه بأنها كانت فى الاصل نحلة تصول فى مملكتها محجبة لا تخرج الا فى أيام الربيع لقطف الزهور ، ولكنها هوجمت فى عقر دارها ، وأخذت للمعصرة حيث صفيت ليتخذ شهدها قوتا ودواء ، وليلف شمعها على فتيل ويوضع على حسكة (2) ويشعل ليلقى عليها قطراته ودموعه . ولكن الشاعر

I) واشبك : أصلها اى شىء بك . 2) الحسكة : الشمعدان

يصبرها بانها ان فارقت مملكتها وبنات جنسها فهى فى صحبة قوم آخرين أفاضل ، حيث تسهر مع أهل المال والعشاق وفى مجالس العلم وبيوت الله . وتضطر الشمعة فى الاخير الى الاعتراف بأن ما تقاسيه من نار ليس غير عشر ما يحسه ، وأن قصتها ليست سوى احدى قصص عشقه وهواه :

صبرنى يا حبر اللغا بشعارك ليا ايخبروا بخبارك

يدريه امن ايكون اسوايا واسواك

نارى نحكيها كم لعشور افنارك واسرارى اتجى لسرارك

قصا امن اقصيص عشقك واهواك

وكما توجه المحب الى الشمعة فكذلك توجه الى الحمام ليبثه شكـــواه مما قاسى من الجفاء ومن هجر المحبوبة لرسمه بعد أن نصبت لها الشباك ، كما نصبت لانثى الحمام . ويسأل الرسم فلا يجيب فينسكب دمعه لان كل حبيب يزوره محبوبه الا هو والحمام فانهما لا ينعمان بهذه الزيارة . يقول ابن سليمان مخاطبا حمامه بهذا الكلام :

قرب نحكى لك يا حمام اعلى ما قاسيت بالجفا

كيف اجرى لك هكذا أجرى لى نعتاد الطير ما يروم الغيرو خواف

نصبو ليه الشبكات عديانى كانت فيه حالفا

ونابهم كنت ما نبالى مايحصل عندهم لولا صادفوه اصداف

طيرى ما هو طماع غير الوعد الغلاب ما اعفا

خلى رسمى ياحمام كيف اخلات النتا ارسامك بعـد التـولاف

سولت المرسم لا اخبار اعطانى والدمع ساكفا

بالتغراد ايقسم الليالى غير انا يا حمام ونت فى ذا التشغاف

راكل احبيب ايجيه محبوبو ويزورو عل لوفا

وايبات افراحا اسليم سالى فاش ايجيه الرقيب لودار الفـشواف

وقريب من هذا ما نجده عند ابن على الذى وجد المرسم خاليا مـــــن المحبوبة فقال :

جيتك يا رسم الباهيات صبتك خالى مهجور

سكانك جابونى انزورهم لله وايـــن ساروا

واعطنى لخبار

ومثله الكندوز الذى يقول فى مرسمه :

جيتك يا رسم الباهيات صبتك حاجب لبدور

حجبهم عني او شوقهم زاد القلبـــي نارو

مكوانـــي صبـــار

واذا كان ابن سليمان قد قابل بين حاله وحال الحمام فان ابن علي أدخل المرسم فى المقارنة فجعل يبكى على الشمعة يقول :

أنا والمرسم يا حمام ثالثنا فالزهـو انـت

المرسم يبكى اعلى الشمعاوانت تبكى اعلى النتاونا عل لغـزال

فقد ألف المرسم الشمعة وظنها لا تغيب ينظر الى ضوئها كلما حضر المحبوب ، وألف الحمام أنثاه كما ألف المحب حبيبته فى رسم لا يطأه أحـــد غير هذه المجموعة الاليفة وغير القدر المحتوم ، والفراق الذى شتت شملها وتركها فى حال يبكي له الجماد كما بكى لسرورها الاعداء والعذال :

والفت المرسم يا حمام الشمع تحساب نابتـــا

وقت ما تاك لغـزال اضياهـا شعـــال

ونت تتنعم كيف تتنعم لعقـــول المحدثا

والفت انتاتك كيف والفت انا لجمـــال

فى رسم امعظم ما اوطاوا اوطانو خيل لعت اعتا (1)

غيرانـــا وانت والنتا والشمع ولغزال

والوعد امحكم ولفراق اللى غيرنا امثالثـــا

كيفى كيفك ياحمام كيف المرسم فالحـــال

لنايبكى الصم ونقصا وانبكيو اللى صامتا

كيف ابكاوا اعلى اسرورنا لعدا والعدال

ومع كل ما يعاني المحب من آلام ، فهو لا يتردد فى تقديم الطاعة عبـدا مملوكا لمحبوبته عساها أن تكون راضية عنه . فامتيرد يرى الطاعة أمرا واجبا فى الغرام فيخاطب فاطمة بمثل هذا القول :

---

1) خيل لعتا اعتا : لعل المقصود بها العاتية

طاعتك لازم عنى واجبا افلغرام

وابن على يتساءل عما اذا كانت ستقبله زينب مملوكا لها يلازم الباب :

يا ترى تقبلنى مملوك لازم الباب

والمدغرى يتعلق بحرم فاطمة ويرجو ألا ترفضه خادما وعبدا على الطاعة:

زاوك افحرمك قبلينى اخديم الال طيما اعبيد اعلى الطاعا يا طيما

وهو يشهد الناس أنه غلام أم كلثوم دون ما بيع أو شراء ، لا يرى فى ذلك أى لوم :

شهدوا باين وديت فختامى أنا اغلام كلثوم دون البيع والشرا مافيهاشى لوم

وهو فى «لعشيق ديما ينغلب» مملوك يخدم ركاب سيده يسير أمامه ان ركب عارفا بشروط الركب وآدابه :

مملوك سرت نخدم من تحت اركابو سابق كدامو ايلا اركــب

حافظ فضميرى اشروط الركبا

والعلمي يتمنى لو أن المزيان يبادله نفس الحب حتى تتساوى العواطف ويرتاح من الجفاء مقابل مضاعفة الطاعة والخدمة دون ما تقصير :

لو كان اكما نبغيك تبغينى تنقاد (I) لحبا تسخر للجانبين سر الصدق الامان

انتيا من لجفا اتهنينى * ونا انزيد فالخدما والطاعا اولا اتشاهد منى نقصان

والمزيان بدوره يوصى محبه أن يصبر على جفاء كاسبه وسلطانه وأن يخضع ويركع بين يديه ويتأدب لجمال صورته فى همة وشان ، وهو بعد هذا لا يريد مالا أو غنى وانما الطاعة ، وهى فى امكانه :

تصبر لجفاى ايلا اعشقتينى *

عشاق لبها مكسوب الملميح ابلقهر ولبها سلطان

واخضع بين ايدى واهدينى * بندق(2) اكبالتى واتأدب لجمال صورتى بالهما والشان

. . .

وامتاع الدنيا ليس يغوينى * لكن طاعتى تملكها يا عاشق لبها بالخير ولحسان

والعلمى فى «توكت لهلال» مملوك لا يخرج عن طاعة سيده ويستبشر لاوامره ونواهيه ، ويرى ان الغلام لابد أن يطيع مولاه كما يشاء ويرضى :

مملوك مايلى عن باب الطاعا اخروج

I) تنقاد : يصبح لها قد واحد أى تتساوى

2) بندق : طأطأ وركع للسلطان

نرضى المن يكسبنى ابهاه

نستبشر عن أمروونهاه

ولغلام ايطيع المولاه كيف يرضاه

ومثل هذا يقوله الحاج ادريس لحنش لام الغيث :

مانا الا عبد قلت لها وانت يا مولاتى ابشاين (I) ترضاى ارضيت

بل هو حين يستغيث بها ويطلب منها أن ترحمه بقبلة قبل فوات الاوان يؤكد لها أنه عبد موروث:

قولوا الال غيث رنابك كانستغاث

روفي اعلى افريد اهواك وغثيه

يا للى ببهاك اسبتيه

لاش عل الجمار ارميته

احميه ابقبل يالغالبا قبل ايفوت الفوت

ياك اتعرفيه ألا اعبيد عندك موروث

ويرى الحاج احمد امر يفق نفسه مكسوبا لزينب بحكم القدر المحتوم ولكنه راض بما كتب له :

بالحكـــم الـــواجب * عبـــدها متملـك مكسوب

راضى مكتابـى ❀ شفت العين اجنات كما اكتاب

أما الفقيه العميرى فخديم لزهيرة صابر على هجرها :

صابر صابر الحبها اشحال ونـى مملوكها اغلام

وعاد صابر اعلى اهجيرو

ورغم كل هذا التفانى بظل المحب يعانى من **الفراق والهجر والنفور والغيبة الطويلة** ويخبر العلمى عن فراق محبوبه الذى جفاه وتركه فريدا بلا عقل ، يراوده طيفه وخياله ، فيقول :

كيف ايواسى اللى افرق محبوبو وابقى ابلا اعقل فى لوسام افريد

كيف اجفانى احبيب قلبى

ظل غير صورتو وانعوتو واخيالو

I) بأى شىء

من لاعمرى انظرت زين افلبدور ابحالو

ويصور لحظة الوداع وقد ذهل وثقل لسانه وارتخى جسمه وانهمرت دموعه ولم يقل شيئا لمحبوبه :

ماصبت حين ودعنى ولفى ما نقول

دهلوا اجوارحى واثقل السانى

وارتخاوا اعروق ابدنى

وهطلوا بالدمع اعيانى

ولكن محبوبه حياه وجلس اليه وجعله يستمتع بقربه قبل أن يودعه ويمنحه قبلة الرضى ليتركه مسلوب العقل :

أولا اسبانى حتى جانى افلون قانى

واحيانى بالسلام واجلس واسطبت (I) اكعادو

امنين شافنى امسلى نيم شفرو وقال لى ودعتك يا سيدى

قبل بعد لوداع راضى باش املكنى

اوحاز عقلى وامشى فى حالو

ويستعظم المدغرى فى «الكناوى» يوم الفراق ، وقد تركه أحباؤه مكويا ينوح فى حالة تدعو الى الرحمة والاشفاق .

معظم ذاك اليوم فاش صدوا ناسى وامشاوا

تركونى نواح فى ارسيم اضميرى كاوى

يحسن عون اللى امشاوا ناسو من بعد اكوا

وهو كالعلمى لا تتركه المحبوبة فى «الفراق» دون أن تسلم عليه ، ولكن ليس بقبلة وانما بعناق كاعتناق حرف اللام ألف :

لا ايعيد افراق المعشوق يالعشاق   بعد ما عنقنى تعناق لام مرشوق

وتطول الغيبة بالعلمى ، فيشتد غرامه ويقوى عزمه ويطول كتمانه حتى كأنه مسحور سحره راهب رومى يستحيل أن يحن قلبه فهو أقسى من الحديد، ويتساءل عن هذا السحر أهو طلسم او تعزيم فى الجدول بخط عجمى :

اشتد غرمى واقوى عزمى

I) اسطاب : استمتع ، وأصله استطاب

اعييت نكمى

كيف اللى داخلوا سحور اعلى قلب اجواه

واللى سحرو ارهيب رومى امحال يحن ليه قلبو اقسى من لحديـد

ما نعرف داسحور طلسم او اعزيم ابخط عجمى .

وهو قد اشتاق الى جمال محبوبته ولم يعد قادرا على تحمل الفراق رغم صبره الشبيه بصبر قيس على غرام ليلى وصبر عنترة على غرام عبلة ، خاصة وانها لم تبعث له رسولا أو مكتوبا ، مما حيره وجعله يسأل عنها كل من لقيه :

طالت أسيدى هذا الغيبا

واتوحشت ابهاه

اولا قدرت اللفراق امعاه

. . .

نصبر اكما اصبر قلب لعشيق النكيب

قيس لغريم فهوى ليلى

واشواق عنتر من عبلا

. . .

لاكتب لارسول اقدم من عند لحبيب

اجميع من القيت انسالوا

وانقول احبيبى مالو

ما بان ما ظهر بخيالو

وهكذا يبدو الفراق على حد قول المدغرى مزهقا للنفوس مجففا للريق مشيبا للشباب مروعا لسرور العاشقين بخيول جيشه وأعلامه ونباله الممزقة الفتاكة ورماحه المريقة للدماء :

ريت لفراق اوعدى بالنفوس زهاق ❀ افلحلاقم ريق اهل الشوق به مسروق

ريت لفراق ايشيب بالصبا ولشواق ❀ كن عاشق فصباه امن الفراق مخروق

ريت لفراق بسرور العاشقين مالاق ❀ ابلخيول افجيشو واعلام ليه موثوق

ريت لفراق انبل سهمو اسريع مزاق ❀ من اسنون ارماحو دم لعشيق مهروق

فلا عجب والبين بهذا الاثر أن يتخيله ابن سليمان حجابا بينه وبين حبيبته فى شكل سور رواقى من الحديد عرضه خمسون ميلا ، له باب يسمى

باب الرضى ، لكنه فى الطرف الآخر قد أغلقته الجبيبة :

سور البين ارواكى امن الحديد عرضو خمسين ميل فوتاكو (1)

هذا انظن به اغزالى تضريك (2)

بابو اسميتو باب الرضى من عندو مغلوك

وعلى عادة الشاعر الشعبى الشغوف بالتشبيه والمقارنة والرمز فقد تخيل المحبوب الهاجر طائرا نآفرا خصه بقصائد أطلق عليها «الطرشون» ، وهو اسم لنوع من الطيور . يقول ابن على العمرانى متحدثا عن طرشونه الذى غاب وهو يخاف أن يصطاده أعداؤه فيتشفوا فيه وينتقموا منه :

طرشونى مر لى فالصيادا ماريت ابحالو   لله واش ما شفت لى طير غاب لى
خوفي ايصيدوه اعدايا ويقطعو احبالو   يفدوا فيه ثار المغلوب الا ايقدلى

ويقول ابن على المسفيوى عن طرشونه الذى غدر به وجفاه فانهكه فراقه ، وهو يطلب من الله أن يجمع به الشمل ويحقق الامنية :

طرشونى غاب ياهلى واغدرنى واجفانى   وافراكو رشانى

نسعى لكريم به يجمع شملى وامنايا

والمحب لا يعانى من الهجر والنفور فقط ، وانما يعانى كذلك من اللائم. ونجد المدغرى يعذر لائمه لانه لم يذق من كؤوس شراب الحب ولم يجرب الهوى وأهواله وكياته وآلام الفراق والهجران :

لو ذقت يا لايم كيسان اشرابى   تعذر من روحى الشاربا

واتجرب لهوا وجمر اشرابو

واتشوف كيتى وهجرتى واشغابى   واجنود الهجرا الشاغبا

وامحـــاور لهوا او حر اشغابو

ونجد العلمى مثله يلتمس العذر للائمه الذى سلم من الجراح والطعن واللسع ، فيقول له :

سر أمن لام

ذاتك من لجراح سالما

---

1) اى فى وثاقه ، والمقصود الاساس

2) تضريك : تستر .

ما طعنوك اشفار نايما

ما بهضوك انيام

مالسعك امن الصدغ شي ارقيم

ويقول للائم آخر ينهاه عن اللوم حتى لا يبتلى ، ويؤكد له انه لو ضمن سلامته من الهوى لما مل من سماع لومه أبدا :

كف لملام

دعني يالايم

حالى بملام يكفاك مشتغل

سلم يامن لام لا اتبلا

لو اعرفت لهوى بملامك يتراك

ما نقنط بملام

ما نمل من قولك هيهات ما نتخلى

ومن عجيب أن احمد ابجوات استطاع ان يؤثر على اللائم ويجعل قلبه يرق ويذهب رسولا الى فاطمة . فهو بعد أن نهاه عن اللوم وحذره من الوقوع فى الحب ، طلب منه أن يسأل ويجول ويستفسر عن الباب الذى يمكنه أن يدخل منه دون خوف . فاذا كان يريد أن ينظر فلينظر الى حال جسمه العليل ينبئه بالخبر اليقين ، واذا كان شجاعا من الابطال فليقف الى جانبه ليحميه، واذا كان حكيما منجما فليسلب له عقل محبوبته مقابل ان يهـديه نفسه ، واذا كان يواليها فليذهب اليها ليلومها وينهاها كما جاء يلومه وينهاه حتى تجود له بالوصال ، وسيقيم له اذ ذاك ليلة زهو وسرور مقابل ما قدم له من مساعدة . فلم يلبث اللائم أن أخذ فى البكاء وذهب الى فاطمة يحمل لها رسالة الحبيب :

ألايم لا تلوم سلم

واعذر ناس لغرام

ليديك الله أتنزطم

بالنعل افلمقام

من لا يوزن ولا يخمم

محسوب من لغشام

والناس احوال

والحال امن اهلو ماتحول

نبغيك اتسال

واتسقسى (I) بعد ما تسول

وتجـول اشحـال

وتعرف الباب امناش تدخل

ياك العقل نور من صنعت العالى

سر به الحكما حاكما

القلب ايشوف والنظرا للعين السرديا

ويلا كنت اتشوف شوف اخيالى

شوف من حال الدات الساقما

لعلا ايخبروك بالكتم فالسريا

. . .

ويلا كنت اشجيع من لبطالى

. . .

أجى فكتافى اوكون لى فالتحزار احميا

ويلا كنت احكيم

نزل اشكال اسرار العاظما

واسلب ليا عقيلها ونالك اهديا

ويلا كنت اعلى لمليح اموالى

سير بعدا لوم اعلى فاطما

وانهيها كيف جيت اتنهينى وارغب فيا

مضر اتجود لى بوصالى

الى اتجنى بالزورا عازما

نفرح بمجيك وانقيم ليلا زهويا

شفيت لايمى وابكى من حالى

. . .

وارجع حتى ادى امعاه ابرا (2) بخط ايديا

I) تستفسر ، واصلها فى الفصحى تستقصى . 2) البرا : الرسالة .

والشاعر الشعبي لا يكتفي بالشكوى مما يعانيه وانما **يحاول أن ينفذ الى قلب حبيبته** والوصول اليها بشتى الوسائل ، يحاول **بالرجاء والاستعطاف** على حد ما نجد عند العلمي الذي يلتمس من محبوبه أن يحن ويشفق ويعفو عنه وينبهه وينهاه ويطلق سراحه ويفديه ويزوره ، وهو مستعد لقبول كل الشروط :

قابل اشروطك حن واشفق واعطف لي اهواك زورو ويزورك

نبهو وانهيه اينهيك سرح مسجونك يالجافي وانعم لي ابلفكاك

وافدي ميسورك لن حالو محسوب اعليك واعلى مغلوبك جد واصفح

وعلى حد ما يسمعنا الطيب الواسترى الذي ضيع اوقاته (1) وافنى ذاته طمعا في رضى المحبوب وتفانيا في حبه :

ضيعت فيك أوقاتـــي ۞ وافنيت فيك وارشيـــت

واعييت ما نطمع ذاتـــي ۞ برضاك يا من اهويـــت

. . .

رفا ياضيـا مقلتــــي ۞ رنا ابحبـــك افنيــت

وهو لا يطمع الا في أن يتذكره ويزوره :

أنا افعارك أسلطاني توفي ازيارتي واتفكدني يا عنايتي

يامن طاعوا ليك بالقهرا لبنات

وابن علي المسفيوي كذلك لا يطمع من محبوبه في غير الزيارة :

ياهلال الزين المهيوب يالمحبوب جدلي بقدامك ياضيا اهدابي

والمدغري يطلب من الله أن يجمع بينه وبين حبيبته في اعتناق على النهد جميل :

المولى لاقـــي لاقـــي ۞ اقريـــب لاقـــي

لاقـــي لاقـــي ۞ انعـــاود عناقـــي

اعلى النهد مازين التعناق

والكندوز لا يرجو من جميل الخال الا أن يزوره ويصله بعد ان عذبه بتيهه :

أيا سابـــغ لنجـــال ۞ عذبتني بالتيـــه يا شملالي

زر رسمي يازين الخال ۞ كم لي نرجـــو لوصـــال

(1) لعله يقصد اوقات الصلاة كناية عن الدين

أما سيدى العربى مول الغربية فهو يرجو من أمير الهوى بعد ان ملك عقله وشوى كبده ان يجود على أغصانه بغيث يروى غرسه ونباته :

يالمالك عقلى بك‌لكبادتشواوا   جد بامطارك لغصانى انبات راوى

وقد ترق المحبوبة وترد ولو باعتذار كما فعلت مريا التى زادها الفلوس نارا بشكواه ، فخافت عليه أن يذوب من كثرة السهر ، ولكنها أكدت له مايعرف من أنها تحت حكم أهلها ، وأنهم لا يرضون العار ، وأن المحكوم لابـــد وان يخضع لقدره :

وادوات اغزالى اهلال عيدى قالـــت لى يا عشيق حسنى زدتنى نـار

خوفى غير اتذوب بالسهر   ذات العشاق دايبـا بالـو لفـيـا

. . .

قالت لى يا عاشق لبها تدرينى تحــت لحكام واهلى ما ترضى عار

والمحكوم ايصرف لقـــدر   هذا عذرى احكتلك دون اخفيا

وسألها عن الحل فى هذا الوضع فدعته الى الصبر لما فيه من حكمة خفية ، فما كان منه الا أن قبل الارض ورجاها ألا تحرمه من رؤيتها ، وأخبرها انه سيلازم الابواب صباحا وعشية :

قلت لها يا رايت لملك كيف المعمول فدنى يدامى (I) لوكار

قالت لى مصقولت الصـــدر   الصبر امليح فيه حكما سريا

طحت وبست الارض قلت لها ما عندى ما انقول يا من حزت توقار

لا تحرم جفنى امن النظر   هانا عند لبواب صبحا واعشيا

وقد لا تلتفت المحبوبة **فيلجأ الى بعض العتاب** كما فعل أمتيرد وهو يصارح طامو بأن الافاضل يستحون من العيب وانها لم تستح ولم تكافىء ولم تكرم ولم تجاز ولم توف أو تواف ، ويحذرها فتنة الجور ونهاية الظلم ويذكرها بفناء الدنيا وأهلها وبرحمة الله التى تشمل الجميع ويدعوها الى أن تغتنم شبابها وتزوره قبل فوات الاوان :

والعيب يا بديع الصورا به لفضال تحشم

وانت ما احشمت

مـا كـافيتى

ماكرمتى

I) الدامى : الغزال

ماجازتى

ماوافتى

ما اوفتى

الجورفتنا

والظلم انهايتو الضمنا

نهجو نهج اظليم

والدنيا كيف اترايها ابهلها راحل وامقيم

غنمى صغرك ربى ارحيم رحمان

فضلو اكثير

وارحمتو منشورا لعلى اعبادو

بها اجميع يرحامو

زورى احبيب قلبك والمولى يالريم غفار

ومثل هذا يقوله العلمى لمحبوبه يطلب منه أن يرحمه بعد ان اهلكه ، ويلبى طلبه لكى يجزيه الله ما دامت نجومه مضيئة وهلاله ساطعا بين الافلاك قبل أن تحجبه غيوم الزمان وتطفىء نوره :

وارحم بعد لهلاك

واطلق مطلوبك

تاجز لكريم ايكفيك

ما حد انجومك ضاويا واهلالك بين نفلاك

من قبل اغيومك

اينطف ضو ويخليك

وبأعنف من هذه اللهجة يؤنب امتيرد فاطمة(I) فى عتاب ممزوج بوعظ فيأخذ عليها أنها تنكرت له بعد عشرة طويلة حسنة ويكشف لها عن عيبها وقد تجلى أثره فى سقام جسمه، ويلفت نظرها الى أن أهل الحياء لا يصدر منهم عيب مهما طال بهم الحال ، وأن الجميل يساعد لتساعده الايام وأن القبيح يصادف نتائج أفعاله :

I) يطلق الاشياخ على قصيدة فاطمة هذه : «اتـرابى فاطمة» اى تربيتها .

بعد حسن العشرا واكمال طيب لمرام   زام رعدك واهطل بفراتنو اسكيبو
بان عيبك واغشانى فالجوارح اسقام   وناس لحيا لوطال الحال ما ايعيبو
لمليح امساعـد وامساعداه ليـــام   ولقبيح افعالــو وامصايبو اتصيبو

ولا يكتفى بهذا بل يزيد فى وعظها عساها ترق وتلين ، ويحاول ان يفهمها ان لكل شيء نهاية مهما علا وعظم ، وانها لو كانت قصرا ضخما عالى الحيطان لانهدمت اسواره ، ويدعوها الى أن تستيقظ من سهوها وتيهها وتنظر فى حال من سبقوها لتعرف انها منتهية مثلهم :

كان كنت اقصر اتعلى او حاز تضخام   لو اعلات الحيطان اسوارها ايريبو(1)
كان اسهيتى اتيقظى من حال اسهوك   ويلا تهتى التيه اتعريـك ايامـــو
نظرى بملامح لبصار اللى سبقـــوك   اكما فرغوا يفرغ سوقك وازحامـو

ويختم تأنيبه بمصارحتها بانها ان رفعت قدرها صغر ، وان الادب يدل على النسب الطيب ، وبان شمسها مهما اشرقت فان الليل لا محالة حاجبها ، وبان عمرها مهما طال لا بد وان شيب الكبر يصيبها ، وبانها مهما حكمت واستبدت فى الحكم فان ساعة الظلم لا تدوم وصاحب الظلم فان:

ايلا اترفعى قـدرك يصغـــار   لاداب ايدل اعلى اكمال طيب النسما
. . .
لواشرقت ولاحت فالجوشمسك اعلام   لاغنى الليل اينادى خلفها احجيبو
لو اتعيشى ما عاشو فالزمان لهرام   لا غنى من لكبر ياتيك جند شيبو
ولو احكمت واتحكمت يفرغ لحكام   ساعت الظلم اتفوت وناسها ايغيبو

وهو لا يحاول ان يعتذر عن هذا العتاب وانما يلح عليه تانيبا لها لو عقلته ، ويطلب منها أن تتخلى عن الصد والجفاء وتنظر اليه وان تصون عرضها وتكتم عيبها وان تفى بالقول الصادق . ولا يترك خطابها الا ليؤكد لها عتابه وانه سيعود اليه :

حدثتك لحـــديث للعاقل تنبيـــه   تركـى صد الجفـــا اوصولى فوصالى
عرضك صونيه وعيبك الناقص كتميه   ما احلى من فا بالصدق والقول الوافى
حافيتك ابلحفا او ما زال انحافى (2)

---

1) ايريب مضارع راب اى انهدم   2) الحفا : العتاب وفعله حافى .

وقد يلجأ المحب في محاولاته الى ارسال مبعوث يخبر المحبوبة بحاله وياتيه بها ، وقد اطلق الشعراء اسم «المرسول» على القصائد التى تحكى ذلك. ومن اروعها مرسول الحاج احمد الغرابلى الذى بعثه من مراكش الى فاس بعد ان أخذ منه العهد انه سيحضر له محبوبته ، ولكنه عاد بمفرده ولم يحقق الغاية من سفره ، فاسقط في يد المحب وتاه عن عقله وانهمرت دموعه ، وسأل المرسول اول ما ساله عن المحبوبة التى وعد باحضارها ضدا في العواذل ومقابل مكافأة سخية ، تلك المحبوبة التى اشتاق الى خيالها وفارق من أجلها احبابه ووطنه ومنزله وعشيرته :

ليه ارسلت ارسول اعلى اوعس يبلغ قصدى امناه وايتوك اهلالو

وايسلنى بعد لفراك كيف اتسليت ازمان

قاولنى مرسولى ايحضرو وامسكت العهد لوثيق واحصرت امقالو

من البهجا لمدنت لحضر صفتو (1) عجلان

امشى وارجع بعد حين وانويت جابو كيف قال وفا فقوالو

وانصيب ولى افريد واعلاش امشى ما بان

مهما سلمت اعليه طاش عقلى واخرجت عل لحوال وادموعى سالوا

اول فكلامى قلت له واين دابل لعيان

. . .

ياك امرسولى قلت ما تولى حتى ياتى امعاك ضد افعدالو

ونا نسخى ببشمارتى (2) انهار اتجى بالمزيان

امرسولى واين لحبيب وين (3) الذى اشتكت اخيالو

وافرقت احبابى ولوطان ورسمى والعشران

وما زال يلح على المرسول ان يخبره بحال المحبوبة وسيرتها وهل هى سالية او مثله مهمومة شاكية ، باكية منكدة ، حتى أنبأه — بعد ان مهد نه بان

---

1) صافت وصيفت : ارسل .

2) البشارة فى الفصحى التبشير ، وهى هنا المكافأة التى تمنح للمبشر .

3) واين بمعنى اين ومثلها وين .

لا غنى عن الصبر لكى يهون الصعب ـ ان اعداءه حاموا حول محبوبته وانهم لا شك حرزوها ومنعوها عنه ، ولكنها تشكو افتقاده ناحبة حزينة بالليل والنهار ، فقد استطاع المرسول أن يصل الى دارها ويبلغها كتاب حبيبها الذى عظم فى عينها ، فقبلته وقراته بكثير من التحقيق ودمعها يسيل. فكان جوابها أنه من المستحيل أن تنساه ما دام لم ينسها وانها تشفق عليه من المحن التى لا قبل له بها وان القدر هو الذى فرق بينهما وان لكل قدر كتابا واجلا وان ايام الهجر لا محالة منقلبة الى سلو وسرور ، وهى تريد منه ان يمهلها حتى تصادف غفلة الحسود او تضلله فتلحق به ليغنما ساعة زهو يرتشفان فيها الكؤوس ، وتؤكد له ان ذاتهـــا وبهـاء حسنها وصورتهـــا وجمالها وروحها وكل جوارحها ملك له وانها ان تخلت عنه تكن خائنة :

امرسولى لله فدنى واخبرنى عن سيرتو اوحالو واحوالو

سالى ولا كيفى اهميم شاكـــى باكـــى نكدان

قال المرسول اعاشـــق الـــزين اصبر لا غنى والصعب يهـــوان

محبوبك دارت بـــه اليديـــن لا ريب حرزوه اعليك العديـــــان

لكن من فقـدك ناحب احزين نواح فالضيا وعكـــاب (I) الديجان

محبوبك اوصلت المنزلو بكتابك وارفع ملتقاه ابتقبالو

واقراه اوحق اشواهدو اودمـــــع انجالو هتـــان

قال احبيبى محال ينترك من بالى ونا ما اتركنى من بالو

حاشا حتى نرضى انمجنو مـــا يستهل لمحـــان

غير الوعد افرقنا وهكذا قدر مولانا او كل وعد بمجالو

وايام الهجر لا غـــنى اتعود اسرور وسلـــوان

قلو ايمهل عنى حتى انصيب نغفل لحسود او منى ينضالو

وانجيو انغنم ساعت الزهـــو برشيف الكيسان

ذاتي وابها حسنى اوصورتى واجمالى والروح ولعضا مكسوب لو

الى دزت مـــا دمت افلحيـــا يحسبنى خوان

ولكن المحب يرد على المرسول بانه يخاف ان تطول مدة الهجر التى

I) عكاب : اى عقب .

تعد ساعتها فی حسابه یوما والیوم زمانا :

جاوبت ارسولی قلت له خفت ایام الهجر اعلی اخبیری یطوالو

عنی ساع فی عوض یوم والیـــوم فی عوض ازمان

كذلك قد يلجأ المحب الى القضاء عساه ينصفـــه من جور المحبوبة ،

وقد اطلق الشعراء على هذا اللون من القصائد اسم «القاضی» :

وقد ذهب امتیرد الى القاضی لیفصل بینه وبین حبیبته بعد أن غابت عنه وهجرته وتنكرت له ، وهو من حبها مروع مسحور ، ویرجوه ان ینظر فی حاله ویطرد عنه الاكدار :

وهو یاودی جیتك یالقاضی تفرقنا ابلفصال

الى الحق فیا قبضو منی ⊛ مـــال ولفی تـــاهت عنی

القاضی یحســن عـــونی ⊛ ما افظنی ولفی اتغیب عنـــی

من حبهـــا ادهـــانـــی ⊛ سحـــر ادهـــانـــی

. . .

اهجرتنی میلافی اخلیلتی صالت عل لبدور نكرتنی یاحسرا

شوف من حالی یالفیقه طرد اغیاری

ویتوجه القاضی الى المحبوبة یطلب منها أن تجیب فترد بان المدعی لا یسعی لغیر العار ، وانها لم تكترث لامره لانه قابلها عند باب دارها یوم كانت خارجة للزیارة ، ونظر الیها وطلب منها أن تصاحبه فی فسحـــة فرفضت ، وهو الیوم بدون حیاء یقاضیها بعد أن زور فی الشهادة ، وهی تؤكد أنه مجنون وأنه لم ینظر بعینه الى جمالها ولم یظفر منزله بها ولا اشتعل شمعه من اجلها ، وما تظنه الا یقصد المزاح :

قالت اسیدی هذا جا ایحارب العاری * ونا یالقاضی ما جبت اخبـــــار

عیر اجبرنی فی باب دارنا یوم اخرجت انزور (I) * وارمقنی بالنظـــر!

قال یادیك الهیفا ارواح تتساری * ونـــا ما ابغیت انتبعـــو نلـــدار

وادعانی یالفقی ابلا احیا دار اشهود الزور .* اشنهـــو دا الحكـــرا (2)

. . .

I) المقصود بالزیارة زیارة المقابر واضرحة الاولیاء والصالحین .

2) الحكرة : الاحتقار .

وهو ياسيدى قالت يالقاضى هذا به لهبال * عمرو ما نظر زينى بالماحو

اولا ظفر بى مركاحو (2) * اولا شعل عنى مصباحو

الحب لاحو مهما اضوا امراحو *

عنوا ابغى امزاحى * ما هـــو ساحى

وغضب القاضى لهذا الرد ، ورمى المدعى بالغدر كأنه يريد ايذاءه ، وطلب منه أن يفارقها وان يترك الفجور والا يفوه باى كلام :

دار لفقيه ابغيظ رايد اشرارى

وانطق قال لى ياذاك الغدار

فارق عنك مكمولت لبها لا تدعى بفجور

ما نقبـــل لك هدرا

وحاول أن يعرب عن حقيقة حبه فطلب منه القاضى أن يحضر الشهود، ولكنه رد بألا شهود له غير الخليلة وطائر الحسانى وكؤوس المسطار وبعض انواع الخمر ، ولكن له ما يثبت به دعواه وهو الوشم الذى رسمته بـــين نهديها ، ويمثل طيورا احرارا وليثا ولبؤة ، وقصورا ومنازه ، وطلب من القاضى ان ينظر بعينه حتى يتأكد :

كلت لو ما حضرو حتى اشهود فوكارى

الا اخليلتى وكيوس المسطار (2)

والحسانى والكاس كيظل عكب الديجور

وانواع من الخمر

وهو ياودى واسمع يالقاضى وانظر زين لنزال زكى املامحـــك

فبديع اصدرها

فيه دارت ما يعجبها

اكما ابغت اعلى خاطرها

تاج لبهـــا

سبحان امن اخلقها

---

1) المركاح : المنزل .

2) المسطار كما فى الفصحى نوع من الشراب حامض ولعله لم يقصد به غير الخمر رغم انه ذكرها .

فحروفها انزاها ما ننساها ها ايمرتها

نورها صيغ ياقـــارى

بين النهود نزلت اطيور احرار

واعملت الليث امع البيتو وامنازه واقصور

وانظر زين العفرا

واراد القاضى أن يتاكد من هذه الامارات فرفضت المدعى عليها لافتة نظره الى أن كشف العورة حرام فى المذهب وان ما يقوله لم يرد فـــى الكتب :

قالت اغزالى للقاضى انبين اعوارى

هذا حرام فالمذهب ما يذكار

شين قلت محذوف يافقيه ما جابوه اسطور

واغتاظ القاضى ، ولكن المدعى طلب منه أن يحكم بالمشهور ، ونظر القاضى الى وشمها فتاه عن عقله وغدا خصما للعاشق واعتبره ظالما . ولكن المدعى حاول ان ينبه ضمير القاضى وان يخوفه الله :

قلت لو خاف امن المولى واشف لضرار

انا اعشيق كيف اجرى لى نهجـــار

فعاد للقاضى وعيه وحكم له بان طلب من المحبوبة ان تسامحـــه وتترك هجره .

واذا كان كذلك حكم قاضى امتيرد فان قاضى المدغرى حكم له حيث طلب من المدعى عليها ان تعفو وتصفح ، وخوفها الشعور بنفس الاحساس اذا ما حضرت مجلس الحسان ، وكانه اراد ان يحرك غيرتها ، وكذلـــك فعل اذ امر خدامه ان يقودوهما للدار :

قال لفقيه سامح يادلبها الواضح

خوفي اتذوق ما ذاق الى شفت اريام تتمايح فمكانى

قال لفقيه فالحين الخدامو اقوام

زيدو ابدوك قدامى للمركاح

ليه سرنا من غير اشحاح

والدمع عن خدى سياح

بالــــرجاح

ونا انجى ابلفصوح

سرنا اجميع دون اوقيح

لبساط، شارق افتوضيح

شل انصيف بالتصحيح

سخنا اعلى ابطاحو

واريام فيه صاحوا

بنغام رايقا تشرح من قلبو اظلام وافجا هول احزانى

شاف الشرود (I) عند القاضى حر الخيام

وادهاه فى ادهانو كيف ادهانى

اتوازن اهوانو واهوانى

اوفاق هجرو هجرانى

اوقال هــــانى

نكويت ليس هانى

واللى اكواوا بالنيران

واعذاب ليعت التيهان

ما ضرهم شين كان

امنــين شفتو رانى

اعطفت عل العانى

عاد لخصام صلح ابطلعت بدر التمام واختمت العنوانى

أما قاضى مولاى على البغدادى فبكى من شدة التأثر لحال المحب حتى أغمى عليه :

لفقى ابكى بدموع لنيام

من حر لهو الهيام

حتى اغشى اعليه الجال وغاب لعشيق عن قصد امرامو

I) الشرود : الغزال .

ولاحد اشياخ مراكش ـ لم نهتد الى اسمه ـ قصيدة فى خصام بين شابة وزوجها العجوز رفع أمرهما الى القاضى فمالت نفسه للزوجة وحكم بطلاقها ، ولكن الزوج استنجد بالامير فرد له زوجته ، وهى القصيدة التى يقول فى حربتها :

اشهدت اليوم اعجوبا

شايب ظل امع شابا فمعاير واخصام

كان اتسالو ياحاضرين

واذا ما فشلت هذه المحاولات فان **المحب يلجأ الى الحيل** يسعى بها للوصول .

ومن الحيل ان يقصد الفقهاء والمنجمين ويتخذ الحروز والتمائم والتعاويذ على حد ما فعل الشيخ الجيلالى حين عجز عن الوصول الى طامو ، فانه لجأ الى طالب من اولئك الذين يسطرون الجداول حاذق للفلسفة والحكمة وعلم التنجيم ، فاخبره بعد أن تعمق فى سر بحور علمه ان حظه من حظ محبوبته ، وان نجمه ظهر فى برج من ابراج النصر تلوح اضواؤه :

ناديت قلت فاجى كربى يامن ايرى او يعلم

بلى اهويت ساعدنى بانوارو

شوف مالو واش اغيارو

كان يعطى حد اخبارو

القيت طالب خطاط افلافسى انعرفو مدوب احكيم

شرح معنى فى كل فن قارى علم التنجيم

غرق سرو فبحور سر وعلان

وانطق قال لى محبوبك سعدك امن اسعادو

نجمك تاك فقوامو

فى برج امن ابراج النصر يرمى اضياه سيار

وكشف له الفقيه عن سر هجر محبوبته وانها تخشى من الرقيب لكنها قادمة بعد الصدود ، واعطاه حرزا طلب منه أن يعلقه ويحجبه ويصونه ، وسوف لا يلبث اثره ان يظهر بمجيء الحبيبة ، مؤكدا ان للاسماء

سرا عظيما :

لفقيه قال لى محبوبك بعد الصدود يقدم
هو احبيب وانت له احبيبو
لكن ايخاف امن ارقيبو
ها حرز التجليبو
علقو تنظر لو برهان
الاسما لها سر اعظيم
حجبو واحضيه اعلى الدوام
تنج من كل ارجيم

وسرعان ما ظهرت نتيجة الحرز فجاءت الحبيبة تطرق الباب وتـــم الـــوصال .

كذلك لجأ ابن على المسفيوى الى مثل هذا الفقيه حـــين غاب عنـــه الطرشون وظل يبحث عنه دون جدوى فى كـــل احياء مراكش ، ولكنـــه لم يلبث ان سمع هاتفا يناديه ان اذهب الى باب دكالة عند الفسقية فستقضى حاجتك . واسرع الى المكان فى غاية الشوق والظمأ وشرب من ماء الفسقية وزار ضريح الولى سيدى لحسن ونام فى مقامه ، لكنه لم يحس الا ورجـــل يوقظه يبدو عليه من الاعيان ، فقيه نجيب شيخ منجم ماهر داهيـــة ، فاخذه المحب الى بيته حيث استحضر النجوم واستفسره عن حاله . ولم يلبث أن ظهر سره عجيبا اذ سطر جدولا بالهندية وعزم عليه بالسريانية ، وما أن انتهى منه حتى حضر الخديم (I) فاوصاه ، وغاب ليعود فى الحـــين وخلفه الطرشون ، فما كان من المحب الا ان دفع المقابل بان اقام حفلـــة فى غسق الليل دارت فيها الكؤوس وعزفت الموسيقى :

اسمعت السان حالى جاوبني يا ينسانى * بعد ما ندانى
الحاجاشور باب دكال فالسقايا
سرت ابشوقى الشورها او قلبى ظمآنى * القـوس الفوقانى
اشربت والقيت حاجتى مقضيا فالغايـــا
زرت الولى الشاهر السر افكل اوانى * اشفـــا ضر احزانى
سيدى لحسن هبتى والى من لـــولايا

I) المقصود به الخديم الجنى .

فمقامو نمت ما فقهت اصاح من جانبي * يقظني نـــوم اجفانى

اجلسمت واقريت ما كتب امن الحب اقرايا

سلم اعليا ارجول مارات قط اعيانى * ظاهر مـــن العيانى

شير (I) عنى أو قال زيد اللهنيا

افقيه انجيب شيخ ناجم ماهر دهقانى * ضـــايفت فمكـــانى

حضر لنجوم تم والقلب امعاه ادوايا

اشكيت اعليه قصتى بعد ماسقمانى * ورانـــى كتمـــانى

واظهر سرو اعجيب وانعم لى بفدايا

اكتب جدول عمرو بالهند ملآنى * عـــزم بالســـــريـــانى

حتى جاه لخديم وصاه ابكل اوصايا

غاب ولى اسريع فالحين ابلا جنحانى * فخـــلافو سلطانى

طرشونى عز مرسمي تربيت لـــودايا

واعلى وجب لبشارا حضرت اوانى * فاغسيـــق الديجانى

فبساط ارفيع امحتفل والسطعا والمايا

ونجد العلمى حين طالت غيبة محبوبه يقصـــد الى ضرب الفـــال وقراءة (2) الخط ليبشر بانه سيلقاه بعد سبعة ايام :

بعد ان طرحت اشكالو

واضربت سورت الفال

الخط قال لبشارا ليك اقريب

محبوبك تلقاه بعد سبع ايام اترجاه

ومن الحيل ان يتنكر المحب فى صفة شخص يطلب الضيافة على حد ما فعل امتيرد فى « ضيف الله » حيث طرق باب دار المحبوبة فى الليل فنهضت من نومها وفتحت له ورحبت به واكرمته على أنـــه ضيف الله ، ولكنها لم تلبث ان كشفت امره فعاتبته ـ مداعبة ـ انه كذب وانه ايقظها من نومها دون اشفاق ، وطلبت منه أن يسألها لتبادله السؤال مستغربة من امكانه التخفى عن عيون الاعداء والعواذل الذين وقفوا له بالمرصاد ، ودعته

I) شير : اشار .   2) يبدو انه فعل ذلك بنفسه .

الى الصفراء وخمر الثغر بعد ن اكد لها انه لا وقت للنوم فى هذه الليلة الهادئة الصافية التى تعادل ليالى بما فيها من متعة ونعيم :

انت هو الضيف ما شفك حالى لكذوب افـديـنـا احـرام
قالت لى سالنى انفيدك بسؤالى من بعـد ستـويت لمنـام
واخفيت اهلى اعيون لعدا وانكالى لحضـرتك شـدو احـزام
هات الصفرا وزيد غدر فمصالى قلت لها ما بقى امنـام
ليلا فى ليلها المنعوم اليـالى لا ريـح ايهب لا اغيـام

اما احمد بن الحاج فبعد ان قضى ضيفا على محبوبته عشية مكتملة المتعة ليس لها مثيل نادته للوداع وتجهيز ركابه حتى لا يشعر اهلهـا بشيء ، فقد آن وقت الرواح ، والمسافر عابر لا امـل له فـى المقام . وافترقا فى عبرات منسكبة وجذوات مضرومة بعد ان اكدت له انها لـن تنساه مهما طالت الايام :

واغنمنا فرجت لعشيـا ❁ مكدول ما لها امثيـل
نادت الباهيا اعليـا ❁ قالت لوداع يا خليـل
خفت اهلى لا اتفيق بيا ❁ هات المركوب للرحيـل
هذا وقت الرواح * لمسافر رايح * ما ارجى امكام
حافوا عبراتنا اسجام
قلت تبقى ابخير جذوت ضرمت افقلبنا اضريم
قالت حاشا اندوزك اقطع واجزم لو طالت ليام

ومن الحيل ان يتنكر المحب فى صفات مختلفة يحاول فى كل منها ان يكسب ثقة الحراز ، وهو الشخص الذى يحرز محبوبته اى يحصنها ويحول بينها وبين الآخرين ، ويكون فى الغالب زوجها ، ولكنه يرده ويطرده فى كل مرة الى أن يتمكن من خدعه فيدخل بيته ويتصل بمحبوبته فى غفلة منه .

فالشاوى جاءه متنكرا فى هيئة عالم فقيه مؤدب من أحبـار الطلبة ، عارف بعلم النحو لا ينطق بغير لغة معربة فصيحة ، فى يـده صحيـح البخارى ، وخطب عليه متفننا فى خطبته بعد أن سلم عليـه ، واخبـره أنه قصد حماه ليكرمه ويحسن ضيافته ، وان لاهل العلم اسرارا مرهبة ، وكل من اكرم عالما فكأنما اكرم النبى . وظل يحدثه بهذا الاسلوب حتى

ظن انه سلب لبه ، ولكنه فوجىء به ينظر اليه بعيون مقلوبة وينبهه الى ان مكان الفقيه هو بيت الله حيث يجدر به ان يقيم محرابا ويفيد النـــاس وينفعهم بعلمه لتكون له مرتبة ومكانة . اما بيته فليس له فى دخوله اية مصلحة ، وطلب منه أن يبتعد دون ما حاجة الى اللجاج والعتاب :

جيتو طالب بفعال مدوبا

حبر امن احبار الطلبا دهرى افقيه قارى علم اليعراب

نافظ بالعلم بالفاظ معـروبا

فيدى اكتاب لمام البخارى اوحالتى تعجب من لداب

اخطبت بفنـونى المنسـوبا

بعد السلام قلت اسيدى لحماك جيت قاصد زايك رغاب

ليك الروح امع الذات مكسوبا

فمقامك السعيد اكرمني واحسن اضيافتى بلطافا وصواب

لصحـاب العلم اسرار مرهـوبا

واجميع امن اكرم عالم اكرم النبى اكم فحديث المجتاب

ودويت معاه شحـال من نوبا

حتي اطمعت فيه وقلت اسلبتو ابغايت اللطافا والتلباب

وانظر فيـا بعيون مقلـوبا

لفقيه قال لى ايحق يمشى البيت ربى يعمـل محراب

وايفيد الناس ابكـل موجوبا (I)

ينفع الناس ابعلمـو وابنفعو وايدر لو مرتـاب

فتشت فالمحـال واصعـوبا

دارى ادخولها ما لك فيه اصلاح سر بعد وانف لعتـاب

وجاءه فى صفة تاجر يحمل معه صناديق الذهب والفضة والاقمشة يريد ان يصاحبه ويودع عنده سلعته ولكنه رفض صحبته واشار عليه بدور السلعة حيث يمكنه ان يحفظ بضاعته . وجاءه فى صفة عبد سودانى يعرض نفسه للخدمة ولكنه طرده لكرهه السواد ولان اهله اوصوه بعدم اتخاذ

I) ابكل موجوبا : اى بكل الواجبات الدينية التـى يجب على الناس معرفتها .

الوصفاء . وجاءه فى صفة فارس معه شباك للصيد وخلفه عبدان ، واهداه غزالا وطلب ضيافته ثلاثة ايام ، فهدده وطرده ورفض قبول هديته لان عنده فى اغراسه غزلانا احسن منه . وجاءه فى صفة باشا ترافقه الفرسان ونصب قبته واعلامه وأوهمه أنه يحمل كتابا من السلطان ، ولكنه رده بحجة انه ليس بوزير او قائد أو أحد المسؤولين حتي ينزل عنده الباشا ، واخيرا جاءه فى صفة هيفاء بعيون واهداب جميلة سوداء وخدود وردية وجمال يصد التائب عن توبته ، وصافحته بايد مخضبة بالحناء منقوشة فذهـل لهذا الخضاب والنقش وغربت شمسه ، وسالها اهو رقم على اليد ام كتاب ، فاجابته بانها تستطيع ان تخطط روضا عجيبا ابهى واجمل ، وله ان يسأل العجائـز والشابات حتى يتأكد ، فمسك بها والح عليها فى أن تنقش يدى حجوبة ، وأدخلها الى الدار فى غاية الفرح وهو لا يدرى من ادخل ، وخـرج مسرعا لاحضار لوازم الحناء . وعرفت حجوبة سر حبيبها الذى جاء فى صفة هيفاء نقاشة ، فخلع زى التنكر بعد ان خدع الحراز ، وهدم كل بنائه ، ونعم بقرب حبيبته واخذها عنده وباتا فى غاية الزهو والسرور يتساقيان الكؤوس على ضوء الشموع ونغمات الاوتار :

جيت هيفا بشفار مهدوبـــا

واعيون غاسقا واخدود اورد اوزين يكسر توبت من تاب

صافحت بيديـــا المخضوبـــا

بشمايل لبها وانقش الحنا امنين راه نبهض وارطاب

شمس العكلى ولات مغـــروبا

وادوا اوقالى ياهيفا هادو اتراكـم ايديك او الكتاب

قلت انديـر اريضات معجـــوبا

ابها اوسر ما شافت عينك سر اسأل اعكايز واشواب

شبر فيـا بيدو المغصوبـــا

انت بغيتك اتورنى فيدين لال شى صنعات اعجـاب

واتشوفى بـدر الزين حجـوبا

للدار ابلعزم دخلنى فرحان ما عرف ياويحو ما جـاب

واخرج يجرى باخلاك مـرهوبا

وايجيب لى اشروط الحنا وما ايخص وايوالم بامستحباب

عرفتنى لــوجيبا المحبــوبا

فالحين طارت التنكيبا (1) افرغ لمقام والكل جالو لكتاب

واسلات اعضــاى المرغــوبا

واديت عارمى وارشحت (2) ابحرزها او كل ما شيدراب

بتنا فالزهو واسرور اطيــوبا

نتودو اكيوس الخمر فبساط حارساه اصوارم واجعاب

لا واشى لا حســاد مـركـوبا

غير لغزال والصفرا والكيسان والوتر والشمع اللهاب

ومثل هذا نجده عند ابن على الذى تنكر للحراز فى صفة عذراء وعـالم وبدوية وعبد وبطل وتاجر ، ولم يوفق الا فى هيئة حكيم .

وربما كان حراز البغدادى اشهر ما ينشد فى هذا الباب حيث قصده المحب فى صفة باشا ومجذوب وعبد ولم يوفق الا فى صفة الفقيه ، وهـــو الحراز الذى يقول فى حربته :

مال حراز الدامى ما ايثق بيا هيهات ＊ حارس فى كل اوقات

اعلى الدوام ايجنب ولا ايرومنى قطعيا

وهكذا وبمختلف الوسائل والمحاولات ، **يتم الوصال** بعد طول عنـاء ومرارة صبر ، فالطيب الواسترى جاد عليه الدهر وارخى له الزمان عنانه فكمل سلوه وزهت ايامه يوم زاره محبوبه جوداً وانعاما دون سابق اعلام ، قاطعا اوصال التيه والجفاء ومنكلا بالرقباء :

الزمت الصبر ما كفى واخفيت ما فكنانى

حتى جاد الدهر بالزهو وكمال السلوان

والوقت ارخى لى اعنانو

وايــامى ولات ناشطا

بوجود اللى اهويت يوما وصلت لمكانى

من غير انويا قصر فالجفـا والتيهان

---

1) التنكيبة : النقاب والحجاب . 2) رشح به : خدعه .

جاد اعلى بحسانـــو

وانعم لى مـــن بعد ما اوطا

محبوب القلب يامس زارنى ياعشرانى

وانعم لى ابلوصال وانكا جمع الرقبان

صايل عن جمع اكرانو

ابديع الوجنا لمنقطا

وكذلك تزور حبيبة محمد الشاهد السلاوى فينعم بالوصال ، ولكنـه لا يقنع بمجرد اللقاء ومشاهدة الحبيبة ويريد ان يستمتع بحبه كاملا ، اذ عنده ان النظرة وحدها لا تطفىء لهيب القلب ، وان من العبث اطالتها ، وان كل من شاهد الجمال يضطرب لا محالة :

معلوم الشوف ما اطفى نار الجوف * غير باطل قوى تشوافو

والى شاف لمليح عمرو ما يتفافا

والعلمى يتم له الوصال فيحمد الله ويشكره ان عافـاه من سقمه ، فقد زال غمه وظهر نجمه بين الابراج كالهلال ، ونال المقصود ودان لـــه وقت السرور فزهت ايامه وازهرت اغصانه بعد يبس وذبول ، وظهـر بدره ساطعا مضيئا ، فلم يبق له الا ان يستمتع بالاعتناق والارتشاف :

لله الحمد والشكـــر زال اغتامى *

واطلع بين ابروج ناير نجمى كن اهلال

عافانى ربى أبريت امن اضرار اسقامى *

والمقصود الى اطلبتو وفانى به الحـال

واعطف لى وقت السرور وازهات ايامى *

والقح غصنى بعدما الوى وايبس واذبال

واتيقظ بدرى اوتاق مسراج اهمامى *

ما باقى غير لمعانقا وارشيف الكيسان

وعند ابن على المسفيوى أن الوصال متى تم فانه سيلهج دون انقطاع ، وتحلو كاسه ، ويلذ شرابه ، ويطرب قلبه ، وتتحسن علاقاته مع أهلـــه وأحبابه ، ويخصب روضه ويزهر ، وتنمو أغصانه وتزهر ، ويغنى طائره ،

وينشد أنغاما حلوة شبيهة فى التعبير بخطاب المحب ، ويظهر بدره مخترقا حجبه ليضيء السهول والروابى ، ويحلو الزمان ، ويستريح البال ، ويهنأ المحب فى مكانه :

بـــك نلهـــج ضمى اغيهوب المحبوب بك يحلا كاسى وايلذ لى شرابى

بـــك قلبى زاهى مطـــروب يالمحبوب بك زهرت ناسى واهلى امع احبابى

بك روضى لاقـــح مخصوب المحبوب بك طهج اغصانو بالفيض ولخصابى

بك غنى طيـــرى فشهـــوب المحبوب بك ينشد ميات ايشابهو اخطابى

بك بدرى تالك امن احجوب بالمحبوب بك ضوى فوق الوطيان والروابى

بك ازيان الزمان ياراحت لكنان المحبوب اللى يهـــواك بك يهنا فمكانـــو

ويقدم مبارك السوسى عرضا للحفلة التى سيقيم انزارته زهرة والتى ستستمر يوما كاملا فى روض مزدهر معطر بشتى ألوان الورود والاشجار ، تعزف فيه الموسيقى وتدور كؤوس الخمر على الحسان :

يوم اتزور العذرا

بالزهو يتباشر قلبى ايلوح تكدارو

وانقيم فى ابساطى ليلا وانهار

بالآل (I) وافناجل نخمر عل لريام اتدور

وانواور مشتهرا

فى ارياض امعطر

والورد فاح بازهارو

والياسمين طهجت ما بين اشجار

. . .

ويستمر فى وصف الروض ، ثم ينتقل الى وصف جمهور المدعوين بل المدعوات بقوله :

جبت اوصاف النوار باقى وصف الجمهور

ثم يأخذ فى استعراض أسمائهن على هذا النحو :

نبدا ابراضيا اوهشوم الخنار وامهنى وافضيل اوفارحا او محلا واطهور

. . .

I) الآلة تطلق فى المغرب على الموسيقى المعروفة بالاندلسية .

ومن لطيف الوصال ما تم لامتيرد مناما في شهر رمضان حيث أفاق بعد الفجر ليجد نفسه مضطرا الى القضاء والكفارة :

انعيد اصيامي ونكلع كفارت لوزر
عنقت اغزالي فالدجا حتى بان الحال

وقريب من هذا يحدث لابن سليمان اذ زاره محبوبه في رمضان فذاق من شهده وجنى من ورده ، فاتهم بالافطار ، ولكنه يستفهم محاولا أن يلتمس لنفسه عذر المريض وأنه لا شيء عليه :

أصاح زارني محبوبي يامس كنت صايم
شهد اقطعت واجنيت الورد قالوا كلت رمضان
مهجور قلت ماذالي
أحبيب الخاطر واش لمريض يفطر

واذا ما تم الوصال فان المحبوبة تخلده بتذكار تقدمه لحبيبها يكون في الغالب حليا ، سوارا او خلخالا ، ولكنه لا يلبث أن يضيع له فيبحث عنه في عناء الى أن يلقاه .

من هذا ما يخبر به امتيرد في «خلخال اعويشة» ، وقد اودعته اياه على اثر الزيارة أمانة أوصته بأن يصونها ويحفظها ليحضرها يوم الوصال. وخبأ الخلخال في جيبه ولكنه ضاع منه ، فاحتار فيما عسى يجيب به صاحبته ان سألت عنه :

مهما ودعت الريم شاق شوقي من تشواقي واهواوا بالدمع انجالي
يوم اتودعت امع لغزال مدت ليا خلخال
هذا أمانا ياعشيق قالت صونو واحضيه وجدو يوم اوصالي
في مكتوبي درتو اعلى الرضا واتوضر وانشال
خلخال اعويشا درت لبها في مكتوبي يا فهيم درتو وامشى لي
كيف المعمول ايلا اتسالني مولات الخلخال

ثم أخذ في تقييم الخلخال وانه ثمين لا يقدر بمال ، وبدأ في البحث عنه في كل مكان فلم يعثر له على أثر ، واضطر اخيرا الى فقيه منجم

استطاع بكتابة الجدول وعن طريق الخديم الجنى أن يحضر الخلخال . اذ ذاك أرسل للمحبوبة فحضرت على التو وأقام لها حفلا مضيئا مطربا بألوان الغناء والاناشيد ، يتساقى فيه مع محبوبته الخمر والرحيق . وفى هذا الجو المنعم الممتع حكى لها قصة الخلخال فأشفقت عليه وضمته اليها وقالت له : ان النظرة فى الحبيب خير من ألف خلخال ، فركع أمامها ليبادلها القول بأن وصلها لا نفديه الاموال ، وانها كنزه وكمال فرحته وربحه وذخيرته وهناءه وغناه وغاية رأسماله :

وارسلت المولاتى اوجات تتهد تهليل لبكار عراض الفالى
بمحاسنها وابها اجمالها تضرب لمثال
واعملت افراجا عزاوصولها ما بين الصفرا والرحيق والضو ايلالى (1)
والغاني ينشد باشعار وارقايق كل اسجال
واحنا نزها برا وخذ (2) واغزالى تدرج فالبساط واتكب المالى
سقطت ولفى دوك النجال مدت ليا قمصال
ارويت او طحت اعلى انهودها واحكيت لها اقصيتى اللولى والتالى
يوم امشى لى خلخالها اوشفقت منى لغزال
حازتنى مولاتى اعلى اصدرها قالت لى ياعشيق حسنى واجمالى
النظرا فالمحبوب خير لى من الف خلخال
بندقت اوقلت اجد يالعذرا ياتاج القاصرات حرت لغوالى
وصلك عندى يادرت لبها ما تفديه اموال
انت كنزى واكمال فرحتى وانت ربح اذخيرتى وغايت رسمالى
أنت لهنا والفرح ولغنا واكمال الرسمال

ويحدثنا الفلوس عن دمليج (3) ازهيرو الذى ضاع منه ولم يعثر عليه ، وبعد أن بحث كثيرا عنه فى أحياء فاس قابل فتاتين أخبرته احداهما أن الدمليج موجود عند هيفاء سمراء عثرت عليه يوم كان يزور السلطان ،

---

1) ايلالى : يتلألا
2) براوخذ أى بهات وخذ .
3) الدمليج بالميم والباء سوار يكون غليظا فى الغالب

فقبل الارض بين يديها ورجاها أن توافيه به ، فودعته بعد أن ضربت له موعدا عشية يوم الجمعة بحديقة «جنان السبيل» عند الصهريج الكبير :

قالت وحدا يا عاشق لبها دمليجك موجود عند هيفا بركيا

قالت لى صبتو انهار كان ايزور السلطان

اوطحت اوبست الارض قلت لها لاقنى به يالريم العذريا

قالت دبا ياتيك ابلوفا واطمئنان

قلت لها ياتاج لبدر وين ايكون الميعاد ابشارا دون اخفيا

قالت يوم الجمعا الجايا تلقانا وكدان (I)

آجنا لجنان السبيل قدام الصهريج لكبير وقت الذهبيا

تم ارجنا (2) ولا اتصبنا نرجاوك يعـــلان (3)

والتقى معهما فى الميعاد المحدد ولكن سوداء العينين شرطت عليه اذا اراد الدمليج أن يذهب معهما لرشف الكؤوس ، فأخذ يلتمس منها العذر لانه لا يقدر على خيانة محبوبته بعد عشرة طويلة ، ويرجوها أن تراقب فيه وجه الله . فلم تلبث أن أخرجت الدمليج ، فدعا لها ان يجزيها الله بكل خير ، وردت على شكره بأنه لا جميل وأن مثله لا يهان . فودعهما فرحـا ناسيا كل ما فات :

قالت لى سود النجال دمليجك عندى دون ريب ولا شكيا

لكـــن ايلا تمشى العندنـــا تسطاب الكيســـان

قلت لها ياعز لبنات مالى قدرا حتى انخون بعد الولفيـا

راقبى فيا وجه لكريـــــم نعم الحى المنان

جبدت لى دمليجى اوقلت لها ايجازيك ابكل خير خالق لبريا

قالت فالحين ابلا اجميل ماشى مثلك يهـــان

تم ودعت الباهيات وافرح قلبى وانسيت كل ما فات اعليا

والقانى بالدمليج رب لورا خالــق لكـوان

I) وكدان اى بكل تأكيد

2) ارجنا اى انتظرنا .

3) يعلان اى علنا .

وللحاج محمد العوفير « خاتم » يقول في حربته :

خاتم ولفي تاج لبها اتوضر وامشى لى
كيف المعمول ايلا اتسال عنو درت لجمال
زينت لاســـم ليلى

وفي القسم الذي يعثر فيه على الخاتم تكشف له المحبوبة ان بالخاتم نفسه أسرارا تجعله مرصودا عليها مهما ضيعه المحب فهو يرجع اليهـــا تلقـــائيا :

قلت لها يا سلطانت لعوالم شملالى
صيغى بعدا لقصيتى اتحير جمع العقال
اغريبا وطويلا
وابديت انعيد البودلال عن شين اجرى لى
يـــوم خاتمها ضاع لى
وصرت افقـــدو معـــلال
واعضـــاى افتنخيـــلا
ثم ضحكت الباهيا اضيا نور اهلالى
وادوات وقالت ريع امن اهوالك واغنم لوصال
وازهـــا دون ادبـــيلا
الخاتم عندى يا عشيق فخزاين مالى
واسپابو يا محبوب خاطرى يا عاشق لجمال
فيه اسرار اجزيـــــلا
مرصود اعلى اسمى ابأسم الحى العالى
وين ما خليتو ايجى العندى من غير ابدال
بالحكمـــا لوصيـــلا
وامنين اعرفتك يا علاج قلبى وادخـــالى
من حبى ومن افراق خاتمى تبقى فى تدهال
لـــك ابعثت ارسيـــلا

ثالثـــا : الحـب

لعلنا من خلال هذا الاستعراض لوصف جمال الفاتنات وحال المحبين نستطيع أن نستخرج **الصورة التى رسمت للحب** فى ذهن الشاعر الشعبى:

فامتيرد يراه سيفا يقطع قبل الطعن ، ويرى فساده أكثر من صلاحه لا ينفع ولا يحمل غير الشقاء والتعب :

هذا حال الحب ولهوا ياطامع بنجاحو *

سيفـــو قبل الطعـــن ينقطـــع

وافسادو بنهايت لفعل اكثر من تصلاحو *

اشقـــاه اتعبـــو ابلا انفـــع

وهو يتخيل الحب أميرا طاغيا جائرا حاقدا مروعا يقود جنوده لقتاله ، وقد لمعت أسلحته وخفقت أعلامه ، وعامت خيله على خيول المحب وقهرته يوم المقاتلة بالسيوف والرماح والسكاكين والاشواك :

مير الحب اطغا اوجار عنى جاب اجنود اعلى اقتالى حاكد لكلاك

لطرارد واعلـــوم شاكـــا

عامت خيلو اعلى اخيولى لكلاكا

بالضركـــا (I)

والسيف ولقنا والرمح أسكين كل ممتل جانى دكاك

قهـــرونى يوم لمدكا

ويتخيله كذلك بحرا لا نهاية لحدوده ، ما مخرت عبابه سفينة الا شتت ألواحها ، لا تنفعها فى مواجهته الاعمدة والقلاع :

لهوا بحرو مايلو انهايا توصاف اكلاحو * حتى عاشق بـــه ماطمـــع

أمامن قرصان سار فوقو تشتات الواحو * مانفعو صارى اولا اقلـــع

وللحب عند ابن سليمان سلطان على رأس عسكر كبير يضم جيوش كل القبائل جاءت مستعدة لخوض معارك من أجـــل الموت أو الحيـــاة متعطشة للقتل :

I) الضركة نوع من النبات الصلب له اشواك حادة .

من كل اكبيل جاتنى اليوم محلا (1) *

جابهـــا سلطـــان الغيـــوان

ينويو الموت امع لحيا افكل امقاتلا *

كيـــف شور المـــا للعطشـــان

وهو كذلك عند مولاى على البغدادى فى « خدوج » سلطان طاغيـة يروع مزاج المحب ، وقد استقر فى قلبه بخيوله المتحفزة المدربة :

سلطان الحب اطغى اوروع امزاجى *

رســـى افميـــر لمهـــاج

خيلـــو تظـــل حدراجا *

ديمـــا امحربا عنى غير اتروج

ومثل هذا نجده عند عبد السلام الجربى فى «قمـــر الدارة» حيث هجم عليه الحب بجيش جرار قاصـــد لصراعـــه دون ما عطف أو اشـــفـــاق عليه من محنه ونحوله وفناء جسمه :

صداك بعسكـــر جـــرار * للطـــام اتـــانـــى

ما يحس بمحـــانى * ونا انحيـــل وافانى

وهو يرى الحب راكبا فرسا ملاليا جاء يقصد قتاله وقد استعدت خيوله وفرسانه ، كل متقلد سيفه ، وخلف هذه الخيول فرق أخـــرى لا يستطيع أحد أن يواجهها . ومع هذه وتلك جيوش الهوى الذى بدا شجاعا كميا شبيها بعنترة او ابى زيد ومعه خيول شقراء قوية :

والحب اعلى جار راكب الملالى (2)

عنوا ابغـــا لقتـــالى

وامر لخيـــول اتشالى

كلها متقلد سيفو عل لوفا

وامحال اخـــرى امرادفا

صاكـــت مـــراهم

---

1) المحلة الجيش

2) لعله نسبة الى بنى ملال .

ما يطيق قادر يلقــاهم
ولهوى بجيوشو امعهــــم
اكمــــى عذبــى
بركاب له ذهبـــى
يشبه عنترا ولا بوزيد لهمام
له اخيــول اقويا
اوكلهم اشقــــارا

وحاولوا من معاناة تجربة الحب أن يستخرجوا حكمة او ما يشبـه الحكمة . وكان العلمي ــ شاعر الحكمة دون مـنازع ــ أكثـر الشـعراء طرقـــا لهذا الباب ، اذ حاول في هدوء الحكيم المتامل أن يستنتج بعض الافكـــار ويقدم بعض النصائح . وعنده أن عشق الجمال طبع غريزي في كل شخص لبيب لا يفتر عن أوصاف حبيبه يعتبرهـــا المسك الذكـــي في جيبه يتعهــد النفس بطيبه . أما الالفة فريحها غلابة لا داعي فيهـــا للعتاب ، والشارب يعذر في حال غيبوبته ، يسرح به الهوى فاقدا لوعيه لا يميز داءه من دوائه :

عشق لجمال طبع اغريز افمن هو البيب
ديما امعـــاه نعت احبيبـــو
كالمســـك الذكـي في جيبو
متعـاهد النفس ابطيبـو
والولف ريـح غلاب
متـــروك فيه لعتاب
مول الشراب يعذار افحال الغيبا
دايـــع به اهـــواه
ما يميز داه امن ادواه

وهو يرى ان التمسك بالصبر ضروري والتمهل لازم لبلوغ المقصود ونكاية الحسود ، وان من ألح في طلب الرضى لابد أن يدركه ، وان محبا لم ينل مراده دون تعب ، ويرى الا خوف من هيجان الحب ، فالرعد يكون له صوت يرهب القلوب ولكنه في هديره مبشر بغيث يعقبه :

من لازم الرضا او طلبو لا بد ايصيبو
والى ابغا ايغيظ احسودو يتبع ابلمهل مقصودو
حتى ينكمل معدود
ما نال صب امرادو الا ابتعب وجهاد
صوت الرعد يترك لقلوب ارهيبـــا
بعد هدير الغاه اينبشر بالغيث امن اوراه

وهو لا يستغرب من تغير أحوال المزيان يقبل فتتحسن حاله ويدبر فيخسر حظه ، يزور فيشرق المكان من ضيائه ويهجر فلا يبقى لبهائه اثر. ويستشهد بثلاثة امثال شعبية ، يقول الاول ان الجمال لا صديق له ولا معاشر ، ويقول الثانى ان الذى لا يصبر للمحن لا يبلغ السلو ، ويقـول الثالث ان الذى لا يعطى دنانير كثيرة لا يستطيع أن ينعم بالجمال (I) :

تروف حتى يبدا حالى امعـاك يزيان *
اتفر منى يبدا سعدى امعاك خاسـر
اتزور حتى يشرق امن اضياك لمكان *
اتفر حتى ما يبقى امـن ابهاك اثـر
كلما قالوا اصدق افلمثال اهل الزمان *
مايل الزين اصديق ولا ايلو امعاشـر
ما ابلغ سلوان اللى مـا صبر لمحان *
ولا املك مزيان اللى ما ارخى ادنانـر

I) يبدو غريبا أن يستشهد العلمي بهذا المثل ويذهب لهذا الرأى لانه لا أثر لعنصر المال فى العلاقة بين الرجل والمراة كما راينا ، بـل العكس هو الصحيح . وقد صادفنا مثلا فى خلخال امتيرد أن اعويشه تؤكد له أن النظر الى المحبوب خير من الف خلخال ويبادلها الراى فيذهب الى أن وصلها لا يقدر بمال . بل ان العلمى نفسه يقول له المزيان :

«وامتاع الدنيا ليس يغوينى » ، ولعل العلمى عبر عن واقع المراة فى الحياة وميلها الطبيعى للغنى والثراء ، ولعله كذلك يقصد ما تكلفـه حفلات زيارة المحبوبة من نفقات . ومهما يكن فان مثل هــذا الراى يظل غـير واضح .

وفي روح يبدو عليه بعض التشاؤم يذهب العلمى الى أن ورق المحب ساقط ، فهو دائما نحيل عليل ، يصفر لونه يوما عن يوم ، لا يجد راحة لاعضائه ، يهيم فى النهار ويقطع الليل بالسهر والزفرات :

ورقت مول الحب ساقطا ديما ناحل كل يوم تنظر لونو يصفـــار
كنو اعليل ما يوجد راح فى اعضاه
وايظل ايهوم بالنهار وايبات ايقطع لبهيم ابزفرات
وايــــراعى لوقـــات
والسوايع حتى يفجى النهار ضو وايمد اجوانح الليل ويزهـــر
بنجوم فى اسماه
وينامو كاع (I) لبصار
وابصارو ساهرين مسكين ايبات

ولكنه يتراجع قليلا عن هذا التشاؤم ليرى فى « طامو » أنه لا دوام لاى حال ، فكما أن الرخاء لا يدوم ، فكذلك لا تدوم الشدة ، فيوم حلو كالتمر ويوم مر كالحنظل :

معلوم كيف ما دامت رخفا ما اتدوم شدا
هذا امواجب احكام اصروف الدهر
يوم احلا من طعم التمر
ويوم كمثل الحنظل مـــر

ويرى ان طريق العشق والزمان والايام واحد ، فمن سعدت أيامه تهيأ له كل شيء ووجد كل ما يريد ، واذا حسن حظ العاشق وصل سريعا ، واذا ساء نفر بنفس السرعة .

العشق والزمان وليام اطريقهم وحدا
واللى اسكـــامت ايامو ياسعـــدو
كل شى يسخر بين أيدو
كلما يبغيه ايوجدو
ولا يبعـــــاد

I) كـــاع : كل .

اذا اسكام سعدو دغيا (1) اتراه يوصل

والى اعوج لو ميمونو (2) دغيا اتراه يجفل

وعنده في «اللائم» ان بحر الغرام عميق وملآن ، يفيض كل يوم ، وأن بحارة كثيرين ضاعوا فى قعره ، وان ريح الهوى يذهل العقل ويبث داء السهر والغفلة :

بحر لغرام غارق واعميق اومالى

كل انهار ايفيض ويحمل كم من رايس فى تخمونجلا

نوريك طبع لهوى يامن يصغى لى

ريح اهواه ايشوش لعقل وايفيق ضر السهر والغفلا

وكذلك نجد عند المدغرى بعض النظرات التأملية كهاته التى يرى فيها أن أحدا لا يستطيع أن يهزم العشق والهوى وان كل المحبين مغلوبون ، وليس لهم الا أن يرضوا بالهزيمة :

لعشق الهوى مارينا غلابو * والعاشق ديما ينغلب

كيف ايدير اللى ما ارضى بالغلبا

وعند المدغرى فى « للا اصفية » ان قتيل الحب لا دية له :

من مات امن اعيون المولوع ما يليه ديا

ويرى ابن سليمان فى «حجوبة» ان صفات الحب عجيبة وان أحدا لا يقدر على اخفائه :

صفات الحب اعجوبا * يكذب من قال اغرامو يخفيه

ويرى فى « عطوش » ان عاشق الفاتنات مجنون ، يفقد العقل والتدبير ان واجهته جيوش رامية ، وهو لا يستطيع ان يعمر الاوطان :

عاشق لريام اهبيل ريت رسمو ما ياوى

عقلو مثل الكدرى (3) ايلا ايجيه الرامى بجيوش ما تعمر به اوطان

وعنده فى نفس القصيدة أن أساس سور الجمال مغشوش :

اركبت اعلى سور لبها اوصبت الساسو مغشوش

---

1) دغيا : بسرعة .

2) الميمون الحظ .

3) الكدرى : الحمار .

كذلك يرى الحاج ادريس لحنش فى « فضيلة » وهو يحاول ان ينسى قلبه همومه ، انه لا يثق بالبنات ولا يامنهن الا مجنون ، مواثيقهن باطلة ، لا تفى بالعهود منهن الاقليلات ، يعرفن ميل قلب العاشق اليهن دون تغيير او تبديل فيجازينه بالهجر والتيه والجفاء والصدود ، ويكسرن القلوب من الجور ، ويبخلن بخلا لا مثيل له ، واذا ما اختار أحد من يراها منهن عاقلة فانها تسقيه المرارة فورا دون امهال :

وانقول أقلبى انس هنومك مايامن افلبنات غير اللى كان اهبيل
امواثقهم حق باطـلا * من توفى منهم فالعهد اقليلا
وايعرفوا قلب لعشيق يبغيهم ويعرفوا محبتو ما فيها تبدين
وايجزوه ابلمقبــلا * بالهجر والتيه ولجفا والتنخيلا
ويكسرو لقلوب جور منهم ويبخلوا بالدوام بخل الأليه امثيل
من تختار وتقول عاقلا * تسقيك امرار خرقا لا تمهيلا

رابعـا : ملاحظـات

لا نريد أن نختم هذا الفصل دون أن نبدى بعض الملاحاظات المتصلة بالغزل عند شعراء الزجل :

أولى هذه الملاحظات ان بعض الشعراء يتغزلون فـى نفس النص فى أكثر من واحدة ، وخاصة امتيرد والمدغرى والرجراجى ولحنش ، فانهم يبدون متعلقين بمحبوبتين فى آن واحد وفى أكثر من قصيدة .

يقول امتيرد فى هنية وهشومة :

سر احمـــان
كل للريم اهنيا ولغزال هشوما لوصول اتصول
كل اصل يجبـــد لصلــو

ويقول فى تاجة واختها زهرة :

دام الله الحسن ولمحاسن فغزالى تاجا * تاجا هى اوختها زهرا بودواح

ويقول المدغرى عن طامو وهنية :

شهدوا بين ايلا افنيت واضنيت من الوجنا او خالها واخدود الجلار
والشاما والخال والشفر * واسبابى فالريام طامو وهنيا

ويقول فى مينا والبتول :

الله اينصرك يامينا وايدوم عــزك يالغزال البتــول

ويقول الرجراجى فى طامو واختها ازهيرو :

عازم بوصالك يامرحت الطام ✻ ام النــواجـل الطــام

انت اوخيتــك ازهيــرو —

ويقول الحاج ادريس لحنش فى أم الغيث وفاطمة :

كيف اجرى لى ياهل ليوى فى حضرت سلطانت النسا لغزال ام الغيث

اشريف العذرات فاطما ✻ ملوك الزين بينهم ضمت افكاسى

وليست هذه الظاهرة غريبة ما دام الشاعر حتى وهـو يتغزل فى امرأة واحدة لا يقصدها بالذات وانما يقصد المثال والنموذج . فاذا كان هذا هو القصد ، فليس يهم أن تكون الوسيلة اليه واحدة او أكثر .

الثانية : ان غزل الشاعر الشعبى لم يكن دائما بالمراة وانما كـان يتجه فى بعض الاحيان الى المذكر على حد ما نجد عند محمد بن موسى فـى «لغزال» الذى قابله أول مرة بباب الكتاب ، وهو غزل لا يختلف عن الغزل بالمرأة فى شىء من الحديث عن اللوم والحساد والهجر والوصل بل حتى أوصاف الجمال لا نجدها تتغير وان كانت لا تتعدى ملامح الوجه والاوصاف العامة ، بل ان الشاعر يرى ضرورة اخفاء بقية الاوصاف :

من يوم فاش صدفتو فى باب لمسيد (I)

وانظــرت حــاجبو واتمــاد

تمثيل شى اجعاب اهناد

وجبين فايــق الفرقاد

واخدود كن ورد افتح من لغماد

والخال العنبرى والشاما من فوق اخدود

والقد امجرد غنجور باز قرنس وثغر جوهرو انضيد

واشفوف كمثل عسجد

والريق كمصل لشهـاد

I) لمسيد هو الكتاب القرآنى ، ولعلها تحريف للمسجد .

والجيد كن جيد الشاد

حد لوصاف هذا عن قصد امرادى

والباقي واجب نخفيه اعلى جمع لحسود وانزيد انمجد

بل انه يصرح باسمه فيقول :

ياهلي رغبوضي اتمادى * ينعملى ابلوصال يسعد رسمى بوجود لغزالمحمد

ومثل هذا نجده عند المدغرى الذى يقول فى حربة « غزيل » :

دام الله اجمال صورتك ياشادى * انت اعنـــايتـــى وامـــرادى

اغزيل يسلب من جا ايصيدو * زنجار فى عين سيدى محمـــــد

وكذلك عند الحاج ادريس لحنش فى «المهجـــور» حيث يصف محبوبه شابا عالما شاعرا ظريفا فصيحا وفيا صادق القول :

محبوبى ولد الرضا انظيف * واكذاك اخـــلاقو امنظفـــا

عالم قارى شاعر اظريـــف * بفصاحـــا والصدق ولوفـــا

شلا افلحسان ما نصيـــف * ما فيه الكل غـــر لجفـــا

. . .

شاب رضى واعذارو ايلا اهجرنى محبوبى انعود بالكشر

ويـــلا جاد برضـــاه نستبشـــر

وقبل هؤلاء جميعا تغزل امتيرد (طرشون) فى طالب حافظ للسور اسمه محمد وكان قد غاب فخرج يبحث عنه فى كل مكان الى أن قابل بعض أصدقائه فأخبره انه موجود بالمدرسة :

ها هو قالى فالمدرسا طالب حافظ لسوار

يتبـــاها توكت لقمار

ميمين اوحا او دال وضح لهل المعنى اسميتو

زدت انصيبو اكما احكى لى * سـلمت اعليـــه يا كـــــرام

قلت التاج لبها اغزالى * ما لك ياناكر الطعـــــام

انت بزهـــوك بـــه سالى * ونا للتعب والسقـــام

وقد يتبادر الى الذهن أن مثل هذا الغزل يدل على انحراف عند هؤلاء الشعراء وشذوذ فى الجنس ، او ثنائية وازدواج فيه على أقل تقدير ، ربما

كان ذلك صحيحا ولكن الى حد ، ذلك ان مثل هذه الظاهرة قد يكون لها تعليل آخر يجعلها مجرد تنفيس عن ضغط المجتمع على الشاعر وكبته لجماح عواطفه .

ثالثة هذه الملاحظات تتصل بما يقال من أن بعض هذا الغزل رمزى لا يقصد منه الى وصف جمال المراة او حبها وانما يقصد منه الى تعبير اسمى .

من هذا ما قالوا عن «فاطمة» الحاج عمارة من أنها لا تعنى غير فاطمة الزهراء ، ولكن لنستمع اليه يقول فى حربتها :

أنا فطمونى اعلى اهواك اباشت لريام
ونت مفطوما اعلى اعذابى يافاطما
والى فرقنا ايلمنا ما طالت ليام

وفيها يقول :

فاطما يا باقة البان * ياسالف الظليم اشعورو وفيانا
يا لهلال ادعيد رمضان * بقواس حاجبك اهدابك طعانا
أفاطما سود لعيان * ادخيل بك لك خد السوسانا

افاطما خاتم الشفوف ايتيه من لام
أفاطما طاستو ابخمر الريق اختيما
واتغارو عقدين امن الدر افغايت لنظام

لعله لا يعقل أن تخاطب فاطمة الزهراء بهذه الاوصاف .

ومن هذا كذلك ما قالوا عن «طامو ابهيج الخدادا» للعلمى من انها لا تعنى هى الاخرى غير فاطمة الزهراء ، ولكنا حين نتمعن فى القصيدة نحس ان الرجل كان يقصد الى التغزل فى محبوبته ، اذ ليس من المقبول أن يقول فى بنت الرسول مثل هذه الابيات :

بتنا اوبات الخمر يتزادا
لا اعدو لا واشى لا حراز احسيد
فبساط امحتفل مركادو
الكاس والشمع موقود

لى ادراعهـا بات اوسادا

اوريقها بات اشرابى انرشفو ابطعم الذيذا

ايشربو امن احـلا تـورادو

غفـران ربنا مـوجود

ولكن ليس معنى هذا أن الشاعر الشعبى لم يرمز باسم المراة الى معنى اسمى ، بل انا نجد الشيخ أبن ابراهيم (1) ينظـم قصيدة فـى « مباركة » يرمز بها الى مكة ، يقول فى حربتها :

حرمت نعم لغنى المالك

ديرى ياللا امعـاك

شرع المولى ايلا اهداك

نستحسن فى أبها اجمالك

أمولاتى امبـاركا

ولهذا علق المدغرى عليها فقال بأن مباركته (2) لا تصلح خادمـة لمباركة ابن ابراهيم .

ومثلها مباركة الكندوز التى حربتها :

جودى يا طلعت لبدر برضاك

حرم ادخيل من سماك

لبها اعطاك كيف ابلانى بك ربنا يهديك

أمبـاركـا

وفى آخر بيت يحل الرمز فيقول :

واسمك ميم اوكاف لغنى سماك

واحذف باور اللى ادراك

يعرفنى جبت لاسم للذى هويك

أمبـاركـا

---

1) وهو معاصر للتهامى المدغرى .

2) وهـذه حربتها :

نادى نادى اليوم فالك * واخصب بعد الجفـاف لاك

واهلالك تـاك افلفـلاك * والوعد اعلى الضيا اصفالك

باللى ترضى امبـاركا

أما آخر الملاحظات فحول مدى صدق الشاعر فى هذا الغزل وبالتالى فى حبه ، ولعلنا لن نتردد فى الشك فى صدقه وهو يتغزل فى عشرات الفاتنات وبنفس الاوصاف والاسلوب . ونخشى ان يكون الحب الـــذى عبر عنه مصطنعا لا حقيقة له فى الواقع وان يكون نظمه فيه مجرد صنعة ومهارة وتقليد . بل انا فى بعض قصائد « التراجم » نجد الشاعر يصرح بذلك ، فابن على يعترف فى الحجام بانه لا يعرف من أمـر الوشم شيئا وأن المسألة بلاغة ومهارة :

غير ابلاغ فالشعر وانظامو *

عمرى ما اوشمت ولا نعرف واشم ولا داخل لكلوف

والفلوس يقول مثل هذا فى دمليج ازهيرو :

ليس عندى دمليج يالسايل ولا شفتو اولا اقبضتو فيــديا

الا ترجما امن اتراجم الوهب اولوزان

ولكنا لا نريد أن ننفى عن الشاعر صدق الحب وبالتالى صدق التعبير، أو بالاحرى لا نريد ان نقطع بهذا النفى . فمما لا شك فيه أن اغلب هذا الغزل من النوع الاباحي المادى الذى لا يكاد يكون لصدق العاطفة فيـــه وجود ، وقد كانت حياة معظم الاشياخ تساعد على هذه الاباحية من سهـر وشرب وما يتبعهما ، وهو جو موبوء لازال بعضهم يتنفس فيه حتى اليوم ، ولعلهم اتخذوا الحب وشعره ذريعة لستر شهواتهم ونزواتهم واحاطتهـا باطار عاطفى عذب جميل وربما كان بعض الشعراء يقلدون ناسجين على منوال غيرهم دون معاناة للحب او تجريب للاباحية ، ولعلنا بالنسبة لمثل هؤلاء نستطيع ان نذهب الى تعليل نفسى مصدره الكبت الذى كان يسيطر على بعض الاوساط والذى كان ينفس عنه الشاعر بالقصيدة أو القصائد ينظمها دون ما تحرج من مجتمعه . وقد ينطبق هذا التعليل ليس على الشعراء فقط ، وانما على الحفاظ والمنشدين كذلك . ونكاد نميل الى تفسير آخر أساسه اتخاذ أوصاف الحب وحكاياته وسيلة جميلة للتسلية وملء جزء من الفراغ الكبير الذى يحسه الشاعر فى ذهنه وقلبه .

ولعلنا لن نغفل فى نطاق هذا التفسير انتقـال الشاعر الشعبـى الى بيئة القصور ومحاولته امتاع الكبراء والامراء والملوك .

ومع ذلك فلا نستبعد أن يكون بعض الشعراء غير هؤلاء وأولئك تغزلوا عن حب صادق فى زوجاتهم . وقد صادفنا فكرة الزواج عند أكثر من شاعر ، فبوعمرو فى «زهرة» يذهب الى انه لا داعى لحيرة العاشق ، فبالصداق — وهو كناية عن الزواج — تتم العشرة ويلم الشمل :

والذى عاشق ما يحتار * بالصداق اتـم العشرا

وكذلك يذهب المدغرى في « طامو وهنية » الى أن كسب الجمال رهن بصحة الملكية ، اى بعقد الزواج يوثقه القاضى :

ما يثبت قاضى اهل النظر * للزين اكسبتو ابصح الملكيا

وقد أكد لنا أكثر من شيخ ان قصيدة امتيرد المسماة « اترابى فاطمة» والتى سبق ان مثلنا بها لعنصر التأنيب والوعظ فى مواجهة صدود الحبيبة ، لا يعنى فيها غير زوجه ، بل ذكروا لنا أن فاطمة هذه نشأت معه فى البيت تحت رعاية أهله الى أن بلغت سن الزواج فزوجوها له ، ولم تكد تمر سنوات معدودة حتى تغيرت عليه وأذاقته الوانا من العذاب فاضطر الى طلاقها ، ولكنه لم يقدر على الفراق فنظم فيها أزيد من عشرين قصيدة ، ومع ذلك لم ترق لحاله فما كان منه الا ان أنشأ هذه القصيدة المليئة بالعتاب والتأنيب والوعظ .

ومثل هذه الاخبار والحكايات كثيرة على لسان الرواة والحفاظ ، حتى انهم يكادون يجدون تعليلا ونسبة لكل قصيدة وخاصة قصائد المدغرى ، فانهم يجعلونها قيلت فى سيدات القصر ووصيفاته ، وينسجون لذلك قصصا وحكايات أقرب الى الخيال الشعبي منها الى الحقيقة والعقل . والواقع انه قد ينطبق ذلك على بعض قصائده لا سيما وأنه كان مقربا للسلطان المولى عبد الرحمان وولده سيدى محمد ، ولكن ليس بالدرجة التى تروى عن الحفاظ . واذا انطبق هذا الراى على المدغرى فانه لا ينطبق على غيره حيث نستبعد مثلا ما يقال عن «فضيلة» الحاج ادريس لحنش بأنها زوجته هجرته ولجأت الى قصر السلطان فنظم فيها القصيدة ، وعلم السلطان بالامر من القصيدة نفسها فطلب منها ان تكف عن الهجر وتعود الى زوجها ، فمثل هذه القصة يبدو عليها لا شك أثر خيال الرواة .

الفصـل الثاني

في الحيـاة

الحياة ظواهر وأوضاع وتيارات ، تكيف المجتمعات وتطبعها بسمات مميزة خاصة ، وتلزم الناس بالسير في ركابها راضين عنها أو كارهين . والشاعر الشعبي ، كانسان يعيش في مجتمع ، مجبر على التزام نمط الحياة الذي تفرض معطياتها عليه ، ولكنه كفنان مرهف الحس عميق الادراك ، ربما رفض هذا النمط وثار عليه ، وان فعل فان مظاهر الثورة تبدو في الصراع الذي يعتمل في نفسه يكشف من خلاله عن ردود فعل تمردية تختلف باختلاف نظرة الشاعر الى الحياة .

ونستطيع أن نلمس نظرة الزجال المغربي الى الحياة ، مع ما قد يكون فيها من وجوه التمرد ، واضحة في جانبيها التجردي والحسي ، فيبدو في هذا راغبا في الاستمتاع بالحياة وملذاتها ، مقبلا على الشرب في ولع واسراف دون اعتبار للتحريم الديني وتقاليد المجتمع ، ويبدو في ذاك ساخطا على الدنيا رافضا لمتعها ، في استسلام لقضاء الله وقدره ، وفي غير قليل من من الشؤم والقسوة على الناس ، يستنكر سلوكهم السيىء يعزو اليه كل المصائب والنكبات ، ويحاول وعظهم وارشادهم واقناعهم بأن الدنيا تافهة فانية ، وبأنها ليست غير دار عبور لا داعي للتعلق بها ولاجدوى .

ومن عجيب أنا قد نصادف التيارين يختلجان في نفس الشاعر الواحد ، وكأنه بتجرده وميله الى الزهد يحاول التكفير عن افراطه في الحس والمجون . وليست هذه الظاهرة غريبة كما يبدو لاول وهلة ، فقديما عرف الشعر المعرب نماذج حية لها تجلت في اثنين من أكبر شعرائها هما أبو العتاهية وأبو نواس .

ولعلنا في غير حاجة الى البحث عن مدى صدق الشاعر الشعبي في سلوكه لهذا الاتجاه أو ذاك ، اذا ما اعتبرناهما ظاهرتي تمرد على المجتمع والحياة ، وهو تمرد لاريب يطغى فيه الجانب التعبيري اللساني على جانب الممارسة والسلوك ، فليس ضروريا اذن أن نعرف ان كان الشاعر يعبر عن واقع حق حين يرفض الحياة أو حين يتشبث بها ، وان كنا لانخفي شكنا في واقعيته كما لم نخف من قبل شكنا في صدق حبه للمرأة والجمال . ومن يدري فلعله في مجونه انما يكمل اطار هذا الحب . وحتى بهذا الافتراض

فاننا نظل فى نطاق التمرد والتنفيس عن كبت المجتمع ، دون اغفال لعامـل التسلية وملء الفراغ من جهة وعامل امتاع الملـوك والكبراء ووصف ترف حياة القصور من جهة ثانية ، وعامل التقليد والصنعة من جهة ثالثة ، وخاصة عند الشعراء الاوساط الذين لا يعبرون الا من خلال تجارب الآخرين ، وان كنا لا نستبعد عن بعضهم صدق الممارسة والمعاناة ، سواء لهذا التيار أو ذاك.

الخمر والطبيعة

وجد الشاعر الشعبى لذته ومتعته فى الخمر ونفسه كذلك ، فأمعن فيها النظر والفكر ، متفننا فى تسميتها ووصفها وحكاية قصتها ، ومتحدثا عن الساقى وأوانى الشرب ونظامه وأدبه وجوه ورفاقه، محاولا اغراء من لم يشرب بعد فى حث على الاستمتاع بملذات الحياة واغتنام متعها ، مادام الله يغفر الذنوب ويعفو عن الزلات . وكان الحديث عن وقت الشرب ومجلسه سبيله الى النظر فى الطبيعة والكون اطارا جميلا لهذا المجلس .

أولا : الخمر :

وتعرف قصائدها بأسماء «الدالية» أى الكرم و «الكاس» و «الساقى» و «السماحى» و «الخمرية» و« الخمارة» .

لم يترك الشاعر الشعبى إسما من **أسماء الخمر** المعروفة لم يستعمله ، فهى مدام عند امتيرد :

آش من فرحا دون امدام

وهى الراح والصفراء عند ابن على :

كب ياساقى كاس الراح لعتيق

. . .

كب ياساقى هات لنسا * طيب لمدام واسقنا بالكيسان

. . .

داروا بالصفرا يا نديم ايجاوبو اللغا فى لبهيم بالكاس اولاحوا

وهى الرحيق عند ابن سليمان :

كاس الرحيق داير * عقلى حاير

امعاه طاير * ندرى رشفاتو

وهى دم العنب عند المدغرى فى «الكاس» :

دم العنب الصالح * فيه اعلاج أجوارح * ناس المعنى والصلاح

وعنده كذلك فى احدى قصائد «الساقى» أنها بنت الدوالى ودم العنقود :

هاك دم العنقود افطبت لمساقى (I) * بنت إدوالى امخنت فحدايق

اعلى السقا واسراير توثيق

بل انا نجد المدغرى ـ وهو شاعر الخمر الاول ـ يستعرض معظم أسمائها فى «الساقى» الذى يقول فى حربته :

قلت أصاحى هات لى الكاس اغفل وارجع لى اجحا ونخلنى يا حضار

طاح على القمصال ابلبتر * سلك راسو وسار هربـان اجهار

فيذكر منها المدام والسلافة والخل والقهوة والمسطار والمخلتم والنزيف والقرقف والجرحون والرحيق والخندريس والنشوة والبرنيس والشتايا والشموس والشمول والمشمولة والراح والمعتقة والحميا والصارعة وبنت الدنان والرموز والقيارة والصهباء والصافية ودم العنقود وفاجية الهول ومفشية الاسرار والجريال والعجوز والحمراء والمقدمة والهرمزية والمذهبة والقسيسية والشربة وحليب الدالية ولبن العصارة وقتالة الاحزان وبنت الطرب والخمر وراحة الافكار والمشعشعة والعراقى والصرخدى والجوهرى والصنـدلى والمزايجى والاصفر والعذراء والماحيا(2) والغضنفر والطاوسى والفتاك وعصار الخدود وبوغليا والخمار واللماح ومراح البصر وبنت الكروم :

واصغ نشرح لك لمدام أوصفو وسميتو نحسبها لك اسطار

كن الطيف اظريف امشتمـر * سلفك عرضى انزيد لك دون احزارا

نحسب لمدام والخل والقهوا والمسطار ولمخلتم(3) وانزيف اتجار

قرقاف اجرحون مشتهـر * ارحيق اخندريس نشوا بتارا

برنيس أشتيا والشمول امتمـولا اوراح ومعتـق للتخمـار

حميـا والصارعـا اذكـر * بنت الدنان والرموز اقيـارا

الصهبا والصافيا أودم العنقـود امفاجى الهـول افاشـى لسرار

(I) لمساق الطعم .

(2) أى ماء الحياة والمعروف فى المغرب أنه مشروب خاص باليهود .

(3) فى م 2 ص 4I بالخاء وفى ج I08 ص 4I بالحاء .

والجريال العكوز ابلكبــــر ٭ غارت من جاريا اعروسا فمنـــارا

الحمرا ومفدما وهرموزيا وامذهبا وقسيسيا تـذكار

الشربا لدا المن اسكـــر ٭ احليب الداليا ولبـن العصارا

قتالت لحزان دارت اقلايد فى لبا اعلى ابساط احمر مـن عكـار

بنت الطرب الكل من ازهـــر ٭ والخمرا افلبريق راحت لفكـــارا

شعشعا وامشعشعا واعراقى وصرخدى اجوهرى ما كيفو دكـار

الصندلى وامزايجى الصفـــر ٭ والعدرا ماحيا اسريعا فالغــــارا

وإغضنفر والطاوسى وفتاك اعصار لخـدود بوغليا ياخمـار

واللمـــاح امراحـت لبـــصر ٭ هادو اسميات بنت لكرم اجهـــارا

والخمر فى أوصافها على حد مـا نجد عند محمد بـن الوليـد فـــى «الصفرا» بديعة الحسن المكمول، ودرة أسرار كأنها قمر اشرق بضيائة أو نجم، فرحت بها الخلاعة وبلغت مناها ، يطلب منها ، أن تصول ببهائها وقـــد ايدها الله بالقبول ، وبجلها وأثنى عليها ورفع شأنها ، بها صال الكرام، وفيها وبالهامها نظم الشعراء وكل من لم يزه بها يهجر ويضيع عمره ، ثـم انها حازت رضى الملوك وتزينت لها الفاتنات وذاع صيتها فى كل بلاد الله :

صولى صولى ببهاك يابديـع الحسـن المكمـول

فرحت لخلاعا بك يالصفرا وابلغت امناهـــا

يـــادرت لســــرار

قـال يانا سيـدى وانت كـن قمـرا

شرقت بضيــاهـا وايـــلا غـــرار

صولى يالصفرا صولى ربى اعطاك

اعطاك ربنا لجليل

حسن لقبول والتبجيل

واسنا مراتب التفضيل

بك لكرام صالوا حتى نالوا

اعليك قالوا لكلام أوضحوه لشياخ هل المعقول

ضاع ازمانو من لازهى امعاك

ايا موعياها مبكاه اينهجار

وانت أرضاوك للملوك ارفعو اثناك

غنمو افصورتك ووانك

وبنات الزهو قدامك

برزوا زينو لوصالك

ونت الله شكرك وارفع قدرك شاع خبرك

غرب اصحرا أفايجا وامداين واتلـول

بك اسجيت لكلام ساقت المايا وانشدناهـا

بـوجـود المـسرار

ويصفها ابن علي في «الصبوحي» بأنها في لونها ذهبية كالسماء ، وحبابها كالشهب ترمى بها الرقيب :

والـسراح كالسما ذهبيـا * يرمى اعلى الرقيب اشهابو

وقريب من هذا نجده عند المدغرى في «الديجور» حيث يشبههـا بالهـلال :

والصفرا تسطع كهلال واكواعبها مثل النجوم فالخمرا عاموا

وهل الخمرا فبساط كل عذراوى حايز ريـم

وهي عنده في «الزهو» معتقة من عهد الهرمزان :

صف لى تدراج الكيسان * من امدام اصرخدى ذوقى امعتقو دهقانى

افعاهد اقديم الهرمزان

ويحكى المدغرى **قصة الخمر** في «الساقى» فيبدأبالترحم على البستانى الذى غرس الدوالى في روض مـزهر ، وغمرها بالمياه الى أن برزت اوراقها واغصانها ، وبدت في ابتهاج متطلعة للعلو ، واعتنى بتربيتها وكأنها صبيات تربيهن أمهاتهن يحملنهن في الحجر ويرضعهن من لبان ثديهن المدار، ثملا يلبث النمو أن يسرع بهن فيصبحن شابات بالغات تطل نهودهن وتنسرب شعورهـن على الصدر ويلبسن ثياب الحرير . وما أن اكتمل نمو هذه الدوالى حتى خطبتها ريح الصبا للريح الغربية (1) وتزوجتها في حفل بهيج ، انطلقت فيه مياه

(1) الريح في اللهجة المغربية مذكر

الصهاريـج والفسقيات وعـزفت موسيقى اصـداف المطر الغـزير ، وحضر الهزار ، وقدم الفجر هديته نسيما طيبا طربت له الاطيار ورقصت أغصان الشجر . ثم حملت بعد ذلك وتوحمت على ثريا ضريح سيدى بلعباس ،كان أهداها له السلطان اثناء زيارته ، فأنجبت عناقيد شبيهـة بهـذه الثريا ، فاقت الذهب فى صفاء اللون ، ما كادت تنضـج حتى جناها ولـد الغرام ، وعصرها فى ثوب الهوى وصفاها وعتقها فى صون الى أن عبقت نسماتهـا تبعث على النشوة وتنفى الهجر والصد والاسقام والاكدار ، ثم خرجـت لحضور مجلس الشرب صفراء منيرة تحيط بها الكؤوس، وكأنها البدر يوم اكتماله قد التفت حوله النجوم :

أرحم اعـلى الغراس يوم غرس ادوالى فى ارياض امنعنـع بنوار
واسقاها بمياه تنهمـــر * ولقحـت ادواحهـا وتاكت مسرارا

ربهـا تربيت الصبيـات فحجـور امتها اعلى نهديـن المـدرار
بتشرغين افغايت الصغـــر * طلقات اضفرتها اعلى غيظ الجـارا

وبعدها بالرضا رجعت اعزيبات احكيتها ابنات المجد الجـدار
عن لبلوغ اطفحت للنكـــر * ديك الهادى الوات بالتيه اكـرارا

بلغات أطلـو انهودها واسوالفها جات حايفا عن ليمـن وايسار
لعبو فوق ارخامت الصـــدر * ولبست اقماش سندسى عند ازكارا

اخطبها ريح الصبا الريح الغربى عقدو ازواجها بحضور الهيزار
فبساط الفرجات والزهـــر * واخصوص اتفور والصهارج همـارا

بشهود الآلى وصيغت الآلا صدف الجواهر أمن المزن الغزار
راحت فـى عبروقها اخضر * من فوق اسريرها زهوا للنظـارا

جـاب الفجر اهديتو ابطيب انسيمو غنات لو انزايـه لامت لطيار
ورقصت القطبان فالشجـــر * وارخات اكمامها أعلى الفرج ابشارا

تكّلات أصاحى افروضها واتوحمت اعلى اتريت الطرشون الصرصار
سيدى بلعباس ينذكـــر * أهداها لو اهمام لشراف ازيارا(I)

ولدت شى اعناقد كفها تسطع بضياها اولا مثلها ذهب افتشحار

(I) تطلق الزيارة على الذهاب الى الضريح وتطلق كذلك على مايقدم له من هدية أو نذر ، وهى فى البيت بالمعنى الاخير .

صنـــــع الله المالـك لكبــــــر * احكمتو ابلسرار لعقول احيارا
اجناها ولد لغرام اعصرها فى توب لهوا وصفاها للتقطار
عتقها فى غايت لخفـــــــر * وعبقت انسومها ابنشوا بتـــــارا
انفات الهجر اصد والبين اضيـق الهم والجفـا واغصايص لمرار
والسقما فالقلب ولكـــــدر * زالت بشعاع نورها عن لحضـارا
حضرت الصفرا اكم البدرليلت واحأكواكبو اكيوس اضياها ستنار
كيسان الفجر امع التبـــــر * منسم لبساط عل الخضرا سيـارا

وهو فى «الساقى» الآخر يرسم صورة الدالية منعمة فى الحدائق دائمة السقى ، وقد التوت أغصانها فى حلقات على سرير موثق ثابت ، مائلة معربدة فى كسل وعنفوان ، وقد تدلت منها عناقيد كثريات فـى السمـاء علقـت بأسلاك من الذهب :

هاك دم العنقود افطبت لمساقـــى * بنت ادوالى امخنت فحدايــــــق
اعلى السقا واسراير توثيق
اغصانها عربطتوالتوات افلحلاقى * فكساويها امكسلا واعبـــــارق
امشرغنا بخراس التحليق
ولعناقد مثل اثريات فالافاقـــى * واقمصلها امعلقا بتعالــــــق
امن اسلوك الذهب افتوريق

أما الساقى فيراه امتيرد مولها حيران ، ويسأله فيرد بأن السبب كامن فى الخمر وفى الجمال الفاتن الذى ينظر اليه :

ياالساقى مالك ولهان * عدلـى لا تكتم سـولان * مال حالك مالــــو
قال لى مگوانى حيران * خاطرى والساكن دهشان * والى به قتالـــو
لمدام أحسن الحسـن * والنظر والعشق الفتان * والهوا واهوالـــو

ويطلب منه ابن على أن يكون مطيعا للفاتنات ، وأن يلبى طلبـات الحاضرين وأن يكون منتبها

اعمل فالحضرا ما بغينا * طع لبها اوكن فـى حالك يقظان

ويريده المدغرى أن يكون لبيبا واعيا منتبها ، وأن ينشد مواويــــل وأشعارا حلوة رقيقة ، وأن يوقظ السكارى عساهم يفيقون ، وان ينحنـــى امام سوداء العيون ويقبل الارض بعينه بين يديها،وان يزهى القلوب ويحركها

بالوتر والطبوع الشيقة :

كاس دم العنقود من لبريق ساقى ❊ وابغى ساقى البيب دهرى فايـق
فـى اغزيـل الموال ارقيـق

شم أساقى واسقى غسق ارماقى ❊ وانغم بشعار كن حربى عايــق
وكَفْص الطايح ياك ايفيق

...

بسندق أكْبل الارض بشفر لحداقــى ❊ وازها صحى لقلوب من لعلايــق
ابلوتـر واطباع التشويـق

وقريب من هذا يقوله العلمي لساقيه يوصيه بأن ينحني أمام المليح :

طار اغراب الداج ولخمر فالاوانى باقــى ❊ يـا ســاقــى

آهدى كاسك للمليح واخضع لوبتبنديقـا ❊ وافهم معناتى اوعيــف

ويريد المدغرى من ساقيه كذلك أن يشمر عن ساعده وأن يسقيــه ورفاقه بفراسة حتى يفرج عنهم الضيق والهموم :

قـرب الصفـرا هـات الكـاس

امن ايديك اسقنا ياصاحب الخمر بكياسـا

مزق اضنانا والتكبيس

شمـر اكمـامـك للتـونـاس

طوف واسقى واهدلنا اغناجلك بفراسا

ما بحالك فالزهـو اونيس

ويطلب محمد بن الوليد من الساقى أن يكون خفيفا سريعا فـى الصب غير بطــىء :

ألساقـى ضيف اللـه ضيف ❊ غدر الكاس أكـون اخفيف
باش تطفى هذا اللهفا

وعند محمد الشليح فى «الكاس» أن حبيبته هى التى تسقيه وتسقى جـلاسـه :

كبى ياباشا رادفى كاسى من خمر لمراش

فـاجـى تشـواشــى ❊ يا هلال الخودات اعبـوش

كبـى الـكـاس ❊ واسـقـى جـلاسـى

طالت الفرجا يا سلطانت النسا * بوجـودك واكـدرنـا اتنســا

مــا كــان بــــاس * فغســـق حنــداســـى

بعد تگت ليلت لوصال غالســـا * غابــو اهــل لفجور ولحــراســا

ومن نظام الشراب وأدبه ما يلفت اليه امتيرد نظر الساقى، حيث يريده أن يوقظ الحسان ، وأن ينتبه لدور كل شارب والا يكف عن الصب طالمـــا الليل مسدل ستاره .

ألســاقــى وكــض لريــــام * رد بالك للنوبا لا تغيب عن مولاها

كــب واسقى مازال الليــل

ويطلب منه ابن على أن يسقى ويشفع ، ففى ذلك علاج العاشق :

كب ياساقى الراح لعتيق واردف للعشيق هاداك اصلاحو

بوجود ابنات الحى كب ياساقى كاس الراح

أما ابن سليمان فيريد منه اذا عربد ووقع أن يوقظه بانشاد الاشعار، وأن يعيده للسكر من الرشف بمجرد صحوه :

اذا نطيح وقظنى بشعار النظام

ما نصحا حتى اتردنى بالمرشف سكران

ومن أوانى الشرب يذكر ابن على الكاس والابريق :

كب يا ساقى هات لنــــا * صب لمدام واسقنا بالكيسان

حتى طار اغراب لغسيق واركع فوق كاس لبريق فرجا بصباحو

ويذكر كذلك فى «الصبوحى» أوانى البلور :

كب لمدام ياساقى من بلار * اصغ اوطف بالخمـــــــارا

ويذكر ابن سليمان الكؤوس والفناجين الملونة :

كب اكيوس افناجل لخمر نشهد عل للوان

ونجد ذكر الفناجين عند المدغرى كذلك :

فق أصاح هات افناجلك واغنم نشوت راحى

ويزيد عليها الطاسة :

كنت امهنى اسليم ما نعرف ياختارى * كاس اولا طاسا اولاخمــــر

اولاندرى اشروطها فحضرت الخمارا

وعند محمد بن الوليد فى «الصفرا» أن أوانى الشرب أكواب مختلفة، منها قرفية فخارية ومنها صدفية وخزفية ومنها زجاجية وبلورية ، ومنها ذات ألوان صفراء وزرقاء :

. . .

واكوابو المشتمرا

أعلى الصناف داروا

اكداك اوجاروا

احبيب حـــار

لض ارفيع الشراب بهم وانزاح الهول

قرفى واصداف زاجى والودع والخابورى انزاها

والعلـــج أبـــلار

وعند العلمى فى »الساقى« أنها كؤوس من زجاج عراقى (I) شفاف :

كب الخمر الخارقـا * فى كيسان ابنادقا(2) * من زاج ابلاد العراق

تظهر خمـرا بارقـا * فالاوانـــى شارقـــا * كلون اسحيق الرماق

بل انا نجد ابن سليمان لا يريد من ساقية أن يقدم له الخمر فـــى الكؤوس ، وانما يريده أن يملأ فمه ويسقيه ، ويكفيه الريق بلا خمر :

أنا ابلا اكيوس اسقينى * عمر امراشفك واعطينى * الريق ابلا اخمريكفينى

والوقت المفضل للشرب عند امتيرد فى «الساقى» هو الليل :

زد غـدر كـاسـك وامـلاه * ليلنا بالعز اغنمناه

. . .

بعد قالو ليلتنا يالشيخ لا تنساها

وعند ابن على أنه يمتد حتى الفجر اذ يبدأ ستار الظلام يرتفع كأنـه غراب طار وركع فوق الكؤوس والابريق ، ايذانا بالصبح حيث بدت خيوط الشمس الاولى مشعـة تضىء غرة الفجر الـذى بـدا كسلطان جميل تبايعـه الاشجار وتنحنى له ، وقد هب نسيم البستان طيبا وألقى جبين الفجـــر ضوءه على الكواكب وأخذت الطيور تغرد فوق أغصان الشجر المائل ، وفاحت

(I) يطلق فى المغرب هذا الوصف على زجاج الملون .

(2) لعل المقصود بها كؤوسا مستوردة من مدينة البندقية الايطالية .

الازهار المختلفة من ورد أحمر وسوسان منير كالمباهي بسلاحه، والخابوري(1) يخبر بحكم العاشق ، والياسمين البهي الكاوي والخيلي(2) مشمرا للكفاح بخيله ، والنرجس ترعى عيونه زهر «الزين والبها» في الغدو والرواح ، والخيزران تتمايل قضبانه تميس مع الرياح :

حتى طار اغراب لغسيق واركع فوق كاس البريق فرحا بصباحو
والبستان اعلى انسيم الخضرا طيبو فـــــــاح

واجبين الفجر ضوى اعلى لكواكب واطيار ادواحنااعلى ضيو صاحوا
فوق امناير لغصان كل طير ايغرد بفراح

واهمـــام القبلا كشريف حاكـم دار العجلا غـرت مصباحـو
أمر لشجار ايبايعوه لحسن بجمال الصبـــاح

مالت لشجار وفاحت لزهار وغنات اطيار اعلى لفجروتلقاحو
ضحكت بالفرح اتغاير الزهر في ظل اللقـاح

شف الورد العكرى ايفوح شف السوسان في امصابحواتبها ابسلاحو
شف الخابورى ايخبر الحكم لعشيق الفضـــاح

شف ابها حسن الياسمين كيوخلاني في حالتي امكثر تجياحـو
شف الخيلي خيلو امشهرا مشمور اللكفـاح

شف اعيون النرجس كتراعى لبها والزين في اغداه وفرواحـو
واقوام اقضيب الخزران يتمايل بين اريـــــاح

وعند ابن علي في موضع آخر أن الليل قـد أقبل سلطانـــه يســدل الظلام بأجنحته ، ويملأ الفضاء بعساكره وينصب خيامه كأنه فارس سوداني شجاع يمتطي فرسا أدهم ويسل سلاحه ؛ وتجاوبت معه النجوم فـــلاح ضياؤها في الجو ، وتحت علمه أخذت بدور الجمال طريقها للمكان وكأنهـن عرائس لم تنظر العين مثلهن ، وفي المكان مدت فرش ملونة بين الاشجار والروض البهيج وجداوله المنسربة :

حضر بالك ياعاشق لبها شف اهمام الداج مد بالظلام اجناحو
عمر لفضا بعساكرو ودق اخباه افلبطـــــاح

(1) هو النوع المعروف في الفصحى بالخابور .
(2) لعل أصله الخيرى وهو الزهر المعروف بهذا الاسم في الفصحى

نحكي سوادني اشجيع يتبختر بغفارتو اعلى ادهـم سل اسلاحـو

والنجوم القبلا لاجلو فالجو اضياهم لاح

وابدور الزين القاصرات تحت اعلامو يامن اتسال للمرسـم راحـوا

همان اعرايس كل ريم شلا شافت للمـــــــاح

لبساط ايحير لعقل بفرشات عل للـوان مـا بين ادواحـو

والرياض امبهج بغرايسو اجداول بيـن ادواح

أما ابن سليمان فيستمر مجلس أنسه يوما وليلة ولا ينتهى الا فـى العشي وقد اصفرت الشمس ، وهو وان لم يشف لوعته فان الوقت الحلو الذى أمضاه على قصره خير من مائة عام :

هذا انهارنا جوزناه(1) اعلى التمام

شمس لعشي راحت صفرا * فالزين ما اسخت ابنظرا * باقي ماشفت الخضرا

ليلا اويوم عندي فعواض اميات عام

وأما العلمى فى «الساقى» فيفضل الفجر :

راح الليل اعلم لفجرتاك الصبح الراقـى * يَـا سَـاقـــــى

دوز اعلى الخضرا بفناجلك تزيان الموسيقى * وازرع(2) للساهى ايفيق

وكذلك يفضل المدغرى فى «الصبوحى» :

اغنم الصبوحى ياانديم واسطاب ارضيع الكاس ولطيار افمغناها

لاترتى للبرنيس كب ورا (3) ربى غفار

---

(1) جوز بمعنى قضى وامضى ، وهى من جاز بمعنى فات ، لاتستعمل الا فى المنطقة الشمالية من المغرب اما فى الجنوب فيستعملون دوز وداز. ويبدوغريبا أن ترد عند ابن سليمان الفاسى

(2) ازرع هنا بمعنى صب له أو قدم له الخمر ، وهى توحى – سواء فـى هذا الاستعمال أو غيره – بالحركة الخفية السريعة .

(3) أرا بمعنى هات لاتستعمل الا بهذه الصيغة كاسم فعل الامر ، ولعـل أصلها ارى مضارع راى فى المتكلم كأن الطالب يريد أن يعطى الشىء حتى يراه بعينيه .

والوقت عند الحاج ادريس لحنش فى «الساقى» هو العشية عنـــد

الغـــروب :

روفى اعليا واهدي لنا عن فرجت لعشيا امدام المباح

أساقى عقب النهار هذا فوز ابوقت السرور واسقنا بين ادواح

شف الـذهبيا الرايحـــا * لبست ثوب لغروب والليل اغشاها

ومثله يريد انجار فى «الذهبية» أن يغتنم لحظات الغروب ليشرب :

غدر كاسى يا مديـم قبل اتروح الذهبيـا

شف لبهيم حين اتمكن فظلامو اغلب ضى النهار

ويرسم امتيرد فى «الساقى» اطارا طبيعيا **لمجلس الشرب** فى غايـــة

الروعة والجمال ، فالطيور تغرد وتسبح والحسان ينشدن القصائد والعروبيات

والاغنيات ، والاغصان تتمايل والنسيم يهب :

شـــاع لخمر فبنات الحى باح وافشا مكنون اسرارها وطار احياها

لاح طـــير الحســـن الكسيـــل

ذاك فقصايـــــد تنشـــد ذك بعروبها تلفظ والخرا بغناهـــا

كنعت المـايـا والـــذيـــــل

تـــاك الفجر والليـــل انشال ولطيـــار اتسبح المـــن انشاهـــا

ولغصان اكساها تبجيـــــل

هب مـــن جو لفلاك انسيم بعـــد طولت لمقام البين للوداع ادعاها

كينـــادى بالعـــزم ارحيـــل

ويقول امتيرد كذلك فى «فرجة لعشية» :

بالصفرا والكيسان خمرا نشوا معصورا

ما بين العرسان ولعرايس وكيوس اتروج وعلى حضرت لملاح

هاذى تسقى واتزيد

والنوبا ماتنسها

ديك اتجاوب بنشيد

يامحلا صوت الغاها

لخرا ترقص واتميد

بكرايح شف اهواها

هادى تسحر لدهان

لخرا تفتن مبشورا

ديك اثريا ديك كمنارا فغساق اديوج

شرق اضياها وضاح فى حرجا عل للوان

بخلاعتهم مشمورا

يتمكن ويروح امن انظرهم تايه مفلوج

يتشكى دون اجراح

مايفدهم ثمان

هل لخدود المعصورا

ملا لتقهم مائتج ماشلا فنتوج

يوم اوقرها يشحاح

ويستعرض المدغرى فى «الساقى» أنواع الطير التى اعتلت أغصان الاشجار مغردة مسبحة لله فرحة طربة ، ويشير الى المغنى ينشد الاشعار وعازف العود ينقر برفق فتزهى لنقره الريام ويقمن للرقص :

شف يا ساقنا لغراس * خاطبين اعليهم لطيار قاطبا عساسا

ايسبحو امن له التقديس

شف لمام ابشوقو ماس * ولبشيق ايغنى بفصحتو الغاهاتواسا

جاوب الحريل والسمريس

شف كمرى يرثى فهواس

امجاوراه امقنين ابصوتها الهول اتناسا

شف كلال امثيل اعريس

شف لطيار افطيب اغراس

اكما ازهنا لاريب ازهاوا أفرحوا دون اعكاسا

كل طير افمعلاه اوجيس

شف غانى ينشد عساس

شف مول العود ايزهى اريامنا بسياسا

لـــه قـامـــوا فرحـا وارقـيس

ونجده كذلك فى «الساحى» يصور جو المجلس الساحر فيذكر المغنى ينشد بأنغام وتواشيح يصاحبها العود والرباب ورقص الفاتنات :

ماشفت أساحى ارحيق ينظم فالكاس اعقـود ويضحك فالشمع النواح

والغانى بنغام فاصحـــا * لوتاه احجاك من الخمر الكفاحا

ماهـــزك تـــوشيـــح * والبستان القيــــح

والـعـيـدان اتصيـــح * والربـاب الـلى نايـــح

لو شفت ابتلميـــح * غنجـــات افتلميـــح

بنغـايـــم واشطيـــح * ولمـــقـــايـس وادواوح

ويضيف المدغرى فى «الصبوحى» الى هذه الآلات الجناح والجنـــك والكمان والسنترى :

شف العود والقانون والجنح والجنـك اكمنجا واسنتر احدهـا

وارباب امع الآلى ايجاوبو بنغايـم لـوتـــار

شف الالى موسيقتو شهات اعلى حسن انغايمو فى ميزان احضاها

واكمل اصبوحنا على الرضا ماغزلو حرار(I)

ولكنه لا ينسى التعريجة

كب الخمر الكافـح * أصاحى واتراوح * بالتعريجا واكباح

ومثل هذا التصوير البديع لاطار مجلس الشرب نجده عند الرجراجى فى «الساقى» حيث يقول :

شف البستان ارفيع مبهـــــاج

موجود فيـــه كل مـــاكنحتاجـــو

شف اغصان الروض كعرايس داحت بدواح

بخلاخل وادبالج اعقود الجوهر لوضيــــــح

وادواوح واكمامهـــا ابلعطر تهجـى واتفـوح

شف البان ايبان كهفيف الزين المياح

يتهنا بنسايم لعطوف امرح تمريـــح

متمنع فطفاحت الشباب امورد واجموح

(I) يعنى قصيدة «الصبوحى»

شف السفرجل شامخ النهود ارخى لدواح

بالفرحات اتعانقوا بعشـــق الالوتبريـــح

والتشمين امقابلو امع الفرصاد الممدوح

شف الليمون الشط والرنج من عطر وفياح

والورد القانى ابطبتو يجلى كل اطريــــح

والورد النسرى امـع الورد العكرى منصوح

شف الجلار افدوحتو امعكر قدونصاح

وامعمم بعبارق السبانى للفرح اجنيح

والياس انوار املون بوشامو مسروح

شف اليزيدى شف طمــــاج * وامـدلـك اكف لقصور فطهاجـو

شف السوسان ابطيب نفاج * والخزران وامضل الملك ابتاجـو

وانظر للخابورى افتبهـــاج * والزين ولبها مترونق فدباجـو

شف المعشـوق اشف عاشقو بغرامـو نـواح

والنمنام ارقبهم فى قلبو جمر الفيح

والديـدى والديدحـان والخطما واليربـوح

شف الشكوكى انقول عشقى شاكى لحـلاح

والخيلى خيلو امسرجا فالميدان اطفيـــح

والباغ ابخالو وشامتو للعكرى مجنوح

شف الجمرا طاهجا البهر شاخص بلمـــاح

يتزها فالغالب ايجول ابنظر واطميــــح

والحكم افحكمو ايجور ما يشفق مـن مكروح

شف اليرقان اهوا ازرزقا حتى انحـل اوجاج

والبهجا و الفن افلمحابق زاهر وانصيـــح

السوسان امـع لقرنفـل واشكرنط ملقوح

شف اجداول فهدرهـا سر امـن الفتاح

فخلاخل لدواح جاريا تلهج بالتسبيـــح

واترضع فنواور لخواص ابماها عذبى مسيوح

شف اترابع افكل منهـــاج * واارياضنا امزخرف زاهى تفواجــو

شف امشاوات السماح والعاج * والياسمين واسرايرها فنهاجـــو

شف افرشات حرير وادبـاج * وامخاد واخدادى بالذهب انساجو

شف اطيار ابلنغام كتعربط مــا شربت راح

صبحت نشوانا ابلهوا تفجى هول التكليـح

بالسر المكتوم كل طـير ابما فيه اينـوح

شف الحداد ابمايتو ايحير عقل الرجاح

والسمريس اتقول شى اصبى يقرا بالتوضيح

والنحاف ايجـاوب الزطوض ايشكـى للبوح

شف الزرزور ايتيه ويرقص وخفگ ابلجناح

يتهد ويبدل النغام اسجول اتوشيـح

مـا مثلو نشاد رايق المعنى بالموضوح

شف الهيزار ابلغتو ايحيـر فمسا واصبـاح

ويغرد فالليل والنهار ابصوتو لفصيـح

والكلال ايروج افلقفز بنشيدو ممـدوح

شف ازرويال ايتروك يفصـح فـوق الفصاح

ومقنين اخادم الجنان اتوضح توضيـح

والحضرا فـى غايت الزهـو والعز المنصوح

وانظر للصبح امطرد الـــداج * ضوا ابرايتو بيضا من تبلاجـــو

والشمس امعالمها افلبـــراج * لقحت كل روض ازهرت احراجـو

وازهنا ما بين لتنـــاج * لا وعد لارقيب ايروع بهراجـو

شف القانون امع الرباب شف الجنـك الجناح

وانظر للكمنجا اوشوف العود ارجيـح

ينغم بالموال والرصد والسانو مصلوح

شف اصبهان امع الحسين والمايا فى تنـقـاح

شف العشق الصافى الزم العفا باش اتريـح

والتوفيق من لكريم نعـم الحـى الصبوح

وفى الرفقة يرى ابن على أن يكون كل واحد مصحوبا بخليلتـــــــه يزهى بها ويتسلى فى صفاء ، بعيدا عن العواذل والحساد :

كل اخليل اقبآلتو اخليـــلا * بالعز والرضا فى ساعت لوصـــال
يتسلوا فـــى حضرا اجديـدا * بقلوب صافيا رغم اعلى العـــــدال

كل خليلة قد لبست افخر الثياب وعلا جبينها تاج كالبدر الوضـــاح مرصع بأغلى الدر والجوهر ، وقد شربن حتى عربدن ووقعن ، ولكن لم يلبثن أن أفقن مترنمات بأحسن الاشعار :

لبست لبسا واعلى اجبينها تاج ايحير الضمير من متـع الما حـــو
بالجوهر والدر النفيس تعنى بدرا وضـــاح
رشفوا كيسان الخمر وعربطـوا واطغاو الوالعات فالحين اوطاحوا
ثم قاموا واتنغموا اوصاحوا بشعار افصـــاح

وكذلك يرى المدغرى فى «الديجور» :

والصفرا تسطع كهلال واكواعبها مثـل النجـوم فالخمرا عامـوا
وهل الخمر فبساط كل عذراوى حايز ريـــــم

ولكنه لا يلبث فى «السافى» أن يهوى الشرب مع جماعة الفاتنات :

شف حضرا تسحر لغـــلاس * شف خودات اهواويات افلهوا وناسا
راخفات شعر داج اغليس

ويود ابن سليمان أن يشرب مع حبيبته فى جمع أحبابه وأهله :

يحـلا امـع القاك اشرابـــى * ما بين لا متى واحبابى
تنسى امحاينى واعذابى

أما أنجار فيريد فى «الذهبية» أن يفوز بالشرب مع أبكار المدينة :

أساقى فوز بالنزايه والفرجـات * وازها بعوانس لحضر وافخربهـــم
نبهم للسرور وازريع الطاســـات * ساعف غرض الريام لنك ساقيهم
أش من فرجا اتلذمن غير الخودات * زهوا للعاشقين فرحا بمجيهـــم

وقد يعرض الشاعر الشعبى عن الخمر الى غيرها ، على حد ما تصادف عند الرجراجى الذى لا يرغب فى غير الاتاى والسكر من عيون حبيبتـــه وخـدهـــا :

ألساقى بين لملاح كب اتاى الفراح * ترك الخمر او لاتقربو بالتصحيح

واسكـر بعيـون لمليـح * ومـن الخـد المرضـوح

وعلى حد ما نصادف كذلك عند الحاج ادريس لحنش الـذى يريـد أن يشرب من الخمر المباحة .

رف اعلينا يامديم واهدى لنا عـن فرجت لعشيا امـدام المباح

ولكن مثل هـؤلاء الشعراء **سرعان ما يجدون مـن يغريهـم بالشرب ؛** فهذا امتيرد فى «فرجة لعشية» قدمت له الفاتنات كأسا مليئة بسائل أبيض مصفر شك فيه أن يكون ماء ، وادرك أنه غير مباح واعتذر عن شربه ، فعجبن لامره وضحكن ، وألححن عليه فى أن يشربه حتى تظهر له آثاره ،فهو زهو بنى عذرة المشهورين وسلواهم ، شاربه أكثر بطشا من السيف وأحد مـن أسنة الرماح واسرع من ريح البحار ، ينطلق لسانه وتنتشى جوارحه وتحمر وجناته وينزاح عنه ستار الحياء ، وكل من لم يذقه لايرتاح :

رفعـوا لـى كـاس امـلان * ابيـض وامعـاه اصفـورا

هذا لماشكيت قلت لهم للعقل اخروج * مـا هـو ليـا مبـاح

قالـوا لـى خـذ اشرب * تنظر واتشوف اعمالـو

قلـت لهـم مـا نقـرب * منا فـى حـالت حالـو

واضحت لهـم اعجب * ضحكـو الريـام وقـالـوا

هـذا زهـو السلـوان * لبنـى عـذرا المذكـورا

مولاه ابطش من اسهام واسرع من ريح الجوج

واقطع من سن ارمـاح

فوق اجوارح نشـوان * واعـلـى الوجنـات احمـورا

ايسرح للسون واكشف لحيا للمهروج

مـن لاذاقـو مـا ارتـاح

وهذا المدغرى فى «الكاس» يغرى صاحبه بالشرب منكرا عليه ــ فـى استفسارات ــ جفافه ، فهو لم يطرب للغناء ، ولم يشرب كؤوس الفـرح، ولم تصبه سهام العيون فى شغاف قلبه ، ولم يعض تفاح الصدر ، ولم يذق

رحيق الشنفاه ، ولم تهزه ريح الهوى ، ولم يهزمه جيشه القــوى بخيولــه المتوثبة وسيوفه القاطعة ، ولم يسهر الليالى متأوها متوجعا جريحا ، فليكف عن الجولان والهيام فى صباحه ومسائه ، وليشرب كأسا مترعة تمحو الهموم:

غدر كاس الراح لمتا ونت عقلك ساحـــى * يـــا صـاحـــى
اسمع ما قالوا الناس فالكاس ابغير امزاحا * واقبل منى ذا النصيح
وانت عقلـك رايـح * ماهزوك اكرايـح (I) * مادقت اكيوس لفراح
مـا عكروك الوامـح * وسط القلب الجـارح * مانكويت امن المـاح
مـاعضيت اتفـافـح * فوق الصدر اطوافح * ماذقت اشفوف لجباح
ما هزك ريح لهوا وغيوانو بين ارياحـــى * يـــا صـــاحـــى
ماهزمك جيشو امع انصالو بخيول اطفاحـا * تبرى بسيوف الذبيـــح
ما هزك فالنوممن اسنون انشاشب وارماحى * يـــا صـــاحـــى
ما خلاك اعلى لفراش اوجاعك تداحـــا * ولا قاصك شى اجريـح

...

يكفاك أصاحى اتجول هايم فمسا واصباحى * يـــا صـــاحـــى
غدر كاس الراح ابلقداح اهمومك تنماحا * اغلغـل فـى مراطيـــح

بل يذهب الى أبعد من ذلك فيعد الذى لا يشرب من الدواب :

من لاعربط سارح * فمراتع واتسارح * عدو من كسب لمراح

وماكاد يقـدم على الشرب تحت تأثير الاغراء حتى رأى فـى الرشف صلاحه وعلاجه ، وأقبل عليه بلهفة عساه يعوض ماضاع من عمره :

اسقيه اسقسيه قال لى فالقمصال اصلاحـى * يـــا صـــاحـــى
أرا لى نفدى اللى امضى من عمرى واتماحـا * واملالى حتى انطيح

بل انا نجده فى «ساح» آخر يغرى صاحبهحتى يلين ويستجيب ويرغب، ولكنه يتعامى عنه ولا يلبى رغبته ، ويتركه يتحرق الى أن يضيق به الحـال فيعرى رأسه ويكشف عن رغبته الجامحـة ويطلب مباشرة مـن الساقى أن

(I) ج كريحة وهى الغناء عامة وتطلق خاصة على النوع الذى يقوم عـلى قصائد الزجل .

يصب له في القدح الكبيرحتى يغنم ويعوض مافات ،وأن يرمى القدح الصغيرى الفناء ؛ وما كاد يشرب حتى غاب وغابت معه همومه ، ثم أفاق وأتى عـلى كل الخمر، بل ان مغريه خافا على نفسه أن يشربه لكثرة ما أبدى من لهفة :

فاق الساحى امن اسهوه جدد فيا الشوفا وهزنى واغمزنى بالماح

خلتو (I) وارجعت لو اجحـــا * جايتعاما اعليه درتو برجاحـا

وبعدهـا ضاق بـه حالو عرا راسـو زاد للصفرا دون امـزاح

وانطق للساقى فى امكابحـا * قال اسقنى امن الرحيق الفراحـا

كب ارالى ابلكبيرياك انغنمو مافات والصغير ارميـه اللمراح

صاح أساح أغاب ما اسحـــا * واصبح همو ابكاس لمدام اتماحـا

فاق ارقص ابلاخفاواضرب الرش (2) ادواقال لى اسقيه أو سقسيه أصاح

واضغم فالصفرا إلشارحـا * وادوالى قال لى مرتك (3) لاراحـا

شفت الساحى اشرب كل شى سلكت انهارى وخفت لايشربنى ياصاح

وعنده أن الذى لا يشرب مصاب ، حياته فارغة ، وهو وغد شحيـح بخيـل :

من لا اشرب ارزيـح * عـايش ريـح افـريـح

كابـر وغـد اشحيـح * عـاش فزمانـو كالـح

ونجد المدغرى نفسه يتحدث عن مغريه بالشرب فيعترف — فـى مزج بين خمر العنب ومدام الحبيب — بأنه كان يجهل كل شىء عن الخمر وأنه كان سليم الجسـم مرتاح البال الى أن رآها فى عيـون سكـرى ، وشاهـد عصيرها على خدين جذابين . وكان قبل شرب المدام — ويقصد مـدام العيون والخدود التى كانت مطيته للمدام الاخرى — حرا مرتاحا مزهرا روضـه، بعيدا عن طريق الهوى ومشاكله ، لايشرب كؤوس الهجر ، ولا يشتعل الجمر فى قلبه ، ولا يعرف اللوعة والسهر ومرارة الغرام :

(I) لم أجبه من نخل نخالا

(2) لعله الزق ، وضربه أى شربه عن آخره

(3) مرته والمراتة التعب والمحنة .

كنت امهني اسليم مانعرف ياختاري * كاس اولا طاسا اولا خمـــــر

ولاندري اشروطهــــا * فحضرت الـخـمـارا

أنا سيدي حتى انظرتها * مـن اشفـار اسكـارا

أنا سيدي واعصيرهـــا * اعلى الخديـن المسرارا

أنا سيدي قبل لمدام ما داخل تحت احكام غير مرتاح

ما عرفت اللهوا جمرا * اولا شربت اكيوس الهجر * اولا شعلت افقلبي جمرا

مطلـوق معذرفي اعذير * زهـو امكدل بازهـاري * مـا نعرف ليعا ولاسهر

في طيب النوم ما عرفت اللغرام امرارا

وكان الاغراء بالشرب سبيل الشاعر الشعبي للتعبير عن رأيه فـــي **الاستمتاع بملذات الحياة** فامتيرد ينصح ساقيـه الحيران المولـه أن يستمتـع بالحياة حين تتاح الفرصة ويفرح والفرح لا يتم بغير الشرب ووجود الحسان، وينصحه أن يمتع بصره ويتنزه في هذه الوجوه على ضوء الشمع ونقرات النغم، فقد فات أمس بسروره وشقائه ، وقديما نصح بالايستبدل الانسان ساعـــة الهناء والسعادة بالتعب والشقاء ، ويطلب منه ألا يكون بخيلا :

قلت للساقي شد احـزام * لاتعـاتب نفسـك بمـلام
خـذلـــك ايفــــادا

افعل ما فعلو هل لغــــرام * حيـن تعطـف عنـا ليـام
فـرحهـــا يتـــــزادا

آش من فرحا دون امدام * واش مـن حضرا دون اريـــام
للقلـــوب الــــذاذا

متـع ابصارك واتزهى افوجه لحبــاب اومايداوي لقلوب واشتهاها
بالنغايم واشمع اشعيــــل

آش باقــي لك مــن تنكاد ليلت البارح معلومــا ابفرحها واشقاها
ما يحضر امعاها تهويـــــــل

. . .

قول فات اصحيــح اسمعناه لا اتبدل ساعت لهنــا ابتعبها واشقاها
اولا تكون عل لجواد ابخيــل

كيف يذهل عقلك ويغيب ولعوازم قدامك كلها ابما عتناها

هب نفسك للطوع اتميـــــل

وابن علي يريد أن يفوز بالزهو والسلوان مادام الله سيعفو ويغفر :

دبا ربي يعفـو اعلينا ❊ ازها إوفوز هذا حد السلوان

وهو فى «الصبوحى» يدعو ساقيه الى أن يغتنم شرب الفجر مادام الزمان فى غفلة ، وأن يشعل مصباحه بالهناء ، فمن لم يفز ويغنم لن يتسلى:

أغنم امع لمليح اصبوحــــك ❊ أما ترى الزمان غغفــلا

واشعل ابلهنا مصباحــك ❊ مـن لا يفـوز مـا يتسلى

أما المدغرى فيدعو الى تنزيه النظر وترك الهموم بالاخذ والعطاء واغتنام وقت المنادمة بالشرب فى الطاسة فليس فى لحظات السرور والصفاء ما يقلق ويزعج ويبعث فى القلب الوساوس ، وليس مثل الخمر نشوة ولا فـى شربها باس :

نـزه ابصـارك لـوح البــاس

هاك ورا اغنم ازمان لمنادما بالطاسا

مـا فساعت لهنا تهـويس

لا يـروم اخبيـرك وسـواس

كب وانشط واتزهى ما عليك فالوسوسـا

ليـس يهوانـا غـيرك ليـس

رادف اعليـنـا بـالـونـاس

مايحال الصهبا نشوا اولا فخمرك باسـا

كـب وكض مـن كـان انعيس

وهو يرى فى «الزهو» أن متعة الحياة فى البنات وسكنى القصـور والفروسية والموسيقى والغناء واللباس والتنزه فى الطبيعة وشرب الخمر:

الـزهـو فبنـات اشبـان ❊ ولمنازه والخيل اميت لوتر والغانى

ولقماش روض اكيسان

وأما محمد بن الوليد فى «الساقى» فيشرب ليطفىء لهفته :

الساقـى ضيف اللـه ضيـف ❊ غدر الكاس اكن اخفيف

باش نطفى هذا اللهفا

وعنده فى «الصفرا» ان الخمر تذهب الوساوس والاهوال ، وانـــه لا معنى لحياة الذى لا يروى منها ظمأه ولايحيى نفسه بأنغام الاوتار ، بـــل ان النفس تحاسب صاحبها ان لم يجعلها تزهى وتستمع ، وعنده ان متــع الدنيا كامنة فى الكتب والخيل والبنات ، ثم ان الله غفار :

طاب الزهو ولـد الشراب واذهب وسواس الهـول

فرحا بيام العز ولهنا فرحا لمن ابغاهـا

بـشـــر يـابـشـــار

آش را مـن لاكب ارو اوهــاج افـــدولت لفحـول

آش را من لاجاد وسخاوزها نفسو حياها

بنغـايــم لوتـــار

من لازهى نفسو اتحاسبو قالوا هل لعقول

زهو الدنيا لكتوب والسروت البنات ائزاها

والمـولـــى غـفـــار

وقريب من هذا نجده عند العلمى فـى «الساقـى» حيث يرى سرور الدنيا وزهوها فى الجمال والخمر ، ويرى الصولة والعـزة فـى الغنـــى والفروسيـــة :

اسرور الدنيا وزهوها فالزين العراقـــى * يـــا سـاقـــــى

والصولا والعز فى اركوب الفرسان احقيقا * وامـج الفضا ولوريـق

وعند أنجار فى «الذهبية» ان لحظة الزهو تحيى القلوب وتسلى بالافراح:

أساقى ساعت الزهو تحيى لقلـوب * واتسلى ابلفراح بالشـوق الجالى

والشاعر الشعبى فى اقباله على الشرب واغتنامه للذات **لا ينسى ربـه ويأمل فى عفوه وغفرانه** ، يقول ابن على :

دابا ربى يعفو اعلينـــا * ازها اوفوز هذا حد السلـوان

ويقول المدغرى .

قل للساحى ايفيق امن النوم يسمع انصاحى * يـــا صـــاحـــى

بمعالم واريـاح لهوا تهدى طيب الراحـــا * مولانا غانى اسميـــح

ويقول كذلك فى «الساحى» :

فق اساحى هاك فنجالك والقاه ارشفو ارشيف ياك المولى سماح

قالت هل لوفـا السامحـا * من لا اشرب لمدام ما فيه اسماحا

كما يقول في «الصبوحي» :

إغنم الصبوحي يانديم واسطاب ارضيع الكاس ولطيار افمغناهــــا

لا ترتي للبرنيس كب ورا ربي غفار

ويرى العلمي في «الساقي» أن الله كتب السعادة للسعيد والشقـــاء للشقي ، وانه لاداعي لاستنكار الذنوب أو محاولة تجنبها ، ثم ان الله غنــي مشفق رحيم :

غدر لي نسطاب فرجتي يتحقق روناقـــي ※ يـــا ســـاقـــي

خل الخل وهات لي الصهبا فالكاس احديقا ※ وامل لي ذاك لبريــق

كاتب مولانا السعيد ساعد والشاقي شاقي ※ يـــا ســـاقـــي

لاتستنكر امن اذنوب اولاتتكل عن تيقــا ※ مولانا غاني اشفيـــق

والامل عند إنجار في «الذهبية» أن يمحو الله ذنوبه ويقبل توبته بجاه الرسول صاحب الشفاعة :

وانهايت لحديث انطلبو من لاينام يمحى اذنوبنا وايتوب اعلينا

بجاه محمد نبينا

اشفيع فينا

حشا ايهون بنا

ربي اكريم من لاتخفاه اخفيا

معلوم ابلوفا وعبيدو يرحامو

بعد النكد امع لوزار

على أن بعض الشعراء لا يقصدون من الخمر حين يتحدثون عنها غــير **الخمر الصوفية** ، وأبرزهم ابن رموية والحراق وشقور ، يقول ابن رمويــة في داليته يخاطب المريد السالك :

اشرب لازم الكيسان ووصــال لـلاتـــوان

لقــد ضاق الزمان عــن الجاهــل لعتـــود

قد شربنا كؤوس زالت بها البوس

غيرنا مات اس (I) ولاعرف مقصـــــود

(I) كلمة غير واضحة ولعله يقصد مات أسى .

خـذ العسل الصافيا امـن اجباح الصـوفيا

واسقـه للروحيا ولا تكن احقـــود

ويقول الحـــراق :

اغنم كاس الراح * هـاجبيبـك زار

اســـق اودور * انـــف الـــشرور * طول الدهـــور

صـــل الشراب * فـالـنـكـد غــاب * والخبر صـــاب

رشـف لـكـــواب * امـــــع لـحـبـاب * عيـن الصـــواب

فازها فيامك * لو اتعيش انهار

نظرا فلحبيب تمحى كل اجرايم * والرحمان اكريم يالـلى نرجـــاه

اذا مارضى ماتنفع اعزايـــــم * لـو بعمال الخير كلها تلقـــــاه

ويقول شقـــور .

من عند الغنى تغنينــــــى * واتنزهنى امع لحبيب ابلا فخـــرا

اسق يا ساقى الخمــــرا * هـــذه ساعت الرضــــا

اظنـت فيـك ايـلا تفـدنـــى * واتنزلنى فى امراتب لعـــلا

أيا الساقى كب واسقنــــــى * وشربنى امن اكيوس الخمـــــرا

هز لقلوب هزهم هــــــزا * ياللـى بيـدك كــل عـــزا

داوى لقلـــوب بـاش تبـــرا * ياللـى بيـدك كــل قـــدرا

يـاسادتى يــا مـــوليــا * نظروا نظرا خالصا فيـــا

أنظرت فيكم نظروا فيـــا * نشرب شربـــا حقيقيــــا

سعدى بك وارضى اعليــــا * يــا محمــد سرك فيـــا

كذلك نجد ذكر الخمر الصوفية عند الفلوس الـذى يبدو مغرما بحب المختار شاربا من خمره ، وأية خمر هى ؟ ما أحلاها دون ساق أو كـاس ، وجدت قبل ان يخلق الكرم ، تسرى فى روحه ومهجته وعروقه ، وهـــى سابقة عليه فى الازل :

محلا خمر الحب دون ساقى من غير اعراقى * خمر قبل الكرم خالقـــا

واسرات افزوحىومهجتى واعروقىواسفاقى * ليا بالازال ســـابقـــا

بمدام الرسول الاكرم سقيت اوراقه وتفتحت أزهاره وفاح شذاها ،

وبهواه أينعت أشجاره وبالحب ترنمت الاطيار مغردة بأصوات سماوية تنشد تواشيح الفنون والاشواق ، وتسبح بألسنة ناطقة لايفهم تسبيحها غيـــر الخالق الكريـــم :

بماامك ياسيد الرفاقي نسقات اوراقــي * وازهاري بشداك وارقــا

واشجاري بهواك طافحا فالبستان الناقي * واغصاني فالجو خافقـــا

وانهاري بثناك فسواقي ماها دفاقــــي * وادواحي بالعشق باسقــا

واطياري بالحب كتلاغى ما بين احداقـــي * بصوات الكريم طالقــا

بتواشح لفنون ولشواقي تنشد كزواقـــي * واتسبح بلسون ناطقــا

مايفقه تسبيحهم الا نعم الخلاقـــي * من ودك بسرار خارقــا

وقبل هؤلاء جميعا كان المدغرى فى «الكاس» قد وصف الخمر بأنها معتقة لم تعصر ، وبأنها سبقت فى وجودها الكرم وبأنها ألطف مـــن الهوى وارق من النسيم ، يكفى شم عطرها الفياح لكى تسكر وتتلف العقل وتسيل الدموع :

خمر اقديم ابلا عصير منقبل الكرم افلاحى * يا صـــاحـــى

الطف من لهوا اورق من لرياح للياحـــا * يتلف عقلى اللى ارجيح

من شمو تكفيه طبتو ابلعطر الفياحــــى * يا صـــاحـــى

يضحى ما بين لقطار سايح دمعو سياحـــا * ما بين الحضر اسبيح

ولكنا لا نخفى شكنا فى أن يكون قصد الخمر الصوفية رغم النغمـــة الفارضية التى تطغى على هذه الابيات والتى يبدو أنها مجرد صنعة ومحاكاة، وترجح هذا الشك بقية القصيدة التى يغرى فيها صاحبه بالشرب كمـــا تقدم . ومانقوله عن المدغرى نقوله كذلك عن العلمى الذى سبق أن مثلنا ببعض شعره .

ثـانـيـا : الكـون والطبيعـة :

اذا كان الشاعر الشعبى قد اغرم بجمال مظاهر الكون والطبيعـــة فاتخذها اطارا لمجلس الشرب ، فانه ظل يتعشق هذه المظاهر حتى بعيدا عن جو الخمر ، فوصفها وصفا رائع التصوير بارع التعبير يكشف عن سلامـــة ذوق ، وصحـــة . وجـدان ، ورقـــة إحسـاس وشعـور بالجمـال ،

واستجلاء لحقيقته حيث وجدت . وهو في وصفه يقارن ويشخص ويبـــرز المعانـــي فـــي صـــور حسيـــة ملموســـة نابضـــة ، يبث فيهـــا الحركـــة والحياة ، ويبعث فيهـــا مـــن ذاتيتـــه مـــا يجعلهـــا تعكس حال نفسيته وحيوية عاطفته فـــي امتزاج وتجاوب مع تلك المظاهر .

وأطلق على قصائده في ذلك أسماء «الذهبية» اى غروب الشمس و«الصبوحي» و «الديجور» اى الليل ،وهو عندهم الداج والبهيم ؛ وأطلق عليها كذلك أسماء «الربيعية» و «العرصة» و «البستان» و «المشموم» و «النحلة» ومالى الى ذلك مما يوحى بمظهر من مظاهر الطبيعة والكون .

1 ـ الكـــــون :

وصف المدغرى **الشمس الغاربة** صفراء ذهبية ، وشبهها بفرس شقراء أرخى عنانها فغدت تغير على الروابى والسهول :

شف الـذهبيا اخدودها فى ذهب التشحـار

وارخات اصروع اللجوم فوق الوطيان اتغيـر

نعنها شكرا امخنتا من خيل المنصور

ويرى الحاج ادريس لحنش أن الشمس فـى لونهـا الذهبـى لبست ثوب الغروب وقد هجم عليها الليل :

الساقى عكب النهار فوز ابوقت السرور واسقنا بين ادواح

شف الذهبيا الرايحا ٭ لبست ثوب لغروب والليل اغشاها

ويسبح لله الذى جعل الشمس تشرق فى كـل أرض ، تزهى وتروق فى أول الضحى ، وتعلو لتلقى أشعتها على الجدران ، ثم تتجلى فى كبد السماء يخطف سناها الابصار وكأنها عذراء في عز نموها وشبابها، لايستطيع أحدان ينظر الى جمالها ؛ واذا ما حان الغروب بعد ذلك يصفر جبينها فى لحظات لتروح له لابسة أردية حمراء :

أساقى سبحان ربنا هـذا الشمس افكل ارض تتجلى عل لبطاح

واتزهى فى أول الضحـــــــى ٭ تنشر فوق لجدار ببروز اثناهـــــا

تبدا بها بعد ذاك تتجلى فى كبد السما اسناها يخطف للماح

كعـــذرا فاضغـــر طافحــــا ٭ لامن يقوا يشوف فجمال ابهاهـــا

ايلاحان اغروبها افساعا يصفار اجبينها اللغروب اتروح ارواح

فكســاوى يــاصــاح ناصحــــا * عكرى مغلوق فيه تغرب فى ماها

وهى فــى حالة الغروب ـ وقد احمرت خدودهــا وغدت معصــورة ـ شبيهة بالبكر التى شربت حتى ثملت وغابت عن وعيها ، فاختطفها عاشــق كان متربصا لها وغطاها بأجنحته ، وترك أهل الغرام يتوادعون وينوحون تبكى لفراقهم الطيور والاشجار ، ضارعيــن الى اللــه أن يعيد لهـم اللقاء . وكذلك فعل حبيبه الذى أغمض جفنيه استحياء وهو يودعه، معتذرا ومصافحا ومقسما أن يزوره ثانية ليتنزه واياه :

والشمس احمارو اخدودها ونعصرو نحكى اعويتقا زرعت كاس الراح
وامنين اتغاغات طايحـــــا * جار اعليها اوصيف عاشق وداهــا
عس اعليها ابلعيان حتــى غــابت عــن حالها اوغطاها تحت اجنــاح
واترك هــل لغــرام نــايحـا * تتوادع ابلفراق والوقت ادعاهــا
واطيور البستان ناحت اعلى الفرقا بصــوات حالها واكـذلك لدواح
رفدت العشاق فاتحــــا (I) * بكفوف ارزاقها ايولى ملقاها
...
شف اللى نهواه نيم اشفارو واستحيا وقال لى ودعتك ياصاح
واستعـــذر لــى ابلمصافحا * واحلف حتى ايجى وننشو انزاهــا

وعند المدغرى فى «الذهبية» أن الشمس فى غــروبها تذبــل وتصفر كالحبيب الذى هجره حبيبه بعد أن وعده بالوصال ، فظهرت على خــده آثــار الفراق ، ولبس ثوب الضنا الاصفر ، وسكب الدموع ، وذبل لونه وفقــد الصبر ، وحارت العقول فى أمره ، كلما انحــدرت شمس العشيــة للغروب زاد لونه تغيرا خشية من الليل وطوله وما يكثر فيه من فزع وتنهد وانسكاب الدموع ، يبوح اصفرار خده بصادق خبره ، وتزيده شمس العشية تذهيبا وكأنها عذراء تدور على أفلاك المحبين :

ريت اغروب الشمس ابلهــوا تذبال وتصفــار
كن احبيب امقاولوا احبيبو وارجع للغيـــــر
خــلاه افوكر ابلا رفيق امفرد مهجــور

(I) رفد الفاتحة اى رفع كفية ليقرأ الفاتحة ويدعو الله .

وظهرت افخدو اعلامت الفركًا من لضرار

والبس خابورى امن الضنا واسكب دمع اغزير

بسموا سيوف لفراگ جرحوديما معگور

وادبال اخيالو اوحالتو طاحت من لغيار

فغرامو واشكايتو وعشقو لعقول اتحير

يحسن عونو عادم الصبر بالفركًا مقهور

ما حد لعشيا تغرب ألونو فالتكدار

من خوف الليل الطويل والفزعا والتغيير

والتنهاد أكيت الصبر وامدامع لبحور

فوق الخد اصفورتو اتبوح ابصحت لخبار

والذهبيا كاتزيد فوق اخدودو تشحير

نعنها عذرا اعلى افلاك الغوان اتدور

ومثل هذا الربط بين الغروب والوداع نجده كذلك عند علال الصدراتى في ذهبيته حيث يقول :

الشمس اغروبها اعبارا

راحت مشمورا

وانبات اكوكب السيارا

كانت محصورا

والبدر انبا ودار دارا

ليلت عاشورا

والبين جار

تفرقنا من بعد لمزار

واتودعنا من لوكار

واقد واجمار

قلبى واش جايصبرو .

ويبلغ هذا الربط عند الحاج محمد النجار حدا يجعل شمسه لا تغيب فقط يوم ودع أهله في الصحراء للسفر الى فاس ، ولكن تصاب بالكسوف

فتظهر النجوم فى وضح النهار وتنتشر الظلمات :

لله ياهلى سمحوا فى شى فات

وادعيوا لى انصيب امنايا

فى بلد فاس كنز اغنايا

عند الشراف هل لعنايا

يسقونى السقوا بعد السقوا انال تقوا

نبسط لكفوف ضى وادجا للخالق ساير لخلايق يغفر الواتى

فجميع السيات

الين آوين الشمس فالسما ريناها كسفات

حتى ظهرو النجوم فالنهار الكهار العاتى

. . .

والظلما سدات .

ويصف المدغرى **الليل** فى «الديجور» فيدعو لرؤيته، مال ظلامه وأطلق كواكبه فى هالة وهمة كأنه سلطان من إلسودان أقبل فى حلة فخمة راكبا فرسا ضخما أدهم ، بيده أمان الملك وضمانه ، وخلفه جيوش من الفرسان ملأت الافاق تحيط به من كل جهة ، يمتطى جنودها خيولا دهماء ملجمة مائجة كأنها البحر الزاخر لابسة حللا من ريش الغراب والظليم :

شف الديجور ارخى اكواكبو من شور القبلا ايهيل ويميل إظلامو

سلطان امن السودان ينتقل فى هما وازكيـــم

لابس برناطا فوق امن ادهم متكلضم كورى افشان صولت تضخامو

قابط لمان امن الشريف واكبل فى زى افخيـــم

شف اجيوشو تاكو اوعمروا لافاق ايمين اشمال خلفو ومامو

فاق اهياكل دهما اتموج نحكى زخار اطميـــم

شف اخيامو فالكور كوروا بعساكر فرسان كلها قابط الجامو

بكساوى من ريش لغراب وارياش اجناح الظليـــم

والليل بسكونه وهيبته وغموضه ملجأ يأوى اليه المحبون ، يبثونه هموم وأحزانهم . وانطلاقا من هذه الحقيقة اتخذه المدغرى وسيلة لحوار يقصد منه الى تحقيق غاية وتبليغ رسالة، فهو بعد أن شبهه فى «الديجور» بالسلطان،

تخيل المحبين حضروا يقدمون له شكاواهم مصطفين في ساحة قصره ، منهم من يشكو الهجر ومنهم من يشكو التيه ، ومنهم من يشكو العشق ومنهم من يشكو الغرام ، وآخرون جاءوا يقدمون له الهدايا يرجونه ان يظل مسدلا ستاره عليهم لينعموا بملذاتهم ويستمتعوا :

شف المشور فالحين عمروه ارباب الغوان وامر اعلى خدامو

دارت بالشكايا اصفوفها في حرب اتحزيم

شف الشكايا شي اشكا بهجرو شي بالتيهان شي ابعشقو واغرامو

شي بالفركا شي جايب لهديا لليل ايكيم

تقدم المهجور يشكو هجر الحبيب بعد طيب الوصال اسيرا باكيا راثيا ، وقد طال صبر قلبه وأقسم الحبيب الا يفك أسره ، وهو يرجو الليل أن ينظر لحاله ويتدخل بلطف لديه ليكشف له عن حقيقة حال البين ، لعله يلين ويقبل استعطاف محبه فيرد عليه السلام ؛ ويود منه أن يجمعهما في مجلس أنس يستمتع فيه بالنظر الى جمال حبيبه والاستلذاذ بكلامه ، عساه يرفو خرق قلبه الكليم . ويجيبه الليل بأن عليه ــ رغم الهجر ــ الا ييأس ، وأن يظل بأبواب حبيبه وفي خدمته ، وأن يلاين ويسعف هواه في غير شؤم ، وانه مهما طال به الهجر لابد وان يلتقي مع حبيبه في مجلس شرب وأنس ، فكل من لازم باب الجود لابد داخله :

زاد المهجوز اشكا ابهجرو * من بعد طيب لوصال ارجع مهجور

قال اداجي قلبي اصبرو (I) * هذا اشحال ونا نرتي مهجور

والهاجر خلاني افيسرو * بشمايلو احلف لاطلق الميسور

ابغيتك ياليلي اتشوف من حالي واترغبو الى انجي نسعى ادمامو

يقبل تدمامي لايردني بالقهرات اهيم

ابغيتك ياليلي اتقول بلطفا لله عاشقك رد اسلامو

واتبين لوحال الصدود من بعد الوصل ادميم

ابغيتك ياليلي اتلمنا فبساطي نشفا ابهاه ونسمع اكلامو

يرفي ماقطع يادجورنا من قلبي لكليم

(I) ما أكثر صبره .

قال الديجور اللي اطوال هجرو يخدم لحبيب لايزول عن امقامو

ويساعف غرض اهواه لا يكون افلغرام اشئيم

من لازم باب الجود لاغنالو من مدخل لو اتطول بالهجر ايامو

يتلاقى بالمحبوب بين كاس أساقى ومديم

وتقدم التائه يشكو حائرا مرارة الهوى وجور مالكه وتيهه بشبابه، ويرجو الليل ان يكلمه لعل أن يطفىء نار قلبه ويعالج سقمه ، ويطرد محرزيه ، ويعيد الماء الى مجراه ، ويقفل الباب بقلب سليم ، ويود منه أن يلم شملهما حتى يرتاح قلبه من اللوعة ؛ وعساه بعد ذلك أن يقبله خادما وعبدا له . ويجيب الليل بأن من صبر وتحمل الهجر والجرح لابد — مالم يمل — أن يفوز بصيده مهما طار ، وينصحه بالامهال والمسايسة والطاعة حتى يفوز بالنظر الى جمال حبيبه ويشرب معه :

شف التيهان اشكا ابضرو * من تيه مالكو حارت لولود

قال اداجي لهوا امرو (I) * من تيه امن اهويت ارويت امن الجوز

هو تايه فشباب صغرو * ونا امتبعو واين دار اندور

ابغيتك ياليلي اتكلمو ياك ايعالج نار ضر قلبي وسقامو

تغنم أجر الملهوف ابلهوا ياليلي لبهيم

ابغيتك ياليلي اتقول للمحبوب ايرد لحروز الگدامو

والما اللمجرا والرتاج اللباب افقلب اسليم

ابغيتك ياليلى اتلم شملي يفرغ قلبي ابلعتو من تخمامو

لعل من بعد الصدود يرضاني عبد اخديم

ادوا لبهيم أقال من اصبر وتحمل حمل الصدود وعكر اجسامو

يقبط صيدو ولو طار لاتمل اصدود لغريم

ارخى عنو حتى ايوالف اتبعو بسياسا اولا تخالف لكلامو

حتى تشفا فجمال صورتو والكاس افتعويم

وتقدم العاشق يشكو السهر ، تكشف صفرة لونه ما في قلبه من داء وتكفي الفاهم للقضاء والحكم ، ويرجوه أن ينظر الى حاله مكويا

(I) ما أكثر مرارته .

بمفاتن حبيبه ونظرات عينيه ، ما نظرت اليه الا زادت جراحه آلاما، متلهفا الى الماء وهو يجرى متوفرا فى مكانه ، ويستفسره عن وسيلة لاطفاء عطشه ومعالجة رشق سهام حبيبه . ويرد الليل ليؤكد له أن العاشق فى حيرة مستمرة يقضى ليله بين الخوف والرجاء ، ويخشى الفراق حين يتم له الوصال ويظل مشغول البال عند الهجر دائم البكاء والانين :

زاد المعشوق اشكا ابسهـــرو ✲ واصفورتو كتبت اعلى الخد اسطور
واظهر فـــوق الوجنات سرو ✲ كيف يخفى اخبار القلب المضرور
واللى عايـق يقضـى ابنظرو ✲ ايجود ويصفح عن حال المعـــدور

ابغيتك ياليلى اتشوف حـال المكوى بمحساسنو وخزرات انيامـو
وقت ماريتـو كيزيدنـى تجـراح اتعديـــم

ابغيتك ياليلى اتشوف حال الملهوف أماه ما اخطا وسط ارسامو
صبرو راحل بغرامامن اهواه امع العشق افهيم

ابغيتك ياليلى اتقول باش اتبرد لله رشكات اسهامو
لنى عطشان الحب ولهوا شربى شرب الهيم

ادوا لبهيم اقال ذاك حال العاشق مشغول طول عمرو فعظامو
مابين ارجاه أخوفو كايكسم داجو تكسيـــم

ايلا كان احبيبو امعاه يخشى من لفراق الصعيب من بعد امكامو
ويلا فرقو يبقى امعلق الخاطر غير ايزيم

وتقدم المغر م يشكو القهر وأهواله الكثيرة ، ويشكو أوصاف حبيبته التى لاحد لها ولاحصر ، ويريد من الليل ان ينظر الى من اسود حالـــــه وادلهم وطال ، شبيها بحاله وبشعر الحبيبة الطويل المرخى على الاوراك فى سوالف ملتوية كالثعابين تاركة باله فى كدر وسواد ، وقد الهبته نـــار الخدود ولسعته الحواجب والعيون لسع الارقم ، وكأنها فى نظرتها سيف ابن عبس يغرس فى قلبه ، وهو بعد هذا يشكو زندى حبيبته يلهبان نـــار حشاه وقد انهمرت دموعه غزيرة كالمزن شبيهة بلآلىء ثغر الحبيبة وجوهر جيدها . ويجيبه الليل بأن من اكتوى بنظرة العيون مصادف اعدامه ، ولكن الله يجود بالصحو بعد الغيم :

زاد المغروم اشكا ابقهـــرو * وامدامعو امزون اعلى الخد اتفور
قال أداجى لهوال كثــرو * شلا انعيد من رمكات اليعفـــور
توصافـو عنـدى مـا نحصرو * بهم جيت شاكى من غير افجور
ابغيتك ياليلى اتشوف من هو حالو اكحل اطويل او حالك تدهامـو
مثل اشعور الباهى اطويل وعلى الوركين افخيـم
واسوالفها مثل التعابن الملويا فى خاطرى اكحالو واهامو
والقوس السعنى من الحاجب القايس لسع ارقيـــم
سيف عنترا فدواخلى امن الخزرا فى يوم اكباح جرد صمصامو
والهيبو من لخدود ياهلى والوجنات اجحيـــم
وادموعو مثل اجواهر الثغر ولاجوهر جيدها اعلى حســن اقوامـو
والزند زند نارى افلحشا من برقو لوسيـــم
وادوا لبيهم أقال امن اكوا من خزرت لعيـون ذاك صادف تعدامـو
لكن الله ايجود بالصحو مـن بعـد التغييـــم

وتقدم الذى هجره أحبته يشكو حر نار الفراق فى قلبه وغدرهم به بعد أن وعدوه بالوصال تاركين قلبه ملتهبا لايعرف الطبيب له علاجـــا ، ويسأله عما قد يفرج هوله وهيامه ، ويريد منه ان ينظر اليه بفراسة وعقل ويعالجه ويخبره بمكان احبته ان كانوا تحت جناحه ام فى خصب ينعمون . ويرد الليل بأنه ينبغى له ان يسأل ويجول ويقتفى أثر رحلتهم ، وان لـم يقدر على ذلك فليصبر على الضيم ، فكل من يعمل يصل ، وليس أمام العاجز الا أن يصبر وألايشكو اذ عجزه هو سبب ما يقاسى ، والذى يتمسك بالامل بفوز لابد بغوث من الله :

زاد المفروگ أشكا ابغـدرو * قلبو ابحر نار الفرگا مدعــور
قال اليلى لحباب غـدروا * بعد التفاق عن لودا و اشهــور
تركـوا قلبى كـاوى ابجمـرو * عكز الطبيب ما عرف الداياشور
ابغيتك ياليلى اتفـدنـى بفاد تفجى اهوال قلبى واهيامـو
وانظر فيا بفراست لعقل لنك حبر احكيـم
ابغيتك ياليلى اتعالـج الصب اللى رحلوا احباب قلبـو فيامـو
واداوا إمعاهم خاطرى اولا باقى له احليم
أبغيتك ياليلى اتگول لى وايـن صدوا لمتى وايـن حامــو
لاينهم تحت اجناحك السعيد اوفى خصب انعيم

ادوا لبهيم قال سول اوجول اتبع ارحيلهم فى أثرو هامـو

كان انت ما قديت يالداعى اصبر اعلى الضيـم

من اخدم اوصل والعاكز يصبر لايشكى عكزو اسباب هجرو واعدامو

والى ما قطع اياس لاغناه ايغيثو لكريـم

وهكذا قضى الليل وحكم بفكره لارباب الهوى ، وفصل بالحق حتـى شاع خبره فى كل مكان وجد فى العمل ساهرا يشهد له الشمع والخمر :

أمرواحكم واقضى ابفكـرو * لرباب لهوا بالحكم المشهـور

وافصل بالحق أشاع خبـرو * افكل فج بين امداين وادشـور

واجتهـد فالخدمـا ابسهـرو * بشهادت الشمع والخمر المعصور

أما الذين قدموا الهدايا – وهم أهل الانس – فجاؤا يطلبون منـه ان يطول وقد حلا النغم وشعشعت الخمر وأضاء الشمع :

جاوه ناس الفرجات ولخلاعا واهـداوه أراودوه عن طـول امكامـو

قالو لوياسلطان هل الحب ابغيناك اتقيـم

احلات الصيغا ولمدام شعشع والشمع ازهى اولاح فخدود اريامـو

والكيسان افميدان حربها تجرى فى تعويـم

ويدعو المدغرى فى «الصبوحى» للتمعن فى **طلوع الفجر** ورؤية البدر مضيئا كعروس برز من الحجاب وحوله الكواكب فاتنات يرعاهن تحطن به يمنة ويسرة، ويدعو كذلك – مستغلا أسماء الكواكب فى تلاعب لفظى رائع – لشاهدة المشترى ولوعا بشراء العاشقين ، له سوق عامرة بهم ، وزحـل باعثا حمرة على الخدود كعصير الخمر ، والزهرة زاهرة خدودها يزهـى المحبون بجمال ضوئها ، والكيوان يكوى القلوب بلانار ، والمريخ مرخـى لثامه ، والثريا متملية من سناها بعقد والنجم يزهى العاشق بغرته ، ويبشر بضياء مناره ، والنسرين يسرى فى الرياض بعسكره والنسيم يفوح عطره منبئا بطلوع الفجر :

شف البدر الضاوى اعريس تاك افحجبا واكواكبـو اعـوانس يرعاها

دارت دور المقياس به عليمين وايسـار

شف المشترى لـه سـوق عامر برقاب العاشقيـن والـع بشراهـا

شف الزحل ارقى اعلى لخدود اعصير المسطار

شف الزهرا زهر اخدودها وتزهى اصحاب لهوا عن حسن اضياهــا
شف الكيوان اكوا ابكيتو لقلوب ابلا نـــار

شف المريخ ارخى اللثام شف الثريـا لابسا اعقود امن اسناهــا
شف النسرى يسرى اعلى الرياض بعساكر جرار

شف الغرار ابغرتو ايهز العاشق وامنارتو اتبشر بضياها
شف النسايم ابطاعت لفجر يعطوك لخبــــار

أما الفجر فكسلطان راكب فرسا أشهب ، وقد مسك في يساره مسحاة حادة يركض خلف وصفائه في كل مكان مشمرا عن ساعده بحزم :

شف لفجر احكيتو اشريف راكب اشهب اوبلا اعلى ايسارو ممضاها (1)
يجرى اعلى وصفانو افكل جيه ابحزم اتشمار

وهو قد أشرف على الاطلال متوثبا كأنه المولى اسماعيل ، ناشرا علمه المنصور وضاربا بسيفه المصقول في جيش الظلام ، يسير خلفه عسكر من الخيول الشهباء النجيبة الصاهلة :

شف الفجر اركب فوق لطـــلال ✻ قايم نعنيه مولاى اسماعيل (2)
شف اعلامو منصور قتــــال ✻ سيفو اعلى اجيوش الديجان اصقيل
شف كم من اشهب ارفيع مازال ✻ شيهان خاطف الكصا له اصهيـل

ويقارن ابن على **بين الصبح والليل** ، بين الصبح كسلطان أرخى ذيـل أزراه لابسا حلة من الديباج ، وبين الليل في توديعه كغراب أسودشابت عذاره وأضاءت مناره ، بين الصبح كنسر يعلو في تحليقه ، وبين الليل سال دمع غرابه وقد بدا الضوء من خلال ذلك متجليا يطرد الظلام ويزيحه ، وظهــر حمام القبلة كالامام في المحراب ، ودار الفلك بمشيئة ربه فاختفت الكواكب وهب النسيم من بين الظلمة والنور يحرك الاشجار :

الصبح كشريف ارخى ذيل ايزارو ✻ والبس امــن الـديباج اغفــار
والليل كغراب اسود شاب اعذارو ✻ واشعل امـن الضياه امنــــارا
الصبــح كالنسر يتعلـى ✻ والليل سال دمع اغرابـــو

---

(1) ما أحد ها .

(2) في رأى استاذنا الجيل الدكتور عبد العزيز الاهوانى أن ذكر اســـم السلطان في مثل هذه القصائد ربما يدل على أن بعضها كان مداخل للمديح ولكن الرواة لم يحفظوا هذا المديح .

والضو فى السماء اتجلـــى * رسل اعلى الظلام اعقابـــو
انظر اترى احمام القبـــلا * مثل ليمام فى محرابـــو
الفلـك كيف دار ابصنعت دوارو * واخفى اكواكبو سيـــــارا
هب النسيم بين الداج وانهـارو * شـوش ادواحنـــا المسرارا

وعند المدغرى فى «الذهبية» ان الشمس أرخت أكمامها معولـة على الرواح ، وقد أحست بالليل فارسا حازما مشمرا يجمع جيشه يريـــد الهجوم ، فركضت هاربة من بين الاشجار تبدو أشعتها كأسماك الشابـل تلمع وتضىء :

شف الشمس ارخات لكمـــام * عولت للرواح افتيها واقيامـــا
حست بالـديجـــور لغـــلام * جمع لجيوش راد الحركا بزعاما
وهــربت وعرت لوهـــام * خلات لـو الركَ اشقرا بسلامـــا

. . .

والشقرا تجرى اعلى اجهدها ما بين اشجار
والفارس تبريمتو اعجب محزوم افتشميـــــر
وامزاركَ شمس لعشى اشوابل تلمع واتنور

واذا كان كذلك موقف الشمس أمام جيش الليل الجرار ، لم تطـــق مقابلته ــ وما كان لشىء أن يوفق بينها وبين عبد أسير ــ فان النهار قـــد اختطفها وحملها بحزم على أكتافه وغاص بها فى الغروب لتزف اليه فى عرس يشيع خبره فى الصباح ، ولم يترك لجيش الليل غير الضباب . وحاول هذا الجيش أن يعثر عليها ولكن دون جدوى ، وظل الليل يعض الندم يرمـــى بحره بالموج والظلام ، وشكت اطياره فى اوكارها باستثناء أم الحسن التى باتت متنغمة ، وحز فى نفسه أن يختطف النهار المشرق نجمة الانارة ويتزوجها ، وان يتكرر ذلك كل يوم :

شف الشكرا شافت الظلام ابعسكر جرار
واعرفها مثل الظليم ماطاقت لو بعكيـــــر
واش ايلاقـى بينها اوبيـــن الميســـور

حوصها جيش النهار عن كهلو فالتشهار

واغطس بها فى اغروبها محزوم افتشمير

خلى غير الركّ والضباب الجيش الديجور

طلـق الليل اعساكرو اعليه ايميـن وايسار

شرق اغرب اعيا ومايوكد ومن دير الديـــر

ماوجد وجرا اولا الكّاو المنزلها شـور

...

حوص خيتو ولد لهمـــــام * وابقى الليل بات افغصا واندامـا

يرمى بحرو موج واظـــلام * بسواد فوق برناطا دار اعلامـــا

واشكات اطيارو افلرســـام * من عير أم لحسن باتت نغاما

وابقات الغصا افخاطر الـديجـور الغـوار

حين اخطف لو شارق النهار انجمت التنوير

واعمل بها عرس كان فالصبوحى مذكور

وابقى جيش الليل فالنهار ايعوم ابكّدار

يخطف شمس اعشيتو ايفادى تارو بهديـــر

واتروح اعروسا امثيل جيش الفجر المجهور

ويصور المدغرى الصراع على النجمة بين الفجر والليل ، وكأن كلا منهما سلطان بعسكره وجيشه ، أحدهما ـ وهـو الليل ـ راكب فرسا أدهـم ، والآخر ـ وهو الفجر ـ راكب فرسا أشهب . وبينهما ظهرت النجمـــة بهية مضيئة بارزة كأنها عذراء منعمة . وتقابل الجيشان ،جيش الليل بسلاحه وخيوله ، وجيش الفجر بالقمر المضيء . وادعى الليل أن النجمة ملكه طوال الاجيال ، وزعم الفجر أنها زوجه بالعشق الحلال وانها دائما فى رعايتـــه تلازمه لاتحيد عنـه . وماكاد الجيشان يلتحمان فى قتال مرير حتـى انتصر القمر وحاز عروسه ولبس رداء غدا يرفل فيه :

يقظ جفنك شف شف حرب الفجر مـع الليل

كـن اهمام امـع اهمـام بين اعساكـر وامحال

واحد عن ادهم لخر اعلى اشهب مشمول

فالميدان اتحاربوا اعلى نجما حرب اطويل

والنجما بناتهم حسن ابهاها شعال

نعنها عذرا امختترا تاكت بين افحول

الدجا افبط فجمالها بالعدا والخيل

والفجر ادغم فيه بالكمرا حربو قتال

واتلاقت الخيل ابلبتر والسيف المسلول

الدجا ادعا وقال دك ملكي من جيل الجيل

والفجر ادعا قال دك زوجي فالعشق احلال

فى حوزى ديما املازما جنبى ليس اتحول

اتلطمت الخيل افلكفاح ابعيط واصهيل

عامت الكمرا اعل اجيوش الدهم لبطال

حاز الفجر اعروستو ولبس ايزار مرفول

2 ـ الطبيعة :

وبنفس الاسلوب الذى وصف به الشاعر الشعبي مظاهر الكون ، ذاتياً نابضاً بالحيوية والحركة والمقارنة ، صور مظاهر الطبيعة ، فهذا حماد الحمرى فى « ربيعيته » يصور انهزام جيش الشتاء أمام **الربيع** الذى أقبل كسلطان منصور حاز كل فخار ، فصفت السماء من الغيوم ورمت ثوب الحزن وبدا فى الافق قوس قزح بألوانه المختلفة كأنه على خصرها حزام (I) :

سارت لشاتى كالجيش ايلا انهازم افلكحار

من بعد زام طبلو واتنصر سار افلقفار اكسير

اوجا اهمامنا لسمى الربيع حايز التفخار

وصاب ما يصيب المنصور ايلا امشى اعداه احقير

ارمات السما ثوب حزنها ولبست الافتخار

واتحزمت بالسبع الوان اللى اهداها لخبير

(I) يطلق فى المغرب على قوس قزح : حزام للا فاطمة الزهراء .

وهـذا امتيرد يرى فى « ربيعيتـه » أن الربيع أقبل بأنواره ، وعمت البركة والهناء والخير ، وغدت الارض فى حلتها السندسية المنقوشة كعروس سلطانة منورة أحياها بعـد الموت بغزير الامطـار ، وبدا المطر فى تباه زوجا للارض تسود بمحاسنه ؛ ويـوم ضمها وسقاها حملت منه ووضعت للسرور ذكورا واناثا ؛ فأزهرت الانـوار من كل صنف بقـدرة الله ، وخرج الناس للتنزه من كل مكان :

فصـل الربيـع كبل بنوارو

* عامنا عـام البركـا ولهنا والخـير

من بركت النبى صلى الله اعـلى باهى الصورا

انـقـش الارض ابحكمت اسرارو

* صبحتاعروسا سلطانا امنوراتنوير

واثيابهـا اسندسى وانـوارها افراش منضورا

من بعد موتها احياها * بعـوارض لمطـار اسقاها

سبحان ذا الثنا والعظما والجود

لمطر كابعا يتباهى * والارض زوجتو فحضاها

بمحاسنو ابدبمت لجمال اتسود

فنهار ضمها واسقاها * منو احملت فوق افضاها

وضعت للسرور اذ كورا واغيود

لنـوار كـل صنـف اتصـــــوارو

كيف صور واصنع من هـو الكل ذنب اغفير

مـن طبت الجنان الساعد للساعديـن بالزورا

هـاج الربيـع وافتح نــــــــوارو

فيـه لخلايـق تهـدى كافـا اكهـل واصغير

لنزايهـو اتكبل مـن كل ارسام لـه واقطورا

ثم آخذ فى وصف الاشجار والطيور على حد ما سبق ان رأينا فى اطار مجلس الشرب .

وعند الطيب الواستري فى سرابته الربيعية أن فى قبال الربيـــع

سعادة الايام وانتشار مظاهر الخير ، فقد جاد الزمان وضحك
وانفرجت الاكدار وزالت الاحزان ، وظهرت الزهور المختلفة
اليها ، وبدت الارض كأنها من حور الجنان ، طاب عليها السر
وهى بهذا عروس زفت الىه فجاد عليهما الزهو وغدت بارزة
وأجمل الحلل :

فصل الربيع كبل والوقت ازيان ※ واعلامات الخير للو
جاد الزمان واضحك ثغر السلوان ※ والنكد اتفاجا اوزال
وابطايح الزهر اعلى كل الوان تسبى من راها ابث
والارض زى حوريا من رضـوان ※ واعليها طاب للد
نحكى اعروس واعروسا فى أوان ※ اعليهم جاد الزه
صبحات بارزا فكساوى حسـان ※ دام الله اجمالها وا

ومثل هذا نجده عند غانم الفاسى فى «ربيعينة» :

الربيع اقبل فيامو الريح غـلاب ※ وانكسات البيدا بكد
كعروسامن كل اقماش زايداديباج ※ حانطا بثياب الكبر
هايجا عدراويا امن احراج لغناج ※ ابملحاسن تسبى فا

جات ايام الزينا بالزهو ولفراح
اقبل فصل الربيع وايام السلـوان
الزهو أتى وانشرح ا

وعنده أن الربيع من فضل الله ونفحة من نفحات الجنة

حال ايام الربيع من جنت رضوان ※ بانت لوراق والزه
سبحان الوحيـد عظيـم الشان ※ بدع اجميع لشيات
جاد اعلينا برحمتو والسلوان

أما ابن علي فيرى فى «الزهو» أن وقت الزهو يدعو للنظ
فى ايام الربيع والاستمتاع بجماله كسب :

وأشجارها . تتعانق أغصانها فى ترحاب كما يتعانق الاحبة بعد طول غياب ، تتمايل معربدة من شراب كؤوس الندى الرائق السكيب ، وقد ضحك الزهر وبكى الطل ناحبا كأنه عاشق تضحك الحبيبة لبكائه ، تتجاوب معــه نغمات اوتار العود والرباب المطربة تنقر عليها أيدى العذارى :

حل عينيك واتنزه زد شوف واسطاب
فــى ادواح العرصــا وازهــارهــا اعجيبــــا
اغصانهــا بالفرجات اتعانقـــو ابترحـــاب
كيف عنق لحبيب احبيب بعد غيبـــــــا
اتمايلــو وعربطوا فريباضهــم بشجــار
امن اكيوس انداهم امرونقا اسكيبـــــــا
الزهر يضحك والطل ابكى افتنحاب
كن عاشق تضحك لبكاه شى احبيبـــــا
ولوتــار اتجاوب بنغام عــود وارباب
فيد عدرات اصوات اوتارها اطريبـــــا

وهو يشبه أشجار البرتقال والليمون محملة بفاتنات من بنات العرب الذين يسرع أبطالهم لانجاد كل من استنجد بهم ، وهن يصلن بسمرتهــن ، تزين أجيادهن وصدورهن قلائد العقيان :

شف رنج اللتشين اليم كن خـودات
من ابنات العربان الصايلات بالتيــــت
ابلعقيق أعقيان امخمسا اكــلادات
ابطالها مــن بهــم استغاث دايــم اتغيــث

ويشبه اشجار الرمان المصطفة بعرائس لابسات حللا حمراء متوجة الرؤوس :

شف صف الرمان ابهيــج كالعرايس
لابسات العكرى فعراشها اعلى الراس

ويشبه أشجار التفاح بأبكار أطلت نهودهن الصغيرة ، وماكادت تطل حتى اخذتهن الحيرة والدهشة من اكف العشاق وتملكهن الحذر والرهبة :

شف صف التفاح اربا افأرض لاميـر

كاعزبات اضحت انهودها اصغيرا

كيف طلـوا وانبهضوا حازهـم تحيير

من اكفوف العشاق راهبا احديـرا

ويشبه الورد بخدود أبكار المدينة عائدات من الحمام ، شعورهن مبتلـة تقطر على ماء ورد الخدود العنبرى الطيب ، يعتدلن ويملن فى ريح غلابـــة كأنهن سفن تمخر العباب :

شف صف الورديحاكى اخدود لبكار ＊ ساكنات البهجا(I) البيضا ابنات لحضر

جـايات مـن حمـام اشعورهـم كطـار

فوق ماورد الخدين طيب عنبـــــــر

...

كايعدلو وايميلو ريحهم غـــلاب ＊ كاقراصن فالبحر امنازهو اسجيبا

ويشبه النخلة بعروس بكر تتقلد الياقوت والعقيان والجواهــر ، تتمايل مع هبوب الريح من العربدة والسكر ، وقد أرخت شعورها مسدلة ومضفرة ، وهى من بنات الحضر زاهية كريمة يفوق جودها الوافر جودحاتم

شف ديـك النخـلا نحـكى اعـروس بكرا

امقلدا ياقوت وعقيان والجواهـــــر

كتعربد فى اريـوح احـوالها ابسكرا

اشعورها مسروحا وامضفرا اضفاير

مـــن لبنات المزيانا زاهيـــا وحضرا

غالبا حاتم طى ابجودها الوافـــــر

ويشبه أحواض الزهور تكشف عن ابتسامتها من النقاب كوجنـــات السكارى :

ولحواض بنوار امبسما امن انقاب

كن وجنات السكرنات بالصهيبـــــــا

(I) البهجا من أوصاف مدينة مراكش .

ويشبه أديم العرصة بزرابي مفروشة للتنزه متناسقة ، زانه رقم حريري يفرج الكروب ، ليس من نسج الانسان ولا كتابته ، ولكنه من نسج البارى جلت قدرته ؛ أما جداول الماء وسواقيه فكالثعابين تجرى ملتهبة الاجواف :

شف ارض العرصا ماكيفهاازرابى ＊ امفرشا لنزايه هذى الـذى ابنسبا

ابلحرير امرقم يفجى ادجاكرابى ＊ ماتنسجو بصباع اولادخل الكتبا

بيد مول القدرا منسوج ياحبابى ＊ اتفكروا واعتبروا تلقاو كل رغبا

شف ذاك الما فسواقى انسيج صباب ＊ اكما التعابن تجرى واحضانها الهيبا

ونجد عند المدغرى كذلك وصفا غير مباشر للازهار والانوار فى «النحلة» حيث يستعرض مختلف الانواع التى تمتصها ، يقول مخاطبا اياها فى حربة القصيدة :

صولى ياشاما الظريفا وازهاى أغنى وقطفى مـن لزهار

أتيرياق اعلاج كـل ضر ＊ أبنت الملك ملك هما واتمار

وفيها يرحب بالنحلة ويهنيها على الصولة التى تتمتع بها فى أمة الطير ، ويطلب منها أن تغنى بين الورود والزهور وخدود الجميلات وعيونهن الذباحة ؛ أوحى الله لها فى كتابه وألهمها للتجول فى السهل والوعر وبطاح الندى لقطف الانوار ، وجعل فى شهدها دواء وحكمة وكسبا :

سهلا واهلا بك يالنحلا واهنيا يالصايلا صلتى عن لطيار

غنى بين الورد والزهـر ＊ واخدود الزين ولعيون النحارا

اوحى لك الله فى اكتابو لهمك لبطايح الندا ولقيط النوار

والجولا فالسهل ولوعـر ＊ واجعل فيك الـدوا وحكما واتجارا

أما ابن على المسفيوى فى «المشموم» فيدعو العاشق الى قطف الزهور وضمها فى باقات لتقديمها الى الحسان :

يالعاشق قطف النوار بين لريام ＊ كل وحدا ركم لها افنوع مشموم

ويستعرض أنواع الزهور التى تضم الباقة وكأنها عرائس النيـــل

فيقـــول :

من افنون النوار اجنى اعرايس النيـــل

والزرهقان انسرى والشقيق والياس

بابنـوج اطماج أقرمـزى افتخبيـــل

ولبهر والسوسان امجاور و اسكلمـــــاس

يـاسميـن أغنبار امـع لبها افتحفيل

ولعشيق أعاشق والرنج والنرجـاس

اقرنفل والخلـى والـورد فـاح بنسـام

ولحكم دون اشريع ابلغرام محتـــوم

خد الجـوار أشككى اشكا ابلغـرام

باح سرو من عشق الباهيات بقيوم

امشرقيـا اوشامها يسحـر لعقـول

وفزيـــن ازويول الراحـا اللمقـال

والباغ وابنفجيـج والديدى متمـول

نشوان افغايتو وعنها مـا يسـلا

والعقيون الدحـان اصبـح معلـول

شاف الزين لبهيج من فايق عبـــلا

ولم يكن الربيع وحده الذى يتيح فرصة الخروج للتنزه والاستمتاع ، وانما كانت غير قليل من **المناسبات** تتيح مثل هذه الفرصةلاستعراض جمال الطبيعة والفاتنات كشعبانة وعاشوراء ويوم الزيارة ، يقول امتيرد فـى شـعـبـانـة :

يوم لتنين افشعبان السعيـد يامـن يبغانـا

لنزايـه كبلت اعـوانس لمديـن الحمـرا (I)

آش را مـن لارا لريام يـوم داروا شعبانـا

كعرايس نحكيها بارزا افحضرت كسرا

(I) الحمرا من أوصاف مدينة مراكش .

ويقول الحاج محمد النجار في عاشوراء :

أجى اتشوف يامن لاشاف الهايجات يصداروا

كيف شافت عيني حسن يوم عاشـــــــور

ويقول الشيخ العربي الفاسي في خروج الفاتنات للزيارة يوم الجمعة :

خرجوا لبكار

يوم الجمعا لسواحل لبحر

بالآل وانغايم لوتر

حاموا الزخار

شف امدينت سلوان (I) زاهرا

خرجـوا لبنات للزيـــارا * واجى يامن ابغا ايـزور

تهنا واتشوف دالعبـارا * خرجوا في افراتن لبحـور

قالـوا يزهاوا بالتمـارا * خرجـوا بـــرا لقصــور

مـلاحـظـــة : شعر الفكاهــة :

قبل أن نترك هذا الجانب الباسم المقبل على الحياة الى الجانب العابس الجاد ، نود أن نقف وقفة قصيرة عند فن من الشعر الشعبي لاشك انه تعبيرعن روح الاستمتاع والابتهاج ، وهو شعر الفكاهة ، وتعرف قصائده باسمـــاء كـ : «الزردة» أي الوليمة ، و « الطجين» و « الفار » و « لكلب »ولكن الاسف أنا نبحث عن هذه القصائد فلا نعثر منها الا على بقايا قليلة . وقـــد أكدلنا الاشياخ انها ضاعت في اغلبها بسبب ما كانت تثيره بينهم من شغب وشنآن جعل المنشدين يتحاشونها وكذلك الجمهور .

من ذلك ما يحكى من أن الناس كانوا يطلبون من المنشد قصيـــــدة «الفار» فيقولون له :

«آنه تيجي احلو من فمك» فيرد : «اعلى اوجوهكم» ؛ ويقولون انـه كان للغالي الدمناتي قصائد في « الكلب »وكان الناس يطلبون الاستماع اليهـــا بمحضره بمثل قولهم «قولوا لنا الكلب دا الغالي» وكأنهم يشتمونه ، فتضايق من ذلك وأحرق كل انتاجه في الموضوع ، وحرم على حفاظ شعره أن ينشدوه.

(I) مدينة السلوان يقصد بها مدينة سلا .

ومن القصائد الباقية قصيدة «الزهو فى طبلا حسن» ، وهى تنسب للسلطان سيدى محمد بن عبد الرحمان ، وفيها يرى أن الزهو فى مائدة أكل جميلة وصينية شاى عليها براداِن ، وكؤوس ملونة :

الزهو فى طبلا حسن

لبرارد زوج وكيسان

لونهم يهوانى

احكيتهم حرجت بلعمان

مهتل فوصاف الكيسان

عين علجا والخابورى (1) امع لخضر يهوانى

شمس لعشى يسحر لدهان

وفيها يقول مستعرضا اوانى الشاى وملحقاتها من صينية وبراريد وكؤوس وزنابيل (2) وبقاريج (3) وبابور (4) وقوالب سكر ومرشات «5» ومبخرة «6» :

ولبرارد نحكى شابات يافهيم اوزانى

امحزمين بهمام السلطان

ولبقارج مثل الفرسان

راكبين اسروتا وامحزمين لمدانى

. . .

در بابور اصفر فلوان

شعل نار فى كلب ابلمحبا فانى

---

(1) العلجا هو الازرق السماوى والخابورى هو الاصفر .

(2) هى فى الغالب أوانى ثلاثة احداها لحبوب الشاى والثانية لقطع لسكر والثالثة للنعناع .

(3) بالباء أو الميم ج بقرج بفتح حرف الراء ــ ومد نطقه فى البوادى ــ وهى آنية غلى الماء ، وتعرف فى المشرق كذلك بهذا الاسم .

(4) جهاز غلى الماء ويطلق عليه فى المشرق السامور .

(5) مرشات تملأ بماء الورد والزهر للتطيب وهى فى الغالب من الفضة.

(6) مبخرة احراق العود .

عشق الطبل والكيسان

ولقوالب مثل الشبان

. . .

والزنبل مثل البيزان

ولمراش نحكي غزلان

بارزين افطبلا والعود افلمبخرا فاني

عبق انسم بالدخان

ويقول عن الحلويات والمأكولات ذاكرا البسطيلة (I) وكعب الغزال (2) والغريبة والمحمرات والمحشوات والمقليات والمشرملات(3) ، من ضلعة (4) ومروزية (5) وشواء وطواجين وكسكوس بالفراخ والحمص والبصل :

در بسطيلا فالغطران (6)

واطباصل (7) من كعب اغزال من شغل مخزانى (8)

واغريبا من شغل اليمان (9)

(I) ورقات رقيقة من العجين محشوة باللوز المطحون أوقطع الفراخ والبيض، تطلق وتجمع على شكل دائرى .

(2) قطع من الحلوى محشوة باللوز على شكل الهلال .

(3) نوع من طبخ اللحوم يشترط فيه قبل طبخها أن تشرب بالتوابل وخاصة الفلفل الاحمر .

(4) لحم محمر فى السمن والغالب أن يكون قطعة واحدة ومن لحم الصدر، ومن هنا كانت التسمية .

(5) ويطلق عليها «لمعسل» وهى نوع من اللحم المعسل يوضع عليه اللوز والزبيب .

(6) ، (7) هى الصحون .

(8) نسبة الى المخزن أى الحكومة والسلطان ، وهو وصف يقصد به الشيء المتقن الرفيع سواء فى مأكل أو مبلس اوغيره .

(9) تبدو هذه النسبة غريبة ولعله قصد أن أشكال هذا اللون من الحلوى فى اختلافها ودقتها شبيهة بأشكال الوشى أو الرقم اليمانى المعروف

امحمرات اثلاثا فبيان

امعمرات اثلاثا ومقليات اثلاثا ثانى

امشرملات ادجاجات اسمان

حمر الضلعا فالفران

لمرزيا لمقليا ياكل الشبعانى

واشو امن لحم الخرفان

والطواجن مثل الوصفان

ولفرارج مثل الصبيان

فوگ لكسكسو بالحمص والبصل رويا نى

والسمن مدوب تزمان

ومنها كذلك قصيدة «الزردة» للحاج محمد بن عمر المراكشى ، ويرى فى حربتها أن المضغ فن وفراسة وأن الذى لا أضراس له يظل يلوك الاكل فى فمه قبل أن يبتلعه :

ولمضيغ افراسا من لا ايليه ضرسات * كيملوج فمضيغو عاد تيسرطو

وعنده فى دخولها أن الصديق الذى لا ينفعه بخبزتين لا يعول على طجينه ومرقه ، ويكتفى بشد حزامه ، مقنعا بطنه بالشبع من طعام لم يطبخه بنفسه ، ناسيا اياه ليعود الى قوته الذى اعتاد ، ولكنه وجده غير ذى طعم ولم يسغه فلفظه .

ولحبيب الا ينفعنى ابزوج خبزات * مانعول عن طجينو اولا مرقتو

انشدكرشي وانقنعها انقولشبعات * امن الطعام ملاطيبتو اولا نصبتو

انظن كرشي عمرات اولا عتيق حدجات

وانسى من بالى قوتو اولا قبلتو

كان لى قوتى وابداني به نسقات * ما نسيتو به امبالى اولا تركتو

امنين دقتوصبتو مافيهشيالنسمات * ملفاه ارميتو من بعد ما مضغتو

وفى عروبى من القصيدة يتحدث عن الولائم التى يذهب اليها فى غاية الزينة حيث يجد كل ما يشتهيه من موائد رصت فوقها الطواجين وأصناف الاكل المشبع الشافى للامراض :

كـم مـن زردا امشيت فيها ليس اجلست
والقيت اللى ابغيت فيها عل لنعـــات

وادخلت الـدارهـــا امقبب وزينت
قـربت لصحـونهـا اللـى قبلـت

واطواجنهـا امعمـرا جـات وحضرت
فوق اميادى امبرجا زهوا للــدات

وما وجدت امن اطعام اصناف اعملت
يشفـى ضر لبـدان من هـى زردات

واليوم ابطون منها شبعت واروات

وهى قصيدة تبدو مستوحاة ومقتبسة من قصيـدة فـى «الوصايـة» للعلمى يقول فى حربتها :

اللعب من غير اشطارا فوق روس حربات
هكذا مثلث ابنادم فى اعشرتـــو

وفى اولها يقول :

لحبيب الا ينفعنى افيوم حـــزات * ما نحمل عن قلبى غل امن اكلفتـو
ننساه ونترك حسو انحسبو مات * وانعود ياراسى زليت امن اعشرتو

ولعله واضح أن «زردة» ابن عمر ليست غير قلب لموضوع «وصايـة» العلمى . على أن قلب القصائد ومسخها يشكل نوعا خاصا من الشعر الفكاهى برع فيه أشياخ مراكش ولاسيما الشيخ أحمر الراس ، وهو أن يأخـذ قصائد جدية فيمسخها ويقلبها الى موضوع هزلى ، ومن الامثلة على ذلك قوله فى الابيات التى أصلها (1) :

أللازهـور ازهر وازهـارو * بك الزهر اللا ازهر
صولى صولى يا غزالى زهرا

فهو قلبها الى مايأتى :

سكران ريت يامس يلفظ بشعارو * اسكر وطاح فى دولت لبكـار
مافـاق حتـى اتكـون العشرا

(1) من قصيدة : «زهرا» للتهامى المدغرى .

ومن ذلك أنه أخذ «حراز البغدادى» :

مال حراز الدامى ما يتق بياهيهات * غيـر حاضـى لوقـــات

بالدوام امجنبنى اولا يرومنى قطعيا

فقلبه الى الخراز :

مال خراز البالى مايتم الكلبـــات * شـابـات وعـــزبـــات

كل من جات يبطش بهــــــا * ويقضى لها اربح وخطيـــنا

وفيه يقول مستنكرا حال الزمان وما تفشى فيه من انحلال خلقى :

اوصل الزمان فاش ابغاوا اميا ملعرج قتالا

ويـلا اعياوا ايبولوا ايقرجطو (I) ابـلا جنوى

ولكن هذا النوع ضاع كذلك بسبب ماكان يشيع فيه من فحش وعبارات نابية ، بعد أن ظل تداوله محصورا فى نطاق خاص .

(I) ايقرجط أى يخنق . وهو هنا يشير الى واقعة كانت حدثت بمدينـــة مراكش، مجملها أن خرازا يسمى الحاج الاعرج كان ورعا متدينا ولكنه كان يتصيدالنساء الباغيات ويحتال عليهن حتى يأخذهن الى دكانه ، وكانت لـــه فيه مطمورة ، فيذبحهن ويلقى فيها بجثثهن . ولم يكن أحد يعرف كيـــف يختفى هؤلاء النساء الى أن وقع ذات مرة أن طمر احداهن وأخذ قفطانهـــا وباعه فى السوق ، ولم يكن هذا القفطان ملك القتيلة وانما كانت قد استعارته من احدى صواحبها ، وحين اختفت المرأة وانتظرت صاحبتها القفطان فلـــم يصل ، أخذت تبحث وتسأل ، وصدفة وجدته فى السوق فتمسكت بـه ، وانتهى البحث والتحقيق الى أن الذى باعه هو الحاج الاعرج فحكم عليه بعـد أن اعترف بجرائمه ، وطوف فى المدينة قبل أن ينفذ فيه الاعدام ، وكـــان يصيح أثناء تطويفة بأن الفساد كثر ، وانه لم يكن يسعى لغير الاصـلاح ، وكان يقول بأنه لو أطلق سراحه لبضعة أيام لما بقيت باغيه واحدة فى مراكش

الزهد والحكمة

يتمثل جانب التجرد عند الزجال المغربى فى شعرى الزهد والحكمة ، يقصد منهما الى الكشف عما ينفعل فى نفسه من برم وضيق بحال الدنيا وسلوك الناس ، والى وعظهم وارشادهم عساهم يحسنون هذا السلوك . وقصائده فى ذلك تعرف بـ «الوصاية» و «التوبة» و «القلب» و «الطبايع» و «الموعظة» و «النفسية» وما اليها مما يوحى بروح التأمل والتنبيه . ولانكاد نجد قصيدة لايملأها الوعظ المباشر المقصود بعيدا عن حديث الشاعر عن نفسه وتأمله لحياته فى حسرة على مافات منها ومحاولة استخلاص العبرة له وللآخرين ، وكأنه نظر الى المجتمع فوجد الاوبئة تنتشر من مجون وانحلال، والى الناس فألفاهم منشغلين بمفاتن الدنيا عن الدين ، فتحركت عاطفته الاسلامية واحساسه بمسؤوليته الاجتماعية ، فتصدى يعبر عما ينفعل فى نفسه وما يراه السبيل الى الاصلاح . وعلى الرغم من أن الوعظ غدا غرضا مستقلا قائم الذات ، فانه لم يتح الفرصة للشاعر أن يطيل النظر ويتعمق ويحلل فى جدل فلسفى او اقناع منطقى، وظل مجرد حكم وعظات تتسم بالبساطة والسذاجة ، وان لم تخل من بعض التعليل وخاصة فى ذم الدنيا والتزهيد فى الحياة والنظر الى الموت ، ولكنه تعليل مصدره العقيدة فى صورها البسيطة. وكان يمكن أن ينطلق الشاعر الشعبى فى ذم الدنيا من تجربة صوفية تجعله يحلق بروحه فى أجواء العشق النبوى – ولانقول العشق الالاهى فهو لايكاد يوجد كما سنرى (I) – لايرجو غير الاتصال بحضرته عليه السلام ومشاهدة نوره لينعم بمتعة حبه الروحى بعيدا عن متع الدنيا وملذاتها ونزوات الجسم وأهوائه طالما أنهما فانيان ، ولكنه لم يفعل حتى فى أضيق حدود هذا النطاق ليتأمل الكون ويدرك كنه أسراره وما وراء حجبه أو لينظر اليه ولو مشدودا الى اطار الطبيعة لا يتعداه ، واكتفى فى ذم الدنيا بنبذها والتزهيد فى

(I) فى آخر الفصل الرابع من باب «الموضوعات»

متاعها مادامت دار فناء زائلة ، ومادام الانسان مجرد عابر لها الى الـــدار الآخرة . وانطلاقا من هذه الفكرة المتأثرة بالدين ، رسم الشاعر الشعبى للحياة الدنيا صورة بشعة منفرة خسيسة لا يغتر بها الا مغفل مجنون لايعتبر من الماضين ، وهى صورة نجدها فى القصائد «الجفريات» (I) التى يستوحى فيها الشاعر واقع الحياة والناس ليتنبأ بما سيقع من أحداث ؛ ونجدها كذلك فى القصائد التى صورت الو قائع ، وهى قصائد يغلب عليها الاستســـلام لقضاء الله وقدره .

أما الموت فنظر اليه الشاعر الشعبى نتيجة حتمية للانسان والحياة،لاقدرة على تجنبه والفرار منه ، وسبيلا للخلاص من متاعب الدنيا ، ووسيلة الانتقال الى العالم الآخر حيث نعيم الجنة الدائم والسعادة الحق،واعتبره مقياس التسوية بين البشر . جديرا بالتأمل وان لم يكن بالشىء الغريب ، فقد طالت ألفـــة الانسان له وهو ينظر فى التاريخ فيرى فناء الدول وموت الانبياء والعظماء، بل يرى الناس حوله يموتون وكذلك الطبيعة ، حقا انه يأتى بغتة ، ولكنه على ذلك سهل كالنوم .

وقد ظلت فكرة الموت وذم الدنيا سطحية عند الشاعر الشعبى لـــم يتعمقها ولم يفلسفها ولم يتأمل جزئياتها ودقائقها ليكشف عما يعتمل فـى نفسه وكـل انسان ، وعما يتطلع اليـه دون أن يعرف كيف يصـل اليه أو يدركه او يعبر عنه .

يقول المغراوى فى تنبيه الانسان الى **أن الدنيا فانية وان الدوام للـــه وحده** ، ودعوته الى أخذ العبرة من الفناء مادامت الصحـة لاتـــدوم والشباب يخـــون :

مادام الملك غير للدايم لمعيـــــن ※ وماسواه افلورا كلو فانـــــى
خالق لشيات كلها رب الكونين ※ نفنا واكداك بامرو نعم الغانـــى
الصحا ماتدوم والصغر تخويـــن ※ اسمع منى الصح وافقه تبيانــــى
عبر مـن ذاتك فالزمـــان ※ واش لـــبــــــدان

(I) نسبة الى الجفر وهو جلد ماعز كان يستعمل فى الكتابة ويزعم الروافض أن جعفرا الصادق كتب لهم فيه ما سيكون من حوادث الى يوم القيامة .

مازالت فالديـــدان * كيف كـانت اكبيـــل

واعلم بان الرحمان * رب جمـع لكـوان

غانى مغنى منـــان * ليـس ليلـو امثيـل

واعلم بان البقا المن يحيى لعظام * من لـه الملك حـق دايـم بـدوام

ويحاول أن يبثه العبرة من الغابرين على هذا النحو :

وين نوح فسلام

وين لفضيل سام

وين يدفت أحام

. . .

وين أيوب افلمرصام

. . .

وين صالح وحام

. . .

وين داود لهمام

. . .

وين ابراهيم وين اسماعيل لمجد * ويـن يسحاق ويـن يعقوب اولادو

وينو الياس وين دانيال اهل الجد * وين ذا النون اسرور قلبو واعيادو

وين ادريس زال به اغيار النكـد * أذ القرنين مـن ابلغ فـى تجهادو

وين موسى المعهود

. . .

وين شعيب أهود

. . .

وين النمرود أصولتو

. . .

وين جالوت ادنيتو

. . .

وين فرعون ألامتو

. . .

وهو يرى ان الدنيا ليست غير دار مزاح وشقاء وبكاء، من تبعها ذهل عقله وغدا فى تعب دائم :

الدنيا ماتصلح غير دار لمزاح

. . .

دار التعب ألكلاح

. . .

ولبكا والنواح

واتبعها عقلو جاح

عمرو ما يريح

مثل الدنيا عنده كمثل نزل يحط بـه المسافر أو قنطرة تعبر نهرا أو سوق تعمر بأموال التجار ، فواحد يربح وآخر يخسر ، من ضحكت له بثغرها لا يلبث أن يبكى شاكيا من الفقر والغدر :

الدنيا كيف شي انزلا بين امصار * والاقنطرا اتدوز عن شي نهر

والاسوق عامر ابمال التجـــار * واحد فى اسلعتو اربح والثانى اخسر

لاتمن ضحكها ايـلا ضحكت بشفار * من ضحكت لوابكاامن اشكاها بلفقر

غدارا ما تدوم منى خذ لخبر

وهى عنده حسناء فاتنة ،يحبها كل من يراها وتحلو فى قلبه ،ولكن الذى يفوز بها ويذوق عسلها لا يلبث أن يسقى منها المر :

هذا الدنيا احكيتها الا طفـــلا * حاطت ببها اشمايل الزين المكمول

من راها دون ريب فى قلبو تحـلا * مهما يطمع فى ازمان كل اوصول

من وافاتو اودار منها شى خصـــلا * بعدن يسطب اعسلها تسقيه ادفول

وعنده أن الدنيا لا يامنها الا مجنون أغوته بالكذب ، وان شرابها الحلو يعود مرارة وغصة ، وأنها سرعان ما تسترد ماتمنح :

الدنيا ما تدوم ياصاحى هيهـــات * من يامنها اهبيل اسلبتو بعد اعطاتو

لوتسقيه لمصال ترجع بالغصات * أما من امر سلبتو بعد اعطاتـــو

والدنيا عند النجار دار شقاء ونكد وغرور :

دار الشقا ودار النكد ودار لغرور

أويح امن اغواتو امــــال * عقلو امع الطمع والمـــال

ولا اتفيد فيه اعمــــال * الزاهدين دركوا فيها نهج لفـلاح

بلسان الذكر والصـــوم * واصـــلات النبـى المعصـــوم

وعند ابن علي في «الوصاية» ان الفجار يرونها جنة وأن الصوفية يرونها جحيم المومنين ، فما أسعد من تركها وتخلى عنها :

جنا الكل فاجر واجحيم المومنين شافتها الصوفيا

ياسعدت مـن سلـم فـي اهواها وخــلاه

وعند ابن سليمان في «التوبة» أن البقاء فيها لله :

ما فيها من يبقــــى * غير نعم البـاقـــى

يا غفيل مالك شاقـــى * لين تاتزيـد احماقـــى

وعند العباس الحرار في «وصايته» انها دار الغرور مليئة بالآفات، سلوانها أحزان وسرورها غصات وضحكها بكاء وصدقها كذب :

امن اكثر دار لغرور بالآفـــات * تركـوا الفانيا منهـا لغدر مورروت

سلوانها احزان واسرورها غصات * اضحكها ابكاواصدقها افشروابهوت

سبحان امن اخلقنا واقهرنا بالموت

ومثل هذا يقول علال العلوى في «الراس» :

. . .

عمرها ما عطات العاهد الحد اولا خشمات عار

دنيت لغرور ولقرار

. . .

ياماضحكت عن ابنادم

. . .

وبعدها اتغبرو

. . .

ايلا تضحك غير مرا تنكد مرات ابلكدار

. . .

وتقول أواه كيف صار

. . .

ما ظني في ازمان يغدر من شاقو عاد ناكرو

ومادامت الدنيا كذلك ومادام الفناء محتوما فلا داعي **للتفكير في الموت** فهو سهل كالنوم ، ذلك ما يراه ابن حماد ويدعو نفسه اليه :

أراسى يامشـوم كيف ايجيك النوم * من هم الموت ما تخمم يالعمـــا

ماتعرف كان ترحل الليلا واليوم * تحمل واتشوف للطريق اتتعاما

أما ابن سليمان فلا يريد فى «الطبيب» أن يموت ، ونحس عنده رهبة من الموت لانكاد تجدها عند غيره لعل مردها الى شبابه (I) :

الطبيب يعرف دايا والـدوا سومـو غالـى

عالجونى ياناسى لا نموت موت الغفلا

وكما أحس الشاعر الشعبى الضيق بالدنيا فكـذلك أحسـه بالناس ، وهكذا يرى العلمى فى روح من التشاؤم ، أن كل أبناء جيله مطبوعـــون بطابع واحد ، فشافيهم النفاق والتحايل والمصانعة والخداع ، وهى كلهـا علامات الخراب :

هاذوا شروط اعلامات التخراب

عاد النفاق امودا بين الناس الكبرا

. . .

بالحيلا ولمصانعا ولخدع عادت اخلاق اطبايعهم مقلوبا

مذهبهم ندريه خممت اولاد جيلنا كاع بعصا وحدا مضروبا

شاع الرياء ولـم يعد وجـود للاحسان والصـدق والحياء والعرض والحســب :

شاع الريا ولحسان اغبر والصدق غاب

وارتفـع لحيـا والعــرض ولحسب

وغدت الصحبة وسيلـة للاغراض ، فالذى يخالط أحـدا يريـــد أن يشمت فيه ، يغدر به بمجرد أن تتاح له الفرصة :

ولات عند ناس اليوم الصحبا اسباب

اللى اتخالطو يبغى يشمت فيك

. . .

غير تركن لو يغدر فيك

مايخليك داير كابوس لغدر فيك يتسناك

ومن أجل هذا فهو يدعو الى معاملة الناس بالمثل :

من لايخدع ويلاطف ويصانع ويدارى لعدا ويرشى لخوان

ما يوجد حتى رايف فالرخفا والشدا ابخاوتو يستعـــان

(I) أصيب ابن سليمان بداء القلب ومات وهو دون الثلاثين .

والغنى عندهم عزيز فى كل مكان ، لوظلم وقف الناس يحمونـــــه ويخوضون فى سبيله الحروب ، يتزاحمون لتقبيل يده ، ولكن ليس حبا فيه وانما فى أمواله ، واذا ما افتقر انفض عنه الناس حتى الاقرباء منهم اليه :

مول الدنيا اعزيز افلقرا ولمدون * وامثل ذاكايرفعوابجانبو آهل البيد
لو يظلم يوجدامن ايكون فحماءعون * وعليه القوم ايصارعوالحرب الشديد
ما بهم فيه امحبتو ابحسن الظنون * واين كان يتزاحموا اعلى بوس اليد
ويلا افتقر واحماق به فقر ايهون * واقريب فالنسبا ايعود منو ابعيد

فالغنى تخضع له الهامات وتعتبر سيآته حسنات ، أما الفقير فيبغضه الناس بلا سيآت ، سواء عندهم موته وحياته ، اذا سكت قالـــوا عنـــه انه ختال واذا نطق إستعاذوا من صوته :

مول الدنيا يخضعوا له الهامات
سياتو عند هل الخدع حسنات

وقليل المال ايبغضوه ابـلا سيات * اسـوا عيشـو اسـوا موتـو
ايلايسكت ايصير ختال وبهـــات * ويلا يدوى القوم تسعاض من صو و

وفى نفس الروح وميل الى القوة يرى العلمى فى قصيدته فى «المـــولى عبد الرحمان» أن الاعمى لا يبصر جمال الضوء ، وان الاصم لا يصغى لروائع الافكار ، وأن الحق ليس له صديق يذكر فى هذا الزمان ، غير السيف يصلت فى وجه الطغاة والبغاة الجائرين :

ما يميز حسن الضو انواجل العـــور
ولا ايهز الصمك طيب الغا افكـــارو
الحق ماله اصديق افذا الزمان يذكـار
دون صدر السيف ايلاشتت اضماير
من اطغى وابغى واتقوى وخالف اوجار
ابراهن الهند ابخسران لعدا اتبـــادر

وهو يرى ان قلب الجاهل البليد لاينبهه غير الحسام ، أما غير ذلـــك فمستحيل كما يستحيل أن يسك الذهب من القصدير ، أو يزول طعم المرارة

من الحنظل او يغزل خيط الحرير من الدوم ، أويحارب بشوكة السمـــار ، أو أن يعصر الزيت من الرمل ، أو يتخذ العسل من اعشاش الزنابير :

مـا يليـن اقلـوب الطـامس تـذكيـر

لحسام ايودب ويعلم التمـــــارا

ما ينفرغ سك لبريز مـن القزديـر

اولا تزول من الحنظل طيبت لمـــرارا

اولا ينغزل من عرق الدوم خيط لحرير

اولا تكـــون الحرب مـن شـوكت السمار

كان محال امن الرملا الزيت يعصار

اولا تكون لعسل امن اعشايش ازنابر

وعنده أنه يستحق المكروه كل من لم يؤد زكاته وبغى بالفساد ، وان الصبيان يذهبون ضحية الكبار والنساء ضحية الرجال :

يستهل مـن لايسخا بـزكـا ولعشـار

واستهـل مـن يبـغ لفساد واضرورا

راح ذنب الصبيان اعلى اوقاب لكبار

وراح ذنب النسوان افدمت الذكــــورا

والسبب أن الدنيا بهرت الناس وأعمتهم عن الحق والصواب ، وأنهـا بدأت تغري حتى ذوي البصيرة :

بهجت الـدنيا تركت كـل واحـد مسحور

عاد حسن ابهاها يسبي هل لبصيرا

ويرى أنه لا لذة في حلاوة تخالطها المرارة ، ولافضل في مدح يعقبه الـــذم :

لاصلـح فاللذا بعـدن احـلات تحرار

ولا افضل فالمدح المعكوب ابلمعايـــر

وعنده في «الدار» ــ وقد بدا عليه الاعتدال في الرأي ــ أن الحياة لاتخلو

من الحلاوة والمرارة :

يوم اشلوق اويوماحلو اويوم زقوم * اويوم مستعدل بين الطيب والزهامة

وبمثل هذا المنطق يعبر في «طامو» :

معلوم كيف مادامت رخفا ماتدوم شدا

هذا مواجب احكام اصروف الدهر

يوم احلا من طعم التمر

اويوم كمثل الحنظل مر

ويصل هذا الاعتدال عند غير العلمي الى حد الدعوة لعدم التأفف من الزمان فالخير والشر دائما موجودان ، وليس من داع للبكاء طالما ان كتاب الله محفوظ في الصدور ، وطالما أن رحمة الله تمحو أوزار المذنبين ؛ يقول الشاد :

لاتقولو شي ياحسرا اعلى ازمان * الخير والشر افكل ازمان كاينين

ما حد اكتاب الله فالصدور * لاه نبكيوا اعلاه

ماقاطعين باس من رحمت الله * واحبيبنا الشافع رسول الله

فاش جا ذنب المخلوقين * عند واسع الغفراز

وبهذه النزعة يدعو الى ضرورة المعايشة والمعاشرة ، مادام الناس اخوة يعيش بعضهم لبعض ، ويخدم بعضهم بعضا حتى يكونوا كالبنيان المرصوص

خوك عبدك وانت ديما لخوك مملوك * لاتأديه الله يهديك ما يؤديك

لك عايش وانتيا له كتعيش * لاتكونوشي طوبافشي ابنى اهشيش

عيشوا بالله والنبى ولقرآن امع لحديث

وفيم السعي الى غير ذلك وقد جعل الله الناس طباعا مختلفة كما يقول محمد بن الصغير :

سبحان الله فالطبايع دالناس * مابقى من لاهاج اغرامو

والناس احوال كل واحد في حالت حالو

وشبيه بتشاؤم العلمي تشاؤم النجار الذى مل الحياة ومحنها ولم يعد يرجو غير الموت فهو طوال حياته يعاني من الحزن :

مل قلبي من دنيا كلها امحان * اولا بقى يترجى الايموت هاني

امن اصبايا لشبابي واسق لحزان * ومن اشبابي لازلت أليعتي انعاني

وهو قد خبر الناس فلم يجد فيهم غير الذئاب والثعالب الخسيسة متنكرة في صورة خرفان وأحمال ، كل منهم يكيد للاخر ، يبعدهم عن الادمية بعد ما بين السماء والارض :

غيير الذيب الخاه وتعالب الخسان * في ابطاين لغنم هذا الذاك جاني

بين لادمي واقوام هذا الزمان * قد ما بين الارض امع اسما الغاني

ويحس الغربة في مثل هذا الجو ويتساءل هل هو من هؤلاء الاقوام أم أن وقته فات أو لم يحن بعد :

واش انا من هذا القوم بالعرفان * اوباقي وقتي ولا امضى الزماني

وقريب من هذا الروح التشاؤمي نجد عند علال العلوي في قصيدة «المجد» حيث يرى أن «المجد» ـ ولعله يقصد به الخير ـ لا وجود له ولا أثر، سأل عنه في السهول والجبال فقيل له غاب اسمه وخياله ، وسأل عنه العلماء والعارفين في كل الملل فأكدوا له غيبته وأنهم يبحثون كذلك عنه ، وسأل عنه الذين فتشوا عنه في كل مكان وقصدوا من أجله الاولياء فقالوا انه غاب حين صادف العراقل ، وسأل عنه رجال الفن والذوق ، فأجابوه بأنه غاب حين كثر الكذب والبهتان ، وسأل عنه التجار وأصحاب الاموال فقالوا له لقد ذهب بعد أن فشا البخل ، وسأل عنه أرباب الصناعات في مدينة فاس القديمة فأكدوا له أنه لن يعثر له على أثر :

اسألت اعلى اشريف لاسم مابين اوطا مع لجبالي

قالوا لي غاب له الاسم وكذاك اخيالو

واسألت اعليه ناس لهوا واهل التنبيه افلملالي

قالوا لي غاب حقا وكذلك اعليه انسالو

واسألت اعليه امن اتجول واقصد اعليه كل والي

قالوا لي غاب بعد وصلو صادف عرقالو

واسألت اعليه امن اتفننوا والي بدعو الفن دالي

قالوا لي غاب حين كثر البهوت بسجالو

واسألت اعليه افلمتاجر والنهابا وهل المالـي

قالوا لى غاب لاتسول لرذال ابخالـو

واسألت اعليه فالصنايع وابحثت افاسنا البالى

قالوا لى غاب ليس توجد منهم قلالـو

ومن خلال هذه النظرة للحياة والناس **يحاول الشاعر الشعبي أن يكون ايجابيا فيقدم بعض النصائح** التى يمكن أن تجنب الوقوع فى مخالب الدنيا ومهاوى الزلات . من هذه النصائح عدم مطاوعة النفس والهـوى والشيطان لهم أعداء ، يقول ابن على فى «الوصاية» :

والنفس ولهوا والشيطان اعدا لاتطاوعهم قطعيا

واش من عاقل يامن يافهيم فعـدا

ويقول الشـاوى :

لعـن الشيطان * بالغافل كما لعنو الله مولانا * مهما ايدور بك اخزه ولعنو

ويقول عبد الوارث فى «الفياشية» :

خالف نفسك واقطـع * كـل علاقـا عنـك

واشتهوا (1) لاتتبـع * واسقطها مـن ذهنـك

واعروق اهواك اقلـع * ءافت نفسك منـك

ومنها التقشف فى اللباس وعدم الزهو به ، يقول ابن احساين ينهى عن لبس الحرير وما يبهر الابصار اسوة بالرسول الذى نزع «الفروج»

لاتملك افروج امن احرير وتبهر لعيان * واعلم بين ايمام الانبيا نعم العدنانى

نزعو نزع البغض بعد جاه اهديا فالحين

ويقـول كـذلك :

لاتتبختر فكساك واتفايش واتآنى

ولكنه لا يريده أن يتمسكن ويكون ذليلا ، فالمسكنة والذلة لليهود فى كل وقت وحين :

لاتتمسكن فالحيات ما فالدين إتمسكين * والمسكنا لليهود افسايرلزمانى

ومنها الدعوة الى عبادة الله واقامة الصلوات ، فعبد الله بن احسايـن

---

(1) أصلها اى شيء تهواه .

ينبه الى وجوب أدائها مع المحافظة على الصلاة الوسطى ، وهى العصر عـــلى المشهـــور :

قم الصلا حين وقتها لاتنعس مديان * والعصر عندك ايفوتك وقتوسانى

حافظ عن جمع الصلا وهاد الوسطى تمكين

ويحث المغراوى على عبادة الله :

اعبد مولاك رب وحدانى ذا العرش * اعبد مولاك لاغنى ذنيك يمحيـــه

ويرشد الشاوى الى صلاة الفجر وضرورة اغتنامها ، فهى ربح وفـــوز بالغنائم والطاعة :

يالنايم فق امن النوم راقب لفجر الطالع

قم تغنم ربحك واتفوز ابلغنايم والطاعـــة

ويلح كذلك على الصلوات الاخرى :

ابغيتك اصلات الظهر تلتقاك سابـق للجامـع

لا اتفرط فيها واجعل اغناك تقوى واقناعـا

ابغيتك اصلات العصر لا تفوتك اوبها دافـع

اهوايل الفاقا والمغرب صونها دون اضياعـا

ولعشا ودها فى اوقتها بتضـــــــارع

والشفع الوتر زد لعضاك راحا وارياعــــا

ومثل هذا يقوله الحاج ادريس لحنش :

اتلها فالدين كن رجل ثبت اقدامك * صلى بالخشوع امع الناس اوقاتك

ونجد فى بعض نصائح السلوك الصوفية ، كما عند مولاى محمد الزبادى المنالى ، حثا على المحافظة على الصلوات وملازمة الزاوية وتلاوة الاحـــــزاب والاوراد :

لوقات احفظها والزاويا اتـلازم * ابلحزاب ولوراد امرتبين ببيــان . . .

يافقير اصنعتك هى الذكر دايم * والصلا والسلام اعلى النبى العدنان

أو كما عند محمد بن رموية فى داليته اذ يقول :

خـذ اطريقنا معهـودا واشيوخها مـوجـودا

ولسرار منها تبدا للعجب السعـــود . . .

اتجرد عـن الحس وعـن الحـب للجنس

واقصد حضرت القدس لبى باسم المقصـــود

يا طالب الالهام امن اصدور لعـــلام

افنا طول الدوام فى اشرايع اهل الجـــود

بالسهر والصيام والعـــزلا والقيام

والتصديق ابدا القوم انت بهم اتسـود

وعند المدنى التركمانى أن الزهو فى قراءة الكتب وأداء الصلـــوات والمحافظة على وقت الفجر وفى الصوم والحج والجهاد :

الزهـو إفلكتـوب ألوقـات ※ واصلات المختار فى وقتو والصوم

والحج ألجهاد فالنصارى يوم المعلوم

ومن النصائح الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقول ابن احسايـن فى «اللقمانية» يدعو الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى شدة لاتليـــن وفى أى مكان وزمان :

وامر بالمعروف فين ما كنت لاتليان

وانهى عل المناكر لقباح افكل ازمـانـــى

ومنها الحث على التوكل ؛ يقول المغراوى :

إعمل تكلك فالله ※ لاترتجـى ســـواه

ويقول بوخريص فى «المدونة» :

دير تكلك ياقانط افلغنى السلطان ※ اتوجدو وقت ما تدعيه سامع احنين

ويقول ابن على فى «الوصاية» :

اياك لفلاحا والرزق الضامنو ايجيبو لك اوليا تولو كيفيدير فدنيتو ورساه

ويقول عـلال العلـوى :

أنا تكلى فالله يوقينـى ※ لقديم الدايم من لاينام ولاتراه اعيــــان

جيد لجواد الا ايحافينى ※ المالك لكريم الغانى من لاتنطرد من بابوسعيان

وتتضح الدعوة الى التوكل وترك التدبير عند عبد الوارث فى «الفياشية» حيث يقول :

نقنط مـن رزقـي لاش * والخالق يرزقنـي
أنـا مالـي فياش * واش اعليـا منـي
. . .
منى آش اعليـا * ونا عبد مملـوك
والاشيا مقضيـا * ما فى التحقيق اشكـوك
ربى ينظر ليـا * ونـا نظرى متـروك
. . . .
والارزاق اعلى اللـه * ناكل من رزق اللـه
يا قلبى لاتهتـم * واصرف هم الباطن
المقدور لو محتـم * كيف اترى واتعايـن
سلم تسلم واعلـم * أن المقضى كايـن
. . .
خذ الرفق ادليلـك * واترك عنك التدبير
واستقنع بقلبـك * ياتك الله بكثـير
ذا التعب الكل اعلاش * وقـل الشى يغنـى
. . . .
قالوا لى وقتك ضـاق * والنفقـا مـا تكسب
قلت ارزاق الـرزاق * من دا يقوى يحسب
قالوا امشي للاسواق * واتمـول واتسبـب
قلت افراخ لعشاش * خالقهـم يرزقنـي

ومنها طاعة الله والرسول والوالدين ، يقول لحنش :

بادر ابطاعت الله اوقوى زادك
. .
طع الله اوطع النبى واخدم والديك * تظفر بالنجاح ويتنور حالك

ومنها اختيار الرفيق الذى يطيع الله ، يقول ابن على :

واختر من اترافق شف اللى طاع خالقو جعلو ولفيا

اعسى ايجلبك واتولى للوحيد وحـداه

ويقول غانم الفاسى فى «التوبة» يدعو الى العزلة وعدم اتخاذ الرفقاء اذ لم يعودوا صالحين :

أفبى ما بقى امع من اتصـــادق * ويكون البيب امحتفل،عشير صادق
عش هانى وحدك وكل فاجر انفيه * وكل من حب اولاد اليوم زايد اشقاه
عش وحدك خلى لهل البلا ابلاهـم * كان ملتى مل الطه ارفيع لقـــام
كل من دازك دوزو هون به وانكيه * بعد ما يعمر سوقو لاغنا امن اخلاه

ومنها صون اللسان والفرج ، يقول ابن على :

واحضى السانك وفرجك واعرف مـن انشاك ناظر فيـك ،وفيا

ويقول لحنش :

لاتشتم مخلوق أدب السانك لايديك

ثعبان اللسان ايلومك فى امهالـك

ومنها غض الابصار عن المحرمات كما عند ابن على فى «الوصاية» :

غض لبصر اعلى المحرم وافشوفت المحرم كل اخطيا

اقليل من شاف وضربو الشيطان ولا اخطاه

واتسع نطاق التوصية عنـد الشاعر الشعبى حتى غـدا ارشاداً الى ما قد يعود على الانسان بالخير فى دنياه أو الى ما يمكن أن يعتبر **أدب سلـوك ومعاملة** . ونصيحة العلمى أن يتحلى المرء بخمس خصال ويتجنب خمســا أخرى اذا أراد ان يكون سعيدا ، ان يتحلى بالصمت والعزلة والمسالمة وترك الملام والقناعة وأن يتجنب الحسد والكبر والجفاء وضيق الخلق والطمع :

من حفظ خمسا دالحسنات حفظ محكـام

اوفيه رسخوا كرسخ الوشم افلمعاصـم

الصمت والعزلا والهدنـا وترك لمـــلام

ولقناعا من كسبهم امن ابنادم

يعتدل ميمونو والسعد له يسقـام

يرتفع بعد الخفض الهمت الضراغــــم

ومن اترك خمسا دالسيات تـرك عـزام

من اجملت المحروم اللى اعليه حارم

لحسـد والكبر ولجفا وضيق لشيام

والطمع بيت الدل امناصب لحشايــــم

كل سيا من ذا السميات ضر سمام

فاق سم الحيات الرقط السـوادم

ومن النصائح التى نكاد نجدها عند كل الشعراء : صلة الرحم ، يقول ابن احساين يوصى بصلة الرحم ولو بعبور البحار والوديان :

واصل رحمك وين كان شگ لو ابحور اويدان

ويقول ابن على :

اواصل الرحيم ولا تقطع صلتو انقرب اولا بعديا

وصلو لاتقطعو اولا يصلك اخطـاه

ومنها المحافظة على حسن الجوار ، يقول ابن احساين يوصى بالمحافظة على مال الجار وعرضه واعانته ، مشيرا الى أن الرسول ظن أنه سيورث من كثرة ما أوصى جبريل عنه :

أما وصى اعلى الجـار جبريـل افكـل اوان

حتى ظن الزمزمى عل الجار فمكانـى

يورث ورث الدم لون ما أتاه التبيين

مال الجار احضيه كن مالك صونو تنصان

واعلى عرضو كيراقب لجليل الغانـى

واختصار القول كل جار الجيرانو عين

ومنها الصدق والوفاء ، يقول ابن على :

الصدق ولوفا فالكلما والعاهد ولقبول مـن الوهبيـا

من اقبل عنو رب الكاينات هنـاه

ويقول الحاج ادريس لحنش :

شد احزام الصدق ولوفا اعرف مايعنيك

ومنها التخلى عن البخل والاسراف ، يقول ابن احساين :

لابخل لا سرف كيرضى رب العالمين

ويقول ابن على :

الرفق افلمعيشا قالوا افضل من التجارا بالف ميا

ومنها تمجيد الكرم ، يقول الشاوى فى «الجواد ولبخال» :

يالمولى عمر نعم لجواد لفضـــال ✻ ولبخال اعطهم لخلا اوتم لخـــلا

ومنها الحث على التواضع ، يقول لحنش :

لاترفع هما اعلى لعباد اذا رفعوابك ✻ بوس لقدم لاتحسب اكبير شانـك

اياك العجب يخطر لك ببالك

اذا عظمت نفسك كل لها مالك

اذكر لها الموت تنهزم الذات وتهنيك

وابقى اتجول فالى فاتوا قدامـــك

ومنها عدم الفخر بالآباء ، يقول بوخريص :

لاتقول أنا بويا كان سيد لكران ✻ شف ماتغرس من بعدو انت ابتحسمين

ومنها الحث على الصمت ، يقول العلمى :

الصمت كيقولو لعرب حكما ✻ مجـدوه اشعار القدمـــا

اسكات عام احسن من كلما ابغير ندما

ويقـــول لحنش :

واتعود بالصمت فيه سر اكثير ايقويك

واتصب غايت الراحـا مـن شيطانـك

ومنها تجنب الغدر والشبهة والتجسس والغيبة والنميمة والمزاح واللهو ،
يقـول ابـن علـى :

اياك لغدر والشبها وامواقـف لشيات اللى سويـا

خوك فالناس اللى وتك كن لوخـــــاه

نوصيك لاتجس لاتغتب لاتنـم لاتجهـل ازليا

واعظ الخلق افوجهو لاتسبو فقفـــاه

ويقول الحاج ادريس لحنش :

واترك قيل اوقال ولمـزاح اوشين يلهيـك

خوفى اعليك تمضى فاللهو ازمانك

لاتدخل ما بين زوج بالشر احرام اعليك

واتشتت لحبـاب ابتزويـق اكلامـك

ومنها فعل الخير دون انتظار الجزاء ، يقـول ابن احسباين :

افعل الخير اولاتعاينو يرجع لك تانى

ومنها عدم الرد على الشر بالشر ، يقول ابن احسباين داعيا الى عدم الرد على الشرير معللا بأنه يكفيه جزاء أنه خفف معاصى المظلوم :

من غتبك يكفيك فيه خفف عنك عصيان

ومنها الصبر على المحن ، يقول ابن احسباين :

اصبر ياراسى اولا تكون عل لحان احزين

ويقول ابن على فى سرابته .

أقلبى كن عن امصابك صبار ※ الصبر مفتاح اللكنوز والذخير!

ومنها معاشرة أهل العلم والدين ، يقول ابن احسباين :

واهدى واتهدا وعاشر اهل الدين وليقين

ويقول لحنش

واصحب ناس الدين لاتخالط من لايوريك

ومنها الرفق بالصبيان والايتام وتوقير الشيوخ واغاثة المحتاجين ، يقول ابـن احسـايـن :

وارفق بالصبيان وليتيم رحمو باللى كان

والشايب نوصيك وقرو ولو نصرانـــى

غث اللى استغاث بك كن اعلى الصعب اعوين

وكانت «الجفريات» فرصة أخرى ليعبر الشاعر الشعبى عن نظرتــه المتشائمة للزمان الذى يراه يتنكر للمستحقين ويصفو للسفلة ، وهى قصائــد بتأمل فيها أحوال المجتمع والناس ويذكر العيوب والمناكر المنتشرة ، معتمــدا فى الغالب على الرمز والتلميح والاشارة والتشبيه والمقارنة . ومن خلال تأمله يتنبأ بما ستفضى اليه هذه الاحوال من ظروف ووقائع وأحداث

ويذكر الاشياخ للفقيه العميرى لامية جفرية يحفظون منها قوله :

ذاك الولـد المهبول ※ أصلو من أناضول

الفرخ يشبـه اخوالـو

وهو قول وجده الناس مطابقا لوضع المولى عبد العزيز (1) بعد أن هزمه أخوه المولى عبد الحفيظ (2) ، اذ أن امه تركية ، مع ان الشاعر كان يعيش فى عهد المولى عبد الرحمان (3) . ومثل هذا قيل عن زازية الموقت التى أولها :

أسبابلني انفيدك ابكافر باريـــز ✻ إستفد أكن عايق واتبع الغرزا

واعتبر ما ذكره فيها عن هزيمة فرنسا تنبؤا بما تعرضت له أثنـاء الحرب العالمية الثانية مع أنه كان يعيش فى أواخر القرن الماضي . **وللموقت عروبي جفري** يستغرب فيه للصيف غدا شتاء والربيع خريفا ، وقد تكلـــم الطنبور — كناية عن نطق الجماد او صولة الفارغين — وغدا الناس فى ضيق، وانتشر الغلاء والبخل ، وفشت المخدرات ، وكثر النهب والخطف ، ولم تعد الدراهم غير رغوة فى اليد لا قيمة لها ، وانعدمت البركة ، وأجدبت الارض فلا تنتج فى صيف او شتاء ، وتمكن الحرص من القلوب ، وهبت ريح الكساد عاصفة على الاسواق ؛ وهو زمان ليست للوالى فيه سطوة ، وانما هو الدهر يتصرف فى العباد كيف يشاء ، تارة يقبل ويرضى واخرى يسخط ويعاف ، وليس يوجد وزير يقبل شكوى المظلوم ليبلغها دون خيانة أو مقابل . وليس غريبا ان يرى كل هذا بعد أن غدا الدين رخوا والايمان ضعيفا فى نفوس المغاربة ، وبعد ان علا شأن اليهود (4) وأصبحت لهم سطوة ، وأذلوا المسلمين،

(1) تولى من سنة 1311 الى 1325 هـ. (2) تولى من سنة 1325 الى 1330 هـ.
(3) تولى من سنة 1238 الى 1276 هـ.
(4) تجدر الاشارة الى أن موضوع اليهود اثار غير قليل من شعـــــراء «الجفريات» لاسيما فى هذه الفترة .ولايبدو ذلك غريبا فحقائق التاريخ تفيد أن الجمعية اليهودية فى بريطانيا كانت قد ارسلت سنة 1280 هـ احد اعضائها إسمه روشابيل تطالب حكومة المغرب بمنح حقوق وامتيازات لليهود ، وأن بريطانيا ساندت هذه المطالبة بواسطة سفيرها فى المغرب ونشر السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن ظهيرا أعلن فيه رأى الشرع ومــــا يوجب لليهود من حفظ الذمة وعدم الظلم ، فاتخذ اليهود هذا الظهير ذريعة للتجبر والطغيان مما اضطر السلطان الى نشر ظهير آخر يبين فيه القصد من «ظهير الحقوق» ، ذهب فيه الى أن الايصاء انما هو فى حق اهل المـــروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم واما صعاليكهم المعروفون بالفجـور والتطاول على الناس والخوض فيما لايعنى فيعاملون بما يستحقون من الادب (انظر الاستقصاء للناصرى ج 9 ص 113 ط دار الكتاب سنة 1956) ولكـــن اليهود استمروا فى سلوكهم محتمين بالدول الاجنبية وسفاراتها وقنصلياتها فى المغرب .

وغدا المغرب يتخبط فى متاهات العمى والغواية :

سبحان الله صيفنا ولى شتـــوا * وارجع فصل الربيع فالبلدان اخريف
ملى فالغرب عندنـا طنبـور ادوا * والناس افضيق حالملغلا والصيف
ثم انتشا الكيف وكثرت النشوا * وافشا فيناالنهيب والهيف ولخطيف
وادراهمنا اضحات فيدينا رغـوا * لابركا ابقات لاشتوا لاصيـــف
والحرص اعلى اقلوبنا لنالقـــوا * وادفع ريحلكسادعلى لسواق اعصيف
فزمان ما تشوف للولى سطـــوا * والدهر بين لعباد كيقبل وايعيف
ولاتلقى اوزير كيقبل شكـــوا * ويبلغ مايخون مايرضى تكليـــف
قلت اوعدى اضحات فالدين الرخوا * ولى ليمان عندنا فالغرب اضعيف
ليهود قصدت لعلو دركوا سطوا * واقبلنا دلهم عاد الغرب اكفيـــف

وقريب من هـذا قصيدة **الشيخ محمد بن عمر فى «لهرج ولفتان»** ، يقول فى حربتها مؤكدا ان الهرج والفتنة ـ كما اخبر الرسول عليـــه السلام ـ مسجلان على هذا الزمان حيث يكثر الجور والفوضى والاهوال :

الهرج ولفتان به اخبر طه ايمامنـــــا * حدثنا عن ازمانـا
إيْـجُـورْ الـــزْمَـــانْ * يقوا هول اتفرتنو

وفيها يذهب الى ان الناس فتنوا بالدنيا وشغلوا بهمومها فغدوا كالدواب لا يحسون محنها ، فقد انقلب الزمان ، ولم تعد للعيش متعة او هناء ، وعمت الفوضى ، وكثرت الفتن وانعدمت الاستقامة ، وافتقد العاقل الذى يرشـد الناس للخير وينبههم للشر :

يـــا اخ الولهـــان * بهمــوم الدنيـا الفاتنـا
من شطنت لنا اقلوبنا * عشنـــا كالحيـــوان
لا من فـاق ابتمحانو
وانقلـــب الزمـــان * لا لـذا فالعيش لا هنـا
والدنيـــا راهـــا امفدنـــا * مــن كثـرت لفتـان
لا مـن غـادى فيمينو
لا عـاقــل يقظـــان * ينهينا عـن ســو افعالنا
وينبهنا ويفيدنــــا * ولفســاد إيبـــان
واعـوان الوقت اتعينـو

ولسيدي احمن وعلي قصيدة يتنبأ فيها باحتلال فرنسا للمغرب،

وفيها يصف حال الزمان كما اخبرت به الاجفار ، فقد كتبت فى ألواحها أنه فى السنة الحادية عشرة ستكدر عيون المياه ويتفرعن الضفادع فى الوديان، وتتقوى الذئاب ، وتضعف السباع ، وتصول البومة على النسور ، وتنزل مكانة ذوى الهمة والشان ، وتعلو مكانة السفلة ، ويصبح الفجار فى قرار مكين ، ويغدو الوجهاء والشرفاء كالحيوان ، ويظهر القول الحق تخبر بــه الاجفار معلنا دخول الفرنسيين : (ل ف ر ن ص س)

بعد الصلا اعلى الرسول انوضــح ببيان
شرط الساعا نوصف حال الزمــــان
بها لجفــار خبروا باقــى السنين
نظروا فالــواح باحــوا بالكتمــان
فى عام احداش غتخوض العيـــــن
ويتفرعن اجران فــى اجميع الــويــدان
اتقوى الذياب والسبع ارجع مسكيــن
حتــى موكــا اتصــول على اجميــع البيــزان
واهل الرفعا تخمد ويعلو من شيــن
نــاس الرفعا تعــود خافضا بعــد الشــان
تضحى قوم لفجور فى اقرار التمكيــن
واهــل الجــاه يضحــاوا مثــل الحيــوان
يا اسفا الحق يبقى بايــن ابيـــان
خبروا بــه لجفار لام وفا ورا ونون وصاد وسيــن

وهو يرى ــ من خلال الجفر بالطبع ــ انه فى السنة الثامنة والعشرين ستخرج الجيوش ، وتكثر الاهوال والمحن والفتن ، ويضيق العيش عــلى الفقراء والمساكين ، ويتولى الحكم قوم طغاة ، وتقسو القلوب بعد اللين ، ويبسم الحظ للاغنياء ، ويكثر البنيان ؛ ويرى أنه ستشتد الازمة فى العام الرابع والثلاثين ، وتدمع العيون فى السنة السادسة والخمسين حيــث سيموت الناس خلال شهرى شعبان ورمضان ، ولكن لن تلبث البشرى ان

تظهر فى العام التاسع والستين لتهب ريح النصر فى العام الرابع والسبعين؛ تخرج لحروك (I) فى عام اثمنيا اوعشريـــن

تكثر لهوال ولمحان امع لفتـــــــان

ويضيق العيش على لفقير المسكين * ويتولوا الحكم القوم الطغيـــــان

ترجع لقلوب قاصحا من بعد اللين * ايخرجوا هل المال ويكثر البنيان

وما يقع عام اربعا وثلاثيـــــن * بعد شد اتدوز واتعم البلـــدان

تدمع العين عام ست اوخمسيـــن * واتموت الناس بين شعبان ورمضان

يظهر بشار عام تسعا وستيـــن * فيه لبشر ايبان ما بقى تمحـــــان

ريح النصرفى عام اربعا وسبعين(2) * خبر الاجفار فيه يرتاد الولهـان

ومن «الجفريات» قصيدة «**لطف الله الخافى**» للحاج أحمد الغرابلي وفيها يعزو الى ضعف الايمان فساد الزمان وتولى الطغاة بالقهر والجور :

لولا ضعف الايمـــان * مـا يضعاف ازمـــان

ويولوا الطغيـــان * بالقهـــر جايـريـن

فقد شاعت المحرمات وكثرت المعاصى وغفلت القلوب عن الموت ،فكان طبعيا أن تظهر العلامات دون خفاء ، فتطغى الظلمات ويفشو المكر والكذب ، وتغر الحياة قوما يطغى عليهم حب الشهوات ، يأكلون السحت ويغـــدون صماعميا :

بحنا بالمحرمـــات * ولمعـــاصى اقـــوات

واقلوب الناس اضحات * غـافـلا عـل المـوت

العلامات انبـــات * للــورا مـاخفــات

واقوات الظلمـــات * والمكـــر ألبهـــوت

قومان صمت واعمـــات * غرتهـــم الحيـــات

تبعوا حب الشهـــوات * وقت سحت اسحوت

(I) لحروك ج حركة وهى الغزوة وخروج الجيش للحرب .

(2) تجدر الاشارة الى ان تاريخ نظم القصيدة كما بآخرها هوالف ومائتان وأربعة وسبعون : «تاريخ عد شر يالفاهم» فالعين بسبعين والـدال بأربعة والشين بالف والراء بمائتين .

فلم يعد شيء يحب في هذه الدنيا وقد عم النفاق فلا عهد ولا ميثــاق ولاصديق ، صعب الوقت وضاق وكسدت الاسواق ، فلا بركة فى الارزاق، وكيف والناس حادوا عن الطريق ، فأصبح الدين غريبا وكذلك أهلـــــه، وانعدم الرفق بالضعفاء والاخوة والجيران ، وتنكر الدم لفصيلته :

ما باقى ما يعشـــــاق * فــى ازمــان النفــاق
لا عهد لا ميثـــــاف * اتوجـدو لا اصديـــق
الوقت اصعاب وضــاق * كســـدت لســـــواق
لا بركـــا فــارزاق * خارجيـــن الطريـــق
الدين اغرب وانســاق * فى بعض الآفـــــاق
واهلو فقدو الرفــاق * ما بقى مــا يليـــق
والدم من دمو جافـــى * ما يرفق غانى بضعيف خو اوجار

وهو يرى ان مثل هذه الشدةطبيعية طالما ان الناس لايتجنبون المعاصى، ولا يلجأون للاحسان ، ولا يخالفون الشيطان ، ولا يحسون باليقيـــن :

ما جنبنا عصيـــان * مــا فعلنــا احســـان
ما خالفنا شيطــــان * ما حسنا بيقين

لذلك يلزم الاستغفار فى الليل والنهار ، وفى خشوع وذل واحتقار ، وتلزم التوبة الى الله عساه يجبر الكسر ، ويمحو الاوزار ، ويقيل مـــــن العثرات ويجود بخيره وفضله الذى لا حصر له :

لزمنا الاستغفــــار * فالضيا ولسحــــار
بالذل والاحتقــار * االخشوع لكبيـــر
وانتوبو للقهــــار * كافــا ابلجهـــــار
وانقولـــو ياجبــار * اجبر اللى اكسير
امحى عنا لـــوزار * أمقيــــل الاعثـــار
فضلك شلا يحصــار * جد عنا ابخير

وهو لا ينسى ضعف الامة وقضاء الله وقدره ، فيرفع يده اليه بهذا الــــدعـــاء :

يانعم الحى الكافـــــــى * اكفنا شر الوقت ما نشوف اغيار

يا مول الفضل الوافــي * فضلك مايتنها ولا اتحدو إشطار
عجل بدواك الشافـــــي * وارحم ضعف الاما الغارقا افلوزار
قادر تبلى واتعافـــــي * تنسخ الشدا ابلعفو اكما افلخيار
ياموول اللطف الخافــــي * الطف بنا افما اجرت بـه القدرا

كذلك كانت الاحداث **الحربية السياسية والازمات الاقتصاديـــة والاجتماعية تبعث الشاعر الشعبى على التأمل** ومحاولة البحث عن الاسباب والمسببات واستخراج العظة والعبرة،يغلب فيها عليه أن يعتبرها قضاءوقدرا من الله ، وأن يقف منها موقف الضعيف العاجز متألما باكيا رافعا اكــف الضراعة الى الله أن يفرج الكرب ويجود بالعفو .

فالكفيف الزرهونى فى القصيدة التى يذكر فيها **خروج أبى الحسن المرينى الى القيروان** وهزيمته يرى أن الله مالك عقول الامراء وشاد نواصيهاق كل زمان ومكان لايدبرون الا بأمره ، وان النصر رهـن بطاعة اللـه ، وان الهزيمة نتيجة حتمية للعصيان :

سبحان مالك اخواطر الامــرا * وانواصيها كل حين وازمــــان
ان طعنــاه عطفـــو لنــــا نصرا * او ان اعصيناه غضنا ابكل اهوان

ويرى أن قلب السلطان كالجوزاء،وان قلوب الرعية تجرى مجراه،وتتبعه وتستنير به ، ان عدل فاح نسيمها يخترق الآفاق بعبيره الذكى ، وانكشف الحجاب وبدا نوره يسطع كالمصباح بضيائه يعم أثره على الانسان والحيوان والنبات والجماد ، وان جار ساد الفقر وحل الران فى القلوب :

قلب السلطان يقال كالجـــوزا * وقلوب الخلق جاريا مجـــــراه
ان كان عادل ابرأفت العزا * يطلع منها انسيم ايشق اذكـــاه
اذا يعدل قد فتحت الغـــــرزا * كنو مصباح وهو اتصير لضيـــاه
حتى فالسنبلا أفالتـــــــرى * يظهر عدلو انعم وفالحيـــــوان
ون كان جاير بنا قترا (I) * يطلع منها عل لقلوب الـــــران

والشيخ الاكحل فى قصيدته التى يتحدث فيها عـن **وضـع المغـرب والمسلمين فى القرن الثالث عشر واحتلال الجزائر** (2) ، يرد الامر الى قـدر

(I) من القتر والاقتار بمعنى الافتقار او من القتر ج «قترة بمعنى الغبار»
(2) كان احتلال الجزائر سنة 1246 هـ (1830م) ومعروف ان المولى عبـد
=

الله ومشيئته واذنه ، فقد قضى أن يرتد العرب ويفشل المسلمون، وان يحتل الكفار هذا الجزء من بلاد العروبة والاسلام :

العرب ابقدرت الله اتعود مرتدين
اتعود باذن الله سكان للكفرا

ويستشهد على ذلك بقول ينسب للرسول يؤكد أن كفة المسلمين ستنقلب فى آخر الزمان ، وان القرن الثالث عشر سيشاهد قهرهم وذلهم:

قال الرسول مفتاح دولت لخيار ❊ يابن خلوف(I) راقب شف ما يطرا
آخر الزمان ينعكس وتنقلب ليام ❊ قرن ثالث عشر فيه ابنى مـرا
يتفقوا اعلى ابلاد تسمى ياكـرام ❊ هاذك زاويا فالزمان مذكـورا
فيها الولى لمخصص وينذكر بعلوم ❊ جعلو الله عساس اقبالت الكفرا
سبحان مالك الملك الواحد لعظيم ❊ آخر الزمان ماذا تحوز من قهرا
هذا القصاص مذكور عام امن اسنين ❊ فى قرن ثالث عشر ابلا عبـرا

وفى استسلام لقدر الله وقضائه ينتقل للحديث عن الموت والفناء :

لرواح فانيا ولجثات مرميـين ❊ مالك للملوك يبقى اولا بعدها عبرا
سبحان امن اخلقنا بعد العدم كان ❊ من بعد اوجدنا نضحاوا فالتراب مدفونين
سبحان امن اخلقنا امكون لكوان ❊ واجعل اوكيل عنا عزرائيـل

ويؤكد فكرة القضاء والقدر فى قوله :

يا مالك السما يا عظيم يا جواد ❊ واجميع ما جرى بسبب القدرا

الرحمن كان يساند الامير عبد القادر الجزائرى فى حربه مع فرنسا ، وهى حرب استمرت من 1246 الى 1264 هـ فقد قدم الامير الطاعة لسلطان المغرب على أن يتيح له محاربة المحتلين من ارض المغرب خاصة بعد ان هزموه سنة 1259 . ولكن فرنسا لم ترض عن ذلك وارادت ان تعاقب المغرب على موقفه، فقامت بحملة سنة 1260 فى «اسلى» من إعمال مدينة وجدة عند الحـدود المغربية الجزائرية هزم فيها المغرب واضطر على اثر الهزيمة أن يعقد معاهدة مع فرنسا كان من أهم بنودها نفى الامير عبد القادر من المغرب ،وهو بند اضطر السلطان المغربى الى محاربة الامير الجزائرى وارغامه عـلى التسليم ، فما كان منه الا أن سلم نفسه سنة 1264 .

(I) يخاطب الشاعر الجزائرى الاخضر بن خلوف . ونخشى أن تكون القصيدة ليست للاكحل كما يرويها الحفاظ وانما لابن خلوف .

وعنده أن المومن الذى يعبد الله يهون عليه تحمل قضائه :

اذا اعبدت ربى اتنال خير اكثير ⁂ اتسلم القدرت الله اولاترى قهرا

وهو لهذا يوصى بالايمان وبالاستسلام للقدر فى رضى وعلانية :

احذر اوكون مومن اوخوذ التمهيل ⁂ سلم اجميع ماكان بالرضا جهرا

فمن علامات هذه الفترة إن يترك صوم رمضان ، ويذل المصلون ، والا ينهى عن المنكر ، وأن يشيع الحرام ، ويخضع المومنون لاسياد كفار، صابرين باكين منتظرين أن تحين آجالهم :

ثم اتنوح الخلق فيه بالتعراج ⁂ رمضان ينهجر ولا تبقى لوجـــرا

فيه اهل الصلا مذلوليـــــــن ⁂ ايرخصوا ولا يبقى فى امناكر نكرا

أكل واحد ابلحرام يلها املــو ⁂ والمومنين تظهر اعليهم الصبرا

اوكل واحد ينظر لاجلـــــو ⁂ يرضوا ذوك لسياد ابسكب العبرا

ولهاشم السعداني قصيدة في احتلال مدينة وجـدة «دخـول وجـدة» يقول فى حربتها :

يالاسلام ابكو اعلى ادخول وجدا ⁂ دون حرب اغنمها لعدو اونال لمراد

وفيها يرى أن ذلك نتيجة ضعف القلوب وفقدها لحرارة الايمان وقوة الجهـــاد :

لقلوب اضعافو واكساتهم بردا ⁂ اولا نظرنا فهموم ابعز دين لجهاد

وعنده أن يموت الانسان عزيزا خير من ان يعيش ذليلا :

موت العز فنهار اللقا وبرزوا ⁂ خير من عيش الذل افكل حين مبروز

فلم تعد للحياة لذة ، وقد عز من حافظ على ايمانه فى قلبه ، والامل أن تمر سحابة الازمة وتنقشع ليغيب نجم النحس ويظهر هلال السعد :

مابقات افعيش الدنيا اليوم لـدا ⁂ عز من دينو ويمانو افقلب لفـؤاد

امصرفين لوقت فعسى اليوم اوغدا ⁂ اغيب نجم النحس وينباهلال لسعاد

ولكن فيـم الخضوع والصبر على الذل حبا فى البقاء وتعلقا بالحياة وهى مهما طالت فانية ، ليست بدار مقام وانما هى دار عبور ، كل من حل بها راحل ، والافواج سائرة ونحن على اثرها بأمر الله وقدره :

لمتا واحنا اقفاتنا تصبر للـــدل ⁂ اعلى حب لبقا ولفنا بعد ايطــول

ما هى دار لمكام من جاكيرحـــل ⁂ شف القومان سايرين اكفول اكفول

واحنا فاتباعهم ابلقدر الموصول

وليس يموت أحد دون اجله المعلوم ولو احاطت به الاخطار والمصائب، ومن حان أجله فلا يستطيع تأخيره مهما كان غنيا ذا مال ،وليس فيمقدورواحد ان يهرب مما كتب له الله وسجل له وحكم به عليه :

مايموت افلورا مخلوق دون أجل ⁂ لوايكون افوسط الغضب مايوصلو

ومناكمل محسوبولوكان كاسب اموال ⁂ ماينفعو الا دغيا (1) ايمد رجلـو

كيف يمنع من مكتوبو اوكيف ينصال ⁂ من احكم الرب اعليه وسجلـو

حقا ان مشيئة الله قد نفذت ، ولكن لابد من لطف منه يفرج الكروب، فلا شدة الا وبعدها فرج ، وتلك حكمة الله حتى يذكر ويحمد فى كـــل الاحـــوال :

كل من راد الله عل لورا اتـــودا ⁂ اولازم لطفو ايفاجى هم ضيق لنكاد

كيف معلوم الرخفا بعد كل شدا ⁂ باش يذكر الله افكل ضيق وارغاد

ثم ان لقاء الابطال ومقابلتهم شرف ، ومن لم يلقهم محتقر مهما علا شأنـــه :

من لايلقى لبطال لو يعلى محقور

والذى يغفل عن الاعداء ويسكت عنهم اويهادنهم مغرور :

والغافل فالزمان عل لعدا مغرور

ومثل هذا نجده عند الحاج ادريس بن على فى «التطوانية» (2) حيث يوصى الغافل الساهى أن يستعد للجهاد بعد ان جار الاعداء :

اساهى خذ اخبـــــار ⁂ وافهم تعبير القول ولشارا

نوصيك ياغفيل احتال لامر لجهاد لعدا جاروا

واذا شاء الله رحم الضعف ، وجبر الكسر ، وأتى بالفرج ،واتـــاح للمغاربة غزو الكفار وارغامهم عـلى الرضى بالغلب ، وبدد شملهـــم وكسر سفنهـــم :

---

(1) حينا وبسرعة .

(2) قامت حرب تطوان مع اسبانيا سنة 1276هـ (1859) فى اول عهـــد السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن .

ايلا راد الستـــــار * ايفاجى عل لسلام اد لكـــدارا
يرحـم ضعفنا وايعاملنا ابلفراح فعسى تجبــارو
ونغـــزو فالكفــــار * حتـى يرضـوا الغلب بجهـارا
ويبدد لكريـم اشملهـم وسفونهـم لهـم يكساروا

وعنده ان الرومي — والمقصود به الكافر — ماكر ، وهي حقيقة تسميها بعض الناس ، فمجنون كل من يغتر به ويامن لجواره ، فهو في مكره مثل النار ان لم تخمد في الحين تزيد اشتعالا ، لا مثيل له في الغدر ، فهـــو يطمع بجد في مدن المغرب ، ولكن الشاعر يدعو الله الا يحقق طمعه :

والبعض انساوا ما صــــــار * ما يعرفوا بين الرومي هل امكارا
مهبول كل من يتغرا فهذا الزمـان والكافـر جـارو
الرومي مثل النـــــار * قالوا ناس التشبيه ولعبـــــارا
اذا ماطفتها فالساعا اتزيـد هـذا تمكارو
ليس ابحالـو غـــــدار * طامع فمدون الغرب بتمــــارا
لهلا ايوصلو ولا يوفى له ظن هو وانظارو

واذا كان المغاربة قد أصيبوا بهذا العدو فلانهم شغلوا بالدينار وانهمكوا في الاخذ والعطاء وقوى بينهم البغض والحسد كبارا وصغارا ، لم يعـودا ينهون عن المنكر ويوقرون السادات ويزورون الاولياء ، وقليل منهم مـــن لا يؤذى جاره :

أيـا اولـى لبصـــــــار * اعتبـروا نظروا افــذ العبـــارا
واتأملوا فهذا لقول اللى بان ياسيدى اثارو
لتهنـــا بالدينــــــــار * واغبطنـا فالدنيـا ابخـــوذ ورا
واقوى البغض ولحسد افهذا الجيل في اكبارو واصغارو
لانهى اعلى المنكـــــار * لا توقير السادات فزيــــارا
وقليل من اتصيبو في هذا الجيل ليس كيدى جارو

وهو تعليل نجده عند الموقت في «الزازية» حيث يقول :

سكان الغرب كلهم عباد اللويـــز * فيهم اللى باع دينو بالخبـزا

ويرى الحاج ادريس ان الامل في الجهاد ، ولكن لا جهاد بدون تقوى

وصبر ، فهما كالاساس للبنيان ، وليس يكون حصينا اى بنيان بـــدون أساس :

ليس ايقوم لجهاد يالامت لخـوان ٭ دون التقوى امع الصبرهاذو باثنين

تمثيل السياس للذى رايد بنيـان ٭ اشمن بنيان دونساس ايكون احصين

وما حدث ليس غير تنفيذ لحكم الواحد القهار ، فعسى الله أن يعفـو ويطهر وينصر دين الاسلام على ملة الكفر بجاه رسوله المختار :

من نسعاوه لعفو امع اطهارا ٭ ينصر دينا عن ملت لعدا ابجاه طه مختارو

وللشيخ اسماعيل المراكشى **قصيدة أنشأها حين فرضت حكومة الحماية اول ضريبة على المغاربة** يقول فى حربتها متوسلا الى اللـه الا يلجىء الناس للمخلوق ، وأن يجود عليهم بعفوه ويجيرهم من الضيق :

لاتولجنـا للمخلـوق يالخـــلاق ٭ جد لنا بعفوك اوجرنا امن الضيق

ويقول فى دخولها متوسلا اليه بحرمة البسملة واسرارها أن يفـرج كرب الزمان المظلم ، ومتوسلا اليه كذلك برسوله الا يحاسب الناس عـلى تقصيرهم لانه مشفق رحيم :

حرمت البسملا واسرارها افلاناق ٭ فرج اعلينا من هذا الزمان لغسيق

لك زكنايا الاهى افمول لبـــراق ٭ لاتحافنا بالنقصان لنك اشفيـــق

ومنها هذا العروبى يرجو الله فيه أن ينظر الى ضعف الناس وقـد ضاقت الاحوال ، وكلت العقول ، واوثقت الصدور ، وذابت الاكباد محترقة بنار الشدائد ، وبكت القلوب مخفية دموع العين ، وغدت الاجسام كسفـن غارقـــة :

انظر منحال ضعفنا ضاقت لخلاق ٭ كلت لعقول افلصدور الموثوقـــا

والبعض اكبادهم دابت من لحراق ٭ من نار الوقت والشدايد محروقـا

وقلوب اتنوح خافيا دمعت لرماق ٭ وامثيل اجسامنا اسفايـن مغروقا

وللشيخ ابن عمر المراكشى **قصيدة فى أزمة «البون»** اى بطاقة التموين ايام الحرب العالمية الثانية ، يرجو الله فى حربتها أن يحن ويجير من الزمان وفتنه ، والا يترك الناس فى الصف بالوسائط :

حن ياامولانا فينـــــا ٭ اوجرنـا فـالزمـــان

اوجرنا من لفتـــــان * ولا تخلينافى سربيس(1) بالوجهيا

وفيها يؤكد فكرة قضاء الله الذى قدر الغلاء،ويرجوه أن يعين الناس، ويفرج ما نزل ، فهو وحده العاطف المشفق :

كل شىء ابقدرت المـــــولى * من اعلينا قــدر لغــلا

ايعينا بقدرتو رب لعبـــــاد * عالم بنا يفجى ما تصدر بنـــا

نعـــم المعـيـــن * من غيرو مالنا احنين

ويرى أن ما قامت به الحكومة من جمع للقمح وتنظيم لتوزيع الخبـــز الهام من الله ، وهو الذى امر ولاة المراكز أن يعينوا رجالا يشرفون عـــلى العملية ، يساعدون الضعيف والعاجز والمرأة والمريض والكفيف والطالـب والشريـــف :

لهم المخزن من لا ينام

ايجمع الزرع افكل عام

حتى يامر به لكريم

اللى محتاجو افكل يوم

ايقبضو طايب (2) منهم

ومر الولات كل مركز يعملو لو ارجال

رياس ايعرفو اللفصال

وإيساعدوا ضعيف الاما

والعاجزين واللى حرما

وايميزو الطالب ويرفعوا بالشريف

واللى مضرور امع لكفيف

ومثل هذا يقوله فى قصيدة اخرى فى الموضوع :

جاد المعين برحمتو وافجا كل ضيق

بالهام من المولى قام المخزن

---

(1) سربيس أى الصف ، او ما يطلق عليه فى مصر «الطابور» ، والكلمة من الدخيل الفرنسى .

(2) طايب أى ناضج .

بالزرع اللى كان اخزن

بيعان المسكين احسن

افكل مسكن امراكز دارها

للمساكن أفقرا

او ماعملها لصحاب الزرع افلمطامر

الشحاتا هل لقطار

ولمحمد لحلو قصيدة فى نفس الازمة ، يرى فيها أن الزمان أصبح مرا والمصائب كثيرة ، وماذا عسى يفيد ؟ فقد خاض الناس فى المناكر ، وعمرت الاسواق بالمعاصى ، وظهرت علامات كثيرة وعجائب تحير العقول ، فلا الكبير يهاب ،ولا الصغير يحترم ، ولا الجار يوقر جاره ، لاحياء ولاعهد ، وشغل الشيطان الناس عن أداء صلواتهم وعن كل ما يهمهم :

هذا الوقت امـــــرار * ولمصايب كثرو شنهـو ايفدنـا

خضنـــــا فالمنكـــــار * ولمعاصى بها عمـرو اسواقنـــا

عـــلامات اكثـــــار * ولعجايـب فيها تفها اعقـــولنا

لا رهبا لكبــــــار * لا صغار ايحشمو فى جيل وقتنا

الجار امع الجـــار * لا احيا لا عاهد حجـات باينـــا

لهنـــــا الغـــرار * عن اصلات الخمسا واللى ايهمنا

شف الـوقت احـــرار * من افعالنا هـذ الوعيد صابنا

ويذكر بعض مظاهر الغش المتفشى فى اوساط التجار ، فالجزار يخلط لحم الغنم بالماعز ، واللبان يضيف الماء للحليب :

شـــف الـــى كـــزار * كايبيع النعجا غلمى (I) افسوقنا

شـــف الـــلى بكـــار * بالمياه ايخلط لنا احليبنا

ويستعرض بعض مناكر الوقت فيذكر منها كثرة النساء وتبرجهن فى جلاليب وأحذية ملونة ،يزين عيونهن وخدودهن،وبلون أظافرهن ويكشفن عن اساورهن وقفاطينهن الجميلة ، وقد بدت الخواتم والايدى المخضبة بالحناء :

(I) تقلب بعض الالسنة نون الغنم لاما .

لعيالات اكثـــــــار ٭ بجلالب واسبابطها املــونا
ويصبغو لظفــــــار ٭ والدمالج فــوق الكبوط باينـا
والعينين اكبـــــار ٭ ولخدود الحمرا تلمع باينــــا
بقفاطن تشكـــــــار ٭ ولخواتم وحنانيها امزينـا

وفى الوقت الذى يبقى الرجل فى الدار تخرج المرأة بهذا التبرج ، وتأتى بالسكر والدخان لتكيف مزاجها به :

الرجل فالـــــدار ٭ ولمرا فالزنقا تمشى امشرغنا
واتجيب السكـــار ٭ والدخخن هــذا هو ارشوقنا

وليست الشابة وحدها التى تعرض زينتها وانما العجوز كذلك تضع المساحيق على وجهها ، وتصبغ شعرها ، وتظن نفسها جميلة فتأتى المنكر ، ثم ان الساحرات كثيرات :

لعگـوزا تـــــوزار ٭ كاتعكر وتقــول أنــا امزونا (I)
تفعـــــل فالمنكـــار ٭ والشعر اتصبغو ما هو افدينا
السحـرات اكثـــار ٭ كايسحرو ويقولو ياخديمنا

ويعطينا صورة لحال العيش الضيق الذى نتج عن أزمة البطاقة ، فـلا أقمشة موجودة ، ولا صابون للتنظيف ، واوقية السكر التى تسمح بهــــا البطاقة لم تعد كافية ، وليست فى الدار مؤونة فلا سمن ولا زيت ولا فحم، وليس فى السوق لحم الغنم او البقر أو الجمل ولا سمك «المرنا» المعروف وهى حياة جعلت ربة البيت تقلق وتعرب عن هذا القلق فى قول لزوجهـــا بأنها ضاقت بطبخ الخضر كل يوم وخاصة البطاطس ، وكأنها موصى على أكلها من طرف الطبيب :

لا كتـــــان اظهـــــار ٭ لا صويبن باش انگلعو اوسخنا
أبـــون السكـــــار ٭ ولوقيا ماباقشى اتقـدنـا
لا عـــــولا فالـــدار ٭ لا سمــن لا فخر لا زيت كاينا
لا غلمـــى يذكـــــار ٭ لا جمل لا بگرى لا حوت مرنا
لمرا بالمعيـــــــار ٭ كاتقول للرجل طابـو اقلوبنا

(I) تصغير مزيانة بمعنى جميلة .

عينـــــا لخضـــار * كل يوم الخضرا هى اطيابنا

بطـاطـــا فغطـــــار * واش لبطاطا نعتهـا اطبيبنا

ومع ذلك فكل شيء متوفر في السوق السوداء يباع في الخفاء :

تحت الكونطـــوار (1) * كـل ماتبغى من لسلوع كاينا

جيب المرشى انـوار (2) * كل سلعا مخزونـا ليس باينا

وهو لا يرى في ذلك كله الا تنفيذا لحكم الله وقضائه ، فيرجوه ان ييسر الامور وينشر رحمته لتعود الاسعار كما كانت ، حتى تزهر الايام وتزدهر الحيـــــاة :

تصريف القهـــــــار * ولقضا يتصرف بحكـام ربنـا

يـــا عـالــــم لسرار * يالمولى يسر لنا أمورنا

ربـــى يـــا غفـــار * ليس عيبت فالى مخلوق كيفنا

حامـل مـن لـــوزار * لكن ارحمتك ياربى اتعمنا

يا رازق لعمــــــار * يا لغنى من لايخفاك حالنا

ويرخصو لسعـــــار * كيف كانـوا تزهر لنا ايامنـا

يـــا نعم الستــــار * جد برحمتك يالكريم غتنا

وللحاج محمد بن عمر **قصيدة في نفي محمد الخامس** يقول في حربتها:

قولو يا هلي معظم يوم السبت افلمدين الحمرا يذكار

عمنا لطف الله وخمد لفتايـــن

وفيها يرى أن كل شيء بقدر الله ، ولابد من تحمل هذا القدر والصبر عليه الى أن يفوت ، ولن يفوز بالنصر الا من رضى بقضاء الله وقبل مصـــيره، اذ لا ينفع الهرب منه في شيء وليس للعبد أى اختيار ، فماله الا أن يسلم الامر لمولاه ويذعن :

سبحان امن اقضى بقدرتو واحكم * ابما اجرى فـى جمـــع البشر

قدرو مولانا واعلم كـل كايـن

---

(1) مدرج البيع والمائدة التى يقف خلفها البائع، والكلمة من الدخيل الفرنسى

(2) السوق السوداء ، وهى من الدخيل الفرنسى كذلك .

يفوز امن اصبر للشداحتى اتفوت * وارضى واقبل ما صـــار
افلقضا ما ينفع لهروب يالفاطن

ليام دايرا والفلك امعاها ايدور * ما للعبد اختيـــار
سلـم الامر المولانا اوكون داعن

وفي قصيدة اخرى له في نفس المناسبة يدعو الله أن ينصر المغاربة ويفرج الكرب ، وان يخلصهم من يد أعدائه العصاة الحاكمين الذين رضوا الدنيا وكرهوا الآخرة ، فالفلك يدور ولابد لكل شدة من فرج :

ربي ينصرنا عنهم لابد الفلك ايدور والسوايع هذا حال الزمان
قالوا لدهات ما تدوم الشـــدات
باللطف يتصرف لقضا فالازليا

يالعالم فرج كربنا ياغيـــاث * ابجاه سيد الســـادات
سيدنا محمد طـه خاتم الانبيا

لاتخلنا ياربي فيد هاد العصـــات * من اعلينا حكمـــات
لاخـرا كرهوها وابغاوا غير الدنيا

وكما نظر الشاعر الشعبي الى الاحداث المحلية (I) ، فكذلك نظر الى القضايا العربية الاسلامية (2) وتأملها من خلال ايمانه بالقضاء والقـدر

(I) ليس من شك في أن حرب الريف التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي لتحرير البلاد من مختلف ألوان الاستعمار تعتبر من أهم احداث المغرب المعاصرة ولكن الاسف اننا لا نعثر لها على أثر في الزجـل على الرغم من الشعبية التي يتمتع بها ابن عبد الكريم وعلى الرغم كذلك من الصدى القوي الذي خلفته هذه الحرب في النفوس .
وقد ذكر لنا الاستاذ ابراهيم الكتاني أنه حضر مرة موسما لاحد الاولياء في الشمال ـ لعله موسم سيدي عبد السلام بن مشيش ـ وكانت تقام حفلات رسمية حتى المساء يحضرها مسؤولون عن السلطة وحكومـة الحماية تنفض اثرها جموع الناس . ولكنهم لا يلبثون ـ بعد اطمئنانهم الى انصراف هؤلاء المسؤولين ـ أن يعودوا للاجتماع حتى الفجر ينشدون قصائد شعبية بالعربية والبربرية الريفية في تمجيد هذه الحرب ، وقد حاولنا في احدى رحلاتنا للشمال أن نعثر على بعض بقايا هذا التراث ولكن الاسف انا لم نوفق لذلك . ويبدو انه ضاع بسبب عدم الاعتناء بتدوينه كتابـة او تسجيله بالصوت ، وبسبب موت الحافظين له كذلك ، وهم في الغالب من الشيوخ الذين شهدوا الحرب مع ابن عبد الكريم .
(2) تنسب لابن علي ولد ارزين قصيدة طويلة تسمى «المصرية» نظمهـا في دخول نابليون الى مصر ، ولكننا لم نعثر لها على اثر .

فى النصر والهزيمة على السواء . وقد كشفت حرب فلسطين الاخيرة (I) عن تجاوب شعبى صادق مع هذه القضايا ، نحسه عند الحاج محمد بن عمـــر الذى طغت عليه عاطفته الوطنية المتأججة فحالت بينه وبين النظر الى هذه الحر ب من خلال حقيقة النكبة التى أصابت العرب والمسلمين ، فهو يحمد الله على أن تألق نجم الاسلام مضيئاً فى الآفاق دون حد لنوره ، وعلت كلمة الله يسر خبرها جميع النفوس ، وظهرت أمة الاسلام فى برج النصر يؤيدها الله ، وقد توحدت جيوشها ووقفت متراصة على طول الحدود ، ونادى حظ النصروظهرت بشائره فسعد من كان قريبا منه؛وهو يأسف لبعد المسافة،ولو وجد لقطعها أجنحة لطار:

وبعدها يالامت لسلام الحمد لله اطلع النجم السانى

واتجلى فالافاق بان ضيو ما هو محــــدود

وارقات الكلما العاليا واخبارها سر النفوس ياجمع اخوانى

وظهر شعب الاسلام ايدو لحليم المعبـــــود

فى برج النصر شهدوه اجيوش لسلام جات من كل اوطان

واتحدت الاما الواقفا فمناهج لحــــــدود

نادى فال النصر وبانت ابشايرها يا سعد من اضحى دانى

ونا ماصبت اجناح ولوصال اعليا مبعـــــود

أليست دولة اليهود فانية منذ العهود الاولى للتاريخ ؟ تنقصهم القيادة الواعية ويخذلهم الله فتنهم فى الحياة وأذلهم فى كل مكان ، وجعلهم ضعفاء جبنـــــاء :

مبطولا دولتهم ياهلى خلاهـــم طورا فى اماج طوفانى

لا رايس واعى القاوا لامن بهم ايلـــــود

واخذلهم مولانا افلحيات افتنهم أدلهم فى كل امكانى

واجعلهم فالدنيا اكرايف(2) لكرايف الجنود

(I) حرب الستة أيام (يونيو 1967)

(2) الكرفا تعنى البخيل حين تطلق على الرجل وتعنى القبيحة حين تقصد بها المرأة ولكن الربط هنا بين الكرفا والجنود لا يجعل الكلمة تعنى غير الضعيف والجبان .

ثم ، أليست شوكة المومنين قوية ؟ وعدهم الله بالنصر والغلب على اليهود مهما انتشروا فى الآفاق ، فما كادت تسمع بشارة الفتح الالهى تعم الامة الاسلامية ليهلك الطغاة كما هلكت ثمود من قبل ، حتى سطع نجم الاقبال وبدت علامات الفرح والسرور والسلوان تحيى النفوس والبيد ، ونهضت سائر الامم والاجناس لحماية بيت المقدس مطلقة اعنتها مستعدة للقتـــال :

شوكت هل ليمان قويا وعدها ربـي بالنصر عل لجبانـي

تغلب ساير ليهود لو اكساو القفر الممـدود

مهما سمعت بشار السعادا عـم لسـلام بالفتح الربانـي

يهلك جيش امن اطغا ربنا كيف اهلك تمـرد

ها نجم اليقبال بـان شف اعلامات الفرح والسرور أسلـوانـي

شاع اذكرها واحيات به لمهاج امع لبـيد

قامت ساير لجناس ناهضا جات اتحامى اعلى البيت طلقت لعنانى

محتالا عل لقتال واكدا بطرارد وبنـــود

واليهود لا يؤمنون ، لا عهد لهم ولا ميثاق ، والأحمق هو الذى لا يحتاط من أعدائه ولا يحذرهم :

بالك تامن من خالفو الحد ونقضوا لعهود

وكذاك الميثاق ليس فيهم اللى بنا ايثق يقرا لمانـي

لحمق من يامن فى اعداه ماينجا من لنكود

وقد بدأوا يطغون ويتجبرون ويسعون للفتن منذ مدة غير يسيرة ، ولكن الله سيهزمهم ويصون منهم البيت ويحميه :

هاذى مدا ليهود باش زاغوا واطغاو افرعنو ورادوا لفتانـي

ربى يهزمهم من البيت ويصونو من ليهود

فأرض الشام شرفها الله وأمنها من قديم ، لذلك فهو يرجوه أن يحميها من اليهود الاجلاف :

الارض الشام الله شرفوا من قادم للآن فيه ساير لمانى

ياامولانا حرسوا امن اجلاف الاما لهــــود

واذا كان ابن عمر قد نظر الى الازمة بمنظار غير واقعى فأشاد بوحدة صف المسلمين وقوة جيوشهم وبتخاذل اليهود وتشتتهم وما نتج عن ذلك من انتصارأصحاب الحق وانهزامالاعداء المتعصبين فانالشيخ ابن الكبير المراكشى كان اكثر واقعية فى النظر الى الازمة ، وتأمل أحداثها والاعتراف بانتكاس المسلمين ولمس أسبابه الحقيقية . فالمسلمون مشتتون متنازعون ، فى حين أن العدو الى جانبهم يتربص الفرص للانقضاض ، يسانده إخوته وأصدقـــاؤه يزودونه بالسلاح :

النزع ادهانا امع بعضنا بعضألعدو افجنبنا يتسنانا
وامعاه لخوت سلحوه بقنابل للتخـــــراب

والمسلمون فى حاجة ملحة الى الاتحاد وتوحيد الصف ماديا ومعنويا ، ومتى كانوا متفقين متراصين فان أحدا لن يستطيع مواجهتهم :

لازم للصف انوحدوه حس امعنا نتاحدو الا مـن يقوانا
اذا كنا متوافقين ما يلحقنا كذاب

أما اليهود فطغاة متجبرون ، وليس من يهلكهم ويمحقهم غير الله ، وهـم أقوياء مستأسدون ومتحدون لمحاربة المسلمين ، وقد نجحوا بالغدر فى اهانتهم وتشريدهم ، واذا كانوا أقوى منهم فلان اخوتهم وحلفاءهم يمدونهم بالعون

ليهود اطغاو اتجبرو اولامن يهلكهم غيرك العاظم مولانا
امحقهم ابلقوا القادرا والسهم الرعــــــاب

ليهود اقواو اتنمرو واتحدوا عنقتلاخوانا وقصدوا لهانا
هانونـا هملونا اشردونا غـدروا لكلاب

ليهود القاوا اخوتهم عانوهم ابقاوا اقويا عن اقوانا
قوتنا هو انت اوقوتك ما تحتاج اجعاب (1)

وهم لم يستحوا من انتهاك الحرمات سعيا الى تحقيق أمنيتهم ، سبوا النساء ، ومكروا بالشيب والشباب ، واتخذوا المساجد مراقص ، وأخرجوا المسلمين من ديارهم ، ونهبوا وشردوا وقتلوا :

ليهود انواو ايحققوا امنيتهم اينكونا ايسبو نسوانا
بنواع الفحش ايعاملو الشايب منا والشاب

(1) الجعاب : البنادق ويقصد أى سلاح .

امساجدنا للرقص هيؤهم اولاد الفاجرين قصدوا منفانا

قتلوا نهبـوا لخوت شردوهم افكـل اهضـاب

وهو يرى ان المسلمين خدعوا فى المعركة حيث نكل بهم العــدو وتحداهم ، فكان مصابهم عظيما ولم يشاركهم فيه أحد ، لذلك فهو يلجـأ الى الله يرجوه اللطف بعباده الاسرى والانتقام من العدو وحلفائه ، فمتى نزل الضيم بالعبد فليس ينجيه ويغيثه ويفرج كربه غير خالقه الــذى يرعاه بالليل والنهار :

لمصاب اعظيم أهل الدين لمتين اتخدعنا اولا امـن ابكـى لبكانا

اربى يااربى لطفك نرجاك ياوهــــاب

عجل باللطف اعبيدك اسرى شوه بهم لعـدو أراه إتحـدانـا

والقى من يحميه واحنا فاحما احماك الغـلاب

العبد الا ينضام الا من ايغيثو يلا خالقو اولا سواه ايفاجى لكراب

ولكن لابد من التعجيل بالتوبة والاستغفار حتى تكشف الغمة ويشفى المصــاب :

الله أهـل لسلام بادروا بالتوبـا واستغفروا وطلبـوا مولانا

يفجى هذا الغما اعـلى لجميـع ايشفى لمصاب

ولابد كذلك أن يتخلص المسلمون من كيد الشيطان ، ويشكـوه الى الله وقد عجزوا عن محاربته ، فهو سبب كل ويل ، أغراهم بالطمع ،واستحوذ عليهم فغدوا له أعوانا ، وبعدوا عـن الصـدق ، لذلـك فهـو يطلب الله الا يحاسبهم وان يعفو ويسامح ويصفى ماءهم ويجعلهم اخوة متحدين :

اجعلنا من هل اليخلاص واحفظنا مـن كيد يبليس من قصد إنكانا

لمن نشكوه غير لك ما طفنا له احــــراب

هو السباب الكل ويل خدلو يارب راه يطمع گاع (I) إدانــا

كهربنا ولينا اعوان عندو واصدقنا غـاب

يا ربـى يا ربـى اولا تحافنا يا لكريـم سامـح اصفى مانـا

بك اجعلنا نتحدو ونضحاو للخوت احباب

(I) گاع بمعنى جميعا ، ولعل أصلها فى الفصحى القاع ، وكأن الوصول الى قاع الشىء يفيد جمعه كله .

وقد أوصى الله المسلمين وأنبأهم بعداء اليهود لهم ، ونبههـــم الى ان من اتخذهم أولياء فهو منهم ، ولكنهم خالفوا قول الله ، وخضعوا لاهوائهم ، واتخذوهم أحبابا وأصدقاء وتزوجوا منهم ، فكانوا بذلك عونا لهم على الغلب:

لنا قال المولى لكريم راليهود إعداكـم ابهـذا وصانا
خالفنا قول الله كلنا درناهم احباب
من ولاهم الله قال هو منهم ابلا احيا اخضعنا لهوانا
وتزوجنا منهم غلبهم كنا له اسبــــــاب

ولكنه متفائل طالما أن كل شدة لابد وأن يعقبها الفرج :

الشدا يتبعها الرخا احنـــا نترجاو تحقيق نصرك يوفانا
رب اللطف الخافـي أنـت المعطى من دون اسبـــاب

ثم فيم الخوف والجبن ، مادام الموت حقا على الناس ، ومادام الاستشهاد ضمانا للجنة ؟

الموت اعلينا حق ياك من مات اشهيد اهنا اوفاز ما يحتج اضمانا
راح اعريس الجنـــا افلاخرا يا سعـدو يسطـاب

مـــلاحظـات :

نود فى نهاية هذا الفصل أن نسجل بعض الملاحظات ، عساها تكمل الجوانب التى قد تبدو ناقصة فى نظرة الزجال المغربى الى الحياة .

الاولى : أنــه على الرغم من أن الشاعر الشعبى عاش فــى حياته وفنــه متجاوبا مع مجتمعه مهتما بمشاكله وما يتعرض له من وقائع وأحداث ، فانه يبدو وكأنه لم ينظر الى هذا المجتمع الا من علو وبعد ، لم ينزل اليه ولـم يقترب منه ليختلط به ويرسم حياته اليومية ليعرض لوحة مكتملة الملامح والابعاد . قد يكون ذلك صحيحا ولكن الى حد . حقا ان الشاعر الشعبى ظل وهو يعالج مشاكل المجتمع والحياة محصورا فى نطاق خاص ، هو نطـاق القضايا الكبرى التى تشغل الرأى العام من انحلال يصيب المجتمــــــع او أزمات تعترضه ، ولكنا لانريد أن ننفى عنه النزول الى الشارع والاتصال بالحياة فى ابسط مظاهرها واصغر مشاكلها ، ونكاد نجزم بأن هذا الشعر ضاع بسبب عدم رغبة الجماهير فى سماعه وترديده ، وبالتالى عدم اقبـــال

المنشدين على حفظه وتداوله . ونكاد نجزم كذلك بأن مثل هذا الموقف يتخذه الجماهير والمنشدون من شعر لايسيغه الذوق الجماعى للترديد والغناء جعل الشاعر بدوره يحجم عنه ولا يقدم عليه الاحين يقوى الانفعال فى نفسه ويضغط عليه ويجبره على القول وفى الحدود التى لا تزعج الذوق العام . ويبدو أن رجل الشعب ـ شاعراً كان أو منشدا أو مستمعا ـ لا يرى فى الحياة اليومية العادية موضوعا للامتاع طالما أنه يمارس هذه الحياة ويعيشها بكل الابعاد والجزئيات . ومع هذا فان الباحث لا يلبث أن يعثر على نماذج ـ ولو قليلة ـ تثبت تجاوب الشاعر الشعبى مع مشاكل مجتمعه ومعالجته لقضاياه . من ذلك قصيدة «المطر» (I) التى تصور قسوة فصل الشتاء على الفقير الذى لا قدرة له على الاحتماء من البرد والمطر . فالقسم الاول منها وصف لحال الجو الطبيعى ، لقد هبت الريح ، وصوتت الرعود ، ولمعت البروق ، وتهاطلت الامطار ، وراح كل الى مقره ملتفا فى جلبابه ، وغدا الحى بمشيئة الله وقدرته خاويا بعد أن كان عامرا بالناس ، ووقف الشاعر يطل عليه من سور سطح بيته ومعه كاتبه :

حسيت بالريـاح الصرصارا * والرعودافلكوان ايزيمصوتها بهدير
لبروك من القبلا شـــاروا * خطفوا المن انظر لبصــور
وابدات شى امشاتى غزارا * صابا من لسحاب الواسقا الما لكثير
والناس كلها لقـــرارو * سرى وراح فالغنبـــور
طليت عل الحى امن اسطارا * بانلى فاضى بعدنكان فيه جمعاكبير
كلا امشى اسريع الـــدارو * يضحى من لمطر مستور
سبحان امن اقدرتو جبارا * جل شان اللى كيخلى الكون بعداعمير
ويلا ايريد لـو تعمارو * يضحى افساعتو معمـــور
لمطار ما عملت الفتـــارا * وناكمااصبحتافبيتى ظلتماقدرتانسير
وامعاى كتابى مختـــارو * يدرى الشعر والمنثـــور

وفى القسم الثانى يطلب الشاعر من كاتبه أن ينبه الاغنياء الى أنهم

(I) سجلناها من المذياع غير منسوبة الى صاحبها، وسألنا كثيرا من الاشياخ فلم نهتد الى معرفة اسمه والغالب أنه معاصر .

مصابيح التنوير وراحة المتألم ، يجب عليهم الا ينسوا مواطنيهم الضعفاء ؛ ويرسم صورة للعامل الاجير يكدر الشتاء صفو حياته حيث يظل يدور طول النهار يبحث تحت المطر عن عمل يكسب منه قوت يومه فلا يجد . ويعود في المساء الى المغارة التي يسكنها ويفترش فيها مع أسرته الحصير ، فيدخل خاوى الوفاض فارغ اليدين وقد تعثرت قدماه من شدة الكدر والهم ، ويلتف حوله الاطفال ، وتحس زوجته بحقيقة حاله ، وتحاول تصبيره على ما قدر الله ، فهي من أسرة نبيلة كريمة راضية بعيش الحلال مهما كان قليلا ؛ ووجود مثل هذه الزوجة في بيت الرجل الفقير عمارة له :

قل الكاتب لهل لغارا ٭ عار لفكار اعليكم يا مصابح التنوير
انتم افشعبنا دكارو ٭ وانتم راحت المعكور
اللى ايظل يخدم بجارا ٭ انهار تاتيه الشتوا كيظل فى تكدير
من حيث مادرك مسوارو ٭ اويظل افمطار ايدور
وايعود افلعشى اللمغارا ٭ فين يوجد لطفال وزوجتو اعلى لحصير
ويشوك اللحم واشعارى ٭ لوصاب لرض به تتغوز
ويزيد ٢ بلقدام العشارا ٭ والدرارى به ايدوروا اكبيرهم واصغير
واتحس زوجتو بكدارو ٭ واتقول هكذا مقدور
بنت لجواد نسل الخيارا ٭ راضيا بالعيش دالحلال لون كان اقصير
اعمارت لفقير افدارو ٭ زوجا ومنها مسرور

ويستعرض القسم الثالث نماذج من الغرباء المشردين الذين يفدون الى المدينة ، وليس لهم فيها مأوى يجدون فيه الدفء ، منهم من يختبىء تحت الاقواس وقد ستر جسمه بازار أو لبس ثوبا قصيرا أو ممزقا يكشف عورته ، ومنهم كثيرون يذهبون الى المقبرة عساهم يحتمون من الامطار ، ومنهم آخرون يتسولون في الطرقات يسعون الى جود الاغنياء ، ولكن هؤلاء في دورهم وقصورهم مدفأون في البطاطين والازر لايحسون بشيء ، وقد نسوا الكون والخلق :

ما ريت من جاوا اللعمارا ٭ امشردين ولشاقى كطيح بالتدبير
ما ريت من جاوا اللعمارا ٭ امشردين وصابوالشتا ولاالقاوانصير

والـدفء مـا لقـــو اثـارو * بين لقواس داروا كـــــوز
فيهـــم امـــن اكساتـو دزارا

فيهم يالغنى من لابس ثوب عل الجسم اقصير

فيهم امن اتبان اعـوارو * من شرك افوسط المحصـــور
واشحال منهم فالمقبـــرا * امكمشين امن امشاتى كطيح بالتبدير
وإخرين فالزناقى ســــاروا * يسعاوا جود هل لقصور
وانت اكما لبخيل افـــدارو * ناسى الكون والمعمـــور
وانـت افيشـك وتفشـارو * بين لبطاطن وليـــزور

وفى القسم الرابع والاخير يكمل اللوحة برسم ارملة لاقوت لهـــا ولاكساء ولا نور ، تظل تدور فى البساتين تلتقط الفاسد من الخضر ، ولكن جسدها طاهر اشترت بالجوع طهره ؛ وها قد إقبل الشتاء بأمطاره ، وهى تعلل اطفالها ، وتفكر فى وسيلة للتصرف فيما قدر الله ، فى حين يظل الغنى فى تعاليه وتعاظمه ناسيا كون الله وخلقه :

لو كان ريت كمن صبـــــارا * مات لها والداولادها افيوم اعسير
اولا بقى لها تدخـــارو * لا خبز ولاكسا لا نـــور
واتظل فى ابساتن خضـــــارا * تلقط الطايش والعيان والجسدا طهير
بالجوع شاريا تطهـــارو * واليوم جاتها لمطــــور
صبحت للدرارى حـــزارا * وكتخمم كيف المعمول فى اقضا القدير
وانت افيشك وتفشـــارى * ناسى الكون والمعمــــور

الملاحظة الثانية : ان الشاعر الشعبى لجأ فى الوعظ الى الخطاب ، وهو خطاب صريح مباشر قد يوجهه الى نفسه او الى غيره . ولعل مخاطبته لنفسه تعتبر من قبيل التجريـد المعروف فى علـم البديع حيث يجرد المتكلـم من نفسه شخصا ثانيا يخاطبه ، بل انا كثيرا ما نجد الشاعر يوجه الخطاب لراسه وقلبه ؛ ففى خطاب الرأس يقول ابن احساين فى «اللقمانية» :

لازلت نوصيك ولو صايا علم وعرفان * راسى ياراسى ايلا اصغيتى لبدانى
واعملت بوصايتى اتنال الدنيا والدين

ويقول ابن على فى «الوصاية» :

اراسى نوصيك يالزايد تعبى واشقايا ⁎ من خلطت هل جيلنا اعـــزل

ويقول ابن سليمان فى «التوبة» :

تب ياراسى لا تشقـــى ⁎ التاعب لابـد من لفراق

لا تامن فالدنيـا ابناسها غرارا

ويقول شقــور :

بسم لكريم صفت انحاسى ياراسى بسم لكريم خلصتنى تخليص

ويقول المدنى التركمانى فى «الزهو» :

اراسى تنها من لمزاح ابناسو شواه ⁎ والغى هل لفساد ولخطا والفعل المدموم

ويقول عــلال العلــوى :

اراسى واش اذلعميــــا ⁎ يـزاك اخـايب لفكـر

الشيب اجرا اعـلى الصغر ⁎ وانت مازال افلعميـا

مطموس القلب ولبصر

وفى خطاب القلب يقول ابن على :

يالقلب اتفكر مافات اللولى والتالى ⁎ كيف شافوه اخرين اولا دراواليا كيف اجرا

ويقول العلمــى :

عدتى يالقلب الغافل تخطا الصواب

الصمت كيقولو لعرب حكما

مجدوه الناس القدما

واسكات عام افضل من كلما

ابغير ندمــا

وقد يخاطب الشاعر غيره على حد مانجد عند المغراوى فى خطـــاب الغــافـــل :

يـا غـافـل حضر بـالـك ⁎ لاتامن افدار لغرور اسمع نوصيك

ويقول الشاوى :

حضر لدهان يالغافل اصغى لوصيتى المزيانا

ويقول الحاج ادريس لحنش :

أغافل مثلي اعلى اصلاح اسمعني نوصيك * بادر تب لله وحضر بالـــك

وفي خطاب الساهي يقول بوخريص :

يالساهي عما يعنيه والعمر فان * قم واعزم واخدم يكفا امن اتفرعين

وفي خطاب النائم يقول الشاوي :

يالنايم فق امن النوم راقب الفجر الطالـــع

قم تغنم ربحك واتفوز ابلغنايم والطاعـــا

وفي خطاب الفاطن يقول العميري :

يالفاطن مغرور الواهيا افطن

وفي خطاب محبي الدنيا يقول العباس الحرار :

أغابطين فالفانيا ام السيات * غنموا إتوابها قبل الايفوت الفوت

وفي خطاب ابن الدنيا **يقول** ابن علي :

لك يابن الدنيا خذ اوصايت الدهات اللي مرويا

قول مومن لك اعطاها اوخوك فالله

وفي خطاب قبيح الافعال يقول محمد ولد سيدي بوعمرو :

زال حكمك من صرفك ياقبيح لفعال * يالي عن منهاج السالكين ما يل

وفي خطاب الواله يقول الحاج محمد بن عمر :

يا أخ الولهان بهموم الدنيا الفاتنا

من شطنت لنا اقلوبنا

عشنا كالحيوان

لا من فاق ابتمحانو

وفي خطاب الصاحب يقول الشاوي :

رد بالك ياصاح اوصغ طرز لقوال * كن عايق فايق خذ لشيا بمهـــلا

وفي بعض نصائح السلوك الصوفية نجد الخطاب يوجه للمريد كمـا عند ابن رموية اذ يقول :

يامريد وجه قلبك واقرا لوح الشهود

أو الى الفاهم كما عند الشريف المرابط محمد المنالى اذ يقول :

يافهيم صغ لنظامى اوكون فاهم ※ ردت نوصيك أوصايا فى اطريق لخوان

الملاحظـة الثالثة : ان فكرة تنبيه الغافلين المتهافتين على الدنيا جرت بعض الشعراء الى تخصيص قصائد للتذكير بقدرة الله وعظمته على حد مافعل المغراوى فى قصيدة له تناول فيها تكوين الانسان وخلقه ، ومختلف أطواره؛ يقول فى أولها :

سبحـان المهـين خالـق الانسان ※ من ماء مهين والاصل صلصـال

لآدم أبو البشر امعزوجتو صنوان ※ منهم ذا النسل افلزواج نسـال

سبحان امن اخلق جميع لوجود شاهد ※ لله بالثنا والحمد والتوحيـد

سوى امن اكفر بجهالت لاحـد ※ عن نهـج لهدا ضل اشقـاه اعنيد

شان الله اعظيم كيف ينكر الجاحد ※ واشهود اقدرتو فى اصنعتو ترشيد

وفيها يقـول :

كم قد اتى افمحكم القـرآن ※ تطوير انشيت من حال الحـال

نطفا ثم علقا افأول النشيـان ※ مضغا ثم لحم اعظم اوصـال

وعلى حد ما نجد كذلك عند ابن على العمرانى فى «الذرة» التى يقول فى حربتها :

يالساهى من نومك فق سبح الرب ※ لمتا وانت تايه افلغرور لـوأب

الصلا والسلام اعلى اخيار لنسب ※ سيدنا محمد طـه اشفيـع لعراب

وفى عروبى منها يقول متحدثا عن الذرة وكيف قسمها الله أربعـة أقسام ، الاول للرسول عليه السلام ، والثانى للقلم ، والثالث للعـرش ، والرابع للكرسى :

من نور اقبض قبضا واقسمهـا ※ اعلى ربعا اكما امن الـدار حـادث

القسما اللولى للحبيب اجعلهـا ※ وقال لها كون محمد كانـت

والقسما الثانيا لقلم انشامنهـا ※ ومن القسما الثالثا العرش الثابت

والقسما الرابعا للكرسى ورثها

الفصل الثالث

مع النـــــاس

لكل انسان فى مجتمعه علاقات تربطه بالناس الذين يشاركونه الحياة فيه أفرادا وجماعات ، وهى علاقات تتسع وتضيق بمدى اتساع وضيق النطاق العددى لهؤلاء الناس ومدى متانة وفتور الروابط التى تشده اليهم أو تشدهم اليه ۰ ويمكن اعتبار هذه العلاقات عند الشاعر الشعبى من خلال مستويين ، أحدهما عام والآخر خاص ۰ اما العام فيتمثل فى نظرته الى الناس كجماعات واهتمامه بمشاكلهم وقضاياهم وتجاوبه معهم فى رضى عن سلوكهم أو نفور منهم فى سخط على هذا السلوك ۰ وقد عرضنا لهذا الجانب فى الفصل السابق لما رأينا فيه من تكميل لرؤية الشاعر الى الحياة وبلورة هذه الرؤية وتوضيح لاتجاه الحكم والعظات التى نتجت عنها ۰

وأما الخاص فينحصر فى العلاقات التى تربطه بأفراد معينين ، قد تكون لهم فى نفسه أو فى المجتمع مكانة تقدير واكبار ، فيثنى عليهم احياء وأمواتا ، مدفوعا بالحب الصادق حينا والتقرب والتملق احيانا كثيرة ؛ وقد لايكون لهم فى نفسه غير الشعور بالمنافسة والخلاف والخصام ، فيصب عليهم جام هذا الشعور ذما وتعييرا فى غير هوادة او لين ۰ وهو الجانب الذى سنتناول فى هذا الفصل ، نقصد به فنونا ثلاثة هى : المدح والرثاء والهجاء ۰

أولا : المدح

من عميق ادراك الشاعر الشعبى لما هية الشعر ودوره انه ابتعد عن فن المدح انشاءا وانشادا ، وفى غير قليل من الاهمال والازدراء ، وكأنه أحس بما فيه من فتور العاطفة وتكلف التعبير وزيف الدوافع ، وخلوه نتيجة ذلك من امتاع الذهن والشعور ، فلم تنفتح قريحته للنظم فيه ، وجاءت قصائده لذلك قليلة ، وهى على قلتها لم تجذب الحفاظ اليها والمنشدين ، فكان أن ضاع اكثر انتاجه فى هذا الفن ، الا ماكان منه فى مدح الرسول عليه السلام (1) ، فانه انطلق فى أجوائه ، تسعفه عاطفة خالصة اساسها

1) خصصنا له الفصل الرابع من باب الموضوعات ۰

العقيدة الراسخة والحب الصادق ؛ بل انا نجد الاشياخ ـ شعراء وحفاظا حين يطلقون تسمية المدح او «المداحى» لايعنون بها غير المديـح النبوى ٠ وبين ايدينا نص يفيض بهذا الروح ، يعيب فيه بـوعـمـرو على الشعراء الذين تخلوا عـن تمجيد المكارم والفضائـل ، وغدوا يـمـدحـون الناس ويصفونهم بما لايتحلون به ، وهو يفتقد فى الممدوحين خصال الثناء ، ويرى ألا أحد يستحق المدح غير الرسول الكريم :

قال الاديب اعمرو ❊ اه اعلى الشعرا

اسمعنا عـن الاعيان ❊ فقديـم الـزمـان ❊ كانـوا يمدحو الاحسان

واليوم تمدح الانسان ❊ وتقول ذا فـلان ❊ ساعا تـوجـدو عجزان

اصغ غايت الـرقيب ❊ يامن هـو البيب ❊ لك فالناس اعدو وحبيب

تمدح ياأخى لنجيب ❊ وتقول ذا اريـب ❊ وترى السعد فيه ايخيب

أمن هو البيب احسيب❊ فى ذا الجيل اغريب❊ هـذا صح ابلا تكذيـب

نجم الثنا قـد غـاب ❊عـنـا حقيق واغـبـا

وانبطـلـت لنسـاب ❊ رجعوا لكرام تربـا

وكـذلـك الاصحـاب ❊ لاتـامـن الصحبـا

نحلفلك اعظيم ايمان ❊ حقـيـق بالبـيـان

مـا تمدح ولا انسان ❊ سوى سيد الثقلان

كذلك نجد الشاعر العباس الحرار يعتز فى بيت من قصيدته الفخرية أنه لم يرفع بقوائم شعره سطوة ملك أو طاغية جبار :

أنا اللى ما رفعت بقوايم شعرى ❊ سطوت مالك شامخ او اطغى جبار

ومع ذلك ، فقد وفقنا الى تدوين عدد من القصائد ، ومن أهمها مجموعة مدح بها السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام (1) ، والمولى أبوبكر بـن السلطان الحسن الاول (2) وكان خليفة فى مراكش للمولى عبد الحفيظ(3)، والملك محمد الخامس (4) ثم ابنه الحسن الثانى

1) تولى من سنة 1238 الى 1276 هـ ٠
2) تولى الحسن الاول من سنة 1290 الى 1311 هـ
3) تولى من سنة 1325 الى 1330 هـ الموافق 1912 م ٠
4) تولى من سنة 1927 الى سنة 1961 م ، حيث خلفه ابنـه الملك الحسن الثانـى

أما المولى عبد الرحمن فيمدحه ابن سليمان ويذكر استعداده في مراكش للخروج الى حرب في الحوز لم يشهد لها مثيل ، زادها وجود السلطان بهاء وهناء ، فابتهج الناس وانطلقت ألسنة المنشدين تلهج بشجاعته وجوده وعقله وذكائه :

فرجا يا بهجت لحضر وانزها ※ زاد سيدنا فهناها
اعلى اسرور الملك ايفرحو كلاعقول ※اتبشرى يا بهجت لمدون
وهو ياسيدى وعلى ازهوك ناسك تنشد بفصاحت السون
وهو ياسيدنا لهمام بن الامام لمجد بن سيدى هشام
اشريف امن اسلام ضى لنيام
اشجيع امن الضراغم والجواد عل الخلايق
فالحوز غنمت به طيف امناها ※ صاحب لعقل وانباها
قام حارك بها جميع لحروك امثول ※ ما شأفت عوضها اعيون

ويخبرنا الشاعر بتقليد للسلطان يقضى قبل الخروج للحرب ان يزور على عادة أسلافه ، رجال مراكش السبعة (1) ليفوز بذخيرة أهل الكمال وينال مقصوده :

وهو ياسيدى ومنين وجد الحركا واسكاد الشور
افعل ما فعلت اسلافو لفضال
طاف عن سبعتو رجال
فاز بذخيرت هل لكمال
حا جتو نال

ونجد العلمي يدعو له الله أن ينصره ويهزم اعداءه الطغاة المتجبرين :

غث لهمام ابريح النصر يالقهار ※ ونفد ادعوتو فالطغات ولجباير

ويتوسل اليه تعالى أن يحفظه من كل ضرر :

يامن رسى اجبال وارصدها بصخور ※ وابحور الطاميا ابقهرو محصورا
واحجب ضو النهار بظلام الديجور ※ واهزم لغسيق ابلفجر باهى الصورا
ياعالم مابدا وما تخفى لصدور ※ سلتك بملايك لحجوب المشهورا
احفظ ذات لهمام من كل اضرورا

---

1) هم أولياء هذه المدينة المشهورون : يوسف بن على والقاضى عياض وأبو العباس السبتى والجزولى والتباع والغزوانى والسهيلى .

ويرجو الله ويسأله أن يكسوه حلة من نور هيبته ويـؤيـده بالنصر والحكمة ويجود عليه بما يبهجه ويسره ، وأن يسعد حظه أينما حل ، ويبارك فى عمره ، وأن يجعل دعاءه على اعدائه كدعاء نوح على أصحاب الطوفان :

يالجليل اكسـه حـلا ابهبتك نـور ※ وايدوا بالغلب وكرموا ابما ايسرو

وظفرو بالحكما اولـه سكم الشور ※ افكل بقعا بـارك ياربنا افعمرو

اجعل ادعوتو دعوت نوح النبى المبرور

اعلى اصحاب الطوفان بدعوتو انبترو

ويطلب الله أن يفتح له باب التيسير وأن يجعل الاولياء والصالحين جيشا لحمايته يدافعون عن كلمته ويغـيـرون ، وأن يعينه ويحفظ جيشه ويؤيد علمه بالنصر ، وأن يهزم قوم الفساد والزور المخالفين :

افتح لـــام غربنا بـاب التيسير ※ والصالحين جيش لحماه ايصيروا

حـق اعلى اكلمتوا يوكدوا ويغيروا

نعم المعين عـن لهمام المنصـــور ※ واحفظ جيشوا وايد علمو بالنصر

واهزم قوم لفساد واهزم قوم الزور ※ وافـن قوم لمخالفا بسنون السمر

وقد عم الازدهار عهده فربح التاجر والمتعلم ، وغدا الصبى الصغير فى الكتاب يتقن تجويد القرآن الكريم :

انزايه ايامو ظهرت لو افجمع لقطار ※ نال كل من اقرا واربح كل تاجر

توجد الصبى فالمكتب اصغير محضار ※ ايجود الآى تجويد لفقيه الماهـر

ويرى فيه الفقيه العميرى أميرا للمؤمنين شجاعا رفيع الشأن شريف النسب من قريش ، يتوسل به الى الله أن يعم الامة بالاحسان :

رفيع الشان ※ ماتهمو شجعان ※ فحروب امدان

نسبتـو عـدنـانـى ※ من قريش مير المومنين

أيـــا رحـمـان ※ كن لى مستعان ※ بمن تلا القرآن

ودنى واعطانى ※ اعطاه من خـيـر الداريـن

بوجود السلطان ※ مولاى عبد الرحمان ※ عمنا بالاحسان

انمجدو فـزمانـى ※ من احكم فالبرين وبحرين

انقاد له الزمان وارخى له الدهر عنانه فاصلح احوال البلاد واعـــز الله به الاسلام :

اعـطـاه ازمـان * الدهر ارخـى لو لعنان * اصلح بـه البلدان

حـتـنـى وارضـانـى * الله بحكامـو عـز الـديـن

وعند عزوز اللمتونى انه اعز الملوك ، نـادت مدينة مـراكش بصولته ونصره ، فهو سلطانها ومولاها وسليل الرسول :

لـك الـبـهـجـا نـدات * يابـن هشام السلطانـى

صول اعطاك الله النصر ياعز الملوك * مـولاى عـبـد الـرحمن

انت هـو السلطان * وانت هـو مـولاها

مولاى عبد الـرحمان * نخبت لمفضل طـه

وهو خلاصة الاشراف ورأفة الله بالعباد ، أمن الخائف وأغاث اللهفان فغدت الايام حلوة والاوقـات ضاحكة ، كما ضحكت ثغور الـذيـن احبوه بجوارحهم حب الظامىء للماء :

هيا خـالص لشـراف * يالهمام الهشامـى

بـك الـلـه عـنـا راف * يامول القدر السامى

أمـن بـك الـخـواف * ياغيث الشرب الظامى

ايـام الدهـر احـلات * واضحكت اوقات ازمان

كيف اضحكت افواه واجوارحها حبوك * حب الماء للظمآن

وأما الخليفة المولى ابوبكر فيمدحه محمد بن لقزيز بأنه هلال ساطـع سعدت بنوره كل المدن والقرى وجميع أركان المعمور واقطاره ، وهـو كريم وفارس وشجاع بل هو أسد الاسود ، ومن سلالة الافاضـل النجباء ذوى السر والعز والمكانة العالية ، وعدهم الله بالنصر وايدهم بجيوش قوية تبادر فى الجهاد للانقضاض واخذ الثار :

لـهـلال الـزاهـر * بـه سعدت واهنات امدينت لحضـر

جوف اقبلا امع لعمارا * والتل وساير لمنازل فى كـل اقطار

ضـرغـم لقسـاور * صيلت النجبا تفضال اهل الســر

من بهم العز والتجارا * ناس الدرجا العاليا هما هل لسرار

سـطـوا وادخــايــر ✻ ودهــم المـولـى بالـعـز والنصـر
واعدهم لجهاد فالنصارى✻ بر زايم (1) ولقواس وقنا اورمح بتار
تـوكــد واتكابــر ✻ فى بحر الهوشا وفحـومـت السقر
وقت اماركبو من ليغارا ✻ بفديو التار بالـعـزم ابلا تـوخـار
صـال بـعـسـاكـر ✻ ولمـدافـع وارجال وخيـل تنشكـر
والشجعان امقلد ازكـارا✻ ابـأمـر الله ربنا لجليل الســتـار
حـلـت لـبـشــار ✻ بـالخليفا سـيـدى مـولاى بوبكـر
يم القرا فارس لغزارا ✻ مسعد لسلام كـافـا بالليـث الغزار

وهو بعد هذا شريف النسب ، بحر فى العلم ، خطيب على المنابــر تزهى له الارواح وترقص اغصان الشجر ويفوح طيب نسمات الازهـار ، ثم انه لايفتأ عن ذكر الله ينفى به الهموم والاكدار :

النسـب الـفـاخــر ✻ يـم لعلوم الفالـح صاحـب الذكـر
نافى شغف الهول ولكدارا✻ بهازهات الرواح جن او انس واطيار
مـابـيــن امـنـابـر ✻ ابلعطوف رقصت القطبان فالشجـر
هب انسيم الـروض ابلبشارا✻ ونفح طيبو امن الرضا بنسايم لزهار

وعند عبد الرحمان ابن الفقيه الحاج الطاهر انه خليفة السلطان المولى عبد الحفيظ نعم الخليفة ، بمثله تفخر الخلافة فـى كـل عصر ، واذا كـان السلطان سعيدا فى كل مناطق مملكته فهو بخلافة المولى ابى بكر اكثر سعادة

اخليفت المـالـك فـى ذا الـجـيـل✻ عالى الهما بـالتجليل
جل ونعم لخلافا بـه فالعصر تفتاخر✻ ضمها العـز الـوافـر
من اسعادت مولاى حفيظ ابسايرلقطار✻ اسعد بخليفتو اكـثـر

بتمام شفائه (2) استقام الحظ وعم السرور مدينة مراكش ، وقـد دعا الاشياخ للحفلات التى اقام فلبوها فرحين مبتهجين :

بكمال راحتو متسقم لنا الشور
تلقى السرور بالراحا فالبهجا ✻ انحمدو مرفـوع الدرجا

---

1) ج رزامة وهى الصخرة الكبيرة او القطعة الثقيلة من الحديد .
2) يبدو أن القصيدة قيلت فى تهنئة الخليفة بالشفاء من مرض .

كاينادينــا للفرجــا

فالسلاما لبات اقلوبنا القول الذاكر ❋ فرحنا اضحى متكاثر

ايجابت التلبيا بسرورنا اتبشر

وتـوضـح غايـت لخبر

وهو محروس بالسبعة بدور رجال مراكش

محروس عز لخلايق بالسبع ابدور

منهم سيدنا يوسف مول الغار

والذى بالشفا (1) يذكــار

ولـهمـام السـبتـى غـيـار

له سندا مركاز الاوليا ابيدو داير

. . .

والمجد صاحب الدليل (2) اعنصر ايفور

فكفالتو يجعل احراكو واسكون

وحرم سيد التباع ايكون

له رقيا واحجاب ايصون

ســر وعــلان

الغزوانى ايحققوا ببشاير

جالبين كــل ادخـايـر

ابسيدنا السهيلى يسهل جمع لامر

فقصد مـولاى بـوبـكـر

ومثل هذا وذاك نجده عند الشيخ عمر المراكشى ، لايضيف الا انـه نجل السلطان مولاى الحسن ، وأنه جزيل العطاء للقريب والبعيد ، وفريد عصره فى الكرم :

نـجـل الملك طلعت البدر السانـى ❋ ياسيدنا ❋ سيدى مولاى بوبكر

. . .

يانجل الماجـد الشريـف الحسانـى ❋ ياسيدنا ❋ ياغايت كل امن اتضر

1) كتاب «الشفا فى أخبار المصطفى» للقاضى عياض .

2) كتاب «دلائل الخيرات» للجزولى .

معطاك اجزيل عل القاصي والداني ❋ ياسيدنا ❋ فالجود فــارد العصر

ومن المدح الذى قيل فــى **محمد الخامس** مانجده عند محمد المــودن التطوانى يصفه فيه بأنه الهمام نور عينيه ، نصر ه اللـه واعطاه سطـوة فاقت سطوة كل من سبقوه ، شبيهة بسطوة هارون الرشيد وعبد الملك ابن مروان ، به يفخر العصر ويباهى ، حاز الادب وحسن الخلق والتواضع والدين المتين ، ثم انه من ذرية الرسول عليه السلام وسلالة الملوك :

نصرو ربــى يستاهــل النصـــر ❋ سيدى محمد لهمام نور اعيانى

. . .

اعطاه الله ستلوا عطلت سطوات ❋ دوك اللى فايتين فى لزمانــى

كســطـوت هــارون الــرشـيـد ❋ ومــالــك بــن مــروانــى

. . .

اعلى لعصــور اتباهـــا عصرنــا ❋واستفخر بذا لهمام يافاهم لوزانى

. . .

حــاز الادب وحســن لــخـلــوق ❋ امع التواضع مايحجا الانسانــى

ثــــم الــديــن لــمـتـيــن ❋ زاد خــاصــو بــه الرحــمــان

مــلــك بــن الـمـلـك ولــد مـلـك ❋ دار الملك يا فهيم التبيانــــى

مــن ذريــت عــيــن لــوجــود ❋ الــشــافــع فــالعصـيــانــى

ويتوسل الى الله ان يصلح رأيه بحرمة اسمه العظيم :

تصلح ريو يا كامل لـــــــعطا ❋ حرمت اسمك لعظيم يا رحــمان

ولادريس الزمورى قصيدة خلد بها حفل (1) وضــع الحجر الاساسى لمدارس باب شالة المعروفة بمدارس محمد الخامس ، يمدحه فيها بأنه نهض بالعلم وانشأ المدارس وأقام المساجد ، فأتاح للشباب أن يتفقه فى الديــن والعربية واللغات وعلوم العصر :

يحيا يحيا ملك غربنا سيدى محمد الشريف الحسانــى

كيف احيا لمدارس امعا العلم وامساجد للديـــــن

فى أيامو المبروكا لسلام العصريين اتفقهوا فكل لديانى

حتى العجم وعــرب اقــراوهم دركوا جــاه امتين

بوجود نعم الملك لمشرف واقف احريص ابقلب ذاتو يقظانى

اعلى لمساجد وامدارس للقرايا واشيات اخريـــــن

---

1) فى 19 يونيو 1946 .

من اعلوم التوحيد ولعلوم العصريا واقراوا القرآن

يتفقهوا فـى ديـن لسـلام واقـواعـدو المثبوتين

فحياتو المبروكا اتزادت امساجد وامدارس اللقرايا ببيان

واتجددو لمساجد اللـى اقدام ببنى فـى تحصيـن

وبعد استعراض مظاهر الاحتفال ، وصف وضع الحجر الاساسى لهذه المدرسة التى ستكون فاتحة خير كثير ، دون ان ينسى اكتتاب سكان الرباط لاقامتها وافتتاح الملك لهذا الاكتتاب بمبلغ مليون ونصف من الفرنكات :

من بعد هذا الخطبات وقف لهمام حجرت الساس فارح قلبو هانى

نـزلها بلطافا فـى سـاسـهـا بالـفـتـح المبيـن

تحقيق دا المدرسا افغربنا فيه خير اكثير للسلامبالبيانى

آذن عـنـهـا مـلـك غـربـنـا نـجـل الحسنين

هو الاول معدن الجود اتكرم من مالو الخاص دون الكتمانى

مليون ونصف مليون اهداه سيدى ولا تونين (1)

وامر هل الرباط كلها تغنم دالاجر ولفضل يالحسانى

لايـن هـذا هـو الخير هـذا ارباح الـدريـن

وهو فى مدحه للسلطان يذكر انتسابه للرسول الكريم ولسلالة ملوك هو ياقوتتها المضيئة ، وهبه الله الحكمة والعقل ، وأحبه فغدا محبوبا عند الشعب ، لم يتقدم مثله فى المغرب سلطان :

بوجود هذا الملك ونعم ملك اصل الملوك نسب طه المدانى

هـذا يـاقـوتـا منهم اضـوات ابـنـور مبـيـن

هذا الملك الله فيه اوضع حكمت واعطاه اعقل نور نورانى

هـذا حـاز الملك الشميخ والسعادا للمسلميـن

هذا ملك محبوب عند ربى وعند العباد افلحضر والعربانى

هذا سلطان مـافـات فى غربنا مثلـو بعقل افطين

وعند العيساوى الفلوس انه رمح فى الحروب مهند يجدد ثوب العز ، وأنه صاحب المجد ووارث العلوم مـن الاجداد ، وأنـه أسد تسعد بصولته

1) دون من باعطاء المبلغ .

العباد ، اختاره الله وجعل ثناءه مخلدا فى القلوب ينفذ فيها حكمه ، وقـد سعد من جعله عماده وسنده ، فهو ينبوع الفضل والجود ، من لم ينظر الى عرشه بعينيه يظل بصره عليلا وقلبه متجمدا يعانى من جراح لاتلتئم :

العز بـك تـاك امجدد

رمـحـك افلـحـروب امهـنـد

واثـنـاك افلقلوب امـخـلـد

يـا صـاحـب لمـجـد

ياوارث لعلوم ولعنيا من جد الجد

ياضرغم لحميا سعدت بك لعباد

واخـتـارك لجلـيـل الـجـيـد

حكـمـك افلقلوب امنـفـد

يسعد امـن اعليك امسـنـد

ايـلـوح نـكـدو

يأينبوع الجود ولفضل شلا ما ينعد

من لاشاف افعرشك ياسيدى ابلتماد

بصرو ابلا اشكوك امـرمـد

قلبو عـــل لبدا متجلمد

لازال افـلـجـراح ايـكـمـد

ويراه قد فاز بالانتساب للنبى الكريم وحاز جميع المزايا والمفاخـــر والامجاد ، ويدعو له الله أن يديـم صولة نـوره المحمدى الذى اضاء نجـم المغرب :

دام الله ايام صولت النور المحمدى * من به اضوا نجم غربنا سيدى محمد

حاز الفخر ومجد ولمزيا نجل المهتدى * سلطان المغرب نورنـا سيدى محمد

ومن مدحه بعد هذا ماقاله مولاى احمد العلوى متغزلا فى جمال صورته وعينيه الشبيهتين بعينى الغزال :

نصر الله اجمال صورتك يانجلات الشاد * اتهليل الزين ولبها سيدى محـمـد

ويقول كذلـك :

اللـه ينصر احسـان اجمالـك ✻ ياذات الادب واللطافا يانور اتمادى

ولعله كان‌متوقعا أن تكون وفيرة حصيلة القصائد التى مدح بها محمد الخامس ، لما كان يتمتع به من شعبية نتيجة مساندته لكفاح الامة من اجل التحرر ، وما عانى من جراء ذلك ، ولكن كثيرا من هذه القصائد ضاع بسبب منع حكومة الحماية لترديد المحفوظ منها وبسبب اتلاف الشعراء لما دونوا ، خوفا من عمليات التفتيش التى كانت تقوم بها سلطات هذه الحكومة فـى البيوت . وقد ذكر لنا بعض اشياخ فاس أن العيساوى الفلوس كان اكثر الشعراء مدحا لمحمد الخامس ، ولكنه اضطر تحت ضغط مضايقات السلطة والخوف من البحث والتفتيش الى دفن مجموعة كبيرة من قصائد هذا المدح فى احدى المقابر .

حقا ان عهد الاستقلال أتاح للشاعر الشعبى ان ينطلق فـى مدحه ، ولكن اسراع الاحداث وتوالى المناسبات ورغبة اجهزة الاعلام ، والاذاعـة خاصة ، فى أن يواكب الشعر الشعبى هذه المناسبات وتلك الاحداث ، كل ذلك جعل الناظمين ــ وهم قلة معدودة ــ يتكلفون مدحا يطغى عليه التقليد، خاليا من كل روح ، بل يبدو فـى أغلبه وكأنـه ليس غير ممسـخ وسلخ لبعض قصائد الغزل او مديح النبى وآل البيت والاولياء . وهـو احساس نشعر به ونحن نستمع الى القصائد التى تذاع فى مدح الملك **الحسن الثانى** كهاته التى يقول مولاى احمد العلوى فى حربتها :

الله ينصر سلطان هل لبها الحسن ✻ راحت اعضاى روح الروح سـود لـعيـان

ومنها قصيدة لسلام الفاسى يقول فيها :

حياك الله يالبدر السانى ياهلال نور اعيانى

يالحسن الثانى يارفيع لاسم تاج المغرب سيدنـا

ومنها كذلك قصيدة للشيخ عبد الـقـادر مدحـه فيها بمناسبة استعراض الجيش ، يقول فى حربتها :

فرحوا يالخوان بالجيش الملكى ادیالنا * قايدهم لكبير سيدنا مولاى الحسن

مـن لـه لجنود طايعين

ومثلها قصيدة لعلها لاحمد سهوم هذه حربتها :

قايد الجيش اهمام الشعب نور لتماد ※ تاج تيجان العصر اوسيد لسيادى

على اننا الى جانب هذا المدح الذى استعرضنا أهم نماذجه ، نجد **لونا آخر من المدح** «جماعيا» اذا صحت هذه التسمية ، على حدما نصادف عند الحسن بن شقرون فى رجال الطريقة الفتحية (1) يمدحهم بأنهم نور وشعاع وضياء للعيون وعلاج للعقل والروح ، من شرب خمرتهم ارتوى فى حضرة الرضوان ، تسقيه كؤوسها أيدى محبيه ، وغدا متجليا فى بساط السلوان ، يسلك طريقا تغمره الافراح ، وجعله الله فى مقام العز ومنحه السر والفضل والفتح :

ناس الفتح اللقلوب نور واشعاع اضيا لعيانى

واعلاج الروح ولعقل منهم امن اسقياه

باح ابخمرت لحباب وارتوى افحضرت الرضوانى

بكواب اللى اتناول ببنان امن اهواه

فيه اتجلى يشراع فى ابساط البسط السلوانى

واسلك منهاج ابلفراح ايوا فى من راه

ثانيا : الرثاء :

ويطلقون على قصائده تسمية «لعزو» او «لعزا» ، وهو مثل المدح فى نظر الشاعر الشعبى ، لم يقبل على النظم فيه ، بل انه كان اكثر منه عرضة للضياع لعدم مناسبة موضوعه للانشاد والترديد . ولولا ان بعض المعتنين دونوا فى كنانيشهم نماذج لهذا الفن لكان ضياعه كاملا .

ومن أقدم هذه النماذج قصيدة للحاج اعمارة فى **رثاء الشاعر عبدالله ابن احسانين** ، يبكيه فيها ويطلب من الشعر ان يبكى على أبيه كالمرأة الثكلى وينوح كالطائر الغريب فى الليل وأن يسقى من دموعه جذور النخلة التى كان يجلس فى ظلها لينظم ، فلن يحلو له العيش بعد عبد الله ، ولن يعرف كيف يتصرف فى الشعر ويخرج من مآزقه :

---

1) احدى فرق درقاوة منسوبة لشيخها فتح الله بنانى الرباطى .

ابك اعلى اباك اشعرى ابكا دشى امرا ثكلى

او نوح كينوح ورشان اغـريـب بوحدو فـالليل

ابك اعلى اباك اشعرى واسقى اجذور ذا النخلا

اللى اشحال (1) من شعر احداها رصعوا باك اكبيل (2)

العيش بعد عبد الله او الله كاع مايحلا

ونايـلا امشى عبد الله ابقيت فالشعار اوحـيـل

وللحاج اعمارة كذلك قصيدة فى **رثاء الشاعـر بوعمرو** يتساءل فيها عن شعره لم لاينطلق ، وعن دمعه لم سال على الخد كالنهر ، وعن ذاته لم ارتعدت ، وعن فكره لم تجمد وقلبه لم خفق وقد جرحته الهموم :

مـال دمـعـى عـن خدى واد * مـال ذاتـى فيها رعـدا

مال قلبى خـافـق فدفاد (3) * جرحـتـو الـف غـدا

مـال عقلى يا ويـحـى بـاد * مال شعرى ما يتسـدا

وهو يتألم ويتأوه لفراق حبيب قلبه الفذ النبيل المنير الذى برز فـى الشدو والغناء فغدا لايعوض :

آه اعليا يـالـعـبـاد * مـن افـراق احبيب الكـبـدا

النبيل الـفـذ النشاد * سيد مـن غـنـى او اشـدا

بوعمرو لمنير الـوقاد * لحـبـيـب الا لـيـه افـدا

ومـن أهـم قصائد هـذا الفن واشهرهـا **مرثية المغراوى فى المنصور السعدى** (4) ، وهى كلها حديث عن فراق الاحبة والبكاء عليهم ، لم يتعرض فيها لذكر شىء عن الرجل ، بل ليس فيها مايوحى بالموت غير حربتها التى أخبر فيها بأن عام موته عام حزن وأنه لم يعد للسعديين (5) مايرجحون به كفتهم :

---

1) اشحال بمعنى كم
2) مـن قـبـل
3) من فدفد بمعنى طـار
4) توفى سنة 1012 هـ .
5) دامت دولة السعديين من 961 الى 1069 هـ.

عام شايب مات الذهبى اخيار لتراب ❊ مابقى للسعديين باش ايرجحو

فقد رمى الفراق الشاعر بسهم غاصب من قوسه أصاب قلبه وزاد فضربه بسيف ضربة هدت كيانه :

لفراق ارمانى قوسو ابسهم غصاب ❊ ماخطانى مكن قلبى او لوحو

بعد ما مكنى جانى ابسيف غلاب ❊ هدنى واهزم ديوانى وجيحو

ولم يكتف فى الرمز لقوة الفراق بالقوس والسيف ، وانما جعله أميرا يصول فى حزم وشدة ، يقود جيشا ماكاد يصل حتى أطلق عليه سهام وتره الشديد وضربه بالحسام ضربة قاتلة :

جانى مير لفراق صايل متحزم ❊ واقصدنى للفنا ابحيشو واعلامو

بوصولو لاحنى ابلبساط امسهم ❊ من وتر اشديد ماخطانى بسهامو

واضربنى ضربت لمقاتل بسهامو

وهو من اجل هذا يحق له أن يسهر ويبكى بالليل والنهار ، وينوح نواحا تتعجب له الغربان وتشيب :

ايحق لى نبكى للفرقا النهار والليل

❊ انقطعوا ساهر وانجدد اعلى اصباحى

وانكثر من دمع المهراق كالسيل

❊ اتعجب واتشيب الغربان امن انواحى

ويلومه الناس على البكاء فيطلب منهم أن يتركوه فى حاله وقد بان عنه احباؤه ، وغدا من وحشتهم كالطائر الذى قص جناحه بعيدا عن أهله ووطنه ووضع موثقا فى قفص ، طال فيه سجنه وكثرت محنه :

دعنى يالايمى اعلى لفراق نبكى ❊ غابوا عنى احباب قلبى مابانوا

رانى من وحشهم فى حالا نحكى ❊ طير امقصص فارق اهلو وطانو

فى قفص اوثيق طال سجنو وامحانو

وعنده أن فى البكاء راحة للذى التهبت قروحه ، وأن الدموع تطفىء ناره ، ولولا البكاء لذاب قلبه وضلوعه من لهيب الجمر المشتعل فى مهجته ، أما تنهده فتنهد له الشواهق وتتحطم الاشجار :

لبكا راحا للمقروح من الهيبو ❊ عندما يبكى تخمد بالدمع نارو
اشواهق لو بانو بالنهد ايريبو ❊ وارياض الناعم يتحطموا اشجارو
مهجتى واضلوعى لولا لبكا ايدوبو ❊ اعلى الهيبو شاعل فالقلب من اجمارو

ولكنه القضاء الذى جعل الفراق يعز عليه أن يرى روضا يانعا مزهرا فأيبسه واحرقه :

لقضا فرقنا والبين عند ماصاب ❊ روضنا متنعم حرقو وكلحو

وتلك هى الدنيا تدور دوالبها ، ممتلئة وفارغة ، محزنة ومفرحة ، جامعة ومفرقة ، مشغلة ومعطلة ، يكثر رزقها ويقل موقوتا ومحدودا ومقدرا كما يشاء الله :

هكذا الدنيا كدولاب اتحول واتدور❊ دورها يملا ويفرغ فى كل حالا
تارا بالحزن وتارا بفرح واسرور❊ واجتماع وفرقا وشغال ولبطالا
وارزقها المضمون ابوقتوا يفور ويغور❊ كيف قدر بحكامو ربنا اتعالى

وللحاج محمد النجار **مرثية فى الفقيه حمدون بن الحاج** (1) يترحم فيها عليه راجيا أن تظل البركة فى ابنه :

رحمت ربى اعلى لفقيه السى حمدون ❊ والبركا فخليفتو عز اولادو

ويرى واجبا أن ترثيه فاس وغيرها من المدن وان ينوح عليه المحبون :

واجب ترثيه فاس واقراها وامدون ❊ واكثير الحب فيه يقوى تغرادو

ويذكر أن الفقيه كان معروفا بطبعه الحلو وبالجود والحياء والعلم والانشاد والاطلاع الواسع والتضلع فى الحديث وسنده ، وأنه ألف كتابا يحيى النفوس فاق فى أسلوبه ابن زيدون ، لو رآه ابن عبدون لانبهر :

---

1) هو ابو عبد الله حمدون بن عبد الرحمان بن حمدون بن الحاج السليمانى المرداسى توفى سنة 1232 هـ . وقد ترجم له ولده ابو عبد الله محمد الطالب بن الحاج فى كتاب «رياض الورد الى ما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد» وهو مخطوط بخزانة الرباط العامة تحت رقم 396 . أما قصيدة النجار فى رثائه فواردة فى ديوان فى الثناء على ابن الحاج اسمه «روضة النيلوفر ثناء الناس عليه وبعض مناقبه التى هى اعطر من الادفر» مخطوط بخزانة الرباط العامة تحت رقم 383 D

غاب الشيخ الشهير بالطبع الملـدود* والجود امع لحيا وعلمو وانشادو
وانشا حلا لشافها تنشط لـبـدون* واتحلى ابلحديث واسما باسنادو
يبهت لـوراه فى احياتو بن عبدون* سبحان اللى عطاه وارضاه وزادو
وارقى بالفاظ رايقا عن ابن زيـدون* واعلى من باد فالحقيقا جتهادو

كذلك نجد للكندوز قصيدة فى **رثاء المولى عبد الرحمان** يرى واجبا فيها عليه أن يرثيه بدمع لاينقطع كالمطر المتهاطل ، وأن يبقى طول عمره هائـمـا حزينا عليه ، ويرى واجبا عليه كذلك أن يبكيه كما يبكى الـذى فارق حبيبه فغدا بيته خاويا مهجورا ، ولم يعد له من حبيبه غير الخيال ، وأن يبكـيـه بكاء الذى فقد أهله ضائعا فى السهول والجبال ، يبكى تارة ويتيه اخرى ، وأن يبكيه بكاء العليل الذى فقد الصبر والعلاج ، يسهر مرة ويغيب ثانية ويستيقظ ثالثة :

أنا الواجب نرثى بدمعتى عن خدى طول الدوام كالودق الهاوى
ونا الواجب نبقى طول عمرى هايم نـكـدان
ونا الواجب نبكى مثل من فرق احبابو افلورى ابقى رسمو خاوى
باقى غير اخيال لحبيب ومـا وجـدو مابان
ونا الواجب نبكى ابكا المفقود اعلى ناسو وتاه فربا واسهـاوى
تـرا يبكى تـرا يتيه بين اجـبـال اوطيان
انا الواجب نبكى ابكا المعلول اللى صبرو امضى ولاصاب امداوى
تـرا ساهد تـرا يغيب تـرا طـرفـو يقظان

فالمصاب جلل والرزء عظيم ، لذا فهو يعزى المسلمين فيه ، فقد كان ينبوعا للحلم والعلم ، اديبا نبيلا راجح العقل ، يعرف كيف يجرح ويداوى فذا فى كل شىء ، ليس فى اقطار الارض من يعوضه ، حجابا مسدلا على رعيته ، كم رد عنها من اخطار وأطفأ من نيران ، وكم انعم على رجال حكومته وحاشيته ، وكم فدا من قوم فى لحظة الموت ، وكم رقى رجال العلم ونهض بمجالسهم :

نفقد لهمام الا انصيب عوضو فقطار الارض كان يجرح ويداوى
أديب انبيل ارجيح افكل اشيا فذ اوديوان

كم من صهدات (1) اطفا اعلى ارعيا فالبحر ويرو لهامه واعداوى

وابقت احجاب الستر اعلى الغرب واللطف ولمان

اما لاطف من قوم افلحكوما بالخير ايفوز كل من حرمو ياوى

وما من قوم افدا افساعت الموت افكل اوطان

وما رقى من قوم افلمجالس دا العلم الا ايحد سامع والداوى

واحيات امجالس العلم بين اكهول وشبان

وموت السلطان لم يترك اثره فى نفوس الرعية فقط ، وانما تركه فى خيول الركب التى غدت كالايتام مكوية بلظا جمر الفراق ، وفى المظل (2) الذى عاد ينوح من اليتم والهجر بعد ان كانت أيامه هناء وسلوانا ، وفى البنود والاعلام ، ونفوس الجنود الابطال الذين كانوا يسيرون خلفه لابسين افخر الثياب كأنهم عرسان :

خلى خيل انكاد اكم ليتام هاداك الدايروم كالليث الكاوى

بلظا جمرت لفراق ماقوا افراق السلطان

خلى لمضل اينوح عن افراقو بلسان الحال صاب شلا ماناوى

عاد اميتم مهجور بعد لهنا والسلوان

خلى لمزارك ولعلوم والرايات ولبطال كلها بندو طاوى

كانوا فخلاف المير كيخرجو امثل العرسان

وترك الموت أثره كذلك فى نفوس جوارى القصر النائحات وعبيد الدار التائهين وفى العلماء والقواد والوزراء ، وغدا المشور خاليا والاطيار نائحة على الاغصان ، وسكت صوت المغنيات اللائى كن يسرن خلف السلطان منطلقة اهازيجهن وزغاريدهن كالرعد :

خلى لجواد اعلى افراكو ❊ ترثى اكما ارثيت انا عل لفراق

واعبيد الدار ابقاوا تايهين امع كل اطريق كلها عقلو كاوى

ويقولو فالغاهم سيدنا غمتو لكفان

---

1) ج صهد بمعنى الحر .
2) يعتبر المظل من أهم مظاهر الموكب السلطانى .

والطلبا والقياد واتباعاها داك الدا اينوح بالدمع القاوى

والوزرا فالغاهم كيقولــو كنو مــا كــان

والمشور فاضى عاد بعد توكت سيدى بن لبطال فات العلقاوى

واطيار عل لغصان كينوحو جهر وكتمان

خلى لغياد اصواتهم خجلو ابعد اصوات لكوان مافيهم داوى

كانوا خلف السلطان كن رعد افمدت حيان

وبلغ اثر الموت حدا ادرك خف السلطان وحذاءه اللذين باتا يشكوان الهجر والاهمال :

وابقايات امحانـــى اتماكو ✻ مهــجــور ما يــوالــم لطلوعــو ساك

والشربيل الباهى امساكــو ✻ مهــمــول عــاد كيدرك (1) تــدراك

والشاعر يتمنى لو استطاع ان يفديه بروحه ، ولـكـن عمره انتهى ولامناص لاقربائه ومحبيه من الصبر :

واسكن نعم السلطان قــبــرو ✻ لــوكــان ابلفدا برقبتى نفديــه

لــكــن نتــهــى حــد عــمــرو ✻ الصبر واجب اعلى اللى دانى ليه

تلك حال الدنيا الغرور ، اين هم الاقوام الماضون ، اين كسرى والظاهر والرشيد والقوم الشجعان؟ كلهم ذهبوا ولم يبق الا الله سبحانه ، خــالــق العباد وقاهرهم بالموت والحاكم عليهم بالقهر :

هاذى هى الدنيا الغارا وين القوم اللى امضاوا وين الكسراوى

ويــن الظاهر ويــن ارشيد ويـــن القوم الشجعان

ولا دامت الا المن انشاها من قبل الا ايكون العامر والــخــاوى

سبحانــو جــل اجليل ربنا سبحانـــو سبحان

سبحان امن اخلقنا وبالموت اقهرنا بعد لحيات الجليل القــوى

واحــكــم بــالقهرا اعــلــى اعــبــادو نعم المــنــان

وربما كان **من جميل الرثاء واصدقه ماتحيى به ذكرى بعض العظماء** على حد مانجد عند الفلوس فى قصيدة عن «مقتل الحسين» يقول فى حربتها

يالحضرا سمعوا وفات نور لنوار ولــد فطيم الزهرا سيدنــا الحسين

---

1) يختبىء ويختفى .

وهى استعراض للاحداث الاسلامية منذ وفاة الرسول عليه السلام حتى حادثة كربلاء ، يختمه بعروبى يحكى شكوى كان آل الحسين قد تضرعوا بها عند قبر جدهم :

مهما دخلوا ضريح لحبيب المهتاد ※ قالوا ياجدنا الهادى محمد
لوريت شين صار بنا دون افناد ※ فى كربلا امع اجيوش الا تنحد
قتلوا لنصار ولصحاب امع لولاد ※ وبن هاشم كلها يامحمد
قتلونا دون حق فامهامه لوهاد ※ واحنا فالشوم ولعطش يامحمد
وقطعوا روس آل بيتك هل لعناد ※ تركو لشباح افلوطا يامحمد
سفكوا دم لشراف واعصاوا الاحد ※ سبوا على المرتضى يامحمد
لوريت شين كان دار ابن زياد ※ هو واهلو وشيعتو يامحمد
طعن الحسين كل من كان افلجناد ※ ولا رحمو اطفالنا يامحمد
قطعوا راسو ولااخشاو امن الجواد ※ داسو بالخيل مهجتو يامحمد
كشفو الحريم دوك لعدا والحساد ※ وبعدها اسباونا يامحمد
داروا لنا احبال واغلال ولكياد ※ ماشفقوا من احوالنا يامحمد
وجهناهم للقوى يامحمد

ونجد كذلك عند محمد حسن التطوانى قصيدة فى ذكرى المنظرى مؤسس مدينة تطوان ، وكانت قد احيتها جمعية «عباد الرحمان» ، يقول فى أول أقسامها :

نشأت هذا الذكرى السعيدا ※ السيد المنظرى امجدد تطوان
فامت نخبا جادا وكيدا ※ فيام سيدنا مولاى الحسان
نادات ابدا الحفلا الرشيدا ※ واعلى راسها عباد الرحمان

وهو يغتنم فرصة اقامة هذه الذكرى ليقترح تكوين ثلاث لجان ، الاولى لترميم ضريح المؤسس ، والثانية لجمع المال ، والثالثة للعناية بالتاريخ يرأسها السيد التهامى الوزانى (1) :

لاتخيبنا ياكريم افهذا المشروع لعظيم بجاه سيد اعجام وعربان
اوفقنا لجميع كل خير ※ وبارك فالجميع اتخص اللجانى

---

1) احد علماء تطوان الافاضل ، ويشغل فيها حاليا منصب عميد كلية أصول الدين التابعة للقرويين ، وهو مؤلف «الزاوية» .

لجنة الترميم للضريـح عنها بالتوفيق لاغـنـى يترمـم ينصان

نضحاوا بالضريح نفتخر ✲ فرحا لهل البلاد ببلوغ الامانى

ولجنة جـمـع المـال عمها بالـتـأيـيـد ولعنيا سـرا واعـلان

ولجنة التاريـخ تنذكـر ✲ ابفدوة سيدنا التهامى الوزانى

ومثل هذه وتلك القصائد التى تحيى بها ذكرى محمد الخامس ممثلة فى «ثورة الملك والشعب (1)» ولعل احدث مانظم فيها قصيدة للحاج محمد العوفير يقول فى حربتها :

أمن اعظمها ذكرا يامن اتسال تاريخ امخلد

ثورة الملك امع الشعب يوم الاستعمار انفاه

لكن المولى جاد اعليه ايـدو واكـرم مثواه

ثـالـثـا : الـهـجـاء :

ويطلقون عليه «لهجو» و «الشحط» او (الدق) عند اشياخ مراكش ، وكلاهما بمعنى الضرب . وهو اكثر انتشارا من المدح والرثاء ، بل هو من اكثر الموضوعات التى الهبت قريـحـة الزجـال المغربى وجذبـت المنشد والجمهور ، لما يبدو فيه من صدق الدافع وانطباع شخصية الشاعر عليه ، ولما يترك فى نفس الجمهور من احساس بالمتعة وهو يشاهد عروض المنافسة والصراع والخصام فى أقوى وأحد مظاهرها ، وهى مظاهر غالبا مـايكون سببها السجال الفنى الصرف بعيدا عن النزاعات الشخصية ، وان كانت لاتخلو منها فى بعض الاحيان .

واذا كان الهجاء يأتى فى قصائد كاملة غرضا مستقلا قائم الذات ، فانه يأتى عرضا كذلك ، اذ لانكاد نجد قصيدة مهما كان موضوعها لم تختم بأبيات هجائية ، على حد ما سبق ان بينا لدى الحديث عن بناء القصيدة(2)

وتعرف قصائد الهجاء باسماء مثل «الدعى» اى الذى يدعى ماليس فيه و «المطموس» اى البليد ، و «الديب» و (الرامى) و «المهراز» اى المدفع و

---

1) الواقعة فى العشرين من اغسطس وهو اليوم الذى نفى فيه الى جزيرة كورسيكا مع اسرته عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة والف .

2) انظر الجزء الثانى من الفصل الثالث من باب «الشكل»

«البوغاز» و «القرصان» أى السفينة الحربية ، وهى كلها أسماء تدل على أن الشاعر الشعبى كان يستوحى هجاءه من المعارك الحربية والبحرية خاصة .
ويلحق بالهجاء الفخر وما يتصل به من محاولة تعجيز الخصم فى قصائد اطلقوا عليها «السولان» اى السؤال ، وهى عبارة عن احاجى والغاز يعرضها الشاعر على خصمه يطلب منه فى تحد ان يحلها

كذلك تلحق بهذا الفن قصائد تعرف بـ «الخصام» او «المحاورة» ، وهى قصائد مفاخرات ومنافرات على نحو «المدنية والعربية» او «الشابة والعجوزة» او «الخادم والحرة» او «الزمنية والعصرية» .

ومن أروع الهجاء قصيدة «صارم الطعن» حيث يتعرض الشاوى لخصومه (1) ، يراهم مجرد حثالات ، يصيحون كالذئاب العاوية ، يلقون بأنفسهم فى المخاطر وهم دون مستوى مواجهته ، ويشبههم بالبومة التى تصطنع القوة والبراز ، وبالدجاجة التى تشد الباز من جناحه :

ريت موكا خرجت متصنعا الكفاح * والدجاجا شدت فالباز امن اجناحو
ظهرت ادياب الغابا عرسو افلبطاح * ولحتايل بعد الكلبا اليوم صاحوا

ولكن انى لهم الهرب وقد وقعوا فى قبضة الباز ، كبلهم بسلسلة مهندة غدوا يرزحون فى قيودها ، وسيفترسهم كالاسد ويتركهم مجرد شظايا :

لين تهرب قوم الضبعا اوشاق لمراح
* صادهم باز اغنمهم تحت من ارياحو
لهم اصنعت سلسلا من شغل الهند
* من عشر ادروع مالكيا معدودا
بكعوب امن النحاس واخراص اعلى الوجد
* واميا فيها من لعنانق موجودا
دالهادا يتجبد فالغلال واحديد
* بين خرص لكعوب اعدابها اتزادا
طاح فيهم ضرغم لوحوش فارس البيد
* اتركهم اشظايا مهما ارقى ونادا

1) الاسف انا لم نوفق للتعرف الى اسمائهم .

وهم عمى ومدعون ومن احط المستويات واقبحها ، ولكن الايام سلطته عليهم فأصلمت فيهم سيفه ، وهم يعرفون انهم متى وقعوا فى قبضته فلن يطلق سراحهم :

امن الزبالا للطيفور (1) او مجرا اتبالا

※ ماشفوا القوم العميا ابشيين فعلوا

سلطتني ليام اعلى اقباح لقباح

※ كل داعى بالزور ابصرمى انجرحو

كلهم ايعرفوا خبرى افكل مركاح

※ امن احصل فيدى عمرو لالقى اسراحو

ومهما بكوا بالدم وناحوا بالليل والنهار فانهم لن يرتاحوا ولن يخرجوا من سجنه الا بالموت :

اسناسلى عنهم مطبوخا افليل وصباح ※ كل واحد يبكى ويقول ياجياحو

مايخرجو سجنى حتى اتغيب لرواح ※ لوابكاوا دموع امن الدملارتاحوا

وعنده انه خير للجاهل بالشعر والعاجز عن خوض المعارك ان يعذر نفسه ويترك الامر لاهله والا يحاول رفع رأسه ، فان المغلوب لايقدر ابدا على معاندة غالبه :

من لايدرى الغا او لايقوى لحروب

※ يعذر راسوا ولايخرج امن اترابو

يخمد خمد الدياب بين اوطا واشعوب

※ ويفارق فالغا اسيادو وانجابو

واش المغلوب كايعاند غلابو

---

1) الزبالة المزبلة والطيفور يقصد به شيئان متقاربان ، ففى لهجة اهل الشمال يعنى مائدة الاكل ، وفى غيرها يعنى مائدة صغيرة مقعرة تحمل بداخلها صحون الاكل أو الحلوى أو التمر والحناء أو غيرها . وغالبا ماتستعمل فى المناسبات والولائم الكبيرة . وقد استبدلت فى معظم الاوساط بالصوانى الفضية . وفى كلا المعنيين يدل التعبير على الانتقال من المزبلة الى الموائد التى تعرض أمام الضيوف ، وهو يفيد الانتقال السريع من مستوى وضيع الى مستوى عال رفيع دون استحقاق . وقد سار كالمثل يضرب فى هذا الباب .

ويمزج الهجو بالفخر فى أسلوب غير مباشر ، فيرسم صورة مثالية لاشك أنه يقصد بها نفسه ، يبدو فيها دائم السهر من اجل التحصيل والغوص على المعانى والافكار الزاخرة ، يبحث جهد الامكان لارضاء غيره واسكات طنين المتفرعنين ، يتجنب الجهلة وأصحاب الضغائن والاحقاد ، ويرافق أهل الفائدة ويجالس العلماء ويصاحب العقلاء يضيئون له الطريق، له اشياخ فى كل مكان يطيعهم ويروى عنهم ، وهو بعد هذا يتقلد السيف ويركب السفن معلنا عن استعداده لخوض الحرب ، وقد ساوت قوة ذراعه قوة اللسان ، أما خصمه فعلى عكس هذه الصورة ، كما يبدو من استفهاماته الانكارية :

آش را من لابات امساهر الجفن ✻ والفكرا جايلا افزاخر لمعانى
بالمفاتنا ✻ باش ايسود اعلى لوشا فزمانو
آش رامن لابحث افجهد مامكن ✻ واعمل مايرتضى القاصى والدانى
والفراعنا ✻ يقطع زياز عيطها بوزانو
آش را من لالهل الطايلا اركن ✻ واترك فازوايت لهمل هل الضغانى
والمراكنا واعمل هل لعلوم من رفقانو
آش را من لاليه اشياخ افلوطن ✻ واروى منها كما اروينا يعلانى
من اشياخنا ✻ اقليل الطاعا امزدرى شانو
آش را من لاجرد صارم الطعن ✻ ويركب اسفون لحروب وايعيطدانى
ها حنا هنا ✻ ويكون ادراعو ابحال السانو

ولايكتفى بهذا بل يزيد فيصف خصمه فى أسلوب مباشر ويشبهه بالنخاعة الملقاة على الارض تدوسها الارجل فى مقت ، بلغت به الخيبة والفشل أن بلل جلد دفه بعد تسخينه ، وتقلد للطعان عصى ظنها رمحا ، وتدرع بالجلد ليقيه ، كل همه مصروف لملء بطنه ، لايفتر لسانه عن الشتم والكذب ، لايصول مع غير المغتابين المدخنين ويتملق الحثالات :

كتنخيما فالطين ✻ معفوسا بالرجلين ✻ والمقت اعليها باين
فزك جلد اكوالو بعد ما اسخن ✻ قلد كلخا وظنها رمح اثمانى
للمطاعنا ✻ واعمل جلد ابنى القيط اعوانو

همتو مصروفا فعمارت لبطن ※ والسانو بالشتيم يصنع وابيانى
به ماهنا ※ واصوابو نعديم زاد امهانو
صولتو عند اصحاب الناب والدخن ※ يلحس لعماش للحتايل بالعانى
كان شافنا ※ يكشر ويعرى اعلى تبيانو
ابلكذوب اقلبو طاوى اعلى لخون ※ نكن مهما ايتوك حر البيزانى
بالمعاينا ※ يتلف فرك البوم عن جنحانو

فهو من قوم الخداع والشيطنة والكبر ، مثلهم مثل الخنافس تسكن الخرائب وتتعلق بالاوانى البالية ، وقد حنت قفاها وهى تدب يدوسها الناس ، او مثل الذباب يتجمع على جلد لبن فاسد مطروح :

هل لخدع واتشيطين ※ وانفخا واتعرنين ※ لهم اموجد تمونى
زيهم زى اخنافس بعضها اسكن ※ فالخرب ابعضها ادرج بين اوانى
باليا احنا ※ للتعفيس اقفاه من دبانو
او دبان اعلى شكوا من الرغن ※ بات البنها وظل من ليهاءانى
عافها اغنا ※ عنها وارماها اعلى عديانو

ويحاول أن يستنتج من الموقف بعض الحكم فيرى فى ايحاء بالمقارنة بينه وبين خصمه ، ان الزر دخان لاينسج فى الاماكن العفنة وان نبات الحلفة لايشبه الحرير الرقيق ، وأن من عمى عثرت رجله فى قب برنسه :

ماتنسج الزردخان فامنازل لعفن ※ والحلفا ما شبهت لحرير الفانى
من اعمات ايامو قالوا هل لوزان ※ تعثر رجلو اقفب سلهامو هانى
جيت لاغنا ※ نبطل للكهان سحر اكهانو

ويرى ابن حمدوش فى قصيدة هجائية يخاطب بها ادريس لحنش أن كل من دق بابه واستفزه لابد وأن يجيبه ويرد عليه ، وأن كل من آلمه ضرسه يسرع لقلعه ، وأن مايقدمه الانسان من خير وشر ليس غير سلفة لابد وأن يرد ، وأن لكل قول جوابا :

من دق الباب ※ مايلو غير اجوابو ※ غر به من جابو
من ضراتو الضرسما جا الكلاب (1) ※ قالت لعراب
الخير والشر اسلوفا كل قول بجوابو

---

1) آلة قلع الاسنان .

ويرى محمد الزلايجي ان قول «الدعى» باطل ، وأن سجيته لاتساوى بصلة ، وأنه بالجهل يصلى نار الجمر ، وأن سور الدعـوى لا أساس له ، وانه لابد ان يهزم جند الجحاد ، مهما كثروا ومهما حاولوا الفرار :

قـول الـداعـى بـطـال ✻ نهزم جند الجحاد اجمعهم لوطالوا

لويهرب لى عرض اوطول ✻ مـن صـادفـتـو مـبـطـول

وما سجيتو ماتسوا بصلا ✻ بالجهل فـوق الـجـمـر اصـلا

سور الدعوى مـالـو الساس ضايع قالـوا

صـح عـنـى خـذ المـعـقـول

مـروى عـن هـل لـعـقـول

وهو لايعبأ بادعائه وانما يتقن مقاله ليصيب به المقل ويثقل كاهـل الجاحدين :

مايشوشنى قولت قال ✻ اولا نعبا بوجوه لمغالى ✻ امطرز امقالـى

زنـجـار افـلـمـقـالـى ✻ والجاحدين لفـظـى عنهم ثقـلا

ويهزمه دون قتال ويرغمه على الرضى بالقهر والغلب ويقطعه اربا :

نهزم الداعى دون انصال ✻ حتى يرضى بالقهرا عن افصالـى

وانـفـصـلـوا فـصـالـى

وهو لايهمه الارذال مادام سوره عاليا ، وكل من حفر حفرة لابد وأن يقع فيها :

مـايهمونـى شى لـردال

سـورى سـور عـالـى

والحافر كايوقع افما احفر فمدالو

أما عباس بن بوستة فسور دعيه منهدم وشمله مشتت :

سور الداعى مهدم وشملوا مشتت ✻ راب سور الداعى واتشتت الشمل

كلما اشتعلت نار الحرب أصابه شرارها بسبب سوء أعماله :

كـل ساعـا نيران الـحـرب تـنـشـعـل

اعلى الـداعى تزنـد من قبح افعالـو خاب فـاعلو

سعيه يخيب وغزله ينحل ، وقد بعث الله له من يجزيه عن افعاله :

خـاب سـعـى الـداعـى واتـحـل مـاغـزل

عـــن فعلو جـاب ربنا مـن جـزالو يـوم دازلـو

وقـع بين اوقايع الـزلزلا

وأما محمد بن عمر الكفيف فقد فاز برضى الشعراء ، وغـدا لذلـك شجاعا بارعا وعودا فى عين «الدعى» الوغد اللئيم :

أنا زنجار فى اعيون امن ادعا ❋ قل لليم الـوغد الداعـى

برضا ناس لقريض حـزت اشجاعا وابراعا

وقد كثر الاشياخ التافهون الذين لايبعث كلامهم على غير المقت والملل يحطون به من شأن الفن ، ولو سكتوا لكان خيرا لهم :

كثروا فـزمانا اشياخ الربعا ❋ اكـلامهم ايقوى تصداعـى

مهما نصغاه كـانمقتو وانمل افساعـا

والهرتلا امبخسين السلعا ❋ اعلى الغاهم اصمكت اسماعى

لو سكتوا خير مايقولـوا معنى مبشاعا

ولم يعد فى هذه الصنعة مايليق بعد ان نزل الميزان ، والسبب هؤلاء البغال الذين فضحوا سوق الشعر فى كل مكان دون حفظ أو رواية او طبع:

ماباقـى مايليق فـى ذا الصنعـا ❋ اكـلام بالمـيـزان الـكـراعـى

. . .

فضحوا سوق اللغا ابغال الـرتعا ❋ اشحـال منهم امـلاو ابقاعـــى

ماحفظوا ما رواوا ماطبعوهـم طباعا

ومثل هذا نجد عند مولاى احمد بن عبد السلام العلوى فـى القصائد التى كان يهجو بها خصومه (1) ، منها قوله :

يـالـداخـل بحر المعنى ابغـيـر تـبـجـال

صـغ طـرز ابـيـانـى وردات افـلـخـجـالـى

وقـولـه :

لاتـقـى لاشـــرارك ❋ يالداعى سيف السانـى اطوال

واكشفـت اسمـرارك ❋ بالمـواهـب رمـحـى شظـاك

1) ذكر لنا أنه هجا كثيرا من الاشياخ وخاصة الغالى الدمناتى .

وقوله كذلك :

نــداك احصولــك * يالداعى مــالــك منو اســلاك

قطــعــت احبولـــك * افلعضا نــارك تــكــبــت لــك

ومن الهجاء المتبادل مانجده بين ابن على وتلميذه ابن سليمان . ففى «ليل الزهو» يخاطب ابن سليمان خصمه يخبره فى تحد ان بساطه فـــى قلعة غطاءها وفراشها خير ولكن لاتطأها غير أقدامه ، فهى نقمة على كل وغد قبيح لايستطيع الاقتراب من العساكر التى تحميها والرقباء :

ابساطنا فى قلعا ماتوطاها اقـدام

الا اقدامنا توطاها * صعب اجبالها ووطاها * الخير افراشها واغطاها

نقما الــكــل داسر * فــيــهــا حـــاصـــر * ابلعساكر مادام احياتو

مايتعدى شى احدودها من دون الرقبان

وقد داس بقدمه على قفا الظالم العاجز الذى غدا كالبومة يخمد صوتها كلما صرصر الباز الحر :

رجلى اعلى اقفات الظالم * من لايكون فارس ناجم * رانى اعلى لحروب امــــلازم

آش اداه لسقارا * يــوم الغارا * ابقى اعبارا * مــوهـــون افداتـــــو

يخمد فرخ البوم كــان صرصر حر البيزان

ويستغرب لجدول الماء يعاند بحر الطوفان ، وللضفادع تترك المستنقعات وتخرج للصحراء تقصد غار الثعبان ، ولاهــل الوقت يرفعون شأن الكــلاب النابحة مثلهم ويهملون الاسود :

كيف اجرا للساقيا اتعاند بحر الطوفان

. . .

او الله ربــت الجران كيتعدا مــرجاتـــو

اخــرج للصحرا ابــغــى ايــروم الغار الثعــبــان

. . .

اهل هذا الوقت لقباح مثل الطاروس ابنبحاتو

رفــعــوا لــه التــجــاه والسبــع مــاداروه افشـــان

ويرد عليه ابن علي في «الديب» يذكره بفضله وجميله عليه ، ويكني عن ذلك بقصة يحكي فيها أنه خرج ليصطاد غـــزالا اذا بـه يصطاد ذئبا ، فأخذه لداره وعطف عليه في حنو واشفاق واطلقه في روض الازهار وأطعمه وسقاه ولكنه لم يرض بالنعم الطيبة الحلال التي قدمها له وظلت نفسه تتوق لجيفة يلتهمها في خربة ، فلم يلبث أن هرب من الدار :

واخرجت انبري (1) افناحيات الصيدا غرضي انصيد اغــزال

حيحت لصيادا برني يصطاد ماتجيب الوجبا ✻ ماجاب غير ديب وشديتو

. . .

المرسمي اديتو فالروح ارثيت له بعد الغلبا ✻ حنيت لو واشفقت التمريتو

في روض ازهاري انتلت هذا الديب اشتيق المبوث واشــبــال

. . .

وجبتلو لحم الضاني نحساب في امكاني ✻ يرضى بانعايمي اطعمتوا واسقيتو

وترنــي دخـري ما ارضا بانعايـــم واللـي احـلال توكـال

ما كان عيشتو غير الجيفا كان صابها ✻ في خربا خلي لك المقلي في زيتو

اهــرب من وكــري واش وكــري بالي للديــب يالعقال

ولكنه له بالمرصاد يبحث عنه ، وقد وضع له مصائد كثيرة لن يستطيع الافلات منها مهما حاول الجري والحيل والفرار ، والويل له ان وقع فـــي قبضته ، فهو يبشره بحرب لن يقوى على خوضها :

وانبشروا بحرب الا يقوى له في اهمومو يغبا ✻ واشفايت الدياب افتشتيتو

تعرفني نبري جرتو ويلا جيتو له لهوال

اشحال امن امصايد عندي فامخابعي وكمن خشبا ✻ للديب ويل بوه ايــلا جـيـتـو

آش جهدو يجري ينقطع جهدو واتبور اعليه لحيال

لم يعترف بالجميل ولـم يعرف أن احسانه اليه هـو الـذي سيحكـم ويتصرف وياتي به في الحال ، اذ ذاك سيسجنه ويقيده الى أن يموت :

مايعرف خيري فيه يحكم وايجيبو لي الزمـان والـحـال

واندير له ساجور الهند ابسلسلا اتقلها كورا ✻ حتى ايموت فالسجن ابغيتو

---

1) مضارع برا بمعنى بحث .

ويستأنف ابن سليمان هجاءه لابن على فيوجه له «قرصانا» يقول فى حـربته :

هكذا قول للداعى ايدير قرصنن ويخرج ✻ كيف من سافر بين امواجو واغـــنـــم وانـــجـــا

ويرد عليه ابن على فى «قرصان» آخر يغلب عليه الفخر هذه حربته :

حـجـب القرصـــان الســبـع لمشـانــى

من عين كل معيان اذا يفها ابحسن اجمال القرصان

ونقف وقفة قصيرة مـع ابن على فـى قرصانه الـذى خاض به غمار البحور عارفا بالخارطة والبوصلة ومختلف الرياح والكواكب فاهما منتبها ، ميزانه النظر الذى لايماثله ميزان :

راكـب فـوق اللجات قـرصـانـى

فابحور لمعانى صاب الوارى وجال فوق الجوج الطوفـان

ونـا مـدوب وقـابـض ادمـــانـــى (1)

ندرى انكارطا وامعلم فالبوصـلا او حـافظها علـى لتقان

واريـــاح اتـمـيـز ليس تـخـفـانـى

وكـذلـك لكواكـب نـدريها مـانشـوف اتراكم لـمزان

ابقسـطـاسى وادمـانـى وديـــوانـــى

واعلى كل ريح انسافر مانى اغشيم(2) دهرى حاضى لوزان

عـايـق فـايـق بـالشـوف مـيـزانـى

قالوا هل اللغا فالغاهم ولا ابحال شـوف العارف ميزان

فقد اطلق قلاعـه وقصد عمدا بـلاد العجم والديلم والعراق واليمن ، وجال فى البحور السبعة ، وغاص بحثا عن المرجان والياقوت فـى مختلف ألـوانـه :

نهضو لقلوع وجـلـت بـالـعـانـى (3)

لـبـلاد العجم والديـلـم واكداك لعراق وبلد الـيـمان

---

1) المـقـود ٠ 2) الغشيم : قليل التجربة ٠

3) عـمـدا ٠

والسبع ابحور ادخلهم عاني

ندرى احسابهم وامخبر باللى ايزيد واللى فيه النقصان

جوال عل الوجبات فازماني

غواص بين لجات لبحر أصاح صنعتى نصاد المرجان

والياقوت الوهاج يرضاني

من كل لون عدت انصيف لبيض والزرق وكذاك اليرقان

واللون الرابع شابه القاني

هذا مناصف اخلاكى وقت مانصيف لك اصدور الغيوان

لم يشاهد أحد مثل ماشاهد وهو يبحث فى أعماق البحار عن الجواهر والعقيان والدر واللؤلؤ واللجين والزمرد والزبرجد والعقيق والحجر اليمانى ، وقد اجتمعت له فى خزائنه من هذه الكنوز درر مسلوكة فى خيوط من الذهب ، كما اجتمعت له ألوان من الاقمشة والحلل والحلى ٠ ثم عاد الى شاطىء بلاده فدوت طلقات المدافع يتجاوب صداها فى كل أركان الفضاء:

من لاشاف اكما شفت باعياني

بين اللجوج غير انبرى برجحتى اعلى الجوهر والعقيان

والدر امع اللؤلؤ شهاني

واللجين والزمرد والزبرداج والعقيق وحجر اليمان

واللى يشبه هادوا فتبياني

فاخزاينى امد خر من كل ادرار ناصح فاسلوك الذهبان

من كل انواع اوسقت حجاني

اوسقت امن اقماش الهندى اوما يماثل فانواع الحجان

كبلت البر ابلاد عشراني

بامدافع شلا ماجوبت او جاوبو انفاضى من كل اركان

وما أن وصل الى الشاطىء حتى رفع السنجق ولف القلاع ومد الحبال فجاء التجار للقائه وجاء آخرون لايعرفونه يسألون عن المرسى التى قدم منها ، وتم البيع والشراء ، وعاد الى مكانه وقد ناداه وقت الفرح والسرور :

وارفعت السنجق بعد جولاني

القيت لقلاع واجبدت احبال مركبى واقلعت النيشان

جـات اجمـيـع الـتـجـار تـلـقـانـي

واخرين عاد سمعوني جاو ايسولوا شمن مرسى اخرج فلان

بـاعـوا واشـراو اورحـت لمكـانـي

واللي ايريد حاجا خلصها (1) من اخزاينو بلغها تـمـان

هـذا وقـت الـفـرجـات نـادانـي

بالعز ولهنا والسطوا والـفـرح ولمنا واسرور وسلـوان

هـذا قـرصـان الا ايـلـو ثـانـي

فالبحر المحيط اخبارو عند الدهات من يدريـو القرصان

ومثل هـذه المساجـلات الهجائية ماتبادله ابـن ريسون والغرابلي ، يبدأها الاول فيوجه لخصمه «الرامي» بعد ان أتقن الرماية وحضر سلاحـه مزودا بالبارود والـرصاص وخـرج للصيد متوسلا بالمولـى ادريس يدعو الناس للتفرج :

جال عقلي في ترميت بالرياسا واتمزج * ساكني منـهـا في تهياجـو زايـد درجـا

درت شيخي مفتاح الغرب صاحب الطبع لبهيج * هبت الواخد عن منهاجو فـي ذا الـبـهـجـا

درت رنا مقيو مايالها امن ازناد امزبرج * في ايميني واللـي نحتاجو مـن مـانـرجـا

درت بارود امشحر صنعت ايفادا وسنطرج * ابلحساب وتعبير اصناجو عـقـلـي صنـجـا

درت مايكفيه امن ارصاص في اوجه لعدا يخرج * لوخرجت الميدان اهراجو تـكـفـي خـرجـا

هكذا قول المن ابغى بالرمينا يتفرج * شارتـو يسقطـهـا فـابراجـو حـاضـي مـرجـا

لقد شمر عن ساعده وخرج للصيد ، فويح للغراب ان صادفه في الجو فسيصيبه بما لن يعالج منه ، وهو غراب اسود القلب والريش ، دعا عليه

1) دفـع ثـمـنـهـا .

المولى ادريس فلايستطيع الاقتراب من أسوار البرج ، وان حاول فانه سيقع :

عن اطرافي شمرت اخرجت للصياد ستدرج ❊ عل لبدا نرعى من راجو
كـنـتـبـجـا

. . .

ويح لغراب اللى فالجو صار ريشمو سار امدج ❊ لادوا لا راقي لعلاجـو
طـيـر الـخـلـجـا

فيه دعوت مولاى ادريس مايروم السور البرج ❊ غالس القلب امثيل ازباجو
وعـــد لـفـجـا

طاح افلفتال المذكور الذى شانو يوهج ❊ صيدو مـن عنقو بافـلاجـو
فـالـج فـلـجـا

ويرد عليه الغرابلى فى «بوغاز» انشأه يحول دون خروج القرصان (1)
وقد اختار لانشائه بقعة على الشاطىء بين الجبال والفجوات ، وأقام مرسى
بنى أسوارها مـن الحجر المنجور ، تحيط بها البساتين ، وأبـوابها ثمينة
ليست عند عجم أو خـزرج ، وحول الاسوار أطلق الاسود والاشبال والنمور
التى ستفتك بأظافرها فى المعاندين :

درت بوغازى للقرصان وقت مايزعم يخرج ❊ تلتقاه نـفـاض امن ابراجو
يصدق وهجـا

اخترت بقعاعلى حرفاليم بيناشوامخ والفج ❊ حلق مانع بفراشـن هاجـــو
ليس اتنفجـا

انشيت مرسى وابنيت الساسها بنيان امحدرج ❊ للصعـود اترقـات ادراجـو
عـز ونتـجـا

من لحجر المنجور اسوار فاقت المرمر لبلج ❊ واشرارم كدور افتاجـــو
تـرمـى وهـجـا

ولبساتن عن ربع اركان وانفاض الكمن برج ❊ درت خلف السور وتبهاجو
دور افـبـهـجـا

---

1) يبدو أن «بوغاز» الغرابلى رد على «قرصان» لابن ريسون وليس على «الرامى» ولكننا لم نعثر له على قرصان .

درت ببان الاهـى افـبـر لعجام وخـزرج ❀ كل باب افتقويم ارتاجـــو

خـزنـت خـوجـا

واحفير اعلى السور ودور ولسود اعلىالمنهج ❀ ولشبال افرادو وازواجـــو

سكنت ولـجـا

والنمور فقلوب هل لـعنـاد بامظافر تبعج ❀ مـن القاوه لتقاه اسماجـــو

قـطـع المـرجـا

ويجيب ابن ريسون على خصمه فى «المهراز» الذى اقامه فى مواجهة البوغاز ، مرفوعـا على سور منيع مـن الحديد ، يصعد لـه بألـف درج ، لتنطلق منه على البوغاز قذائف ثقيلة تنسفه وتزعج قلب الجاحد وتـنـزل كالصواعق عليه :

فى اعراض البوغاز انشيت سور مرصود اعلى اللج

طـالـع مـن لحديد ادراجـــو

ألـف درجـــا

. . .

سور مهرازى سور امنيع سام فالبحر امزبرج

ضن واجزم من راد احـراجـو

تـركـو نـهـجـا

قـابـل البوغاز المخـدوع بلعماير يتفرج

من البومب (1) ايضالى لـرتاجـو

حتى يـفـجـا

كل بومبا فيها قنطار لجحيد اتزعـــــج

صاعـقـا تنزلوا فامهاجـــو

وقـت الخرجـا

ولكن الغرابلى يرى أن خصمه بليد جاحد جاهـل ، أتلفه الشيطان ، فغدا عاجزا عن التفكير والانتاج ، ووقع من أعلى الجبل على حجر صـلـد فتكسر :

---

1) القنابل والقذائف والكلمة من الدخيل الفرنسى .

ريت قلب الداعي مطموس غلف ابلجحاد امسمج

❋ عايم افجهلو مـن تسماجـو

حـلـكـو ربـجـا

تلفو شيطانـو واحكم اعليه عـمـرو ماينتـج

❋ لوحو بين احياف احداجـو

يـبـهـيـم ادجـا

طاح من جرف اعلى منداف فوق من صلد امزدج

صادف اهراسو من تزداجـو

وادلـج دلـجـا

واذا كان يظن انه بالمهراز سينسف له البوغاز فهو مخطيء اذ قد صنع له «غطاسا» يغوص كالسمك في البحر ، زوده بالمدافع والقذائف والمناشر ، يهلك كل من صادفه أو اعترضه ٠

درتلو بـابـور الغطاس ضـد مهرازو لـعـرج

❋ زى سمك ايغوص ابتمواجو

بـيـن اللـجـا

ابلمهارز واصواعق والنفاض وامناشر تـودج

❋ مـن القاوه خرقـوه اوراجو

فـوق المـوجـا

هكذا من ينشى غطاس تـحـت لمـواج ايموج

❋ كل من صادفو قلب اصناجو

وابقى كـرجـا

سمام بوغازى وارقى فالصعود واختنق كمن فج

❋ اعفأرت الجن ابخرق امواجو

خـرجـت حـرجـا

من زعم يدخل تحت ارمايتى ابمهـراز امكرج

❋ مايهم ابطالـى كجكاجـو

دون المـرجـا (1)

---

1) ذكر لنا الشيخ بنعيسى الدراز أن لهاشم السعدانى قصيدة سـعى بها =

ومن أشهر الهجاء المتبادل مادار بين الغرابلي والتركماني ، وهو هجاء أساسه خلاف موضوعي حول الايمان والعمل ، وهل الايمان وحده يكفي أم لابد من العمل ؟ ويطلق عليه «لعراض» أي المعارضة ؛ فالغرابلي يرى في «الدعي» أن الشهادة وحدها ليست كافية وأن العمل واجب ، في حين يرى التركماني في رده عليه أن في الايمان بالله ورسوله كفاء وخيرا في الدنيا والآخرة ، وأن نية المؤمن أفضل من عمله . ويبدو أساس الخلاف واضحا في حربة كل من القصيدتين ، يقول الغرابلي :

يالداعي بالعرف اصغ الهل العلم افما قالوا
الشهادا من غير اعمال ليس تكفي مولاها

ويقول التركماني :

ألداعي شهد والشهادا بالله ابالرسول تكفي واكفات وكافيا اوخير
فالدنيا وافلاخرا اكثر ✻ والمومن نيتو افضل من اعمالو

يبدأ الغرابلي فيرى أن خصمه دخل في بحر لايطيق هول أمواجه ، وأنه سار مع هوى نفسه ، وأنه بلغ من الهبل والعمى حتى غره الايمان وزين له الشيطان سوء الاعمال .

ويرى أن كل من صفا قلبه يعمل ، وكل من غدا قلبه مشوبا يستحلي الآثام . لقد أمر الله بالفروض ، فكيف يريد أن يتساهل فيها ؟ ثم ان الشهادة لاتكتمل بغير شروط لابد ان تستوفيها . انه يريد أن يطلق عنانا شده الله ورسوله ، فهو ناكر شمس العلياء التي أنشأها الله من النور ،

الى الصلح بين الغرابلي وابن ريسون يقول في حربتها :
الصلاة اعلى الماحي سيد كل مافالحي ادرج ✻ لمفضل طه وازواجو زين الفلجا
وذكر لنا كذلك أن ابن ريسون كان السابق الى هذه الخصومة وأن الغرابلي لم يكن يكتفي في الرد بالقصائد فقط وانما كان يلجأ الى التمائم ووسائل السحر – وكان بارعا في ذلك – فتصدى لخصمه بها ويقال ان ابن ريسون ظل من اثر ذلك مدة اثنتي عشرة سنة مقعدا في بيته مكتوف الايدي الى أن قال السعداني قصيدته في الصلح والتمس من الغرابلي أن يذهب عند خصمه ويقبل رأسه . فذهب وماكاد يمسك بيده حتى نهض من مكانه سليما .

ويزيد فيتهمه بعدم التمييز بين الحلال والحرام وبأن حياته كلها سفه وفجور وبهتان وبأنه لم يجالس العلماء قط :

يالداخل في بحر الا اتطيق لمواج اهـوالـو

يامساعف لغراضها افـغـيـوان اهواهـا

من اهبالك غرك ليمان بالمطموس انجالـــو

لـك زيـن شيطانـك سوء لعمال وبـهـاك

من اصفات امرايت قلبو ايدير مايجبر حالو

والذي مارايـم لصفا امانـمـو يستحلاهـا

أمر فرضو ربي شد فيه وتبغي تسهالـــو

والشهادا لهاكم من اشروط لاريـب امعاها

كيف ترخف من شد الحق بعد رشدك مرسالو

الناكر شمس العليا اللي امن النور انشاها

ياللي مـايفرق بين لحرام حتى واحـلالـو

عشتك فالدنيا الا افجور وافشر واسفاهـا

. . .

لاتعاتب قول اللوام حين نصحك باقـوالـو

ياللي مـاجالس عمرو هـل لفوايد وانباها

ثم أخذ في شرح وجهة نظره والتدليـــل عليها مبينا أن العمل أصله النية ، وأن كل من سعى لشيء يناله وقد خاب من لايبحث في شريعته ولا يعرف مقاصدها ، وأنه ينبغي معرفة مايجب في حق الله تعالى مـن صفات الكمال ومايجوز وما يستحيل ومعرفة قواعد الاسلام ، من صلاة وصوم حتى يقوم الدين ويكمل ، وترد عن النفس مخالب المنكر والفحشاء ، بل انه يطلب منه أن يردها وينذرها ويقهرها ان طغت بحديث الموت :

لعمال أصلو النيا ومن اطلب شي اينعطالو

خاب مـن لاخبر فاشريعتو وحقق معناهـا

جيب مايوجب في حق الجليل صفات اكمالو

او مايـجـوز او مايستبح كيف نبأنـا طـبه

جيب اوصاف اقواعد ليمان يامضيع رسمالو

اوجيب اوصاف الاسلام كان كنت (1) تقراها

فالصلاة والصوم اتهلا وقوم دينك واكمالـو

اورد نفسك عن فعل الفحش قبل تغرق فاخطاها

لومها واندرها فعسى اتنال زى اللى نالـوا

الى اطغات اقهرها بالموت حق تدخل لجواها

حقا أن الشهادة مفتاح الدين وبدءه ولكن الفرض تمامه وكماله ، والبادىء للعمل دون انهائه كالخارج للحرب وفى يده قبضة دون سيـف . فالمسلم يقول بلسانه ويعتقد بقلبه وينفذ الفروض بجوارحه ؛ ويخشى على كل مـن فرط فى الدين اذا ماحان أجله أن ينسى الشهادة ، فلا احد يضمنها عـنـد الاحتضار الا من جاد الله عليه وذكرها وحافظ عليها :

الشهادا مفتاح الدين والفرايض لكمالـــو

من ابتدا لشيا دون اكمال سار حجا فابداها

زى من راد ابقبطا دون سيف يلقى عدالـو

واش من مرا للقبطا دون سيف تقضى بامضاها

القول باللسان والاعتقاد افلحديث اكما قالوا

ولجوارح تمتاثل من افرض عنها مـولاهـا

كل من فرط فالدين لقويم يوم ايجى اجالو

اعليه ايخاف ايـلا يحتاج للشهادا ينساها

ماضمن حـد الحد افساعـت لمنيا تعطالـو

غير من جاد اعليه الله وافتكرها واحضاها

ويستفهم فى انكار عن تارك الصلاة او الصيام أو الزكاة أو الحج ان كانت تكفيه الشهادة فينجو أم لاتكفيه فيحاسب ويعاقب :

جول واسأل فالخمس اوقات امن اتركها مدالو

كـان فيه القول او اشهادتـو اكفاتو معناها

---

1) كان كنت بمعنى لوكنت .

جول واسأل من اترك الزكا ولا زكى مالـو

عاش فحرام او اشهادتو اكفاتـو معناهـــا

جول واسأل من اترك الصيام واشروط اكمالو

كان يتعاقب او اشهادتـو اكفاتـو معناهـا

جول واسأل من وجب الحج بعد زادو فاحلالو

كان يتحاسب او اشهادتو اكفاتو معناهـــا

ويطلب منه أن يتوب ويرجع عما مـالـت اليه نفسه ، وأن يتمســك بالتقوى والطاعة حتى تصفو ذاته ، وأن يتخلى عـن هـواه ويطرد الشيطان اللعين الذى يغويه ويزين له المساوىء ويلذذ الشهوات ويتسرب الى داخل الانسان ويسرى كسريان الدم فى الجوارح :

تب وارجع واترك ماريت له لجوارح مالـوا

ولازم التقوى والطاعا اتفوز ذاتك بصفاهـا

لـهـوا والشيطان اعـداك يالتابـع عدالـو

ايبين لك لفضل حتى اتغيس نفسك فبلاها

اللعين ايلذذ للمـومنين شهوت مـحـالـو

افلجوارح يسرى سرى الدم ويسكن فحشاها

ولايتركه دون أن يرميه بالجهل والعمى واتباع الشيطان ، ويسألـــه كيف يلقى ربه فى ظلمة القبر ويوم الحشر حين ينشر أمام كل واحد كتاب تسجل فيه الاعمال الحسنة والسيئة فيجازى عليها جميعا :

غابت اشموسك واهزمها اظلام جهلك باكحالوا

لادبك الشيطان اعماك زى قـومـان اعماها

باش تلقى غبت اللحود ولوقوف وتهوالـــو

يوم تـزفـر جهنم اعلى لخلايـق بالظاهـا

يوم لاتنفع مـرو لاشجاعتو ولا كثر مـالـو

فى اصحوفك توجد لسطار دون ريب تقراها

من ايجى بالسيا بمثيلها امن الله تجزالـو

من ايجى بالحسنى عشرا من المهيمن مجزاها

ويرد التركماني فيتهم خصمه بأنه حمار ابن حمار ، دخل ميدان المعارضة بالجهل ، حاملا خشبة غير منجورة ولا مسواة ، وأراد أن يتطاول على من لم يكن يعرفه ولايسمع به ، ويتساءل عن سبب مانزل به ، أهو مصاب بخلل أم مدعو عليه في وقت صادف باب الاستجابة مفتوحا ، أم أنه يجنى نتيجة حلف زور أو غضب الوالدين ؟

ياداخل بحر المعنى بوجادى (1) واحمار بن احمار ورافد كلخا ابـلا نجير

واتبعت من لايلو اخبر ❊ ولاعمر اسمع حسك مدالـو

واش انت مخلول او صادفت شى دعوا امكنا ساعـت لجابا اعلـى الضمير

او احلوف ابلا اصفا اغدر ❊ أو من الوالدين سوقك واضلالـو

ويدعوه الى الاستغفار لو كان مسلما متحققا من الشهادة يراها اعظم من أى عمل • فكم من مغرور ظل يعمل حتى اقترب من الفوز ولكنه تبع نفسه فمات كافرا بأعماله ، وكم من احد ذاق بعد الكفر حلاوة الايمان بقلبه فشهد بالله والرسول وأدرك وفاز واعتبر بفضلها شهيدا ، وكل من قالها لامحالـة يسير الى الجنة يوم الحشر ومعه فضل الله ، اذ تكفيه الخاتمة ، فـهـى تعادل كل حياته :

استغفر لله لونت مسلم وامحقـق بالشهادا ماتجـعـل عنها اكبيـر

أهـى مـن كـل شى اكـبـر ❊ ولاعنها اعمال يعلى باكمالـو

والعمل ابكلمت الشهادا اهـى بـه واش من عمل انفع كمن اغريـر

اخـدم حتى شاهد الظـفـر ❊ واتبع نفسو ومات كافر باعمالو

واكذاك ضدو اشحال من واحد بعد الكفر داق عسل احلاوت ليمان ابلخبير

وانهار اتبرا من الكفر ❊ اشهد بالله والنبى بلـغ اعمالـو

قالوا مات اشهيد امن افضلها واجميع من قالها افعمرو للجنا لاغنى ايسيـر

وامعاه فضل الله افلحشر ❊ تكفيه الخاتما اتعدل بجالـو

ثم انه لاينكر الاعمال ولايتركها ولايدعو الى تركها ، ولكنه يـرى ان المومن مومن ولو كان زانيا أو سارقا أو هاجما أو قاتلا أو مخمرا ، ومهـمـا اعتبره خصمه كافرا ، اذ تكفيه كلمة الايمان • والمومن لابد وأن يتوب مهما

1) البوجادى بمعنى عديم التجربة •

حاد عن الطريق ، وهو يجبر اذا تاب ولايعدم الفضل طالما أنه محافظ فـي قلبه على هذه الكلمة ، فهي رأسماله وسلاحه وعزه ونصره · وهل ياترى يقبل العمل من حمار مثل خصمه لولا أن الله يستر ويـعـفـو ويقبل عباده ويـرضى عنهم بجوده وفضله ؟ :

مانكرت اعمال ماتركتو ولا عمرى ا'يهت حـد ايتركـو لكبير والصغيـر
الا لـلايـم قلت لـو اعـذر ❊ ومـا فالغيب امـن احكام ابمجالـو
والمومن مومن قلت لوزانـي او لاسارق او هـاجـم او قـاتـل او مخميـر
نـطـق اللايم قـال ذا كفر ❊ قلت اكفاتو السابقا واسعد فالـو
والمـومـن يرجع بعد يـدلـع ولابـد اينال فضل الكلما مـن لالها انظيـر
ويلاتـاب المومـن اجـبـر ❊ ولايعدم افضل حاضى راسمالـيـو
والمومن من فضلو وراسمالو واسلاحو ونصرو وعز اكلمتو ليمان فالسريـر
يتلـهـا ويـحـمـد ويشكر ❊ وجـعـل ارجـاء افلمـكـرم قبالـو

. . .

ولعمال اصلا او صوم وازكا واجهاد وحج ياترا يقبال مـن امثالك لحميـر
والستار يسمح و يستـر ❊ وقبلنا ابـجـل جـودو وافضالـو

ويحاول أن يظهر فضل كلمة التوحيد فيراها تضم سبع كلمات تصد عن سبعة أبواب من أبواب الجحيم وألف ، يظفر صاحبها بالنعيم ويبـلـغ الآمـال · واذا كان العمل من الفضة فكلمة الاخلاص من الـذهب العالـى العيار ، بل ان الله خلق عمودا من نور لايقربه الا من يقول لااله الا الله :

وكلمت التوحيد جاب لحديث اسبع كلمات ضاما ضد اسبع بيبان فالسعير
والف تغلق بـاب واظـفـر ❊ مـولاهـا بالنعيم وابلغ امـالـو
والعمل ايلا ايكون فضا كلمت لخلاص ذهب يبريز امشحر خـالطو اكسير
وافضل ربـى مايلو احصر ❊ سبحان الدايـم لغنى جـل اجلالـو
عمود امـن النور مايلحقو الا مـن قـال لا الـه الا اللـه السامـع لبصير
يهتز الـعـمـود ويجـهـر ❊ يبردت وسـع لفضل ومن افضالـو

وهو يرى خصمه قد ارتكب ذنبا كبيرا لن يستطيع التكفير عنه بغير الذهاب لمدينة مراكش مذموما حقيرا حتى ينتهي من أمره بالذبح · فسينادى

بالنفير فى الحمراء وغيرها من المدن والقرى والبوادى ليعلم به ، ثم يأخذه للحمام حيث يغسله بالقطران ويخرجه بعد ذلك فى موكب مكبلا مغلولا ، ويذهب به الى فندق الجلود ويلبسه جلد تيس اسود ، ويضع لـه أسورة فى حجره ، وحزاما بظفائر وحذاء من النحاس الاصفر ليرقص به ، ويتوجه بكومة من الريش وعمامة عليها خمسة قرون طرية اللحم ، ويعلق له سبحا حباتها من الحلزون ، ثم يطوفه المدينة بالولاول والزغاريـد ليرجمه الاطفال بالحجر وينكتوا عليه ويضحكوا طوال سبعة ايام ، وان تعب خلالها يعاد الى أغلاله ويركب حمارا :

وانصحك ماريت مايكفر ذنـبـك الا اتجى البهجت لمدون امبهدل احقـيـر
وانجزرك وامثالك ينـجـزر ✻ حتى نحتال عن اخلاصك وافصالـو
ونطلق البراح (1) افلمدين الحمرا وافحوزها ويمشى حتى للغرب بالنفير
فاباد (2) امداين اوعر (3) ✻ يعلم بك لسلام ويـرجـع فى حالـو
ونا نفرح بك انديك اللحمام ألديب ببياض تغسل واتعوم افلغديـر
وانخرجك ابهندقا وطر (4) ✻ ويـديـك امكتفا وعنقك فاغلالـو
وندخلك الفندق لبطانا ونفرغ اعليك واحد الكسوا مكمولا اعـلـى الشهير
مـاقيمتها مـال افلعـفـر ✻ من عتروس اشبه القلـبـك فاكحالو
وانبايل (5) افحجرك طايشين ايمانا واشمال ولحزام امخالف بضفايرواعسير
والسباط اقدام امن الصفر ✻ فى رجليك للشطيح ايقل امثالـــو
واعلى راسك رايما ازكوا بالريش او عنها اعماما بـرذيـل افـوقها اندير
خمس اقرون الحومها اخضر ✻ ومن الببوش (6) شى اتسابح يحمالو
وانطوفك اعلى الشهاد افمراكش بالكف ولولاول وازحام اكثير ولهديـر
ويـرجموك اطـفـال ابلحجر ✻ واخـريـن اينيبوك ولا ينـظـالـوا

---

1) المنادى ٠ 2) البوادى ٠
(3) الجبال ٠
(4) سبق ان ذكرنا فى المدخل هاتين الآلتين «الهندقة والطر»
5) اسـورة ٠
6) الحلزون ويطلق عليها كذلك الغلالة وخاصة فى لهجة اهل الرباط ٠

سبع ايام وكل يوم تطويفا فالـحـومـا اولا ارزمتى ترجع لغلايلى ايسيـر

فـوق احمار زنـد وعـتـر * حتى يجتامـعـو الناس ويحتالـــو

كذلك **كان الفخر** عند الشاعر الشعبى جانبا فى فن الهجاء وان لـم يحظ باهتمام المنشد والجمهور ، لما فيه لاشك من انانية وحـب شخصى . ومن الفخر مايذهب اليه محمد بن الصغير يخاطب حساده انهم لن يستطيعوا معارضة كلامه مهما اتفقوا ضده ، فشعره يحلو انشاده ويتوق الناس لسماعه ويطربون ، فهو غزل صافى سلس رقيق عرف كيف يسلك فيه مختـلـف المسالك والمسارب ، لايخشى من الغرق ، وقد شيد قلاعا واعتلى القمة :

قولوا للباغضين قولـى ليام اتلاقى * محال ايعرضو اكلامى لوجاواتفاق

نظـمـى يتـقـال اعشاقـا * أهـل الفرجـات شـوقـوا

غزلى صافـى اسليس رتقـا * سالك منهاج كل طرقـا

وايحق امسارب الطروق

جفنى مضمون مـن الغرقـا * وامشيد ابلقلوع زرقـا

وازيـادا طالـع اللفوق

ومنه قصيدة لعباس الحرار يفخر فيها بأنه لاينفذ صبره عند الشـدة يوم يضيق الناس وتعبس الوجوه ، ولاينقطع مورده يسقى جميع الظامئين حيث لاوجود للماء ، ولايغيب نجمه زاهرا مشرقا بنور ثنائه فى كل مكان ، وبأنه لم يمدح قط ملكا أو طاغية ولم يؤذ أحـدا ، ولم يفضح سرا لـه او لغيره ، ولم يأكل غير أكل شريف حلال ، وبأن شعره لايخلو مـن حـكـمـة وبأنه ورث الرياسة عن أجداده وأنه لايفر من مواجهة الاقران :

أنا اللى ماتضايق الشمدا صبرى * يوما تنقابح لوجوه انـا الصبار

أنا اللى مايـزول للظامـى نهرى * مورد عذبى فامواطن لامايـذكار

أنا اللى مايزول فلك اسما ذكرى * يشرق باكواكب الثنا فى كل اقطار

أنا اللى مارفعت باقوايـم شعرى * سطوت مالك شامخ او اطغىجبار

أنا اللى ماكويت مخلوق ابجمرى * كاتم سرى ولانفضح الحد اسرار

أنا اللى ما اخلات من حكما جفرى * مشتمل اعلى قوا ايفادت كلاخبار

أنا اللى ماتكدر اجـواهـر ثغرى * لقمت منان لو انجوع اسنيناشوار

أنا اللى وارث الرياسا من بكرى * من جد الجد حزتها امن دارالدار
أنا اللى ما اتشاهد اعداى ظهرى * يوما تتواجــه لقران لفدى الثار

وكانت على العكس من ذلك عناية الاشياخ «**بالسولان**» كبيرة ، وهــو فن يتصل بالهجاء وتحدى المدعين ، حيث يوجه الشاعر لخصمه جملة اسئلة هى فى الغالب احاجى والغاز ، ان لم يحل رموزهــا فهو مغلوب وعاجــز ٠ وغالبا ما يمهد للسؤال أو بالاحرى لمجموعة الاسئلة بمقدمة يخاطــب بها المدعى او راوى القصيدة ، وكذلك يختم السولان ٠

فهذا ابن على فى «سولانه» يطلب من راوى القصيدة أن يفخر بالسؤال الذى ليس له مثيل :

باسؤالــك استفخر ياحفاظــى * اولا ابحال عند اللى عارفين ســولان

ويخاطبه فى القسم الاول يؤكد عليه أن يفخر ويواجه كل معارض ، وأن من عاتبه أو اغتابه فكأنما عاتب الشاعر او اغتابه ، ويخبره انه ضبط الحروف ورتب القوافى ، ويوصيه أن يقرأ جهرا ماكتب له على كل الناس القريب منهم والبعيد ؛ ومن كان منهم يدعى فليجب على السؤال وليجل فى معانيه وليشرح جوابه حتى لايظل مدينا فيشهد عليه العدول :

باسؤالى استفخر واتلق كل من ايعاتــب
اللى ايعاتبك كنو عاتبنا
او غتبك كــنــو غــتــبــنــا
او هكــذا فالشعر اكتبنا
اضبطنا لك لحروف والقوافى لها ترتيب
اقرا بالجهر ماكتبنا على لبعيد ولقريب
واللى داعى لنا ايرد لجواب
ايــجــول افــلــمــعــانــى
ويشــرح لسؤالــنــا اجوابــو
اولا يــــعـــود مـديـانـى
واعليه شاهــديــن اعــدولـــى
وارضـــى ايــكــون مـــديــان

ثم يستعرض له بعض الالغاز كهذا الذى يسأله فيه عن ماهية علم الشعر والمواهب وكيف تتسرب للنفوس ، وعن اقسامها التى لايعتبر شاعرا مـــن يجهلها ؛ وكل من غاص فى بحر الهوى يجده صعبا الا من منحه الله الموهبة ويوصى راويه الا يهاب المدعى بالجهل ، فهو اعجز من ان يأتى بمثل هـذا السؤال أو هذا الشعر مهما طال به الزمان :

وانسال امن ادعاو اعلى علم الشعر ولمواهب

واعلى اشمن (1) اسبيل يدخل لجسام

كـان تهم فالخـلـق ارســام

قسـمـوه الـفـهـام اقســام

من لايدريها لايقول شاعر فالقول ايجيب

واللى داخل بحر لهوا بجهلو يلقاه اصعيب

الا من ودو ربنا الوهاب

واللى ادعا اعليك ابجهلو بالك تستهابو

ما جـاب عـوض سـولانـى

ألو ايعيش ماعاش المرو ولا ايجيب لوزان

ويختم القصيدة بتحذير للمدعين ان عجزوا عـن الرد – وهـو عليهم واجب – انه سيبقى دينا فى عنقهم طوال الحياة ، وأنهم لن يساووا شيئـا بعد ذلك ؛ ومن عرف كيف يحل السؤال فليشرح اجابته وليعرف بمصادره ولينظم ذلك على نفس الميزان :

وانسال من ادعاوا بجوابى واعليهم واجب

ويذا يعجزو عنهم يبقى ديـــن

لـجـواب الـواضـح لمـبـيـن

طـول مـا دمـنـا فـالحـيـيـن

لاتحسبهم اسواوا وخذلك فالخلطا تجريب

من يفقه لشيا اكما انشاها علام الغيب

معناوى ياتـيـنـى افصح لـخـطـاب

---

(1) وعلى أى .

ايفيدني بشرح اسؤالى فاشمن اكتاب صابو

واعلـى اطبـوع مـيزانـى

واعلى اكواكبو وادراجو طرقان هل الغيوان

وللتركماني «سولان» يقول في حربته :

اصغ اوجول واتأمل يا انسان ✻ جاوب اسؤالى كان انت البيب فاطن

ويسأل فيه من جملة ما يسأل عن طائر يجول فـي البر والبحر دون أجنحة أو زاد ، يقطع الارضين في ساعة ويصعد للسماء بسرعـة ، يبيض ويفرخ في البطاح ، رأسه في ذنبه ، وليس لعينيه مثيل بل له عين زائـدة وأذنان ، ولكنه لايسمع الا بواحدة ، ترى ماهو وأين يقيم ؟ :

عن طير سلتك ايجول ابلا جنحان بر وابحار

وابغير زاد اولا لـيـه ابضاعـا

ويـقـطـع لرضين افساعـا

وللسما يصـعـد بـاسراعـا

وايبيض ويفرخ افلبطاح ايمين واشمال

وابراسو فى قزبتو وعينيه ابغير امثال

بمقعد وبـودنـيـه رد بـالـك

ويسمع غير بودن وحدا سبحان ذا المواهب

وابـعـيـن زايـدا ثـانـى

يـنـدر اوحـد مـانـدرى

اكـمـا هـو اوفـيـن كـاطـن

ومن اسئلته يستفسر عن رأى الشرع فى أمر رجل سافر الـى فاس وترك زوجته فى القصر ، وفى يوم سفره تزوجها غيره فولدت له ، وكتبت للزوج المسافر تخبره بمولود رزق به وأصبح ذا مال ، وتقسم انـه ليس ولده ولا ولد زنا وتطلب منه ان يلحق بها على الفور ، فامتثل وحضر ولكنه وجد نفسه مغلوبا على أمره وغريبا بعد ان كان قريبا :

وانهار فاش سافر غيرو خذهـا

وارجول سافر الفاس اخلى زوجتو افلقصر

اولـدت امـعـاه امـن ابطنها

ولـدت اكـتـبـت الـراجـلـهـا

فالكتاب قالت ولد زاد عندك واصبح ذو مال

تالله ماهو امن ازنا ولا هو ولدك واحتال

واقدم بالتكبيرا وجـى اتبارك

وامتاثل الرجول امرها واضحا امن المغالب

مـن بـعـد كـان دخـلانـى

عـنـد الامـر ارجـع بـرانـى

والشـرع بـاش آذن

وبمثل ماختم ابن على ختم التركمانى فقال :

ياحافظ اللغا خذ اسؤال المن ادعا امختصر

يعزم ابلجواب اويأتينى بـه

ويـرضـى بـالـغـلـب اعـلـيـه

ويـقـبـل شـرطـى وانـوريـه

أما فى **الخصام** فيتحفنا **ابن على** فى قصيدة «العربية والمـدينية (I)» بحوار رائع بدأته بنت المدينة فرمت محاورتها بأنها كلبة الـدوار ربيت فى الخلاء ، واذكرتها بالقرب تملاها فى الصباح وبالحطب تجمعه فى النـهـار وبالرحى تسهر عليها طوال الليل ؛ حياتها تعب وشقاء ، ورجلها حافـيـة متشققة ورأسها عار ، تفترش التراب عند النـوم وتوسد حجر الكانون ، وشتان مابينها وبين بنت الحضر تربت مصونة فى بيت العلماء . وأين هم أهل البدو الوسخون من سكان المدينة يعمرون المساجد وينصتون للخطب ويبعثون ابناءهم للكتاتيب :

قـالـت لـمـديـنـيـا ✻العربيا واش افـعـالـكـم تنساهـم

تربيت لخلا كلبات الدوار ✻آش ايجيك لبنات لحضر واترابى لعلوم

وانـت بـدويـا ✻ماتفكرت لكرب فـالصباح تملاهـم

واتحرفى احبل لحطب كل انهارواتظلى واتباتى اعلى الرحى ماطال الديموم

---

1) المقصود بالعربية : البدوية ٠

متعوبا مشقيا ✻ ارجليك ابلحفا ينشقوا افسرت اشقاهم
والراس ابلعرا عمرو مايستار وابحال التمود ترقد من جهلك واتقوم
كحيا مطويا ✻ بالرفايق كتتغطى بكفاهم
واتوسدى مناصب كانون النار واتروحى عيانا اعلى التراب ترقدواحموم
مافيكم انقيا ✻ هكذا سيرت هل برا اسواك واسواهم
شيجيكم لهل الظل والجدار✻ وامساجد للخطبا امع الصلا وامسايد وارسوم

وردت البدوية مشبهة الحضرية بالبومة فى الغار ، دائمة المرض لايغيب عنها الطبيب ، لونها يصفر بدون داء ويذبل من أثر سم جير الجدران الذى ينعكس عليها فيجعل طبعها ساما كذلك ، وهى ميتة فى حياتها ، لم تخرج يوما الى البادية لتتعرف الى حى محاورتها تحيط به الاشجار ، وتحميه الخيول والسيوف والرماح والاشواك من الاعداء . ثم ان العرب موصوفون باكرام الضيف وبالطبع الكريم ، وهم كذلك ينشؤون المساجد ويتخذون الخيام كتاتيب للتعليم ، وكل من زارهم ينال من خيرهم على عكس المدن التى لايوجد فيها شيء دون مساومة أو شراء :

وادوات العربيا ✻ قالت المدينيا يالفاهم الغاهم
خمدى ياشبيهت موكا فالغار✻ آش ايجيبك لبنات لعرب واعوالىواسهوم
وانت بلديا ✻ شوف لمثالك ماعمر الطبيب يخطاهم
وابغير ضر كتدبال وتصفار✻ سم الجير ايولى اعليك مايشبه لكمسموم
موتك وانت حيا ✻ ياللى ماشفت عمرك عربنا ومأواهم
امعمرين بصوارمهم لقفار ✻ لوكان اتشوفى حينا اذا صاكت قوم القوم
بسروت محضيا ✻ ابلقنا والدركا يدرقو امن اعداهم
وامثيلهم من يوصف ويذكار✻ هما كرمين الضياف وهل الطبع المكروم
وامساجد منشيا ✻ وبخيام الطلبا واجميع كل من جاهم
يمشى ابخيرهم يتشكر تشكار واش ادى اللمدون كل شى بالمشرا والسوم

وعلى هذا النمط تسير المحاورة تتناول جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية فى كل من المدينة والبادية . تفخر المدنية بأنها محجبة تحافظ على الصلوات وتعيش حياة زاهية منعمة وترفل فى الحلل والحلى ، وتعير

البدوية بأنها سافرة تظل تدور فى الاسواق وترعى الابقار وتقلع نبات الدوم ، ليس لها ماتزهى به من النعيم والرفاه والحلى واللباس ، عيشها مذموم اساسه الذرة والشعير وعفنها كثير والماء عندها قليل . أما العربية فترى أن التقوى موجود فى القرى والمدن على السواء وتعير ساكنات المدن بأنهن شر الخلق ، اجتمعت فيهن كل الهموم والسيئات وأعمال ابليس ، ساحرات كاهنات غادرات بالاخوة والازواج ، تتفشى فيهن المناكر . وينتهى الحوار حين تفخر العربية بأنها من أصل قرشى معروف وأن الله وعد العرب بثلاث بالجنة والقرآن والرسول ، وتذكر بنت المدينة بأنها ببغضها للعرب تبغض الرسول ، ولكن هذه سرعان ماترد بأنه لولا موقف محاورتها مامست العرب بسوء لانها تتفانى فى حب الرسول وفى سبيل حبه تتغاضى عن كل ماقالت فيها من شتائم وتطلب منها ان تستغفر .

ثم يتدخل الشاعر للصلح ويقيم لهما نزهة ليسليهما وينسيهما الخصام:

قلت الهم اعليا ※ صلحكم وانزاهتكم كيف كنت نشهاهم وصالحتهم وقمت الهم انهار ※ كيف يشتهاو الباهيات وافجيت الهم اهموم

ومثل هذا الخصام نجده عند امتيرد فى قصيدته التى حربتها :

أمى احنا وايلى امى لوريت يافاهم اللغا ماذا صار البنت لحضر والعربيا

وايلى امى لوريت يافاهم اللغا

ولكنه يجعل محاورتيه تدعوانه ليصلح مابينهما ، فيتدخل ويرضى كلا منهما فيبدى اعجابه بجمال العربية الكامن فى جاذبيتها وعيونها الفاترة وخدودها الموردة وقدها العالى ؛ كما يبدى اعجابه بجمال بنت الحضر الشبيهة بياقوتة فى تاج النصر مصونة فى ابهج المدن .

ويرى أن الله كتب عليهما هذا الخصام وأنه ليس فيهما مايعاب ؛ فلم تلبثا أن انشرحتا لكلامه وصفا قلبهما وغدتا تتبادلان اللعب والضحك :

قالوا مرحبا جابك ربى يافصيح الشياخ اعز الماهرين

جول اخمم فالحين فارقنا

قلت لهم حتى عيب ماهو فيكم

زيـنـات زينـكـم يـرضـانــى

أنــت اتبارك اللــه العربيا

امرونقا مسرارا بعيون نايما سرديــا

واخـــدود فاتـحـا عكريــا

والــقـد قــد صـــارى

وانــت يــابـنـت لحضــر

ياقوتا فى تاج النصر محضيــا

فى بهجة لمداين صولى ياروح راحتى وهنيا

هــاد لـغـيـار جـابـو ربــى

لـجـواد مـايـعـيـبـو

حــاشــا يكفا مــن لخصــام

انشرحو واصفاو لقلوب افرحـو

جازونى بخير اجازيت الباهيات ساروا فى حفظ الله ديـك

تلعب لخرا لها ضاحكا

ومن أروع قصائد الخصام وأشهرها قصيدة «الخادم والحرة» للغرابلى يقول فى حربتها :

قصا اجـرات للخادم والـحـرا ✻ يـوم ظلو فخصام اكثير عل المعيار

وفيها تصف الخادم (1) الحرة بأنها كسولة وبخيلة وصفراء وبـاردة وثقيلة ومسمومة ، دائمة الشكوى من الاضرار غير قادرة الا على الخصـام والتعيير ، كل من مسها يصير عليلا ويصفر لونه ، أمها ساحرة وأبوهــا يقضى يومه فى جمع الاعشاب والبخور ، وان كانت حرة فانها هــى الاخرى قد تعتق وتظفر بالحرية . ثم ان الخادمات يكن فى الدور الكبيرة عزيـزات فيهن العلاج واللذة الطيبة ولونهن يفوق لون العنبر . وترد الحرة بأنــهـا تستحق كل ماحصل ، فقد قبلتها للسخرة وهى كالحمارة يحيط بها الويل، لاتخرج من المطبخ ، وتضرب بالليل والنهار ، رائحتها كريهة ، ولونها أسود. وتذكرها بيوم مجيئها فى حال بؤس بلباس وحذاء ممزقين ، ثـم انها مثار شؤم ، كل من اقترب منها يعمى من شدة رائحتها الكريهمة . ولـم تكتــف

1) المقصود بالخادم الامة .

الحرة بهذا الرد وزادت فعنفت معها فى القول – الذى سنمثل به – ووصفتها بأنها عجوز بنت عجوز وبأن الله فضلها عليها ، لو قتلتها لما حدث أى شىء ، وأنها قربة قاذورات وعلقة فى بئر ، طباخة تسرق اللحم من القدر ، أمها تكشف عن الحظ فى المحار وتتلهف على القديد ، وابوهـا يسعى من دوار لآخر يضرب فى طاسات الحديد ، وأخوها يجول فى الحى ينفخ فى المزمار من أجل جمع قطع الخبز ليبيعها ويبقى بالجوع ، أما هى فكالخنزيرة أو القردة الممسوخة . ثم تسألها اهى على دين الاسلام ام كافرة ؟ وكيف تم مجيئها جائعة حافية عارية الا من فوطة ائتزرت بها ؟ وبأية عملة اشتراها التجار أبالملح او الودع ؟ وتذكرها بأنها حين وصلت لم تساو عشر دينار، وكم مرة دللها السمسار ، وكل من رام شراءها يأخذها لتقضى الليل عنده ويصبح وقد تضايق من رائحتها الكريهة وشخيرها الشبيه بالمنشار ، فيردها للدلال ، الى أن قدر لزوجها أن يشتريها دون مشورة • وحين أتت للبيت وجدت ربته بارزة فى فراش قبتها ، جميلة لابسة افخر الحلى والثياب • ثم أخذت تصف جمالها وبشاعة الخادمة مقارنة بين بياض شبيه بضوء القمر ولون كقطعة من الليل ، بين سوالف رائقة للتضفير وشعر مكور كحبوب الابزار ، بين خدود حمراء منقوشة وخدود مشققة كالمندوب عليها بالاظفار، بين أنف دقيق كالباز ، وانف منتفخ كالكير يوقد نار الجمر ، بين شفاه حمر كالشهد وشفة بعير ، بين نهود صدر كبرتقال فى شجر ونهود كالباذنجان الكبير ، بين أقدام دقيقة وأقدام كاظلاف الحمير • وما ان وصلت الحرة الى هذا الحد حتى فقدت الامة وعيها ومسكت بحجر وقذفت الحرة ولكنها اخطأتها ، فحمى وطيس الحرة واخذت تلطمها وتضربها كيفما اتفق بقفل حديدى كبير • وقام هرج وضوضاء فى الدار ، وكادت ان تقتلها لولا ان حضر الجار وفكت الامة من قبضة سيدتها • وحين رجع رب الدار وحكى له ماوقع باع الامة واستراح وعاش بقية ايامه يزهى مع زوجه الجميلة :

قالت افلجواب الحرا مهما اطـوال لكحار

سكتى يالنكرا بنت النكرا ※ اعليك فضلنى ذا لـقـدرا

اولـو اقتلتك شى مايجرا

لاش اتصلحى يآكربت لخنز ياعلقا فى بير

طيابا طباخا او سارقا اللحم امـن الطنجيـــــر

اتقول يما حافظا الـكـــارا

امك ابلودع شوافا واعلى لكديد تسعار

وابـــاك يـالـقـنـجـارا (1) ❋ بالقرقبا ايظل ايكوع وايدور كل‌دوار
اوخوك افلمدينا داير شـهــرا ❋ كايسوط افقرن اعشارى افقاع مزمار
وايدور افلحــوم ايلم الكســرا ❋ ايبيعها وايقيل بالجوع بـــن المطيار
وانت امثل حلوفا فـى قـفـرا ❋ أو قردا ممسوخا ساكنا افلوعـــــار
اعلى اضنايتك حكم المسخ اجرا ❋ عيدى لـى جنسك اســـلام او كفار
واعلى امجيك عيدى لى كيف اجرا ❋ ابلودع ولا بالملحا اشراوك تـجـار
جابوك ابلحفا والـجـوع ولعرا ❋ ولا اسويتى يوم اوصلتى اعشور دينار
ولاعليك بعد اكشيـف السترا ❋ امتزرا بالـفـوطا وامتبعا السمســار
واشحال ماتـدللتى مـن مـرا ❋ من راد ايقلب عندو اتبات فـالـدار
فالصباح كيقول ايولاهى جـرا ❋ باينا كاتشخر شـخـرات زى منشار
وصنان ريحتك خنزين شكرا ❋ خرجك للدلال وعـاد لـه ماصـــار
دلال امن احواز البهج الحمـرا ❋ اعيا ايهايت وبعدها ابقى افلكرار
حتى جا المغرور امع الـقـدرا ❋ اشرا وخلص فالساعا ليس دار بشوار
وامنين جيت صبتينى مشتمرا ❋ بارزا فكساوى واحلول زهـو لبصار
وافراش قبتى ماهو فى حضرا ❋ كل من شاهد زينى دون قيس يعدار
شوف ابياض لونى كضى القمرا ❋ شوف لونك كنقطا امن اظلام لسحار
شوف اسوالف تعجب للضفرا ❋ شوف شعرك لمكركب كاحبوب لبزار
شوف انقيش عل لخدود الحمرا ❋ شوف لخدودك زى النادبـا بالظفار
شوف الانف باز افبطحا خضرا ❋ شوف انفك نحكيه كير واقد اجمار
شوف اشفايفـى كاشهدا حمرا ❋ شوف دوك اشلاقم لبعير جافتحكار
شوف انهود صدرى ليم افشجرا ❋ شوف لنهودك دنـجـلات دوك لكبار
شوف اقدامى كن خدلج واطرا ❋ شوف لقدامك نحكيهم افراقش احمار

1) الـحـمـارة ۰

تما انرا الخادم رفدت حـجـرا ✻ شيرت اعلى الحرا واتقول كلبت الدار
زكـلاتها وحـركـت لها الحرا ✻ ابقات تعطيها بالزكروم دون ختـيـار
وما اكلت من طرش ابـلا فترا ✻ عاد رجعت لحسبها بعد بان لـعـوار
بالهرج نوضت فالـدار الكسرا ✻ امشات تقتلها لوماكان حاضر الجار
وفـكـهـا وخرجها واتـبـرى ✻ حين جامول الدار وعاد ليه مـاصار
باعها وهـنـا راسـو وابـرا ✻ وسار يغنم زهـوا اياموا مع الخنار

ومثلها قصيدة «الزمنية والعصرية» لحسن اليعقوبى ، وحربتها :

آش را متى لارا لبنات يوم قاموا لكحار (1)

زوج هـيـفـات اصـغـار

شابا عصريا وامع الحاجبا فالجورا

وفيها نجد ثريا «العصرية» تتهم هنية «الزمنية» بـالامية والتأخـر ، لم تذهب مثلها للمدرسة ولم تحضر المجالس ، مشغولة بأعراض الناس تشتم وتغتاب ، ولكن هنية ترد بأن محاورتها غير مؤدبة وبأنها مشغولة بدفاترها ودهن شعرها المحلوق وتسريحه ، لباسها بعيد عن الوقار ، سافرة الوجه ، عارية الرأس ، لاتعرف شيئا عن الطبخ وشؤون البيت :

نسمع العصريا اتقول للزمنيا

يـاجارتـى اهنيا

سـمـعـى مـنـى اخـبـار

من يوم اسكنت احداى جارا وانتيا فاشفار

ياحسبى لله سالبا بخصامك جمع لفكار

عمرك ماشفت اتقول شـى مـدرسـا

اولا حضـرت مـجـالـسـا

ولا اهـواتـك الدراسـا

ايـلا اهـواتـك

بك اعوار الناس جارحا بالسانك

فـات لـقـيـاس

---

1) الخصـام .

مشغولا بيا

اولا العنت شيطانك الشرير

خوذيني نصفاك تتشتمي فيا

جهرا ابلا اخفيا

فالستا تاعت لعشيا

عند اغروب النهار

قالوا للشتاما النار

بالسانك قلت اعلى الشكارا (1)

مصحوبا ديما امعايا

ممليا ابلكتوب عل لفتخار

سابقا بالمعيار

كابرا اميا فالسب ولغتب والزورا

لالك المدرسيا فايقا عل لبكار

ياتسمعى لخبار

يالزمنيا غشميا اموخرا للورا

قالت الزمنيا بجهار

يا لعصريا هذا عار

ياك حق الجار اعلى الجار

ماعرفت كود الهدرا (2) اعلى الشكارا

قمت كسرا

وزايدها اتفلقى ابلحجار

مخصوصا ادب يالشبانيا

يارهط البويا

مشطونا ابلشعار

السانك مطلوق ما عرفت مونا

ولا اعجنتك معجونا

---

1) محفظة المدرسة .

(2) صحة الكلام وصوابه

ومع اكنانشك مشطونـــا

طـــول الـــنـــهـــار

أنا زمنيا او حاجبا فى دارى

وامع الشغال طول انهارى

لـــيـــا اصـــغـــاى

انـــت ديـــمـــا امقزبـــا

صايا فالمحزم امع اقويمجا دون اخفا امجيفك

اكـــريفيطا خـــانـــقـــك

وانعالا محسوب صاندالا

للخرجـــا والـــدخـــول

شرع الله امعاك يالعصريا

مـــادرت اصـــــواب لـــيـــا

فالشـــعـــر امحلـــقـــاه تيـــا

دون لغراض لقصار

حتى الراس امع لوجه بايـــن

لادرا لانـــــكـــــاب

قالوها مثلا اعلى ابحالـــك

خرجـــى ســـوق الـــزحـــام

آش اتعرفى فالطباخ

طجين امحمر ابـــلـــفـــراخ

ولا ميدا ولا مخرقـــــــا

ولا بسطيلا امورقـــــا

لاقورما لا محنشا اشغل الدار

زايـــداهـــا تـــعـــفـــار

ماتعرفى لشغال الـــــدار

حـــــتـــــى دورا

آش غير الدهنا والراس حالقالو لشعار

امخالـفـا للآثـــار

فـالسـوالـف نـظـرا

مـاهــى ابحـال بـتـورا

ونجيب العصرية بأنها مهتمة بالتعلم وطى مراحل الدراسة ؛ فلم تجد الزمنية غير التركيز على مظهر العصرية الذي لاتراه لائقا وعلى معرفة الطبخ وشؤون البيت لاسيما ان جاءهـا ضيوف فـانها تعجز عـن تهييء الطعام وتأخذهم الى المطاعم . ولكن العصرية ترد بأنها مثقفة وأن الطبخ من اختصاص الخادمة التى تتقن كل أنواع الطهى ، وتخبرها بـان خطيبـهـا راض عنها تخرج معه وقد تعرفت الى أهله وتعرف الى أهلها . وتدعوها الى ان تخرج من غمة الدار وتصاحبها فــى فسحة بالسيارة لتزور مـدرستها . وتـؤكـد الزمنية أنها محجبة تتبع العادة وأنها بذلك سعيدة ؛ وهى كذلك مخطوبـة ولكن على الطريقة التقليدية حيث لم ينظر اليها خطيبها ولم تنظر اليه بعد ، يقول أهلها انه شاب صغير ومن خيرة الناس ، وقد خطبها فى البيت وتولى أبوها الامر وهو يبعث لها بالهدايا فى الاعياد . ويتدخل الشيخ الجار فيصلح مابينهما ويصارح الزمنية بضرورة مسايرة العصر ومـحـو الامية ، وينبه العصرية الى ضرورة تعلم شؤون البيت . ثم يعود اليهما بعد سنة ليجدهما عملتا بوصيته فتحضر له العصرية مائدة اكـل شهية وتنسخ لـه الـزمنية أقسام القصيدة .

ومن الخصام المعتاد مانجد فى محاورة بين العروس وحماتها ، وهـى محاورة لم نوفق للتعرف الى صاحبها ، تقول حربة القصيدة :

ماعظمها فالزمان قصا سارت يافاهم لخطاب

بخصام اكثير خـرق عـادا بين اعكوزا وشابا

فالعروس تعير الحماة العجوز بكبر السن وضعـف العـقـل والغيرة وتوعو عليها بألوان من العلل والامـراض قبل ان تـمـوت ، بضعـف البصر والبرد وداء الجانبين والحمى والمرض الخبيث . فقد انحنى ظهرهـا وشاب رأسها وخلا فمها الا من ناب ومع ذلك مازالت نار الرجال تلتهم اعضاءها :

قالـت للشايبا اكبرت واهترت يالعايبا

غرتي اكرفت لعكايز منى يعطيك الضباب ■ والبرد اعلت الجنـاب
والحمى واخبيث يديوك للروضا امعاقبا

بعد ميخنك ظهرك احنا والراس لك شاب ■ فمك مافيـه غير نـاب
مازال ياخلاك نار الرجل فاعضاك تاكبا

وتجيبها الحماة لتطعن فى عرضها ، داعية عليها بانقطاع الرجـاء فكثيرا ماوعظتها ولكنها لم تنتبه من عماها ، كانت تريدها أن تشتغل فى البيت كما يفعل من هن خير منها ، وتقنع بالواقع وتحمد الله عساه تعالى يرضى عنها كما رضيت هى عنها عروسا لولدها ، على الرغم من أن طالعها كان شؤما على البيت حيث ضاق العيش وارتفع الخير وشاب رأس ابنهـا الشاب ، ولكنها كلبة لاتتعظ طالما ان قلبها ميت أسود ، وطالما انها لـم تستوف دينها :

نسـمـع فـالشايبا ونطقـت ■ قـالـت للبنت كيـتـك
عدفـنـى عرضك لمشـمـت ■ يقطع ربـى ارجيـتـك
اعيت انـواعظ وانـحـدت ■ مـافقتى امن اعميـتـك

معنيت اعليك قلت واش انفيقى ياعـرت لكلاب ■ واتكونى من اهل الصواب
واتعرف بين الزمان ابعوانو يالسايبا

واتخدمى كيف لالياتك واتقبلى ابما اكـتـاب ■ واتحمدى عاتق الرقاب
او طلبيه يقبل اعلينا ويهون كل صعبا

كيف اقبلنا اعليك بعد اعرفنا اقدامك الزغاب ■
مللى حضروا الخير غـاب
وارضينا ابلقضا وقلنا لاهرب من لمكاتبا

ادويت امعاك باللطافا من جانب وقتنا اصعاب ■
والولد اصغير كيف شاب
نبغيك اتساعفيه واتكافى من دى لمعاتبا

وامنين شفت قلبك ميت اكحل امـن اغـراب ■
والظن اللى انويت خـاب
احرام اعليك ياالكلبا دينك ابلا امسراتبا

وترى العروس في ردها انها لو لم تستح من شيب الحماة للطمتها ، وأن كبر السن معدن كل العيوب وأن الخدمة والكنس لايليقان بها وبمثيلاتها من الشواب ، وأن شغل البيت من واجب الحماة ، فهي تخرج بلا لثام ، وعليها ان تنفق في السوق وتطبخ وتقدم الطاس (I) وتحضر المائدة . اما هي فتنعم مع زوجها في مجالس الاستمتاع متزينة فوق الفراش وعلى ضوء الشمع وأمامهما صينية الشاي يتساقيانه في سلو وتيه وضحك وملاعبة . واذا ما شاءت الخروج للحمام أو الذهاب لفرح عند الاصهار فان العجوز تسير خلفها حاملة لها رزمة الملابس على ظهرها كما تفعل غيرها من العجائز :

نسمع فالبنت ابغير دهشا ■ للشايبا وقالت ابصوت الهيب
ماحق اعليك غير طرشا ■ لولا استحييت امن الشيب
ولاينى يالشاخشا ■ لكبر معدن كل عيب
آش ابقى لى ايلا اخدمتك قولى حشمت بالشواب (2) ■
واتهون انشطب الرحاب
ولانرضى انكون لك خادم ياعجب لمعاجبا
انت بعد ايلابقيت سهم الخرجا ابلا نقاب ■
والمقضيا والطياب
وارفود الطاس يتبع الميدا واعليك واجبا
ونا فامجالس امع ولدك فوق لفراش بالثواب ■
واعلى الماكول والشراب
والشمعا شاعلا افبيتي والصينيا امرتبا
ترا نسقيه ويسقيني بتاى اعجيب افلكواب ■
ترا نسلاو ابلحجاب
ترا بالتيه واخنات مني ترا ضحك واملاعبا

I) آنية غسل اليدين قبل الاكل وبعده

2) جلبت لهن العار ، من الحشومة بمعنى العار ، وهي كذلك بمعنى الحياء

انهار ايلض لى الحمام واحضور افراح النساب ■

وايـلا كنت امـــن اللباب

تتبعينى ابحال لعكايز بالرزما امـراكـبـا

وتسير المحاورة على هذا النمط فى تبادل الشتائم ، تحاول الحماة ان تحط من شأن العروس والطعن فى أخلاقها ومستوى أسرتها وأن تقنع ابنها بضرورة طلاقها لتخطب له غيرها . وتـرد العروس بألـوان مـن السباب تستوحيها من الشيخوخة وآثارها المادية والنفسية على الحماة . ثم يتدخل الولد بعد أن حار فى الامر وكأنه يصارع الف امرأة وبعد أن بكى وقرأ ولعن الشيطان ، فينحنى أمام أمه ، يداه خلف ظهره وخده فى التراب معترفا لها بأنه لها عبد ، ولكنها أحرقته بالحطب والنار ، وذلك جزاء كل من يساعف زوجته وتهون أمه عليه وتغلبه نفسه ، وهو يفضل أن يـؤدى فـى الدنيا ويزيل غضب امه ويريحها على أن يظل متابعا فى الآخرة ليعاقب شر عقاب . فكان ان لانت الام وحنت وزال عنها كل كرب . ثـم التفت الى العروس بحزم ونظر اليها بعينين ملتهبتين ، فاعتذرت لوالدته ورجتها ان تفك رقبتها من العقاب وأكدت لها انها تائبة الى الله وأن اسلامها سيتم ويحسن عـلى يدها :

طاح الولـد يبكى ويـقـرا ■ ويلعن المـارد الرجـيـم

ويحك اعمامـتـو ابقهـرا ■ وادموعو ساكبا ايضيـم

واتقول اتلقى ابألف امـرا ■ والعز ابوجـهـك لكريـم

ينادى بعد مد ايديه اوراه اوخد اعـلى التراب ■

العبد اوكل ما اكســـــاب

انا مكسوب عبد ياليما (I) وانت الكاسبا

احرقتنى ياميمـتـى فالـدنيا بـالنار ولحطاب ■

يستاهل امن اخطا وسـاب

واسعف امراتو وهان بمو والنفس اعليه غالبا

I) تصغير ام

اللهم انخلص اهنا وانقول اصـفـا من لغضاب ■

خاطـرك ولا بقى اعـتـاب

ولا نبقى الاخـــرا نتعافـب شر لمعاقبا

حنت وارطابت لميما وزال من خاطرى لكراب ■

واهنا مـن بـعـد التعاب

واتلفت افلمرا بقلب امصمم واعيون لاهبا

زاوكت فمو وقالت لها عتقى رقبا مـــن لعقاب ■

منفـعا واجـر والـتـواب

واليوم انا اعلى ايديك اسلمت ولله تايبا

وقد تتعدد المحاورات فى قصيدة واحدة على حد مانجد فى «الخصام بين عشر جوار» لابن داوود ، وهى عبارة عن خمس محاورات ثنائية تـدور بين البيضاء والسمراء ، والطويلة والقصيرة ، والسمينة والنحيفة ، والحضرية والبدوية ، والشابة والعجوز . وهى فى الـواقع مجموعـة محاورات مستقلة لايخرج الحوار فيها من الثنائية الى نطاق واسع تتعدد فيه الاطراف كـمـا يتبادر من التسمية

تبدأ البيضاء فتفخر بأن لونها كالعاج وجسمها كقطعة قطن فـى يـد النساج وبأن بين البياض والسواد مثل ما بين الليل والنهار ، والـوسـخ والنظافة ، وبأن السواد شبيه بالقار :

لونى ابيض اكما الـعـاج ■ بدنى اكما القطن بيديـن انساج

بين لبياض وبين لسواد ادراج ■ مـثـل النهار والـــداج

. . .

انظر تفكرتك فالثوب المجلوب ■ صـاحـب لبياض محـبـوب

وما السواد مـن راد يتنـقـى ■ بـاطـل كـذاك يشقـى

. . .

وانت لـونـك يحـكـى للقار ■ وادنيت (I) ياسودا تعانديـنـى

فتجيبها السمراء بأن لونها كلون الخمر فى الزجاج وكماء الذهب يكتب

I) جـــرؤت

به التاج ، أما العاج فليست تنقش به غير القباقب ، وفى البياض خمسة كلها بارد وثقيل هى الملح والجير والرخام والعاج والقداد (I) ، تداس مبخوسة الثمن بالاقدام ، وليس يسام غاليا غير الاسمر كالعسل والمدام والمسك والعنبر والتبر والبرهمان ، ولولا السواد فى العين مانظرت الى الدنيا

يشرق اكما الخمر فى قطعان الزاج ■ نسما وطيبا واعلاج
وبماء الذهب كيتكتب التاج ■ ونقش لقبقاب العاج
ماريت افلبياض سوى خمسا ■ معروفين بالثقل ولبراد
ملح وجير به تكسا ■ وارخام وعاج فالبياض اقداد
مبخوسين او قلها بخسا ■ تحت لقدام ايجرعوا النكاد

وارفاعت لسوام ❀ تعرف للاسمر
شهد لعسل وامدام ❀ والمسك والعنبر
والتبر حين يغنام ❀ والبرهمان لحمر

. . .

لولا السواد فالعين ■ ماترمقى الدنيا

وتفخر السمينة بأنها ان جلست اشبهت جيشا وان مشت تبخترت كمركب محمل موسوق ، جمالها شحمها والشحم معشوق ، لاتحتاج الى رداء او كساء ، ولحم السمين لذيذ فى حين ان لحم الهزيل مذموم مردود ليس غير عظام وجلود . وأما النحيفة فكالقطة يبيت زوجها فى قنط وهم ونكد كأنه يغسل الموتى لايلمس غير العظام والجلود ، وهى تستغرب له كيف ينال منها مقصوده :

نمشى مثل المركب الموسوق ■ ويذا نجلس كنى امحلا
زينى شحمى والشحم معشوق ■ مانحتاج اردا اولا اجلا (2)
لحم السمين ملذوذ ■ واما لهزيل مردود
مارج اعظام واجلود
وانت يارقيقا مثل القطا ■ زوجك انراه افقنطا

I) لم يتضح لنا معنى هذه الكلمة
2) الكساء

ايبات فـــى مرتـــا ❀ هايم اهميم منكـــود

يغســل المـــوتـــى ❀ يلمس اعظام وجلـــود

عجبنى وكيـــف حتى ❀ يبلغ امـــعـــاك مقصود

فترد النحيفة بأنه شتان مابين الغزالة والناقة ، وبأن السيف لــولا رقته ماقطع ، وبأنها لطيفة ظريفة الطبع . أما السمينة فلاطعم لها ، يكفى أن يعرق جسمها قليلا ليحمض :

كان هى لغزالا تشبه الــجـــمــلا ■ او افلحضـــــور اتـــجـــلا

. . .

وامـــن الرقـــا السيف كا يقطـــع ■ ويشطر كل من صادف بدنـــو

مـــنـــى هـــيـــا اللطافـــــا ■ والـــطـــبع والـــظـــرافـــــا

ياصاحبت لـــغـــلافـــا

وانـــت بـــاسلا تشـــبـــه للزقـــا ■ تـــحـــمـــاض ابـــقـــل عـــرقـــا

وتفخر الطويلة بقدها الذى يغار منه البند والرمح ، وتشبـه القصيرة بكيس كالسلحفاة الملتصقة بارض او القردة تتدحرج فى مشيها ، وتستشهد بما يقال من أن الكامل الوافى فى الناس لايغدر وأن الناقص مستعد للغدر وأن الكامل من الثياب يستر والناقص يكشف العورة :

نطقت الطويلا قالت بالشـــــدا ■ مـــثـــلى ايصـــول بـــالـــقـــد

مـــنـــى ايغير بين القامات البـــنـــد ■ والـــرمح كـــيـــف يـــنـــحـــد

. . .

ومـــانـــت ياقصـــيـــرا خـــنـــشـــا ■ مثل الفكرون فالتراب يحبو

فمشـــيـــك اتـــــدردب ■ كـــنـــك قـــــردا

اسمع قـــول الناس واستعـــبـــر ■ واتأمـــل فيه انخبرك خـــبـــرا

الـــوافـــى فالناس مـــا يـــغـــدر ■ والناقص تزيـــان لو الـــغـــدرا

والوافى فالـــثـــيـــاب كيستر ■ واللى ناقص يكشف الـــعـــورا

فترد القصيرة تشبه قامة محاورتها بقامة الـــزرافـــة وبـــأنها تدور كالمروحة حين تهب الريح ، وتفخر عليها بأن السهم على قصره يذهب ابعد من الرمح ، وبأنها لاتكلف زوجها كثيرا فى المأكل والملبس فيبيت فرحا ،

وبأن فى القصر النقاء والطلاوة والذكاء وخفة الطبع ، وبـأن الطويلة سرعان مايصيبها الحدب :

بالريح كاتدور مثل الرفرافـا ■ ياقامت الزرافـــا
السهم شبر هـــدى ■ حصلات كيودى
اعـلى الرمـح كيعدى

أنا فاكلى واكسوتـى نـرفـق ■ بالراجل وانبيتو فرحان
لقصـر فيه انـقـاوا ■ والطبع والذكــاوا
بـانـت اعليه اطـلاوا

وتفخر المدنية على البدوية بأنها ليست مثلها تدير الرحى وتنام عـلى التبن وتخرج للقطف فى الصيف وتمخض اللبن ، وتعيرها بـأن الـعـرب مكشوفون دائمو العذاب والشقاء ، وتفخر عليها بأداء الصلاة واقامة مختلف شعائر الدين وبنقاء الثياب وستر الوجوه :

مانطحن ارحـى ما انبات فـاغبن ■ مـانـرقـد اعلـى اتـبـن
مانحترقـو فالصـيـف باللقطـا ■ ماندحاو امع امخيض شكـوات

. . .

لـعـرب مكشوفـيـن ■ فاشقا اكثير واعذاب
واحنا الصـلا والديـن ■ وانـقـاوت لثيـاب
بـوجـوه مستوريـن ■ عـن لعيون فـاحجاب

وتجيب البدوية بـأن جمالها معروف يشار اليه لايحتاج الى لثام او سراويل ، يشرق جسمها كالياقوت أو الذهب ، وهى ليست كمعيرتها صفراء توشك أن تموت شبيهة بأعشاب الظل سرعان ماتذبل حين تهب الريح . ثم ان سكان البادية يقضون اوقاتـهـم فى الصيد والحفلات ، يعـمـرون الخلوات ويؤمنون الخائف . ومـن راح ضيفا عندهم لابـد وأن يبيـت ، يتنافسون فى الفروسية واقتناء الذهب والخيول ولايعرفون غـيـر السخاء والاحسان والكرم والصدق :

العربيا زيـنـهـا مـنـعـوت ■ ماتحتاج الثام اولا اسراول
وابدنها يشرق اكما الياقـوت ■ او الذهـب النايـر الشعال

واما انت يالصفرا قربت اتموت ■ اربيع الظل ابلهوا يـذبـال
. . .

بالصيد والفرجـات ■ كنقطعو الازمـــان

وانعمرو الخلـوات ■ وانأمنو الخوفـان

واللى ايروح ايبات ■ من ساير الضيفان

نتعاند عـل الكادا والمـركوب ■ والـذهـب فـوق لركـوب

والسخا ولحسان ولكرام وصدقا ■ نزلـوا جـمـيـع رفـقـا

وتفخر العجوز على الشابة بأنها لم تعد تلد فأراحت نفسها وزوجهـا من هم الرضاع وبكاء الصغار ، طعمها لذيذ يشتهيه الـذوق شبيها بطعـم التين الذى لايحلو الا بعد يبسه ، ثم ان القادة والفرسان لايركبون الجذع الصغير ويفضلون عليه الفرس المكتملة يذهبون بها للمبيت فى أى مكان :

اقطعت الـولـدا واتهنـيـت ■ واتهنا زوجى وصبت امناى

مانكسب غير الزبون فالبيـت ■ مـاعندى مصاص ولا زواى
. . .

طعـمـى الذيذ وابنين ■ للـذوق فيه شهـوا
. . .

ماكتراشى (I) التـيـن ■ يـحـلا اذا يـلـــوا
. . .

القدوات اضراغـــم الفرسان ■ افرسنان الحرب والحملات

ماقط ارضوا يركبوا الجدعان ■ قالوا لك فامثالـهـم كلمات

اركـب كارح ايبيتك فـرحان ■ لاين ماعولت بـه اتـبـات

فتجيبها الشابة معيرة اياها بالتجاعيد ، تدعوهـا للنظر فـى عينـى واسنان كل منهما ، وفى جيدها الذى تغار منه الغزالة ، والوجـه المضيىء والجبين الوضاح وثغرها الشبيه بالشهد وريقها الشبيه بمدام معســول ، أما العجوز فان طبعها شرس نخر وكذلك قولها والفعل ، كـمـا أن السـم يخالط جسمها ، وريقها مهلك ، ثم ان الناس لايمدحون غير الفتى الصغير سواء في نبات أو مأكول ، أما غيره فيحطب وتوقد به النار ، ومعروف ان

I) الاترين

العجائز لايدخلن الجنة (1) ؛ وان الكبر مذلة ومرض اولى منه القبر ، وليس يحمد الكبر فى غير الدنانير :

قالت لها الصغيرا كيف اتشبهنى ■ بـاكـمـا شـك المـتـنـى
انظر اترا العينك وانظر العينى ■ وانظر اترالسنك وانظر السنى
. . . .
والجيد منو غارت الـرشـا ■ والوجه ايلوح ولجبين اصباح
والمـرشـف شاهـد ويغشى ■ والريق امدام فى اعسل لجباح
طبعك اقـبـيـح امسوس ■ تولك امع افعلك
. . . .
السم فـيـك مـدسـوس ■ ريـقـك كيهـلـك
. . . .
اجميع ماهو افتى مشـكـور ■ فاجميع انبات الارض والمأكول
فالـقـاح الارض كلها واشجـور ■ كل فتى منها ايصول وايقول
والشارف يـحـطـب بالشاقـور ■ يصلاح للنار اشهير معقول
واللى اعـجـوز قـطـعـى ■ ماتـدخـل للجنا
لـكـبـر فـيـه امـذلا ■ ومرض ابغير علا
لـقـبـر بـه اولى
. . . .
ماهو لكبير امليح الا فالمضروب ■ مسكـوك امـوهـوب

مـلاحـظـة :

بلغ ولوع الشاعر الشعبى بفن الخصام انه لم يقصره على الاشخاص وانما تخيله فى النبات والحيوان والجماد وبعض مظاهر الكون . وقد سبق أن عرضنا لخصام بين الورود والازهار (2) ، ونـريد ان نـقـف قليلا عند ألوان الخصام الاخرى

فمن الخصام بين الطيور مايقدمه محمد بن على المسفيوى فى البستان حيث يعرض لمحاورة بين أم الحسن والكنار . فأم الحسن تتهم الكنار بأنه

---

1) اشارة للحديث النبوى الشريف «اما علمت ان العجائز لايدخلن الجنة» يعنى انهن يدخلنها شابات

2) انظر الفصل الاول من هذا الباب

يحسدها لجمالها ويعيرها بين الطيور ، وبأن محاولاتـه فى التقرب اليها لن تجديه ، وسيظل جسمه يحترق بنار الاكدار تبدو آثارهـا عـلى وجهه الذابل المصفر من هجره لوطنه ، فقد أصابـه الغرور وحضر الى بلدهـا يسعى الى المجد ولكنه لم يدركه ، وهو شقى أسير مقصوص الجناح مسقوم الذات ، ومع ذلك يريد ان يبرز عليها ويتفوق :

ابغضتنى واشمتنى بالعار من لطيور

ليس انفعتك فى امحبتى تحزار

مـكـواك فـى جسمك نـار

ومـن لـكـدار

عن جسمك لون الضنا ولصفرار

ومـن لـغـرور

جيت لبلادى ولا دركت شان

ولا عـمـرت بـك اوطـان

فـى كـل آن

تصفار وتدبال ابلهجر يرقان

. . . .

طول ايامك افلشقا امع السجان

أسير عـادم الجنحان

حـتـى لـبـدان

مسقوما وانت اتعول يا ولهان

عـنـى اتـران

ويجيبها الكنار بأنه يعذر فى حاله لان العشق وهـوى الفاتنات هما سبب الهموم الساكنة فـى جسمه ، فقد اتى بـه صغيرا مـن بـلاد العجم وأدرك مقاما رفيعا لترنمه بالانغام فى أوقات السرور والهناء ، حيث يتصدر مجالس الانس كالسلطان تحيط به الفاتنات والفتيان ، يهديهم الحـنـان ويرحبون بأنغامه المتفننة :

دار لهموم لوكان اتعرفى الساكنا افلجسام

فـامصايب لعشق واغـــرام

بـهـوى الـــريـام

اتعذرى حالى اولا تزيد اكلام

لـــيــا اتـــروم

جابونى ونا صغير من لعجام

وادركت اعلو وامقام

طـــول الـــدوام

كانلاغى وقت لهنا ابكل انغام

ولا انـــــام

. . . .

تلقانى وسط لبساط كالسلطان

بين الـــريـــام وشبان

نـهـدى احـــنـــان

واكذاك فى شغلى ابغيت اليتقان

قـــالـوا اهــــلان

وتنطق ام الحســن بعد هــذا تعيره بـأن قلبه فــى حريق وضيق ، ولــم يجد من رفاقه من يشفق عليه ، أخذ بحيلة وسجن وعزل عنوطنه ، لاصديق له بين الطيور ، هائم فى قفصه دائم الظمأ والجوع متغير الالوان

قلبك امن اجفاك احريق

وانـــت افضـــيـــق

ويحك ما صبت اليوم قلب اشفيق

بـيـــن الـــرفـــاق

سجنوك ابحيلا اولا ايليك تدريق

مالك فالطيور اصديق

ولا ارفـــيـــق

عن وطنك معزول ماتعرف اطريق

. . . .

وانت ياعجمى اعلى لبدا ظمآن

بـالـجـوع انخيف عـيـان

واعلى اللوان تختلف وانت افلقفص هيمان

وسط لـعـفـان

ويرد الكنار معيرا محاورته بأن وجهها أسود كقابها ، تخرج فـــي الليل شبيهة بالجان :

وجهك اكحل ابحال قلبك

وايلا ايبان الليل تخرج انت من لغطان

امـشـيـل جـــان

ثم يتدخل السمريس ويصلح بينهما ذات البين

ومن الخصام بين الجمادات ماذهب اليه خيال الحاج محمد بـن عمر المراكشى حيث تمثل حوارا بين القلة والغراف فى قصيدته التى يقول فى حربتها :

الخصام الكثير أفاهمين توضح شلا يوصف ▪ والكلا والغراف ▪ داروا باتنين الخصومـا

باتوا فالمعيار مالرتاوا اولا هم قصروا

وفيها يقول على لسان الغراف يعير القلة دون خوف بأنها غدت زائدة لايحتاج اليها بعد ان استغنى الناس عنها بالخوابى التى تملا بالماء وتبخر بالعود ، وهى لم تشاهد الركوات المختلفة الاصناف تحمل فى همة وشأن متبخترة على البغال لتملا وقد وقف عندها الحراس :

نسمع فالغراف ▪ قال فاجوابو ولا خاف ▪ للكلا فالتعناف

شيطـت يـامـدمـومـا

لخوابى بالمـا كايعمرو ▪ بالعود اتبخرو ▪ ماشفت ركـوا اولا انـظـرت عمرك وقـاف

عـنـدو ركـوات اصـنـاف

دركوا هما واحكوما ▪ دايم عل لبغال كيعمرو ▪ بالما يتبخترو

وترد القلة بأنه اولى بالغراف أن يخجل وقـد استغنى الناس عـنـه

بغراريف الخزف والبلور الجديدة (I) المحيرة ، تشتهى العين ان تراهـــا زينة فى الدور الكبيرة تقدم فى المناسبات . أما الغراريف مثله فملقاة فى المطابخ شظايا معيفة :

جاوبت الكلا اسريع قالت هذا الغراف ▪ من شيط ياعراف ▪ مـاجـاتوشى احشومـــا

ماشاف اغرارف ادلبديع وبـــلار ايحيرو

اعشاقا مهما اتشوفهم فيهم مايتشاف ▪ موجود غير الناف (2) عـــنـــد الكبرا مفهومـــا

فى ساعت لفراح بستنا (3) حاشا مايتوخرو

وابحالك مرمى افلكشاطر مابين اشقاف ▪ اشطايا حين اتعاف ▪ طـــارت منو شلقوما

تركوه استغناو ابلــغـــرارف الا يتغيرو

ومن أروع الخصام بين مظاهر الكون مايتحفنا به العيساوى الفلوس فى قصيدة «النجمة» التى تصور الصراع (4) عليها بين اللــيــل والنهار ، يقول فى حربتها :

سمعوا اخضار ماجرا للضى البهيم

عن حسن النجما اتحاربو فى ساير لاكام

وانصار الضى وحــازهــا الرسمو وانزاح اللوم

وهى فى الحقيقة قصيدة رمز الشاعر فيها بالنجمة للحريــة وبالليل للاستعمار وبالنهار للوطن . فقد اشتد حزن الليل وبكاؤه وأنينه وطـــال به السهر ، وسأله قومه عن سبب حاله فأجابهم بأنه اختفاء النجمة وهجرها

(I) المقصود فى المحاورة الغراف المصنوع من الفخار

(2) الكلمة من الدخيل الفرنسى ، بمعنى جديد

(3) بمعنى زينة وهى من الدخيل

(4) سبق أن رأينا فى الفصل السابق ألوانا من الصراع بين بعض مظاهر الكون وخاصة بين الليل والنهار ولكنه لم يكن فيه خصام وحـــوار كهذا الذى نمثل به

له ، واستغربوا لذلك وقد ضم تحت اجنحته كل النجوم وطلبوا منه اسمها ونعتها فرد عليهم بأنها الحرية لاتخفى ، يريد أن يذهب اليها فى أى أرض أو بحر تكون ، فقالوا له انها كانت من قبل فى القيروان :

والليل أقرا حزنو من الجفنى ■ كيهدر ويزيم ■ قالوالـو نـاسو اشبيك خبرنا يالهـمـام

قـال لهم النجما اخـفـات عنى ■ واهجـرت الـنـوم

قالوا لـو جمع الـنـجـوم ■ تحت اجناحك لفحيم

واتقول النجما اخفات لك ياصاحب لحكام

ورالنا سمها ونعتها لاتبـقـى مهموم

قال الحريا ابلا اخفا سماها لعظيم

فاشمس ارض اتكون اولمافا بحور رسام

قالوا فالقيروان قاطنا كانـت قبل اليوم

وذهب مسرعا الى القيروان وسائر بلاد تونس فلم يعثر لها على اثر ، وبعث جواسيسه يبحثون عنها فى كل مكان ، وطالت به السنون ينتظـر وهو مهموم حزين . ثم جاءه الخبر بانها فى حوزة النهار حيث يوجد سلطان فى المغرب يمتطى جوادا ملجما مستعدا بجيشه للقتال . فتاقت لها نفسه وهيأ جيشه كذلك ، وكانت مقابلة كاد فيها سلطان النهار ان يأتى على الليل بسيفه ، وخاطبه بأن طالب الحرية ينبغى ان يكون فارسا مقداما وانه هـو صاحبها منذ اليوم :

جاو الجساس جمع قالوا لو يالغريم ✻ جبنا خبر النجما انتيا فارس ضرغام

حاجبها مير الضيا افرسمو وانت مغموم

اوجدنا سلطان فالضيا دون شكا فالغرب امكيم ✻

وجندو للحرب واجدا بالرمـاح ولحسـام

واهمام الضى اشجيع عن اجوادو امسرج ملجـوم

قال الـداج ابغيـر توقار ✻ لا بد ما نحور النجما بسقارو

لوطال الحرب افليل وانهار ✻ عندى اجنود هما للحرب اصهار

قام الضى ابسيف بتـــار ✻ واهوا على الداج كاد يقطع اتارو

واخرج سلطان الضى للوغى ندا يا لبهيم *

من راد الحريا ايكون فارس حــربى زطــام

انا مول النجما اليوم ولا من بعد اليـــــوم

ورضى الليل بالهزيمة وسلم أمر النجمة للنهار الذى عفا عنه وامره بالرحيل ، ولكن الليل امهله ورجاه أن يكون له عبدا يخدمه فى كل شىء ، فوافقه النهار ، على أن تعقد بينهما شروط تحدد مدة اقامته وتعود علــى البلد بالخير (I) :

انطق الداج وقال للضى انا لك اخديم * وانتظم لحوال كلها كعادت لغلام

أمر بجميع ما تريد انفعلو محتوم

وادوا الضى وقال للدجا هذا الامر الزيم *

خبرنى لصلاح ارضنا شيقدك من عــــام

قال هك هـــوام ياما بالشرط المبروم

ولكن الليل لم يلبث ان تنكر للاتفاق وغدا يحشد جيوشه ويقـــوى مركزه فى الساحل والداخل ويكسب له اعوانا يتقوى بهم ، فما كان من سلطان النهار الا أن ارسل له كتابا يستفسره عن هذه الحشود ، فأجاب النيل بانه يسعى بكامل استعداده لحيازة النجمة التى طالما بحث عنهـــا ولاقى الهموم والاهوال فى سبيلها ، ورد النهار بان نجم الحرية فى أرضه منذ الف عام كما يشهد التاريخ :

احرك الليل وجا على لبحر كيرحل ويقيم *
وانزل فالساحل كيف ماذكرت وزاد القدام
واعمل صدقان احداه واصبح شملو ملموم *

واخرج سلطان الضى فى امحال كفجر ابسيم
وارسل للداج اكتاب بالصواب وحسن لنقام *
قالوا شتريد افأرضنا لاش اجمعتى د القــوم

وادوا لبهيم وقال جيت للنجما بالتقويـــم *
هذى مدا جوال عنهـــا فالعــــرب وعجــام
واحجبتها عنى وحبهــا خـــلانى مهمـــوم *

I) اشارة الى عقد الحماية المبرم مع فرنسا سنة 1912

خبرنا بالنجما اللي اعشقتنى حتـى نفهـام *

وانطق سلطان الضى للدجا قالوا يالئيـم

قال الحريا اغرامها فى قلبـى مرسـوم

قال اهمام الضى للدجا ياك الكذب اذميم *

نجم الحريا افأرضنا هـذى الف عـام

طالع لتاريخ الغرب شاهد اعلينـا كم ارسوم *

وهيأت الظروف لليل فحكم بسلطانه البلاد مستوليا على خيراتهـا طاغيا ومتجبرا ، يقتل ويسجن ويطرد ويشرد ، واحس النهار بقومه ثابتين واعين لقضيتهم فدعاهم الى ضرورة الاستعداد للانتقام وتخليص البلاد من الليل الخائن ، فاستجابوا ، طائعين لاوامره واعتبروا انفسهم حماة الشعب مستعدين للتضحية بالارواح . واعترف لهم سلطان النهار بهذه الشجاعة المعهودة فيهم يوم البراز . ولكنه نصحهم بان ينهضوا للتعليم وان يطيعوا رأى زعيمهم :

فاف اهمام الضى بالدجا خوان امن اقديـم

واثبت اليخلاص امن اقوامو وافجا لغيـام

واعرف ما دار الدجا من مكر للـه مضيـوم

واخرج من لحجاب للكباح امحزم تحزيـم

شار اعلى قومو الخالصين ايشدو لحـزام

بلسان الحال ادوا وقال لهم اليـوم اليـوم

. . .

قالوا قوم الضى لاخفا قولك قـول احكيـم

احنا لك ارعيا ابلا اشر الركابك خـدام

أمرنا واتشـوف منـا ما يفجى لهمـوم

نحن حماة الشعب دون شك خادم واخديـم

نحن لشبال اشهود عندنا فالتاريخ العـام

ليس انبخلو بروحنا اعلى ذا الشعب المضيوم

قال اهمام الضى للرعيـــا بلسان احليـــم

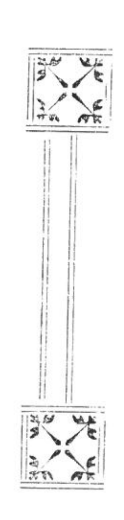
ندريكم افساعت لوغـامـــا تخشـــاو آلام

انتم المخلصين امن الصبا مانا جاحدكـــوم

لكن خذوا وصيتـي نهضوا للتعليـــــم

تبعوا رأى الزعيم صاحب الفكـــر واهتمـام

هذى روحى وأرواحكم هذا العارف يا قـوم



الفصل الرابع

في

حمى الله والرسول

ليس غريبا والشعر الشعبى مرآة تنعكس عليها نفس منشتيه ومردديه ، وان فى غير وضوح وصفاء ، وليس غريبا كذلك وهذا الشعريقوم بوظيفة — ولو محدودة — فى نطاق التوعية الروحية والتعبير عن شعور الجماهير الدينى ، أن تكون المدائح النبوية والتوسلات من أغنى الموضوعات التى شغلت ذهن الزجال المغربى وملأت قلبه وعقله . فافاض فى القول كاشفا عن خالص حبه للرسول عليه السلام ، مادحا ومصليا ومتوسلا ، ليس له من غاية غير زيارة قبره والتملى بمشاهدة نوره عساه يكسب عطفه وينال شفاعته ويحشر فى زمرته يوم القيامة .

وقد سبق أن رأينا فى أول الفصل السابق أن الشاعر الشعبى ابتعد عن فن المدح الا ما كان منه فى الرسول عليه السلام فانه انطلق فيه ، الى حدان تسمية المدح أو «المداحى» لا تعنى عنده غير المديح النبوى .

ولم يكتف الشاعر الشعبى بارتضاء القول فى المديح النبوى ، وانما جعل منه فنا قائم الكيان ناضج الصور مكتمل الخصائص ، تناول فيه سيرة الرسول بما فيها من صفات وشمائل ومعجزات ، عرض قصصها فى قصائد أطلق عليها المعراج و «الخلوق» اى ميلاد الرسول ، و «الوفاة» يعنى وفاته عليه السلام . وقد يتناولها عرضا فى قصائد التوسل والقصائد التى سماها « هول القيامة » حيث يتحدث عن شفاعة الرسول فى أمته ، وفى قصائد الحنين الى البقاع المقدسة والشوق لزيارتها ، وهى قصائد يمتزج فيها ذكر هذه الاماكن بالحديث عن الحب والوجد . كذلك غدا التوسل غرضا مستقلا مقصودا لذاته مستوية معانيه ، وان اتى عرضا فى قصائد المديح .

وكما حبذ مدح النبى فكذلك حبذ مدح ابنتـه فاطمة وحفيديه الحسن والحسين ومدح الاولياء والصالحين تبركا بمقاماتهم وكرامتهم وتوسلا بها الى الله .

وكانت المواسم الدينية ـ وخاصة ذكرى المولد النبــوى والموالــد الطرقية ـ أعظم مناسبة لانشاد هذه القصائد . وكان ضريح سيدى فرج بفاس ، منذ منتصف القرن العاشر (1) حتى اليوم ، من اهــم ملتقيــات حفاظ الملحون فى ذكرى مولد الرسول ، تسرد (2) فيه القصائد التى تحكــى قصة السيرة وخاصة منها المطولات التى يندر تداولها ويقل اقبال الناس عليها ، والغالب ألا تلقى فى هذا المحفل غير قصائد كبار الاشياخ أمثــال المغراوى والنجار وابن على وغيرهم من أعلام الفن .

حب الـــرسول

عبر الشاعر الشعبى عن حبه الصادق للرســـول ، فبدت فى تعبيره بعض سمات الحب المعروفة فى شعر الغزل كالفراق والهجر والحنين والبكاء، تعلوها مسحة من روحية المعنى وسمو العاطفة ، وتتخللها بعض الانفعالات والمواجيد البسيطة الساذجة .

فحب الرسول عند النجار علاج للقلب لا يستطيــع طبيب أن يداوى بغـــيره :

يــا مسعدنا به حب للقلب * اعلاج لا امداوى من غير ادواه

اشتعلت نار غرامه واتقدت فى صميم مهجته فلا يطفيها موج البحــر الزاخر لو فاض ، وبكت عينه من الشوق حتى رسمت دموعه سطريــن على الخد ، وغاب النوم عن عينه فى كل وقت ولم يعد يستطيع الاكل من السقم والهيام ، وهو يطلب ممن كواهم الشوق مثله ان يعذروه ، ويرجو أن يمنح نظرة فى الرسول نور الحق السامى لانه علاج دائه :

شعلت نار اغرامــــى * واكمات فى اصميم امهاجى قبل الصيام

موج البحــر الطامى * لو فاض لاطفاها بالداجل والديــــام

---

1) انظر الفصل الاول من الباب الثالث لدى تعليق على قصيدة ابن عبود المعروفة بـ «الحربى» .

2) انظر الفرق بين السرد «السرادة» والانشاد فى المدخل .

واكتب دمـع انيامى * سطرين فوق سحن (1) الوجن لهل لملام

بعد اجفيت امنـامى * فالضى ولغياهب واضحى قوتى اصيـام

عذرونـــى فهـيامى * أمن اكواو كيفى واكماو اعلى السقـــام

نرجـــا طب اسقامى * وانمتع النظر وانفوز بطيب لمـرام

نور الحق السامـى * صلى اعليه ربى وعلى آلو اكرام

وابن على فى « جل الصلا مهديا » يعشق الرسول ومقامه منذ صباه، ولكن البعد يكيد له ، فهو فى حالة يرثى لها من شدة السهر ، وقد حطم الفراق جسمه وأوهن قلبه ، وفاضت دموعه حتى ان غـــرفة منها تفـوق الامطار . وعبثا حاول أن يخفى هواه ، فان عليه شواهد تكشف عن اسراره الدفينة ، اذ لا ينفع فى الهوى كتمان . وعرف أهل الغرام داءه ، ولكن لا علاج له غير زيارة كنز غناه ومنبع سروره وسلواه :

عشقى امن الصبا فمقامو والبعد كد لى والبيـــن

لحال حالتى مدالى نـــرعى اكواكب الديجـــان

هد لفراق ديوان اسيارى ولخبير (2) صار اوهين

غرفا امن ابحور ادموعى ولا اعوارض من امزان (3)

اشحال ما خفيت اهوايا والبين افلمهاج اكنـين

خبرو اشواهدى بسرارى ما فاد افلهوا كتمـان

وهل لغرام عرفوا ديا مالى اطبيب فالبريـــن

الا اوصول كنز اغنيا هـــو السرور والسلوان

ويعبر ابن الوليد عن حبه للرسول بأن فيه عز روحه وهواه :

آه اعلى بهـــواك * يامن روحى فهواك عزهـــا واهـواها

وقد تمكن الغرام من كبده وسكن الحب جسمه ، وهو حب خفى ، ولكن مرضاه كثيرون ، اصابه فشقيت أعضاؤه وحرمت عيناه النوم ، يقضى

---

1) فى الفصحى : السحنة بفتحتين بمعنى الهيئة .

2) الاسيار الدواخل والخبير القلب .

3) اعوارض امن امزان اى سحب ممطرة ، وهـى كذلـــك فى الفصحى اذ العوارض ج عارض وهو السحاب الذى يعترض فى الافق ، أما امزان فجمع مزنة وهى السحابة البيضاء او المطرة .

ليله من الاشواق فى مصارعة الافكار والهواجس ، عيناه ترفرفان وجوارح قلبه ترجو الوصال :

وانت اللى اغراماك دك اطنابو اعلى اكبادى
والحب ولمحبـــا ساكـــن لعضـــا
واخفـــا وكثـــرت المـــرضـى
صعـــن واحـــرمـت الغمضـــا
اشـــاق لعضـــا
وانبات امن اشواقى فالداج نصرع لعزايم
والغير فى امنامو متهنى كيبـــات نايـــم
عينـــى اتبـــات رفـرافـــا
واجوارحى وقلبى ترجا لوصال ليل وانهار

والحراق يخاطب محب الرسول ان يفنى فيه اذا اراد أن يتـم لـه الوصال ، ويشهد نور الحضرة المحمدية ، ويرقى سعده على جميع الاكوان حتى يغنيه عنها بنظرة واحدة . فمن كان هذا الحبيب نصيبه فهو يشفى من كل الاسقام والاضرار ، وتشرق شموسه واقماره وتأتيه البشائر فى كل وقت وحين :

يامن ابغى اوصال احبيبو * افنـــا اتشوف نور الحضرا
وارقى على لكـــوان اتصيبو * يغنيـــك عنهـم ابنظـــرا
من كـان ذا لحبيب انصيبو * من كـــل باس حالو يبـــرا
تشرق افلقلوب اشموسو واقمارو * واتجيه افكل وقت ابشـــارا

اما الغرابلى فيشبقى عقله من الحب ويشتعل جمره فى ذاته ، ولـو فاض موج البحر لما اطفأ نار اشواقه . من ذاق طعم الهوى ينصفه ومـن لم يذق لا يعذر ، ليس به غير حب الهادى ضوء عينيـــه ، فهو يتمنـى أن ينظر اليـه :

آه اعلى بلحب عقلى شـــاق * واجمار البين اكدات فسفاقى (I)
ألو فاض ابموجو بحر دفـــاق * محـــال ايبرد نار لشـــواقى
ما يعذرنى فهوى من لا ذاق * واللى ذاقوا يعطوا تحقـــاقـى
بيا حب الهادى ضى لرماق * هـــل نظـــرا فبهاه برماقى

I) اتقدت فى دواخله .

وعنده ان حب الرسول ملك الروح والعقـــل والاحشاء والاكباد ، وترك عيونه ساهرة ودموعه سائلة ، وليس يتمنى الا أن ينال غاية مراده ويرتاح مزاجه المكدر ، وهو مملوك يريد ان يكون فى كنف سيده حتـى يعيش فى رغد وهناء ، بل انه يهرب من أخطائه يريد اللجوء الى حماه كما تفر من اعدائها العيس والغزلان :

حبك املك الروح ولعقل واحشايا واكبادى * وانجالى (I) بدموع ساهدا
هل يا مدرا انال بها غايت امرادى * وترويع اخلاكى الناكـدا
آش ايلا المملوك دون سيدو فحماه ايفادى * د ينال العيشا الراغـدا
اهروبى لحماك امن اخطايا ما هرب الشادى * والعيس اللى ظلمت لعــدا

واما الفلوس فحب الرسول عنده فرض على المسلمين دائـم باق ، به يروق أهل الايمان ، وهو رونقه وحلته المنمقة ، وهو يقوى شوقه ويروى المشتاقين ، بل ان حبه كان سابقا لوجوده مسجلا في صحيفته بقلم القدر . ويرى أن كل من لا يملا قلبه حب الرسول فهو عامى الابصار غارق الذات فى بحر اللهو ، هائمفى الشقاء ، تمزق ريحه أعضاءه :

حبك فليسلام فرض باقى عن كل اخلاقى * بـــه هـل ليمان رايقـا
حبك يا عين لوجود عندى هـــو روناقــى * واحلول اكساتى امنمقا
. . .
حبك يا سلطان كـــل تقى قوى تشواقى * به اروات اقوام شايقـــا
ونا قبل انكون كان حبك سابق فوراقى * بقلام القدرا الصادقـا
قلب الا سكنو اهواك باقى عامى لرماقى * داتو عل ليام غـارقا
فلجوج اللهو لقصيف حتى هام افلشقاقى * واعضـاه ابريحو امزقا

اوصاف الرسول وشمــائله

وانطلاقا من هذا الحب الصادق العميق غدا الشاعر الشعبى يستعرض أوصاف الرسول صلوات الله عليه يقتبسها من شمائله وخصائصه المعروفة. فهو عند الحاج اعمارة غاية الجمال الهاشمى القرشى المدنى ، حبيب الله ،

I) العيون وأصلها فى الفصحى من النجل بفتحتين سعة شقة العين.

وقرة الابصار ، وعين الهدى الهادى ، ومصباح الانصار ، وعين الرحمة ، وسيد السحرين :

زين الزين الهاشمى القرشى محبوب البارى

المـــدنى قـــرت لبصـــــار

محمد عين لهدا مصباح انصارو

عين الرحما سيـــــد امـــن اسرا

وهو عند المغراوى فى « عين الرحمة » سيد الرجال المصطفى صاحب الشفاعة والخاتم :

ازغرتى ازغرتى (I) اعلى المصطفى سيد الرجـال

عـــين الرحمـــــا صاحب الشفاعا والخاتم طه

وهو جميل الملامح مشرق الانوار ، المخصوص بغاية الكرامة ، جعله الله رفعة وشأنا وبعثه رحمة :

هذا عرس اضيافت النبى محمد زين لحروف صلى الله عليه

لازم اعلينا انجمدو اسم القيــوم ابديع لكـــوان

وانصلـــو اعلى الرسول شارق لنـــوار انبينـــا

المخصوص ابغايت لكـــرام جعلو رفعـــا وشـــان

من بعثو رحما اوجاد مـــن فضلو بـــه اعلينا

وهو تاج المرسلين وخاتم الانبياء الكرام ، قدره كبير لـــم يحصر وصفه اكبر العلماء ، سبحان من خلق صورته وكساه الحسن والكمال ، ومنحه الحرمة وعلا درجته الرفيعة . والنظرة الى جماله لا تفدى بمال ، وكل من عشق غيره لم يجن غير الهول واللهو :

من مدحو يدخل تحت ظلو يوم القياما

لنو تاج المرسلين وانهايت لنبيا لكرام

قدرو اكبير ما تنهى وصفـــو عـــلاما

سبحان من اخلق صورتو واكساه بلحسن الكمال

اعطـــاه الحـــرمـــا

I) زغردى (انظر آخر نص بهذا الفصل) .

ادرجتــو العليــا عــلاهــا

نظرا للعشاق فى اجمالو ما تفديها امــال

هول راسو كل امن اعشق غيرو كيتــلاها

وهو عند النجار سيد الدنيا ووجيهها ، صاحب المعراج وخير الاولين والآخرين ، ليس يشابهه أحد :

والغدار اجفيه واعلم سيد الدنيا اوجهها من لا حد سواه

طــه مول المعراج خير من ياتو والى فــاتـو

انه المفضل طه خير الانام :

نحسن به اختامى * محمد لمفضل طــه خير الانــام

لا مثيل لجماله ، ومادحه لا يخيب ولا يهمل غزله :

حسنو مالو ثانى * حاشا ايخيب مداحو غزلو ما يبور

وعند النجار كذلك انه صاحب التاج واللواء والخاتم ، وانه سيــد الابرار ومشرق الانوار :

لمفضل سيد لبــرار * طــه شــارق لنـــوار

صلــواع لى المختار * محمد مول التاج واللوا والخاتــم

ويصفه ابن على بانه صاحب الكرامات خير النسب عالى القدر :

واثنى بصلات لمفضل محمد صاحب لكرايم بن عبد الله

خيـــر النسب اوعــالى القــدر

وهو الشفيع الذى جاء بالفرقان ، وعين الهدى وسيد البشر :

صلى الله اعلى اشفيعنا من جا بالفرقان عين لهدا رسول الله

يا عشاق افسيد لبشر * عيننا فى اصلات لمفضل طه

وهو عين الوجود ، لولاه لما كان آدم او اى مخلوق ، ولما وجــدت أرض تسكن او قفر خال ، لولاه لما أرسى الله الجبال ولما وجدت بحور بأمواج تصوت كالرعد ، وبعجائب فى أعماقها تفوق لكثرتها ما فوق الارض وما يغطيها من موج ، لولاه لما كانت السماوات والافلاك تملأها الملائكــة تسبح بحمد الله دون انقطاع ، ولولاه لما كانت الحجب والكرسى والقلــم والعــرش :

لولا عين لوجود ما يكون آدم ولا يكـــون حتى مخلوق امعاه *
لا ارض اسكـان لا اقفـــر * ولا كانوا اجبال لجليل ارساها
لولا عين لوجود ما تكون ابحور ابلماج كرعود اتزكلم بمياه *
واعجـــايب فوسطها اكثـر * من فوق الثرى او موج اغطاها
لولا عين لوجود ما تكون اسماوات اكل فلك منهم بملاك املاه *
مشتغلـــين ابدا ابلا افتــــر * في تسبيح لله بصوات الغاها
لولا عين لوجود لا حجوب الاكرسى ما يكون قلم ابأمرو نهاه *
سبق باسم الله فالسطــر * واسم عين لوجود مقرون امعاها
لولا عين لوجود ما يكون العرش افعظمت استعجب مهما تنشاه *
خلق الحي عالـــم لامر * ايسبح ادوار به دارت معتاها

ويستعرض ابن على بعض خصائص الرسول ومعجزاته ، فهو صاحب الشفاعة ، وهو الذى انشقت له الارض وحضرت الملائكة بين يديه ، وهو المؤيد بالعز والنصر ، رضى الله امته للنعيم ، وهو الذى كانت تسجـــد الملائكة لضياء كوكبه حين يسطع ، وهو صاحب الاسرار والمعجزات من صغره ، دانت له النخلة ليجنى تمرها ، ونبع الماء بين اصابع يده ليسقى جنود جيشه وقد اطعمهم من صاع تمر ، وفر اليه الغزال وكلمه الضب ففهم كلامه وآمـن برسالته ، ودخل الغار مع رفيقه فستر بابه بنسيج العنكبوت وعشش الحمـام وشجر اليقطين ، وغرس عودا نخرا ذابلا فعاد بذكر اسم الله مخضرا وانبت تمرا طيبـا :

هذا هو صاحب الشفاعا نهل الذنوب لكثيرا واعدو بهـا مولاه
داخل حرمو ما يشوف شر * ونامنو اطلبت للـــروح افداها
هذا هو من انشقت اعليه الارض اجات لو املاك ابأمر امن اعطاه
لمؤيد بالعـــز والنصر * اماتو فالنعيـم لجليل ارضاها
هذا هو من كانت لملاك تنظر كوكبو حين يطلـــع تسجد لضياه
ويولى ايغيب عـــل لبصر * سبعين الف سنا ويطلع فوقاها

هذا هو صاحب لسرار امع المعجزات لــه ظهروا من حـ ـال اصباه

...

يوما كان افحـــالت الصغر * له النخل ادنات بتمر واجناها

. . .

صلى الله اعلى من انبع من بـــين اصباعو الما اسقا جيشو بعد اظماه

واطعمهم من صاع امن اتمر * من بركتو اروات والصاع اكفاها

صلى الله اعلى امن اهرب لغزال العندو اكلم الضب افهم الغاه

واشهد لـــو برسلت لبـدر * واصعد معصوم كان ملقاه اعلاها

صلى الله اعلى امن ادخل برفيقو للغار ولهبون اطلـــق غـــزل اسداه

واليقطين ابعرفهـــا انشر * واحمام العش دار بمهو وابناها

صلى الله اعلى امن اغرس عود امسوس بعد مـــا ذكر لسم الله

وارجع لو من بركتو اخضر * واطعم بتمر مختلف طعم احلاها

ويصفه العلمى فى « الشافي » بانه علاج كل مريض ، رفيع المكان سيد الموالى وقدوة الافاضل ، شريف القبول سراج الهـــدى وكـــوكب المعالى والطاهر المطهر والصادق القول :

جد بدوايا يا طب كـــل معلـــول * يا رفيع المأوى يا سيـــد لموالى

يا قدوت لفضالا يا شريف لقبول * يا سراج لهدا يا كـــوكب لمعالى

يا الطاهر لمطهر يا الصادق القول * ادخيل جاهك عندالله روف يالوالى

وهو عند ابن الوليد الزاد والعون واعز الاهل ورسول الله المختار وسيد الابرار :

فيك عاد الزاد العوين يا عز الوالدين

. . .

انت ارسول الله يا المختار * منك نور لنوار * وانت سيد لبرار

وهو الكامل البهاء :

يالمصطفى ضيف الله يا المختار * ياكامـــل لبها نزهى فبهـــاك

وجد الحسنين :

هل يا مضرا نلقاك ونشاهد نور ابهاك ياحمد ياطه يالمصطفى زين الزين ياجد الحسنين

وهو عنده جميل الوجه أسيل الخد أسود العينين :

انحيى ذاكالوجه الجميل ونشف فالخد الاسيل ونزهفالطرف الكحيل

وهو طيب المسك :

الصلا والسلام افكل ليل وانهار * اعليك يا الهادى طيب لمساك

ويمدحه ابن الوليد كذلك بانه تاج المرسلين ، اعطـــاه الله فمنـح الرحمة للمسلمين من عطائه اياها ، به تم الاسلام وصحت الهداية يـــوم هداه الله وتولى أمره وأجلاه من نوره ، وعلا درجته وشرفه ونصر بـــه الديـــن :

وانت لكريم اعطاك * والرحما من معطاك * للســـلام اعطـــاهـــا

بك يسلام المسلمين صح اصدق لمبين

صـــح لهدا بهداك * انهار الله اهداك * للهـدى هـــداها

ودها فى ليلت لثنين بك المولى لحنـين

يوم الحـق اتولاك * من نور اتجـلاك * ادرجتك عـلاها

شرفك وانصر بك الدين يا تاج المرسلين

انه سيد الثقلين ، اكرم الله مثواه ورفع درجات مأواه ، وسمـــاه الزكى بين الرسل ، وقرن اسمه باسمه ، وجعل الشمس تشعشع فـــى السماء بنور ضيائه ، وتزدان به الارض والسماء :

اكرم لكريم مثواك * وارفع ادراج مأواك * واسمك بين لرسال الزكى

واسمو مقتـــرن باسمـك

والشمس ابنور اضياك * شعشعت فسماها * زانت السما والارضين

بـــك اسيـــد الثقلـــين

وانه طبيب روحه وعلاج دائه ونفسه ، احسن فيه الظن ليداويه ، جعل الله صلاته فرضا فى مجالس المسلمين ، يحدث عنه العلماء ويؤلفون الكتب فيه وفى الصلاة عليه :

وانت علاج روحى والروح الساكـن افجسدى

وانت اطبيبهـــا واعـــلاج ادواهـــا

فيك حســـن الظـــن افداهـــا

وانت اللى الله امر بصلاتـك فــــرض لازم

اعلى امجالس أمتك وحدث بك كل عالم

ولفتهـــا (I) الـــولافـــا

واكدايا فى اكتب النساخ امصحح افلسطار

وهو مدد ونور وعز ورحمة للعباد ، وهو المبين الشافع فى المذنبين،

I) الراجح انه يقصد التآليف كما يفهم من السياق وليس الالفة .

من رأى صورته فاز بالكرامة ونال الكرم ، وتزوج الحوز فى جنة النعيم ، وشفى وغفر الله ذنبه بالنجاة من النار :

مدر شفتك نور اعز للعبادى

لله الشكر يا جد الحسنين

يا المصطفى زيـــن الزيــن

يا الشافـــع فالمذنبيـــين

يا المبـــــين

من شاف صورتك يامحمد فاز ابلكرايم

نـــال الكـــرام

وازواج الحور افجنات انعايم

وابــرا اراح واتعـــافى

والله يغفر ذنبو واقبط النجا امن النار

وهو الامام المهدى وخاتم الشهداء وعروس الملـــك وصاحب اللواء والحمد ، رقاه الله وشرفه وناداه :

سبحان امن اكرمنا بالمصطفى الهاشمى الامام المهدى

الشفيـــع لمشفع خاتـــم الشهـــــدا

. . .

الطاهر لمطهر عروس الملك صاحب اللوا والحمـد

مـــن ارقى واترقى واتشرف واتنـــادى

ويكشف الشاعر عن هذا النداء القدسى يخاطبه به الله ان يامحمد قد هديتك فأهلا بك فى بساطى فتقدم وطأه ، ليس لى حبيب يماثلك ولم أناد لحضرتى محبوبا ، خلقتك م ن نور النور ، فى صلاة أمتـــك عليـك غفران لاوزارها قليلة او كثيرة ، جعلتك شفيعا لامتك يـــوم الحساب وبدأت باسمك قبل خلق الكون قرنته باسمى وقدرتى وعزتى وكـــرم جودى ، من سألنى بك وجدنى فى غاية الاستعداد . لولاك لما كان عرش او كرسى او لوح او قلم او نبى يهدى او ملائكـة تاتيك منى بالرشد ، ولما كانت الاغاثة والجنة والنار والصراط والنهار ياتى فى اعقابه الليل ، ولما كانت الدنيا والبحر والارض والسماء المضيئة بالنجوم ، ولا الشمس

والقمر والكواكب الفريدة . لولاك لما كان آدم والخلائق التى خلقت من أجل العبادة ، ولما كان الايمان والصدق والمسلمون يهـــدون الى طريقى ، ولا حياة ولا ملة ولا صبر ولا زهد . لولاك لما كانت الكتب والعلـوم ولا قضاء الحق وشهوده وشهداءه ، ولما كانت الصلاة والصوم والحج والزكاة الواجبة فى المال ، ولا الفروض والسنن ولا العمل والدين . لـــولاك لما كان الرعد والبرق والمطر والخصب والشجر والطلح النضيد ، ولا الفضل والاستنجاد والعطاء ، ولا الحكم والحاكم والملك والقيادة ، ولما نال الاشياخ عندى غاية مرادهم بمدحك :

نادا، ربنا سبحان امـن انشاه واهـــداه الى الرشد
قال لو يا محمـــد هاك ليفـــادا
اهلا بك زد اوطا افبسطى يا للى مـا مثلك عنـــدى
احبيب اولا محبوب لحضرتى اتنادا
انا اللى اخلقتك من نور النور لمتك فصلاتك تفـدى
اوزارها من قـــل النقصان وزيـادا
انا الشفيع فيهم وانت الشافع فمتك يـــوم التندى
واســـك خالقو قبل الكون ابتدا

. . .

قرنت اسمى واسمك بقدرتى اعزتى واكرايم جودى
من اسأل بك اوجدنى غايت لوجدا
واعلم قال لو يا مختار انـــا اللى عند ظن عبـــدى
با لمعلـــوم يا كرمت لجـــدا
لولاك لا عرش لا كرسى لا لوح لا قلم لا نبى مهدى
لا ملايك منى تاتيك بالرشـــادا
لولاك لا ايغاثا لا جنا لا نار لا جسر صراط امعـــدى
لا نهار او لا ليل خلف ذا افهـدا
لولاك لا بحر لا دنيا لا ارض لا سما بنجوم اتكدى
لا شمس لا قمر الا كوكب نفـرادا

لولاك ما يكون آدم او لا يكـون بادى ولا عبــدى

لا خلايق اخلقتهم لاجل لعبـــدا

. . .

لولاك لا يمان الا صدق الا اسلام يهــدو النجــدى

لا حيا لا مل لا صبر لا زهــدا

لولاك لا كتب الا علم الا شهــود فالقرطـاس اتودى

لا قضا بالحق تزكى اشهـود البدا

لولاك لا رعد لا ميض اولا فيض لمزن وكم مــزدى

لا خصب لا دوح الا طلـح لا نضـدا

لولاك لا صلا لا صوم الا حج لا ازكا للمال الوبدى

لا فرض لا سنا لا دين اولاكدا (I)

لولاك لا فضل لا صرخ ولا يكون كف لعطا بيــدى

لا حكم لا حــاكم لا ملك لا اقيـادا

لولاك لا شياخ ابمدحك لعزيز يا حبيبى نالت عندى

هكذا بك اكمل لمرام والـــودا

ويصفه التركمانى بانه لا مثيـــل له فى الارض او فى السماء ، فى الغيب او فى الوجود ، سبحان الذى انشأه وأسعد به أمته ، هــو صاحب اللواء والحلة والتاج والورد والفرس النجيب ، وصاحب الخاتم والسر والمعجزات التى لا عد لها ولا حصر . من اجله خصص روض الجنـة رحمة للسعداء وعذاب النار للجاحدين ، لذا يرجـــوه أن يرأف به فانه صاحب الاغاثة يوم الشدة . وهو عروس يوم القيامة ، يفـــرج غمتهـا حين يشتد الهول ويستعصى الفداء :

انت والله ما فلرض امثيلك افالسما اوجد * وحدك فالغيب والوجد (2)

سبحان اللى انشاك واسعد بك الام الساعدا

انت المخصوص باللوا والحلا والتاج والورد * والفرس الناجب لمجـــد

والخاتم والسر أمعجزاتك شتـى امشاهدا

I) الكد والعمـل . 2) الوجود ، أما اوجد الاولى ففعله .

انت لجلك كان روض الجنا رحما المن اسعد * والنار اعذاب امن اجحد
رافا يا صاحب لغاثا عن ذا الشد الواكـدا

. . .

انت هو اعريس القياما فشهار الهول والنكد * بـين اهل القـرب والبعد
وانت فراجها اذا اشتد الهول وعصا لفـدا

أما الغرابلي فيراه نور كل الانوار ، المبرور الصادق الامين ، امـام المومنين ورحمة لاهل الايمان ، وأول الاولين وامام المرسلين :

أمحمد يا نور كل انوار * صلى الله اعليك يا المبرور
انت الصادق وانت الامين انت امام المومنين * انت رحمة ربى لهل ليمـان
انت أول الاولين * انت امام المرسلين * واعلا منهم رتبـا اوعز وشـان

ويخاطب الرسول عليه السلام بأن الله اختاره ورفع قدره واصطفاه ومنحه المعجزات ، لا سبيل الى حصر ثنائه ، لو اتخذت الارض صحيفـة والاشجار اقلاما والبحور السبعة مدادا لما وصف الخلق غير عشر معشار قدره وجاهه ، من نظر الى حقيقته ذهل عقله مهما كان ثابتـا ، لانه بشر وليس كالبشر ، اخباره فى التوراة والزبور والانجيل والفرقان وكتب الجفـر :

يامن جعلك ربى انبى مختار * وارفع قدرك عن سير الجمهـور
يامن اصطفاك الملك الجبار * بالمعجـزات الواضح والنـور
يامن سرك واثناك ما يحصار * لو كانت من لمداد سبع ابحور
والارض اصحيفا والقلوم اشجار * لا وصف الخلق اعشور من لعشور
الو انظرت احقيقتك لبصار * تذهل لعقول الراسخ واتفـور
لنك بشار اوليس كالبشار * واخبارك فالتورات والزبـور
والفرقان والانجيل والاجفار * خبرو بوجود حملك المبشـور

واما الفلوس فيصفه بانه التقى حبيب الله صاحب الحجة الموثقة ، وصاحب اللواء والتاج والبراق :

صلى الله اعليك يا التقى محبوب الباقى * يا مول الحـج الواثقـا
يا محمد صاحب اللوا والتاج والبراقى * لغرامك لخـلاق شايقـا

المــولد

وكان مولد الرسول الاكرم ومايتصل به من أخبار تحكيهاالسيرة النبوية مادة خصبة لشحذ قريحة الشاعر الشعبي وبعث الهامه ودفعه الى التعبير عن كمين عواطفه نحو صاحب الرسالة عليه السلام . وتعتبر قصيدة «مولد النور» للغالى الدمناتى من أروع القصائد التى سجلت هذا الحادث العظيم، بدأها بذكر النسب النبوى من جهة الاب ، فهو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان :

هذا محمد الزكى قرشى لنساب * ابن عبد الله بن عبـــد المطلب
ابن هاشم بن عبد مناف افترتاب * ابن قصى الدكى المدوب الارب
ابن كلاب لوضيح بن مر المجتاب * ابن كعب المجد راحت انقلب الكارب
ابن لؤى التقى الراقى بن غالب
غالب ابن فهر المذكور بين لعراب * بن المالك بن النضر دون تكذيب
بن الكنانا من به لمثال تضراب * بن الخزيما زخار لحسان لعجيب
بن المدراكا بن الياس در لجياب * بن لمضار ونزار الاديب لحسيــب
بن المعد ايلا عدنـــان ابلختصار * اجدود محمد هاذو سرهم سمارى

وانتقل الى نسبه من جهة الام ، فذكر انه ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومتوقفا فى نسبها عند كلاب الجد المشترك فى سلسلة الاب :

أما ام الشفيع من لهـا تشريف * أمين بنت وهب بن عبد منـــاف
ابن زهر المرتضى نعم المتصف * ابن كلاب الذى اسرارو ما توصاف
هو جد النبى اوجد مو تعريف * كيف اروينااحقيق من بعض العراف

ثم ذكر نور الرسول ، وقد جعله الله يتكون فى صلب آدم ، وينتقل من فاضل لفاضل الى أن وصل لعبد المطلب ثم ابنه عبد الله :

افصلب آدم اتكون نـور سيد لرسال *
وسار ينتاقل نورو من لفضيل لفضيل

ابعد ابلغ النور الصلب الذكى المفضال *

سيدنا عبد الملطب طب لعليــــل

كون المولى من صلبو اوضيــح لجمال *

آب محمد عبــد الله نعــم لجليــل

وكان بعد ذلك زواج آمنة بعبد الله يوم الخميس فاتــح رجب او يوم الاثنين ، لم يلبث أن تلاه الحمل . وما كادت تحمل به حتى اكرمها الله بكل خير ، اما ابوه فارتقى سعده وغدا نور جبينه يسطع ليل نهار :

اوبعد عبد الله ادخل حق الآمنا * ثم حملت بشفيع القوم كامل الزين

أول رجب ليل الجمع اكما اروينا * كان عرس آباويه اوقول ليل لثنين

سعد أمينـــا أم الهاشمى انبينا * ابكل خير اكرمها نعم لعظيم لمعـين

أسعد عبد الله اهلال لبها السيار * آب طه من فاز ابغايت لوطـــارى

كان نور اجبينو يضوى افليل وانهار * اذن انوار المصطفى سيد انظـارى

وما ان عاد الرسول نطفة حتى نودى فى السماء والارض أن النــور يسطع وأمر الله رضوان ففتح باب الفردوس ونطقت دواب قريش فىالليل مقسمة أن الرسول قد تكون فى رحم أمه وأصاب الملوك بكم وانقلبـت أسرتهم :

لما عاد الرسول نطفـــا يافهام * فبطن مينا الزاقيا دوحت لنســوم

نودى فالسما وفلرض ابتقــوام * ندا بامر الجليل لعظيم القيـــوم

أن النور اسطع من حــاز التفخام * اللى منو اشفيعنا نعـــم المعصوم

فبطن مينا اضحى افدا الليل مقيــوم

وامر الله الرضـــوان لفضيــل لوسيم *

ايحل باب الفردوس اكما اتقول لعلام(I)

ثم انطلقت ادواب قــريش وقت لبهيم *

واقسمت بين اتزاد الهاشمى افلرحــــام

أو كل ملك اصبح بــين لخلاق ابكيم *

اوصاب ليه اسريرو مقلوب صح لكــلام

I) العلمــــاء .

وما كاد يمر شهران على الحمل حتى توفى عبد الله :

لما مرت من حمل مينا شهران ✻ مات المرحوم آب طه بالتمكين

ورأت آمنة ليلة فى المنام آتيا يخبرها أنها حملت بسيد البشر على الاطـــلاق :

مهما حملت بالتقى طيب لخلاق ✻ آتاها آت قال لها قول البيـــق

راك احملتى ابسيد لبشر بليطلاق ✻ قالوا فالنوم رات والرؤيا تصديـق

وغدت بعد ذلك على غير عادة النساء لا تحس ثقلا او ضيقا او وحما أو حريقا :

ليس شعرت بحمل ولابثقل واضياق ✻ اولا بما يوقع للنسبا منالوحم واحريق

وذات يوم ، وهى بين اليقظة والنوم ، أتاها من سالها عما تشعر به من الحمل ، مؤكدا لها أنها تحمل بسيد الانام . وحين اقترب الوضع عاد البشير وطلب منها ان تستعيذ بالله من شر الحساد واوصاها اذا ما وضعت أن تسمى المولود محمدا :

أى قالت أتاها آت بـــين نـوم وافياق ✻
أقال لها كان اشعرت ابدا الحمل عيق

ابسيد لنام احملت قـال جـــل بشار ✻
امهل اعليها قالت زينت لحـــوارى

أحين قرب ميلاد المجد خير لخيـــار ✻
ثم أتـــاها دلبشار كيـــف دارى

وقال أعيديه ابرب لـــورى الجبـــار ✻
من اشرار الحساد امكـــالب اشنارى

ايلا وضعت طه سميـــه اعلى الختيـار ✻
سيـــــدنا محمد امفرج لغيـــارى

وما ان بدات تحس آلام الوضع حتى رأت شيئا ابيض شبيها بجناح طير مسح على فؤادها فزال ما كان بهـــا من روع وكرب ، والتفتت لتجد شرابا صافيا أبيض كالحليب فشربته من الظمأ ، فاذا هو حلو كالشهد :

كاجناح الطير قالت ابيض لا تمبيت ✻ جا وامسح عن افؤادها فالحين ابرات
واذهب عنها الروع واجميـــع الكربات

التفتت وجدت شربا صافيا ابتنعات *
ظنت البن لاجل لبياض كيف نظـــرت

بالظما كانت نور اهلال كل غيدات *
بعد ما شربتها مثل المصال وجـــدت

وتقوى المخاض فرات بياضا ناصعا يمتـــد بيـــن الارض والسماء ، وسمعت هاتفا يوصيها بأن تصون مولودها حين تضعه من الآفات وعيـون الناس ، ولمحت بعد ذلك قوما وقفوا فى الهواء تبدو عليهم الهيبة وقـــد حملوا اباريق من الفضة كما لمحت أطيارا تغطى السماء ، مناقيرها مـــن الزمرد وأجنحتها من الياقوت ، ثم تبدى لها الشرق والغرب ، وظهـرت لها ثلاثة اعلام ، احدها فى المغرب والثانى فى المشرق والثالث فـــوق ظهر الكعبة :

ولمخاض اتقوى عنها وبعدهـا رات *
ابلعيان ادباج ابياضو ابصيح وصفت

امتد بين الارض وبين السما وسمعت *
قايل ايقول لها واحكات كيف سمعت

قال صونيه افوقت الوضع من الآفات *
خوف من عين الناس وبعد ذاك لحات

قوم وقفو فالهوا حايزيـــن صولات *
فيدهـم ابرايق فضا او تم رمقـــات

اطيار غطاو اسماها سرهم ينعـات *
من ازمرد منقرهم كيف راد واحدات

ومن الياقوت اجوانحهم ثـــم نظرت *
بامر المولى شرق اغرب كيف ذكرات

بعدها رات اعلوم اعلا لحقايق انبات *
اجميعها ثلث اعلوم اعدادهم حسبات

الاولى فالشرق الثانى افغربنا رات *
افوق ظهر الكعب لاخور حق واضحات

ثم خدها لمخاض وبعدهـا المولات *
بالعزم وضعت طه والفــــراح كبلات

وبذلك تمت ولادة الرسول قبل الفجر على المشهور أو بعده صباح يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الاول حيث يجب أن يعم الفـــــرح والسرور :

أكان ميلادو قبل الفجر كيف شتهار وبعض قالوا من بعد الفجر قولوارى
اصباح لثنين اخلاق اشفيعناس لوزار اتناش ربيع الاول قـالت لحبـارى
واجب اتفرحو لخلوقو بقلب واسيار لاين لاجلو كان الخير افلقطــارى

وهنا ينهض الشاعر ويقوم (I) ليهدى السلام للرسول الاكرم على هذا النحو :

حق اعلينا انسلم اعلى محمـــــد وقت اخلوقو انقول من داخل لفؤادى
اعليك اسلام ربنـا يا محمــد قد اوحوش لقفار والطير الفدفادى
اعليـــك اسلام ربنا يا محمد قد لحصا والتراب واقراهب لوهادى

وأخذ الشاعر الدمناتى بعد ذلك يستعرض بعض المعجزات التـى ظهرت اثر الوضع مباشرة ، وأهمها اهتزاز ايوان كسرى وانهدام شرفاته الاربع عشرة ، وخمود نار فارس التى ظلت موقدة مدة الف عام :

حين اتزاد الرسول طه بحر العـلم ظهرت من غير شك للناس اعـلايم
منها كسرى اهتز ايوانو واغتـم من بعد املاكتو ابقى حاير هايـم
واشرارفو امن ابنيه عادواليه اردم ربعا عشر كيف قالوا اكمن عالـم
بها كسرى ابقى اضميرو متفاكـــم
أنار فارس خمدت يوما اخلاق لحليم بعد كانت موقودا ألف عـــام بتمام

وتحدث عن قصة الرضاع وكيف ان نساء سعد سمعن مناديا يخبر بمولود فى مكة سيسعد مرضعه ويسعد كافله فهرعن الى مكة . وكتـب لحليمة ان تكون مرضعه ، وتقدمت اليه ، فاذا هو يبتسم كالهلال الساطع تلوح أنواره ، فأرضعته من ثديها الايمن ثم أعطته الايسر فرفضه لحكمة أرادها الله ، وهى أن يبقى هذا الثدى لاخيه فى الرضاع :

صابوكن اهلال اوضيح لايح انوار اكذاك وجهو متبسم ذاك فالاثـارى

I — على عادة قراء المولد النبوى حين يذكرون خروجه عليه السلام الى الكون .

ثم حملتو فيديها ابشوق لسيـــار اوتدها ليمين اعطاتو ابلبن طـــارى
اشرب منو فالحين اعطات ليه ليســار ليس زادو بحكمت امخصب الشجارى
ابقى الثدى الخوه افلحليب هكذاسار سيرت القرشى تحكيها افداشطارى

ثم ذكر بعض المعجزات التى واكبت السيدة حليمة فى طريـــق عودتها الى بنى سعد وقد حملت معها المولود ، منها أنها عوفيت من أدواء كانت تحسها وأن الغمام كان يظلله عليه السلام طوال الطريق :

ربنا عافاها من علـــت الجـوارح لاجل المدنى طـــه امليح لملاح
ولغمام امعاه اتمشى اكما لجوانـــح وظللوا يا صاحى من حر شمس لضاح

وما كادت تشرع حليمة فى تربيته حتى بدأت ترى له اسرارا باهرة. تسلم عليه الحجارة والاشجار ، وترخى هذه أغصانها عليه حين يمـــر تحتها لتظلله :

أقامت احليما بترابى اهـــلال لفلاك سيدنا محمد من عظمـــو المالـــك
كل يوم اترى له اسرار ما تنتراك وكم اعلاما شافت للنبـــى السامك
وساعت اتمرا بسيد الخلق تحت لشجار اعليه ترخى لغصان اصاح ادلشجارى
وابلفصاح اتسلم عنو اشجار واحجار يا سعدنا بمسلكنـــا من لوعارى

وحين بلغ السن الرابعة جاءه ملكان وشقا صدره وأزالا من قلبـــه مضغة وطهراه بماء قيلت فى وصفه نعوت كثيرة :

وحين كمل ربع اسنين الشفيع بتبات كان لو شق الصدر اللى ادعى اعداتو
جاتلو زوج املايك فى انهار سدات ثم شقوا صدرو وكذا صميم ذاتـــو
وزولوا من قلبو مضغ ابغير تمرات وطهروه ابماكم اقوال فى انعاتـــو

وأخذ بعد ذلك فى الصلاة على الرسول ، وبها أنهى القصيدة .

ومثل هذا العرض المفصل نجده مجملا فى ثنايا قصائد الصـــلاة أو المدح ، كما عند الشاوى فى «تصليته» حيث يقول :

ليلت زاد اوحات ليه لملايك دون اعداد رفعوه افلفا من لحرير اخضروقادى
للزور لثقات له لملاك اجنود اجنود

طافوا به اعلى الكون وبلغ قصد لمراد وارجع سيدالمرسلين لمقاموجدادى
وشرقت انوارو الاحت اعلى الجهات ابنود

مهما جاوا يقربوه للتدىانفر وابعاد حتى جاتاحليمتالنساحرت لسعادى

بالفرحا لها انحاز وارضاها عين الجود

سارتبه الناسها اورباتاضيالتماد حين ابلغ شدو افداتيوماعلاج انكادى

سار اخوه امع الرفيق يسرح مالو مكود

له اوحى جبريل لمفضل كهدف التمجاد بالطاسالبريقمنانهر جنتلخلادى

والما من كوثر وللملايك بحماه اتلود

شقوا صدر الطاهر لمطهر نعم المهتاد غسلوه انظفوه زالت المضغ للهادى

شاين دار احكاه خوه واشنع خبر المجود

وليس كل الشعراء يستعرضون القصة حين يتناولون مولدالرسول عليه السلام ، بل ان بعضهم يقف عند تمجيد شهر ربيع وذكرى المولد الواقعة فيه ، على حد ما نجد عند المدغرى الذى يرى انه بقدوم هـذا الشهر الانور هب النسيم يبشر بكل خير ، فاضت النعم وازهرت ورود البطاح ، فليس كعيد مولد النور عيد يزهو ويزهر ، تفيض بحوره وتزخر أمواج ذخائره ، ويستقيم السعد فيغدو الكون شاكرا لله :

هب انسيم لعفـو ايبشـر ❀ لعباد ابكـل خيـر

فى ربيع الشريف لنـوار ❀ فـاض الخير لكثيـر

وازهى زهر لبطاح وازهـر ❀ مـن لحـزيـن لكثـير

مولود النـور ❀ ماكيفوعيد ازها او زاهـر

فايض ببحـور ❀ موجو زخار امن الدخايـر

واسقام الشور ❀ الكون اصبح لـله شاكـر

وعنده أن عيد مولد النبى منور ليس كنوره نور ، يفخر على الاعياد الكبار بوجود الرسول البشير ، ويفوق شهره كل المواسم :

عيد املود النبى امنـور ❀ ولاكيفو امنيـر

عن لعياد لكبـار يفخـر ❀ بالمرسول لبشير

ماكيفو افلماسم اشهـر ❀ بين انجوىو اشهير

الوفاة :

وكما تناول الشاعر الشعبى قصة الميلاد فكذلك تنـاول قصـة

الوفاة ، وكان الغرابلي من أكثر الشعراء استيفاء لمختلف فصولها ، وفى قصائد كثيرة كهاته التى يقول فى أولها :

يالساهي وحد رب لكوان لجليـــل ✽ حى باقى فى ملكو بالـدوام لازال
قدر اعلينا فرض الموت دون تمهيل ✽ مايدوم افملكو يلا لغنـــى المتعال

ومن أروعها القصيدة التى يقول فى حربتها :

معظم يوم يتوفى بدر التـــام ✽ سلطان النبيـــا بلقاسـم

يبدأها بنزول آخر سور القرآن الكريم حين جاء جبريل يختمها له، وعودته عليه السلام الى بيته فى صحبه يشكو من صداع حيث عصبت له عائشة رأسه :

وانزل جبريل بمـر الجبـــار اعلى ارسول خير البريـــا
واتلا عليه سور ختمت لسوار انظـــر يا فهيـم الا شيـــا

. . .

واقدم المنزلو وصحبو لحـلام وادخل البيت عيشا عـــازم
قالت لو اشبيك أقرت لنيام ✽ فقال امن اوجاع ساقـــم
وادنت عصبت لوخو الاسلام ✽ وانبـــا غيرها بعـــلايـــم

وامر عليه السلام بلالا أن ينادى الناس للصلاة فى المسجد حيث يريد ان يجمعهم ، ثم خرج اليهم وخطب ، وحلفهم الله ان كـان بلـغ رسالته بصدق ، وهدى الى سبيل الرشاد ، وأحسن القـول والفعل ، ورأف بالايتام والغرباء والارامل ، وأنبأهم بما فيه صالحهـم ، فأجابـوه بانه جاءهم بالدين القويم الواضح ، بلغه بحق لا تبديل فيه ولا تحريف، ودعوا له الله ان يجزيه :

يا قـوم سلتكـم بالله المتعال ✽ هـــل جيتكم صادق ناصـح
برسالتى او حسن القول الفعال ✽ واسبيـــل الـرشاد الصالـــح
واحسنت ابليتام اغربا وارمـــال ✽ وانبأتكـم افكـــل امصالـــح
قالوا جيتنا حـــق ابلا تبدال ✽ بالديـن لقـويم الـــواضح
بجزيك ربنـا بالخيـر ولنعـام ✽ وانت الكـل مــومن راحـم

واحس سلمان كان الرسول يودع المسلمين وداع الرحيل ، وصارحه

باحساسه ، فكان رده عليه السلام أن الموت فرض ، وان العمر محدود ، وأن الجميع راحلون ، لا يجزى احدهم عن الآخر :

ثـم جاوبو سلمان افلمقام * ما لك يا البـدر الـواسـم
كنك كتودع جمع الاسلام * بوداع الرحيـل العـــازم
قال النبى احمـــد للماجد * سلمان خـــذ لـك ايفـــادا
فرض لممات عنا واكد (1) * لعمر ليس فيـــه ازيـــادا
والقلـق للرحيـل اموعد * هذا ما جـزى عن هـــذا

وعاد الرسول الى بيت عائشة وجمع نساءه ، وطلب منهن أن يصبرن وألا ينحن لكى يعمهن الغفران ويرغد عيشهن ويزيد خيرهن :

وادخل البيت عيشا بلقصد اوكيد (2) *
فالجـين عـــن ازواجـو نـــادا
وقال لا تنوحوا والله اشهيـد *
صبـــروا اتعمكـــم ايفـــادا
وايعمكم غفـران وعيش ارغيد *
والخيـــر عنكـــم يتـــزادا

وتاخر عن الصلاة وأناب عنه ابا بكر . وخرج بعد ثلاثة ايام للمسجد متكئا على عثمان وعلى ، فوجد ابا بكر فى المحراب يبكى وينـوح ، وأراد الصديق ان يخلى له المحراب ، ولكنه طلب منه ان يبقى فى مكانه حتـى يؤم بالناس :

ندا على اتجى والعباس امعـــاك * واخـــرج بنهـم امتكـــى
حتى اوصـــل المسجد المبراك * واستنشق اشـــداه المسكـى
يوجد بابكر فالمحراب اكذاك * اينـــوح ابلشـــواق ايبكـــى
واجلس عن اخلافو درت لفـــلاك * ايزيم (3) بسقـــام الحلـــاك
راد الصديق يفرغ لو دون اشكال * نـــداه الرسـول المكـــى
اثبت فى اصلاتك بالناس ايمام * تغنـــم جل طيب اغنـــايـم

---

1 و2 ـ أكيد
3) يئـــن .

وبعد ان صلى الرسول جالسا تكلم فى الحاضرين ونهاهم عن البكاء والنواح ، وسالهم عما اذا كان لاحدهم حق عليه أن يقتص لنفسه ، فتقدم عكاشة وذكر الرسول بضربة تركت أثرها فى نفسه كـــان عليه السلام ضرب بها ظهره يوم تبوك ظنا منه انه يريد الهرب ، فى حين انه كان يريد أن يذهب للاستطلاع :

صلى اجلوس طه سيد لانام * حتى اقضى الفرض اوسلـم
واسأل عن الاما وانطق بكلام * وانهى عـن النواح الهـــزم
وقال يا جميع الحضرا * من كان له حق اعليـا
ياتـــى القصاص افمرا * من قبل ما تجى افنيـا
ثـم جـــوب باجهـرا * عكاش ابغـير اخفيـــا
أقال يا طلوع البدر لمنير * انا ايلى الحـق الشاهـــر
كنا افأرض تبوك افحرب اكبير * واخرجت نسرح ونخبـر
ما هو اهروب منى ولا توخير * رب لعبـــاد حاضر ناظـــر
واضربتنى الظهرى دون التقصير * ضربا قترت فالخاطـــر

فسالت دموعه عليه السلام وامر بلالا أن ياتيه بقضيب أخذه عكاشة غير مبال بلوم الصحابة وطلب منه الرسول ان يضربه ولكن عكاشة أجاب بأنه كشف ظهره قبل الضرب ، فهو لذلك يريد منه ان يفعـل كذلك . فنزع صلوات الله عليه قميصه ، وما كاد يفعل حتى بدا الخاتم بين كتفيه يسطع بنور ربانى يفرج الكروب وتحار فى وصفه العقول والافهام . فلم يستطع عكاشة الضرب واخذ يتمسح بالخاتم والنبى الكـــريم يدعو له بالخير ودخول الجنة :

قال جزاك لكــــريم اعليا خير * وارســـل ابلال عند لامـــر
جاب لقضيب فالساعـــا ابلجزام * والدمع امــــن اعيونو سجم (I)
قبضو الشيخ عكـاش دون املام * واصحاب النبى تتـــلايـــم
. . . .
ثم الرسول ندا بالجهـــر وقال * تركوه حين مبا (2) يقبــــل

I) سجم كما فى الفصحى بمعنى سال .

2) مبا اى ما أراد وهى فى الاصل ما بغى بحذف حرف الغين ، وهو
==

فقال لو اتقدم والـــغ لجدال * واقص اجزاك منى واعـــدل

وقال كيف نضرب وانت ما زال * افتوبـك انضيض مرفـــول

انا اعويت ظهرى افـــذاك الحال * نبغى اكمل افعلت نفعـــل

نزع لقميص طه واظهـر لختــام * بن لكتاف نعت الخـــاتـم

شلا (I) اتصيف لعقول واليفهام * بـــه اختص عـل لعـــوالم

يضوى بنور واضح يفجى لغتام * من نور اد لجلال العـــالـم

لغريم نال جل انصيبـو * واظفر ابكـــل ما يتمنى

مرغ على الخـــاتم شيبو * واقليـــــد عروض المزنا

وادعالوا بخـــير احبيبو * واضملو ادخول الجنـــا

وقال كيف نضـرب قرت لهداب * ونـــا اوصيف مـــن وصفانو

وتحكى القصة بعد ذلك كيف عاد عليه السلام الى بيته ، وكيف بعث الله عزرائيل لياخذ روحه، ولكن الرسول امهله حتى يسأل شيئا يعتمل فى صدره ، ورفع كفه الى السماء وشكا من شوقه لجبريل الذى ما كان يظن أنه سيغفل عنه ويتخلى فى هذه الايام . وما كاد ينتهى من سؤاله حتى نزل الملك الامين وسلم عليه :

وادخل المنزلو يتسنى المكتاب * محسوس امن اوجع ابدانو

. . .

عزريل جا ابأدب وانقر البـــاب * ثم ادوا ابفصـــح السانــو

وقال جيت لكنـــم ياهل لمقـام * انزور درت بن هـــاشـم

. . .

قال مهـــل اعلى نسأل بدمـام * عن شين ما افسرى كـــاتم

مد لكفوف وادعـــا واسأل * وقـــال يا سامـــع اسؤالى

تعبير خاص بلهجة مدينة مراكش وقد سارت عنهم عبارة تعدد فيها هـــذا الفعل ، هى قولهم : اللى بيت بيتو واللى ما بيت ما بيتو اى الذى بغيت بغيته والذى ما بغيته ما بغيته . ومن الغريب ان ياتى مثل هـذا التعبير على لسان الغرابلى وهو شاعر من فاس ، ولعله فعل ذلك مدفوعا بالميزان، اد لا يبدو أن ذلك من تحريف الرواة ، لان ما بغى لا يستقيم معها الميزان.

I) فوق ما تصف ، وتستعمل للتعظيم والتكثير .

جبريل مــا نويتو يغفــل * عنى افمنتهى فــى حــالى
ثم لأمين فى انحــين انــزل * واشما اسلام نعم العــالى

اذ ذاك اطمأن الرسول وحمد الله ، واذن لعزرائيل ان يتقدم ويأخذ روحه مستعذبا لقاء ربه . وفى الحين صعدت روح محمد الى صدره واحس بغصته تضغط عليه ، وعبر عما أحس ، فاجابه الملك انه لـم يذق عشر معشار سكرات الموت ، وامهل عزرائيل لحظة ليدعو ربه ان يخفف عـن أبناء امته ضيق الموت وما يحس من شدة حره على ذاته ، فلم يلبث أن سمع هاتفا قدسيا يقسم له بعزته وجلاله بالا يذيقهم سوى ما أذاقــه وان يجود عليهم ويعفو ويرحم ، ثم حمد الله وشهد بجهر :

احمد ربنا واشــرح ابتبسام * وقال العزرائيــل اتقــدم
اعزم وخــوذ نتهى لمكــام * محلا القا اعظيم الاعظــم
فالحين روح طــه صعــدت * للصدر الشريــف اورسات
وانطــق بلســان امتبت * يا ملــك ما صعبها غصات
قال لو ابحق جاهــك ما دقت * اعشور امن اعشور السكرات
قال لو امهلنى علنى ندعو دعات * بلطــف ولعفــو لمــاتــى
خفــف على الام ضيقت لممات * وشــد حرها عن ذاتــى
سمع الندا ابأذن سامــع لصوات * وجــلال عزتى واقــدرتى
لذاقو سوى ذاقك مــن لمرات * وانجود ونعفــو برحمتــى

وتحكى القصة بعد ذلك ان عليا وابن العباس غسلاه ، وهــو يتلألأ كالبدر من البهاء والنور وكفناه فى ثوبه كما شاء وطيباه ، ثم دفن ، وقد ذهلت العقول واحتارت الالباب وغدا الناس فى دهشة وحزن :

وحارت لعقول ودهشت لوهــام * واشحال امن اضمير اتفــاكم
وتاوا المقــام اخصوص ولعـوام * شلا ايطيق يوصف ناظــم
ادناوا ليه وقت التغسيل * وغسلــوا لمفضــل وعلى
وجدوه كالبــدر فاليكليل * والنـور امن ابهاه ايــلالى
. . .
وكفنوه فتيابو اكما قال * وابنــوع كل طيب احتفلو
. . .

وبعد إدفينو اشتــدت لنكال * واشحـــال امن اعقول اندهلو

وتنتهى قصة الوفاة بالكلمة الخالدة التى فاه بها الصديق ليهدىء من روع المسلمين وفزعهم ودهشتهم حيث قال : «من كان يعبــد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » :

اكثر اصياح بن الناس ولهـــوال * شد لفراق عنهم حبلـــو
وقام ببكر واخطب افهل البــال * خطبـا لا تخطابت قبلـــو
وقال فلخطبا يا جمع اليسلام * المـوت فرض عنـــا لازم
من كان يعبد الماحى سكن ارغام * هـــذا وصـف شأن ابنـــادم
ومن يعبد الحــى لا يعدام * باقــى اقــديم بنا عـــالم

المعـــراج (1) :

وهكذا ، وعلى هذا الاسلوب فى عرض السيرة النبوية تناول الشاعر الشعبى قصة الاسراء والمعراج فى القصائد التى اطلق عليها « المعراج » ومن أشهرها قصيدة عبد العزيز المغراوى وعبد القادر الجرارى . يقول المغراوى فى أول معراجه :

لســم لعظيــم ذا العرش الديان * رافع لفـــلاك افلهوا دون اعمـاد
من خص المرسلين ابآيت البرهان * وارسلهم ابلهدا اودين الارشـــاد

ويقول الجرارى فى حربة معراجه :

الصلاة اعلى الهادى راكب البراق * سيدنا محمـــد لمشرف الصديق
من اسرى من حرم الى حرم افلغسيــق

وفى أوله يقول :

ابديت لسم المولى لمقسم لرزاق * رب لكوان الحق الدايم نحقيــــق
والصلا عــل الماحى طيب لخلاق * خير لورا لفضيل الماجد الشفيق
والرضا الآل والصحاب والرفـاق * وهل البيع والعهد الوافى لوتيـق
بعدها فكرى هاج وخاطرى اشتاق * نحتك معجز كبر اكما ايليـــق
فالسرا والمعراج فغيهب لغساق * نكن اصلات الماجد قولها اسبيـق

1 — كان مفروضا أن يسبق المعراج الوفاة ولكنا أخرناه لانه دونها عند الشاعر فى الاهتمام وهذا ما جعلنا لا نفصل فيه القول .

التصلية (1) :

ومن عميق تفاني الشاعر الشعبي في الرسول عليه السلام وتعلقه به أنه لم يقف في التعبير عن عواطفه الجياشة عند الحديث عن حبه وذكر صفاته وعرض مراحل من سيرته الكريمة ، وانما زاد ـ منوعا في مدحه ومتفننا فيه ـ فخصه عليه السلام بقصائد اطلق عليها « التصليات » يصلي فيها عليه محاولا أن يبلغ بصلواته أكبر عد يمكن تصوره او تخيله ، مستعرضا انواع الكائنات والمخلوقات المختلفة ، عساه يبلغ اعلى درجات العد والحساب . ومن اروع التصليات وأقدمها تصلية محمد بن عبد الله ابن احساين ، وفيها يبلغ بصلوات الله على نبيه الكريم الى عدد ما هطلت الامطار وسقت من اشجار ، وعدد ما حملت هذه الاشجار من غلال ، وحمل النخل من تمر ، وعدد ما يوجد من بساتين وأغراس عطرة :

صلى الله اعليه عد ما هطلت من لمطاري *
وما كتسقى امن الشجر
وحملت امن اغلول والنخل عد اتمارو *
وما من حرجات (2) عاطرا

وعدد البحور والانهار الفائض منها والجاف ، وعدد ما في جوف الارض من عيون وآبار لا تحصيها العين من الكثرة :

صلى الله اعليه عد لبحور امع لنهاري *
ما واكح فيها او ما اعمر
وما في جوف الترى امن اعيون اوعد ابيارو *
شلا شافت عين كترا

---

1 ـ المقصود بها الصلاة ، وقد استعملناها محافظة على المصطلحات المتعارف عليها عند الاشياخ ، والمعروف لغويا أنه لا يقال صلى تصلية في الدعاء ، وانما يقال صلى صلاة بوضع الاسم موضع المصدر ، أما التصلية فالقاء الشيء في النار لاحراقه .

2 ـ الحرجات البساتين وهي كذلك في الفصحى اذ يقال مكان حرج بكسر الراء وفتحها اى كثير الشجر .

وعدد لسع القر للعذار ، ولفحات الزمهرير والحر ، وعدد نسيم الصباح وما هب من رياح غربية فى العشايا الساحرة :

صلى الله اعليه عد لسع القـــر افلعذارى *

وازمهرير الحر بعد قـــر

واعداد انسيم الصباح او ما هب ابتعطارو *

واغرابى لعشـــى الساحرا

وعدد الرياح والاعاصير والبرق الخاطف للابصار ، وعدد الرعــود تدق طبولها ، والبروق المضيئة تعلن شاراتها عن مطر غزير :

صلى الله اعليه عد لرياح امـــع لعصارى *

والبــرق اللى خاطـــف لبصار

والرعد ايلا رعدوا اطبـولو وبروقو شمارو *

واذن بالرعــــد الغــــازرا

وعدد الغيم المتوارى الغابر ، وعدد السحاب المجمل الذى حارت فيه العقـول :

صلى الله اعليه عد لغيـــام اللى متوـارى *

ذاك اللى فتوايحو اغبـــر

واعدد الوارى امن السحاب اللى فى كدارو *

كتضحـــى لعقول قاصرا

وعدد نجوم الثابت والشارى ، ودوران الارض والافلاك فى كل وقت وحــين :

صلى الله اعليه عد نجـم التابت والشارى

فغروب ولسحار والفجـر

وما دام الليل فى اعقابو يا صـاح انهارو *

منهمـــا لحوال دايـــرا

وعدد ما ظهر المريخ والمشترى ، وما اشرقت الشمس واضاء القمر ، وعدد كواكب زحل وعطارد والزهرة :

صلى الله اعليه عد ما انبى مريخ ومشترى *

وما بانت شمس ولقمـــر

والزحل وكوكب لعطـــارد ساعت يظهرو *

ونجمت الزهرا الزاهـــرا

وعدد ما فى اعماق البحار ، وما من وحوش فى القفار ، وعدد الاطيار المحلقة باجنحة وحكمة من المبدع العظيم ، وعدد ما باضت انثى الطير :

صلى الله اعليه عد مـا فدواخل لبحـــارى *

وما من لوحـــوش افلقفـــر

واطيار ابلجناح ولحكايم ذا البـادع طارو *

وما باضت كل طــايرا

وعدد الحيوانات الاليفة ودواب النحر والركوب :

صلى الله اعليه عد بكم السماكــن لجدارى *

لموالف بنا امــن الصغـــر

واعداد الى للنحير كانــوا والى نختــارو *

للركبــا يوم لمفاخـــرا

وعدد النحل والنمل ، وعدد الهائم من الحيوانات والحشرات ما ظهر منها وما خفى عن العين :

صلى الله اعليه عد لهوام يا من هو قارى *

ونحل ونمل وعد ما كبـــر

وما من لهوام ما تشافو من حيث اصغارو *

بوجود القـــدرا القـادرا

وعدد الذين نسوا ذكر الله من ابيض واسود واسمر واشقر واعجام صغر ، وعدد اقوام البدع والغدر :

صلى الله اعليه عد لنفاس انساواذكارى *

لبيض واسودها امع لسمـــر

وادهم وابراكا مع الشقار واعجام اصغارو *

وقوم البـــدع والمغـادرا

وعدد تكور الليل والنهار :

صلى الله اعليه ضى وادجا تبقى فشطارى *

مكتوبا من اجل الذكـــر

صلى الله اصلا امداوما تبلغ لـو فقرارو ⁂

في حضرت ربي النايرا

وعدد مدن كل الاقطار وما فيها من دور وقصور ، وعـدد الصحارى والمداشر والقبائل ودواويرها ، وعدد تلال البيد والقفار :

صلى الله اعليه عد لمدون افكـل اقطارى ⁂

وما فيهـا دار اولا قصر

والصحرا وادشورها اوكل اقبيل ودوارو ⁂

واتلول البيـدا القـافرا

وعدد الهضاب والسهول والشعاب الخالية والمعمورة ، وعدد الربى وعدد كل طول يقاس :

صلى الله اعليه عد لكدى اوحيف لغدارى ⁂

واشعاب القفرا او ما عمـر

والربوات او عد كل طول وقيمت مقدارو ⁂

بكيال الدنيا العـابـرا

وعدد الغابات والبرارى وما فيها من عرين الاسود والنمور ، وما بها من مآوى وغيران :

صلى الله اعليه عد لغيـاب امـع لبرارى ⁂

وعريـن الاسد والنمـر

والمثوى دجميع امن اسكنها كل في غارو ⁂

صلى الله اعليه غـازرا

وعدد اكسية الحيوانات الضارية وغيرها من صوف وحرير ووبـر وريش وشعر :

صلى الله اعليه عد لكسا دا للي هو ضارى ⁂

بالصوف ولحريـر ولـوبر

والمكسى بالريش والذى متلفف بشعارو ⁂

واللي ما ضارى ابساترا

وهو يصلى عليه بقلبه ودواخله ولسانه وعقله وفكره عدد الاكـوان

التى لم يحص منها حتى العشر :

صلى الله اعليه والسلام ابقلبى واسيارى *

ولسانى والعقل ولفكـــر

عد الكون اللى ما احصيت منو حتى معشارو *

صلى الله اعليه كاتـــرا

وعدد ما فى علم الله وهو فوق الحصر ، وعدد الزبور الذى لم يبق منه غير خبره ، وعدد الالواح العامرة بالحكمة :

صلى الله اعليه عد علـــم الله اتتذكارى *

علم الله الا ايلو احصـــر

عد الزبور الذى الا ابقى غـــير اخبـــارو *

والـــواح ابلحكـــام عامرا

وعدد الانجيل وقارئيه قبل ان يحرفه ويطفىء نوره جحاد الحكمة :

صلى الله اعليه عد لنجيل وعد القـــارى *

والقاريا اكما وحى اخبـــر

قبل ايجيو اللى امحرفينو يطفيو انـــوارو *

جحـــاد الحكما القـــادرا

وعدد سور القرآن الكريم وما تضم من سطور ، وعدد حكمه وبراهينه وأسراره ، وعدد ما فى السنة الطاهرة :

صلى الله اعليه عد سورات القول الوارى *

وما فالسور امن اسطـــر

واعدد الحكمات ولبراهن واعداد اسرارو *

وما فالسنـــا الطـــاهرا

وعدد الرسل والانبياء فى كل عصر ، وعدد الاوليـــاء والاقطـــاب والملائكة ، وعدد الجن الذى لم تره الابصار :

صلى الله اعليه عد لرسال افكـــل اعصارى * والنبيا لنـــوار ادلبشار

والوليا واقطاب ولملايك ويـــن ما ساروا * والجن الا رات باصـــرا

ومثل هذا نجده عند المغراوى الذى يبلغ بصلوات الله على الرسول

فى «عين الرحمة» عدد الحب وأوراق الاغصان، وعدد الفواكه التى تنتجها الاكوان فى كل عام ، وعدد نجوم السماء وحور الجنان ، وعــدد اعشاب البيداء المختلفة الاصناف ، وعدد ما احاط به علم الله وكل ما هو حــى وميت وكل ما ظهر للعين وما خفى :

صلى الله اعليه عد اطعام الحب اوراق لغصان

واعداد الغل افكل عام من لكـــوان اتجينا

واعداد نجوم السما وحور الجن والجنـــان

واعشوب البيدا اعلى اصناف ايسار وايمينا

واعداد ما حاط به علم الله كيف اقضاه كان

والحى والميت او شـــلا شافوا عيننا

وكذلك النجار فانه يصلى على النبى الكريم عــــدد النحل وشهده ، والاطيار المغنية فى رياض حافل بالغلال ، وعدد الجراد والنمل ومـا زرع الفلاح ، وعدد الحصى والرمل ، وعدد انفاس الخلـــق والالوان والصـــور المتشابهة ، وعدد اصناف الارزاق المختلفة ، وعدد اللغات والمتحدثين بهـا والسامعين ، وعدد حروف آيات القرآن وسوره والحديث الشريف ، وعدد ما يلقنه الفقيه لطلبته ، وما فى السماء والارض من سكان ، وعدد ما دب على الارض ، وعدد الرائحين والغادين ، وعدد ومضات البرق الخاطف وأصوات الرعود وهبوب الرياح وما تهاطل من أمطار ، وعدد مياه البحور وعجائب الحوت ، وحب الجوهر والياقوت والمرجان وكل ما يلمـع ، وعدد الاقمشة الهندية المزينة كالزرابى ، وعدد نعيم الجنـــة والقصور ، وعدد مـا فى علـم الله :

اعليه اصلات الله دايما قد انحل واعفـــاه

وما غنت اطيار فى ارياض احفيل ابغـــلاتو

. . .

واعداد اجنود اجراد والنمل جندو يتعداه

وما زرع الفلاح ولحصا والرمل اعتمـــاتـو

ما نقـــوى نحصيـــه

واعداد انفاس الخلق والوان اصورت لشباه

واصناف ارزاق امخالفا او كل امحدث بلغاتو

واللي يصغـــى ليـــه

واحروف آيات اسوارو ولحديث ارقت معناه

وما فاد الطلبا افقيه نجمي يدري معناتـــو

مهمـــا يلفظ بيـــه

وما فتخوم اسفالها او قد الساكن فسمـــاه

وما دب على الارض قاطبا والرايح نمباتـو

والعـــاطف لمجيـــه

وما شار البرق لخطيف والرعد اصوت انداه

وما هبت لرياح والركم اكـــافى مزناتـــو

والمتـــوكـــل بيـــه

وما صبت لمطار امن اسماها وابحور امياه

واعجايب حوت فحجابها وحب الجوهر واتقات

مـــرجان ايوتيـــه

وبديع الياقوت الرفيع وما يلمع بضيـــاه

واقماش الهندى وما يماثل لنوار افحرجات

لـــزرابـى نحكيـــه

وانعيم الجن والقصور وما في علم الله

ويذهب ابن على في عد صلواته الى ما خلق الله وما سار على الارض وعام فى البحر ، وعدد سائر المخلوقات التى لا يمكن احصاؤها ، وعدد ما طار فى الجو من اطيار ، وعدد النحل وما قطف من ازهار ، وعدد ما هبت الرياح وصوتت الرعود ولمعت البروق ، وما نزل من أمطـار ، وما فاض بمائها من أنهار ونبت من أعشاب ونما من أشجار ، وعدد ما انتفع الخلق بهذا الماء ، وعدد ما ظهرت النجوم ، وعدد اوقات الفجر ومصليه ، ومـا أشرقت الشمس واضاء القمر ، وعدد الاكوان التى أخفاها الله :

صلى الله اعلى اشفيعنا عد ما خلق لكريم يدرج من فوق اثراه

وما دب افداخــل لبحر * من مخلقات لا من يقوى يحصاها

صلى الله اعلى اشفيعنا عـــد ما طارو اطيار وارقوا الجو اعلاه

بقدرتـو واتروح للـــوكر * واعدد انحل ما قطف زهر اعفاها

صلى الله اعلى اشفيعنا ما هبت لرياح وارعـود والبرق اشماه

وما نزل الارض امـــن امطر * واعدد اعشوب به نفحت واحياها

صلى الله اعلى اشفيعنا ما فاضت لنهار ابلمياه اساق ابمجراه

وما لقحت به امن اشجـــر * واعداد ما تنفع الخلق ابماهـــا

صلى الله اعلى اشفيعنا عد ما طلعو انجوم والفجر او من صلاه

وما طلعت الشمس ولقمـــر * واعداد اكوان رب لعباد اخفاهـــا

ولابن على تصلية رائعة يقول فى حربتها :

صلو اعلى الصديق الصادق جـد الشراف نور العين

امام لنبيا بلقـــاسم محبوب ربنا الرحمان

وله أخرى يدعو فيها للصلاة الدائمة دون حصر :

عين الرحما يا عاشقين طهصلوا عليه * اصلات الاتحصى امداوما هى ربحاماتو

اخـــاتـــم كل ارسال

اما ابن الوليد فيصلى عليه مائة الف مرة صلاة صافية خالصة :

يا صاحب الشفاعا صليت اعليك فى انشادى

اميـــات الف من اصـــلا مقبـــولا

ثـابتـا مـــن عنـــد المـــولى

امحققا ما فيهـــا لولا اولا ابـــدولا (1)

بل يصلى عليه فى كل ليل ونهار ، عدد الرياح والرعـود والامطار ، والاقلام والالواح والافلاك والعرش والكرسى ومياه البحار ، وعدد ما خلـــق الله من اغصان دائمة الفوح بالطيب والعبير دوام ملك الغنى القهار :

اصلا والسلام فى كل ليل وانهار

اعليك يالهـــادى طيب لمساك * قد لرياح قد ارعادها ولمطـــار

---

1) اللولة : الشائبة ، والبدول : التبديل والتحريف .

واعدد القلم واللوح الفـــــلاك * والعرش والكرسى واكذا امياه لبحار
واعدد ما خلق فالدنيا من ياك (I) * دايم ما دام الملك لغنى القهـــــار
بالطيب ولعبير وعنبر وامساك

ومن اروع التصابيات بعد هذا تصلية الشاوى التى يقول فى حربتها:

صلى الله على الشفيع نور الحق المرشاد
عين الجود الطاهر الزكى ربحى واسنادى
طه مولى التاج واللوا والحوض المورود

الغاية من المدح والصلاة :

والشاعر الشعبى فى مدائحه وتصلياته مدفوع بحب يتأجج فى قلبه للنبى الكريم ، وهو حب لا شك فى أنه خالص صادق ، وان بدا فى التعبير عنه تشابه وتماثل أساسهما وحدة الرؤية من جهة ، وعدم تعمق حـــــال الوجدان لاستخراج الجديد من الافكار والاحوال ، وخاصة عنـــد الشعراء الاوساط من جهة ثانية . ولكن هذا الحب رغم خلوصه وصدقه ليس غاية فى نفسه ، وانما هو وسيلة لتحقيق هدف يطمح الشاعر اليه وهو زيـارة مقام الرسول الاكرم والدخول فى حماه لنيل شفاعته وادراك الجنة . وقـــد يبدو فى ذلك ما يدعو الى الطعن فى صدق هذا الحب طالما انه ليس مقصودا لذاته ، ولكن عظمة الغاية التى يسعى اليها وبعدها يشفعان لهذا الازدواج ، وهو ازدواج يكاد لشدة تقاربه يوحى بالتحام الغاية والوسيلة فى وحـــدة وارتباط . ولا عجب فالمحب ــ اى محب ــ يسعى الى نيل رضا حبيبه ووصاله، والوصال بالنسبة لمحب الرسول يتم بزيارة مقامه الشريــــف ومشاهدة نوره ، اما رضاه عليه السلام فدليله ان يمنح محبه الشفاعة يوم القيامـة حتى يفوز بالجنة . لذا فلا غرابة ان يتخذ الشاعر الشعبى مديحه للنبـى وصلاته عليه جواز عبور للبقاع المقدسة ثم الدار الآخرة عساه ينـــال فيها الجزاء الحسن .

فالمغراوى يطلب من الله أن يجود عليه بفضله ويجعل مقامه فى الجنة ويكرمه بالنظر الى وجهه :

I ـ الايــــك .

يا ذا الجليل جـد علينا * فى ذى اوذيك حرمت فـ
واجعل امقامنا فالجنـــا * ابحرمت الشريف ارسـ
وارحم اسلافنا واكرمنـــا * بزيادت النظر فى وجه

ويرجوه ان يعجل له بزيارة مقامه الكريم حتى تشفى
فى جماله وان يمنحه ظل لوائه يوم الحساب ليفوز بالجنة وينـ
عجل ابزورتى امقامك نعم النظرا * تشفى فى جمالك الرو
وانكون تحت ظل الواك انهار العسرا * انفوز وانجنب نار

وهو يرى فى «عين الرحمة» ان مدح المختار تنزه وان
يوم القيامة فى ظله :

ربى كريم اجعل ارحمتو سبقت غضبو افلا زال
واجعلهـا فقلوب هل ليمان مدح المختار انزاها
من مدحو يدخل تحت ظلو يوم القياما

لنوتاج المرسلين وانهايت لـ

ويرى كذلك ان تمجيد الرسول يطرد الحاسدين ويطهر
وأن صلاته تصفى القلوب من الكدر :

تمجادو يجرى اعلى انكودى ويطهر جمع لحزان
اصلاتو اتصفـــى اولا تخلى فالقلب اغبينا

ويسال الله ان يلطف يوم الحشر ، فهو قادر على أن
ويعمهم بالغفران ، وان ينجيه من شر النار المحرقة وان يسـ
وان ييسر له الطواف بالكعبة ورؤية حرمها والسعى بين الـ
ومشاهدة مقام الرسول وطيبة . اذ ذاك يهنا ويعود طاهرا كـ
وقد انطلقت مهجته وارتاحت روحه :

. . .

من نسعاوه نقبول يلطف بنا يـوم لوقوف *
والخلـــق كـــل ابفعلو

يسعدني فدنيتي يجعلنـــي نمشي انطوف *

بالكعبا وانشوف حرمهـــا والمروا والصفا

انشاهد عين لوجود لمفضل عن اجميع لفضال *

وانشاهد طيبا اوقبتو نبصرها وانراهـــا

نتهنا وانعود كيف نبغى ميا صافي ازلال *

اصميم المهجا ايريع والروح اتصيب امناها

ويرى النجار أن الصلاة على النبى تمحو سيئات المكثر من الذنوب :

واكثير الذنب ايزيد فى اصلاتو تمحا سياتو

وغاية المنى عنده ان يحج قبل ان يموت ، فبذلك يندى روضـــه ويتفتح زهره ، وهو مشتاق لزيارة البقيع والكعبة والحجر الاسود ، لـو وجد الى ذلك أجنحة لطار ، وقد طال جرحه وليس له دواء غير الاقتراب من باب السلام ، ولكن جسمه مثقل ، وليس له ريش يطير به ، فهو لهـــذا راض بالقـــدر :

اتوجـه يا بادى * نوصيك للسفر واعمل قبل الموت زاد

يصبح روضك نادى * ويفتح الزهر والسوسان من لغماد

. . .

ونقـــول آتغرادى * اعلى لبقيع والكعبا واحجرت لسعاد

لو صبت امـــرادى * واجناح طير زاعم تدنـــا به لبعـــاد

طال الجرح الكامى * مالو اطبيب دون القرب الباب السلام

لكن ثقـل اعظامى * والريش خانى وارضيت ابما افلحكام

وابن على يرجو من ممدوحه الا ينساه ، ويطمع ان يدخل فى حماه لينجو من حر جهنم ، فقد اثقلت كاهله الاوزار فلا يستطيع تحملها جسمه ، ومادحه يصول ويفخر ويطلب الجنة :

أمحمد لا تدوز (I) مداحك طامع فى احماك ينجا من حر الظاه

حامل عـن كهلى من لوزار * وامحمل عن اعضايا شـل نقواها

أمحمد لا تدوزنى ربى يغفـــر للخلق كافا الو جمـع اعصـــاه

I) داز فات ولعل اصلها من داس فى الفصحى .

مداحك ايصـول ويفخـــر * لك الجنا اطلب وانت مـولاهـا

أمجمد من ادخل افحرمك يمحى وزرو لكريم لجلـك اجعل مأواه

فالجنـــا يهنـا ويستقـر * دار اليكرام ينكرم من فحماهــا

أمحمد لا تدوز مداحك طمع الخير فيك اجعل الجنـــا مجزاه

كان اشفعتى ربنا اغفـــر * للنفس الو اتعيش فى وزر اخطاها

ويرى العلمى فى احدى « جيلالياته » ان الصلاة على الرسول حـرزه ورقيه وأمانه ، تحفظه وتصون دينه وايمانه ، ويراها زهوه ونزهته وسلواه وعزه وحرمه وشأنه ، هى ورده فى كل وقت وحين طالما امتدت به الحياة :

هى حرزى ورقيتـــى هى الامان * هى حفظى اوصون دينى ويمانـــى

هى زهوى وانزاهتى هى السلوان * هى عزى وحرمتى هى شـــانـــى

هى وردى اعلى اندوام افكل احيان * ان شاء الله ما فلحيات ابقانـــى

أما ابن الوليد فيطمع فى أن ينظر اليه لكى يصلح فساده بجـــاه مديحه ، وان يشهد له بانتسابه اليه ، ويرحب به حتى يزول عنه الكرب والضيق وأن ينقذه من الاضرار ، ويدخله فى زمرته للجنة ، ويسقيه من حوض الكوثر ، وتلك أقصى غايات الضيافة :

وابغيت فيك نظرا تصلح بمدادها افسادى

وابغيت فيك تشهد لى بالنسبا

بعد تلقانى بمرحبا * اتزول عنى هاذا الكربا * اكـــل نشبا

وابغيت فيك تنقذنى مـن لضرار واسقايم

وابغيت فيك ندخل فزمرتك للجنان زاعـم

اكمـــال عـــز لمضـــافـــا

وابغيت فيك تسقينى من حوضك ما الكوثـر

فاذا ما تمت له النظرة فى طه فرجت كل انكاده واغتنى بعد فقره ، وعلم ان الله قبله فى جنته واعتقه من النار ، وحق له ان يصول بشرفـه الحسنى مفتخرا دائم الفرح ، زاهيا منتشيا ، وقد سلم من كل عيب ، وهو يلح على الرسول الاعظم ان يجود عليه فى سخاء وعطف ورحمة :

ونا ايلا انشوفك ياطه تنفجا انكادى

ونعرف بين رب البيت اقبلني

امن اعــذاب النــار اعتقنــي

بعــد فقري نصبــــح مغني

اشــريــف حسنــي

انصــول ونفخر افطول ازماني

بفـــــراح دايمـــــا

اشريف بالزهو متخمر من كــل عيب سالـــم

ونتمعدن الوافا جداسغ اعطف وارحمني ياطب كل اضرار

وهو يريد ان يراه في المنام حتى يعالج من سقمه وتزهى عيناه ، ففي رؤيته بشرى وغنيمة :

هل يامدرا نلقاك في امنامي

فبــرا مــن اسقــامــي

وتــزهــي انيــامــي

نظرا فصورتــــك لكريما

بشرا على الرضا واغنيما

أبـــو لال فـــاطمـــا

وعنده ان النظر اليه غاية طلبه ومناه :

اخيــــار كل مــا نتمنـــاه

فالدنيا شوفا فيك يالعربي

هــادك حد رغبـــي

عنــد لكـــريـــم ربي

ومثل هذا يذهب اليه التركماني حين يرى ان الصلاة على النبي مفتاح كل المقاصد وغايتها :

طه واصلاتك الشريفا مفتاح الكل امن اقصد * اعليك اغايت لقصد

واما الغرابلي فيريد من الرسول ان يكون له سندا يوم القيامة حيث الامة كلها لائذة بحماه ، فذنوبه كثيرة ، وهو يخشى من ضيق القبر وعذابه ويرجو ان يقبل مدحه هدية ويرضى عنه ويرشده وينظر في حاله وياخذ

بيده حتى يصلح فساده ويخف حمل ذاته الثقيل :

أطه نبغيك اتكــون لى اسنيد واسنادى * افيوم الا تجزى الوالـــدا
عن مولود او لا اسنيد دونك يوم المعادى * والاما فحمـــاك لايــدا
أطه ذنبى اكثير خوفى من ضيق الحادى (I) * يــوم اتكون الذات فاقدا
لا أهل لاخوان او لا عمل اونيس التفرادى * لا توبــا للاثـــم هــادا
أطه تقبل اهديتى برضـــاك وتمجـــادى * وارشدنـــى جل لمراشدا
انظر من حالى اوخوذ بيدى ينصلح افسادى * ذاتى حمل اشغيف رافـــدا

لعله واضح من هذا ان امل الشاعر من الرسول يكاد ينحصر فـــى أمرين : أحدهما الفوز بشفاعته يوم القيامة والثانى زيارة مقامه .

اما الشفاعة فقد جر موضوعها بعض الشعراء الى الحديث عن يـــوم القيامة وما يتم فيه من حساب وجزاء وعقاب ، وكيف يشفع الرسول فى المسلمين ، على حد ما نجد عند المغراوى فى «هول القيامة» حيث يذكر انه عليه السلام كان قد اخر دعاءه الذى طلبه منه الرب الكريم ليجيبه عليه ، الى يوم الحشر ليجعله عاما على أمته خاصا بالشفاعة :

انجوا الهاشمى باهـــج لنوار * ويقولوا جملت لأمـــام
جنا لك نطلب الشفاع يامختار * يا عـــالى الجاه ولمقـــام
ويقول انا لها واليوم الموعود * وخرت اجواب ادعوتى عنداسؤالى
عند امنابر ايقوم بمقام المعبود بين اكراس لونيا شمس ايلالى (2)
ويسجد فالترا اينادى ياموجود * وعدك بشفاعت لورا تجبر حالى
ويقـــول الدايـــم لمسرمد * ارفع راسك من السجود
اشفـــع نشفع يا محمد * واطلب تعط ابجل جود
وايقول الهاشمى لمجـد * اعجـــل بقضاك يا ودود
اهل الجنا يدخلوها وهل النار * يمشـــوا لهـــا ابلمـــرام
انا الشفيع فمتى وانت الغفار * يا عالى الجـــاه يا سلام
ايقول الرب كونوا افجنت رضوان * اهنيا جميع ما وعدت اليوم ايكون

I) اللحد .   2) يتلألأ .

الشوق والحنين للبقاع المقدسة :

واما زيارة مقام الرسول الاكرم فقد أتاحت لكثـــير من الشعراء ان يعبروا عن شوقهم وحنينهم للبقاع المقدسة وما يعانون من ذلك الشــــوق وهذا الحنين ، فعبد الله بن احساين دائم السهر والبكـاء من الشوق ، معتل الصدر من التنهد ، لا شيء يطفيء من ناره غير زيارة أرض طيبة حيث يريد ان يمرغ وجهه على قبر الرسول ويتضرع اليه أن يمنحه الامان :

رانى الله شاهد عن قلبى واللسان كل احيان

انبات كنضل ابشوقى والدمع كاينو لمـــزان

بتناهدى اتعلل صـــدرى والصعب ما بقى يليان

نمشى الارض طيبا نطفى ما فالقلب من نيـران

وانمرغ لخدود ونتضرع فوق من قبر العدنان

وانقول ياشريف لاسم مـــداح طالبك للامان

ثم يعود الى منزله فرحان ليصلى ويصوم ويمدح الرسول :

وانعود من الحج المركاحى يا عنايتى فرحـان

للصوم والصلا وامديحك بـين لحديث والقران

ويخاطب الطالب لحسن حجاج البيت ، وقد تعلق بهم قلبه وارتبط عقله ، متمنيا ان يقف مثلهم فى عرفات ويلبى :

عقلى طاش امعكم يا زيار العدنانى

لجبـــل عرفـــا وامنا

قلبــــى كيتمنـــى

بفضل مول المنـــا

نحصن بالحرم ايمانى

نوقف فى موقفكـــم

وانلبى بالرحمـــانى

يرحمنى بفضلكـــم

وانقول ابلغت امانى

وهو يامل ان ينادوه فيقطع المسافات ليلحق بهم :

مـــدرا لى باللحقان

نربى نهج الطرقان

ندهولى يا صدقانــى

نصبـــح فى حضرتكم

مير العشاق اسقانـــى

ومن اجل ذلك يرجوهم ان يدعوا له الله ان تتم له مشاهدة نـــور العين والشرب من المعين ما دام يعشق وما دام الشوق يدعوه :

رغبو فيا المعـــين

انشاهد نور العـــين

نروى من راس العـــين

نعشق والشوق ادعانـــى

فالمعـــلا ننظركـــم

وانشاهد من يرعانى

كرمـونى بدعاكـــم

خايـف نفسى تسعانى

ومثل هذا نجده عند الكندوز الذى يخاطب الزائريـــن يرجوهم ان يخبروا صاحب المقام بحال مهجته الفانية وذاته النحيلة من الشوق ، يقضى ليله ونهاره تائه الجوارح ذاهل الروح ، لا يحلو له عيش فيرغب فيـه ولا يناديه الموت فيرتاح ، دمعه متهاطل كالمطر لا يفتر ، وسهره لا ينقطع مـن فراق من سلبه وملك عقله ، لا يزيد قلبه الا لظى واحتراقا وقد حالت دون الوصول اليه الروابى والجبال ، وهو وحده الذى يستطيع معالجة دائه :

خبروه ابحالى رامهجتى ارشات * من الوحش وذاتى بالشوق ناحـلا

اكما انظل انلالى(I) بالشوق كنبات * ولجوارح تاهو والروح داهـــلا

ما زهى لى عيش اولا نـــادانى اممات *

من افـــراق امناكم لنجـــال هاطـــلا

I) اسير بدون هدف .

ليس تفتر كالودق (١) السماكب الدقيق ✻

تـــاه عقلى شى ايـــلاقنى ابحبكـــم

. . .

وين ما سرت انشاهـد ماريت اخيال ✻

فالفكـــر واليقظ والذات فاهيـــا

اسلبنى وامــــك عقلى سيد الرجال ✻

تاهت اسيار الذات امعاه داويـا

. . .

كل ساعا ايزيد القلب الظا احريـق ✻

يا لى غيبتـــم اوفـــين حدكـــم

اكما انقيل نمشى سهران كـــل ليل ✻

من اهوى محبوبى فاقد راحتـى

. . .

درقـــوه اعليا لـــرواب الطـــواد ✻

ليس من غيرو كـــان الليعتى اطبيب

كذلك يبعث الفلوس سلامه للرسول مع الذاهب لزيارته ويطلب منه تبليغه انه من الفراق ينحب معذب القلب هاطل الدمـع ملسوع الضمير ، راجيا ان يقرب لمقامه وحماه وقد طالت غربته :

يا الغادى لمقـــام الهاشمى المرشاد ✻

بلـــغ اسلامى حـــزم للنبى الهـــادى

قل للحبيب من افراقـــو عدت انحيب ✻

وقلبى ابلفراق يا صـــاح متعـــذب

قل للحبيب دمع عينى هاطـــل اسكيب ✻

واضميرى ابلفراق لا زال امنكـــب

قل للحبيب ردت لمقامو تقريـــب ✻

هـــادى مـــد اشحال ونا متغـــرب

امتى لحماه فحياتى نتقرب

---

١) الودق كما فى الفصحى المطر .

ويتوسل الى الله بمن زاروا بيته ان يزين اسمه ويزكيه وينعم عليه بلقب الحاج ، كناية عن أدائه الفريضة :

يا لمولى زكى اسمى باسم الحاج * ابجاه من حج أطاف أزار حرم طه

فما أسعد من زار مقام الرسول الكريم وادى الشهادة عنده ، وما أسعد من رأى سكان طيبة وفاز بالعز والرشاد ، وما أسعد من شهد نور الهدى المبهج ، فما مثل النظر اليه تنزه ، ولكن هل سيمتع بصره فيجمال الرسول ليرقى عند رؤية صورته ؟

يا سعدات من زار امقام سيد لسياد   يا سعدات من عندو أدى الشهـادا
يا سعدات من شاف امقام تلك لوهاد   قوم طيبا فايز بالعـز والرشـادا
يا سعدات من رانور لهدى المبهاج   ما بحال النظرا فشمايلو انزاهـا
ياترى ننظر فجمالو ابشوف نغنـاج   عاد نترقى لما صورتو انراهـا

وقد تتاح الزيارة للشاعر فيحس هذه السعادة على حد ما تم للحاج اعمارة الذى غدا سعيدا وقد حج مع الابرار ، وطلب العفو عن أوزاره ، وزار مقام النبى المختار ومتع بصره فى قبته ، أنعم الله عليه بالزيارة فتنور قلبه ، وتلا القرآن فى مسجد الرسول وسبح فى ساحته :

سعد سعدى حجت امع لقطاب لبرار   سعد سعدى وطلبت لعفو عن اوزارى
سعد سعدى زرت امقام النبى المختار   سعد سعدى متعت افقبتو ابصارى
سعد سعدى نعمنى خالقى ابلمـزار   سعد سعدى واتنور ساكن السيارى
سعد سعدى فى مسجدو اقريتلسوار   سعد سعدى سبحت افساحتو البارى

لذلك فما شاهد ــ فى رأيه ــ شيئا من لم يشاهد مقام الانوار ، وما أدرك من لم يدركه ، وما أحس من لم يحس سر الاسرار فى مقام المصطفى عظيم الاسرار ، وما فاز من لم يفز بالحج والذكر عند قبر النبى الكريم ، وما رشف من لم يرشف من ماء زمزم العذب خير الآبار ومطهر القلوب :

آش شافوا من لاشافوا امقام لنوار   واش دركوا من لادركوه افلعـمارى
واش حسوا من لاحسوا ابسر لسرار   فى امقام المصطفى عاظم السـرارى
واش نالوا من لانالوا الحج واذكـار   فوق قبر الهادى لمشرفو البارى

. . .

واش رشفوا من لارشفوا افخيرلبيار   بير زمزم لعذيب امطهر السيـــارى

واذا ما هيئت الزيارة للشاعر فانه قد ينقل وصفا للركب ومراحل الحج فى قصائد أطلق عليها «المحمل» ، وهذا ما فعله عبد القادر بوخريص الذى وصف ركب الحجاج المغاربة وهو يستعد للرحيل من فاس ، وقد ضم جماعات من سوس ومراكش والحوز والعرب والبربر ومختلف القبائل:

أرواح أراسمى اتشوف هذا الركب السايــر

خلا ناس الذوق سايقا لمقـــام المختـــار

مادامن قومان جات تمشى للحج اتخاطـــر

من سوس امراكش اللفريج جلوا الخطـــار

واهل الحوز اوكل امن اتهيا واعرب وابرابر

واقبايل شلا انصفهـــا والطلبا   لخيـــار

ويعطى صورة لاطار هذا الجمع الذى برز فيه أكابر أهل فاس ، حيث نصبت الخيام واصطفت الخيول ولمعت الخناجر والسيوف والبنادق والرماح ، وحضر أبناء السلطان يحيط بهم الخدم والحشم ، ووقف رئيس الركب يستعد للرحيل وقد فاضت عينه بدموع كالجواهر :

واخوايج هل فاس برزوا بمضارب واسحاحر

واخيام اعجيبـا امتحـفا فرجـا للنظـــار

واهجاين واخيول رايضا واصوارم واخناجر

وامكاحل واسنون والسيوف اتقصر لعمـار

واولاد الملك عبدو رضى اسناهـم زاهـــر

حفت بهم ناس لوفـا واعبيـــد ولحـــرار

والحاج الطالب (I) فاض بحرو دافق بجواهر

واتهيا للميـز والسفـر بالمـال ولجـــوار

I — فى البحث الذى كتبه الاستاذ محمد المنونى عن «ركب الحاج المغربى » ان ركب هذا العام (1326) حج فيه المولى ابراهيم ابن السلطان المولى سليمان وان الذى ترأسه هو الحاج الطالب بن جلون (ص I5 ط معهد مولاى الحسن — تطوان 1953) .

واجمال وابغال ولحمال والصايم والفاطـــر

واهوادج واجحاف صاينا واعوانس وابـكار

ويستعرض مختلف مراحل الحج ، وتبدأ فى رابغ حيث مكـــان الاحرام — بالنسبة للمغاربة — والشروع فى التلبية ، فالطواف بالمقـام وتقبيل الحجر الاسود والوقوف بعرفات ، ثم الهدى والنحر فى منـــى صباح يوم العيد فرمى الجمار ، وبعد ذلك يؤدى العمرة ويقوم بزيـــارة قبر الرسول فى المدينة :

وافرابغ يحرم امـن اتهيـا للـحج وهاجـــر

ويلبى للحى امن اصميم القلـــب البكـار

ويطوف ابلمقام ولحجر قدامو يتجابـر

وافعرفا تكمل حجتو ابرحمت الجبار (1)

وايضحى بمنى اصباح عيدو وايولى ظافر

بفرايض وامناسكو او حجو يرمى بجمار

وايجب العمرا اعلى النهايا ويطيش الخاطر

وايجدد بالسير للشفيع الماحى لمـزار

أما اذا لم تتح الزيارة ، فيكتفى برسول يبعث معه كتابا للنبـــى العظيم ، على حد ما فعل الحاج محمد بن على المسفيوى فى «المرسول» الذى يقول فى حربته :

من الغرب اتسير ابلكتاب يالمرسول وصلوا لحمد طه خاتم الرسالا

ويشير عليه بالطريق الذى ينبغى أن يسلك للوصول الى البقاع المقدسة ، مع تحديد لكل المحطات التى يمكنه أن يتوقف بها ، وهو فـى البدء يوصيه ان يتجنب الصحراء لقلة الماء وصعوبة الطريق وينصحه ان يسلك طريق الساحل وان يظل فى ركاب الحجاج :

لا تفرق الحجاج اتنال كل تقـراب فى اجمعهم تدرك لمراد دون ريبا

جنب الصحرا تنجا من هول واشغاب قلت الما فيها واطريقها اصعيبا

اعلى اطريق الساحل تغدا وصغ للقول رايد النصحك بحديثى افد لمقالا

---

1 — المجير

أما الطريق فى المغرب فيبدأ من الرباط فسلا فمهدية فأصيـــلا فالعرائش فطنجة فسبتة فتطوان فمليلية فجبال الريف :

امن الرباط اخرج كربك ينفجـــا ولقبول ايشملك طيبو اعطير نفاج
فى اسلا تلقنى لرجوعـــك نترجا دوز مهديا وزلا (I) او فوت لبراج
من لعرايش تغنم فى طنجا الحاجا ابزورت الولى لمكنى السيد الحاج
يمن اعلى سبتا وفتطوان محفـــول اتكون فملالا واتعود افلكفـــالا
دوز فجبال الريف اولا اترافق اجهول اترك خلفك قومان الجور ولجهالا

ثم يعبر الحدود للجزائر حيث يمر بوهران ومستغانم والجزائـــر العاصمة فعنابة ليصل الى تونس ، وفيها يزور بنزرت وتونس العاصمة حيث يوصيه أن يقف على مقام سيدى محرز قبل أن يأخذ طريقه لسوسة وسفاقس وقابس ، ومنها يدخل الى ليبيا بادئا بطرابلس فطبرق فبنغازى فبرقه .

دوز للغزوات بنى انصاف بظهر * وهران (2) اقبالو ينبا احصين زاهـر
مستغانم اسراسر اكبلها امخيـر * كان فالتيه اتبان امدينت اتزاير (3)
بعد عنابا فى بنزرت ماترى هــول * بات فى تونس لها روح افلمهـــالا
زور سيدى محرزواغدا متيل رقاص * ذكر احبابى فى سوسا امع اسفاقس
فى احماهم تحظى هانى او لاترى باس * ما تفطن اقبالك حتى اتشوف كابس
بعد كابس فى امسايراتشوف بغلاس * من اسواحل جرب حتى طـرابلس
بات واقصد طبروق اولاترافق اكفول * اتصيب بنغازى طرف اليم غلفـــالا
كن فى برقا حاضى لايصيدك ادهول * فى امهامه درنا ما تلتق ادهـــالا

ويصل بهذا الى الحدود المصرية الليبية ، فيدخل السلوم ومنها الى الاسكندرية فدمنهور فطنطا فالزقازيق فبنها فالقاهرة :

زد للسلوم اصغالى انفيدك بغراض * ابلحدق كن افلمشى اخفيف لعضـا

I ـ يغلب قلب صاد أصيلا زايا

2 ـ يغلب على المغاربة نطق وهران بكسر الواو .

3 ـ يغلب على لهجات الشمال الافريقى قلب جيم الجزائر تاء وكأنها تستثقل الجمع بين الجيم والزاى .

فى اسكندرية تلقى من لوفاحـظ * للدمنهور اتكلف ابلمشى اكبـــالا

. . .

فوت دار الرهبان تدرك عز واقبول * بلعباس المرسى اللى افلحظــــا

زر سيدى البدوى كان رايد اتصول * افطنطا ما تحتاج لمراسمو ابـــدالا

لن كازيك امع بنها اتصيب فالحين * منها روح المصر يا رسول فرحـان

ويتوقف ثلاثة أيام فى القاهرة ليزور مقام سيدنا الحسين والقلعة وضريح الامام الشافعى والسيدة سكينة ويستمتع بضفاف النيل . وهو خلال هذه الايام يتفرج على حفلات المحمل بقبابه وهوادجه والمشاعل والعساكر فى زيها الجميل والابواق والاعلام والطبول :

سر لمقام ولد الهاشمى اتصيب فالحين	الجاهم اسع الرب لورا المنان
اطلع لمقلعا لحصينا ومتع العيـن	اعلى لخبير انفتش من به حق ستعان
زر لمام الشافعى اتعود مشمـــول	بالشنا والبركا ولا تـر امهـــالا
اكداك ست سكينا(I)طب كل معلول	افحرمها زد اتدلل غايـت الـدلالا
اجلس تلتيام افرجا ابغيتك اتنـــال	بنزايه بين القلعا وساحل النيـــل
كل يوم افراجا بين لكهول واطفال	فى ايام المحمل اللى هو موكب احفيل
بالجوامر شمع يبريزها ابلهــــلال	ولقبب وهوادج تشفى اسقام لعليل
ولعساكر تظهر فى زيها المكمـــول	افلكسا وما دركت كيفها اعمـــالا
ابلعساكر واغوايط ولعلوم واطبـول	ايجددو داك الموكب كل ما اتبـالا

أما الرسالة التى يحمل فسيبلغها عند شباك المقام ، حيث يوصيه أن يضع يده ويخبر صاحبه الكريم انه جاء مبعوثا من محب فنى جسمه فى حبه ، لو استطاع لقدم روحه مقابل وصله ورؤية نوره ، جاء برسالة منه وقد تركه رهين الشوق يريد أن يتشرف بطيب اللقاء ، وألا يحرمه من رؤية جمال وجهه ولو فى المنام ، فكل رغبته وكسبه أن يجود عليه بالرضا والعطف :

بعدها توضع فالشباك راحــت ايديــك

قل لويا من روح النفس هايــم افــداك

I) الذى يحفظه الرواه هو «ست ستينا» ولكن لا يعرف ضريح بهذا الاسم فى القاهرة ، ورجحنا أن يكون تحريفا لـ : «ست سكينا» .

جيت من عند اللى جسمو افنا افجبـــك

قال لك حق اللى بيـــن لعبـاد نبـــاك

لو ايصيب ايبدل روحو ابطيـب وصلـك

ايشوف نورك من سجدت لو اجميع لملاك

جيت برسالا واتركتـــو ارهين شوقـــك

راد يتشرف يـا سيدى ابطيـب ملقـــاك

لا تحرمو من نظرا فى اجمـال وجهــــك

حبها ولو فى امنامـو ايشاهـــد ابهاك

كان رفتلو من بعد الرضــــا ابعطفــك

ذاك رغبو واكمال اتجارتو امـــن أوفـــاك

ومثل هذا نجده فى القصائد التى يطلق عليها «المرحول» أو «الورشان» أو «الحمام» حيث يرسل الشاعر طائرا الى البقاع المقدسة يحمل رسالته للرسول ، مارا بنفس المراحل ومزودا بنفس التوصيات . من هذه القصائد «مرحول» الحاج عمر المراكشى الذى يقول فى حربته :

أولد لحمام ادى لى عنوانـــى للصادق لمصدق رسول اللــــه

ومنها كذلك قصيدة الحاج ادريس لحنش المشهورة بـ «حمام المدينة» والتى يقول فى حربتها :

هاك اكتابى يا حمام المدينـــا من أرض فاس سر اتزور المدنى

ويوصيه اذا ما وصل الى الشمباك أن يلقى بالكتاب ويبلغ الرسول أنه مبعوث من طرف عبد أثقلته الاوزار ، تحبسه وتقيده جرائم كبيرة ، وهو يرجو شفاعته ليل نهار :

أوقف فالشباك الشريف الزاهر والق اكتاب للماحى تاج انصارو

ثم قل أشافع لعباد الطاهـــــر هذا كتاب عبد امثقل بـوزارو

محبوس امقيد فى اجرايمو لكبار يرجا اشفاعتك فى ليلو وانهارو

التـــوسل :

واذا كان الشاعر الشعبى قد عبر فى قصائد الحنين الى البقاع المقدسة والشوق لزيارتها عن حال ضعفه مثقلا بالاوزار ، فانه فى قصائد التوسل

كشف في وضوح أكثر عن هذا الحال وعن رجائه الملح في الله أن ينقذه ويعفو عنه ، متخذا وسيلته اليه أو الى رسوله الكريم وساطات مختلفة(I) .

ومن أشهر قصائد التوسل قصيدة العلمي التي يقول في حربتها :

يا من ابلاني عافني ارحمتك انال   خف ثقلي يتسرح يرتخا اعقالي

وفيها يطلب من الله أن يغيثه حتى ينفرج كربه ويصرف همه ويهنا خاطره ويسلو قلبه ، فليس له من ملجأ الا هو بعد أن فشلت كل حيلـــه وخيمت الاكدار في ساحته ، وهو يريده أن يقضي حاجته في الحال متوسلا اليه بالرسل والانبياء والاولياء والسادات والصالحين وكافة الاقطـاب والابدال وبجبريل وملائكة العرش وعزرائيل وميكائيل واسرافيـــــل واسماعيل وابراهيم :

غثني يتفجا كربي انلـــوح لهـــوال * خاطري يتهنا قلبي ايعود سالـــي
لين يركن من بارت لو اجميع لحيال * اوعاد منزل ديوانو ابلكدار مالـــي
ادخيل لك أمولاي بالانبيـا ولرسال * ادخيل لك اسيدي بجاه كـل والي
ادخيل لك بالسادات الصالحين لفضال * كافا لقطاب ولجراس وابدالـــــي
ياياله اسائتك بجاه حق جبريـــــل * اسع املايكت العرش هل السما العالي
اوجاه عزريل وميكائيل ويسرافيـــل * كل ما نطلب لك نبغيـه ينعطالي
اوجاه اسماعيل ومول لمقام لخليـل * حاجتي نبغيها فالحين تنقضي لـي

وهو حين يتوسل الى الله يعرف أنه غير غائب حتى يرجوه أو عاجز حتى يعذره ، وانما هو قريب حاضر ناظر ، جزيل العطاء والاحسان ، قادر على أن يشفي ذات العبد من كل علة :

مانت شي غايب نرجاك يالجليـــل * اولا انت شي عاجز تعدر يالمـولى
اقريب حاضر ناظر معطا احسانك اجزيل * تقدر تشفي من ذات العبد كل علا

أما هو فضعيف الجسم ثقيل الحمل لا يعذره الناس في بلواه ، لا حول ولا قوة له ولا جهد ولا حيلة ولا تدبير فيما قضى الله :

لبدان اضعيف والحمل جاير اثقيـل * ولخلايق ما تعدر حال من اتبـــلا
مايلي قوا ولا جهد ولا حــــــول * ولا تدبير افلقضـــا ولا حيــــلا

I) معلوم أن للدين رأيا في موضوع التوسل الى الله بالغير أو التوسل لغير الله ، ولكن ليس من شأننا أن نتعرض له في هذا البحث .

وأمله كبير فى أن يبلغ مقصوده ، فالعبد اذا شكا لسيده قبل شكواه وحرره ورفع مرتبته ، لذا فهو يدعوه ويرجو منه القبول والاسراع فيه ، ما دام باب الاجابة غير مقفل ، وما دامت خزائنه مفتوحة للسعاة مثله :

اذا اشكا العبد اعلى سيدو ايزيد يقبال *
ايحررو ويديرو فمراتب لمعالى
باب لجابا عندك ما تسد بقفال *
امخازنك مفتوحا للساعى ابحالى

. . .

من عندى انا الدعى ومن عندك لقبول *
والحاجا ما تكون فيها تعطلا

أليس هو القائل لرسوله : «واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعانى » ؟ واذن فلن يخيب عبد دعاه وسأله ، فهو سريع العطاء ، تنفيذ امره رهن بحرفى الكاف والنون ، وتلك قدرة الجليل التى حارت فيها العقول ، وما حاول احد ان يحقق فيها الا وغاب عن عقله وتاه :

حق قلت يا ربى للنبى المرسول * من ادعانك فعبيدك حق تستجب لو
كيف يدعى عبدك وايخيب بالمسؤول * يا سريع المعطا لجميع امن اطلب لو
أمرك بين الكاف ونون حق مفعول * من اتحقق يحمق وايغيب له عقلو

ولا عجب فقدرته وسعت كل شيء ، اذا اراد شفا العليل واغنى الفقير ورفع الوضيع وعلا شأنه وجاهه ، واسعد الشقى وغفر له معاصيه وصيره من اوليائه . لذا فالواقف ببابه يطمع فى العفو الذى يجود به على العصاة أمثاله :

اذا ردت بحكمتك تشفى لعليل * ويذا ردت لفقير يرجع ذو مالى
ويذا ردت لوضيع يدنا للتفضيل * ترفع جاهو ايعود فى منزل عالى
ويذا ردت الشقى اتسعدو يالجليل * تغفر لو افما اعصاك واتجعلوا والى
بعفوك اتجود * على العصات ابحالى

وهو يرجوه الا ينظر الى قبائح أفعاله ، وان ينظر الى ضيقه وضعف حاله ، فلن تنفع الله طاعته ولن يضره جهله ، ما دام غفارا لا يحاسب على الضلال :

لا تنظر يا كريـــم لقبايح فعلى *
انظر من ضيقتى وضعف الحـــالا
ما تنفعك طاعتى ولا ضـــرك جهلى *
لنك غفـــار ما تجافـــى بضـــلالا

فيه رجاؤه وعليه توكله ، ولا يريده ان يسلمه الى مـــن لا يرحمه ولا يرثى له ، هو المتعالى يعلم سرّ قلبه وانه لا يفكر فى غيره ، مهمـا ضاق به الحال وفاض قلبه فهو لا يسعى لغيره ولا يفتر عن سؤاله :

من فيك الرجا واعليك الاستكال * لا تولجنى اليد مـــن لا يرثى لى
انت تعلم ابسر قلبى يا متعـــال * لا ينى ما ندير غيرك فى بـــالى
مهما يقنط ساكنى ويضيق الحال * نسعاك اولا يغيب عنـــك اسؤالى

ولابن الوليد توسل رائع يقول فى حربته :

ناديت ابكـــرحتـــى اوصوتـــى * وارفعت صوتى الرب الملكـــوت
وادعيت آقلـــت فى ادعوتى * يا من نجيت يونس فبطن الحـــوت
اما قبل الموت وما بعد الموت ياربى كن لى افموتى

وهو يتوسل به اليه ان يسمع دعاءه ويلبى طلبه ، فقد وقـــف ببابه مملوكا يرجو ان يغنيه من احسانه وفضله الواسع ويهديه لذكره ويجعل هذا الذكر قوته والذ فى لسانه من كـــل لذيذ ويكتب لـــه فى قسمته قصرا بالجنة :

اللهم ابحقـــك أمـــولاى اعليـــك *
سلتك بك يالسميع المـــن ادعـــاه
كن افطلبى امسريع اكما نطلب لك *
يامن صورت صورتى فى شين ارضاك
انت السلطان مايلك فالملـــك اشريك *
ونا المملوك واقف فى بابك نرجـــاك

يارنــا اسألتــك * من فضلك واحسانك * وانت الخير عندك

ضافى اعلى اعبادك * اغننــى بفضلــك * الواسـع اخزانــك

واجعــل مشربى اوقــوتى * ذكرك فلسانى اغلى من لذ القوت

واجعــل يا خالقــى اقسمتى * اقصر امـؤيد افجنت لعلا موروث

وله آخر يتوسل فيه الى الله باسمه وببعض سور القرآن الكريم ، يقول فيه :

نتوسل باسمك ليك اوصاد اوطه اوقاف والقرآن لمبين والرحمان اياسين

ولمولاى على شقور توسل يقول فى حربته :

يالله نتوسل لك ابنـورك يا سيدنا مولاى محمد لحبيب عندك

يرجو فيه الله ان يحن ويشفق على عباده ، والا يخيب من جهــل بأمره والا يعاقب العصاة لانهم يلتمسون رحمته ، فكل الخلق فى قبضته وحكمه ، وكلهم يعرفه بقدر ما يريده هو ، بيده شفاء المريض لا يداويه غيره ، وبيده القبض والبسط ، واحد فى ملكه لا شريك له :

حــن واشفــق اعلى اعبادك ياسيدنا *

اولا اتخيب شى ياسيدنا من جهلك

لا تزعج ابلعقوبا اعلى اللى اعصاوك ياسيدنا *

اوهمــا ابلحبيب يرجاوا رحمتك

كل‌ما خلقت ياربى كلو فى احكامك ياسيدنا *

كلها اوما بينت لــو منــاك

واللى امريض امعلال ادواه بــك ياسيدنا *

اولا ايداويه يــا سيدى من غيرك

يا باسط لنعام ابسط اعبــادك ياسيدنا *

ابخيرك يا سيــدى ونعمــك

القبض والبسط كلــو منــك ياسيدنا *

فيه القت يا مــولاى عبــدك

لا شريك امعــاك اولا مشــروك ياسيدنا *

واحــد احـد فى ملكـك

ومن طريف التوسل الى الله لون جماعي يشترك في انشائه اكثر من شاعر يطلق عليه « التويزة » او «الراحة والشفاء» (1) ، وهو عبارة مساجلة يقصد منها الى طلب شفاء صديق مريض ، أو انتقام من طاغية ، يتطارح فيها الشعراء عروبيات أو اقساما تكون في مجموعها قصيدة (2) ومن اروعها تويزة مراكشية شارك فيها الاشياخ محمد بن لكبير ومحمدبن عمر ومحمد بن بوستة متوسلين الى الله ان يشفي صديقا لهم مصابا بداء الضيقة النفسية ، بدأها ابن الكبير داعيا الشعراء الى طلب الرحمة والشفاء لهذا الصديق ومتوسلا الى الله ان يدركه بلطفه الخفي :

أسادتي افوامس العلم الموهوب * يامن لكريم هبكم افضل وافي
عنكم اسلام فايق المسك افلجيوب * يعبق عن جمعكم ياهل لقوافي
وبعد مرو اقصدكم وجا مرعوب * امريض النفس طالب الله ايعافي
طلبوا له الرحما العالم لغيوب * اسميع امجيب ابلخطا ليس ايحافي
هو يعفو اعليه من هذا المكروب * يشفي ضرو افحين بدواه الصافي
وادرك هاذ لمريض باللطف الخافي

---

1) في مراكش يطلقون على هذا اللون «التويزة» وفي فاس يطلقون عليه «الشفاء والراحة» . ومعنى التويزة الحصيلة ، وهو اسم شائع عند الفلاحين . وذكر لنا الشيخ ابن عمر المراكشي في نشأة التويزة عند شعراء الملحون قصة اسطورية تقول ان ملكا كان له كنز لا يفتحه الا ايام المجاعة . وفي يوم من هذه الايام أراد ان يفتحه فلم يستطع فاستدعى العلماء فعجزوا فهددهم بالقتل . وكان احد هؤلاء العلماء متصلا ببعض اشياخ الزجل فحدثه عن الموضوع فقال له الشيخ : «انتم علماء الاوراق ونحن علماء الاذواق» واخبر العالم السلطان فاستدعى هذه الطبقة من حملة علم الاذواق — وهم الشعراء — فاخذ كل منهم ينشىء وينشد الى ان تيسر فتح الكنز .

2) ذكر لنا اكثر من شيخ ان التويزة تقال قصيدة في فاس وعروبيات في مراكش .

فأجابه محمد بن عمر :

واعليك السلام يا نعـــم المدوب * اسلام الا يزول من عند اولافـــى

استغدنا جل قـــولك والمخطوب * افشأن هذا الرجول من ضرو خافى

له نسال اعلاج ضرو دون اسبوب * يضحى سالى اسليـــم هانى متعافى

ما بين اهلو ولامتو فارح مطروب * توب الراحا اكساه لبس بالوافـــى

واخلصت بالسقم ما بقى مشغوب * شفاه الله امن الضيقا متشافـــى

حفظو من لاينام وانسى كل انكوب * وامضى ضرو وعاد بدنو صـــافى

له نسال لكريـــم وكفى منصوب * فدعايا كنقول يا نعـــم الكـــافى

ادرك هاذ لمريض باللطف الخافى

ثم رد عليهما ابن بوسته متجاوبا معهما فى التوسل :

اتى مسطوركم ا يالامت لنجاب * واشرح صدرى امنين ريتو بهدافى

افشأن هذا الرجول بالضيقا موصوب * بالراحـــا بشروه ضرو متنـــافى

وفاه الله بعـــلاج ارمى لنحوب * نجاه الله سار جرمــــو مترافى

اللهـــم ابجاه لحبيـــب المحبوب * طـــه عين لوجود نعـــم المقتفى

اللهم ابجاه ما ضمت لكتوب * وابجاه الساجدين فى كل افيافى

اسألتك بك لـــك عجل بالمطلوب * يامن ترى وليس ترى كشوافـــى

ادرك هاد لمريض باللطف الخافى

كذلك توسل الشاعر الشعبى للرسول على حد ما نجد عند ابن الوليد الذى يتوسل اليه بحرف القاف من القدرة ، وبحرف العين من اعز اصحابه العشرة ، وبحرف الفاء من فضل فاطمة وبحرف اللام من الملائكة المقربين :

ادخيل لك ابقاف القدرا * اعين عز اصحابك عشرا * أفا فضل فاطم الزهرا

الام لملاك لقراب عند مـــولاك

ويقف عند بابه يشكو متوسلا الى حماه ليعتق روحه من أيدى اعدائه : هواها الخشن والشيطان اللعين :

واقف عند بابـــك شاكـــى

زكت يا محمد فحمـــاك

فـــادى روحـــى بفـــداك

امن ايديـــن اعـــداهـــا

نفسها واهواها لخشــين

والشيطـــان اللعـــين

ومثله توسل الطالب لحسن الذى يقول فى حربته راجيا منالرسول أن ينجيه من حر النار :

فكنا من صهد النيران * يالعدنـان * يا رسول الدنيا والدين

ويطلب منه الا يفرط فيه يوم اللقاء الكبير ، فهو صاحب الفضـل والبر والشفقة ، وان ينجيه كما نجا الغارقين مثله فى الذنوب :

يا رسول العاهد لوثيق * لا اتفرط يـــوم الملقـــى

يا فصيح اقوال التصديق * والفضـــل والبر اشفقـــا

يا مسلك من كــان اغريق * فالذنوب امثيلى وابقـــى

ويتوسل اليه بعمر وعثمان والحسن والحسين والصديق وعلى وبقية الصحابة الاركان واهل القرآن ، وبحمزة وفضلاء عقيـل وبحرمة الكتاب وصحف العلم ، يتوسل اليه بكل هؤلاء أن يفكـــه والمسلمين فى ساعـة الحساب :

ادخيل لك بعمـر وعثمان * بالعدنان * والحسن واكداك الحسين

والصديق اجملـت لركان * يالعدنان * ابعلى وهل اللبيـــن

ادخيل لك ابجملت لصحاب * يالعدنان * ابحمزا وفضايـل عقيل

ادخيل لك ابحرمت لكتاب * يالعدنان * والصحوف اعلم ادليـل

اتفكنا فـى ساعت لعقـاب * يالعدنان * ياشريف النسبانفضيل

ويتوسل محمد بن الحسين العلوى الى أصحاب الرسول العشـــرة الشرفاء المنورين الذين سبقوا الى تصديقه :

زكت فحما نعم العشرا اخيار لصحاب *

اصحاب محمد من لا كيفهـــم محبـــوب

زكت افحرم لصحاب نعـم الاكرمـــين *

من بهم طابت لمكـــارم فلحسنـــا

هما الشرفا لمكـــارما فالعالمين *

هما الى نورهـــم لكمل اقتبسنـــا

هما اللى صدقوا ابلحليم الامــين *

مهما نور عل لفلاك ارضا واسنــا

فيما جابه صدقوا نور اشمسنا

ويتوسل الحاج ادريس لحنش الى أبناء الرسول أصحاب الجـود والفضل ان ينظروا الى حاله حتى يظفر بأمله ويسلو وتهنأ روحه ويزول عنها الشقاء ، فقد جاء يسعى حماهم ، وهم اهل الوفاء والرحمة ، ونجوم الدنيا الزاهرة ، عساه يقبل وينال الرضى ويزهى بالبشر حاله ، فقاصدهم لا يخيب ، وقد صال عليه الزمان فأتاهم شاكيا تسيل دموعه :

أسادتــى اولاد طــه * شوفوا من حالى

جمعوا داتى امــع ادواهـا * نظفر بمالى

واتريح الروح امن اشقاها * وانولى سالى

أسادتــى أولاد طــه * بغى نبرا من لعلال

شوفوا حالى افغير حــال *رفعوا عارى اوصارخونى تهنا روحى الحايرا

أسادتــى اولاد طــه * لحماكــم جيت يافضــال

قبلــونى بالرضا انال * يادار الجود ولوفا وانجوم الدنيا الزاهرا

أسادتــى اولاد طـه * قاصدكم ما يرا انكــال

لين لبعيــر ولغـزال * اهرب لمقام جدكم ياهل الرحما الناشرا

اسادتــى اولاد طــه * عنى هذا الزمان صــال

والدمع مــن لعيــون سال * قبلوا من جا لبابكم شاكى يزها ابلمبشرا

فليس له من دواء غيرهم ، فى رضاهم عنه ربحه وغناه وراسماله ، وهو يرجو ان يقبل عبدا فى حماهم للخدمة ، فهم آل النبى الاصفياء الاوفياء المطهرون ، أعطاهم الله من اسراره الباهرة ، وهم ابناء فاطمة القرشيــة الشريفة الكريمة درة الجمال الحسنة الافعال ، الشبيهة بحور الجنان :

شيدونى ابلا دواكم ياهل لمعالى

ربحى واغناى فى ارضاكم هو رسمالى

قبلونى عبد فى احماكم نخدم مدالى

انتم اهل الصفا ولوفا وانتم اهل النبى الآل

طهركم حق ذو الجلال

واعطاكم كامل لعطيا حسن اسرارو الباهرا

انتم اولاد الشريفا القرشيا درت لجمال

لكريما زنت لفعـــال

مولاتي فاطما البتول الحريا القاصرا

والى اولاد فاطمة كذلك يتوسل الغرابلي في قصيدته التي يقول في خـربتهـا :

طلبكم ضيف الله سرخنا ياهل لحسان *

من يقصدكم حاشا ايخيب ياهل البيت العدناني

لشراف الحسنـــين

وفيها يقول متوسلا اليهم بجدهم ونورهم السني وشانهم العظيـــم وطيبهم العطر أن يفكوا اسره ويغنوه ويجبروا كسره ويزيلوا ظلمته ويضيئوا نجمه ، فتفتح له أبواب الخير ويربح ويسعد في آخرته ودنياه ، وطالما ان خلفهم مستو ، فهم رحمة للعصاة والمتقين ، وكل من لجأ الى حرمهم لايخاف ، وهم يشفعون في محبهم فيدخل الجنة :

نبغي اسراح يسري * وغنا فقري * اوطب كسري

نسعد وانفوز ابلمزيا حين ايعطفو اسيادنا

هل نوفا ضماني لشراف الحسنين

وابحق جدهم نسألهم الماجدين

وابحق نورهم الوسم * وابحق شانهم الفاخم * وابحق طيبهم الناسم

نبغي انلوح ظلمي * يضوى نجمي * ابنور يسمي

وابواب الخير تنفتح افربح الدنيا او لآخرا نسالهم يعطاني

نسعد فالداريـــن

يا ولاد الزهرا الطاهرا الشرفا نخبة عدنان

ما داموا فالدنيا انجالهم تقات وعصياني

بهـــم مرحومـــين

كيف انخافوا واحنا افحرمهم يالمت لخوان

ايشفعوا فاللى حبهم ويدخل الجنا عانى

يغنم حـــور العين

ومثل هذا التوسل باولاد فاطمة الزهراء نجده عند الفلوس اذ يقول :

يا ولاد المختار الهاشمى الرسال ※ لا تدوزونى يوم البعث ولهــوالى

نوركم اكسا الدنيا ياهل لكرايم ※ يا ترى فيها كم يتمتعوا انيامـــى

ودكم ابغضاو نعـم لغنى الدايم ※ اعلى الخلق احباكم اوجاهكم سامى

اذا اعطفتو عنى روضى ايعود ناعم ※ من اسقيتوه ما يبقى اكليح ضامى

اذا ارضيتو عنى نرمى اجميع لهوال ※ ما يخيب امن اقصدكم ياهل لعالى

اذا عطفتو عنى قلبى ايريح والبال ※ كان وصل ارضاكم على ارضى العالى

. . .

يا هل النور السانى جيتكم مكيود ※ سرحوا سجنى يالشراف امن اكيادى(I)

يا هل النور السانى جيتكم مطرود ※ دونكم ما عندى من ذا الغلال فادى

يا هل النور السانى جيتكم موكود ※ عاملونى يا آل المصطفى الهـــادى

يا هل النور السانى جيتكم موسال ※ صرخونى يكمل قصدى امع اسؤالى

مدح الاشراف والاولياء :

واذا كان الشاعر الشعبى يتوسل بابناء الرسول فهـــو يمدحهـــم كذلك ، فابن الوليد يطلب من المنشد ان يفخر بفاطمة بنت رسول الله عروس يوم القيامة ، الصائلة بجمال الشرف على سائر بنات آدم ، ويطلب منه أن يمدحها ويتغنى بمدحها حتى يفوز بنظرة فى جمالها ويفرح :

صول ياغانى وافخر ابللا فاطما الزهرا بنت ارسول الله اعريس يوم القياما

الصايلا ابزين الشرف اعلى ابنات آدام

. . .

وامدح للا فاطم بنت الرسول ※ غنى بالمدح وامدح حتى بالمدح

تربح نظرا فزينها وافراح

. . .

I) مكيود : مقيد ، والاكياد القيود . 2) سائـــل .

امدح يالمدح أقول أزيد قول * عســى ان شا الله اتحوز نظرا
افزينها واتفوز كنز امعظم افلكنوز

ولكنه لا ينسى شرف المقام فينبه مخاطبه ويطلب منــه أن يتعظ ويتادب ويتامل ويمتثل ويطلب الامان ، ويهدى كلامه الجميل الى أم الجمال حتى يهدأ من الفتنة ويحوز الهناء وينال الغنى ويفوز بنظرتها فى المنام :

اتعظ واتأدب واتأمل يارجول

وامتاثل واطلب لمان

واهدى كلامك الحسن

لـــم الحسن

وارتاح من الفتنـــا

واطلب لهنـــا

اتنال لغنـــا

واتفوز ابعز لحلاما

ويذهب شقور فى مدحه للاشراف حفدة الرسول الى أنهم معروفون فى كل مكان ، لا يخفى سرهم ، من احبهم عظم وشرف وغدا سيفا مصقولا لا يفل ، ومن ابغضهم صار حزينا ذليلا مهموما :

اولادك فى اجبال ووطا ساروا بالتعريف *

شوفوا يالناس سرهم عمرو ما يخفا

اللى ايحبهم صار امعظـــم اشريـــف *

سيفــــو مطحون عمرو ما يحفــا

واللى يبغضهم صار احزيـــن اخسيف *

كيف المغبون اللى يرفـــد لحفـــا

وفى نطاق مدح الشرفاء حفدة الرسول والتوسل اليهم ، مـــدح الشاعر الشعبى مشاهير الاولياء والصالحين وتوسل اليهم (I)

I) لا يخفى ان للدين رايا فى تقديس الاولياء والتوسل بهم او اليهم، لا نعرض له ، فهو بعيد عن موضوع البحث . وكانت قد قامت فى المغرب
=

وكان المولى ادريس (I) اوفرهم نصيبا ، ويطلق على قصائد مديحه «الادريسيات» ومنها قصيدة للعلمى يصفه فيها بانه هلال أهل الرأفــة والوفاء والاحسان ، اذا رأف به نال لا شك ما فى ظنه ، وهو الامير الذى لا يعجز عن تنفيذ الاحكام ، يأمر ان عطف فينفذ أمره :

ياهلال هل الرأفا ولوفا ولحسان ※ الى اتروف ابلا شك انال ما ظنى

يالمير الا يعجز فى انفوذ لحكام ※ ايلا اعطفت امر يعمال شرط كازم

شهد بجوده أقدم الكرماء أمثال عدى وزيد وتاجهم حاتم ، كما تشهد الانس والجن والوحوش الهائمة والبر والبحر وسائر العوالم :

لك تشهد بالجود الساخيين لقدام ※

اعشيل عدى أو زيد اوتاجهم حاتـــم

الانس والجن ايشهدوا ولوحوش لهوام ※

ولبحور وبريــن وسائــر لعوالـــم

من العشرينات الى الثلاثينات من القرن الحالى حركـــة سلفية متاثرة بالوهابية ودعوة الافغانى ومحمد عبده الاصلاحية ، قادها الشيخ ابو شعيب الدكالى ، حاربت تيار الطرق والاضرحة والزوايا . وبحثنا فى شعـــر المعاصرين الشعبى علنا نجد انعكاسا لهذه الحركة فلم نجد شيئا حتـــى قابلنا شيخ مكناس السيد بنعيسى الدراز فذكر لنا انه كان مرة عائـدا من زيارة ضريح المولى ادريس فقابله احد اشياخ مكناس كذلك ، يسمى مولاى احمد الدلال ، وعلم بأمر الزيارة فخاطبه بعروبى فيه روح سلفـى لم يبق منه فى علم الشيخ الدراز غير هذا الشطر :

اجى نوصيك ياللى زاير لقبب

فاجابه الدراز فى روح معاكس بعروبى لم تحفظ ذاكرته منه غير قوله:

غرك يبليس ياللى غث ابلقبب
عنهم لا خوف لا حزن قول التعالى

. . .

هادوك هل ليمان والتقوا والحب
حب المولى اوحب خاتم لوسالى

وواضح انه يردد فى هذا العروبى الاية التى كان يتمســـك بها الطرقيون وهى قوله تعالى «الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»

I) وفد المولى ادريس الى المغرب فارا من وقعة فـخ سنة 169 هـ وبايعه المغاربة سنة 172 ومات مسموما سنة 177 ، ودفـــن بزرهون ، وخلفه ابنه ادريس بن ادريس المتوفى سنة 217 والمدفون بمدينة فاس ، وكلاهما كان موضوع «الادريسيات» .

هو مقام الخير وكهف الاحسان والجود ، وهـــو القطب والسلطان المرفوع الاعلام ، وهو القرشى الهاشمى المرشود الوارث للفضل والحلم ، وهو سند المساكين والغرباء والمفقودين ، يلوذ به الفقراء والاغنياء واهل المدن والقرى وساكنو الخيام والاقطار المجهولة ، يتوسلون به وينادونه فتصيبهم جميعا رحمة الله :

يا مقام الخير وكهف لحسان والجود * يا لقطب السلطان الراقبا ابنودو
يا لحسن القرشى الهاشمى المرشود * يالوارث لفضل والحلم مناجدودو
اسنيد لمساكن والغربا اوكلمفقود * اوغانيين وفقرا بك كيلـــــودو
اوهل لمدون وقريات وساكنين لخيام * وهل لقطار الا نعرف لهم آسـم
كافا ترغب واتنادى بفصيح لكلام * اوكافا ترحام ابفضل لغنى الراحم

ويتوسل اليه بحرا فاض ماؤه على الثرى ، ويرجوه ألا يترك روضه يابسا وان يعطف عطفة تشفى من الادواء ،شبيهة بعطف الناقة على بكرها بين العيس ، ويتوسل اليه ذا منزلة عالية لا تخفض ، ونورا يسطع ضياءه كالشمس ، جاءه ولهان مستهام القلب مغتاظا متعب الفكر مهموم القلب يرجو أن يجود عليه بالعلاج :

يا من بحرو اعلى الثرى دايم فياض * لا تترك روض غلتى ظمآن ايبيس
اعطف عطفا امخنترا تشفى لمراض * عطفت ناقا اعلى ابكرها بين العيس
ياماسمك امنزلا اعلاها ما يخفــاض * يامن نورو انبا اعليكاضياهاشميس
اعزم لى ابلعلاج يا مولاى ادريس

فالذى لا يسقى غرس روضه من مائه لن يفوز بزهر جميل ، والذى لم يغتن أو يربح فى حماه فان جيبه يبقى خاويا ويظل مفلسا على الدوام ، والذى لم يعالج داءه بدوائه يظل متألما من مرضه :

من لا يسقى ارياض غرسو من ماكم * مايدرك ماينال بهجتزهر انفيس
من لاغنا وفاز واربح فحـــاكـم * يبقى جيبواعلى الدوام‌اصفر‌مفليس
من لايبر اسقام ذاتــو بدواكـــم * لازال ابضر علتو معثور احسيس

ويرى الطالب لحسن ان ببركة المفضل مولاى ادريس شاع ذكر خير مدينة فاس بين مدن المغرب :

امدينت فاس خيرها يتذكر بين لمدون افغربنا

ابركت لفضل مولاى ادريس

ماس رمحه فظهر العز والفرح ، حيث جنب الناس الفتنة ، وملأ صدورهم بالعلم وأبعد عنهم الوساوس :

هـــا رمحـــو مـــاس * هل العز افرحا عنهم جنب لفتان

لعمر الصدور ابعلم التدريس * ذهـــب الوســـــواس

أما الغرابلى فيرى له مجدا قديما متأصلا يصونه كرم الجدود ، يكفيه النسب الطاهر الذى يقربه من الرسول :

لك المجد اقديم صايناه اكرايم لجداد * **بالعرفان أغايت الرضا ماهىمجحودا**

دريا تاصلا (1) صيلها ما يحتاج اشهود

تكفيك النسبا الطاهرا وقريب الميعاد * **من معدن الجود ولحظا نسبا محمودا**

مابينك أبين الزكى غير ادى لجـــدود

ذاعت علومه فى كل مكان متقنة يرويها كل الناس ، **غزيرة لا تدرك الا** بجهد :

واعلومك نائى اصقوعها فى غايت لبعاد * متقونا يروى انساجها عمراوازيودا

مغزورا تغزير ساجيا مدروكا بجهود

وكالادريسيات «الجيلاليات» **وهى القصائد التى قيلت فى المولى عبدالقادر** الجيلالى (2) على حد ما نجد عند العلمى حيث يصفه بأنه بدر لاحد للمعان شعاعه ، يلهج بذكره الشباب والكهول والشيب فى أركان الدنيا الاربعة من عجم وعرب وانس وجن :

بدر الا ينتهى امن اشعاعوا لمعـــان * الشريف الكامل الشريف الكيلانى

ياسيدى بك ايلغطو عل ربع اركان * اشياب **أشابا وكهـــل وشيبانى**

. . .

---

1 ـ الطاصلة : الاصل ، وقد ترقق الطاء .

2 ـ الجيلانى (ويغلب نطقها باللام) او الكيلانى او الجيلى ، ولد فى جيلان سنة 471 هـ وتوفى ببغداد سنة 561 ، **واليه تنسب الطريقة القادرية**، ولها عدة زوايا فى المغرب .

لمداين والقرى والعجم والعربـــان ❊ اتعيط كافا باســـم الجيلانـــى
كيف ايناتى الانس بك اينادي‌الجان ❊ سبحان الواحد لوحيد الوحدانى

منحه الله من سره وقوته ، وولاه ملكا على كل السلاطين ، يرفع من أراد له الله العلو والرفعة فيصبعد به الى أعلى الدرجات ويحط من شاء اهانته وتحطيمه فينزل به الى أسفل مقام :

ولاك الحق عن اسلاطن كل اوطان ❊ تتبختر فى امحاسن الملك الهانى
ترفع من راد به خير لعلو امكان ❊ يصعد فالحين للمقـــام الفوقانـــى
واتنزل امن ابغاه يسلب ويهـان ❊ ينحط اسريع للحضيض السفلانى

ويمثل للمهانين بالسودانى الذى استولى عليه الكبر ورفض طاعة الشيخ وقال غاضبا الا طاعة الا لله الذى ولاه ، فكان ان سلب كل شيء وغدا حزينا وخرج من عالم النور الى عالم الظلام ، وتبدلت حلاوة عسل القبول الى مرارة الهجر :

كل افحل مد ارقبتو طايع رضيان ❊ اسوى ما كان امن احديث السودانى
ناضت نفسو وقال بكلام الغضبان ❊ ما نعرف حد دون ربـــا ولانـــى
ثم فالحين شاهد السلب ولحزان ❊ راح امن انضو اللمقـــام الظلمانى
بدل عسل لقبول بمرار الهجران ❊ معلوم الكبر امن اسباب الحرمانى

وعند العلمى ان تعظيم الاولياء جزء من الايمان ، يسلو لذكرهم خاطره، ويفرح مزاجه ويلين قلبه ، ويتهلل من البشر وتذهب أحزانه :

تعظيم الاوليا امن او ظايف ليمان ❊ ونا تعظيمكم هـو سلـــوانـــــى
عند ذكركم نوجـد قلبى فرحان ❊ كنى منكـــم من كثرت مازهانـــى
قلبى القاسى ايلا اتفاكدكـم يليان ❊ تتهلل ابشارتى ويذهب شيطانى

حبه لهم قوة لساعده وحجاب يستره من عيون الحساد :

درت اشكال حبكم لعضودى عوان ❊ احجاب اعلى اعيون لحسود اخفانى

وهو عبد له يخدمه عساه يوفيه بعض جميله عليه وعساه يجود عليـه برؤية بدر وجهه فى المنام ، مثله حين يراه كمثل المرتعش من البرد ينظر الى قرص الشمس فيشفيه الله من داء البرد :

عبد انخدمو انكون له من الخدمان ❊ اولا نستوفا البعض من شاين اوفانى

من فرط الحب شقمت للرؤيا عزمان ※ ايلانا شفت نور وجهك يكفانـــى

كيف اللى شاف دارت الشمس البردان ※ من ضو البرد قال لكريم اشفانى

وكيف وفضله أعظم من ان يحصى أو يحصر ، فلو اجتمع الانس والجن والحيوان ومخلوقات ما وراء الكون ، ولو اجتمعت دواب الارض وطيورها وهوام اليم وحيتانه ، لو اجتمع كل هؤلاء ومثلهم آلاف آلاف الاضعاف ليشربوا من بحره لظل بحره ملآن فائضا :

لو اجتمع آدمى او جن او حيوان ※ او ماشدين اورا الشد اللورانـــــى

وادواب الارض واطيور امع الجرذان ※ او ما فاليم امن اهـــوام وحيتانى

يرواوا اجميع والبحر يبــقى مليان ※ وامثلهم ضعف آلف آلف ضعفانى

لذلك فهو يتوسل اليه بجاه الرسول عليه السلام والصحابة وكبار التابعين ومشاهير الاولياء والعلماء فى كل مكان ، وبجاه الملائكة والانبياء والاماكن المقدسة والكتب المنزلة أن يعالج سقم ذاته ويحميه ويرعاه .

وهو يستعرض أسماء المتوسل بهم على هذا النحو :

الجيلالى حرمت جدك بولحسسان ※ الهاشمى لهمام ذا النـــور السانى

وابن ابى طالب الفضل روح الشجعان ※ كوكب لمجاهدين رشدى ومـــانى

وبابكر الزكى عمر وعثمـــان ※ نرجا يوم اللقا ايكونوا رفقانـــى

. . .

واجميع الانبيا امن ازمان الطوفان ※ لزمان المجتبى اشفيع العصيانـــى

. . .

وابحق املايك لعظيـــم المستعان ※ واسدرت المنتهى وعرش الرحمان

. . .

حرمت طيبا امن فحضرتها سكان ※ من لهم ارجال ابـــلا اضمانـــــى

. . .

وابحق العلم ولحديث المضـــمان ※ والايما اوكـــل من لهـــم يانـــى

. . .

بسلافك ولحفاد والاهل والجيران ※ داوى ذاتى او لوذ بيا وارعانــــــى

وبمثل هذا الروح يتوسل اليه فى قصيدة أخرى يقول فى حربتها :

لاعلاك اليت اليوت أمولاى عبد القادر ※ صارخنى ماتخاف أولد رسول الله

وقريب من هذا نجده عند الطالب لحسن الذى يقول فى حربـــة قصيدته الجيلية :

غثنى يا مولى بغداد * ادخيل لجواد * بك شجنى محسوب اعليك بك عانى

ويقول فى رجال مراكش السبعة :

ليغائـــا يالفضالى * ياناس البهجا لبدور سبعة رجال

ويقول الفقيه العميرى فى سيدى عبد السلام بن امشيش (1) راجيا منه الرأفة والعون ومشبها اياه بالبدر الذى لا يتوارى ضوءه على طول السنين وقد حجب أنوار كل الكواكب :

انا يابن امشيش غارا بالرأفا كن لى اعوين

يا بدر انبا اولا اتوارى يضوى ما طالت السنين

يخفى لهلال ولنارا والسيرا الباقيين

ويشبهه الحاج ادريس لحنش بالهلال الذى أشرق نوره فى المـــدن والبوادى :

انمجد لهلال اللى اشرق اضياه * بين لمدون ولبديـــا

امام الوسيـــلا ضيف اللـه * ابن امشيش غير اعليا

ويقف لحنش بباب حمى الجزولى (2) بحر الكمال وكريم النســب المقرب من الرسول عليه السلام ، يرجوه أن يعطف عليه ويكرمه بشراب ويعطيه من فضله ما يطلب :

عطـفا اويـــا الجـــزولى * مولاىابن اسليمانبحرلكمال

عطفا اويايمام الغربـــا * العبد جالعندك يشـــرب

كرمو فـحماك ابشـــربا * واعطه ابلفضـــل ما يطلـــب

لنك ياشريف النسبا * من سيد لوجـــود امقـرب

ويتوسل محمد بن المختار الشرايبى الى الله بالتباع صاحب الخير العظيم والسعد الطالع والقدر الرفيع لكى يكمل قصده ويبلغ مناه ، ويرجوه أن يسقيه من سر بحره الفائض الذى فاقت حلاوته الشهد حتى يفوز كما فاز أتباعه وقد هداهم الله بسره :

---

1 ــ هو شيخ أبى الحسن الشاذلى ، قتله سنة 625هـ اصحاب المشعوذ أبى الطواجين الكتامى بجبل العلم فدفن هناك .

2 ــ محمد الجزولى صاحب «دلائل الخيرات» توفى سنة 870 هـ .

أمـــول الكيميـــا * لله غيـــر اعليـــا

اطلب ربى فـــيا * يكمل ليا قصـــدى

بك اتوسلت للـه * وابجاه ارسول الله

ندرك ما نتمناه * أطالع السعـــدى

الله ارفـع قـدرك * اسقنا مـــن سرك

ايم فايض بحـرك * احلى مـــن الشهـد

أيا سيد التبـــاع * ربحت منـــك لتباع

لاين سرك نفـــاع * بك المولى يهـــدى

ويصف الطالب لحسن عبد الرحمن المجدوب بانه طب كسره وصاحب الاوقات :

في حق الله طب كســـرى * سيدى عبد الرحمان المجدبو لوقات

وقد جاءه قاصدا متلهفا مطرودا من شدة الشقاء والتعب عساه يفك أسره ويبشره بزيارة لمقام الرسول عليه السلام ، فقد اشتاق له :

غارا لله جيت قاصد لك لهفان * مطرود ابلا طراد من شد التمحان

يا بو لوقات سيدنا عبد الرحمن

تبشر حالى اوفـك حصـــرى * شايق لمقام من اعليه اوحى لايات

فشهر رمضان بعد لســـرى * واحكم حكم لمبين فجميع الاشيـات

وللفقيه العميرى توسل الى بوعسريه(I) يقول في حربته راجيا منه أن يجود عليه :

ضيف ربى غارا جود يا سيدى قاسم * لمختتر هيا حمر لكرون يابوعسريـا

والرغبة التي يتوسل اليه في تحقيقها أن يكون له خلف وعقب في

I) لعله أبو القاسم بن احمد بن الرشد السفياني المتوفى سنة سبع وسبعين وألف والمدفون على ضفة وادى ارضم حيث له قبة كبيرة . ترجمه الافراني في الصفوة (ص I57 — I58 — I59) قال : «وأصحابه يلقبونه بأبى عسريه لانه كان يعمل بشماله أكثر ، كان رحمه الله من المولهين في ذات الحق سبحانه ومن أهل الاحوال الصادقة والشطحات الربانية . وكان في ابتداء أمره معدودا من شجعان قبيلته ، ومن أهل الفروسية التامة فيهم » . ترجمه كذلك صاحب «ممتع الاسماع» ص : I34 .

حياته ، وأمله فى ذلك كبير طالما أن برهان الشيخ قاطع ظهرت آثاره فى كل مكان يقضى حاجة كل من قصده ويغنيه :

عنى واسرخنى أيا الشيخ أوكون امحازم

ابغيت لولاد فالدنيا انشوفهم ابعينيا

ابغيت تتحزم امعايا أوكون فالدنيا ناجم

الوالى برهانك بان افلحضر ألبديا

كايجوك من لقبايل اوسوس اوعرب تتلايم

كلها تقضى حاجتها اوكيف من جا بالنيا

اشحال من واحد نغنى اوسار فى حالو قادم

هكذاك أنايا يا شيخ واتكمل ليا

وقد يمدح الشاعر كل الاشراف أو جماعة منهم دون تحديد للاسماء ، على حد ما فعل المدنى التركمانى واصفا اياهم بأسياده الابرار أصحاب العز والنصر ، ومشبها اياهم بالاسود الذين لا يهابون الجائرين ، ومتوسلا اليهم ألا يتركوه معذبا بين الثلج والجمر ، وهو عبد الدار :

واسيادى لبرار كلهم اقساور

مايهمهم الجاير

عيب عل لسود هل العز والنصر

تبقى بين الثلج والجمر

ونا عبد الدار

ومثل هذا نجده عند المدغرى فى قصيدته التى لا شك يمدح بها الاشراف العلويين ملوك الدولة ، يقول فى حربتها متوسلا الى المولى ادريس والمولى على الشريف جد الاسرة العلوية :

غارا مولاى ادريس بن ادريس أمفتاح الغرب والشريف الفيلالى

سيدى مولاى اعلى الشريف الينبوعو خصال

وفيها يصفهم بأنهم المسك والعود والورد والندا والعبير ، وأنهم طيب الغرس ورثوا العرش عن الرسول عليه السلام ، وأطيب سائر المخلوقات وأنهم الاصل ، ، ومن سواهم الفرع ، وأنهم الملوك الصائلون على الدوام ،

وأنهم الفتح المبين فى قلوب العارفين الواصلين ، من لم يصل بهم تاه فى الظلمات ، وانهم مفاتيح كل المغلقات وعلوم الاولين والآخرين ، بهم يفتح العباد أقفال أبواب الله :

هما المسك افطيبو أوعود(I) والورد امع الندا اعبير فوطا واجبالى
والجنا فاح انسيم طيبها من طيبت لفضـال

هما طيب الغرس والعرش ميرات امن انسيم لحبيب راحت لنجالى
هما طيب الثقلين جن وناس وانسا وارجال

هما الاصل والخلق كلهم افروع من اوجـودهم وجدى يبقـى لى
هما لملوك اعلى الدوام بهم صايل من صال

هما الفتح لمبين فى اقلوب العرفان الواصلين حضرت لوصالـى
من لا يوصل بهـم تاه فالظلما عـن لوصال

هما امفاتح لمغالـق الرقيقـا واعلوـم اللولـيـن والختم التالـى
هما افبان الله للعباد امفـاتـح لقفـال

ومن قصائد مدح الاولياء والصالحين بعد هذا ما يطلق عليه «الجمهور» أو «جمهور الاولياء» وهى قصائد ـ كما يبدو من تسميتها ـ تستعـرض مجموعة كبيرة من الاولياء ، ومن خير الامثلة عليها قصيدة العلمى يقول فى أولهـا :

يا من يشفى اضرار عبدو بعد السقم * وايفرح من اقوات فالصدر احزانـو

وفيها يستعرض أولياء المغرب على هذا النحو حيث يذكر بعض رجال مراكش كالقاضى عياض والامام السهيلى وابى العبـاس السبتى ويوسف ابن على والجزولى :

I) المقصود به العود الهندى وهو نوع من البخور معروف بطيب عرفه حين يحرق ، وهو شائع الاستعمال فى البيوت المغربية حيث تصنع لاحراقه مباخر خاصة تكون فى الغالب من الفضة ، ويطلق عليه فى المغرب «العود لقمارى» .

قاضى عياض والسهيلـى والسبتى ✻ ابو العباس غوثنا بـو لدراوش (١)
هو يطفى ابصرختو صهد الهفتـى ✻ اكما يطفى المـا الظاجـوف العاطش
يا يوسف بن اعلى انجيت ايلا رفتى ✻ عيطت اعليك عيطت المرو الداهش
الجزولى الشريف ستجب لدعوتـى ✻ دعوت من اعلى العطف يبحث وايفايش
لاه الله يارجـال حضرة مـراكش

كذلك يستعرض العلمى فى هذه القصيدة بعض كبار المسلمين على نحو ذكره الحسن والحسين وحمزة والعباس وسعيد وسعد وطلحة والزبير وأبى عبيدة وأنس وابن عوف :

ياحسنيـن ياسياد اجميـع الناس ✻ عند اذكر جاهكم يصغر كل اكبيـر
ادخيل اعمامكـم حمـزا والعبـاس ✻ واسعيد وسعد ثـم طلحا والزبيـر
وابجاه أبا اعبيد والسيد أنـاس ✻ حرمت بن عوف لا تركونى فى ضير
سالوا من رافتو اعلى ساير الناس ✻ ساعد واشقى ومعتذر واغنى وافقير
يعطينى كل ما اطلبت اكثير الخير

ومن هذا النوع من القصائد ما يطلق عليه «المرحول» ويقصد به الرحلة تشد لزيارة بعض الصالحين على حد ما نجد عند الشيخ البرى السلوى الذى اعتاد أن يخرج لزيارة بعض الصالحين كل عام ، يزور وزان وصلحاءه ثم تازروت ووليها سيدى يوسف ومنها الى جبل العلم حيث قبر سيدى عبد السلام بن امشيش ، ومن الجبل الى تطوان ليزور سيدى بركة ثم الى طنجة ووليها سيدى بوعراقيا ، ومنها للقصر الكبير لزيارة سيدى بوغانم ، ومنه الى لال ميمونا والشريف ابن منصور ، فالى مولاى ادريس الاكبر بزرهون وجاره سيدى محمد بلخير ثم الى سيدى بوغابة وسيدى علال فى طريق عودته الى سلا :

فى كل عام نقصدهم أوفكل يوم بالحاجا مقضيا
طاحت اصبناها رفدوا احمـال مـن طـاح

. . .

---

١) ابو الفقراء ، اشارة الى مذهب السبتى القـائم على أن « الوجود ينفعل بالجود » .

أررت وزان أشفت اركان السعيد واضراغم لحميا

أزرت سيدى يوسف فى تـارزوت مصبـاح

واطلعت للجبل لمكنى جبل لعلام بصناكر اعلى النيا

من ابن امشيش المولى عبد السلام نرتـاح

أبعدها اخرجت التطاون قابـط لفيافى والبريـا

زرت سيـدى بركاوالكـريـم فتـاح

....

من الطانجا شايلاه ابشامـخ لقدر بوعراقيـا

اشكيت بالغربـا واغرايـبـى وتكـلاح

....

من اللقصر ياصاحى خويا قلت وبن الندلوسيا

وين بوغانم ويـن الساكنين لبطـاح

ويالك فالقصر تتغشم يا من لا اعرفت لو طويـا

لقصر برجالـو طـول الدوام صـلاح

منو الال ميمونا والخير ماخطا رجل وولـيا(I)

اقريت معـروف اللـه واختمـت سورت افـلاح

واخرجت كانسال اعلى الحد أنا غشميم وطريقو ملويا

ماوصلنا حـتى شفنـا امسايـف اقبـاح

منو اللعنيا بن منصور الشريف وارجال الصوفيا

والبحـارا ساداتـى كلهـم صـلاح

والغوث ابن ادريس اكبيرالخصلا اخصايلوعندى مرويا

احداه سيدى محمد بلخير امن السيـاح

....

اصبح الصباح وارمات الشمس اعلى لبطاح واخطفنا سرويا

زرت سيدى بوغابـا باللسان لحـلاح

واعلى الشجيع سيدى علال الشيخين عز المساويا

اعمـارت المعمـورا والفايـز واسلاح

I) يطلق اسم « الوليا » على المرأة .

منو البورزيم أفتوا واثنيت لمسافات المثنيـــا

اعلى اوصـــالى اسلا ثـم ابـــراوا لجـــراح

وقد لا تتاح للشاعر فرصة الزيارة فيكتفى برسول يبعثه ، وهذا ما نجد عند الحاج ادريس لجنش الذى بعث مرسوله يحمل رسالة الى الولى ابـــن المهيدى ، فى قصيدته التى يقول فى حربتها :

الغادى للرباط هاك اسلامى لسيادى * الاله الولـــى بـن لمهيـــدى

يبدأ الرحلة من فاس الى الرباط مستعرضا أسماء الاولياء الذين سيمر بهم فى طريقه :

أمرسولى هاك البـرا (1) * تدها لسيادنـــا لطهـــار

من فاس الحضرا الزاهرا * لربـــاط الفتـــح ولسرار

اطريقك سهـل ظاهـرا * اسمع لى لبيان ولخبـــار

زور الشيخ امع سيدى يعلى جـارى * والمقتفـــى بـــه لاح بـــدرى

باب المحروق فوتها واتوسل للبارى * يكفيــك الستـــار كـــل شرى

بوعبد النور ولفقيه الشيخ الجرارى * سيدى مسعود طب ضـــــرى

الشدادى اوبوبكر اشموسى واقمارى * اتـــأدب للباقييـــــن واســرى

وهكذا الى أن يصل الى سلا حيث ضريح سيدى ابن عاشر وابن حسون وسيدى موسى ثم الى الرباط حيث زاوية الشيخ ابن المهيدى ليسلم الخطاب الى مقدمها الذى سيتكفل بتسليمه للسادة الشرفاء :

هاثغر اسلا اقريب بلسان الحال اينادى * وايقول اهلا زيد عنـــدى

ثـــم تدخــــل اقـــواسها * ناشط بنسيم لعشى اتميس

زور العارف عز ناسمهـــا * بن عاشر والـــدر النفيس

بـــن حسون وتابـع راسهـا * سيدى موسى نور اشميس

واقطع لمدينت الرباط هم اكدارك ناسى * فتمام الحج افدوك نفسى

وادخل للزاويا اسعد تدفع قرطـاسى * لمقدم صافحـــو اورسى

هو يعطى اكتابنا للسادات امجـــادى * للى بهـم هـاج وجـدى

واقصد لضريح جدهم فمان لقصـادى * بن لمهيدى للصلاح يهدى

---

1) الرســـالـــة .

ويذكر بعض أولاد الشيخ ، من مات منهم ومن لا زال على قيد الحياة ، أمثال سيدى الحاج محمد وسيدى علال وسيدى عبد السلام والسيد الجيلالى والسيد الستل وسيدى الحاج بنعيسى :

بن لمهيدى بـــه عزنـــا * له السر الواضـــح المبين
معظمهـــا عنـــد سلطنـــا * مدامت ليـــام واسنيـــن
ولـــدو نـــال السر ولعفـــا * ورث ذاك الجـــاه لمبيـــن
نعنى سيدى الحاج محمد هـــو الثانـــى * ثم الاول امراج اعيـــانى
سيدى علال له جاه امعظم ربانـــــى * كان ابربى والنبى امعانى
أوسيدى عبد السلام امع سيدى الجيلانى * سيد الستل بدوام حصنى
يارب نعم لجميع افجنت رضوانـــــى * واللى باقى منهم نعنـــى
لفحل سيد الحاج بنعيسى سرو سانى * ادعى لى واكمل به ظنى
بن عمو شامخ لقدر جملـــت لعيانـــــى * اسدى بومهدى اشريـــف سنـــى
....
ايطلبوا لى اللـــه عـــند اتمـــام لـــوراد * يطلع بكمـــال اسرور سعـــدى

ملاحظة : العشق الالاهى

ونبحث بعد هذا عن العشق الالاهى فى شعر الزجال المغربى ، فنفتقده أو نكاد ، وكان الشاعر الشعبى ابتعد أو تعمد أن يبتعد عن النظر الى ذات الله والتغزل فيها والتعبير عن حبه لها ، حتى فى أبسط صور هذا الحب الخالية من التفكر والتأمل والتفلسف ، وأغلب الظن أنه خشى الوقوع فى التجسيم وتشبيه الله بخلقه . ولعلنا لن نستغرب ذلك مـن شاعر شعبى محدود الثقافة بسيط الايمان ، يلقى بشعره الى الجماهير تنشده وتتغنى به، وهى بدورها لن تقبل على أى شىء لا يوافق مزاجها الساذج . ثم انه مهما ارتفع المستوى الفكرى للشاعر وجمهوره فانه يظل محصورا فى نطـاق الفكر العام ، ونعرف ان الفكر المغربى طوال فترات التاريخ ــ اذا استثنينا عهد الموحدين ــ كان يتمسك بحرفية النصوص ويبتعد عن التأويل ، بما لا يتيح المجال للنظر فى ذات الله وصفاته وتعمقها وبالتالى للتغزل فيها والتعبير عن حبها . ومن هنا اتجه الشاعر الى الرسول عليه السلام يفجر كل طاقة حبه الروحى وعاطفته الدينية .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن الشاعر المتصوف أبا الحسن الششترى ، وهو ـ كما سنرى ـ (1) احد الذين نقلوا الزجل الاندلسى الى المغرب ، كان ينظم قصائده وموشحاته وأزجاله فى مذهبه متغنيا بحب الله ووحدة الوجود، ولكن يبدو أن الناس الذين كانوا يستمعون الى أزجاله فى الاسواق وحلقات الذكر ، لم يكونوا يدركون فى هذه الازجال ما تصور من جوانب مذهبه التصوفى الفلسفى ، ولم تكن تأخذهم غير واقعيتها المتجلية فى شخصه وهو يجول فى الاسواق ينشد ويغنى ، وكذلك كان شعراء الشعب لا شك ، لا يفهمون مذهبه ، وربما كانوا سيقدحون فيه ويكفرونه لو فهموه .

ومع هذا فانا حين نتعدى نطاق هذه الطبقة من الزجالين الشعبيين الى طبقة العارفين المتصوفين ، فانا لا نفتأ نعثر على بعض ألوان حب الله . ومن هنا لم نجزم فى الحكم بعدم وجوده ، وقلنا فى بداية الملاحظة اننا «نفتقده او نكاد» . وربما كان عبد الله الهبطى (2) اكثر من غيره تعبيرا عن هذا الحب ، يتجلى لنا ذلك فى بعض قصائده ومقطوعاته كهاته التى يقول فى أولها :

للـرب شوقونـي * يا أيهـا الرجـال
للحضـرا وصلونـي * حتى نرى الجمـال

وكقوله من قصيدة أخرى :

ربى دايـم اعظيم حضـار * قـد جهلـت انعوتـو
ايغيب عنـي مانقـدر * أو يحضـر انموتـو
حن لجمال عذبنـي * ياقـوم العنـدو
قهر لجلال يقهرنـي * مـن قربـو البعـدو
مـن لطفـو للعيـن * يختفـي ويبـدو

وكقوله كذلك فى «القصيدة النورانية من المسامرة الربانية» :

الحبيب فى ذى المباني * الـتى سوى وعـدل
قد ظهر لـي بالعيانـي * لا ترانـي بعـد نغفـل

---

1) فى الفصل الاول من باب « الاعلام »
2) انظره فى الفصل الثانى من باب «الاعلام» .

ان تقول بعــد التجـلى ＊ ربمــا يسدل حجابـو

يظهر لك لكن يولـــى ＊ فى لحظا يضرب نقابـو

لا تامــن عــند التحـلى ＊ أن يعـــرك من ثيابـــو

قد يقول قائل : وماذا عن القصائد التى خصصت للسلوك الصوفــى ونصح المريدين ، أليست تعبر عن الحب الالاهى مهما كانت صور هذا الحب وصفاته ؟ حقا انا نشم رائحة عشق ذات الالاه فى بعض هذه القصائد ، وان كان يبدو من هذه الرائحة خلط بين حب الله والرسول . ونستطيع أن نمثل لذلك بما ورد فى دالية ابن رمويه حيث يقول فى لغة تكاد تكون معربة :

هم فى الحب واتوله وفى القلب ردد الله

ثم غب فى الله بالله كالجـلى والجنيــد

طف ابكعب لوصال وافن ذاك لخيـــال

وقف عند لخيال واشرب كـــاس التفريد

فحجنــا مشروط وموقـــوف ومنــوط

على البـذل والسقـوط وتمــام الوعــود

حجت لهوا اغانــت وبالنفس اشتريــت

وعلى الصادق هانت بهـا نـال المقصــود

اتجرد عــن الحس وعــن الحــب للجنس

واقصد حضرت القدس لب باسم المقصود

اذكر ما دمت طالب وفى وصفو راغــب

حتى لا يبقى حاجـــب وتصـــل للمعهود

وحتى اذا كانت تشم من مثل هذا النموذج رائحة تتصل بالحب الالاهى ، فلعله واضح أنها خالية من تناول ذات الله وصفاته وعلاقة السالك بربه وما قد يصل اليه المريد من مشاهدة او اتحاد ، وانها محصورة فى التنفير من الحب الجنسى والحث على الذكر .

وقد يقول آخر : وهذه الاشعار التى تنشد فى حلقات الذكر وخاصة منها قصائد الحراق ومقطوعاته ، أليست هى الاخرى تدور ولو من بعيد فى

فلك حب اللهوالتغزل فيحضرته ؟ قد تكون، ولكنا لعدم وضوح صورة هذاالحب نميل في غير قليل من الترجيح الى أن الحراق لا يقصد غير حب الرسول عليه السلام ، ولنستمع اليه يقول انه حين جن الليل وسطعت كواكبه لطف الله به ووافاه بالمرغوب اذ ظهر له حبيبه وظل يمتع النظر فيه ، فهو يهديه روحه لا يطالب بها أبدا ، وهو له عبد مكسوب اذا رضى به :

جن الليـل اعليـا * حتى ظهرو اكواكبـو

والطف ربى بيـا * وافى ليا المرغـوب

بان احبيبـى ليـا * ماذالى ونا انراقبـو

روحى ليه اهديا * عمرى فيها مانطالبو

ويدا يرضى بيـا * آنـا لـو مكسوب

وهو يرى أن كل من حلت النية فى قلبه ظفر بالمحبوب :

واللى فيـه النيـا * يظفـر بالمحبـوب

ويقول كذلك انه حين تم له الوصال وأشرق نور بهاء حبيبه نسى كل شيء فليس يذهب عقله غير هواه :

جـاد اعليـا برضـاه

لحبيب اللـى حبيتـو * زارنى وانعم لى ابلوصال

حين اشرق نـور ابهـاه

كل شى بالقهر انسيتو * ياهلى عقلى اذاشفتوه زال

ما بى غـير اهـواه

ويذهب فى موضع آخر الى أن ذكر الحبيب دواء يشفى من داء الاوهام ، به يضيء الوجود ويجلى ظلام الحب :

ذكرو احقيق للقلـب ادوا * يشفيه امن اسقامو اوهامـو

به لوجود كلـو يضـوا * من غسق لهـوا واظلامـو

وعنده ألا أسعد ممن عشق الحبيب وخلع فى حبه العذار ودار فى حلقة الذكر ينشد الاشعار فى مدحه وحوله القوم سكارى من هواه :

ياسعد امن اضحى يخلع فيه اعذارو * وايـدور فى اسواح الـدارا

ينشد افلحبيب اسجالو واشعـارو * والقوم امن اهـواه اسكـارى

ويشجعنا على هذا الرأى ما شاع فى قصائد الذكر عند غير الحراق من تمجيد للرسول صلوات الله عليه ، ومن أروعها قصيدة المغراوى التى يطلب فيها من مخاطبته ، لعلها حبيبته او زوجه او نفسه ؟ ان تزغرد فرحا وطربا بالمصطفى ، وأن لا تظل ساكتة ، وان تستوحى صوت زغردتها من وجده ، ويستغرب منها صامتة كأن نغمته لم تهزها ، ويثبتها ويلح عليها فى الطلب ان تزغرد بصوت عال على سيد الرجال والناس :

ازغرتى ليس ساكتا * من وجدى صيغى اوصيتى
مالك مبكوما أو صامتا * ما هزك غيوان مايتى
كونى زكموطا او ثابتا * واعلى سيد الرجال زغرتى
واعلى سيد الناس زغرتى * بالصوت العالى اقوام

ويلح على ذلك أن يكون طول النهار ، ويطلب منها أن تشد حزامها وتكف عن المشى والحركة ، فقد حضر ضيف الحفل واشعل الشمع من العشى وفرشت الزرابى ورصت المخدات على اللحوف وأسدلت الستائر على القباب ليبدأ الذكر والصلاة فى هذا الجو ، جو الفرح بضيافة الرسول :

ازغرتى لا تمل شى * بن اصلات الصبح ولعشا
شد احزامك مابقى امشى * ذا الفرجا ضيفها اغشا
اشمعها يكدى من لعشى * واقطوف ازرابى امفرشا
والمخايد فوق اللحوف * واخوامى زينا اعلىابساط القبا سجافا
هل الحضرا ايعظمو ويذكرو نعم الرؤوف ايصلوا اعلى خير خلق الله المصطفى
هذا عرس اضيافت النبى محمدزين لحروف * صلى الله اعليه والرضا لهلو والخلفا
ما دام ادوام لغنى ينظر حضرا فينا ايشوف

فالليلة ممتعة يجب السهر فيها وقد هب النسيم الطيب العطر ، وعين العاشق تنظر ، وكل من نظر الى الله ينصر :

ازغرتى لازم السهر * ليلتنا ليلا امخنترا * هب انسيم الطيب ولعطر
واعيون العاشق نظرا * اللى نظر الله ينتصر

الباب الثالث

الأعلام

الفصــل الاول

مرحلة النشــأة

اسماء ونصوص قديمة

ليس من شك فى أنه من الصعب تحديد نشاة شعر اداته لهجة عامية دارجة ، وليس من شك كذلك فى أن تلك الصعوبة تزداد حين لا تتوفر النصوص الاولى لهذا الشعر ، مروية كانت او مدونة ، لذا فانا نجد غير يسير علينا ان نحاول بحث اصل القصيدة الزجلية المغربية ونشاتها طالما أن الرواية الشفوية لا تمتد بعيدا عبر القرون ، وطالما أن المصادر المكتوبة لم تعن بتاريخ الآداب الشعبية وتسجيل نصوصها الا فى القليل النادر .

وقد لجأنا الى هذا القليل النادر علنا نعثر فيه على ما يسعف فى البحث ، كما لجأنا الى الشيوخ الرواة وتتبعنا معهم تسلسل محفوظاتهم حتى الخيوط الاولى منها عسانا نقف على مرويات قديمة ، فتجمعت لنا من المصدرين مادة هزيلة ، ولكنها على هزالها القت بشعاع من الضوء رقيق لا يساعد على غير تلمس السبيل فى متاهات مظلمة لسرى قد يحمد عند الصباح وقد لا يحمد .

وقد حاول الاستاذ محمد الفاسى أن يحدد البواكير الاولى لهذا الشعر ، فوقف عند قصيدة نظمها ابن عبود فى منتصف القرن العاشر ، واعتبرها أقدم نص . وفى هذا يقول :

« وكانت اقدم قصيدة بلغتنا عن طريق الحفظ والكنانيش القديمة هى قصيدة «الحربى» للشاعر ابن عبود ، وهو من اهل فاس ، كان ايام الوطاسيين وكان مع سيدى عمرو الوطاسى قائد الجيوش الوطاسية فى وقعة تادلا بين احمد الاعرج السعدى واحمد الوطاسى ، وهى التى اسفرت عن اعتراف الوطاسيين بسيادة السعديين على الجنوب ، وهذه القصيدة فى وصف هذه المعركة ، وتاريخها سنة 943 هـ الموافق لسنة 1536 م (1) .

---

1) مقال «الادب الشعبى المغربى الملحون» مجلة البحث العلمى العدد الاول السنة الاولى 1964 .

اما القصيدة ، ولم يذكرها الاستاذ الفاسي (1) ، فهي التي يقـــول الشاعر (2) في اولها :

---

1) اكتفى بالتعليق عليها بقوله في نفس المصدر : « وقد اجيز ابن عبود على هذه القصيدة بتلبية طلبه في جعل محل بفاس رهن اشارتـــه لانشاد قصائده به يوم المولد النبوي ، وهذا المحل هو ما يسمى مسيـــد سيدي فرج بسوق الحناء بفاس وقد خلفه فيه الشاعر الكبـــير سيدي عبد العزيز المغراوي . ولا زال شعراء الملحون الى يومنا يجتمعون يوم عيد المولد وينشدون كلام سيدي عبد العزيز المغراوي وكلام النابهين منهم ، ومن ادرك أن ينشد شعره في ذلك المحفل البهيج فقد بلغ المنتهى في تقدير زملائه له »

2) تجدر الاشارة الى أنه تطلق على الزجالين المغاربة اسماء وصفات، أهمهـا :

أ ـ الشعراء : يقول ابن علي في القسم الرابع من «السولان» :

واسلامي عن كل من احضر * متادب في كل حال للشعارا
هكذا سيرت هل لشعار

ب ـ النظام : يقول عبد الفضيل المرنيسي في «الفصادة» :

قالوا مرحبا بالنظـــام

ج ـ الاشياخ : يقول امتيرد في نهاية محاورته :

قال اكمي لشياخ عز الودبا حبر النظام

د ـ أشياخ السجية (تمييزا لهم من المنشدين الذين يعرفون باشياخ لكريحة) يقول المرنيسي في قصيدته المشار اليها :

شافوني احضرت اكبالتهم شيروا اوندوا
رسلـــوا لي الخـــادم قالت ليا
مـــن اتكـون ابقصد النيـــا
قلت لهـــم شيـــخ السجيـــا

هـ ـ أشياخ النظام (تمييزا لهم كذلك من اشياخ لكريحة)

يقول المكي الصويري في آخر « فطومة » :

واسلام الله لشياخ النظـــام

و ـ أهل النظام : يقول محمد الشاهد في آخر قصيدة « معلوم الشوف ما طفا نار الجوف» :

نتهـي قولي امـــع انظامي * مـــن فضـــل الا ينـــام
احسنت اعلى الرضا اقسامي * برضـــات اهل النظـــام

ز ـ اهل القوافي : يقول محمد بن لكبير في «تويزة» :

عنك اسلام فايـــق المسك افلجيوب
يعبق عن جمعكم ياهـــل لقـــوافي

مال الخيل الــذى اختلط فميدان * صكت هاذى الذى واهــذك الهاذى

والغبرا عمدت اكسات اعلى التيجان * حتى عاد النهــار غالس فارصادى

ولسنا نوافق الاستاذ الفاسي على اعتبار هذه القصيدة أقدم ما وصل مرويا او مكتوبا فقد وصلتنا قبلها بعض النصوص ، منها ما هو من نوع زجل القصيدة ومنها ما يختلف عنه ، وهى نصوص سنستعرض بعضها فى هذا الفصل – بعد سطور – وسنترك البعض الآخر الى الفصل الثانى من هــذا البــاب .

حقا ان قصيدة ابن عبود تعتبر من النصوص الاولى للزجل فــى الشكل الذى بدأ يستقر عليه وقد أخذ يحرز كيانه ، وحقا كذلك ان القرن العاشر يعتبر بداية انطلاق مرحلة جديدة بالنسبة لهــذا الزجــل – كما سنرى فى الفصل الثانى من هذا الباب – ولا نقول بدايته ، ولكنا نستبعد أن تكون اللغة العربية قد تم انتشارها فى القرن السادس بشكليها المعرب والدارج ، وتمر اربعة قرون دون أن يصدر شعر عن الناطقين بهذه اللهجــة الفنانين ، ثم فجأة يظهر فيها نمط من الشعر مكتمل جميل . وهو رأى تدفعنا الى ترجيحه هذه النصوص التى وقفنا عليها ، على الرغم من انها مختلفة

ح – اقوامس الملحون : يقول سعيد التلمساني فى رثاء عبد العزيز المغراوى :

لو حد عبد العزيز قاموس الملحون * من لاحاطوا ابشرح معناه اقــوامس

ط – اقوامس العلم الموهوب : يقول محمد بن لكبير فى استهــلال التويزة السالفة الذكر :

اسادتى اقوامس العلم الموهوب * يامن لكريم هبكم افضل وافى

ى – أرباب الموهوب : يقول المرنيسى فى «الفصادة» :

واسلام ربنا لرباب الموهوب

ك – الودبا (اى الادباء) : يقول المدغرى فى «زهرة» :

واسلامى للشراف والطلبا قال القارى * ما دوحت انسام لعطر

واعلى الودبا اقوامس الموهــوب الشعارا

(وانظر كذلك قول امتيرد السابق)

ومتباينة ، كما يدفعنا اليه ما ذكره الحسن الوزان (1) فى كتابه « وصف افريقية» ، فقد لاحظ فى فصل منه بعنوان « شعراء بالعامية الافريقية» (2) ان هؤلاء الشعراء كثيرون ، وانهم كانوا يتبارون لاظهار براعتهم الشعرية فى مناسبة ذكرى المولد النبوى حيث يتجمعون صباح يوم العيد فى ميدان رئيس القناصل (3) ويعتلون المنصة واحدا تلو الآخر لالقاء اشعارهم وقد تجمهر عليهم الناس ، ثم ينصب أميرا للشعراء من احرز منهم قصب السبق . وذكر كذلك ان السلطان المرينى كان يقيم حفلا بهذه المناسبة يستدعى له رجال العلم والادب ، وان الشعراء كانوا يلقون القصائد أمامه فينعم على الفائز الاول بمائة دينار وفرس ووصيف وحلته التى يكون لابسا فى هذا اليوم ، ويمنح سائر الشعراء خمسين دينارا لكل واحد . ولاحظ الوزان بعد ذلك ان هذه العادة انقطعت منذ انهارت دولة بنى مرين (4) ، وهى فترة تمتد عنده مائة وثلاثين عاما .

وهذه أسماء الزجالين وما وصلنا لهم من أزجال او اجزاء من ازجال على الاصح :

ابن غرلـــة

قال عنه الحلى : «وقد كان ابن غرلة الشاعر المغربى ، وهو مـــن أكابر اشياخهم ينظم الموشح والزجل والمزنم فيلحن فى الموشح ويعـرب

---

1) الحسن بن محمد الوزان (901 — 956 هـ ، 1495 — 1548 م) ولد فى غرناطة ورحل مع اسرته الى فاس وقام بجولات داخل المغرب وخارجه فى الشمال الافريقى وبلاد المشرق . اسر سنة 926 فى نابولى بايطالية وأخذ الى البابا ليون العاشر فقربه اليه لعلمه وتجاربه ، ودعاه الى المسيحيـة فتمسح وسمى بـ : جان ليون Jean Léon وهو الاسم الذى يعرف به فى اوربا . ويقال انه بعد موت البابا عاد الى الشمال الافريقى ونـزل بتونس وفيها توفى .

2) « Poetes en vulgaire africain » p 130 131
Description de l. Afrique - Jean leon Africain
Ed. C.H. SCEFER Paris

3) Le chef des consuls لعله يقصد به رئيس القواد او الوزراء

4) من 674 الى 869 هـ

فى الزجل تقصدا منه واستهتارا ، ويقول ان القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك ، وكان الوزير ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته فى دار الطراز (1) »

وقد كان ابن غرلة يعيش فى عهد الموحدين ، بل كان معاصرا للخليفة عبد المومن الكومى ، وتذكر المصادر حبه لاخت هذا الخليفة ، وفى ذلك يقول الحلي : «فمن موشحاته المزنمة الموشحة الطنانة الموسومة بالعروس التى نظمها عن عشقه رميلة اخت عبد المومن الاموى (2) ملك الاندلس وقتله الملك بسببها لتوهمه من مطلعها وما يليه الاجتماع بها ، والواقعة مشهورة ، وكان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة » (3) وذكر له مطلع هذه الموشحة ، واوله :

من يصيد صيدا فليكن كما صيدى * صيدى الغزالة من مراتع الاسد

ثم زاد قائلا بعد ذلك : «وقيل انه لما اخرجه الملك ليقتله نظر الى الناس وارتجل بيتا فى الوزن يستنجد به عشيرته لاخذ ثأره :

خدها الاسيل * بدت منه انوار

طرفها الكحيل * سل منه بتار

قد اسرت عبدا * ولم اك بالعبد * مت لا محالة * فاطلبو دمى بعدى (4)

وقبل ان نورد بعض ما ذكرته المصادر لابن غرلة من قطع زجلية نقف قليلا عند ملاحظة لاشك ان القارىء سيثيرها ، وهى اذا ما كان ابن غرلة مغربيا حقيقة اى من المغرب الاقصى ، ام اذا كان اندلسيا ونسب للمغرب على اعتبار ان النسبة بالمغربى كانت تشمل حتى الاندلسى نظرا للمفهوم الذى يدخل فى المغرب كل المنطقة التى تقابل المشرق ، ونظرا كذلك لان الاندلس عاشت فى وحدة مع المغرب الاقصى طوال عهدى المرابطين والموحدين .

---

1) العاطل الحالى الورقة 20 وجه وظهر ، وسنعود الى موشحات ابن غرلة .

2) هذا خطأ ، والصحيح : عبد المومن الموحدى .

3) العاطل الحالى الورقة 20 ظهر .

4) العاطل الحالى الورقة 21 وجه .

والواقع انه ليس من السهل البت فى هذا المشكل الذى كثيرا ما يعترض الدارسين لتاريخ الاندلس والمغرب وآدابهما ، ولكنا مع ذلك نرجح أن يكون ابن غرلة غير اندلسى ، ونعتمد فى ذلك على نص وارد عند الحلى لم يذكره فيه رغم اعتباره اياه من السباقين الى نظم الزجل . يقول الحلى : « . . . ومدائن الاندلس المختصة بالمسلمين دون غيرهم اربعة وهى التى خرج منها الموشح والزجل وهى اشبيلية وقرطبة وبلنسية ومالقة والذين خرجوا منها من الزجالين سبعة وهم يخلف بن راشد ابن قزمان مدغليس الحبيط البردعى الجمال ابن اللمنكة (1) »

وسبق لنا ان اثرنا هذا الموضوع مع الاستاذ الصديق الدكتور احسان عباس ، فكان رايه فى ترجيح مغربية ابن غرلة انه لو كان اندلسيا لما جرؤ على نظم موشحة فى اخت الخليفة وان ذلك لا يتصور صدوره الا من مغربى .

وقد ذكر الرباط لابن غرلة فى «العقيدة الادبية» اجزاء من ازجال يقول فيها :

بنت قزمان فى خباها * عند اباها
العريس خاطب اباها * وقد تباها
لو يكن بزال * كان امعاه اموال * الا دا دجال
بالمحال يقنى الاست البراقع (2)

ويقول فى جزء آخر :

ان كنت ريس ومالك عاقة * هذا خبرك على الزلاقة
اسمى * وارمى (3)

بل انا نجد الرباط ينسب لابن غرلة قطعة « عروض البلد » التى ذكر ابن خلدون لابن عمير — كما سنرى بعد — ويمثل منها بالبيتين الاولين ، وهما :

---

1) المصدر السابق الورقة 22 وجه
2) الورقة 45 ظهر ، وقد قدم لهذا الجزء بقوله : «وهذا الوزن لابن غرلة مقز من »
3) المصدر السابق .

أبكانى بشاطىء النهر نـوح الحمام * على غصن فى بستان قبيـل الصباح
وكف الطـلا يحكـى مـداد الظلام * وريـق الندا يجرى بثغـر الاقـاح

ويقدم لهما بقوله : « وهذا الوزن لابن غرلة رحمه الله مقز مـــن رباعى » (1)

كذلك ذكر له صاحب « بلوغ الامل فى فن الزجل » بيتين قدم لهما بقوله : «ومن لطائف ابن غرلة قوله فى مطلع :

بعد ذبحك يا فروجى * واش ايفيـد الجـرى
كنت تجرى من قبل ماتدبح * وعنيقـك يـرى (2)»

عبد المومن الموحدى (3)

ذكر له الرباط قوله : (4)

يا عصافير الجنينة * جـل ربى نشاكـم
الجمل طوله وعرضه * لم قد يطلع احداكـم

رميلة أخت عبد المومن

قال عنها الحلى بعد انذكر علاقتها بابن غرلة : «وكانت هيايضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة اللسان تنظم الازجال الرائقة الفائقة» (5)

ثم قال : «ومن ازجالها الرقيقة الرشيقة الزجل الذى مطلعه :

مشى السهر حيران * حتى راى انسان * عينـى وقـف

تقول فى خرجة منه تصف خالا كان بخده :

اسيمر جنـان * فى شقة من نعمـان * قد التحـف » (6)

ابـن خبازة

قا لعنه صاحب « الجذوة » : «ميمون بن على بـن عبد الخـالق

---

1) المصدر السابق الورقة 44 ظهر
2) مخطوطة الزيتونة رقم 4467 ص 47 .
3) تولى سنة 524 بعد وفاة ابن تومرت وتوفى سنة 558 هـ .
4) العقيدة الادبية الورقة 38 وجه
5) العاطل الحالى الورقة 20 ظهر
6) المصدر السابق الورقة 21 وجه .

الخطابى نسبة الى قبيلة من صنهاجة من اهل مدينة فاس ، ويعرف بابن خبازة نسبة الى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة ، كان سريع البديهة ناظما ناثرا مع الاجادة والتفنن فى اساليب الكلام معرفة واتقانا فى هزله وجده على اختلاف اللغات (I)» ومثل هذا الكلام نجده فى «ازهار الرياض» ينقله المقرى عن « الذيل والتكملة » فيقول : «كان متفننا فى أساليب الكلام معربه وهزله على اختلاف اللغات » (2)

وليس من شك فى أنه يقصد باللغات وهزل الكلام النظم فى الزجل ، والاسف انا لم نعثر له على أثر لذلك .

ابن حسون

سماه الحلى ابا عبد الله محمد بن حسون الحلا المغربى ووصفه بالاستاذ وبالشيخ (3) وذكره لدى الحديث عن اسقاط الهمزة عند الزجالين حيث اورد له بيتا من زجل يقول فيه :

كم نبت منكد * من هواك وهجرانك يا مليح القد

يا مليح بمن سماك اش هذا التجنى

طول ما نشتهى قربك تبعد انت عنى

ان كان الرقيب بلغ لك قضية عنى

لس انا فى ذا الجد * عوذ بالله ياحبى الاخير هو اجود

وعلق عليه بقوله : «فقد اسقط الهمزة فى موضعين فى قوله ليك بمعنى اليك وفى لفظة عوذ وأصلها أعوذ » (4)

I) ص 208 وقد استمرت ترجمته حتى 214 . توفى آخر سنة 637 بالرباط ودفن بسلا قريبا من الشيخ ابراهيم ابى حاجة . وقبره معروف بسيدى الخباز واليه ينسب الباب المعروف بهذا الاسم فى سلا . انظر فى ترجمته الذيل والتكملة ، ورايات المبرزين لابن سعيد ، وتحفة القادم لابن الابار ، والعدد السابع من ذكريات مشاهير رجال المغرب للاستاذ عبد الله كنون .

2) الجزء الثانى ص 379 .   3) الورقة 36 وجه و 54 وجه .

4) الورقة 30 وجه .

وذكر له كذلك مطلع زجل لدى حديثه عن اسقاط حــرف العلة ، يقول فيه :

صحبة العينين السود طول صدودك ابلانى *

انا فى هـواك هايـم وانت ترضى هجرانــى

قال بعده : « ومراده صاحبة العينين » (1)

ثم ذكره بعد هذا للاستشهاد على اقامة الخامقام خذ ، بقوله :

قد ضحك ضو الصباح * وافتضح سر النــوار

لا زمان غير ذا الزمان * الصلاة على الرســول

ختــرا ذا المهرجان * خترا جر الذيــول

ومكان ابــدع مكـــان * تفتتن فيه العقــول

ولقاح املـــح لقـــاح * وثمـــار املح ثمـــار

والطيور قامت وقام * الوتـــر مـــع الجوار

« فقوله خترا بمعنى خذ ترى ، وله مثلها فى خرجة أخرى من هذا الزجـــل :

لا تقل شراب وراح فـى الزجـاج ولا عقار *

خترا ماء الغمام قد رجـع من نور ونـار» (2)

ومثل بمطلع أحد أزجاله لادخال حرف النداء على قافية الالف واللام ، وفيه يقول : (3)

اهجر بالغـــزال واتدلـــل * واعمل ما تريد فمن بلى يحمل

كما استشهد باجزاء من ازجاله فى الوصـــل فى القـــافية ، فاشار الى قوله :

ارفع قطيعك وطيب واتملا * والـــــغ عمـــن ولى

فالوصل الالف بعد اللام ، ثم قال فى احدى خرجاته :

وهذى عندى نصيحة فى الله

فالوصل منها الهاء » (4)

ثم ذكر له مطلع زجل هو : (5)

---

1) الورقة 33 ظهر 2) المصدر السابق 36 وجه

3) المصدر السابـق 4) المصدر السابق 41 ظهر

5) المصدر السابق 49 ظهر

لى تقدير شهـــر * منذ عشقت الفلانية

وآخر ما اشار به الحلى لابن حسون قوله : « وجدت للشيخ الاستاذ ابى عبد الله محمد بن حسون النجلا فى زجل مطلعه :

صحبة العينين السود طول اصد دك ابلانى

يقول فى خرجة بيت منه حكاية عن قول معشوقته :

وترى سيفا مجبوذ * منتخب من اجفانى

بالذال المعجمة فى لفظة مجبوذ مقابل الـــدال المهملة فى لفظـــة السود » (I)

ويذكر مباركشاه لابن حسون من زجل قوله : (2)

لو زيتنى حين نلتقيه * مما نجد من شوقى ليه

نصفـــر ونرعد من يديـــه

اما بعد هذا فنجد ذكرا لابن حسون فى ختام قصيدة الكفيف الزرهونى التى يذكر فيها هزيمة ابى الحسن المرينى فى القيروان ، حيث يقــول مخاطبا نفسه :

واستغفر يا لكفيف لابن حسون * واتفكر ما ذكر فى عام ستا

فهو يدعو نفسه الى الاستغفار له والى تذكر ما قاله فى السنة السادسة ولسنا نعرف هذا الذى قاله ابن حسون ، ولسنا نعرف كذلك سر ذكـر الكفيف له ، ألأنه شيخه ـ وكانت العادة أن يهدى الشاعر السلام ويقدم الاستغفار لشيوخه ـ ام لأنه سبق فى زجل له الى ذكر حوادث هذه السنة المشار اليها ؟ والغالب آنه شيخه .

ابـــن سبعين (3)

يقال ان ابا الحسن الششترى (4) حين وفد الى المغرب اتصل بابن

I) الورقة 54 وجه .

2) السفينة ج 4 الورقة 26 وجه مخطوط رقم Feyzullah 1612 مكتبة Millet اسطنبول .

3) عبد الحق بن سبعين السبتى 613 ـ 669 هـ .

4) 610_668 .

سبعين وتلمذ عليه ، ويقال كذلك ان المتصوف المغربى اعطى تلميــذه علما وطلب منه أن يتجول فى السوق مغنيا ببيت زجلى يقول فيه :

ابديت بذكر الحبيب * وعيشــــى ايطيــب

ومضى الششترى يغنى فى الاسواق بهذا البيت وقضى يومين دون ان يستطيع اضافة شىء اليه حتى كان اليوم الثالث فاكمله وقال :

لمــــا دار الكاس * ما بين الجــلاس

عنهــــم زال البــاس

اسقاهم ابكاس الرضا * عفا الله عما امضى (1)

ومثل هذه الحكاية تثبت لا شك ان ابن سبعين كانت له معرفة بنظم الزجل وان هذا الفن لم يكن غريبا على المغاربة الى حد انهم يسمعونه فى الاســواق .

ابن شجاع التازى

ذكره ابن خلدون على اثر ذكر فن «عــــروض البلد » (2) حيث قال : « فاستحسنه اهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعــــراب الذى ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا الى المزدوج والكازى والملعبة والغزل ، واختلفت اسماؤها باختــلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها » (3)

واورد له مقطوعتين ، يقول فى بداية الاولى : (4)

المال زينة الدنيا وعز النفــوس * يبهى وجوهــا ليس هى باهيـــا

فيما كل من هو كثــير الفلوس * ولوه الكــلام والرتبا العــاليا

---

1) انظر شرح احمد زروق على نونية الششترى التى يقول فيها :
ارى طالبا منا الزيادة لا الحسنى * بفكر رمى سهما فعدى به عدنا
(مخطوط الاسكوريال رقم 4186 ص 1–2)

2) سنشير اليه فيما بعد .

3) المقدمـــة ص 530 .

4) المصدر السابـــق .

ايكبرو من كثر مالو ولو كان اصغير * ويصغرو عزيز القــوم اذا يفتقـر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يغير * يكاد ينفقـــع لولا الرجـــوع للقدر

ويقول فى بداية الثانية : (1)

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان * اهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليــح عاهـــد الا وخان * قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبو اعـلى العشـــاق ويتمنعـوا * ويستعمدو تقطيع القلوب الرجـال
وان واصلوا مـن حينهم يقطعـوا * وان عاهدوا خانوا على كل حـــال

الكفيف الزرهوني

قال عنه ابن خلدون فى مقدمته : «وكان لهذه العصور القريبــة من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف ابدع فـــى مذاهب هذا الفن ، (2) ومن احسن ما علق لى بمحفوظى قوله فى رحلـــة السلطان ابى الحسن وبنى مرين الى افريقية يصف هزيمتهم بالقيـــروان ويعزيهم عنها ويونسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم الى افريقية فى ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول فى مفتتحها وهو من ابـــدع مذاهب البلاغة فى الاشعار بالمقصد فى مطلع الكلام وافتتاحـــه ويسمى براعـــة الاستهــلال :

سبحان مالـــك خواطـر الامرا * ونواصيها فى كل حين وازمـــان
ان طعنــاه عطفهـــم لنا قسرا * وان عصيناه عقب بكـل هـــوان

. . . (3) »

ثم ذكر له منها جملة أبيات . وقد وقفنا على القصيدة كاملـة ـ وهى طويلة من واحد وتسعين واربعمائة بيت ـ بآخر مجموع مخطوط فى خزانة مراكش رقمه 184 واوله شرح المقدمة الوغليسية للشيخ زروق .

---

1) المقدمة ص 530 — 531 .

2) يعنى الفن الذى نظم فيه ابن شجاع التازى . وقد ذكر ابن خلدون من الذين نظموا فيه كذلك على بن المؤذن من تلمسان ولكنه لم يمثـــل لنظمـــه .

3) المقدمة ص. 531 .

المنصور الاعمى

ذكر له الحلي(1) مطلع زجل هو قوله :

الحبب ابيض يا حبيب * وكؤوس الخمر حمر
نعم المزج بالرحيق * قط ما نعرف السلو
فالحبب في حريق غريق * عايم ابيض عجبت لو
فاسقني مع رشا رشيق * كل من راه مبجلو

مولاي الشاد

وهو اقدم شاعر وجدنا ذكره عند الاشياخ الحفاظ ، ويقولون عنه انه من تافيلالت وانه كان يعيش في أوائل القرن التاسع للهجرة ، وينسبون له قولة يذهب فيها الى أن «من لا يحفظ موهوب يبقى عقلو مقلوب » ، ويستنتج بعضهم من هذه القولة المبكرة ان الشعر الشعبي المغربي كان يطلق عليه « الموهوب » او «العلم الموهوب» قبل ان يسمى « الملحون » او غيرها من التسميات .

وكل ما يحفظ الاشياخ من زجل مولاي الشاد مقطوعتان قصيرتان ، يقول في الاولى :

لا تقولوشي يا حسرا اعلى ازمان * الخير والشر افكل ازمان كاينين
ما حد اكتاب الله فالصدور * اعلاه نبكيوا اعلاه
ما قاطعين ياس من رحمة الله * واحبيبنا الشافع رسول الله
فاش جا ذنب المخلوقين * عند واسع الغفران

ويقول في الثانية :

خوك عبدك وانت ديما الخوك مملوك
لا تأديه الله يهديك ما يؤديك
لك عايش وانتيا له كاتعيش
لا تكونوشي طوب افشي ابني اهشيش
عيشوا بالله والنبي والقرآن مع نحديث

وقد علق عليهما الشيخ احمد سهوم في حديث اذاعي نشر في « مجلة

---

1). الورقة 41 وجه وظهر .

الاذاعة والتلفزة المغربية فاعتبرهما تمثلان الملحون «قبل ان توضع له بحوره وعروضه ، انه مجرد كلام غير موزون وغير مقفى لكنه بليغ وهادف وفيه مسحة من جمال الشعر» (1)

عبد الله بن احساين

يقول عنه كبار الاشياخ انه كان معاصرا لمولاى الشاد وانه مثله من اضرا فى تافيلالت . ومن جملة ما يحفظون له قصيدة طويلة ، هذا نصها :

نبـــدا لسم الله انظامى يا اللى ابغا لوزان *

لوزان خير لى انيا من قول كـــان حتى كان

ربى اللى الهمنى نمدح جد الشراف يا لخوان *

بالشعر السليس الفايز هو ايكـون لى عـــوان

حتى انقول ما قالوا عشاق النبى افكل ازمان *

وانكون افلقريض الملحون انـا المادحو حســـان

مداح مادحو بلسانى والشوق له من لكنـــان *

والمادحو ابقلب اكنانو يرضـــــاه ماعيا بلسان

الموغ واللغا واللغوا بين اللها امـــع اسنان *

والحب ذا الشفيع الشافع فالقلب ذا الدخال اتصان

وانى الله شاهد عن قلبى واللسان كل احيان *

انبات كنضل ابشوقى والدمع كاينـو لمـــزان

بتناهدى اتعلل صدرى والصعب ما بقى يليان *

نمشى الارض طيبا تطفى ما فالقلب من نيـــران

وانمرغ لخدود ونتضرع فوق من قبر عدنان *

وانقول يا شريف الاسم مداح طالبك للامـــان

انت اشفيع يا محمـد واللى راحـــم ورحمان *

والعبد بين شافع وارحيم ايعاين لعفـــو نهفان

---

1) العدد 12 السنة الثانية يوليوز ـ غشت 1966

انت اشفيــق يا محمـــد والى عنا حنـــان *

ونا حسنت ظنى فالله وفيــك طالب الغفــران

وانعود من الحج المركاحى يا عنايتى فرحان *

للصوم والصلا وامديحك بين لحديث والقـران

تاريخ حلتى «رخل» عـد ازمانها افكل ازمان *

والقايلين كــاع امحضرا ونا فقيهــــم وزان

واسمى افلامتى عبد الله بـن احساين الوزان *

اسايلين عنى فاضرا عاصى ومعدن النقصـــان

نرجا من لكريم التوبا امن الرسول فالميزان *

اشفاعتو الهذا الاما ونــا فوسطهـــا فرحـــان

واتمام ما نظمت السيدى من ذا العقيق والعقيان *

اصلا موصلا للماحى ما ناح طير عل لغصـــــان

والسلام ربنا للشرفا واهل لهدا افكل امكــان *

والناظمين عن ميزانــى والى ايزيد لو ميـــزان

ونميل الى اعتبار ابن احساين من خلال هذا النص يمثل مرحلــة جديدة فى الزجل المغربى ، لعلها فاصلة بين ما كان من قبـل وما غـدا عليه . وسنعود اليه فى بداية الفصل الثانى ما دمنا قد اعتبرناه كذلك ، ونكتفى الآن بملاحظتين :

الاولى : ان الشاعر يشير الى «كان حتى كان» فى أول بيت مقارنا بينه وبين « لوزان » ، ولعله يقصد بـ «كان حتى كان» نوعا من الشعر الشعبى يعتمد القص والحكاية كما يبدو من التسميــة ، و بـ « لوزان » الشعر القائم على الوزن ، وهذا ما يعزز الاعتبار الذى ملنا اليه فى أن هذا الشاعر بدا مرحلة جديدة فى القصيدة الزجلية المغربية

الثانية : قوله فى الرمز لتاريخ قصيدته بـ «رخل» فالراء بمائتـــين والخاء بستمائة واللام بثلاثين ومجموعها ثلاثون وثمانمائة ، وهى سنة نظمه لها ، وبهذا نستطيع تحديد تاريخ مرحلة القصيدة الزجلية الجديدة .

اصـل القصيدة الزجلية

نحن بهذا أمام نصوص قليلة ولكنها على قلتها متباينة الاشكال متباعدة الفترات . ومع ذلك فهى تثبت وجود زجل فى المغرب منذ عهد الموحدين، بل الوان من الزجل مختلفة عن القصيدة المعروفة الآن ، وهى ظاهرة لا تدل على غير تطورها عبر الزمان . وعلى الرغم من ذلك يبقى السؤال قائما حول نشأتها ، وتبقى كذلك متفرعة عنه جملة اسئلة عن الاصول التى استقتمنها وتأثرت بها قبل ان تحرز كيانها :

I ـ أهى امتداد للزجل الاندلسى ؟

2 ـ أم هى محاكاة مباشرة لفن التوشيح الاندلسى كما عرفه المغاربة ؟

3 ـ أم هى تاثر بشعر اهل الامصار العرب الوافدين الى المغرب ؟

4 ـ أم انها استمرار لعروض البلد الـــذى استحدثه أهل المدن بالمغرب ؟

5 ـ أم انها تطور لاغان ومرددات شعبية محلية ؟

كل هذه اسئلة تراودنا فى محاولة البحث عن البذور الاولى للقصيدة الزجلية لا نرانا نخرج منها الا بردود لا تقوم على غير التخمين والافتراض .

اما الزجل الاندلسى فقد تاكد لنا ان المغاربة نظموا على نمطه فى عهد الموحدين(I) ، ولكننا لا نعرف ان كانوا قد نظموه فى العهد السابق . وعلى الرغم من ان النصوص لا تسعف ، فانا لا نستبعد ان يكونوا نظموه فـى عهد المرابطين (2) ، يدفعنا الى ذلك سببان :

الاول : ان المغاربة فى هذا العهد ـ وبعد ان تمت الوحدة بـــين البلدين ـ كانوا يقلدون الاندلسيين ويحتذون خطاهم فى مختلف مناحـــى الحياة ، وخاصة منها الحضارية والثقافية .

I) من 524 الى 674 هـ .

2) من 430 الى 524 هـ .

الثانى : ان الاندلس شهدت على هذا العهد ازدهار فن الزجل حيث لمعت أسماء كبار الزجالين وعلى راسهم ابو بكر بن قزمان .

والذى كنا نستبعده هو أن ينظم المغاربة الزجل على عهد الموحدين لما نعرف عن هذه الدولة من محاولة الابتعاد عن تقليد الاندلسيين وايجاد كيان خاص بها يعبر عن شخصية أهم ما تمتاز به هو التاثر بالدعـوة الموحديـة والميل الى البساطة والوضوح والبعد عن الزخرف والتعقيد .

ويبدو ان هذه المحاولة لم تتعـــد الرسميات الى الشعبيات ، حيث صادفنا غير قليل من الزجالين المغاربة فى هذا العهد ، بل أكثر من ذلـــك وجدنا صاحب « العقيدة الادبية » يتحدث عن الاختلاف حول مخترع الزجل ويذكر من المختلف فيهم ثلاثة من المغاربة هم ابن غرلة والخليفة عبد المومن وأخته رميلة ، يقول : «اختلفوا فيمن اخترع فن الزجل فمنهم من قال ابن غرلة ، وقيل يخلف بن راشد ، وقيل ابن قزمان ، وقيل مدغليس ، وقيل عبد المومن ملك الاندلس ، وقيل رميلة اخت عبد المومن . والذى اتفق عليه الجمهور أن أول من تناشد به ابن قزمان وبعده القيم مدغليس وبعده ابن غرلة وبعده يخلف بن راشد وبعده سبع الاندلس عبد المومن وبعـده رميلـة » (1)

ولعلنا نستطيع ان نذهب الى أن نظم المغاربة لفن الزجل فى هذا العصر الذى كان يحاول منافسة الاندلسيين وعدم تقليدهم يدل لا شك على نظمهم له فى عصر المرابطين من قبل وان وجوده فى عصر الموحدين ليس غير استمرار لما كان من قبل .

وعلى الرغم من أنه لم ترو أزجال مغربية كاملـــة ، فانا من خـــلال النصوص الناقصة التى ذكرت لابن غرلة وابن حسون لا نرى اختلافا بين الزجل الاندلسى والزجل الذى نظم هؤلاء الشعراء ، وهى ظاهرة يمكننا أن نستنتج منها فى كثير من الترجيح أن الزجل الاندلسى انتقل الى المغرب عن طريق تبادل الوفود والرحـــلات . ويكفى فى التمثيل لهذا التبادل أن نذكر قدوم أبى الحسن الششترى الى المغرب ، فقد كان يتنقل

---

1) الورقة 37 ظهر .

داخل المدن المغربية وينظم ازجالا يتغنى بها فى الاسواق كهذا الزجـــل الذى يقول فى مطلعه :

شويخ مـــن أرض مكناس * وسط .الاسـواق .يغنـــى

آش اعليا امـــن الناس * واش اعلى النـاس منى (I)

فهل كان المغاربة يستمعون الى مثل هـــذه الاشعار تنشد فـــى الاسواق وحلقات الذكر دون أن يتجاوبوا معهـا ودون أن تهـــز بعض المعتنين منهم لمحاولة النسج عليها ؟ نحن لا نشك فى أن تاثير الششترى كان قويا فى نفوس المغاربة ، وهو تاثير تـدل عليه الازجال التى لا زال يرددها فقراء درقاوة حتى اليوم ــ وهم طائفة من الشاذلية ــ ، وتدل عليها محاولة بعض المتصوفة المغاربة تقليد الششترى فى بعض ازجاله على حد ما نجد عند محمد الشرقى فى قصيدة زجلية يبدو فيها التاثر واضحا بزجـل الششترى السالف الذكر ، وهى القصيدة التى يقول الشرقى فيها :

انـا مالى فيـــاش * آش عليـــا منـــى

نقنط من رزقى لاش * والخالق يرزقنـــى

كذلك تدل على تاثير أشعار الششترى عنايـة المغاربة بنسخهـــا وشرحها على حد ما فعل الشيخ أحمد زروق (2) وابن عجيبة (3) ، وقـد كان بعض العارفين يحثون اتباعهم على قراءة هـذه الاشعار وانشادها . يقول ابن عباد الرندى(4) داعيا الى ذلك : «وأما مقطعـات الششتـــرى وازجاله فلى فيها شهوة واليها اشتياق ، واما تحليتها بالنغـــم والصوت الحسن فلا تسل فان قدرتم ان تقيدوا منها ما وجدتموه فافعلوا ذلك » (5).

وهذا يجعلنا لا نشك فى أن المغاربة ــ حتى فى نطاق التصوف ــ حاولوا ان ينظموا فى هذا الفن الجديد ، بل انا نكاد نجزم بذلك خصوصا

I) ديوان أبى الحسن الششترى ص 272 تحقيق الدكتور على سامى النشار الطبعة الاولى الاسكندرية سنة 1960 .

2) المتوفى سنة 899 هـ

3) المتوفى سنة 1311 هـ

4) المتوفى سنة 790 هـ .

5) انظر مقدمة الديوان ص 4 .

حين نجد مؤرخا كأحمد بابا التمبكتى (I) يقول : «وقد نسج الناس على منواله كثيرا فما ابرقوا ولا ارعدوا ولا قاموا ولا قعدوا الا من قل وندر لانهم ان اصابوا علما أخطأوا حالا وبالعكس » (2)

واذن فقد عرف المغاربة الزجل الاندلسى ونظموا متاثرين به ومقلدين له ، وهذه حلقة من حلقات البحث .

وما قلناه عن الزجل نقوله عن الموشحات ، خصوصا وان عهد المرابطين شهد ازدهارا لهذا الفن بظهور وشاحين كبار فى الاندلس أمثال ابن بقى واحمد بن على المشهور بالاعمى التطيلى وعلى بن حزمون المرسى وأبى بكر بن باجة ، وخصوصا كذلك وأن غير قليل من شعراء التوشيح وفدوا على المغرب فى فترات مختلفة أمثال الحفيد ابن زهر وابن حزمون والهيثم المريبطرى وسهل بن مالك الغرناطى وابن الخطيب فيما بعد .

وقد رويت لابن غرلة أجزاء من موشحات ، فقد ذكر له الحلى طرفا من موشحته المعروفة بالعروس (3) وهذا مذهبها واول أبياتها :

من يصيد صيدا فليكن كما صيدى * صيدى الغزالة فى مراتع الاسد

كيف لا أصول * واقتنصت وحشية

ظبية تجول * فى ردا وسوسية

صاغها الجليل * فهى شبه حوريه

I) المتوفى سنة 963 هـ .

2) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص 70 طبعة فاس سنة I3I7 هـ .

3) لاحظ استاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى أن هذه الموشحة ليست الموشحة العروس التى ذكر ابن سناء الملك فى دار الطراز فقال : «اذا قارنا عدد الاجزاء فى اغصان هذه الموشحة واقفالها عرفنا انها ليست الموشحة العروس التى أشار اليها ابن سناء الملك فتلك كما صرح دار الطراز تتألف من اقفال ذات سبعة أجزاء وهذه اقفالها اربعة اجزاء » (انظر الزجل فى الاندلس ص II3) علما بان ابن سناء الملك لم يسم ابن غرلة .

كذلك وجدنا فى « كتاب مجموع موشحات » (1) موشحة لابن غرلة يقول فى مطلعها :

يا من حكى خده الشقائق * وما له فى البها شقيـــق
تركتنى بالدمـوع شـارق * لما بدا خـدك الشريـــق

ويقول فى خرجتها :

بكر غدت فى الدنان عاتق * ما الحر من رقهـــا عتيــق
تلوح فى الكاس شبه بارق * ان مزجت صرفهـــا بريـــق

واورد له الشهاب الحجازى (2) موشحة هذا مذهبها واول ابياتها :

باســـم عن لآل * باســـم عن عطـر
نافر كالغـــزال * سافـــر كالبـدر
اى ظبـــى ربيب * لى فيـــه ارب
ريقه كالضـــريب * واللما كالضـــرب
يا لـــه من حبيب * باسـم عـــن حبب

---

1) مخطوط مكتبة أيا صوفيا رقم 4243 ـ السليمانية ـ اسطنبـول (الورقة 33 ظهر و 34 وجه وظهر) وقد وردت نفس الموشحة منسوبة لابن غرلة فى كتاب « روض الآداب » للشهابى الحجازى ـ الورقة 98 وجه وظهر (مخطوط مكتبة احمد الثالث رقم 2293 قصر توبكابى باسطنبول) كمـــا وردت فى «سجع الورق المنتحبة » الورقة 33 ظهر و 34 وجه وظهر (مخطوط مكتبة فاتح رقم 3918 السليمانية اسنطبول) ولكن منسوبة لعلاء الدين بن أبيك وليس لابن غرلة .

2) كتاب «روض الآداب » الورقة 96 وجه و 97 ظهر مخطوط مكتبة أحمد الثالث رقم 2293 . وفى نسخة أخرى من الكتاب مخطوطة بمكتبة راغب باشا باسطنبول رقم 1115 الورقة 190 انها لصلاح الدين الصفدى ، وفى نسخة ثالثة رقمها 4017 فى مكتبة أيا صوفيا باسطنبول (الورقة 91 وجه) ان الموشحة لاحمد بن حسن الموصلى .

واورد له الحجازى كذلك موشحة ثانية (1) يقول فى مطلعها :

زايــر بالخيــال * زايـل عـن قربى

باهـر بالجمـال * نـاهـر بالعجـب

ويقول فى خرجتها :

صـد تيهـا وقال * وهو يبغـى قربى

نحظ عينى تنال * قلت آه واقلبـى

كما انه رويت لابن حسون فى سفينة مباركشاه (2) موشحة يقول فى مطلعها واول ابياتها :

مـا احمـق * عن قطيع من دقق

الصباح قد اقبـل والظلام قد ولى

والنجوم قدغابت فى حجاب علم الله

ونجوم الاغصان قد بدت ان تجلى

واذن فقد نظم المغاربة الموشحات على طريقة الاندلسيين ، وهـذه حلقة ثانية من حلقات البحث .

واما شعر اهل الامصار العرب الوافدين على المغرب فقد حدثنا عنه ابن خلدون فى المقدمة فقال : « فاما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الاعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون وياتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجـاء ويستطردون فـى الخروج من فن الى فن فى الكلام وربما هجموا على المقصـود لاول كلامهم ، واكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون ، فاهـل امصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائـد بالاصمعيات نسبـة الى

---

1) نسخة راغب باشا الورقة 191 ظهر و 192 وجه وظهر ، فى حـين انها فى نسخة مكتبة احمد الثالث (الورقة 97 ظهر) منسوبة لجمال الدين يوسف الصوفى .

2) الورقة 25 ظهر و 26 وجه مخطوط فيض الله مكتبة Millet رقم 1612 اسطنبول .

الاصمعى راوية العرب فى اشعارهم ، واهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى » (1)

واورد من هذه الاشعار قصيدة على لسان الشريف ابن هاشم يبكى الجازية بنت سرحان ويذكر ظعنها مع قومها الى المغرب (2)

قال الشريف ابــن هاشــم على * ترى كبدى حرا شكت من زفيرها
يعز للاعلام اين مـا رات خاطرى * يرد اعلام البدو ويلقى عصيرهــا
وماذا شكات الروح مماطرا لها * عذاب ودائع تلف الله خبيرها

واورد منها « قولهم فى رثاء أمير زناتة ابى سعدى البقرى مقارعهم بافريقية وارض الزاب ورثائهم له على جهة التهكم» (3) ، هذا اوله :

تقول فتاة الحى سعـدى وهاضها * ولها فى ظعون الباكـين عويـل
ايا سائلى عن تبر الزناتى خليفة * خذ النعت منى لا تكون هبيــل

واورد منها كذلك «قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برجم :

فشايب وشباب أولاد برجم * جميع البرايا تشتكى من ضهادها

ومنه قوله يعاتب اخوانه فى موالاة شيخ الموحدين ابى محمد بــن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها مكفولة ابــى اسحاق ابن السلطان ابى يحيى ... :

يقول بلا جهل فتى الحى خالد * مقــالة قوال وقال صــواب
مقالة جيران بذهن وتـم يكن * هريجا ولا فيما يقول ذهــاب
. . . » (4)

وقد كان المغاربة يستمعون الى مثل هذه الاشعار تنشد وتروى ، وهذه حلقة ثالثة من حلقات البحث .

ونصل بعد هذا الى الحلقة الرابعة وهى « **عروض البلد** » ، وقــد تحدث عنه ابن خلدون فى مقدمته فقال : « ثم استحدث أهــل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر فى اعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم

---

1) ص 510 . 2) ص 511 — 512 .

3) ص 512 — 513 . 4) ص 517 .

الحضرية أيضا وسموه عروض البلد ، وكان اول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب ، مطلعها :

ابكانى بشاطىء النهر نوح الحمام * على الغصن فى البستان قريب الصباح
وكف السحر تمحو مداد الظلام * وماء الندى يجرى بثغر الاقاح
باكرت الرياض والطل فيه افتراق * سمر الجواهر فى نحور الجوار
ودمع النواعر ينهرق انهراق * يحاكى ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق * ودار الجميع بالروض دور السوار
. . .

فاستحسنه اهل فاس ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس من شانهم » (1)

اما الحلقة الخامسة والاخيرة **فالاغانى والمرددات الشعبية** . وعلى الرغم من أنه لم تصلنا نصوص لهذه الاغانى والمرددات ، فانا لسنا بحاجة اليها لنثبت وجودها ، فلكل شعب ـ مهما كانت درجة حضارته وتمدنه اولية ـ اغانيه ومردداته ، بل «لسنا فى حاجة لان نثبت من الناحية العقلية ضرورة وجود الاغانى فى المجتمع الانسانى كله وان الاغانى الشعبية قديمة العهد بين سكان المدن والبوادى وان الحياة الاجتماعية بمناسباتها المفرحة والمحزنة قد حتمت التعبير الجماعى الذى يستعين بالآلة الموسيقية وبالتنغيم اللفظى فاصطنع فن يجمع بين هذين الجانبين الموسيقى واللغة هو ما نصطلح على تسميته بالاغنية الشعبية » (2)

وليس المغرب بدعا من الشعوب والمجتمعات ، فقد كانت له اغانيه ومردداته واناشيده يتنغم بها فى مختلف اللهجات المنتشرة فيه ، وبالعربية العامية منذ ان تم استعرابه على عهد الموحدين وربما قبل ذلك .

هذه اذن حلقات اوجب علينا استعراضها ما نفترض امكان اعتباره أصلا لنشأة القصيدة الزجلية المغربية ، فبأيها يا ترى نربطها ؟

---

1) ص 529 — 530 .

2) الزجل فى الاندلس لاستاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الاهوانى ص 3 .

لسنا نستطيع أن نقول بانها امتداد لتيار الزجل الاندلسى ، فالفجوة الزمنية بعيدة بين الفترة التى وصلتنا عنها نصوص مغربية متاثرة بالزجل الاندلسى وبين الفترة التى ظهر فيها الزجل المغربى محرزا كيانه وخصائصه والاختلاف الشكلى ظاهر بين اللونين وخاصة حين نقارن بين الزجل الاندلسى والزجل المغربى فى المراحل الاولى لتطوره الاخير ، وخاصة عند أمثال الشماد وابن احساين .

ولسنا نستطيع القول كذلك بأنها محاكاة لفن التوشيح لانا لا نعتقد ذلك حتى بالنسبة لنشأة الزجل فى الاندلس .

واذا جاز لنا ان نتحدث عن محاكاة القصيدة الزجلية المغربية لنمطمن الانماط الشعرية فاغلب الظن أنها لعروض البلد الذى أشار اليه ابن خلدون لاستحسان الناس له ونظمهم على طريقته . ويميل بنا الى ترجيح هذا الظن الشبه الكبير الذى نجده بين النصوص التى نظم المغاربة متاثرين بعروض البلد كما عند ابن شجاع والكفيف وبين الزجل المغربى فى مراحله الاولى وقبل أن يحرز كيانه الحالى اى عند الشماد وابن احساين .

كذلك لا نخفى ميلنا الى الظن بان اشعار العرب الوافدين ، وخاصة منهم الهلاليين وحلفائهم ، القت بظلال كثيفة على القصيدة الزجلية المغربية ، فليس من قبيل المصادفة ان تكون القصيدة فى شكلها الحالى ظهرت فى جنوب المغرب وان يكون اغلب اعلامها من الفيلاليين الصحراويين ، ونحن نعرف ان اولئك العرب الوافدين أقاموا فى الجنوب ، وليس من قبيل المصادفة كذلك أن يتخذ الزجالون المغاربة من التقاليد ذكر اسمهم فى قصائدهم ، وهى عادة تعارف عليها الشعراء العرب الوافدون ، (I) بل ليس من قبيل المصادفة بعد هذا ان نجد فى الازجال المغربية آثارا للقصص والملاحم الشعبية التى جاء بها أولئك العرب ، تتمثل فى الاشارة الى أسماء عبلة وجازية وعنترة

I) انظر الجزء الثانى من الفصل الثالث من باب « الشكل » .

والشجعان الزناتيين (I) وفى التعليل لوجود هذه الاسماء بانها مقتبسة من القصائد الاصمعيات (2) .

ومع هذا فنحن نرجح ان تكون الاغانى والمرددات والاناشيد الشعبية المحلية هى الاصل الاول للقصيدة الزجلية ، وقد ذكر لنا الشاد ما يطلق عليه «الموهوب» كما ذكر منها ابن احساين «كان حتى كان» . وبذلك تكون القصيدة نشأت شعبية محلية نابعة من البيئة ومتأثرة بها كغيرها من الفنون والآداب الشعبية ، ولكنها ظلت محصورة فى نطاق ضيق محدود . ونرجح كذلك ان تكون هذه القصيدة اثرا طبيعيا من آثار استعراب المغاربة وانسجامهم مع اللغ الجديدة وتطويعهم وتذوقهم لها فى قالبها العامى حين عجزوا عن ذلك فى قالبها المعرب ، وهى بذلك نتيجة الازدواج فى اللغة تعاطاها العوام فيما بينهم ، ولكنها لم تصبح لونا ادبيا معترفا به اذ لم يتح لها الشاعر الفنان الذى يعمل فيه موهبته وعبقريته ويقدمها فى صورة فنية مكتملة . وظلت لذلك مدة طويلة تتنفس فى جو شعبى خالص ، وبقيت بهذا نماذجها الاولى مجهولة .

I) على حد ما يقول امتيرد فى «خديجة» :

لوصول اتصول ※ صولى يامولاتى اخديجا ※

صولت عبلا وجازيا ※ يا سلطانت الريام

ويقول مبارك السوسى فى «زهرة» :

سلبت عقلى زهرا ※ بالبها والحسن المكمول حازت اسرارو

بشمايل لبها فاقت عل لبكار ※ فاقت عن عبلا وجازيا وامحاسن لبكور

ويقول المدغرى فى « ام كلثوم » :

كلثوم ترياق لسقامى ※

كلثوم كنها ياقوتا فى سلسلا امن اذهب تشحارو معلوم

كلثوما شمس اضوات فارسامى ※

كلثوما ما ادركها عبسى فضخامتو اشجيع اسناحو مقيوم

ويقول محمد ولد افريجة فى « خناثة » :

يا دات الزين الوارث ※ امنين امجيك آمولاتى الخنتا

سبحان امن انشاك اقد الرمح الصقيل أرايافى تشجيع بين شجعان ازناتا

2) يستعمل الاشياخ مصطلح « الاصمعيات » دون ان يعرفوا انه يعنى قصائد اهل امصار المغرب من العرب كما شرح ابن خلدون وكما سبق ان أشرنا لذلك .

ولكنا نرى ان الشعراء الشعبيين تأثروا بعد هذا بالازجال الاندلسية والموشحات فى محاولة للتقريب بين القصيدة كلون شعرى عامى وبين الاشعار التى كانت تلقى فى مجالس غير العوام عند العلماء والحكام والملوك ، وفى محاولة كذلك لفرض وجوده وتوسيع نطاقه واقناع الطبقات المثقفة والارستقراطية بهذا الوجود ، وهى طبقات لا شك كانت معجبة بالازجال والموشحات الاندلسية بل بكل ما هو تراث اندلسى ، لا سيما وان غير قليل من الاسر الاندلسية انتقلت الى المغرب وظلت تعيش على ماض تعتز به وتفخر ، وهو شعور يكاد يعم جميع المغاربة حتى الذين ليسوا من أصل أندلسى .

والغالب ان هذه المحاولة تمت حين انتقلت القصيدة الزجلية من البيئات الشعبية الصرف الى بيئات راقية ان لم نقل انها بعيدة كل البعد عن الشعب. ومثل هذه النقلة تظهر فى التفنن الشكلى الذى اصبحت عليه وزنا وقافية (1) وفى المعانى والافكار التى بدأ يصورها الزجال المغربى والتى لا تمت بصلة للشعب ولا تمثل الا حياة الرفاهية والقصور والطبقات الغنية المنعمة ، وهى حياة يكاد تصويرها ان يكون اقرب الى نسج الخيال منه الى الواقع (2) .

على أنه لا ينبغى ان ننسى عاملا آخر ساعد على التأثر بالازجال والموشحات الاندلسية ، وهو انتقال الموسيقى الاندلسية الى المغرب بنوباتها واناشيدها ، وهى موسيقى حافظ المغاربة عليها . وقد سبق ان راينا (3) انهم اضافوا الى الميازين الاندلسية الاربعة ميزانا خامسا هو الدرج وان الحاج علال البطلة استخرج طبع الاستهلال فى أوائل ايام السعديين. وكان طبيعيا ان ينظم المغاربة — لهذه الاضافات على الاقل — مقطوعات كانت

---

1) أنظر الفصل الثالث من الباب الاول وانظر كذلك الفصل المقبل عن تطور القصيدة الزجلية .

2) انظر فصل المرأة من باب الموضوعات وانظر كذلك الجزء الاول من الفصل الثانى من نفس الباب .

3) فى المدخل .

بلغة عامية فى الغالب ، ولعلنا نذكر «البراول» التى سبق ان جعلناها نوعا مستقلا من الزجل المغربى لا يختلف كثيراً عن القصيدة .

وتتجلى عناية المغاربة بالموسيقى الاندلسية ومقطوعاتها ـ حتى بعد ذلك ـ فى العمل الذى قام به الحايك التطوانى فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى من جمع الموشحات والازجال التى تنشد فى هذه الموسيقى فى كتاب يعرف باسمه .

ولعلنا ان نذكر بعد هذا ان القصيدة الزجلية حين دخلت مرحلة الغناء لم تجد غير ميازين الموسيقى الاندلسية ونوباتها تقيم عليها الالحان .



الفصل الثاني

مرحلة التطور

رأينا فى الفصل السابق أن مرحلة جديدة من القصيدة الزجلية بدأت قبيل منتصف القرن التاسع للهجرة فى أواخر عهد المرينيين على يد عبد الله بن احساين ، وهى مرحلة تطورية كانت القصيدة خلالها تكتسب غير قليل من الجديد وتحاول احراز كيانها الذى ستستقر عليه ، سواء من حيث الشكل أو المضمون .

وليست هذه المرحلة قصيرة ، فهى تمتد زهاء ثلاثة قرون ، ومع ذلك فانا لم نتتبع كل شعرائها وما أنتجوا من أزجال ، واكتفينا بذكر الاعلام الذين قدموا جديدا أو طوروا قديما ، ولم نقف الا عند النصوص التى اعتبرناها معالم فى طريق هذه المرحلة . والحقيقة أننا لم نقصد الى ذلك ، ولكن المادة التاريخية والشعرية لم تتيسر لنا لاستعراض كامل نؤرخ به لهذا الفن ، والسبب أنها لم تدون فكان مآلها الضياع ، وما بقى منها فى أذهان الاشياخ قليل ، وهو على قلته مليء بالتناقض والخرافات ، يحتاج الى كثير من التصفية والغربلة حتى يستخلص منه ما يمكن اتخاذه أساسا للدرس والبحث .

لهذا سنركز على القصائد نفسها ، نحاول أن نستكشف منها ملامح هذه المرحلة وما يميزها من ظواهر التطور والتجديد ، وسنتتبع نصوصها من خلال استعراضنا لاعلامها ، حتى نجمع بين التأريخ للقصيدة والتأريخ لمنشئيها ، وسنبدأ بعبد الله ابن احساين ونختم بالمصمودى .

عبد الله بن احساين

من قبيلة «اضرا» بصحراء تافيلالت كما يصرح فى شعره . ولسنا نعرف تاريخ ولادته ووفاته ، ولكنا نستطيع القول بأنه عمر زهاء مائة عام معتمدين على أمرين :

الاول : ان احدى قصائده مؤرخة فى سنة ثمانمائة وثلاثين ، واذا افترضنا أنها من أولى قصائده ، فيحتمل ان يكون قالها وهو بين العشرين والثلاثين من عمره .

الثاني أنا نجده يذيل قصيدة لاحد تلاميذه **يسمى الحمرى ، وهي** قصيدة مؤرخة فى السنة العاشرة **بعد المائة التاسعة ، وليس من شك فى** أنه كان اذ ذاك فى أواخر حياته .

ويعتبر ابن احسماين –فى رأى بعض الاشياخ (1)– صاحب مدرسة وأستاذ جيل ، ووضع لمن جاء بعده من الزجالين غير قليل من التقاليد ابتدعها فى زجله ، والاسف أنه لم تصلنا منه غير قصيدتين سنحاول منهما أن نستخرج ما يعزا له من ابتداعات وأسبقيات :

أولا – البحر المثنى : يستشف سبقه الى النظم على هذا البحر من استهلال القصيدة الاولى حيث يقول :

نبدا لسم الله انظامى باللى ابغا لوزان

لوزان خير لى أنيا من قول «كان حتى كان»

ربى اللى الهمنى نمدح جد الشراف بالخوان

بالشعر السليس الفايز هو ايكون لى عوان

ويستشف كذلك من قوله فى نهاية نفس القصيدة :

واسلام ربنا للشرفا واهل لهدا افكل امكان

والناظمين عن ميزانى واللى ايزيد لو ميزان

فهو يريد أن يقول شعرا موزونا سلسا يراه خيرا من «كان حتى كان». وقد سبق أن راينا (2) أن «كان حتى كان» ربما كان نوعا من الشعر غير منظم ولا موزون ، يقوم موضوعه لا شك على حكاية القصص والخرافات ، كما يبدو من تسميته .

والجدير بالملاحظة ان هذه القصيدة على قصرها – فهى لا تضم غير سبعة عشر بيتا – ليست معروفة الا عند كبار الاشياخ ، وأول قصيدة

---

1) هو السيد أحمد سهوم الذى استفدنا من تقاييده غير قليل من النصوص والاخبار المتعلقة بشعراء هذه المدرسة .

2) أنظر الفصل الاول من هذا الباب .

بحفظها أغلب المنشدين على «قياصها» هي «تصلية» ابن علي ولد ارزين التي يقول في حربتها :

صلوا اعلى الصديق الصادق جد الشراف نور العين

امام لنبيا بلقاسم محبوب ربنا الرحمان

ثانيا ـ البحر الثلاثي : نظم فيه قصيدته «اللقمانية» ، وهي ـ كما سنرى حين نتحدث عن سبقه الى تأريخ القصائد ـ منظومة سنة ثمانية وثلاثين وثمانمائة ، أي أنه ابتدع هذا البحر بعد ثماني سنوات من ابتداعه البحر الاول . يقول في أول «اللقمانية» :

يا راسي نوصيك كيف وصى ولدولقمان ✻ وانت اصغا كيف ماصغا ولدو لبياني

واتوصى بوصايتي المرويا قوم اخرين

ثالثا ـ البدء بالبسملة : يبدو في أول بيت من القصيدة «المثناة» حيث يقول :

نبدا لسم الله انظامي ياللي ابغا لوزان

لوزان خير لي أنيا من قول كان حتى كان

رابعا ـ توجيه الخطاب الى الرأس : يقول في أول بيت من قصيدته اللقمانية :

يا راسي نوصيك كيف وصى ولدو لقمان ✻ . . . .

خامسا ـ الاشارة الى تاريخ نظم القصيدة : يقول في أواخر أبيات القصيدة الاولى :

تاريخ حلتي «رخل» عد ازمانيا افكل ازمان

والقايلين كاع امحضرا ونا فقيهم وزان

حيث رمز بـ : ر خ ل ، فالراء بمائتين والخاء بستمائة واللام بثلاثين ، ومجموعها ثلاثون وثمانمائة ، وهي سنة التأريخ .

ويقول مؤرخا لقصيدته الثلاثية ، محددا تاريخها بالشهر واليوم :

واسمي عبد الله بن احساين نسل العدنان ✻

مركاحي فاضرا وحلتي فالوزن الساني

«خرجهالي» جماد والشهر باقي لو يومين

أما السنة فرمز لها ب : خ ر ج ه ل ، فالخاء بستمائة والراء بمائتين والجيم بثلاثة والهاء بخمسة واللام بثلاثين ، ومجموعها ثمانية وثلاثون وثمانمائة .

وأما الشهر فجمادى ، وأما اليوم فقبل نهاية الشهر بيومين .

سادسا ـ ذكر الاسم : يقول في قصيدته الثنائية مصرحا باسمه وبأنه من قبيلة «اضرا» :

واسمى افلامنى عبد الله بن احساين الوزان

أسايلين عنى فاضرا عاصى ومعدن النقصان

وكذلك يقول في «اللقمانية» مشيرا الى شرف نسبه كما يتضح من آخر أبيات ذكرنا منها عند التأريخ .

سابعا ـ اهداء السلام والصلاة والدعاء : يعرض ذلك في الابيات الاربعة لقصيدته الاولى حيث يقول :

نرجا من لكريم التوبا امن الرسول فالميزان

اشفاعتو الها ذا الاما ونا فوسطها فرحان

واشفاعتو الها ذا الاما هى اذخيرت ليمان

اشفاعتو الها ذا الاما هى الضامنا لجنان

واتمام ما نظمت السيدى من ذا لعقيق والعقيان

اصلا اموصلا للماحى ماناح طير عل لغصان

واسلام ربنا للشرفا واهل لهدا افكل امكان

والناظمين عن ميزانى واللى ايزيد لو ميزان

ويقول في اللقمانية :

واتمام المقصود فالصلا عن سيد عدنان *

زين الزين الهاشمى احمد محبوب الغانى

والرضوان اعلى اجميع آلو وانصار الدين

ثامنا ـ هجاء الخصوم : يعتبر نفسه أستاذا وسائر الشعراء له تلاميذ، حين يقول في قصيدته الاولى :

. . . . . والقايلين كاع امحضرا ونا فقيهم وزان

فالقائلون عنده ـ وهم الشعراء ـ امحضرا ، وهو الاسم الذى يطلق على صبية الكتاب القرآنى ، أما هو ففقيه ، وهو الاسم الذى يعرف به مدرس الكتاب ومدرره .

تاسعا : تذييل قصيدة التلميذ : وهو دليل اعترافه بشاعريته واجادته حيث يختم قصيدته ببيتين أو ثلاثة . ويقال عنه فى الاصطلاح «اطبع لو»(1) ولا يكون الا بعد أن يراجع الشيخ القصيدة أو على حد قولهم «صفى لـو لقصيدا» و «دوز اعليه» . ويعتبر التذييل شهادة يعتز بها الشعراء مثبتين تلمذهم على كبار الاشياخ الى حد قالوا : «شيخ ابلا اشياخا باطل شاخ»(2) .

من ذلك ما نجده فى نهاية قصيدة لحماد الحمرى ذيلها أستاذه ابن احساين بهذين البيتين مشيرا فى البيت الثانى منهما الى أن الحمـرى يحفظ معانيه :

واسلام ربنا للشرفا وهـــل لعلوم ياحضـــار

اعداد ماهطلت امن امطار وما لقحت من تزهير

فاشعار حافظ امعانينا حماد رايــق للتشطـار

والحمد اللكريم الدايم عما اعطى ابلا تقصيــر

وقد قدم الحمرى لبيتى أستاذه بقوله معتزا بسنده :

والحمد والشكر فالختما واصلا اتسير للمختار

من درع ابن احساين الحمرى حماد رمزها «فلخير»

وتجدر الاشارة الى أنه رمز لتاريخ قصيدته بالفاء واللام والخاء والراء ، فالفاء بثمانين واللام بثلاثين والخاء بستمائة والراء بمائتين ، ومجموعهـا تسعمائة وعشرة .

---

1) نصادف هذا المصطلح عند محمد بن عمر الكفيف فى «الدعى» حيث يهجو الاشياخ الذين كثروا دون أن يكون لهم سند من حفظ أو رواية أو تلمذ على أشياخ يطبعون لهم ويجيزون :

فضحو سوق اللغا ابغال الرتعا * اشحال منهم املاوا ابقاعـى

ما حفظوا ماروا ما طبعوهم طباعا

2) ويقال كذلك انه «سلك الطرقان» أى حصل على تجارب وتعرف الى مختلف جوانب الفن عن طريق تلمذه على شيخه .

هذه جملة الاسبقيات التى استطعنا استخراجها لعبد الله بن احساين من ثنايا قصيدتين هما كل ما وقفنا عليه من زجله . وقد وجد من شعراء قبيلته غير قليل من السخط بسبب اتخاذه الوزن ، وهو سخط يكشف عنه قوله فى أواخر «اللقمانية» :

من غتبك يكفيك فيه خفف عنك عصيان *

كيغتبونى فقبيلتى عن طرز اوزانى

نرجا من ربى ايتوب عن ساير المسلمين

ولكن احتضان ابن احساين لجماعة من تلاميذه فى الفن ، سواء فى اضرا أو خارجها ، جعل ابتداعاته تنتشر وتفرض وجودها فى بيئة الزجل ويعترف للسابق اليها بالفضل ، وهو اعتراف تكشف عنه هذه الابيات التى رثاه بها أحد تلاميذه الفاسيين واسمه الحاج اعمارة ملقبا اياه بأبي الشعر ، يقول مخاطبا شعره ، يحثه على البكاء على أبيه حتى يسقى من دموعه جذور النخلة التى كان يجلس اليها ابن احساين لينظم قصائده :

ابك اعلى اباك أشعرى لبكا دشى امرا ثكلى

اونوح كينوح ورشان اغريب بوحدو فالليل

ابك على اباك أشعرى واسق اجذور ذا النخلا

اللى اشحال من شعر احداها رصعو اباك اكبيل

العيش بعد عبد الله او الله كاع مايحلا

ونايلامشى عبد الله ابقيت فالشعار اوحيل

حماد الحمرى

نعرف أنه من تلاميذ ابن احساين وأنه كان يعيش فى أوائل القرن العاشر كما تقدم . وقد ظل ينظم على بحرى أستاذه كما تكشف قصائده . فمن نظمه على البحر المثنى قصيدته «الربيعية» التى يقول فى حربتها :

الورد والزهر واغصانو واشجار باسقا واطيار

ايسبحو النعم الغنى والما افقلب كل اغدير

ومن نظمه على الثلاثى قصيدة «التصلية» التى يقول فيها :

صلى الله اعليك يالهادى خاتم لرسال * عد ادواب البحر والاسماك اللى فالمالى
العايش واللى امضى ومن هو مازال اقبيل

وقد ظل كذلك يسير على جميع التقاليد التى سنها أستاذه ، ولكنه — فى رأى الاشياخ — لم يكتف بها وأضاف لها من عنده . واذا كانت كل أسبقيات ابن احساين محصورة فى نطاق الشكل ، فان ما أحدثه تلميذه الحمرى يتصل كذلك بالشكل ، ولكن يتعداه الى المضمون . ويتبين لنا ذلك من خلال قصيدة واحدة هى التى وفقنا الى تسجيلها كاملة ، وهـــى «الربيعية» :

أولا : تطور المضمون :

ويتجلى فى كون القصيدة نظمت فى وصف الطبيعة وجمالها أيــــام الربيع ، وهو موضوع يؤكد كبار الاشياخ أنه لم يكن معروفا من قبل عند الزجالين الذين كانوا لا يخرجون فى أشعارهم عن المدائح النبوية و «التصليات» والحكم والمواعظ .

وقد سبق أن مثلنا ببعض أبيات هذه القصيدة لدى الحديث عن شعر الطبيعة(I) ، ونود هنا أن نلاحظ أن الحمرى جعل ربيع شعره أزهى من ربيع الزمان ، هذا ينقضى بمرور فصله ، وذاك دائم الازهار والاثمـار لا ينتهى ولا يذبل ، يقول فى القسم الثانى من القصيدة :

هاك ارياض يا من لاشاف ارياض فى اقريض اشعار
انزايه لفكار ارياضى الشعر فايـــق التشجيـــر
لخريف كايقصف نعمر والورد ويربـــى لزهـــار
والورد والزهر فارياضى فيام لخريـــف اغـــزير
لشجار افلخريف اتغرد واتنوح عن اشباب اقبـار
ويجف ورقها ويفدفد ويصير كحطـــب لهجيـــر

I) أنظر الجزء الاول من الفصل الثانى من باب (الموضوعات) .

ونا اشجار روضى خضرا تسبى اربايع النظـــار

فخريف ولمشاتى والصيف اربيعها اربيع اغزيـر

لغصان يانعا مسرارا والـــورق منها يخضـــار

واقطاطر النـدا فعـــروق سايـــر التشجيـــر

ثانيا : تطور الشكـل :

يتمثل فى ثلاثة جوانب هى : تقسيم القصيدة ووضع لازمة لهـــا واستعمال الحوار .

1 ـ تقسيم القصيـدة :

قسم قصيدته «الربيعية» الى تسعة أقسام كل منها مكـــون مـــن خمسة أبيات وهذا أولها :

سارت لمشاتى كالجيش ايلا انهازم افلكحـــار

من بعد زام طبلو واتنصر سار افلقفار اكسيـــر

وجا اهمامنا لمسمى الربيع حايـــز التفخـــار

وصاب ما يصيب المنصور ايلا امشى اعداه احقير

ارمات السما ثوب حزنهـــا ولبست الافتخـــار

واتحزمت بالسبع الوان اللى اهدى ليها لخبيـــر

وانعايم لغنى سبحانو واسقات منها لشجـــار

شلا احصى السان الفاصح سبحان ربنا لقديـــر

اعراجن اثمر فالنخلات الراكبات عـــل لجدار

واعناقد لعنب فادوالى سالو عل لعصير اخبيـــر

2 ـ وضع الحربـة :

فقد جعل لقصيدته حربة أى لازمة تلتزم فى نهاية كل قسم ، هـى قولـه :

الورد والزهر واغصانو واشجار باسقا واطيار

ايسبحو النعم الغنى والما افقلب كل اغديـر

3 ـ استعمال الحـوار :

وهو حوار بسيط وقصير أجراه فى القسم الثامن بينه وبين النحل

والفراشات ، وقد سماها «أم الوبرات» . فقد جاء على لسان الفراشات ما ضمنه الحمرى أول بيت من هذا القسم ، وجاء فى رد النحل ما ضمنه فى الشطر الثانى من البيت الثالث ، أما هو فرده عليها يبدأ من آخر البيت الرابع ويكمل فى البيت الخامس ، يقول :

«اهلا بالربيع اللى جانا بعد ماهزم لمطـــــــار

واهلا بالنسيم اللى هب حامل اشدا واعبيـــر»

هكذاك قالت أم الوبرات الطايفات عل لزهـــار

الراشفا اعطور النوار افطاست الندا لغزيـــــر

سمعوا اقوالهم النحلات وجاوبو ابلا تستـــــار

«لاصيف لاخريف ابغينا الا اربيعنا لمنيـــــر»

لكلام ابلقلوب يتسمع فشدا امرايح النـــــوار

ونا بقلب قلبى صغتو وانطقت قلت: «كل اغرير

ما راد غير راسو والهانى مارتا اعلى محتــــار

واللى القى اغراضو وامرادو مايسالشى عن غير»

محمد بن على بوعمرو

وهو كذلك من تلاميذ عبد الله بن احساين اذ يترحم عليه فى آخر قصيدته «عبلة» ملقبا اياه برفيق النخلة ، فيقول :

لازم ايجى من يدرى فضـــلى * والفضل الخالقى فالاول والتالى

ورحمة الله اعلى ارفيق النخلا

ونعرف من تأريخه لاحدى قصائده أنه كان يعيش بعد السنة الثلاثين من القرن العاشر ، يقول فى أواخر قصيدته «عبلة» :

بوعمرو محمد لعشيق ابن على * والرمز «الحب اقهرنى قتالى»

فقد رمز ب : ل ح ب ق ه ر ن ق ت ل فاللام بثلاثين ــ وقد ذكرها مرتين ــ والحاء بثمانية ، والباء باثنين ، والقاف بمائة ــ وقد ذكرها كذلك مرتين ــ والهاء بخمسة ، والراء بمائتين ، والنون بخمسين ، والتاء بأربعمائة ، ومجموعها خمسة وعشرون وتسعمائة .

وقد أحدث بوعمرو ـ حسب ما انتهينا اليه فى البحث ـ بعض التطور على مضمون القصيدة وشكلها ، يتمثل الاول فى سبقه الى الغزل ، ويتمثل الثانى فى ابتداعه وزنين : احدهما داخل البحر المثنى ، والآخر داخل البحر الثلاثى ، كما يتمثل فى نظمه قصائد غنائية خفيفة :

أولا : تطور المضمون : الغزل

يعتبر بوعمرو أسبق شعراء القصيدة الى النظم فى الغزل ، ولقب لذلك ب : «العاشق» . ومن محاولاته الاولى فيه قصيدة «زهرة» التى يقول فى حربتها :

زورينى قبل الانقبار * ياهلال الدارا زهرا

وقد كان لغزل بوعمرو وقع سيء فى نفوس معاصريه الذين استاءوا منه وسخطوا عليه لاتخاذه المرأة موضوعا للشعر ، وبالغوا فى ذلك فرموه بالزندقة والفحش على حد قول أحدهم ـ اسمه لمرانى ـ وهو من امدغرا :

زنديق ابن الزنديق الوغد اللى ايردنا فساق

يستاهل الرجيم ابلحجر حتى ايموت بالتحقيق

ويلا ايموت يتصلب عام وبعد دلتو يحراق

وانشتتو ارمادو وانقول هكذا بغى لعشيق

فهو عنده زنديق ابن زنديق ووغد دنس الشعر بفسقه ، يستحق الرجم حتى يموت ثم يصلب مدة عام وتحرق جثته بعد ذلك ويذر رمادها جزاء عشقه وقوله فيه .

وعن مثل هذا السخط العنيف عبر أحد شعراء مراكش المعاصرين له اسمه حسون وتير فقال :

ملت امن السجيا ونى فيها العار والشنار

واغضبت اعلى الشعر الملحون اللى ناظمو فاضرا

الفاسق اللئيم الزنديق اللى شنع بالبكار

ألويلى اجناح انفدفد وانطير له للصحرا

واندير له لكبل واسلاسل من الهند للتشبار

وانطوفو اشهر وانحبسو عشرين عام فى عشرا

فقد مل الشعر الذى غدا فيه العار والشنار ، وضاق بالملحون الـذى ينظمه شاعر اضرا محمد بوعمرو ، وهو يرميه بالفسق واللؤم والزندقة والتشنيع بالابكار ، ولو كانت له أجنحة لطار اليه حتى الصحراء ليضع له القيد فى رجليه ويكبله بسلاسل الحديد ليقوده منها ويطوفه شهرا ثـم ليسجنه مدة ثلاثين عاما .

ولم يكن بوعمرو يسكت عن خصومه ، وكان يرد عليهم بأنهـم لا يعرفون حقيقة ما به وأنهم لو أدركوا هذه الحقيقة لاتخذوه نبراسا يضىء لهم الطريق وتبعوه ، وبأن سر ما يعانى كامن فى رقة قلبه ؛ يقول فى القسم الثانى من قصيدة تأملية :

واسباب ليعتى وامصابى حتى اوصلت للتخنـاق

قلبى ارهيف يامكوانى طبعى ابلا اشعـار ارقيق

البعض راد لى تشنيقا والبعض راد لى نحـراق

والبعض راد لى نتصلب بالسلاسل حين اعشيق

تالله لون عرفوا ما ساكن فالقليب بالتحقـاق

حتى انكون لهم شمعا تضوى افضيق كل امضيق

وفى القسم الاول منها يرجو الله أن يطبعه بطابع قومه أو يطبعهم بطابعه حتى لا يظل كالعاقل بين المجانين أو كالمجنون بين العقلاء ، وحتى يتفاهم مع مجتمعه الذى يحلل من الاشياء ، ويحرم ما يشاء :

يا خالق لخلايق خلقنى بطبايـع دا الخـلاق

ولا اخلايقك خلقهم بخلايقى اتبـان الطريـق

ايلا انقول لهم ياناسى هامسارب التحقـاق

ايجيوا اللخرايف ويقولوا هانهايت التحقيـق

والعاقل لفطين ايلا كان امشى الحارت الحمـاق

هو ايصير لحمق والحومق عاقلين بالتحقيـق

أناعفيل بين الحومق واهبيل فوسط العيــاق

واشحال حللوا من شيات وحرموا ابــلا تحقيق

كذلك كان يرد عليهم محاولا أن يبرر لغزله على حد ما يقول في القسم السادس والاخير من «زهرة» يسائل الذين لعنوه — في استفسار انكاري — عن العيب الذي يمكن أن يكون في التغني بمحاسن المرأة ومدح الجمال ، ويطلب من الله أن يقيه شر الجاحدين :

واتمام القول افلشعـــار * يااللي لمنونـــي جهـــرا

آش من عيب اعلى لشطار * ولغنا بمحـاسن لمــــرا

واش من حشما يالحبـــار * في امديح اعلوم النظـــرا

ياهلي والجحــاد اكثــار * بــين امدغـــرا وامغـــرا

والستر من عند الستـــار * منهم يوقينـــي جهـــرا

وقبل ذلك وفي القسم الرابع يطمئن الذين يخشون من العار الــذي قد يلحق بأهل حبيبته فيبين لهم أن العاشق لا يحتار في أمره طالما أن العشرة تتم بالزواج ، وقد كني عنه بالصداق :

خايفين اعليا من عـــار * كيــدل احبـــاب البكـــرا

والذي عـاشق مايحتـــار * بالصـــداق اتـــم العشرا

ولم يقف سخط خصوم بوعمرو عند هذا الحد ، وانما زادوا فمنعـوا تداول جميع قصائده حتى ما كان منها في غير الغزل ، فلم تعد تنشد في المساجد والزوايا والمجالس العامة حيث كانت العادة أن تنشد قصائـــد الزجل ، ولكن الشاعر استمر في اتجاهه الجديد الذي وجد قبولا واستحسانا في المجالس الخاصة ولاسيما عند النساء والشباب . واضطر بوعمرو الى أن يساير جمهوره الجديد وأخذ ينظم له أغنيات خفيفة كهاته التي يؤكد بعض الاشياخ أنها ما زالت تغنى حتى اليوم في الصحراء ، يقول في أولها :

اتقرقبو الزوج اخراص * طـــــار النعـــــاس

خلوني هنـــا لوناس * غابـــــوا الفـــــاس

وسنعود الى هذه الاغنيات فيما بعد كتطور للشكل عند الشاعــر ، ونبقى قليلا مع بوعمرو في مواجهته لخصومه ، فهو لم يقنع بالمصير الذي

آل اليه شعره وظل يرد على خصومه مؤكدا تمسكه باتجاهه فنظم قصيدة «عبلة» التي يقول في حربتها :

ايلا اتعذبت اعذابي من انواجـلي * ويلانا هنيت واسعدنـي فـالي
اسبابي فالهنا اغـزالي عبـلا

ولعله في اختيار اسم عبلة لم يكن يقصد غير الابتعاد عن أسمـاء النساء المألوفة ومحاولة اقناع خصومه أنه لا يعني بنت هذا أو زوجة ذاك أو أية امرأة بالذات .

وفي القسم الثاني يخاطب الذين شوهوا قوله ولاموه على هواه ، ويبين لهم أن الحب كنز حصل هو منه على قدر كبير ، وأن المحبة رضوان من الله يهبه للعفيف ويرفع به الوضيع ويغني به المعدم ويحول به القفار الى جنان :

ياللي شوهتـو ليا افعايـلي * لوموني افلهوا ونـا فسجالـي
نوريكم حب ماتوصلـو خـلا

لمحبا رضوان الخالق العالـي * للي هو اعفيف الحب احلالـي
واياموا ابلهـوا العـذري تحـلا

ايلا ايكون اوضيع افلعباد ياللي * ما ساق اخبار لازم اينال لمعالـي
ويعود ايلو اجنان ما كان اخلا

كم عادم فغناه اليوم بـان لي * الحب اكنوز ياللي كايصغالـي
أنا بعدا ادركـت منها شلا

وفي القسم الرابع والاخير يكشف لخصومه أن البون شاسع بـين العشق والفسق ، وأن العاشق لا يمكن أن يكون فاسقا ، وأن العشق يبعث الرقة والنور في قلب الجاهل البليد فيصير فاضلا لبيبا أديبا لا تمـل مجالسته :

عاشق وفاسقماينصاب في اخلا * ولا فعمارت لمـدون ولطـلالي
بين العشق والفسق عندي شلا

من اعشق يترقق لو كان كرغلي * ويصير افضيل بين لامت لفضالي
البيب اديب عنـو ماتسلا

ويرفع شكواه الى الله من أولئك الذين اغتابوه وهاجموه فاسودت

صفحته وساء حظه :

يا للى بغتبكم سعدى اسواد لـى * واشكايا للكريم لجليل العالـى
لاقـولا خافيـا ولافعـلا

ولكنه لا يفقد الامل فيمن يدرك فضله ، فيقول فى آخر بيت من قصيدته :

لازم ايجى من يدرى فضلـى * والفضل الخالقى فالاول والتالـى
ورحمة الله اعلى ارفيق النخـلا

وكذلك كان ، فقد جاء فيما بعد شعراء عرفوا قدر بوعمرو واعترفوا بفضله ونزهوه عما اتهمه به معاصروه ، من هؤلاء الجيلالى امتيرد فانـه قـال فيـه :

ماوتيتـى حـاشا لله * غير ساعفتى من تهـواه
زاد لـك أولاعـا
الزهو فسطور انظمناه * ولهوا ساقى سمينـاه
ولـودن سماعـا

ومنهم كذلك التهامى المدغرى شاعر الغزل الاول فانه قال :

لو كنت فى ازمان «العاشق» * انكون لـو الخـو الشقيـق
وانحق للجحـود احقايـق * وانقـول يالنايـم فـق

والحقيقة أننا حين ننظر فى قصيدة «عبلة» لبوعمرو نكـاد نلتمس العذر لثورة معاصريه الذين لم يألفوا فى الزجل غير المدائح النبويـة والتوسلات والمواعظ ، ثم فجأة يسمعون لشاعر مثل هذا القول :

انظم وانغنى سعدى اسكام لـى * وانقول افحلتى وشعرى واسجالى
فى محراب لغرام هى القبـلا

ليس من شك فى أن بوعمرو كان جريئا على مجتمعه المحافظ حين اعتبر الحبيبة قبلته فى محراب الغرام ، بل اننا لا نجد شاعرا آخر مـن الغزلين الذين جاءوا بعده استطاع أن يجرؤ على مثل هذا القول باستثناء التهامى المدغرى الذى قال فى قصيدة «غيثة» :

اخلعت لعدار فى محراب لهوى وصليت * وامطارب لخمر تركع لصلاتـى

ومن عجيب أن الموقف الذى اتخذه معاصروه منه بمنع تداول كل شعره وما نتج عنه من انتشار قصائــده الغزلية فى بيئات خاصة حــمى هذه القصائد من التلف والضياع فى حين ضاع كل ما عداها من زجله .

ثانيا : تطور الشكل :

ويتمثل عند بوعمرو فى ابتداعه وزنا قصيرا لكل من البحرين الثنائى والثلاثى ، وفى نظم قصائد خفيفة للغناء .

1 ـ الوزن الاول للبحر المثنى :

ويعتبر أصغر وأقصر أوزان هذا البحر ، وقد سبق اليه فى قصيدة «زهرة» التى يقول فى حربتها :

زورينى قبل الانقبـار * ياهـــلال الدارا زهـــرا

ويؤكد الاشياخ أن أحدا لم ينظم فى هذا الوزن غير التهامى المدغرى فى قصيدته «فروح» التى يقول فى مطلعها :

مال ذاك الغنج الذبـــاح * كايزيد القلـــب المجـروح

2 ـ الوزن الاول للبحر الثلاثى :

ويعتبر كذلك أصغر وأقصر أوزان هذا البحر ، وكان أول نظمه عليه فى قصيدة «عبلة» وهذه حربتها :

ايلا اتعذبت اعذابى من انواجل * ويلا نا هنيت واسعدنى فالــى
اسبابى فالهنا اغزالى عبـــلا

ويؤكد الاشياخ كذلك أن أحدا من الشعراء لم يوفق فى استعمال هذا الوزن كما وفق الفقيه العميرى ، على حد قوله فى احدى قصائده :

بارت احيال لعقالا افجيلنــــا * والحق اغبر ولعلايم كبـــالا
وعلامات المسيح لنا وصلـــو

3 ـ قصائد خفيفة للغناء :

اضطر بوعمرو الى نظمها تلبية لطلب جمهـــوره الجديد بعد أن أعرض الاشياخ عن شعره ومنعوا تداوله ، وهو جمهور ـ كما سبق أن ذكرنا ـ محصور فى نطاق النساء والشباب . وقد وقفنا على قصيدتين من هذا النوع الغنائى الخفيف ، يقول فى الاولى على لسان فتاة سافر

حبيبها الى فاس وتركها وحيدة لا تكاد تنام حتى يوقظها صوت حلقات أذنيها لتسهر طوال الليل معذبة عليلة القلب ، وهى ترجو الناس أن يحدثوا أباها وأمها وعمها فى كولميم ليذهبوا فى البحث عن حبيبها الذى طالت غيبته وكأنها مدة عام :

اتقرقبوا الزوج اخراص * طـــار النعـــاس
خلونى هنا لونـاس * غابــوا الفـــاس

انبات ساهرا فالليـل * ليلـــى اطويـــل
لو اعمل كيف كان اكبيل * باقـــى اهبيـــل
قاسيت فالعذاب اشحال * قلبـــى اعليـــل
دالشى احرام أو احلال * صـــدوا الخيـــل

جانى البارح فالمنـام * مـــاشى اليـــوم
واشمنو البارح افليـام * أنسيتـــهـــم
اتقول غاب هـذا عـام * وادى النـــوم
دالشى احلال أو احرام * صـــدوا الخيـــل

لاغيوا لـى ابا وامـى * لا غيـــوهـــم
لاغيوا لى اعـلى عمـى * مـــن كولميـــم
ايفتشوا عـلى نجمـى * بـــين النجـــوم
دالشى احلال أو احرام * صـــدوا الخيـــل

ويقول فى الثانية مستعرضا مجموعة من الفاتنات المزدغيات فى سن المراهقة يتحدثن باللهجة الشلحية والعربية ، وقد لمع جبينهن كالبدر وانطلق شعرهن الفاحم على الخدود ، وما كاد يراهن حتى أحس بدوار ، ودخل معهن فى حوار حيث سألنه عن مكان قدومه فرد بأنه من منطقة ورغة جاء الى امزدغا لينظر الى طغيان الجمال فى خدهن وليعانى من جفائهـــن وبغى حبهـــن :

روح اتشوف الزين ياللى ما شاف الحسن فامزدغـــا
طفـلات افجهـد لبلـــوغ
صاكا صاكا دايزين اعـــلى ورغا رافديـــن صيغـــا
يلغـــوا بشلحـا اولـــوغ

اجبين كالبدر والتيوت مفروغين اعــلى لخدود فرغــا

وايــن اللــى راهــو ايــروغ

مهما ريت ابهاهم دوخوا دماغى ياصاغى ولا وجدت وين انـــروغ

قالوا لى امنين اتكون قلت لهم أنيا من احواز ورغا جابتنى رجلى انزيغ

انشوف الزين افخدكم طاغى * وانتمـا حبكـــم باغـــى

جفـالات كلكـــم غواغـــا * مزينكـــم بـــملاغـــا

والجدير بالملاحظة أن مثل هذه الاغنيات خرجت فيما بعد من نطاق مجالس النساء والشباب ودخلت مجال الانشاد حيث اتخذهـــا المنشدون لخفتها مقدمات للقصائد الكبيرة يضبطون بها ايقاع النغم واللحن ، وقد تطورت هذه المقدمات الى ما عرف فيما بعد بالسرابات كما سنـرى فى الفصل الثالث من هذا الباب .

وقد ظل بوعمرو طوال حياته ينظم فى الغزل لم يتراجع عنه الى أن وافته المنية ، فرثاه أحد رفاقه فى التلمذة على عبد الله بن احساين هو الحاج عمارة الفاسى بقصيدة منها هذه الابيات :

مال دمعى عن خـدى واد * مال ذاتى فيهـــا رعـــدا

مال قلبى خافق فدفـــاد * جرحتـــو ألـــف غـــدا

مال عقـلى ياويحى بـــاد * مـــال شعـــرى مايتسدا

آح اعليـــا يالعبـــاد * من احراق احبيب الكبـــدا

النبيــل الفـــذ النشاد * سيد مـــن غنـــى أو اشدا

بوعمر لمنيـــر الوقـــاد * لحبيب الا ليـــه افـدا

الحـــاج اعمـــارة

من شعراء فاس كما يصرح فى آخر قصيدته «الحجة» اذ يقول :

والذى سالك عن اسمى ابلجهـــار * الحاج اعمارا مادح درت النـــوارى

من امدينة مولاىادريس صيل لطهار * امدينة العلم وأرض النور افلقطـارى

وهو من تلاميذ عبد الله بن احساين ، وقد ذكر لنا بعض أشياخ فاس أنه نشأ فى طريانة بالطالعة الصغرى ، وأنه عمر طويلا حتى قارب المائة

عام ، وأنه دفن بمقبرة باب الفتوح فى نفس المدينة . وعلى الرغم من أنا لا نعرف بالضبط تاريخ وفاته فانه من المؤكد أنها بعد وفاة بوعمـــــرو لانه رثـــاه .

وقد وقفنا من زجله على أبيات فى رثاء ابن احساين وبوعمرو سبق أن أشرنا اليها ، وعلى قصيدتين : احداهما «فاطمة» والثانية «الحجة» . وعلى الرغم من أنه نظم فى الغزل قصيدته الاولى فان أحدا لم يثر عليه ولم يخاصمه، ولعل مرد ذلك لامرين :

أولهما : أن ثورة الاشياخ ضد الغزل كانت قد هدأت لا شك ، ولعلهم بدأوا يألفونه ويعجبون به ، علما بأن قصيدة «فاطمـة» مؤرخـــة خمس سنوات بعد قصيدة «عبلة» لبوعمرو الذى ربما كان توفى حين نظم الحاج اعمارة قصيدته ؛ ويتضح تاريخ نظمها من قوله :

رمز الحلا يالى اصغى «غالى» ذاك اقوام * مهديا لام التيوت مولاتى فاطما

ذات الزين الفايز الدكى سلسالت لكرام

فقد رمز ب : غ ـ ل أما الغين فبتسعمائة وأمام اللام فبثلاثين أى أن القصيدة نظمت سنة ثلاثين وتسعمائة .

الامر الثاني : ان الاشياخ بدأوا يلتمسون التبريرات للحاج اعمـارة ويحاولون تأويل قصيدته زاعمين أنه لا يقصد غير فاطمة الزهراء(1) .

وبامعان النظر فى قصيدتى الشاعر يتبين لنا جانبان من جوانـب التطور يبدو أن الحاج اعمارة سبق اليهما ، أما الاول فوزن جديد للبحر المثنى يعرف ب «قياس لمشركى» ويظهر فى قصيدته «الحجة» وأما الثانى فمقدمات الاقسام المعروفة ب «النواعر» وذلك فى قصيدته «فاطمة» .

أولا : قياس المشركى :

وهو وزن من البحر الثنائى سبق أن رأينا(2) أنه أسهل أوزان هذا

---

1) فى حين أن الواقع غير ذلك كما بينا فى الملاحظة الثانية بآخر فصل «المرأة» من باب (الموضوعات) .

2) أنظر الجزء الاول من الفصل الثالث من باب «الشكل» .

البحر ، وكان أول ما نظم فيه قصيدة «الحجة» التي يقول في حربتها :

يا لحضرا قولوا بالسمر ولجهــار * الصلا والسلام اعلى النبى المختار

وهي قصيدة تحدث فيها عن أدائه لفريضة الحج ، ويبدو أنه نظمها في البقاع المقدسة ، ومن هنا جاءت تسمية وزنها ب «المشركي» منسوبا الى المشرق ، بل انا نراه يؤكد ذلك حين يقول في البيت الرابع من القسم الاول انه أتى به من مكة :

واش كنزوا من لاكنزوا قياص لشعار * يوم جبتو من مكا تربت الطهارى

ويقول كذلك في أول بيت من القسم الخامس والاخير :

هاك ياراوي درا من ادرار الشعار * في اقياص امشركي من بلدة السرارى

والملاحظ أن شاعرا لم ينظم على هذا الوزن ـ كما جاء به الحاج اعمارة ـ أحسن من التهامي المدغري في قصيدته «فروح» التي يقول في حربتها :

مانروح اللفراح ولا نروح بالراح * دون راحة روح اللوامح افـــروح

ثانيا : مقدمات الاقسام (النواعر)

لعلها ظهرت لاول مرة في قصيدته «فاطمة» التي يقول في حربتها :

أنا فطموني اعلى اهواك أباشت لريام * وانت مفطوما اعلى اعذابي يافاطمـا

والني فرقنا ايلمنا ماطالـت ليـام

فقد قدم لكل قسم بأبيات ثلاثة ابتداء من القسم الثاني دون الاول الذي كان يمهد له بالحربة على عهد الحاج اعمارة ، ثم اصبح يقدم له فيما بعد بالسرابة .

وكمثال على ذلك نورد «نواعر» القسم الثالث من القصيدة ، وفيهـا يقــول :

كم اسنين وكم امن اشهور * واشحال من اليالي دازوا وانهايـر

ونيـا منسي مهجـــــور * طعمي امحايني واشرابي لمراير

بعد الصبر اكتبت مسطور * مرسول سار به وعاينت ابشاير

وبها ينتقل للقسم حيث يقول :

أفاطما لله جا اكتابي فايـح بنسام * أفاطما لاجواب جانــي لا تسليمـــا

اطردتي مرسول عاشقك وانسيت ليام

أفاطما كم ليل بت انطوف ابلرسام * أفاطما كيف طاف بالكعبا لقويمـــــا

فيس وكيف ارجا ارجيت لايعفو منلغرام

أفاطما هاجت لمطار بلت لي لحرام * أفاطما والقيام زايدني تغييمـــــــا

لاوجهك لابدر فالسما لانجما فظـــلام

محمد بن عبد الله بن احساين

هو ولد عبد الله بن احساين السالف الذكر وعميد الزجل بعده . واذا كنا لا نعرف بالتحديد تاريخ ولادته فانا نستطيع جعلها بالتقريـب في السنوات الاولى بعد المائة التاسعة وقبل وفاة والده بسنوات قليلة ، لانه يصرح في قصيدة له في «التصلية» انه لم يمنع نظره في والده كناية عن كونه مات وتركه صغيرا ؛ فهو يقول في القسم السادس والاخير منها داعيا لوالديه بالجنة :

والِّي سالك عن اسمي افشعري محمد * مامتعت افوالدي ابصــــر

عبد الله بن احساين يجعل فالخلد اقرارو

وامعـــاه الحـــرا البـــارا

ثم ان هذه القصيدة مؤرخة في السنة السابعة والثلاثين بعد التسعمائة، يقول في القسم الاخير منها :

تاريخ الحلا افرمز «غزلي» قولوا للداري * فابجد مـا قل ماكثـر

والكسدا فاضرا وروحها سارت فيزوارو * من تركو لعيون هامرا

فقد رمز ب : «غزل» فالغين بتسعمائة والزاي بسبعة واللام بثلاثين ، ومجموعها سبعة وثلاثون وتسعمائة .

فليس بعيدا أن يكون نظمها وهو بين العشرين والثلاثين من عمره ، وليس بعيدا كذلك أن تكون من أول ما نظم .

وقد وقفنا من قصائده على اثنتين : احداهما في «التصلية» ويذهب كبار الاشياخ الى أنه سبق فيها للبحر الرباعي ؛ والاخرى في التغزل في «طامو» ويذهبون الى أنه سبق فيها للبحر الخماسي والى التجنيس والتصريف والتضمين والى الشعر القصصي كذلك .

أولا : البحر الرباعــي :

فقد جعل البيت مكونا من أربعة أشطار على حرف واحد فى القافيـة وبحركات مختلفة ، والتزم نفس الحرف والحركات فى كل القصيدة ، ويتضح ذلك من حربتها التى يقول فيها :

صلى الله امع املايكو عل لحبيب السارى ❋ وامر هل ليمان افلبشر
بصلاة الهادى امع اسلامو بايات اسوارو ❋ صلى الله اعليـه وافـرا

فانه التزم قافية الراء فى كل أبيات القصيدة وجعلها فى الاشطـار الاولى على الكسر وفى الثانية على السكون وفى الثالثة على الرفع وفى الرابعة عـلى الفتـح .

ومن الزجالين الذين نظموا على هذا البحر بنفس الوزن محمد بن على ولد ارزين فى قصيدته «الوصية» وان لم يلتزم بنفس الحرف والحركات المختلفة ، وفى لازمتها يقول :

بعض الناس احباب درتهم نوجدهم اعدايا ❋ من عدالى كرهنا احصل
واعيت انهادى افحيهم مادارو بهدايـا ❋ كل مادارو لنا اوصــل

ثانيا : البحر الخماسى

نظم عليه قصيدته «طامو» التى يقول فى حربتها :

قالت يما اتقول طامـو ❋ قلت او أبيك يالطــام
يا قد اعلام فاللطــام ❋ قالت ترا يقـول طامــا
تـرات ايقــول فاطمــا

ويذكر الاشياخ أن أحدا لم يستعمل هذا البحر فى نفس الوزن الذى وضعه له ابن احساين كما استعمله التهامى المدغرى ، ومن الامثلة على ذلك قصيدته «فارحا» التى يقول فى حربتها :

سلتك ببهــاك يالرايح ❋ مالك سكـران دون راح
ونا عقلى امعـــاك راح ❋ بايت من ليعت لجرايــح
ساهر والنــاس رايحــا

ثالثا : التجنيس(1) أو الجناس

ويتضح سبق محمد بن احساين الى استعماله فى هذا البيت مــــن قصيدة «طامو» حيث يقول :

كيفى ينا انهار نامــوا * عينى فعيــون موحــرام
واعقيلى من الهام هــام * بالحال اللى افقلب شاما
فـــوق الـــــوردا الناسما

فالهام الاولى بمعنى الراس والثانية فعل الهيام .

رابعا : التصريف(2) :

وهو أن يتصرف الشاعر فى كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها ، وكأنه نوع من الجناس ، ويتضح ذلك فى حربة قصيدة «طامو» .

خامسا : التضمين(3)**أو التلزيم :**

وهو أن يجعل الشاعر قافيته على أكثر من حرف شبيها بلزوم ما لا يلزم فى الادب المعرب ؛ ويتضح سبق ابن حساين اليه فى حربة طامو السالفة الذكر حيث جعل القافية على حرفى الطاء والميم .

سادسا : الشعر القصصى :

فقد حكى فى قصيدته «طامو» قصة حبه لها بدأها بأول لقائهما واعجابه بجمالها الذى وصفه فى القسم الاول حيث تشجع على أن يسلم عليها ويسألها فى نهايته عن اسمها ، فقال :

قلبى فيها القى اغرامو * زعم نطقى اعـــلى السلام
ماردت بالحيـــا اسلام * جرت قبطتها ازعامــــا
قلت اسمـــك يالناسمـ

1، 2، 3) أنظر الجزء الثانى من فصل «اللغة والفنية» بالباب الاول .

فأجابته بأن أمها تسميها «طامو» ، وحين سألها بم يسميها أبوها ردت بأنه تارة يناديها بطامة وتارة بفاطمة ، وقد ضمن هذا الاستجواب فى حربة القصيدة .

فزاد جوابها لوعته وسرى فى جسده كالخمر وأسكره وأفقده وعيه وعقله ، ولكنها لم تلبث أن لاذت بالفرار وكأنها الغزال حين يحس بخطر الصياد يحوم حوله ، ولم تفعل كالنعامة توهم نفسها أنها بعدت عن الخطر بدفن رأسها فى الرمال ؛ وساعدتها على الفرار أقدام شابة قوية لم يقدر على متابعتها لوهن عظمه ، فاختفت عن نظره طائرة كحمامة وتركته كالقمرى الظامىء ؛ ذلك ما يحكيه فى القسم الثانى اذ يقول :

صوت العذرا أمع انغامو ※ اسرا فمفاصـــل لجسام
خمر ذاتى ابلا امـــدام ※ وافقدت العقل والفهامـا
صدقـــت هـــى الفاصمـا

دارت مادار فى اوهامو ※ لغزال الراتـــع لوهـــام
حس بالصياد بـه حام ※ ما درق راس كالنعامـا
واينـى طـار فالسمـــا

الباهى عانتو اقدامـو ※ ونـا لموهـــن لعظـــام
ماطقت لجـرى ابلقدام ※ والخودا كنهـا الهامـــا
فتلول الرمـــل هايمـــا

حتى ختفات يـا عدامو ※ قلبى من ليعت لغـرام
من بعد اسلام ولكلام ※ طارت كطيرت لحمامـا
ثفرت كمرى لهـا اظمـا

وظل فى القسمين الثالث والرابع يحكى أثر حبها عليه معذبا مسهدا طوال شهر الى أن كان يوم خرج القوم للصيد وخرج معهم على حد ما يقول فى آخر بيت من القسم الرابع :

حتى لليوم فاش قاموا ※ لصيد اسياتـل لخيـام

ونـا مالد لـى امكـــام * واخرجت امع اهل الزعاما

اليـوت اضراغـم لحمـــا

ويحكى فى أول القسم الخامس أن الناس تشتتوا فى البطاح والآكام بحثا عن الصيد حتى كان آخر النهار وعاد الجميع ، وقد اصطاد بعضهم النعام والغزال آخرون ، أما هو فعاد ومعه فاطمة :

كلا ننساق فى اقوامـو * مابيــن ابطايـح لوهـام

وتشتتنا عــلى لاكـــام * ضلينـا كافـا اهيامـــا

من مور اوحوش هايمـــا

حتى عكب الضيا اظلامو * عدنا بجميــــع فى اسلام

شى منا قــانص النعاما * شى جاب من لغزال لاما

ونيـــا جبـــت فـاطمـــا

ادريـس المرينـــى

الثورة على قيود الـوزن والقافيـة

من شعراء مراكش ومن معاصرى محمد بن عبد الله بن احساين كما سنرى من مساندته له فى دعوته التجديدية ، ذلك أن المرينى ضاق بقيود الزجل المتمثلة فى الوزن والقافية ، ودعا الى التحرر منها فى ثورة عليها تكشف عنها هذه الابيات .

أنا ابغيت ننظم والحرف ابدا ايغور

اعلاه ما يكون الشعر ابلا حرف

غير حس اوقول الكلمات

ولودن تسمع ماقلتى

ولقلوب اتغنى بغناك

تابعا تلديد المعنى

ولا اعنات ابشى قافيات

. . . .

لاش نحبس فكرى فالحرف

ونحبس عقلى فالتبييت

ولفكار اتماثل لطيور

مارضات اقفز من لبيات

جايب اسلوكو من لحروف

والركايز من لقياصات

فهو فى هذه المقطوعة يوضح فكرته ويدافع عنها بروعة ، انه يريد أن ينظم ولكن القافية تخونه . ولم لا يكون الشعر بلا تقفية ؟ لم لا يكون مجرد كلمات تعبر عما يحسه الشاعر ، تسمعها الاذن ويتغنى بها القلب متجاوبا مع ما فيها من معنى رائق لذيذ دون اعتماد على القافية ؟

ويتساءل فى الجزء الثانى منكرا تقييد الفكر فى القافية والعقل فى الوزن ، فى حين أن الافكار كالطيور لا ترضى أن تحبس فى قفص الابيات المشبهة أسلاكه بالقوافى وركائزه ب «القياصات» .

والعجب أن المرينى لم يتعرض لنقد معاصريه الذين لا شك فوجئوا بهذه الدعوة التحريرية ، وربما كان السبب فى سكوتهم أن عميد الزجل فى وقته وهو محمد بن عبد الله بن احساين لم يتخذ من دعوة شاعر مراكش موقفا معاديا ولا حتى سلبيا ، بل على العكس من ذلك وقف منها موقفا ايجابيا كأحسن ما يكون الايجاب وأقواه ، فنظم قصيدة على نسق مقطوعة المرينى دليلا على تجاوبه معه ومساندته اياه ؛ والاسف أننا لم نقف من هذه القصيدة الا على هذه الابيات القليلة التى يقول فيها :

وصف لهوا وعدو خبرو به لكتوب

اصغ انصف احساب اعدادو

للذى سول بجهادو

وجاه محال افترشادو

ونكاد نجزم بأن هذا التجديد فى نظام الوزن والابيات والقافية هو

الاساس الذى انطلق منه مكسور الجناح والمشتب والسوسى .

عبد العزيز المغراوى(1)

عميد زجالى عصره كما يكشف وصف الاشياخ له بأنه «شجرة الكلام» عاش فى النصف الثانى من القرن العاشر وأول الحادى عشر ، وكان معاصرا للمنصور(2) السعدى ، حيث نجده يرثيه بقصيدته التى تسمى «لعزو» والتى يقول فى حربتها :

عام شايب مات الذهبى اخيار لتراب ما بقى للسعدى بـاش ايرجحـو

وهو من آمغرا فى صحراء تافيلالت . وقد ذكر لنا الشيخ بنعيسى الدراز أن أحد شعراء فاس — واسمه باحدو — كان يتهاجى مع المغراوى فيعيره بصحراويته ، فكان المغراوى يرد عليه بمثل هذا القول معتزا بأصلـه وشرف نسبه :

فيلالى ياحزين مانكر حسبى مـن جد الجـد

مـن اقريش الى عثمـان

---

1) وجدنا فى بعض مصادر التراجم المغربية ذكرا لعالم يدعى عبد العزيز المغراوى من تافيلالت كان قاضى الجماعة بفاس وكان يعيش فى نفس الفترة التى عاش فيها شاعرنا الزجال ، ولكنا لا ندرى ان كان هو أم غيره ، وقد سألنا عن ذلك من عنوا بالتأريخ لعلماء فاس فلم نظفر بجواب . ومهما يكن فانا نورد ما وقفنا عليه فى تلك المصادر . يقول محمد الصغير الافرانى المراكشى فى «كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادى عشر»: «ومنهم الفقيه القاضى أبو محمد عبد العزيز بن على الفيلالى المركنى المغراوى قاضى الجماعة بفاس ، كان فقيها مدرسا أخذ عن ابن مجبر والمنجور والحميدى والسراج ، ذكره سيدى العربى الفاسى فى تأليفه المعمول فى شهادة اللفيف حسبما ذكره الشيخ ميارة فى شرح الزقاقية ، توفى رحمه الله عام أربعة عشر وألف» . (ص 102 ط فاسية) .

ويقول أبو عبد الله محمد بن الطيب القادرى فى «نشر المثانى» : «ومنهم الفقيه العالم القاضى عبد العزيز المركنى المغراوى الفيلالى ولى قضاء فاس بعد أبى مالك عبد الواحد الحميدى ، وفى وفاته قال المكلاتى :

فواها لاحكام توارى شهابهـا * بعبد العزيز المركنى المعزل»

(ج 1 ص 98 — 99) .

2) هو أحمد المنصور الملقب بالذهبى ، تولى على اثر وقعة وادى المخازن سنة 986هـ وتوفى سنة 1012هـ .

ولعله كان من العلماء على حد ما يقول عنه الادريسى فى «كشف الغطا»:
«وكان من أهل العلم وذوى الزهد والورع(1)» وعلى حد ما ذكر لنا أغلب الاشياخ من أنه كان يدرس بجامع القرويين . ويقولون عنه انه انتقل الى فاس وأقام بها مدة طويلة ، وأنه خرج الى رحلة استطلاعية فى بلاد الشمال الافريقى دامت بضعة شهور عاد بعدها الى آمضرا ، ويقولون انه خرج بعد ذلك بظاهرتين جديدتين فى عالم الزجل هما : «الصروف» و «العروبيات».

أولا : الصــروف :

أحس المغراوى أن الشاعر اذا أراد أن ينظم قاس على قصيدة غيره ، ليست له قواعد أو ركائز أو ما يسمى فى العروض العربى بالتفعيلات ، فدعا الى اتخاذ «الدندنة» مقياسا و «صروفا» لوزن الابيات . وقد سبق أن رأينا(2) أن هذه الدندنة تقوم على «دان دانى» وانها مقياس موسيقى صرف ، أساسه النغم والايقاع ، كما سبق أن مثلنا لتطبيقها بمثل قولهم بالنسبة لهذا البيت من شمعة ابن على :

ايلا باكيا بسقامك شوفــى اسقـــام حالـــى *
من قيس وارثو بعد افناه اغــرام حـــب ليلى

أدان دان دانى دانى يـــادان دان دانـــى *
أدان دان دانـــى دانى يـــادان دان دانـــى

ثانيا : العروبيــات (3) :

وهى الابيات التى يقدم بها للاقسام ، ويذكرون للمغراوى من قصائده

---

1) كشف الغطا عن سر الموسيقى ونتائج الغناء . ص : 112 .

2) أنظر الجزء الاول من فصل «العروض» بالباب الاول . والجديــر بالملاحظة أنه يوجد فى الزجل التونسى وزن معروف يطلقون عليه «المغراوى» يدرجونه تحت نوع يسمونه «القسيم» يسير على الشكل الآتى :
لسم المعبود فى البقا واحد احـــــد * لا دونو دون ابتسخيرو جرت الاقدار
(أنظر مقالا لمحمد المرزوقى بعنوان «الشعر الشعبى فى تونس» نشر فى مجلة الفنون الشعبية بالقاهرة ـ العدد الاول ـ السنة الاولى 1965) . فلعله منسوب للزجال المغربى عبد العزيز المغراوى ، خاصة وقد عرف عنه أنه قام برحلة طويلة للشمال الافريقى زار خلالها تونس والجزائر .

3) أنظر الجزء الثانى من فصل «العروض» بالباب الاول .

الاولى التي اتخذ فيها العروبيات قصيدة «الغاوي» التي يقول في حربتها :

رد بالك للقبلا را الحال ضــوا ✻ والقبول امن الله امقرب لخطـــاوي

فقد قدم لاحد أقسامها بهذا العروبي :

يا راسي تب شف لمآثم يقواوا ✻ تب المولاك تب يا هذا المغـوي

واعمل حسنات قبل لصحوف ينطواوا ✻ تلقاهم فارغين واتولى مكـــوي

يبليس امع النفس في الغي اتــواوا ✻ وانت ما زال غابط وزايد تهوى

راسي لله لين غادي يامغـــوى

أما القسم فهــو :

ياللي كايسها سهوا امــــور سهوا ✻ فارق اسهوك استيقظ لاش ذا السهاوي

ماحضا زرع اللي ما حارثو افربــوا ✻ ولا حرث من يرجا لسوايع لفجــاوي

لا اتخاف امن الذنب ايلا اتقل واقوا ✻ تب لله اوقم الليل ذ اتـــــــآوي

قم واستغفر للمولى افكـــــل نجوا ✻ اولا تخلي نفسك تهوا مع السهـــاوي

اترك ارضا النفس ويبليس لا تنكوا ✻ وحلق فعلو الروح العالي السطـاوي

يالشاكي من دا فالدين جالــك ادوا ✻ ايلا اتعملو تضحى من كل دا امداوي

ويعتبر المغراوي من كبار الشعراء الذين برزوا في الموضوعات الدينية، ومن أهم قصائده فيها «المعراج» التي يقول في أولها :

لسم الله لعظيم ذا العرش الديـــان ✻ رافع لفلاك افلهوا دون اعمـــــــاد

من خص المرسلين ابآية البرهـان ✻ وارسلهـم ابلهـــدا وديــــن الارشاد

لسم الله ابديت نظم نسعد بـــه ✻ ويعلمني ابحكمتـــو مـا لـم نعلــم

بجاه الجلال اقدرتو وارجايا فيـــه ✻ يهديني للصواب قصـــدي نغنــــم

خالص مدح الرسول صلى الله اعليه ✻ والآل امع اصحابو عد امواج اليـــم

ومنها كذلك «هول القيامة» التي يقول في أول أقسامها :

نعم القيوم خالــق اكـوان الكونيــن ✻ وسير امسيرها اعلى وفق امـــرادو

الكون اللولي انشاه اعلى وصفيــن ✻ العلوي والحضيض ملك وابـــــلادو

والفوقي لملايك جمــع الثقليــنِ ✻ والسفلي كون الجمهـــور أعبـــادو

والفلك الدايم لمغيــب ✻ فاسيار اسيار لــــودود

والنار للكافرين تلهب ✻ بلظاها مالها اخمــــود

وانعيم السرمد لموهب ✻ لاهل الاسلام افلخلـــود

من أمـن بالله والرسول لخيـــار ✻ سعــــدو الرحمــــان واستقـــــام

واكمل اسعادت الهادى نعم المختار ✻ الماحــــى صاحــــب لحسـام

وعلى الرغم مما يقال من أنه لم ينظم فى الغزل فقد وقفنا منه عـلى عروبيين مرتبطين بحادث وقع له يستنتج منه الاشياخ صلاح الرجل وسمو نفسه وتقواه . يحكى فى هذا الحادث أن المغراوى كان خارجا من جامـع القرويين فلقى فتاتين تتوادعان فقال لهما معلقا : «وأنا أين أذهب ؟» فردت عليه احدى الفتاتين : «اذهب الى الحبس» فما كان منه الا أن ذهب فعلا الى السجن وأقسم ألا يخرج منه الا اذا حضر الشخص الذى أمره بدخوله ، وكانت للمغراوى مكانة وسمعة فى فاس فاضطر باشا المدينة الى أن «يطلق البراح» أى المنادى يجول فى الاحياء يطلب حضور الشخص الذى دعا على المغراوى ، وكان خارجا من القرويين ، أن يدخل السجن . وسمع أبـو الفتاة النداء وأخبر به أهله فعلم أن ابنته هى المعنية بالامر فذهب بها فأطلقت سراحه . ويقال انه بعد أن حضرت الفتاة لتسريحه أنشأ هذا العروبى ـ ويبدو أنه كان مولعا بنظم العروبيات حتى فى غير القصائد ـ :

ركبت اعليا عنسى من طاق الطاق

وكل طاق ابطواقو

عينى رات شى ازواق داروه الحداق

مر مر العاشقين منو يحماقو

هذا حال لغرام يا من لاذاقو

وتذهب الحكاية الى أن الاب قدم ابنته للمغراوى زوجا له ، وفى ليلة الزفاف دخل المغراوى غرفة زوجه ، ولكنه لم يلبث أن خرج منها دون أن يشعر به أهل الدار ولا أن يعرفوا من أين ولا كيف فعل ، ووجدوا مكتوبا على ورقة ـ تركها لهم ـ هذا العروبى :

أنا عاشق مانا فاسق

نعرف ربى احقيق

مرجان واعقيق فيدى متلاقى

الدنيا ماتدوم سبحان الحى الباقى

أما بعد هذا فيذكر الاشياخ من كرامات المغراوى أنه حين جاء مـن الصحراء الى فاس كان يلبس العمامة والقميص الصوفيين ، فضحك منه أهل فاس ، ولكنه حين جلس للدرس بهرهم . وذات يوم حاول بعض رواد درسه أن يهزأ به وسط المجلس فاتفق مع خادمة له أن تأتيه أثناء الدرس وتزعم بأن البغل مات ويحتاج الى صحراوى ليقوده ويدفنه ، وكانت العادة ألا يقوم بذلك أهل فاس ، وجاءت بالفعل وأخبرته ، فقام الى المغـــراوى ــ وهو يلقى درسه ــ وطلب منه أن يقوم لدفن البغل فلبى الطلب وخرج من الجامع وذهب مع الشخص الى المكان(1) المعين فوجد البغل قد مات بالفعل ، فأخذ المغراوى يجره من كراعه مارا به من حى الى آخر ، وكلما مر بحى انهدمت بيوته ودكاكينه فأدرك الرجل والناس صلاح المغراوى فأخـذوا يرجونه أن يتوقف عن السير .

ويحكى عن صلاحه بعد هذا أن «بلغته» ظلت جديدة طوال سبعة عشر عاما لم يلحقها التلف والبلى لانه كان يسكن المدرسة المصباحية ولا يخرج منها الا للدخول الى جامع القرويين لاداء الصلاة .

هذا وقد وجدنا فى أول ورقة من كناش(1) يضم قصائد للمغـراوى فائدة بقلم كاتبها أحمد الهلالى يقول فيها : «يوجد ضريح صاحب هذا الكتاب بمقبرة تسمى باسمه بين عبد القادر الهلالى جنوبا وامبارك بن عزى شمالا ولا زالت لحد الساعة . له عائلة كبيرة بعضها فى أنحاء المشرب وبعضها جالس بقصر امسيفى فرقة الغرفة ، وهم دار علم وكرم وشهامة وتقوى وصلاح ، وقبره فيه ثلاثة أمتار تقريبا وليست له قبة حيث يحكى أنه كلما بنوها عليه تهدمت . وتقصده الناس من كل حدب وصوب للبركة . ويقال : كل طويل خاوى سوى النخلة والمغراوى ، كما يزعمون أن الشقى ــ وقانا الله ــ هو الذى لا يزور قبره» .

---

1) يقال انه هو المعروف الآن ب «زقاق البغل» وان سبب التسمية هذا الحـــادث .

1) مخطوط الخزانة الملكية رقم 860 .

المصمـــودي (1)

من كبار أشياخ القرن الحادي عشر ، وهو امتداد للمغراوي وعميد الزجل بعده كما تكشف القولة السائرة «المغراوي شجرة الكلام والمصمودي فرع من فروعها» . ويراه أشياخ الزجل النقاد مقعد الفن وحلقة وصل بين مرحلة سابقة لا يعرفون عنها الا القليل ومرحلة لاحقة كاد الركود يأتي عليها في البداية ، ولكنها لم تلبث أن شهدت ازدهارا كبيرا سنتحدث عنه في الفصل الثالث من هذا الباب .

والواقع أن المصمودي يعتبر آخر شعراء مرحلة التطور الذين وصلتنا أخبارهم ، فقد انتهى بنا البحث الى أنه شارك في تطوير القصيدة بشيئين : أحدهما شكلي يتمثل في محاولة وضع تفعيلات جديدة لعروضه ، والثاني يتصل بالمضمون وهو السبق الى أسلوب المراسلة في الغزل .

أولا : مالي مالي :

اشتهر المصمودي بثورته على «دندنة» المغراوي وتبديلها ب «مالي مالي» حيث يروى عنه أنه قال «زولوا علينا داني داني فات وقتها واعملوا لنا مالي مالي» . وقد سبق أن رأينا(2) أن «مالي مالي» لا تكفي وحدهـــا لضبط الايقاع ويضطر الوازن بها الى أن يضيف اليها بعض الكلمات التي يشد بها الميزان مثل «الرادا — سيدنا — للاموالاتي للا ....» وذكرنا من الامثلة على تطبيقها قولهم في هذا البيت من «وردة» ابن سليمان :

لا تلوموني في ذا الحال جيت نشهد وانودي *

يا عدولي فالمـــوت اسبابي خد الـــوردا

للا ياموالاتـــي للا ويا مالـــي مالـــي *

للا ياموالاتـــي للا ويا مالـــي مالـــي

ثانيا : المراسلـــة :

---

1) من لطيف الاتفاق أن يطلق «المصمودي» عـلى بعض الايقاعـــات الموسيقية حيث يفرق فيها بين المصمودي الكبير والمصمودي الصغير .

2) أنظر الجزء الاول من فصل «العروض» بالباب الاول .

وقد ظهرت لاول مرة في قصيدته «يامنة» التي يقول في حربتها :

قولوا ليامنا تهليل العثمانـــي * مينا يامينا امعاك شرع الله

فبعد أن طالت غيبتها واشتدت لوعته بعث لها خطابا مع رسول ، ولكنها طوت الخطاب وطردت الرسول وهددته ان عاد الى مكانها وطلبت منه أن يرجع الى صاحبه ليبكي واياه ، وأقسمت بصوم عامها ألا يظفر مرسله بها أبدا ، فقد شاءت بعد الوصل أن تهجره ، وهذا حال الجمال ولابـــد للعاشق أن يرضاه . ذلك ما ضمنه القسم الثالث من القصيدة حيث يقول :

صفطت اللغزال ابراتـــي * مرسولـــي امشي طرداتـــو

اقرالها احـــروف ابياتـــي * «قبطـــات مصول عن مخطوطة

قالت لو : «ابصوم اسناتي * بيا لا اظفـــر فحياتـــو

منذا النهار ماتتصورفمكاني * ولي العندو ابكي انت واياه

بعد لوصال ردت انهجرو بلعاني * هذا حال الزين عاشقو يرضـــاه»

وارجعت اللبكا بالدمع الطوفاني * باكتابي نطوا ودرت له اعـــزاه

ولكنه لم ييأس وأرسل مبعوثه مرة ثانية بعد أن حثه على عدم الملل وأغراه بالمقابل ان قضى حاجته . وما كاد يصل الى دارها وينقر الباب حتى وجدها في الانتظار وقد انهمرت دمـــوع عينها ، والكتـــاب بـين يديها مفتوح تقرأه ، فرحبت بسلامه واعترفت بخطأها معلنة توبتهـا الى الله ، وطلبت منه أن يبلغ حبيبها أنها ستلحق به يوم الاثنين ويتـــم الوصال . وكذلك كان حيث أوفت بوعدها فسعد قلبه وطابت له الحياة . هذا ما يحكيه في القسمين الرابع والخامس ـ وهو الاخير ـ اذ يقول:

عـــاود قلت : «يا مـــرسولي * اترك النـــواح وارجـــع لهـا

بادر لا تكـــون املـــولي * لا بـــد حاجتـــي تقضيهـــا

احكي لها وكـن افضـــولي * ونـــا بشارتـك نعطيهـــــا»

ولي لعند ولفي بكتابي ثاني * نقر باب الدار صابهـــا توجاه

وادموع عينها فاقت دمـع اعياني * واكتـــابي محلول فيدها تقـراه

« مرسول عاشقي هو هذا جاني * اهـــلا بسلامـــو تايبـــا لله

لله يا رسول احبيبى * ولى لو وفرج نكــدو
ولى وكر لو بذنـوبى * واعطيه الـدلال ايسعدو
ويلا وتيمت يستر عيبى * حاشا مـا نخالف عهـدو
يوم لثنين هـو العاهد يرجانى * وانقمو فرجا اعلى احسان ارضاه »
وافات يامنا فـى عـاهدها ثانى * قلبى من بعد الصدود طاب امناه

اما بعد المصمودى فقد تشعب شعر المراسلة وتعدى نطاق المحبوبة الى نطاق البقاع المقدسة ومقام الرسول عليه السلام ، وغدت قصائده تحمل أسماء مثل « المرسول » و « الحمام » و «الورشان» اى الطائر ، بـل تطور عند بعض الشعراء الى الحديث عن الرحلة والتجوال على حد ما نجد عند الكندوز فى « الرحلة » وابن على فى «الطوموبيل» ، وهـى قصيدة مشهورة جال فيها بسيارته كل بقاع الارض ، وفى حربتها يقول :

سعدى زارتنى اخليلتى لغزال ام ادلال
وازهينا بعد لوصول واركبنا طوموبيل
واتسارينا بالجميع فالدنيا عرض وطول

❀ ❀ ❀

بالشيخ المصمودى تنتهى هذه المرحلة فى أوائل القرن الحادى عشر بعد ان بدات بعبد الله بن احساين فى أوائل القرن التاسع ممتدة عبـر ثلاث مئات من السنين شهدت القصيدة خلالها تطورا لم نستطع لضعف مادة التاريخ والنصوص ان نقف عند غير بعض اعلامه ومعالمه . وكان منتظرا ان تستمر هذه المرحلة ويظهر اشياخ كثيرون ، ويبدو انها استمرت بالفعل وان الركود اصاب الرواية ولم يصب النظم لانه سيتبين لنا لدى الحديث عن سعيد التلمسانى أنه حين قدم الى المغرب فخر عليه الزجالون المغاربـة وعابوا عليه الموازين الجزائرية البسيطة ، وسيتبين لنا كذلك فى الفصل القادم انه ما كادت تمر هذه الفترة حتى انطلق الزجل ناهضا مزدهرا ، وما كان له أن ينطلق لو لم يستمر سيره دون توقف .

واذا كنا نرى ذلك فانا لا ندري الاسباب التي جعلت الرواة يركدون ، ولعلهم لم يركدوا وانما اهملوا قصائد الزجالين المغاربة فلم يتداولوها وتداولوا بدلها قصائد الزجالين الوافدين من الجزائر ، والدليل على ذلـك أن المنشدين المغاربة يحفظون حتى الآن كثيرا من هذه القصائد وان بعض الكنانيش التي عنيت بتدوين الزجل تضم منها غير قليل . وربما كـان العامل في هذا التحول اعجاب الرواة بانتاج الشعراء الوافدين وما كـان لهم من مكانة عند السلاطين جعلتهم يبسطون نفوذهم على الحفاظ ويغرونهم برواية قصائدهم . وتلك عادة جبل المغاربة عليها ، يؤخذون بما ياتي به الغريب ويبهرون به حتى ولو كان تافها غير ذي قيمة ، ينطبق عليهم ما يقال في المثل من ان«مغنية الحي لا تطرب» .

والاسف انه حتى بالنسبة للزجالين الوافدين ظلت الرواية محصورة في شعر واحد او أثنين ، ولا سيما في قصائد سعيد التلمساني ، ولعـل السبب في ذلك انه كان متصلا بملوك الدولة .

وكم كان يكون مفيدا لو ان الحفاظ قدموا لنا اسماء اغلب الوافدين وكثيرا من قصائدهم ، ولو انهم رووا كذلك الى جانبها اسماء المغاربـة وقصائدهم ، ولو انهم فعلوا لكان في امكاننا ان ننظر في انتاج هـؤلاء وأولئك ومدى التأثر المتبادل بينهما والمنافسة كذلك . حقا لقد وصلتنا بعض أزجال الصوفية في هذه الفترة ، ولكنها محصورة في نطاق ضيق يجعلها بعيدة عن أن تكون موضوعا للمقارنة .

مهما يكن فقد دام هذا الركود زهاء قرن ونصف لم تنقشع سحابته الا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر على عهد السلطان سيـدي محمد بن عبد الله (1) حيث بدات فترة نهوض وازدهار هي التي سنخصها بالحديث في الفصل التالي من هذا الباب . ومع ذلك فقد لاحظنا خلال مـدة الركود تلك ظاهرتين نرى أن نعرض لهما : الاولى انتشار الزجل في بيئة المتصوفين ، الثانية قدوم بعض زجالي الجزائر الى المغرب .

---

1) سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل ولد بمكناس سنة 1134 هـ وبويع 1171 وتوفي 1204 .

اولا : زجالون متصوفون

تقدمهم لنا مصادر الترجمة المغربية لهذه الفترة ، وقد وقفنا منهم على هؤلاء : (I)

عبد الرحمان المجذوب :

سبق أن ذكرناه كشاعر «الحكمة» الاول واشرنا الى مصادر ترجمته واستعرضنا نماذج من أبياته المزدوجة في هذا النوع(2) .

ونضيف هنا أنا وجدنا في « تحفة الاخوان ببعض مناقب شرفاء وزان» (3) لحمدون بن الطاهر الجوطي ، لدى ترجمة مولاي التهامي الوزاني وكان ايضا من الزجالين : «انه ذكر بين يديه كلام سيدي عبد الرحمان المجذوب ، وهو :

غيبت نظري افنظرو * وافنيت عن كل فاني
حققت ما نظرت غيرو * اورحت والقلب هاني

I) ليس مقصودنا استقصاء كل المتصوفة الذين كانوا ينظمون الزجل فلعل معظم رجال التصوف كان لهم ميل الى نظمه لاتصالهم بالجماهير . ومن هنا لا سبيل الى تتبع هذه الظاهرة ، ومع ذلك نود ان ان نضيف الى من ذكرنا : السيد الغزواني . فقد وجدنا في كناشة عبد الله الشرقي (مخطوطة الخزانة الملكية رقم 5958 وهي مجموع من الكراريس والاوراق) : «ومن كلام سيدي الغزواني نجل سيدي محمد الشرقي نفع الله بهما آمين :

ريت لعريس اتعرس ريحو ايهوس من شرق وغرب اتهوس يابابا
انخضر الي يابس يفجي الدحامس ايضوي الي ناعس يابابا

جوابه لابيه نفعنا الله به آمين :

هيا الراقد نض اسال فوق لمعاني * كان اتسال نعطيك لخبار يابابا
لا بد من لهوال عقبي الليالي * مارس اعليك افحالي يابابا ... »

وهي قطعة من عشرة ابيات .

2) انظر آخر الفصل الاول من باب « الشكل » لدى الحديث عن « الحكمة » كنوع من الزجل .

3) ص IOO — IOI طبعة حجرية .

فقال مولاى التهامى رضى الله عنه هذا انما قضى حاجة نفسه ولم يقض حاجة لغيره فأنا لا اقول هكذا فقيل له وكيف تقول يا سيدى ؟ قال أقــول :

من جا الحضرتنا يبرا * يمشى ابقلبو مستمن

ايجى نحاس يمشى نقرا * وسيدنا محمد ضامن »

محمد الشرقى :

سبق ان ذكرناه كذلك فى نفس الموضوع (1) ونضيف له هنا مراسلة زجلية دارت بينه وبين ابى المحاسن الفاسى (2) تدل على أنه كان ينظـم فى غير المزدوجات الحكمية ، وقد ذكرها محمد المهدى بن احمد بن على ابن ابى المحاسن يوسف الفاسى فى «كتاب ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع وما لهما من الاتباع » فقال : «وكان الشيخ صاحب الترجمة صاحب فيض وقوة فى حاله فكان لا يعتبر أحدا يشكره لكنه اذا وجد من هو اعلى منه أنصف له واعترف ، وقد كان وقع له انكار فى جانب سيدى يوسف الفاسى بسبب كلام بلغه عنه حمله على غير وجهه فكتب — اعنـى صاحب الترجمة — اليه كلاما يعرف فيه بحاله ويصف له مبالغ الرجـال ويدعوه الى صحبته ، فلما اجابه سيدى يوسف وتعرف له اعترف بتقدمه عليه . وذكر ذلك هنا متاكد لما فيه من وصف صاحب الترجمة لحالــه وهو اعرف بنفسه من غيره . قال صاحب الترجمة :

الملك والملكوت   وصفهم منعوت   اهل الجبروت   ما غيبوا عنا

تنـوح السموت   على ارباب القوت   بادر لا يفوت   عنك وقتنا

شموس القلوب   تشاهد المحبوب   فى عالم الغيوب   شرابها مختوم

الشرق والجنوب   فى طيها مكتوب   تخرق الحجوب   للواحد القيوم

ريـــاح الصبا   تــاتى على غبا   واربــاب المحب   ما خفاهم حال

---

1) انظر آخر الفصل الاول من باب « الشكل » لدى الحديث عن «الحكمة» كنوع من الزجل .

2) المولود سنة 937 هـ بالقصر الكبير .

القلب نبـــا   من سرك اتربا   والروح جاذبا   فى حضرة الجلال
نفحـــات المحب   من رياض العرب   بها لم يزل   روضا زاهيـــا
ادا سقيتـــونى   اشراب الرشيف   ثـــم انشاهدو   ليلى كما هيا
قولوا للنـــوى   اتهييج لهوى   القلب انكوى   من حيك الحراق
انفيت السوى   وتركت ما نهوى   قالوا لى الدوا   فى راكب البراق

فبلغ سيدى يوسف خبر هذا الكلام قبـــل ان يدخـــل يده وانه قاله معرفا له بحاله لما بلغه عنه وانه مع ذلك انكر حاله فكتب اليه كتابا يذكر له توجيه ما اراد بكلامه فى شانه وانه ليس من دأبه البحث فـــى الخلق جملة فضلا عن مثله ويعلمه بانه ممن يحبه ويحسن الظن به ويعرض عليه حاله على جهة اتهامه لنفسه لما بلغه عنه من انكاره وتنازل معه فى ذلك كله غاية التنازل ثم دخل يده كلامه فاجابه عنه بكلام على وزنـــه وقافيته معرفا بحاله هو نصيحة له وتادية لحق كتابه ، فقال :

الملك والملكوت   فى طينا منعوت   حتى الجبروت   لا يختفى عنا
جملتها مبتوت   حتى الرحموت   وقـات انوقوت   هـــو وقتنـــا
شمسو دا التحقيق   قد تعطى حقيق   لمن سير وصديق   للواحد القيوم
عفوف بالتوفيق   فنعوتو ارشيق   قل يسقى الرحيق   الصافى المختوم
رياح الصبا   ما تنتهى عنا   والعالم الاسنى   هو مصعد الكمال
القلب للمعنى   والروح متهونا   والسر يتعنى   من سرذا الجلال
نفحات المحب   وكذلك المحبوب   فارياض التعريف   احوال مستويا
لكن فالتهذيب   يختلف المطلوب   حتى فى التشريف   اسرار سريا
من هو متهنا   ما يخشا لعنا   بشرب يتعنى   يمسى من السباق
موصول المنا   من كل ما يتمنى   محفوف بالعنا   فى الواحد الخلاق» (1)

هذا وينسب له بعض الاشياخ القصيدة «الفياشية» التى حربتها :

انا مالى فياش * واش اعليا منى

---

1) ص 110 — 111 — 112 ط حجرية .

كما ينسبها له جامع الكناش ك 3027 (1) من مخطوطات خزانة الرباط العامة . مع ان المعروف انها للشيخ عبد الوارث .

محمد بن عبد الكريم بن يجيش التازى :

ترجمه محمد بن على بن مصباح المعروف بابن عسكر فى «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر» (2) وعنه نقل الحضيكى فى » المناقب» (3)

قال عنه ابن عسكر : «وحدثنى بعض الفضلاء من اهل بلده قال : كان الشيخ رحمه الله عاشقا لا يكاد يفارق السماع ساعة واحدة ، وله قصائد كثيرة :

خرجنا واحد الصباح * انشاهدو روضا ابهيا
واطيار تشهد ياصاح * لله بالوحدانيا» (4)

وقال عنه كذلك فى نهاية ترجمته : «وله توشيحات وقصائد ومقطعات كلها رائقة وله على بردة الامام البوصيرى تخميس عجيب ، وله فى فن التصوف العجيب من النظم والنثر .. توفى فى آخر العشرة الثانية والله اعلم» (5)

محمد بن يحيى البهلولى :

ذكره ابن عسكر فى «الدوحة» فقال عنه : «كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له منه ، وله فيه اشعار وقصائد زجليات وغيرها .. وله زجليات ومقطعات حسان فى الحث على الجهاد منها اللامية المشهورة التى خاطب بها السلطان ابا عبد الله البرتغالى ، ومطلعها :

قل للامير محمد يا طلعة الهلال * الويلة فالسواحل من افضل الليالى

---

1) ص : 2
2) ص 51 — 52 — 53 — 54 ط. حجرية
3) الجزء الثانى ابتداء من ص : 17 .
4) ص 51 — 52 .
5) ص : 54 .

ومنها القصيدة التى مطلعها :

ظهر الرمل مراد والعشر يا كرام * نفسى على الجهاد سلبتوالسلام»(1)

عبد الله بن محمد الهبطي :

ترجمه صاحب « الدوحة » فقال انه «الشيخ العالم الزاهد المحقق جنيد زمانه وقطب دائرة أوانه الهضبة الراسخة والحجة الدامغة الناسخة» (2) وان «اصله من صنهاجة طنجة من قبيلة ايمتنة (3) » وان « له تآليف عديدة بين منظوم ومنثور وله فى علم المشاهدة الشان الذى لا يدرك ... وكان الشيخ ابو القاسم بن على بن خجو يقول هو غزالى هذا الزمان ولقد من الله علينا وعلى المسلمين به » (4) . ثم ذكر له كرامات وختم بقوله : «توفى ... سنة ثلاث وستين وقد نيف على الثمانين ودفن بزاويته بموضع يعرف بمواهب » (5) .

له «كتاب الاشادة لمعرفة مدلول كلمة الشهادة» و «الفية فى تاريخ الدولتين الوطاسية والسعدية » . وقد وقفنا فى الخزانة الملكية بالرباط على كراس ، لم يرقم بعد ، يضم له ست قصائد زجلية كلها فى الذكر والشوق للحضرة ، منها هذه القصيدة التى يقول فى اولها :

ربى اعظيم يا حضار * قد جهلت انعوتو

ايغيب عنى ما نقدر * او يحضر انموتو

حب لجمال عذبنى * يا قوم العندو

قهر لجلال يقهرنى * من قربو البعدو

من لطفو للعين * يختفى ويبدو

احمد بن خضرة المكناسى :

ترجمه القادرى فى « نشر المثانى » (6) والحضيكى فى « المناقب»

---

1) ص 45 ، 46 ، 47

2 ، 3) ص 7 .

4) ص 7 — 8 .

5) ص 13 .

6) ج 1 ص 255 .

حيث قال عنه «وله كلام ملحون يخبر بالمغيبات ظهر اكثرها ، توفى رحمه الله سنة خمس وسبعين والف ودفن داخل مدينة مكناس » (1)

ابو البقاء عبد الوارث بن محمد الياصلوتى :

ترجمه ابن القاضى فى « نشر المثانى » فذكر ان « له زاوية بناها قرب داره بزقاق الحجر ... بفاس يقرأ فيها اصحابه الاحزاب ، يقرأون صباحا المعشرات وحزب الفلاح وصلاة مولاى عبد السلام بن مشيش والحزب الكبير للشادلى ، ومساء حزب الفلاح ولا اله الا الله مائتين .. وتوفى رحمه الله يوم الاحد الثالث من ربيع النبوى سنة ست وسبعين والف ودفن بزاويته المذكورة»(2) . وقد وقفنا له على قصيدة فى الذكر حربتها :

لا اله الا الله

يقول فى اولها :

الحمد لله والشكر لله على فضل الله لا اله الا الله

استمع القولى واعلى النبى صلى وابصوتك على لا اله الا الله

يامن هو راغب فالخير وطالب افضل المآرب لا اله الا الله

وينسب له كثير من الاشياخ القصيدة « الفياشية » التى ذهب بعضهم انها للشرقى كما تقدم ، وهذه حربتها :

انا مالى فياش * واش اعليا منى

وفى اول أقسامها يقول :

انا عبد رب لـه قـدرة * يهون بها كل أمر عسير

فان كنت عبد اضعيف القوى * فربى على كـل شىء قدير

منى آش اعليا * ونا عبد مملوك

والاشيا مقضيا * دا فالتحقيق اشكوك

ربى ينظر ليا * ونا نظرى متروك

---

1) ج 1 ص 73 — 74 .

2) ج 1 ص : 261 .

ونؤكد ما سبق ان لاحظنا فى مدخل الرسالة لدى الحديث عـــن الانشاد ا نهذه القصيدة جمعت بين المعرب والملحون حيث نجد فى بداية كل قسم بيتين معربين يستهل بهما بعد الحربة ، وهى ظاهرة لم نعثـر عليها فى غير هذه القصيدة ، على أننا نلاحظ فى ازجال المتصوفين عموما سواء فى هذه الفترة او غيرها ، لغة هى اقرب فى كلماتها وتراكيبها الى الفصحى منها الى العامية ، لا تكاد تنقصها غير الحركات لتصبح معربـــة سليمـــة .

محمد بن علي بن ريسون :

ترجم له الشيخ محمد التاودى بن سودة (1) فـــى فهرسته ، (2) فذكر ان ولادته كانت سنةثمانية عشر ومائة وألف ووفاته عامتسعة وثمانين ومائة وألف ، وقال عنه : «وله كلام مؤثر فى القلوب بتحقيق معانيـــه ويفهمها ارباب القلوب ، فمن كلامه صدر قصيدة فى الملحون :

اللى يرفقنا فمحبت سيدى الرسول * هو احبيبنا واحنا له احباب

ومن كلامه صدر قصيدة اخرى :

انـا سيـدى عنـدى طبيب * ويعـالجنـى بـدواه

متولـع ابحب لحبيب * سيـدى رسـول الله

ومن كلامه صدر قصيدة :

الروحفالجسد والقلب امعاكم * ما خاب فيكـم ظنـى

اللى اتركبوه يحسب امعاكم * واتقـربـوه بدنـى

الله انظركم ما عاد ينساكم * اهـل لكمـال نعنـى

ايا هل لكمال قلبى يرعاكم * هـذا لكريـم رادنـى

ومن كلامه صدر قصيدة :

العيون الجاريا فيض اعليا * من ابحور محمد عليه السلام

ومن كلامه ايضا صدر قصيدة :

ما بكيت اعليكم الا اترحمونى * والدموع من عينى تجرى الحبكم

---

1) المتوفى سنة 1209 هـ .

2) مخطوطة الخزانة العباسية رقم 3388 من صفحة 86 حتى 91 .

ومن كلامه فى هذا المعنى كثير .»

وقد وقفنا من هذه القصائد على الثانية ، وهى من خمسين بيتا .

احمد بن علال الشرايبى المراكشى :

ترجم له الشيخ محمد التاودى بن سودة فى فهرسته (1) حيث ذكر أن له ديوانا من كلامه بالملحون بين توسلات ومقامات ، واورد لـه نص قصيدة مطلعها :

بسم الله الرحمن الرحيم حلا نبداها

فى اسلوك الذهبان والجوهر تشرق بجمالو

كما ترجم له عباس بن ابراهيم فى « الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» (2) نقلا عن فهرست ابن سودة . كذلك ترجم له محمد بن عبد الله الموقت فى « السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية » فنقل بعض ما جاء فى الفهرسة السودية وعلق عليه بقوله : « ولم يذكر وفاته وما كان ينبغى ... ولا شك وانه من اهل القرن الثانى ، ويعمل له موسم فى اوائل كل ليلة من رجب الفرد ، وينشدون أزجاله » (3) .

ثانيا : زجالون جزائريون

يبدو ان كثيرا من الزجالين وفدوا فى هذه الفترة من الجزائر الى المغرب فارين من حكم الاتراك او منفيين ، ولكن المصادر لم تفدنا بغير اثنين من اكبر زجالى القطر الشقيق هما : سعيد التلمسانى واحمد التريكى ، علما بانا وقفنا على غير قليل من الذين لجأوا الى المغرب فيما بعد هذه الفترة ، وخاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر ، (4) وهو دليل على أن

---

1) المخطوطة السالفة الذكر من ص : 77 حتى 82 .

2) الجزء الثانى ، ص 203 — الطبعة الاولى سنة : 1936 فاس .

3) ص 154 — المطبعة الحلبية — مصر — سنة 1341 .

4) خصصنا جزءا فى آخر الدليل الملحق بالرسالة لقصائد الشعراء الجزائريين الذين وفدوا الى المغرب والذين لم يفدوا ، ولكن كانت قصائدهم منتشرة فيه .

هجرة المتنورين الى المغرب من ابناء هذا البلد الجار ظلت مستمرة طوال عهد الظلام المتمثل فى حكم الاتراك والاحتلال الفرنسى .

ابو عثمان سعيد التلمساني :

زجال تلمسانى اشتهر بقصيدة فى السيرة النبوية تسمى «العقيقية» نسبة الى وادى العقيق فى الحجاز ، وفد الى المغرب فى أول الدولة العلوية وادرك مكانة عند سلاطينها وخاصة المولى اسماعيل (1) .

ذكر صاحب « الدر المنضد » لـدى حديثه عن المولى محمد بـن الشريف (2) قال :

« وكان سخيا جوادا حتى انه اعطى الاديب الشهير المتقدم فى صناعة الشعر الملحون ابى عثمان سعيد التلمسانى نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة له على بعض امداحه فيه ، وحكايته فى هذا المعنى شهيرة » (3)

اما قصيدته العقيقية فهى التى يقول فى أولها :

كيف ينسى قلبى عرب لعقيق والبان * والعقيق اعيونى بقلايدو انهلـو

وقد بلغت من الشهرة انها نشرت بالجزائر فى نصها العربى ومترجمة للفرنسية ،

وذكر المشرفى فى « الحسام » انها « قصيدة طويلة مشحونة باللغة والحكم وامثال العرب تنافس علماء واسطة المغرب فى شرحها ومنهـم

---

1) اخو المولى رشيد تولى سنة 1082 وتوفى سنة 1139 حيث دام ملكه سبعا وخمسين سنة. عند العربى المشرفى ان للشاعر ديوانا ضخما في ملحون الشعر جله فى المولى اسماعيل « الحسام المشرفى فى الرد على اكنسوس المراكشى» (ميكروفيلم خزانة الرباط العامة مصور عن مخطوطة ابن سودة رقمه 1207 ص 423)

2) بايعه اهل تافيلالت سنة 1050 وقتل سنة 1075 .

3) الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف من المحاسن والمفاخر لابى عبد الله محمد بن عبد القادر بن احمد الكـلالى الشهـير بالكردودى توفى بفاس يوم 11 رمضان 1268 هـ (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1584 D الورقة 113 وجه)

الشيخ ابو راس الناصرى ثم المعسكرى فقد جعل عليها ثلاثة شروح اصغر واكبر ومتوسطا بينهما » (I)

وتوجد بخزانة الرباط العامة نسخة من احد هذه الشروح رقمها I656 د تحمل عنوان :

« الآداب الرقيقة فى شرح العقيقة ، وان شئت قلت الدرة الانيقة فى شرح العقيقة ، وان شئت قلت التحف المهدية فى شرح السعدية» ، وتحدث الشارح فى مقدمة شرحه عن الناظم فوصفه بانه «الشاعر المفلق ... الشيخ الربانى والهيكل الصمدانى العلامة ... فان له اليد الطولى فى آداب العربية ومقياسها ومعيار حكمة الوضع وقسطاسها ، فقد كان تشد له فى ذلك الركاب » (2) وذكر ان المولى اسماعيل نفاه ثلاث مرات وانه توفى « بعد الخمسين من القرن الثانى عشر ودفن بسجلماسة فهو منداسى نجارا وتلمسانى منشأ ودارا وسجلماسى مدفنا واقبارا » (3)

ونجد لسعيد التلمسانى فى أواخر « العقيقية » بيتا يفخر فيه بان هذه القصيدة فاقت كل قصائد المغراوى عميد الزجل فى عصره ، وهو البيت الذى يقول فيه :

تفنى العشاق ما تخلى عدراوى * ما ضمت مثلها خزانة مغراوى

وفى كتاب « كشف القناع عن آلات السماع » لابى على الغوثى بن محمد الجزائرى تعليق على هذا البيت ذكر فيه ان التلمسانى «لما قال هذا الشطر راى الشيخ المذكور فى المنام معاتبا له فلما أصبح رثاه بالقصيدة التى أولها :

بوفارس الفارس فى كل اعلوم * بحر المحيط ما تنهيه اقراطس » (4)

وفى نفس الكتاب « ان الشيخ سعيد لما قدم المغرب الاقصى ولقى الاكرام من المولى الرشيد ... حسده شعراء المغرب وعابوا عليه شعره قائلين ان موازين اشعار المغرب الاوسط يقدر على الاتيان بمثلها صبياننا لان

I) الحسام المشرفى (الميكروفيلم ص 423)

2) ص 2 . 3) ص 5 .

4) ص 73 — مطبعة جوردان بالجزائر .

غالبها يتمشى على حرفين فلو ارتكبتم ما نرتكب من التفنن لما وجدتم معنى اصلا فعندنا من ينظم الرباعي والخماسي حـــتى العشارى (والخماســي والعشارى ... الخ عبارة على أن الغصن اى البيت الواحد يشتمـــل على خمسة او ستة او عشرة قواف) فلما راى الشيخ سعيد رحمه الله من شعراء المغرب ذلك الانكار ذهب من فوره وقال قصيدة بليغة لا من السداسى ولا من السباعى بل من الثنائى عشر واتى بها اليهم فعلموا حينئذ انه بحر لا يطاق ولا يقاس وسلموا له . وطالما بحثت عن هذه القصيدة ولم اقف لها على خبر الى الآن » (1) .

وقد وقفنا للزجال التلمساني على غير قليل من القصائد التى مدح بها السلطانين المولى رشيد (2) والمولى اسماعيل ، منها قصيدة فى مولاى رشيد يقول فى أولها :

حياتك ريح الصبا بالفين اسلام * واسقاك اغمام السما رحمـــا وانعيم

ومنها قصيدة فى المولى اسماعيل هذا اولها :

بين اكرام الفعل والعليا ميعاد * بيدهم يرموا على الصدق احبالو

وقصيدة اخرى فيه مطلعها :

برقا جرد صارمو فى ساحت نجد * ذكرنى فى امنازل اشهابو

كذلك وجدنا فى كتاب « الكنز المكنون فى الشعر الملحون » لقاضى محمد الجزائرى قصيدة قالها حين خرج من فاس على اثـــر غضب المولى اسماعيل عليه ، يقول فى أول ابياتها :

هذا حد اودعنا بوفـــا واكمال * ماذا لى فالحنث نغـدى وانـولى

بعد اثلاثا (3) مابقى للرد احلال * غير ايلا تفات عـــن تالى بعلى

خليناكـــم بالسلاما يا لفضال * يا غرة وجه الشراف اولاد على

---

1) المصدر السابق .

2) تولى بعد موت اخيه مولاى محمد سنة 1075 واعلن ملكا سنة 1079 بعد ان استولى على مراكش واستمر فى الملك حتى سنة 1082 .

3) فى هذا تاكيد لما ذكر شارح العقيقية من أن السلطان نفاه ثلاث مرات ، وهو فى الشطر الثانى من البيت يشير الى أن المراة التى تطلق للمرة الثالثة لا تحل لزوجها الا بعد ان تنكح زوجا غيره .

وفى تقديم القصيدة ذكر مؤلف الكتاب حكـاية ذهب فيها الى أن المولى اسماعيل « كان له شاعر آخر مغربى اسمه خباب فامرهما ذات يوم بنظم قصيدة يمدحان بها جارية له اسمها سلمى . اما سيدى سعيد المنداسى جعل استخارة ورآها فى المنام فحكى على حسب ما راى ، واما السيد خباب قال من غير رؤية ، ولما تلوا القصيدة على الملك قال لخباب : سعيد افضل منك ، فأجابه بان سعيدا ولعله رآها ، وأما انا فلم ارها ، فعند هذه التهمة خرج سيدى سعيد من مدينة فاس واتى الى مدينة تلمسان فكتب له الملك ليرجع فابى وبعث له هذه القصيدة » (1)

ولكن يبدو انه عاد بعد ذلك الى المغرب بناء على ما نعرف من ان وفاته ومدفنه بسجلماسة .

والتلمسانى لم يكن شاعر ملحون فقط وانما كان شاعر موزون كذلك ، وقد ذكر له صاحب « الحسام المشرفى » قصيدتين :

الاولى يجيب فيها بلسان المولى اسماعيل على رسالة بعث بها اليـه احمد بن محمد الحاج الدلائى مستدعيا للحرب حين ثـار عليه ، يقـول فيهـا (2)

تاهب ليوم الحرب فالحرب عيد * لنا وعليكـم محنـة ووعيد
ستعلم اشقى الناس يوم لقائنا * اذا قعقعت تحت العجاج رعود
فسل ان‌جهلت الناس عناوعنكم * متى قابلت جنس الاسود قرود
دعوت مجيبا فارتقب ما طلبته * فانا بما تبغى عليك نجـود
عدمنا فحول الخيل ان لم تصلكم * عليها من الابطال منا اسـود
اتطلب دار الملك من غير قدرة * وانت من المجد الاثيل بعيـد
أساتم فكنا المحسنين وعدتـم * الى السيئـات بالعقاب نعـود
عفونا وكان الظلم منك سجية * ستبلغ من غى الصبا ما تريـد

---

1) ص 21ـ22 (المطبعة الثعالبية ـ الجزائر سنة 1928) .

2) الميكروفيلم ص 422 ـ 423 حيث وصفت القصيدة بأنها رائعـة ومشتملة على سهام راشقة

والثانية فى الامام مالك وموطاه منها هذه الابيات(1) :

فلا مالك فى الارض قام لسنة ※ وشدت له بالخافقين المناطق
سوى المدنى الطيب الاصل مالك ※ لواه على الاسلام بالغرب خافق
ترقى فوطا بالموطا مواطنا ※ صعابا ولم يسبقه للفتح سابق
موطاه للاسلام فى الارض كعبة ※ توطا بها للسالكين شواهق

احمد التريكي :

تلميذ لسعيد المنداسي ومن تلمسان كذلك . قال عنه الغوثي فى « كشف القناع » : « وقد نفته دولة الاتراك من قطر الجزائر سنة ثلاث وثمانين والف فذهب الى المغرب الاقصى وآوى الى جبل بنى زناتن قبيلة من قبائل المغرب قريبة من وجدة فمكث هناك اياما نظم هناك قصائد كثيرة يصف فيها حال بعده عن اهله وعشيرته واوطانه ... منها قصيدة مشتملة على ثمانية ابيات كل بيت يشتمل على عشرة اغصان وطالع موكب من ثلاثة أغصان ، يقول فى مطلعها :

طال نحبى وادموعى كل يوم زراب ※
والفراق اكوانى كيا ابلا اسباب
من اسمومو سيب لى فالدليل مشهاب ※
ما وجدت الضرى حكما اولا اطبيب
شاب راسى يا ربى من افراق لحباب ※
بهم اجمع شملى ايا الميسر حقب» (2)

وقد وقفنا من شعره على قصيدتين : الاولى فى مكة المكرمة ، يقول فى مطلعها :

شعلت نيران اكبادى ※ واعييت ما نبكى ولا انفعنى نواح

أما الثانية فربيعية ، يقول فى حربتها :

اتبسمو وضحكوا غصون اللقاح ※ يسبوا من اعشق ومن هو والع

---

1) المصدر السابق من 434 حتى 438 .
2) ص : 80 .

الفصـل الثالث

مرحلة الازدهـار

ما كادت سحابة الركود الكثيفة تنقشع ويزول كابوسها الجاثم حتى انطلقت القصيدة الزجلية فى نهضة مزدهرة وصلتها بماضيها لتستكمل معالم كيانها وملامح ذاتها ، وهى نهضة كتب لها أن تمتد فترة غير قصيرة ، تبدأ فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى وتنتهى فى أوائل القـــرن الحالى بعد أن فشا فى الشعراء الضعف والوهن وأصيبوا بداء الجمود والتقليد.

فقد بدأت على عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله الذى يقال انه كان ينظم الزجل وان كنا لم نعثر له على أثر ، ولكننا لانشك فى أنه كان يحتضن هذا اللون من التراث ويشجع فنانيه . وليس غريبا أن يفعل ذلك فقد شهد عصره نهضة شاملة عمت جميع مرافق الدولة ومناحى الحياة ،وكان حظ الثقافة منها غير يسير (I) .

ثم كتب لهذه المرحلة ان تجدد ازدهارها فى الربع الاخير من القرن الثالث عشر على عهد سيدى محمد بن عبد الرحمن (2) الذى كان بدوره من شعراء الزجل كما سنرى حين نتحدث عن صديقه التهامى المدغرى .

وكان آخر بريق للنهضة فى هذه المرحلة ايام السلطان المولى عبـــد الحفيظ الذى كان من علماء عصره وزجاليــه ، وسنخصه بوقفـة قصـيرة .

وقد بلغت هذه الفترة من الازدهار حدا جعل العارفين بالفن يطلقون عليها «الصابا دلشياخ» اى موسم الاشياخ لانها تعتبر أخصب فترات الزجل فى المغرب لكثرة ما نبغ فيها من الشعراء . ولكننا لن نتتبعهم جميعا لان مادة التاريخ والنصوص لا تسعفنا لذلك ، وسنكتفى بالوقوف عند الاعلام البارزين.

(I) كان السلطان سيدى محمد بن عبد الله من العلماء والمؤلفين وخاصة فى فن الحديث ؛ ومن المؤلفات التى تنسب له :
أ ـ الفتوحات الالهية الكبرى (من منشورات المطبعة الملكية)
ب ـ الفتوحات الالهية الصغرى
ج ـ مواهب المنان بما يتأكد على المتعلمين تعليمه للصبيان
د ـ طبق الارطاب فيما اقتطفناه من مسانـــد الائمة وكتب مشاهـــير المالكية والامام الحطاب
هـ ـ الجامع الصحيح للاسانيد المستخرجة من ستة مسانيد

(2) بويع سنة 1276 هـ وتوفى 1290

الجيلالي امتيرد

وهو فيلالي الاصل ، ولكنه ولد ونشأ في مدينة مراكش حيث كان له دكان لبيع الخضر . ولسنا نعرف بالتحديد تاريخ ولادته ووفاته ، ولكننا نعرف أنه على عهد سيدي محمد بن عبد الله كان شاعرا مكتملا ومجددا، يتبين لنا ذلك من حرازه — وهو أول حراز عرفه تاريخ الزجل — حيث يذكر من جملة الصفات التي تنكر بها ليصل الى محبوبته صفة «مخزني» للسلطان سيدي محمد ، وفي هذا يقول :

من ساعتي ارجعت امخزني مشمور امن اصحاب الملك

الله ينصر سيدي محمد

ويبدو أنه عمر طويلا حتى أدرك بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري على حد ما يذهب الاستاذ الفاسي من أنه توفي «في اواسط سلطنة مولاي عبد الرحمن حوالي سنة 1840 م ودفن بمقبرة سيدي علي ابي القاسم بجوار مسجد الكتبية تحت مناره (1) »

ويقال في تعليل تلقيبه بامتيرد على صيغة التصغير أنه كان ضعيف البنية نحيل الجسم ، ويحكى أن السلطان المولى عبد الحفيظ كان اذا ذكر في مجلسه الشيخ الجيلالي بهذا اللقب علق بقوله : «بل هو مترد امعمر بالتريد» وهي قولة تدل على المكانة التي كانت للشاعر حتى بعد عصره ، واكثر منها في الدلالة على مكانته ما قاله التهامي المدغري :

«لو كان احضرت لامتيرد كنت انكون لو عبد اشويرد»

ولا عجب فقد كان عميد زجالي عصره — أو كما يقال في المصطلح عندهم شيخ الاشياخ — لقبه معاصروه في مراكش بـ «الفاكيه دالشياخ» أي فاكهتهم ، ولقبوه في فاس «عرصت لشياخ» أي روضهم ، وبلغ من تأثير قصائده على الجماهير أن المنشدين أطلقوا عليها «الشعالة» للجوئهم اليها في تحريك السامعين واثارة انتباههم اذا ما أحسوا منهم ضيقا بما ينشدون وعدم تجاوب .

---

(1) مقال «الادب الشعبي المغربي الملحون» مجلة البحث العلمي العدد الاول السنة الاولى 1964

ويعزو العامة نبوغ الشيخ الجيلالى الى حادث خرافى يقولون فى حكايته أنه «كان يذهب كل عشية منفردا لصهريج ابن الحداد خارج باب الخميس من محروسة مراكش وهو محل مخيف فيه مياه راكدة تسكنها الضفادع ، وكان الشيخ الجيلالى يجلس هناك للتفكير والاعتبار ، فخرجت له ذات يوم ضفدعة وكلمته وقالت له: ياشيخ إنى أريد أن تحضر عرسى وتغنى لنا فقبل وجاء فى يوم موعود فأغمض عينيه ووجد نفسه فى عالم آخر فأحضروا له آلة تقول هذه الخرافة الشعبية لم يكن له عهد بها فغنى لهم وجازوه بما يستحق ثم أرجعوه لصهريج ابن الحداد فوجد فى يده تعريجة فرجع الى المدينة وحكى للناس ما وقع له ، ومن ذلك الحين صار يأتى بالمعجز من القول ، وتظن العامة انه لم تكن التعرجة معروفة قبل هذا وهى من اختراع الجنة (1)»

وقد كانت لامتيرد جملة اوليات نرى حسب ما وصلنا من نصوص (2) أنه سبق اليها فى تطوير القصيدة الزجلية شكلا ومضمونا ، سنذكر منها ما أمكننا أن نستخرجه من القصائد التى جمعنا له :

أولا : فى المضمون تظهر ابتداعاته فى الموضوعات الجديدة التى طرقها وهى :

1 ـ الخمريات :

يعتبر امتيرد اول الزجالين نظما فى الخمريات ، فتح لها الباب بقصيدته «الساقى» التى يقول فى حربتها :

ألساقى وكَض لريام رد بالك للنوبا لاتغيب عن مولاها

كب يا ساقى راح الليل

وكان الشعراء قبله لا يجرؤون على مثل هذا الموضوع ، وبين أيدينا نص يثبت ذلك ، نجده عند الحمرى فى قصيدته «الربيعية» حيث يقول فى

---

(1) المصدر السابق

(2) نلفت النظر الى أننا فى كل ما نعزو للزجالين من اسبقيات لا نعتمد على غير ما وصلنا من نصوص وما بلغ الى علمنا من أخبار ، وقد يكونون مسبوقين بغيرهم فيما ننسب لهم من اوليات ولكن بين ايدينا من نصوص وأخبار لا يسعفنا فى إثبات ذلك .

آخر بيت من القسم الاول :

اعراجن اثمر فالنخلات الراكبات عل لجدار

واعناقد لعنب فادوالى سالوا عل لعصير اخبــير

فهو يذكر عناقيدالعنب فىالدوالى ولكن يحيل السامعين الىخبير يسألونه عن عصير هذه العناقيد .

2 ـ الـشـمـعـــة :

لعله أول من اتخذ من الشمعة فى احتراقها وذوبانها موضوعا للكشف عما يعانيه المحب فى مقارنة بين حاله وحالها ، مستعرضا على لسانهـــا ما تمر به من مراحل قبل أن تصبح شمعة تبكى لتضىء للآخرين . ويتضح هذا من شمعته التى يقول فى حربتها :

لله يا الشمعا كرى واعلاش دالنواح والناس افلفراح

وانت اجواهر ادمـــوع ابكاك الـــــلا اهطيـــــلا

ومن عجيب أن شمعة امتيرد لم تلق من الشهرة ما لقيته شمعة ابن على ، وهى التى يقول فى حربتها :

لله يالشمعا سلتك ردى لى اسؤالى * واش بك فالليالى تبكى مادالك اشعيلا

3 ـ الـحـــراز

يبدو أن امتيرد كان صاحب فكرة التنكر للوصول الى المحبوبة فى محاولة لاغراء محرزها والايقاع به ، وذلك فى حرازه الذى يقول فى حربته :

حراز للا لرسامو جيتو انصيب قلبو نصرانى * كيف عارفو مـــــــــــازال

وهنا كذلك نلاحظ أن حراز البغدادى (I) حاز شهرة أكبر من حراز امتيرد ، وهو الذى يقول فى حربته :

مال حراز الدامى ما يثق بيا هيهات * حارس فى كل اوقـــــــــــات

اعلى الدوام ايجنب ولا يرومنى كطعيا

وقد تحورت عند المنشدين الى قولهم :

مال حراز الدامى مايثق بيا هيهات * غير حاضى لوقـــــــــات

فى اثيابو مسلـم افعايلـو روميا

(I) المتوفى فى نهاية القرن الماضى

4 ـ الضيف

كما كان صاحب فكرة التنكر فى هيئة «ضيف» للوصول الى حبيبته على حد ما فعل فى قصيدته «ضيف الله» التى يقول فى حربتها :

أضيف الله رد لجواب اصغ لى ✽ لا تحشم رد السلام

فقد طرق باب دارها ليلا يطلب ضيافة الله ولكنها لم تلبث بعد أن أدخلته وأزال اللثام ان تبين لها انه حبيبها لجأ لهذه الحيلة حتى يصل اليها .

5 ـ القاضى

وقد كان ـ على ما نعلم ـ أول من فكر فى اللجوء اليه للفصل بينه وبين محبوبته بعد أن جارت وطال هجرها ، يقول فى حربة قصيدته «القاضى» :

ألقاضى لك ادعيت لغزال خنارى

اعلاش دون سبا هاجر لوكار

جفلت من رسمى قامت لقنا بودواح ازهور

زينت لاسم زهرا

6 ـ الخصام

ظهر أول نظمه له فى قصيدة «بنت الحضر والعربية» التى يقول فى حربتها :

امى حنا ايلا امى لوريت يافاهم اللغا ماذا صار البنت لحضر والعربيا

ءايلى امى لوريت يا فاهم اللغا

7 ـ الخلخال

ويتبين لنا سبقه الى نظم هذا النوع من القصائد فى «خلخال عويشا» حيث يحكى أن محبوبته بعد أن زارته قدمت له خلخالها تذكارا يحتفظ به لتخليد الزيارة وحتى لا ينساها ، ووضع الخلخال فى جيبه ولكنه ضاع منه فأخذ يبحث عنه فى كل مكان فلم يجده واضطر الى اللجوء لفقيه منجم يكتب الخط استطاع بواسطة الجن ان يحضر له الخلخال . يقول امتيرد فى حربة هذا الخلخال :

خلخال اعويشا درت لبها فى مكتوبى يا فهيم درتو وامشى لى

كيف المعمول ايـلا اتسالنى مولات الخلخال

وقد فتح امتيرد بهذا الخلخال بابا لمن جاء بعده من الشعراء الذين جعلوا موضوع قصائدهم : الخلخال او الدمليج أو الخاتم أو الضبلون ، وهو بهذا طور فى الواقع جانبا من جوانب القصة فى القصيدة الزجلية

8 ـ الفـصـــادة

ففى قصيدته «لفصادا» سن لمن جاء بعده من الشعراء أن يصفوا الحفلات التى تقيمها النساء بمناسبة اخراج الدم حيث يبرزن متزينـــات متحليات بأفخر الحلى وأجمل الثياب ، وهى التى يقول فى حربتها :

آش را من لاحضر امع اوجوه لريام ※ يوم حنطو فثياب العز اللفصادا

ثانيا : فى الشكل تتمثل براعة امتيرد فى الجوانب الآتية :

1 ـ السرابـــة

فهو ـ حسب ما انتهى اليه علمنا ـ اول من اتخذها فى التمهيـــد للقصيدة ، ويذكر كبار الاشياخ أنه قبل ان ينظمها كان يقدم بأغانى بوعمرو الخفيفة . ومن أول السرارب التى نظم امتيرد هذه السرابة التى يقول فـــى أولهـــا :

اعلاش امحبوب خاطرى تجفينـــى ※ ألجافينى واعلاش دالجفــــــا

حبيتك من خاطرى ولا رديتنـــى ※ كاتمنينى يا شارد لعفـــــــا

خالفت فالقول باش واعدتنـــى ※ ولاوصلتى الرسمى قاسيت ما كفا

(قالت ناس الشعر والقوافـــى ※ الزين ابلا تيه صورتـو تعـداف)

والخير صاحبو يعراف

ويذكرون أنه يقصد بقوله «قالت ناس الشعر والقوافى» الشاعر بو عمرو ، وبقوله «الزين ابلا تيه صورتو تعداف» شطرا واردا فى قصيدة لهذا الشاعر تعرف بـ «باهى لحروف» ، وأنه لجأ الى هذا الاقتباس تخليدا لذكرى بوعمرو واشعارا بأنه الموحى بفكرة السرابة .

2 ـ وزن للبحر المثنى

فقد وضع فى «الساقى» وزنا للبحر المثنى لم يكن معروفا من قبل ،

صدره أطول من عجزه ، اوكما يقال في الاصطلاح «الفراش» أطول من «الغطا» ، وتتضح هذه الملاحظة من حربة القصيدة التي يقول فيها :

الساقي وكًض لريام رد بالك للنوبا لا تغيب عن مولاها

كب يا ساقي راح الليـــــل

3 ـ بحر السوسي

نميل الى انه أول من سبق الى النظم عليه ، وذلك في قصيدتـــه «الحراز» التي يقول في حربتها :

حراز للا لرسامو جيتو انصيب قلبو نصراني

كيـــف عارفـــو مـــازال

4 ـ الحوار

كنا قد رأينا في الفصل السابق أن فكرة الحوار بدات عند الحمري في قصيدته «الربيعية» ولكن امتيرد طوره وجعله يمتد في كل القصيدة ، وقد ساعده على ذلك نظمه في موضوعات تستدعي تبادل الخطاب أمثـــال الحراز والقاضي والخصام .

الحاج محمد النجار

من مدينة مراكش ، وهو ربيب الشيخ الجيلالي لان هذا الاخير تـزوج أمه بعد أن توفي ابوه علي النجار . ويقال ان النجار سجل قصة هذا الزواج ساخرا ومستهزئا في عروبي سماه : «مولاة الربيب» وهو بالتالي مساعده في الدكان وتلميذه في الفن . ولعله دخل الكتاب القرآني قبل ذلك حيث تعلم القراءة والكتابة وغدا في سن مبكرة يدون لشيخه بعض قصائده . ومن هنا زاد تعرف النجار الى الزجـــل ينسخـــه ويحفظـــه ويـردده ، ومن هنا كذلك بدأت تظهر في النظم اولى محاولاته التي كان زوج أمه لاشك يتعهدها بالتصحيح والتنقيح .

ويحكي الاشياخ أنه حدث في الوقت الذي أخذ النجار ينظـــم ان اصيبت البلاد بجفاف دام سنتين ، أصبح معه من المتعسر على النجـــار أن يظل عبئا على امتيرد ففكر في الرحيل الى فاس ، واتفق يوم سفره أن ظهر كسوف في السماء أرخه النجار في قصيدته التي قالها في توديع مراكش

واشياخها . يقول فى مطلعها ملتمسا من اهله الدعاء له ان يحقق منـــاه فـــى فـــاس :

لله يا هلى سمحوا فى شى فات

وادعوا لى انصيب امنايا

فى بلد فاس كنز اغنايا

عند الشراف هل لعنايا

يسقونى السقوا بعد السقوا انال تقوا

نبسط لكفوف ضى وادجا

للخالق ساير لخلايق يغفر الواتى فجميع السيات

ويقول فى حربتها :

ألين اوين الشمس فالسما ريناها كسفات

حتى ظهروا النجوم فالنهار الكّهار العاتى

والظلما سدات

ويسجل فى القسم الثانى ما أصاب البلاد من جفاف ، فيقول فى اوله:

عامين يا هلى هاذى مرت ما اشتات

عامين ما اعطات الصابا

ولا ابقى احسان ايهابا

واقوا الرهط دالنهابا

وفى آخر قسم يؤرخ للقصيدة ولسفره فيقول :

تاريخ حلتى «مشقانى والدال» * دال اعلى ترتيب ابياتى واسبيك المعنات

فقد رمز بـــ : م ش ق ن د ، فالميم بأربعين والشين بألف والقاف بمائة والنون بخمسين والدال بأربعة ، ومجموعها أربعة وتسعون ومائة وألف (1) .

---

(1) وهذا ما تؤكد كتب التاريخ على حد ما نقرأ عند الناصرى فى الاستقصا حيث يقول «وبعد صلاة العصر من يوم الاربعاء الثامن والعشرين مـن جمادى الاولى سنة اثنتين وتسعين ومائة والف انكسفت الشمس وظهرت النجوم لكثرة الظلام ثم انجلت ورجعت لحالها بعد نصف ساعة ونحوها ، وفىاعوام تسعين ومائة وألف كانت المجاعة الكبيرة بالمغرب وانحبس المطر ووقع القحط وكثر الهرج ودام ذلك قريبا من سبع سنين» (ج 4 ص 128 ط المصرية)

ويقال ان أشياخ فاس تفاءلوا بمقدم النجار لانه ماكاد يصل الى مدينتهم حتى كانت الامطار تتهاطل ، ويبدو أن من اول القصائد التى نظم فى فاس قصيدته التى يقول فيها مخبرا انه سكن منطقة فاس البالى :

دعت اهـلى وارسامـــى ※ واسكنت بلدفاس البالى دار لهمام
القـوم ارعات إذمامـــى ※ ونا ما نزول انراعى لها الدمام

ولسنا نعرف شيئا عن أخباره فى فاس ، وكل مانعرف انه استطاع أن يفرض وجوده ويصبح «شيخ الاشياخ» و «مداح النبى» .

ونقف قليلا عند اللقب الاخير الذى اكتسبه لكثرة مدحه للرسول عليه السلام ، فان بعض الاشياخ اعتمدوا عليه وذهبوا الى أن النجار لم ينظم فى غير هذا الموضوع ، وهو رأى جانب الصواب .

حقا ان جل قصائد النجار فى المديح النبوى والصلاة والتوسل ، ولكن له قصائد فى الغزل ، لعلها ليست كثيرة ولكنها كافية فى اثبات مانقول . فقد وقفنا له على «البتول» و «ام كلثوم» و ــمسعودا ــ . يقول فى حربـة ــ البتـــــول ــ :

داوى اجـوارح اعليـــلا ※ أشوم ليعتى بفراق البتـول

ويقول فى أول قصيدة «ام كلثوم» :

ألايمنى فهوى اشبهت الدامى دعنى اوكف خلى اجوارحك اسليما
واعذريا لايم حال المغروم

ويقول فى حربة «مسعودا» :

ما فالخودات ريم اتشابه مسعودا ※ مسعودا رايت النصر باشتكل املاح
مسعودا مولوعا او ساعدا

ومن يدرى فلعل هذا التنويع فى الموضوع حدث بعد أن استقر فى فاس وطابت له بها الحياة ، بل انا حين ننظر فيما بين أيدينا من شعـــره نلاحظ ظاهرةلاشك أنهامتأثرة بحال عيشه فىمراكشوما آلت اليه حياتهفيما بعد بفاس . هذه الظاهرة هى طغيان النفس التأملى الجاد ــ والمتشائم فـــى بعض الاحيان ــ على قصائده فى مراكش وأول مدة اقامته فى فاس ، ثـــم

تغير هذا النفس بعد ذلك ، وقد علته مسحة من التفاؤل . وتتأكد لنا هذه الظاهرة حين ننظر في قصيدتين : احداهما فـي تأمل الناس والحياة ، والثانية في يوم عاشوراء . يقول في أول القصيدة التأملية وقد مل الدنيا ومحنها ولم يعد يتمنى غير الموت :

مل قلبي من دنيا كلها امحــــان * ولا ابقى يترجى الا ايموت هاني

ويقول في حربة القصيدة الثانية فرحا مبتهجا :

أجي اتشوف يا من لاشاف الهايجات بسداري
كيف شفت عين حسن يوم عاشـــــــــور

عبد القادر بن عبد الرحمن بوخريص

فيلالي الاصل لكنه ولد ونشأ في فاس ، وهو تلميذ للنجار كما يقول في أول القسم الثامن والاخير من قصيدته «مرحول للمشرق» :

نهيت القطعا الرايقا واسمي عبد القـــادر
ابن عبد الرحمن بوخريص تلميذ النجـار

ويعتبر من الزجالين الذين كان لهم حظ وافر من الثقافة، بل يزعم بعض الاشياخ أنه كان من كبار العلماء وأنه تولى قضاء مدينة فاس ، في حين أن القاضي غير الشاعر ، وهو سميه وجده ، كان قاضيا بفاس ، توفي سنـــة 1188 هـ

كان بوخريص متأثرا أشد التأثر بالنجار من حيث الاكثار من النظم في المدائح النبوية والتوسلات والمواعظ خاصة إلى حد يطلق الاشياخ عـــلى قصيدته في الوصاية «المدونة» وهي التي يقول في حربتها :

ياالساهي عما يعنيه والعمر فان * قم واعزم واخدم يكفي امن اتفرعين

ويتأكد هذا النفس المشبع بعاطفة الدين في قصيدته «مرحول للمشرق» وهي التي يقول في حربتها :

أرواح أراسي اتشوف هـذا الركب السايـر
خلا ناس الذوق شايقا لمقام المختـــــــار

وكما لاحظنا عند النجار نلاحظ كذلك عند تلميذه ، فهو لم يقصر نظمه على الموضوعات الدينية والتأملية كما يظن غير قليل من الاشياخ ، ولكنــه نظم فى غيرها على حد ما تثبت قصيدته «الجار» التى يقول فى حربتها :

جـــارى يـــاجـــارى * حن واشفق واكرم من له جـــار

واعطـــف لوكــــــارى * اولا اتخلى رسمى مهجــــــــور

هذا وقد وقفنا عند أحد كتبيى فاس على ديوان لبوخريص بخطه ، يضم حوالى مائة قصيدة كلها فى التوسل ومدح النبى والاولياء ، كان جد ضنين به لم يسمح لنا بغير تصفحه ولبضع لحظات ، ومازلنا لحد الساعة نفاوضه فى اقتنائه ، واذا ما تهيأ لنا الحصول عليه فانا ننوى أن نحققه ونقيـــم دراسة خاصة عليه .

محمد بن على العمرانى

ويكنى ولد ارزين ، يصرح هو نفسه بذلك على حد ما يقول فى نهاية قصيدة «الشمعة» مؤكدا شرف نسبه :

واسمى انبينو ما يخفى موضوح فى اسجالى

محمد الشريف ابن على ولد ارزين صيـــلا

وعلى حد ما يقول كذلك فى آخر قصيدة «حجوبة» :

واسمى محمد ولد ارزين القب تلقاب * وافضل من كل انســــــاب

حـــــق نســـابــــى * من اولاد المختار الى اعليه منسوبا

وهو من تافيلالت حيث ولد فى مسيفة على ما يؤكد جل الاشياخ ، وهم يذهبون الى أنه نشأ فى بيت علم لان والده كان صاحب كتاب قرآنى اتاح له فيه فرصة التعلم وحفظ القرآن الكريم وبعض المتون التى جرت العادة بحفظها فى الكتاتيب وقد قضى فى هذا الكتاب وبجوار والده فترة لاشك أنها لم تكن قصيرة ، ظهر خلالها نبوغه المبكر متجليا فى سرعة الحفـــظ والادراك ومحاولة نظم ما يتلقى من فوائد وقواعد على طريقة نظم المتون . ولم تنته هذه الفترة الا بسفره مع أسرته الى فاس لتتسنى له الدراسـة فى جامع القرويين . وعلى الرغم من أنا لا نعرف طول المدة التى قضاهـــا

طالبا فى القرويين ، فانا لانشك فى انه حاز حظا وافرا من العلوم المختلفة التى كانت تدرس بها ، وفى أن تكوينه الثقافى انعكس على بعض شعـره وخاصة فى قصائد «السولان» و «الوصاية» و «هول القيامة» و «الـــذرة» بل انا نجده فى بعض قصائده يصرح أنه يستقى من الكتب ويقتبس منها على حد ما يقول فى اوائل القسم الثانى من «حجوبة» :

ثم نبغيك اتشوفينى افعين من يعرف لمرمات ✲ وامطالع كل اكتـــاب
حق اكتابــــى ✲ فارس افمايتى واتراجمى افلكتوبــــــا

ويقال انه ما كاد يقضى بضع سنوات فى فاس حتى هلك والداه فأحس قسوة الوحدة والغربة على الرغم من أنه كان قد تعرف الى النجار واتخذه صديقا وأستاذا ، فعاد الى مسقط رأسه فى الصحراء حيث نظم قصيدة فى مدح مولاى على الشريف جد الملوك العلويين ، تعتبر من أروع المدح على الرغم من أن ابن على لم يكن الا مبتدئا ، وهى التى يقول فيها مخاطبا ممدوحه :

ياحـلاوة تمر الصحرا ويا حفيد امام العشرا
يا سنا الصحارى يا مولاى على الشريــــف

ولكنه لم يلبث أن عاد الى فاس لينظم القصيدة تلو الاخرى وليصبح «أعظم شعراء فاس فى القرن الثامن عشر (1)» ويحرز لقب «المعلم» قبل وفاته «سنة 1237 هـ (1822م) وقد تجاوز الثمانين (2)» .

وقد كان إبن على مكثرا ومجيدا ومنوعا فى موضوعاته ، ومن اللطيف أن نجده فى قصيدة «حجوبة» يستعرض أسماء بعض قصائده ، وهى التى يقول فى حربتها :

يالى زينك فاق الشمس والقمر والبرق افلحجاب ✲ صلتى بحروف اعجاب
صــــغ لوجابـــى ✲ عالجنى بوصولك يا لريم حجوبا

ففى القسم الثانى منها يخاطب حجوبة ، بعد أن وصف مجلس الانس

---

(1) Anthologie d'auteurs arabes par M. Bekhoucha et A. Akkal p 74. المطبعة المهدية ــ تطوان سنة 1934

(2) «مقال الادب الشعبى المغربى الملحون» للاستاذ الفاسى العدد الاول من مجلة البحث العلمى سنة 1964

الذى يتمنى ان يجمعهما ، يريدها ان تستمع فيه الى قصيدتين له فـــى «الحجام» وقصيدتين فى «المرسم» وقصيدة «القاضى» و «الورشان» وقصيدتين فى «السالف» وقصيدة «الشمعة» و «الحراز» و «جمهور البنات» يقـــول فى هذا القسم :

ثم نبغيك اتسمعى «حجام» اللولى والتالى باسباب ✻ ما غتبتهم غتـــاب
دون غتابــــــى ✻ اولا يردوا قولى الا اعقول مقلوبــــــا
ثم تبغيك اتسمعى «لمراسمى» ابزوج «اقاضى» للباب ✻ و «الورشان» الخباب
مـاسك اكتابـــى ✻ «والسوالف» زوج «أشمعا» اضوات مركوبـــا
ثم نبغيك اتسمعى «حراز» حارسو فمناصف لجواب ✻ دور افذهب التذهاب
ايحــير الصابـــى ✻ وقت مايتذكرو اتصيب لحسود مرهوبـــــا
ثم نبغيك اتسمعى «جمهور لبنات» افمعنى وداب ✻ فيه اسميات اغراب
طرز بغـرابـــى ✻ كيف ننحل ماياتى فالنظام معروبـــــــــا

واذا ما أمعنا النظر فيما بين ايدينا من قصائد لابن على فانا نلاحظ خمس ظواهر :

الاولى : أنه ـ على ما نعلم ـ أول من نظم زجلا سياسيا على حـــد ما تثبت قصيدته «المصرية» التى يكاد يجمع كبار الاشياخ أنه قالها فى حملة نابليون على مصر ، والاسف أنا لم نعثر على أثر لهذه القصيدة التى لاشك تكشف عن تجاوب المغاربة مع إخوانهم المصريين فى هذه النكبة التى حلت بهـــم .

الثانية : أنه ربما سبق الى قصائد «السولان» يوجهها لخصومـــه يحاول تعجيزهم ان لم يستطيعوا حل سؤالها بل الاسئلة التى تتضمنها ، وهى فى الغالب معميات وألغاز ، منها قصيدته التى يقول فى حربتها :

بســـــؤلك استفخر يـا حفاظى ✻ اولا ابحال عند اللى عارفين سولان

وفى أحد أقسامها يسأل من جملة ما يسأل عن ماهية علم الشعـر والمواهب وكيف تتسرب للنفوس ، وعن أقسامها التى لا يعد شاعرا من يجهلها ، ويرى أن كل من غاص فى بحر الهوى يجده صعبا الا من منحه الله الموهبة ، ويوصى راويه الايهاب الداعى فهو أعجز من أن يأتى بمثـــل

هذا السؤال أو هذا الشعر مهما طال به الزمان :

وانسال امن ادعا واعلى علم الشعر والمواهب

واعلى اشمن اسبيل يدخل لجسام

كان لهم فالخلق ارسام

قسموه الفهام اقسام

من لايدريه لا يقول شاعر فالقول ايجيب

والى داخل بحر لهوا ابجهلو يلقاه اصعيب

الا من ودو ربنا الوهاب

والى ادعا عليك ابجهلو بالك تستهابو

ما جاب عوض سولانى

ألو ايعيش ماعاش المرو ولا يجيب لوزان

الثالثة : انه وضع وزنا للبحر المثلث فى قصيدته «زينب» التـــى يقول فى حربتها :

يابـــدر ماغطاك احجـــاب * فى ادجايا شمس النهار السعيد يازنوبا

فاين العهد يا زينب

وهو فى الواقع تطوير للوزن الذى وضعه إمتيرد للبحر المثنى فـــى قصيدته «الساقى» التى يقول فى حربتها :

ألساقى وكًض لريام رد بالك للنوبا لا تغيب عن مولاها

كب يا ساقى راح الليل

فقد لاحظ أن «الفراش» أطول من «الغطا» فجعله قسمين .

الرابعة : أنه عدل بعض الشيء فى «قياص لشركًى» وجعله على نحو ما نجد فى قصيدته التى يقول فى أولها :

يا هلى ريت اجبال الغرب غيبـــو * وجبال الصحرا اتبان غير العظمات

وقد نظم أغلب مطولاته على هذا الوزن ، ويقال ان الغالى إلدمناتى كان أكثر الشعراء تقليدا له فيه على حد ما يبدو فى قصيدته التى يقول فى أولهـــا :

ياهل البيت اسيادى لامت لشراف * زكًت احداكم قبلو زوكًت لوصيف

وكان هذا «القياص» قبل ذلك على نحو ما تكشف عنه قصيدة «الحجة» لابن احساين ، وفى حربتها يقول :

يالحضرا قولوا بالسر ولجهار ⁂ الصلا والسلام اعلى النبى المختار

الخامسة : أنه ـ حسب ما تثبت النصوص التى وصلتنا ـ أول من أطال القصائد فجعلها «ملاحم» كما يقولون . حقا ان للمغراوى قصائد طويلة مثل «هول القيامة» فان أبياتها وصلت الى مائتين ، ولكن ابن على تعدى هذا الطول بما يزيد على ضعفه . ومن خير الامثلة على قصائده المطولة «الـذرة» التى ضمنها ما كان معروفا فى وقته من معارف كونية ، فهى تضم ثلاثة وستين وخمسمائة بيت ، يقول فى دخولها :

سبح المولى تسبيح اللسان والقلب

وقدس المولى تقديس النجاب لقراب

سبح المـولى مـاشرق الضيا وغرب

قدس المولى مادام الضيا وغيهـاب

ويقول فى حربتها :

يالساهـى مـن نومـك فـق سبـح الـرب

لمتا وانت تايه فالغرور لـــواب

الصلا والسلام اعلى اخيـار لنسب

سيدنا محمد طه اشفيع لعـراب

ويقول فى القسم الثانى منها :

منها اللوح انشاه ابقوتو وحولو ⁂ ومنها الروح والعقل كيف شا وقدر

اللوح جعلوخمسين الف اسنافطولو ⁂ والفين فى عرضو كيف جا امعبـر

ولقلم طولو ألف اسنا ايقولـو ⁂ كلهم فالكرسى نقط الديام فبحار

لقلم والكرسى واللوح لمكتـب ⁂ والسماوات ولرضين والتلول وارواب

ولحجوب ولشيا فالعرش كل تذهب ⁂ خرس منسى فقفر قال النبى الاواب

وقد سبق ان راينا فى المدخل ان مثل هذه القصائد لم تكن تنشدفى المجالس وانما كانت تسرد فى بعض المناسبات وخاصة فى ذكرى المولد النبـــوى .

واشتهر ابن علي بعد هذا بالمعارك الهجائية التى كانت له مع تلميذه ابن سليمان ، وقد تعرضنا لها فى الفصل الثالث من باب الموضوعات

محمد بن سليمان

من زجالى فاس ، وهو تلميذ ابن علي وخصمه الذى خاض ضده معارك هجائية شهيرة ، لم ينس فى غمرة حدتها اعترافه بالفضل لشيخه على حد ما يثبت هذا البيت ينصفه فيه :

رجلى اعلى اقفات العكل(I) * حجا ايلا اوطيت ابن على

ولكن جاء بعض الاشياخ فقلبوه هجاء وقالوا فى جناس بين اســـم الشاعر والنعل الذى يلبس :

رجلى اعلى اقفات ابن على * حجا ايلا اوطيت إبنعلى

ويذهب الاشياخ فى حكاية قصة حياته الى روايتين : تقول الاولى ان اباه الحاج ادريس بن سليمان كان رجلا رقيق الحال يشتغل بالحرازة ، وتقول الثانية ان والده كان من أكبر أغنياء وأعيان فاس ، وأنه كان محبا للطرب الملحون يحيى لياليه فى بيته ، وأنه كان صديقا للشيخ ابن على .

ونحن نميل الى هذه الرواية بل نذهب الى أن ابن سليمان الابـــن تأثر لاشك ــ وهو طفل صغير ــ بهذه الليالى التى كان يقيم والده ، والى أن تلمذه لابن على بدأ فى هذه الفترة ببيت والده .

وتحاول هذه الرواية أن تربط بين وضع أسرته وما ترتب عنه من تأثير كبير على حياة الابن فتضيف أن والده توفى وترك له ثروة طائلة كان فيها وارثه الوحيد ، فلم يلبث ــ وهو فى أول الشباب ــ أن انطلق للحياة

(I) البليـــد .

اللاهية الماجنة في غلو واسراف كانت نتيجتهما أن أصيب بداء القلب الذى أودى بحياته ولما يتجاوز الثلاثين من عمره .

وتعتبر قصائده التى نظم فى حال مرضه وهو طريح الفراش من أروع ما أنشأ الزجالون صدقا وابداعا ، تشم منها رائحة الموت تكاد تخنقه وهو يحاول الفرار منها في خوف وتشبث بالحياه . ومن أهم قصائده فى هذه الفترة «الطبيب» و «الوردة» ولعلهما آخر ما نظم قبل موته ، يقول فى حربة الاولـــى :

الطبيب يعرف دايا والدوا سومو غالى

عالجونى يا ناسى لا نموت موت الغفلا

ويقول فى حربة الثانية :

لاتلومونى فى ذا الحال جيت نشهد وانودى

يا عدولى فالموت اسبابى خد الـوردا

وقد كانت لابن سليمان عناية باسلوب زجله تمثلت فى اكثاره مـــن التضمين ــ وهو كما سبق أن رأينا (I) بناء القافية على حرفين ــ ومن الامثلة عليه عنده قصيدة «الرعد» فقد التزم فى قافية الاشطار الاولى للابيات حرفى الياء والميم على حد ما يقول في هذه الابيات من الدخول :

الرعد زام طبلو من بعد اقناطر الصمايـــم

والبرق سل سيفو ويخيل فى اخيول لمران

والـريـــح فـــارس ايشـــالـــى

عن اعيون العلفات اعلى اللغا امشمـــــــــر

لقزاح شد بنـدو للفرجا اعساكرواتلايـــم

واحرك ابلمطار البيدا حتى أجرات ويدان

قلبـــى ابحبهـــا ســـالـــى

كـل فـج اصبـح مـــن ذاك الضباب خضر

(I) انظر الفصل الثانى من الباب الاول ، وانظر كذلك الفصل الاول من الباب الثالث لدى ذكر محمد بن عبد الله بن احساين .

ومن الامثلة عليها عنده كذلك قصيدة «حجوبة» ، وفيها التزم الفاء والهاء في قافية الاشطار الثانية للابيات ، على حد ما يقول في هذه الابيات من القسم الاول :

وصلك حاجا مطلوبـــــا ⁂ مرادى مايا لمتا اتصفيـــه

نعتاد بك غرضي فغراضك ياك مانهيا دخلت بينتنا اعگوزا خواضـــا

دارت ملقانا جوبـــا ⁂ ايمتا شرگ لفراق ترفيـــه

نبرا من الزيارا فيها خيط الرضا الوافي روفي يا رماك الداميا فالطباح مني نهاضا

محمد بن قاسم العميري

ويعرف بالفقيه العميري ، وهو من مدينة مكناس . ولكنه أقام مدة غير قصيرة في صفرو حيث تولى خطة العدالة . وكان معاصرا لشيخ مكناس سيدي قدور العلمي الا أنه توفي قبله ويحكي الاشياخ أن العلمي بعث بعض أصحابه الى دار العميري ، وطلب منهم ان لم يجب أحد لطرق الباب أن يكسروه ، وكذلك فعلوا ، ولكنهم حين دخلوا الدار وجدوه قد مات وبين يده مصحف وقد وضع فيه أصبعه على الآية الكريمة : « هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون» . ويعتبر الاشياخ هذه الحادثة كرامة ليس للعميري فحسب وانما للعلمي كذلك .

واذا عرفنا ان العلمي توفي عام ستة وستين ومائتين وألف ، واذا عرفنا كذلك ان العميري كان يعيش في عهد المولى عبد الرحمن (1) لانه مدحه ، فانا نستطيع أن نجعل وفاته في منتصف القرن الثالث عشر .

والدارس لشعر العميري لا يلبث ان يلاحظ ظاهرتين :

الاولى : ولعه بقافية النون ، كما يبدو من هذه القصائد :

يقول في حربة قصيدة يمدح بها سيدي عبد السلام بن مشيش :

أنا ابن امشيش غارا بالرافا كن لي اعوين

يا بدر انبا اولا توارى يضوى ما طالت السنين

يخفى لهلال والمناوا والصيارا الباقيين

(1) تولى سنة 1238هـ وتوفي سنة 1276 .

ويقول في أول بيت من قصيدة «الزين» :

هيــا هيــا ويــن * يا من ردو للمطاعنــا
بسيوف الضمديــــن * لو طاروا ما ـ لقونـــي

ويقول في حربة قصيدة له يمدح بها المولى عبد الرحمان :

بـوجـود السلطان * مـولاي عبد الرحمـــن
عمنا بالاحســـان * نمجـــد فزمـانـــي
من حكم فالبرين وبحرين

الثانية : سبقه (2) الى النظم في «الجفريات» ، وهي ـ كما سبق أن رأينا (3) ـ قصائد يتأمل فيها الشاعر أحوال المجتمع والناس ويستنتج منها تنبؤات بما يحتمل أن يقع . ومن جفريات العميري قصيدته التي يقول فـي أولها ، رامزا بالصوف والقطن الى طبقات من الناس :

لا اتوطن فالغرب اتخلط لوطن
الصوف امع القطن عاد فابطانا تحت ابطانا
ابرزلهوا املابس قفطانو

ومنها لاميته التي يقول فيها :

ذاك الولد المهبـــول * أصلو مـن أناضـــول
الفرخ يشبه اخوالو

وقد وجد الناس هذا القول مطابقا لوضع السلطان المولى عبد العزيـــز بعد أن هزمه أخوه السلطان المولى عبد الحفيظ لان أمه تركية ، مع أن العميري كان يعيش في عهد المولى عبد الرحمن .

واذ كانت هذه القصائد تعتمد على الرمز والتلميح والاشارة ، فان العميري بسبقه الى النظم فيها كان سابقا كذلك الى هذا النوع من الاسلوب في القصيدة الزجلية

---

(2) حسب النصوص التي وقفنا عليها

(3) انظر الجزء الثاني من فصل «في الحياة» من باب الموضوعات.

يعرف بـ «سيدى قدور» (1) ، وهو من مكناس ومن أكبر الزجالين وأشهرهم ان لم يكن أشهرهم جميعا، وهو كذلك من أولياء هذه المدينة. نظم في مختلف الموضوعات وبرز في التوسل والحكمة والموعظة حتى غدا يعتبر فيلسوف الزجل بلا منازع. ولعله من أكثر الشعراء الذين حفظت قصائدهم من الضياع بسبب كثرة انشادها وتدوينها ،لما له من مكانة في النفوس باعتبار ولايته ، وهي فكرة جعلتهم ينزهونه عن كل ما لا يقبلون صدوره من الاولياء ، ويؤولون بالتالي شعره في الغزل والخمر على حد ما سنرى بعد .

ترجمه المشرفي في «الحسام» (2) فتحدث عن زاويته وبعض كراماته وقال ان «له قصائد عديدة في ملحون الشعر تتلى في حضرة الملوك وتنشد في مجالس السرور وتشرق بها الاسماع ويطيب بذكرها وانشادهـا السماع ، احتوت على توحيد عظيم ، ويتغزل بالخمر والنساء وما حل نطاقا لامرأة من صغره لكبره» (3)

وأشار الى أسماء بعض قصائده في التوسل ومدح الاولياء ووقف عند قصيدته التي يقول فيها متوسلا :

ما انتاشي عاجز نرجـوك يالجليـل

ما انتا شي غايب تعذار يالمـولى

فذكر أنه كان يريد شرحها ، وفي ذلك يقول : «قلت له يا سيـدي فاتتني الخدمة لك بيدي أردت أن أخدمك بقلمي ايذن لي في شرح هـذا التوسل ، ومرادي أن تذكر مناقبه وجملة كافية من كراماته فأمرنـي بقراءتها عليه وهو ساكت ، فلما أكملتها قال لي : من قال هذه القصيـدة هي لي ؟ ولم يقل : ما قلتها ولا ليست لي ، بل مهما كررت عليه قولتـي

---

(1) قد يختلط اسمه مع اسم أحد أشياخ فاس المعاصرين يسمى قـدور العلمي ويعرف بـ «طقطقان» وقد توفي منذ حوالى عشرين سنة .

(2) الحسام المشرفي في الرد على أكنسوس المراكشي (مخطوط خزانة الرباط العامة ك 2276 ص 288 — 289 290)

(3) ص 288

فى شان شرحها يقول : ومن قال هى لى ؟ ويسكت . فلما لحيت عليه القول قال لى : نم وغدا ان شاء الله يظهر لنا ولـك ما يكون عنـد فسكت وما سالته بعد ذلك الا ما يكون من أمر الدعاء الصالح » (1)

وترجمه المؤرخ المرحوم عبد الرحمن بن زيدان فى «أتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس» (2) باعتباره من صلحائها فذكر أنه «عبدالقادر بن محمد بن أحمد بن بلقاسم الادريسى العلمى الحمدونى ... نشا فى صيانة وعفاف بمكناسة الزيتون فى حجر والده بالدار التى اتخذها بعد وفاة والده زاوية وبها أقبر ... وكان رحمه الله من أهل المقامات العالية والاحـوال السنية لايعرف لعبا ولا لهوا ولا مـا يرجع لزخرف الدنيـا وزينتها كثير التطوف على أضرحة الصالحين وزيارة الاحياء منهم والاموات » (3)

ونقل ابن زيدان عن ابى عبد الله محمد الامين الصحراوى المراكشى فى «مقدمة الارتجال فى مشاهد ومشاهير سبعة رجال» قوله : «قال لى الـولى سيدى عبد القادر العلمى انه مكث بضعا وعشرين سنة وكان بمراكش وكل يوم يزور سبعة رجال او يزور الاربعة المتقاربة : سيدى ابى العباس السبتى وسيدى محمد بن سليمان الجزولى وتلميذه سيدى عبد العزيز التباع وتلميذه مولانا عبد الله الغزوانى ، او يقتصر على زيارة ابى العباس السبتى (4) » وزاد ابن زيدان : «وقد لازم دهرا طويلا زيارة ضريح المولى ادريس الاكبر وبالاخص يوم الجمعة لم يتخلف عن صلاتها بمسجده فى صيف ولا شتاء مدة من ثلاثين سنة ،و كان ذهابه لزرهون كل جمعة على أتان له وكان يتطارح على شريف تلك الاعتاب ويتضرع الى مولاه فى تنوير سريرته وصفاء باطنه وتطهيره من الرعونات النفسانية ثم بعد مدة لازم داره وصار لا يخرج منها الا يوم الجمعة . وفى آخر عمره لما كبر سنه ووهن عظمه واعتراه ما اعتراه من الجذب وذلك قبل انتقاله لدار النعيم بنحو أربعة أعوام ... ترك حتى الجمعة وكان يتحرى صلاتها بجامع الزيتونة احـد المساجد الشهيرة بمكناس (5) »

---

(1) ص 289 — 290

(2) الجزء الخامس من ص 336 حتى 352 (الطبعة الاولى — الرباط) .

(3) ، (4) ص 336 . (5) ، ص : 336—337 .

وقد اعتمد في تحديد مدة جذبه على ما ورد عند الطبيب محمد غريط — وهو من تلاميذ العلمي وملازميه — في رجز له يسمى «رياض انس الفكر والقلب» قال فيه (1) :

والجذب معه نحو اربع سنين * وبعضنا به من المستيقنين

ومع ذا بسائر الاذكار * يصدع بالليل وبالنهار

حتى قضى بقرب فجر الاثنين * ليلة يوم سادس وعشرين

وذهب ابن زيدان الى أن السلطان المولى عبد الرحمن كان «من خاصة محبي المترجم ومعتقديه يذهب لزيارته كلما حل بالحضرة المكناسية ويستشيره في كل مهم عن له ويقف عند حد اشارته ، وقد شاهد له كرامات وخوارق عادات (2) » .

وقال عنه كذلك انه كان «سيدا حصورا لم يحتلم قط ولا عرف معنى الالتذاذ كما أخبر هو بذلك عن نفسه لا في صغره ولا في كبره ، ولا يأكل دسما ، جل قوته الخبز والزيتون ... وقد ظهرت له رضى الله عنه كرامات وأسرار وقصده وفود الزوار من سائر الاقطار (3) » .

وذكر له من مشايخه : (4) العارف السيد الحاج المختار البقالي المتوفى عام خمسة وخمسين ومائتين وألف ، وسيدي علي بن عبد الرحمن المعروف بالجمل دفين فاس المتوفى عام أربعة وتسعين ومائة وألف ، والشيخ بدر الدين ، ومولاي الطيب الوزاني ، وسيدي محمد ابن أحمد الصقلي المتوفى عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف .وذكر له من تلاميذه السيد فضول ابن عزوز والسيد فضول السوسي والسلطان مولاي عبد الرحمن والسيد محمد غريط والعارف محمد بن عبد الحفيظ الدباغ والامام محمد صالح الرضوي وسيدي عمر بن المكي الشرقي والسيد عبد الرحمن بن التهامي الادريسي الزرهوني وسيدي العربي بن السائح الشرقي دفين الرباط .

---

(1) ص : 337 . (2) المصدر السابق .

(3) ص : 339 .

(4) ص : 341—342 .

ثم تناول شعره فقال : «وما ينسب للمترجم من الازجال هو له حقيقة، وقد كان له رواة يتلقونه منه ويكتبونه عنه منهم العلامة السيد محمد غريط والسيد الحاج قاسم بن المير والسيد الحاج احمد الدقيوق وغيرهم حيث أن المترجم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . ومع ذلك قد ضمن تلك الازجال من أنواع فنون البلاغة ودقائق المعاني ما أخرس الفصحاء وأخجل البلغاء واودعها من الحكم والمواعظ والامثال ما حير اولى الالباب وألزم المعاند الحجة . أما تغزلاته فقد أزرت بنسيم الصبا ووسيم الصباح وكلها اما في الحضرة العلية أو النسمة النبوية أو الاكابر من الاولياء والصالحين ، شنشنه فطاحل العرب والصحابة التابعين وسلف الامة وخلفها المتقين في تغزلاتهم في أشعارهم الفائقة الرائقة لا فيما يفهمه بعض الاوغاد من أنه في معين لا يحل حاشا أهل الفضل والدين من ارتكاب ذلك والحوم حول ولوج وخيم تلك المسالك . ولو دون جميع ما قال من الازجال لجاء في عدة أسفار ولكنه منه ما لعبت به أيدي الاتلاف ومنه ما مات بموت حفاظه ومنه ما أحرق على عهد المترجم بأذن منه ، وما بقي انما هو قل من كثر (1)» .

وذكر له من شعره نماذج في موضوعات مختلفة ، أتبعها قبل أن ينهي الترجمة بذكر ولادته ووفاته فقال : «ولد بمكناسة الزيتون سنة أربع وخمسين ومائة وألف و... توفي عن مائة واثنى عشر سنة بداره الكائنة بقصر درب ابن العواد من مكناس في البيت يمين الداخل قرب فجر يوم الاثنين ليلة سادس وعشرى رمضان المعظم عام سته وستين ومائتين وألف ، كما صرح بذلك تلميذه غريط المذكور في رجزه بقوله :

حتى قضى بفجر يوم الاثنين * ليلة يوم سادس وعشرين
من رمضان سته وستين * والف اثر مائتين ثنتين

وصلى عليه بجامع الزيتونة ودفن بدار والده التي صيرها زاوية قيد حياته بحومة ابى الطيب (2) ».

---

(1) ص : 340 — 341 .

(2) ص 351 .كذلك ورد تاريخ وفاته ومكان دفنه في الاستقصا للناصري، ج 4 ص 201 (الطبعة المصرية).

كذلك كتب عنه المستعرب بورى بحثا بيوغرافيافي مجلة هسبريس (1)
ذكر فيه أن سونيك نشر قصيدة للعلمي في «أغاني المغرب العربية» (2)
هي المسجلة في الرقم الثاني عشر ، وان فيشر في مجموعة الاغاني المغربية
التي نشر (3) اورد له قصائد في الارقام السابع عشر والسادس والعشرين
والتاسع والعشرين والرابع والثلاثين وان كان لا يذكر اسماء مؤلفي أغاني
مجموعته . ثم نقل كلام الناصري في «الاستقصا» عن وفاة العلمي وبعض
ما جاء في ترجمة ابن زيدان له . كما نقل من مؤلف للشيخ عبد الحي الكتاني
كان أطلعه عليه عنوانه «مواهب الرحمن في صحبة القاضي أبي محمد عبد
الرحمن» أن العلمي توفي في السنة السادسة والستين ولكن عن مائة
وعشرين سنة وأنه كان على اتصال بقاضي الجن شمهروش الذي كان صديقاله

وروى بورى عن شخص من فاس الجديد حكاية مفادها أن العلمي كان
حاضرا في أحد الاعراس ، ورغب بعض المدعوين في الاستماع الى قصيدته
«طامو ابهيج الخدادا» ولكن المنشد لم يجرؤ على تلبية هذه الرغبة لانه كان
يعرف أن صاحب القصيدة موجود وأنه لا يليق انشاد قصيدة غزلية في
حضرته ، وعلم العلمي بالامر فاذن بانشادها مؤكدا أنه لا يعرف لا طامو
ولا فطومة .

وختم المستعرب المذكور بفائدة عثر عليها في كناش يضم قصائد
للعلمي يقول كاتبها ان السلطان المولى عبد الرحمن أراد أن يعرف ان كان
العلمي في أواخر حياته مازال ينظم فبعث له وزيره سيدي محمد بن ادريس
يطلب منه بعض قصائده تبركا ، وقابل الوزير اول الامر تلميذه محمد غريط
فأكد له أن الشيخ لم يعد يعنى بالنظم ، وكذلك قال العلمي نفسه للوزير
ولكنه أبدى استعدادا لتلبية رغبة السلطان التي اعتبرها أمرا تجب طاعته
وطلب من السيد غريط أن يكتب ما يملى عليه ، وأخذ يرتجل القصيدة
التي أولها :

1) M. T. BURET : Hesperis 1038 1er trimestre, dans ; communications « Sidi quaddur El-Alami - Notes biographiques »

2) Sonneck : Chants arabes du maghreb

3) A. Fischer : Das liederbuch eines marokkanischen sangers (Leipzig 1918)

عشق لجمال طبع اغزير افمن هو البيب

ولعلنا من خلال هذه الاخبار ومن خلال ما يروى على ألسنة الاشياخ وعامة الناس ، ثم من خلال ما وصلنا من شعره ، وهو غير قليل ، نستطيع أن نتحدث عن العلمي من خلال خمس نقاط :

الاولى : أنه كان شاعر الحكمة الاول وفيلسوف الزجل دون منازع ولكن يبدو للكثيرين أن فلسفة سلبية يائسة تقوم على التشاؤم من الناس والحياة ؛ والواقع أنها ليست كذلك أو بالاحرى ليست دائما كذلك . حقا اننا نجد روح التشاؤم تطغى على العلمي فيرى أن كل ابناء جيله مطبوعون بطابع واحد ، فشا فيهم النفاق والتحايل والخداع والرياء وانعدم الاحسان والصدق والحياء والعرض والحسب ، وهي كلها علامات الخراب :

هاذو اشروط اعلامات التخراب

عاد النفاق اموذا بين الناس الكبرا

. . . .

بالحيلا والمصانعا ولخدع عادت اخلاق اطبايعهم مقلوبا

. . . .

مذهبهم ندريه خممت اولاد جيلنا كَاع بعصا وحدا مضروبا

شاع الريا ولحسان اغبر والصدق غاب

واترفع لحيا والعرض ولحسب

ويرى أن الصحبة غدت وسيلة للاغراض وأن من يصاحب شخصا يريد أن يشمت فيه بمجرد أن تتاح له الفرصة :

ولات عند ناس اليوم الصحبا اسباب

اللى اتخالطو يبغى يشمت فيك

. . . .

غير تركن لو يغدر فيك

ما يخليك داير كابوس لغدر فيك يتسناك

وهو لهذا يرى ضرورة معاملة الناس بالمثل :

من لايخدع ويلاطف ويدارى لعدا ويرشى لخوان

ما يوجد حتى رايف فالرخفا والشدا ابخاوتو يستعان

ولكنه لا يلبث أن يعتدل فى نظرته فيرى أن الحياة لاتخلو من الحلاوة والمرارة ، فيقول فى قصيدة «الدار» :

يوم اشلوق ويوم احلو ويوم زقوم ⁂ ويوم مستعدل بين الطيب والزهاما

ويقول فى «طامو» :

معلوم كيف ما دامت رخفا مـا تدوم شـــدا

هذا امـــواجب احكـام اصروف الدهـــر

يـوم احـــلا مـــن طعـــم التمر

ويـــوم كمثــل الحنظـل مـــر

ثم ان فلسفته لم تكن دائما سلبية حيث نجده يقدم نصائح ايجابية فى أدب السلوك يدعو فيها من أراد السعادة أن يتحلى بخمس خصال ويتجنب خمسا أخرى ، ان يتحلى بالصمت والعزلة والمسالمة والقناعة وترك الملام ، وأن يتجنب الحسد والكبر والجفاء وضيق الخلق والطمع :

مـن احفظ خمسا دالحسنات حفظ محكـام

أفيه رسخوا كرسخ الوشم افلمعاصـــــــم

الصمت والعزلا والهدنا وترك لملام ⁂ ولقناعا من كاسبهم امن ابنـــادم

يعتدل ميمونو والسعد له يسقام ⁂ يرتفع بعد الخفض الهمة الضراغم

ومن اترك خمسادالسيات ترك عزام ⁂ من اجملت المحروم اللى اعليه حارم

لحسد والكبر ولجفا وضيق لشيام ⁂ والطمع بيت الدل امناصب لحشايم

كل سيا من ذا السيات ضر سمام ⁂ فاق سم الحيات الرقط السوادم

الثانية : ان العلمى كان ينظم فى الغزل ، ولكن الناس يذهبون الى أن هذا الغزل غير حسى لم يقصدبه الى المرأة ، ويحاولون بذلك تأويله كقولهم ان قصيدته «طامو بهيج الخدادا» لا يعنى فيها غير فاطمة الزهراء، وقد سبق أن لا حظنا (1) أن مثل هذه القصيدة لا يمكن أن يكون قالهافى بنت الرسول وفيها مثل هذه الابيات :

بتنا وبات الخمر يتزادا

---

(1) انظر فصل المرأة من الباب الثانى .

لا عدو لاواشي لا حراز احسيد

فبساط امحتفل مركادو

الكاس والشمع موقود

ليا ادراعها بات اوسادا

وريقها بات اشرابى انرشفو الذيذ

يشربو امن احلا توراد

غفران ربنا موجود

ونحن حين نذهب الى هذا الرأى لانريد أن ننفى عن العلمى صلاحه وولايته ، ولكنا نريد فقط أن نجعل فى حياته مرحلتين : الاولى مرحلة عادية كان فيها يعيش حياة انسانية ، يحب ويستمتع بحبه ما أمكنه ، وفيها نظم قصائده الغزلية والخمرية ، ولعل الشعر الذى ذكر ابن زيدان أنه أحرق باذنه كان صادرا عنه فى هذه المرحلة . والثانية مرحلة زهد وانقطاع عن الدنيا وابتعاد عن متعها ولذاتها ، وفيها نظم معظم توسلاته ومدائحه النبوية ومواعظه ووصاياه .

ولعل حادثاما لا نعلمه جعل الرجل يغير اتجاه حياته، وان كنا نستأنس بما ذكر لنا بعض الاشياخ من أنه حين نظم قصيدة «المحبوب» وحربتها :

كيف ايواسى اللى افرق محبوبو وبقى ابلا عقل فى لرسام افريد

كيف اجفانى احبيب قلبى ماخلا غير صورتو وانعوتو واخيالو

أمن لا عمرى انظرت زين البدر ابحالو

عارضها أحد معاصريه — لا نعرف اسمه — بقصيدة فى مدح الرسول عليه السلام قال فيها :

كيف ايواسى اللى عشق محبوبو وبقى ازيارتو لكن جاه ابعيد

وناكيف اعشقت سيدى العربى ما نهواغير صورتو وابها حسنو..

فكان لهذه المعارضة تأثيرها عليه ، آلى بعدها على نفسه الا ينظم فى غير الابتهالات والتوسلات والمواعظ ومديح النبى والاولياء .

الثالثة : انه كان يقابل احترام السلطان له ومحبته اياه بغير قليل من القصائد يقدمها فى مدحه ومساندة حكمه والوفاء للدولة العلوية . ومن

الامثلة على ذلك قصيدته التي يقول في حربتها :

غث لهمام ابريج النصر بالقهـــار * ونفذ ادعوتو فالطغاة ولجبايــــر

وفيها يدعو للسلطان بالنصر والتأييد وطول العمر حيث يقول فـي أول القسم الخامس :

ياجليل اكسه حلا ابهيتك نــور * وأيدو بالغلب وكرمو ابمـا ايسرو

وظفرو بالحكما وله سكم الشور * افكل بقعا بارك يا ربنا افعمـــرو

اجعل ادعوتو دعوة نوح النبي المبرور * اعلى اصحاب الطوفان بدعوتو انبترو

ويظهر وفاء العلمي لهذه الدولة وملوكها في قصيدته التي يقول في حربتها ناصحا بزيارة قبر سيدي محمد بن عبد الله جد المولى عبد الرحمن، وكان عاصره كذلك :

لذ ابجد لشراف لهمام السلطان * ابن عبد الله كوكب الغرب الجوان

وفي سويرحة القسم الاول منها يقول :

يمم للزاويا الشريفــــا * واعلى اصلاحهـــا اتطـــوف

والقبا الباهيا النظيفـــا * تبسط فـي بابها لكفـــوف

وامدح بسراك اللطيفـــا * مولاها لا غنـى ايـــروف

يا نجل السيد لعفيـــف * أمن قـولى امـن الخـوف —

الرابعة : أن كثيرا من الاشياخ الرواة يذهبون الى أن بعض القصائد التي تنسب للعلمي ليست له وانما هـي لبعض تلاميـــذه أمثال الطيب الواسترى (I) ومحمد بن هاشم العلوى (2) وعزوز اللمتونى (3) ، وهم من أشياخ مكناس.ويمثلون بذلك لقصيدتين يزعمان أنهما من نظم الواسترى

(I) كان من كتاب العلمي ، وقد اشتهر بسرابة ربيعية تعتبر أحسن سرابة نظمت في «الربيع» ، يقول في أولها :

فصل الربيع كمل والوقت ازيان * واعلامات الخير للورى بانو

وله كذلك قصيدة «المحبوب» التي يقول في حربتها :

أنا فعارك أسلطاني توفى ازيارتي * واتفكدني يا عنايتـــي يامن طاعوا لك بالقهرا لبنات

(2) اشتهر بقصيدة «أم كلثوم» التي يقول في حربتها :

الايمنى فهواى اشبهت الدامي دعني أو كف خلى أجوارحك اسليما واعذر يا لايم حال المغروم

(3) له قصيدة في مدح السلطان المولى عبد الرحمن ، يقول في حربتها :

صل اعطاك الله النصر ياعز الملوك * مـولاى عبـد الرحمـن

هما «الجافي» و «المزيان» .

أما الاولى فتقول حربتها :

رف ادابل لعيان

يا بو حجبين امعرقا وزينا

زر لعشيق يزاك امن التيهان ياغزيل بستاني

واما الثانية ، فتقول حربتها :

حن واشفق واعطف برضاك يالمزيان

لاسماحا ميعاد الله يالهاجر

وأخبرنا شيخ مكناس السيد بنعيسى الدراز أن بعض الشعراء كانوا حقيقة ينظمون وينسبون للعلمي ، ولكنه كان يقول في حقهم داعيا عليهم بالفقر والمرض والموت على غير ملة :

«اللي ايقولني شلا قلت الله إيرزقو القلا والعلا والموت من غير ملا» .

وذكر لنا الشيخ الدراز كذلك أن الطيب الواسترى حاول أن يضيف لاحدى قصائد العلمي الادريسية هذا العروبي :

ياناظر دا البيات بشعاع المقلات

اقراهم بالتبات تصطاب اكلامي

اتصيب من التقات في جيبك احلات

اتبين للدهات كالبدر السامي

مصيون عل لوشات بسيوف وحربات

مفهوم للدهات عراف انظامي

للحافظها احلات وللكاتب زهات

والسامعها ادوات

قالت افوهامي يوجب عني انقول رحمو العلمي

وعلم سيدي قدور بذلك فقال له في انكار: «واش انا شكارتي اخوات؟»

يقصد : هل خوى وفاضه حتى يحتاج لغيره يكمل له . وفي هذا مايرجح أن تكون القصيدتان المذكورتان للعلمي وليستا للواسترى كما يظن .

كذلك وجدنا بعض الاشياخ يخلطون بين قصائد العلمي وقصائد أحد معاصريه ، واسمه محمد بن الوليد التنسيطى الدرعى العلوى ، وهو من كبار الزجالين ، وقفنا على غير قليل من شعره ، ولكنا نستبعد هذا الخلط لان ابن الوليد يذكر اسمه في كل قصائده ، على عكس سيدى قدور .

الخامسة : ان العلمي لا يسمي نفسه في قصائده ، وهذه حقيقة؛ ولكنا عثرنا على قصيدتين يذكر فيهما اسمه ، الاولى قصيدة «الشافــي» التي حربتها :

الصلا والسلام اعلى النبــي المبرور ⁕ عد ما خلق الله اميات الف مرا

فانه يقول في آخرها :

والباحث عن اسميتى بعد السولان ⁕ عبد لقادر اعلام رب الفوقانــي

والثانية قصيدة «بسم الفتاح المعبود» وحربتها :

يارســول اللــه غثنــا يــا يمــام لرســال

خذ بيدى واعتق حالى امن النكايــــــل

فانه يقول في آخرها :

وارحم نساج لقصيد العلمي

محمد الحراق

ألف عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن العربي الرباطي (1) كتابا سماه «النور اللامع البراق في ترجمة محمد الحراق» وقفنا منه على نسخة

---

(1) الدلائي المجاطي المتوفى بالدار البيضاء يوم الجمعة 15 شوال 1285هـ (1868م) ، وكان هو أيضا من الزجالين ، وقفنا من قصائده ومقطوعاته على خمس ، كلها في الصلاة والذكر ، وفي أول احدى هذه المقطوعات يقــول مخاطبا شيخه الحراق :

مير لغرام أساقى هيج اشواقــي ⁕ ناديت يا حراقى يا بابـــــــا

هاذ لمدام الباقى يروى اذواقى ⁕ والوقت حين ايلاقى يا بابــــا

اذا شربت الراقى تزها اخلاقــي ⁕ فسبيل هل لذواق يا بابـــــا

مخطوطة بمكتبة تطوان العامة تقع فى سفر متوسط ، وهو عبارة عن مجموع يضم رسائل الحراق وتقاييده وقصائده وشروحه لبعض كلام العارفين ، جعله المؤلف على خمسة أبواب وخاتمة :

الاول : فى الرسائل .

الثاني : فى الحكم .

الثالث : فى التقاييد على آى قرآنية وأحاديث نبوية وكلام بعض أئمة الصوفية .

الرابع : فى قصائده وتواشيحه وأبياته ومقطعاته مرتبا ذلك بحرا بحـــرا .

الخامس : فى شروحه لبعض كلام العارفين وذلك كالصلاة المشيشية والحزب الكبير لابى الحسن الشاذلي وبعض كلام الششترى ونبذة من شرح الحكم العطائية .

الخاتمة : ذكر فيها بعض دعائه وقصائد مدحه بها بعض تلامذته .

ثم ان المؤلف صدر كتابه بمقدمة عرف فيها بالحراق قال فيها عنه أنه «العلامة القدوة الفهامة مصباح الظلام وحجة الاسلام شيخ الطريقة ولسان الحقيقة شريف النسبتين ومفتى المذهبين الشريف الحسنى القطب الربانى أبو عبد الله ... محمد بن محمد الحراق» (1) وأنه كان «اماما جليل القدر متضلعا فى علم الظاهر والباطن انتهت اليه فيه الرياسة مشاركا فى فنونه من تفسير وحديث وفقه وفتوى ومعقول بجميع فنونه. واما الادب والشعر كاد ان ينفرد به فى عصره قد شهد له بذلك كل من عاصره او خالطه أو وقف على كلامه (2) » .

وتحدث عن طريقته التى أخذها عن مولاى العربى الدرقاوى (3) فقال بأنه جعلها «بين شريعة وحقيقة حتى سهلها للسالك ونهجها فـــى

---

(1) ص : 1.

(2) ص : 2.

(3) أبو عبد الله محمد العربى الدرقاوى 1150 — 1239 هـ.

أوضح المسالك وأتى فيها بالعجب العجاب من علم الاشارة بألطف بيان واوجز عبارة وكشف غوامض من اشارات القوم وحل رموز ما ليس بمعلوم وأسس طريقته على أربع قواعد : ذكر ومذاكرة وعلم ومحبة (1) » وقد أخذ هـــذه الطريقة عن الحراق «خلق كثير لا يعد كثرة من طلبة العلم وأعيان الناس وأهل الاعتناء بدينهم من حاضرة فاس ونواحيها كصفرو والبهاليل وجبل كندر وقبائل الغرب وأهل الجبال والمداشر من نواحى تطوان وجم غفير من أهل تطوان . واما شفشاون فكاد أهلها كلهم ان يدخلوا فى طريقته ،وانتشر مدده الى ان بلغ الى الرباط مع أنه لم يصلها بنفسه (2) » . واستمر يدعو الى طريقته «الى أن توفى ... يوم واحد وعشرين من شعبان سنة احـــدى وستين ومائتين وألف ، فتحصل إن مدة عمره ثلاث وسبعون سنة .. وفى رواية عن بعض ملازميه ان عمره خمس وسبعون سنة (3) .

وللحراق ديوان صغير (4) متداول يضم سبعة أزجال وعددا مـــن الموشحات والقصائد المعربة ، وهى فى أغلبها مقطوعات قصيرة فى حـــب الرسول عليه السلام والتغزل فى حضرته والسكر من خمرته ، أنشأها لاشك لتنشد فى مجالس الذكر وحلقاته ، على حد قوله فى ذكر الحبيب وان حبه يشفى من داء الاوهام ويضىء الوجود ويجلى ظلمة الحب :

الحب احقيق للقلب ادوا * يشفيه امن اسقامو اوهامـــو

به لوجود كلو يضـــوا * من غسق لهوا وظلامـــو

وعلى حد قوله كذلك وقد تم له الوصال مع حبيبه وأشرق نور بهائه فنسى كل شىء :

---

(1) المصدر السابق .

(2) ص 10 وتجدر الاشارة الى أنه توجد بالرباط زاوية يطلق عليها«الزاوية الحراقية» يجتمع فيها فقراء هذه الطائفة وهم فرقة من درقاوة .

(3) ص 12 ونشير الى أن السيد التهامى الوزانى ذكر الحراق فى اماكن متفرقة من كتابه «الزاوية» (مطبعة الريف تطوان 1942 ضمـــن منشورات مكتب النشر) .

(4) توجد منه طبعتان : احداهما على الحجر بفاس ، والثانية من نشر وتوزيع مكتبة المعارف بمكناس .

جـــاد اعليـا بـرضـــاه

لحبيب الـــلى حبيتـــو * زارنى وانعم لى ابلوصال

حين اشرق نـــور ابهاه

كل شى بالقهر انسيتو * يـــا هلى عقـــلى اذا شفتــوه زال

مـــا بيـــا غـير اهـــواه

ومن قوله فى الخمر الصوفية :

اغنـــم كـــاس الـــراح * هـاحـبـيـبـــك زار

اســـــق او دور * انـــف الـشـــرور

طـــول الدهـــور

صـــــل الـــشراب * فـــالنكـــد غـــاب

والخمر صـاب

رشــــف لـكـــواب * امـــع لـحـبـــاب

عيـن الصواب

فـــازهـــا فيـــامــــك * لـــو اتعيش انهـــــار

نظرا فالحبيب تمحى كل اجرايم * والرحمن اكريم يالى نرجـــــاه

اذا مارضى مـــاتنفـــع اعزايـــم * لوبعمال الخير كلها تلقــــــاه

أما موشحاته فمنها هاته التى يقول فى أولها :

زال عن قلبى توله الفنا * وصفـــا أمـــرى

اذ غدا لى كل ربع وطنا * وانتفـى نكـرى

كل ماء قد حوته شربتى * فـأنـــا ريـــان

لست يوما أحتسى مـــن خمرتـــى * وأنا نشـــــوان

من رآنى ثابتا فى حيرتـــــى * ظننـــى وسنـــان

وأما قصائده المعربة فأشهرها وأطولها تائيته التى يستهلها بهذه الابيات:

أتطلب ليلى وهى فيك تجلـــت * وتحسبها غيرا وغيرك ليســـت

فذابله فى ملة الحب ظاهـــــر * فكن فطنا فالغير عين القطيعـــة

ألم ترها القت عليك جمالهـــــا * ولو لم تقم بالذات منك اضمحلت

تقول لها ادن وهـــي كلك ثم ان ❊ حبتك بوصل او همتك تدلـــت
عزيز لقاها لا ينال وصالهـــــا ❊ سوى من يرى معنى بغير هويـة

التـهـامـى المـدغـرى المسـعـودى

أصله من امدغرة بتافيلالت كما هو واضح من اسمه ، ولكنه نشأ وعاش في مدينتي فاس ومراكش . وكان صديقا للامير سيدى محمد بـن عبـــد الرحمان وملازما له أيام الدراسة ثم حين ولاه أبوه الخلافة ، ولكنه لـــم يدرك عهد سلطنته لانه توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف قبل أن يتولى رفيقه الامير الملك بأربع سنوات (I) .

وقد بلغت الصحبة بين التهامي المدغرى وسيدى محمد بن عبد الرحمن حدا من العلاقة جعل المولى عبد الرحمن يضيق بها ويخشى منها عليـــه أن تفت في تربيته وسلوكه فلا يقدر على تحمل أعباء الملك بعده . ويحكى أنه سأل مرة أحد وزرائه ان كان ابنه مجدا في دراسته فأجاب بأنه «بين الشقى والعاصى وملذ المعاصى» يقصد بالشقى مولاى السعيد وبالعاصى أخاه مولاى المطيع وبملذ المعاصى صديقه التهامي المدغرى ؛ ويروى تكملة لهذه الحكاية أن المدغرى علم بها فاغتنم مرة كان في حضرة السلطان وحـــاول بلباقة أن يجعله يثير الموضوع ليرد عليه ويصحح ما وصفه به الوزير فقال : «بل أنا ملذ المعانى يا مولاى» .

وتتجلى هذه العلاقة واضحة في غير قليل من القصائد قالها المدغـرى في صديقه الامير ، منها قصيدة «غزيل» التى يقول في حربتها :

دام الله اجمال صورتك ياشادى ❊ انت اعنايتى وامـــــــــرادى
اغزيل يا سالب من جا ايصيدو ❊ زنجار في عين حاسدى سيدى محمد

(I) في «اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» لابن زيـــدان (ج 3 ص 575) أنه توفى بفاس ضحوة يوم الاحد 2I محرم I273 ؛ وقد ذكر لنا الاستاذ عبد السلام بن سودة أنه سجل في وفياته المسماة «اتحاف المطالع» أن المدغرى توفى سنة I27I .

ولم يكن المدغرى ينظم فى الزجل فقط ، وانما كان ينظم فى الشعر المعرب كذلك . قال عنه المشرفى فى «الحسام» مبرزا مكانته عند الامير ومدى ذيوع شعره : «هو الشاعر المفلق الحائز لفصاحة المغرب والمشرق ، ملحونه من الهموم يبرى ، وموزونه على أبحر الخليل يجرى هو والله واسطة عقد الدهر فى صناعة الشعر الملحون والموزون ، كان بهما يسلى قلب المحزون ، شاعر تاج الدولة العلوية المنسوب اليه والمشهور به لانه الذى جذب بضبعه ورفع من قدره وألقى عليه شعاع سعادته حتى سار شعره فيه سير الشمس والقمر وطار كلامه بالملحون فى البدو والحضر وكادت الليالى تنشده والايام تحفظه «1» .

ثم ذكر له من شعره المعرب قصيدتين طويلتين (2) فى صديقه الامير :

الاولى قالها حين ختم جامع البخارى ، مطلعها :

حديثى غريب عن تواتر لوعتى * وأمرى عجيب عن غرامى بميتتى

روته عدول عن تلاق وسجلت * سجولا بأخدود الخدود وأدت

وأثبت قاضى الوجد رقى بجيرتى * وقد كان رقى ما نويت بهجرتى

وفيها يقول متحدثا عن البخارى :

تراجمه كأنما النخل أينعت * قلائدها ثم ازدهت وتدلت

وأحكامه الوقادة التبر أحكمت * يداها لعمرى منتقى كل حكمة

الا فاضربوا أكبادكم لصحيحه * وجدوا كما جدت مطى الاعنة

والثانية أنشأها بمناسبة ختمه كتاب اقليدس (3) سنة 1271 ، يقول فى أولها متحدثا عن الهندسة :

برزت على قدر لنا أشكالها * من خدرها فى طيها أشكالها

---

(1) ص 380 — 381 (المصورة 1207)

(2) الاولى واردة فى ص 381 — 382 — 383 (المصورة) والثانية فى ص 271 272 — 273 من المخطوطة ك 2276

(3) وهى واردة كذلك فى «اتحاف أعلام الناس» (ج 3 ص 575 — 576)

وحكت مقالتها المقادر بعدمـــا * صحت نتائجها وصح مقالهـــا

أشكالها تحكى قباب محلـــة * تحت الخليفة خيلها ورجالهـــا

أوخلتها شجرا صغيرا مثمـــرا * فاجن الثمار ولو أبت عدالهـــا

أو خلتها خيلا بدت عربيـــة * بربـاطها قبل العدا أبطالهـــا

ما شئت من قوس رنت أوتارهـا * ترمي البغاة سهامها ونصالهـــا

رنت وأنت فـــي فنا أفكارهـــا * وحمت مناشرها الحما ونضالهـــا

الى أن يـــقـــول :

فانظر لهندسة تلاشي حصنهـــا * لولا الخليفة ما بدت أضلالهـــا

لولا الخليفة بثها في غربنـــا * غربت ضعيفة شمسها وخيالهـــا

وعلى هذا النحو يستمر في ابراز ولع الخليفة بالهندسة واحيائه لها ولعل شهرة المدغري في الزجل طغت حتى غطت على ما سواه ، وهي شهرة لم يدركها غيره حيث كان يعتبر شاعر المرأة والخمر الاول ، ليس في هذه الفترة فحسب وانما في كل فترات الزجل ، ويعتبر بالتالي أكثر الشعراء قبولا لدى الجماهير ، وهي ظاهرة جعلت كثيرا من قصائده يصل الينا سواء عن طريق الرواية أو التدوين ، على أنه من المؤكد أن بعض شعره قد ضاع أو اختلط مع شعر غيره لانه لم يكن يذكر اسمه في قصائده . وقد سبق أن رأينا (I) في سبب ذلك أن صديقه الامير كان ينظم الزجل كذلك وكـان لا يريد أن يعرف ذلك عنه ، ولعله كان يخشى من والـده ، فاتفقـا على ان ينظما القصائد دون ذكر الاسم على غير عادة الزجالين حتى تنسب كلهـا للمدغري ، وهذا ما يجعلنا في ريب من أمر غير قليل من شعره ، فليس من شك في أن بعضه من انتاج سيدي محمد بن عبد الرحمن ؛ فقد ورد أنه «برع في نظم الازجال وفاق ، يأتي بالتخييلات العجيبة والتشبيهات البديعة والنوادر» (2) وقد تنبه بعض الاشياخ لذلك وحاولوا تحديد بعض هـــذا

(I) انظر الجزء الثاني من الفصل الثالث من باب «الشكل» .

(2) الاتحاف ج 3 ص 368

الانتاج ، فذكروا منه قصيدة «عزبا وشابا» (1) فانهم لا يرونها للمدغري — وان نسبت اليه — ويقولون ان سيدي محمد بن عبد الرحمن نظمها على اثر زيارته لاضرحة فاس عشية يوم جمعة وكان قد شاهد في طريقه بزقاق الحجر فتاتين تطلان من شباك . وهذه القصيدة تقول حربتها :

أنا عشيت الجمعا شاب أشبابي * هلكتنـــي عزبـــا وشابـــا

مـن شاهدهـم يسخـا بشبابـــو

ومثلها قصيدة «الـزهـو» التي يكاد يجمع الحفاظ على أنها لسيدي محمد وليست للسي التهامي ،وهي التي أولها :

الزهـــو فـــي طبـــلا حســـن * لبـــرارد زوج وكـيســـــان

لـونـهـــم يـهـــوانـــــي * احكيتهـــم حـرجـت بلعمـــان

ولسنا في حاجة الى الكشف في هذا الفصل عن شعر المدغري ، فقد بسطنا عنهالقول في باب الموضوعات ولا سيما ما يتصل منها بالمرأة والخمر، ولكنا — اتماما لذلك — نضيف بعض الجوانب عساها تكمل التعرف اليه .

أولا : كان المدغري ولوعا بقافية الحاء الى درجة لقب بـ «حياح الحا» ويحكى أنه سئل عن ذلك فأجاب بأن هذا الحرف يجسم كل أحوال الانسان وأنه . قاسم مشترك بين المتعة والالم لان الانسان اذا ارتاح أو التذ قال : «أح» واذا تألم أو تعذب قال «أح» كذلك ؛ والامثلة على ذلك أكثر مـن أن تعرض ، فجل قصائده على هذه القافية ؛ ونكتفي بالاشارة الى قصيدتين : الاولى «فارحا» ، وفي حربتها يـقـــول :

دسني تحت لخـلال بيـن ادروعـك لمــلاح

واللبـــا والـــدواح وانهـداتـــك تفاحـــا

خفت ايشوفوني ايجرحوني يا فارحا

الثانية «رابحة» وفي حربتها يقول :

---

(1) وتسمى كذلك : «عشية الجمعة» .

زيـن الـدواح عطفـي يالغـزال رأيحـا

يا عيـن الدامـى السارح أطـاوس فادواح

يا بدر اضوا ابكوكب اوضيح

وقد دفعه ولعه بهذا الحرف الى أن يتخذ منه قوافى داخلية ، كما هو واضح فى الحربتين ، بل ان هذا الولع جعله يقع فى عيب من عيـوب القافية (I) ، وهو ألا يكون حرفها موحيا بالموضوع ، ويتبين لنا ذلك مـن قصيدته «زينب» التى يقول فى حربتها :

زينـب كـنزى واربـاحـى ✻ زينـب للقلـب اصلاحـى

زينب زهـوى وافـراحـى ✻ زينـب للسعـد افـراحـى

فقد كان لازما ، حتى تسلم القافية من هذا العيب ، أن تكون على حرف الباء ، ولكنه أتى بها حائية . ومثلها كذلك قصيدة «طامو» التى يقول فـى حربتهـا :

نصرو رايت لكفاح بو وجنات الوضـاحـا

والشاما والخـال والشفر والغنـج الدبـاح

طامـو يـا قـوت الـروح

فهى على حرف الحاء ، وكان يجب أن تكون على قافية الميم .

ثانيا : سبق (2) المدغرى الى «النشب» (3) وهو استهلال البيـت بكلمة أو شطر من البيت السابق عليه ، ويتمثل فى قصيدته «فارحا» على حد ما يقول فى القسم الثانى منها :

رفـدى يـاللا الطايـح ✻ بهـواك اعيـا ابقـولـت أح

مـا بيـن الهيـض والنـواح ✻ سرو بيـن لحسـود بايـح

كـدامـك يـالمـالحـا

سرو بين لحسود بايـح ✻ يا كنز الكنـز والربـاح

(I) انظر الجزء الخاص بالقافية من آخر فصل فى الباب الاول (قوافـى صيـاديـة)

(2) على ما نعلـم .

(3) انظر الجزء الثانى من فصل «اللغة والفنية» بالباب الاول .

ياروح الروح والنجـــــاح * يا دامى فالفجوج سايـــح

بيــن ازهـــارو اللامـــحـــا

يـــا دامـــى فالفجوج سايـــح * كمـــن مغـــروم بـــك ســـاح

حس الخلخال به صـــاح * صاح الخلخـــال والـــدواوح

فـــى تحيـــاح لمكـــابحـــا

صـــاح الخلخـــال والـــدواوح * مـــن حسو مـــا يـــلى انجـــاح

مـــا ريت الغـــاه فاكبـــاح * فالليـــل ايهيـــج اللوافـــح

وســـط المهجـــا الـلافـــحـــا

فالليـــل ايهيـــج اللوافـــح * ما يقبل فالهوى الحـــــــاح

رحمـــى يـــا رايس لمـــــلاح * رحمـــة اللـــه الـــذى ايصافـــح

ويـــدارى بـــالمصـــافـــحـــا

ثـــالـثـــا : كان المدغرى بارعا فى نظم السرارب ، ويحفظ الاشياخ منها سرابة يعتبرونها من أروع ما نظم فى هذا الفن ، يقول فى أولها :

أنا اللى ابلغرام قلبى مجـــروح * ولهوا منو فانى ما جبرت راحـــا

آش اعمالى انبات مجروح انـــوح * طول داجى وادموع انواجلى سياحا

من فكد اللى اهويت نعت الدبدوح * ياترى تعطف لى واتجود بالسماحا

رابـعـــا : يظن الكثيرون أن المدغرى لا ينظـــم الا فـــى الغـــزل والخمريات ، ولكنا وقفنا على بعض قصائده فـــى غـــير هذين الموضوعيـــن ، نذكر منهـــــا :

1 ــ قصيدة «ربيع النبوى» نظمها فى ذكرى مولد النبى عليه السلام ، يقول فى حربتهـــا :

لله الحمد جاد من هو فتاح * فاتـــح اليبان ابمفتاحــــــو

مفتاح الخير والرضا والرحما الفتاحا

2 ــ قصيدة فى مدح «العرصة الشريفة» يقول فى حربتها :

ابهـــاك اشهـــد لجباحـــك * صفى امصفيا واصفيا من برهمن

شهـــدا مـــن طيب امصالـــك * شهدا امصفيا من نسبا قرشيـــا

3 ــ قصيدة فى مدح الاشراف ، يقول فى حربتها :

غارا مولاى ادريس بن ادريس أمفتاح الغرب والشريف الفيلالى

سيدى مولاى على الشريف الينبوع خصال

وقد استطاع المدغرى بهذا وغيره أن يشغل عصره ويغطى على كثير من **الاشياخ الذين عاصروه** ، نذكر منهم :

1 ـ ابن ابراهيم : وهو من مراكش ، وقد اشتهر بقصيدة «مباركة» التى يقال انه رمز بها لمكة المكرمة ، وفى حربتها يقول :

حرمت نعم لغنى المالك * ديرى ياللا امعاك

شرع المولى ايلا اهداك

نستحسن فى ابها اجمالك * أمولاتى امباركا

2 ـ الفقيه ابن الفاطمى المراكشى : ذكر لنا الشيخ محمد بن عمر المراكشى أنه كان صاحب كتاب قرآنى بحى ازبزط بمراكش . وقفنا من زجله على قصيدتى «الرياض» و «الجافى» .

3 ـ المرجراجى : وقفنا على غير قليل من قصائده .

4 ـ الحاج عبد الفضيل المرنيسى المكناسى : وقفنا له على قصائد «جمهور الخودات» و «المحبوب» و «الفصادة» ، وكان تلميذا للنجار على حد ما يصرح به فى القصيدة الاولى حيث يقول :

واسمى معروف الحاج عبد الفضيل المرنيسى الا اخفات اخبارو

الذكى تلميذ النجار

5 ـ علال الكحيلى المراكشى : يقال انه كان شيخ الاشياخ فى مراكش، له قصيدة «زهور»

6 ـ محمد الحبابى الفيلالى : اشتهر بقصيدتى «مباركة» و «خناثة» .

7 ـ محمد الشاوى : من أشياخ فاس ، وقفنا من قصائده على «الحراز» و «صارم الطعن» و «عيشا» و «الوصاية» وقصيدة خامسة فى الهجاء .

8 ـ الطاهر فعيس : لعله من مراكش ، لم نقف من شعره على شىء.

9 ـ الجيار : ولعله من مدينة الرباط .

10 ـ الفقيه القريعى .

11 ـ أحمد امريفق المراكشي : ذكره الادريسي فى «كشف الغطا» فقال انه كان شيخ الاشياخ (1) له «زينب» و «راضية» و «وآمنة» . ذكر لنا بعض الحفاظ أنه كان من العلماء وأن له قصيدة «الخادم والحرة» وقصيدة «بستان الفكر» يقول فى حربتها :

ديىر الوجهك امرايا شف صنعت الله

12 ـ أحمد ابجيوات : وقفنا من زجله على قصيدتين : «عرصة الرضا» و «فاطمة» .

13 ـ أحمد بن علي الغنيمي : ترجم له محمد الكانونى فى «جواهر الكمال فى تراجم الرجال» ـ وهو القسم الثانى من «تاريخ أسفى وما اليه ـ » فذكر أنه «كان أستاذا حافظا للقراءات السبع عارفا بأحكامها معروف الصلاح مشهور الاحوال من رجال الفضل والدين والسماحة ، له قصائد ملحونة (أزجال) منها ما هو فى المدح النبوى ، ومنها ما هو فى أحوال الزمان الحاضرة والمستقبلة ... توفى حوالى سنة 1290 ودفن بمقبرة أسلافه» (2)

أحمد الكندوز

من كبار أشياخ الزجل ، وهو من الرباط ولكنه انتقل الى فاس حيث أقام مدة طويلة . كان يعيش فى عهد السلطان مولاى عبد الرحمن وابنه سيدى محمد أى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ويثبت لنا ذلك أن له قصيدة يرثى بها مولاى عبد الرحمن ، وهى التى يقول فى حربتها:

الله ايعظم اجرنا واجركم يالاسلام فالشريف العلوى

ينبوع الحلم وعلم نعم مولاى عبد الرحمن

وقد امتدت به الحياة حتى أوائل القرن الرابع عشر حيث عاصر الغرابلى والتركمانى على حد ما يثبت هجاء هذا الاخير لهما فى أواخر قصيدته «الداعى» حيث يقول :

والشيخ الكندوز اخرج فعراضى نحسبو اعقيل واودب ذوقى صارمو اصقير

واحمد لغرابلى افشر لين منو سمعت لعراض او قالوا

وقد شرح لنا الشيخ محمد بن عمر سر هذا الهجاء فذهب الى أن

(1) ص 113

(2) ص 25 ـ 26 (المطبعة العربية ـ الدار البيضاء) .

الغرابلي حين خاطب التركماني بقصيدته التى حربتها :

يالداعى بالعرف اصغ الهل العلم افما قالـــوا

الشهادا من غير اعمال ليس تكفى مولاهـــا

لم يصرح باسمه فيها أول الامر وشيع أنها للكندوز ، ولكن التركمانى عرف أنها للغرابلي فجمعهما فى الهجاء . ولـــم يضف الغرابلى اسمــــه الى القصيدة الا بعد أن كشف الامر . وقد علل الشيخ ابن عمر محاولة التستر هذه باحساس الغرابلى بالضعف والخوف من الشيخ المدنى .

ويحكى الاشياخ أنه قيل مرة للكندوز : «انك تنكر فضل ابن على ، ولو كان حيا لما جرؤت على ذلك» فقال ينصفه :

قالوا تنجحد ابن على وشهدو بعقود الزور

ونا لو جبرت الزاد كل يوم انجدد لمزارو

واجب لو يزار .

وربما كان فى هذا ما يدل على أنه أدرك ابن على العمرانى وتلمذ عليه. وقد اشتهر الكندوز فى فنين :

أولـهـمـا : التضمين والتجنيس .

فقد كـان أبرع الشعراء فى استخدامهما حتـى قيل عنه أنـه «رايس التضمين والتجنيس» . أما التضمين ـ وهو جعل القافية على أكثر مـــن حرف ـ فيظهر فى قصيدته «غاسق لنجال»وهذه حربتها :

أيا غاسق لنجال عذبتنى بالتيه يا شملالى

زر رسمى يا مول الخال كم لى نرجا لوصال

يقول فى أول القسم الثانى منها :

احكم ابتيهانك يالخليل

لكن بعد التيهان جد واعطف

قلبى امعاك نخطف

نبغى ابهاك نقطف

نقطف من الورد الناسم

وانقبل الجبين الواسم

وانقول يا رفيع الاسم

لنا اسمايتك احجاب

ويظهر كذلك فى قصيدته «البتول» التى حربتها :

كبل يا رقاص للمرضا واحتال * لوصـــول بـوشفـر قتـــــال

لــــــمرواح تـــــــال * حســن ابهاهــا لالا البتـــول

وأما التجنيس فيتبين من قوله فى القسم الاول من «غاسق لنجال» :

بجفاك عمدا لى عدت انحيل

ما شفك تعذابى اولا امحانى

سيف لجفا امحانى

لعباد لامحانى

فامحانى الاولى جمع محنة والثانية من المحو والثالثة من اللمح (I) .

الـثـانـــى : ذكر احمادشة .

وهى قصائد نظمها لينشدها «حمادشة» فى حلقات ذكرهم ، ويطلق عليها «الدراع» ويحكى الاشياخ فى تعليل هذه التسمية أن الكندوز لم يكن يعتقد فى الطائفة الحمدوشية أو غيرها من الطوائف الطرقية ، ولكن كان له ولد ينتمى لهذه الطائفة ورآه يوما يمر فى استعراض الطوائف فى حالة حماس وجذب فأخرجه من الصف وحاول منعه من الاستمرار فى هـــــذا الاستعراض ، ولكن الولد استطاع أن يفلت من أبيه ويعود الى ماكان فيه . أما أبوه فأصيب للحين فى ذراعه التى ظلت مريضة منتفخة نتنة من القيح الى درجة أنه اضطر ــ لشدة الرائحة الكريهة التى كانت تصدر منها ـ الى ان يعتزل الناس فى غرفة عالية . وذات ليلة صعد اليه فى الغرفة مؤذن جامع الحى ــ وكان حمدوشيا ــ وضربه على ذراعه فكان فى هذه الضربة شفاءه ؛ ومنذ ذلك الحين تراجع عن رأيه بالنسبة لهذه الطائفة وبدأ ينظم القصائـد للحمدوشيين . والاسف انا لم نوفق فى الوقوف على نماذج من هذه القصائد.

محـمـد المـوقـت

من أشياخ مراكش ، ولعله والد المؤرخ ابن الموقت صاحب «السعادة

(I) انظر الجزء الاخير من الفصل الثانى من باب «الشكل» .

الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية» . ويبدو أنه كان معاصرا للعميرى حيث وجدنا فى الكناش الذي وردت فيه زازيته المعروفة بـ «الساهى» تعليقا على هامش الحربة كتب فيه : «على قصيدة الموقت» (I) كأنها قيلت فى معارضتها أو الرد عليها . أما الحربة فيقول فيها العميرى :

اشروط عل لنقلاب بشرا امقلزا ⁕ أوجوه اصلاب ولقلوب افتكرين وجيا انزا
والمسكين بين لشواق كيتحزا

وقد اشتهر الموقت بجفرياته، وخاصة قصيدته «الزازية» التى يقول فى حربتها :

أسايلنى انفيدك ابكافر باريز ⁕ استفد أكن عايق واتبع الغرزا

وله كذلك من الجفريات عروبى مشهور تحدث فيه عن الواقع المؤلم الذى أصبحت عليه الاحوال ، يقول فى أوله :

سبحان اللـه صيفنا ولى شتوا ⁕ وارجع فصل الربيع فالبلدان اخريف

مولاى على بن أحمد شقور الحسنى العلمى

ذكر لنا السيد هاشم السفيانى الشاونى أنه ولد بالشاون «شفشاون» سنة ثمانية وعشرين ومائتين وألف وانه توفى بها سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف حيث دفن بزاوية تعرف باسمه لازال أتباعه يقيمون بها حلقات ذكر كل يوم جمعه . وذكر لنا كذلك أنه كان نساجا ويمارس الفلاحة والبيطرة فى نفس الوقت وأنه كان ولوعا بالطرب يعزف على آلة الكمبرى . وحين زار السلطان مولاى الحسن الاول مدينة الشاون سنة سبع وثلاثمائة وألف أعجب بالشيخ شقور فاستضافه مع عشرة من رفاقه المطربين مدة تسعة أيام فى قصره بفاس ، وأهداه وصيفا وكسوة وبغلا وخمسمائة ريال وأخرج له مردود «قاعة» (2) الشاون ، كما أهدى كسوة لكل من رفاقه . وكان الشيخ شقور يطعم من هذا المردود فقراء المدينة كل سبت حيث يقدم لهم الخبز «والبيصارة»(3) بالزيت .

(I) انظر الكناش المخطوط بخزانة الرباط العامة رقم : 165 قصفحة509

(2) السوق الخاصة ببيع السمن والعسل والزيت .

(3) شربة الفول ، وينطقها أهل الشمال بفتح الباء.

ويعتبر مولاى على شقور من كبار أشياخ الزجل فى الشاون ، وقد ترك وردا لاتباعه وديوانا صغيرا يضم أربع عشرة قصيدة ومقطوعة معظمها فى الذكر والشوق لحضرة الرسول عليه السلام والسكر من خمرته . وقد تفضل السيد السفيانى فانتسخه لنا عن مخطوطة لديه . ومازال أتباعه فى الزاوية ينشدون هذه القصائد ويذكرون بذلك الورد .

يقول فى احدى مقطوعاته :

بسم لكريم نظرا فيكم	*	وهو الحاكم فيكم
سبحان امن اتجلى فيكم	*	كريم الا اينوم
لا تصحب من لا ايدوم	*	لابدا ايغر بك النوم
يا وافى كل مظنون	*	يا معاهد لفنون
ما بين الكاف والنون	*	اذا يقول كن ايكون
لا الاه الا الله	*	لا الاه الا الله
والله بالله يا لله	*	ما يكون غير ماكون الله

ويحفظ أشياخ الشاون قصيدة فى مدح مولاى على شقور من نظم محمد العملى ولد زيطانة ، يقول منها فى نفس جفرى :

مولاى احمد اعلا امقامو	*	اهدى اهديا امن امكانو
امحابق من اشغلنا	*	موكا ولات ابلقفاطن
هل الضلعا اتغبنو	*	فالصولا ارجعنا اللحراطن

كذلك يحفظون فى مدحه قصيدة معربة لعبد الهادى الصقلى ، يقول فيها :

وتحية أنسية قدسية	*	تهدى مع الرضوان فى المنشور
لفريد هذا العصر قطب زمانه	*	ووحيده بالمنصب المشهور
بحر المعارف والعوالم شمسها	*	من أشرقت أسراره كالنور
ذاك الولى الواصل الفرد الذى	*	حاز العلا مولى على شقور

شاعرتان من شفشاون

أخبرنا عنهما صديقنا الدكتور عبد السلام الهراس :

الاولى : الشاعرة التوردانية

وهى ابنة الفقيه التوردانى (1) الشفشاونى ، كانت تعيش أيام سيدى محمد بن عبد الرحمن وعمرت حتى أدركت عهد الحسن الاول ، وكانت تنظم الشعر ملحونا ومعربا ، وكانت متزوجة بالسيد أحمد بوجنة . ومن أبياتها فى مدح امرأة ريسونية اسمها العزيزة بنت أحمد ، وكانت جميلة وغنية :

للا لعزيزا يابنت احمد ⁂ يابنت الجاه العالى

الثانية : الشاعرة الورديغية

من اسرة الورديغى ، ومما يحفظ لها قصيدة فى مدح سيدى محمد بن الحسن الريسونى المتوفى سنة 1131 هـ تقول فيها :

القطب لهمام ⁂ شافتو عينى افلمنام

لابس لحرير ⁂ دايرتو خضرا

أحمد بن على الدكالى السلاوى

ترجمه والدنا حفظه الله فى الجزء الاول من كتابه : «أعلام الفكر المغربى المعاصر فى العدوتين : الرباط وسلا» فقال انه : «كان ذا زهد وورع وتعفف مع أدب وفكاهة، يحسن علم التوحيد ويتقن التلاوة ، وله معرفة بالملحون على اصطلاح أهله .. وهو جد المؤرخ الكبير أبى عبد الله محمد بن على الدكالى .. أخذ عن جماعة كالعلامة العربى أحضرى والعالم أبى عبد الله ، وكان أديبا متقنا ، توفى عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف» (2) .

وأخبرنا الشيخ بنعيسى الدراز أن ابن على كان من كبار زجالى عصره وأنه كان من جلساء السلطان الحسن الاول وأنه اشتهر بقصيدته «زينت الغبا» التى يقول فى حربتها :

يا زينت الغبا حزت من لغزال الركبا

يا توكت الركابا نسل لقراهب

زينك ورانا اعجايب واستولى ابلحكام عل لقلوب .

---

(1) اندثرت هذه العائلة من شفشاون . (2) مخطوط المؤلف ، ص 51 .

الحاج ادريس بن على السنانى لحنش

أكبر شعراء الزجل بعد التهامى المدغرى ، كان ينظم فى كل الموضوعات فيجيد على ما يبدو من النماذج المتعددة التى مثلنا بها من قصائده فى «باب الموضوعات» ؛ وأغلب شعره محفوظ . وهو من العلماء المؤلفين ، له رسالة بعنوان «المقامة المغنية عن المدامة المسماة بروضة المنادمة والايناس فى لطف محاسن وادى فاس (1) ، وله كذلك ديوان من الشعر المعرب أسمـــــاه «الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح (2)» نقتطف منه قوله فى مدح آل البيت: (3)

بربك هل تحت ظل السمـــــاء * أناس كأنجمها فى السنـــــــاء
وأبهى من الشمس وقت الضحى * ومن دارة البدر حال الضيـــــاء
سوى آل فاطمة اذ لهـــــــم * لباب المعـــالى وكنـــه العـــلاء
فمن مثلهم فى الورى «منصبـــا» * أما قدرهم والسما ذو استـــواء
وان شئت قل قدرهم فوقهـــا * تكن قد أصبت مرامى السمـــاء

---

(1) تقع فى ثمانى صفحات مطبوعة على الحجر بفاس .

(2) فرغ من جمعه سنة 1316 هـ ، عدد صفحاته ثمانية عشرة وأربعمائة تضم احدى عشرة وثلاثمائة مقطوعة وقصيدة مرتبة على حروف المعجم . توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقمها ك 1678 ، وهى بخط ابنه محمد المرضى السنانى ، انتهى من نسخها سنة 1327 . كذلك أورد له ابنه المذكور مقتطفات من شعره فى كتابه «الشذرات» المسمى «التقاط الفوائد وغرر العوائد» وهو مطبوع فى جزءين بمطبعة بوشنتوف فى الدار البيضاء (ص 28 من الجزء الاول وص 39 — 143 — 156 — 163 — 164 من الجزء الثانى) وقد وردت له أيضا قصيدة تقريظية بآخر كتاب «الابتهاج بنور السراج» وهو شرح للسيد أحمد بن المأمون البلغيثى على منظومة سيدى العربى بن عبد الله المسارى (ص 228 — مطبعة محمد أفندى مصطفى بمصر سنة 1319 هـ) والقصيدة موجودة بالديوان كذلك من ص 225 الى 229 وهذا أولها :

شرحت سعاد صدورنا بمزار * فبدت محاسنها بلا أستـــــار

(3) ص : (10) .

وقوله متوسلا الى الله (1) :

يارب عاملنا بعطف شامـــل * بصباحه ليـل المكـاره يدمـغ
يا رب ألبسنا لباس سلامـة * من حفظك الكافى علينا يسبغ
يا رب هب أمنا لنا ووقايـة * ننجو بها وحمى أمانك تبلـغ
انا تشفعنا بأعظم شافـع * قد فاز وجه فـى حماه يمـرغ

وقوله متغزلا (2) :

يا رب سائلة الاطراف غانيـة * مليحة من ذوات المجد والحسـب
غزالة قد غزا الاكباد ناظرهـا * بصارم سل قصد الفتك والعطـب
تختال كالرمح أو كالغصن قامتها * تلفعت بلباس الحسـن والادب
. . . .
جاءت تميل بكاس الراح قائلـة * أجب لكأسك يا ادريس واقترب
فأطربت بلذيذ اللفظ واحتجبت * فغاب عقلى لـما قـد نلت مـن طرب

حكى لنا بعض الاشياخ انه كانت للحاج ادريس مساجلة مع شيخ سلا عبد الرحمن بن حمدوش أثناء زيارته لفاس حيث استضافه جماعة مـن الاشياخ كان من بينهم الحاج ادريس ، وهو الذى «قام» (3) الاتاى ، ولكنه حين وزع الكؤوس مد للضيف كأس «التشليلـة» (4) فسكت ابـن حمدوش ووضع الكأس بجانبه ونظم قصيدته التى حربتها :

مـن دق الباب * ما يليه غير اجوابو * غربه من جابـو
مـن ضرتو الضرسا جـا الكلابـو

ويقال ان كل الاشياخ ردوا عليه وان الحاج ادريس برز فى رده الذى ضمنه القصيدة التى حربتها :

قصر لعنان يالى غرتو نفسو وطول السانو
وابغى ايكون شيخ ابقوة لغنان

كانت وفاته سنة تسع عشرة وثلاثمائة وألف .

---

(1) ص : 372 (2) ص : 48
(3) قام الاتاى : هيأه (الاتاى : الشاى)
(4) تطلق التشليلة على الماء القليل الذى ينظف به البراد بعد أن توضع فيه حبوب الشاى . وقد جرت العادة أن يصب فى كأس تبقى فـى الصينية ، وكثيرا ما تختلط بكؤوس الشاى لاتخاذها نفس اللون .

أحمد بن عاشر بن محمد الحداد الرباطي

ترجم له عباس بن ابراهيم المراكشي في الجزء الثاني من «الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام (1) » فنقل ما كتب عنه الحاج عبد العزيز بك المصري في رسالته المسماة «مختطفات الشوق من مقتطفات الذوق» (2)، حيث قال : «اجتمعت بشيخ ذاكر مذاكر مغربي الجنس والمقام وأدبي الخلـــق والكلام يقال له الشيخ أحمد الحداد بن عاشر صحبته رضي الله عنه أياما بعد رجعته من الحج والزيارة فوجدت في ظاهر أحواله على عمارة باطنه أكبـــر اشارة ووقع بيني وبينه من المحبة والالفة ما أهلني لاخذ أوراده جميعها من غير كلفة ، وقد كفاني في فضله ما رأيت له من الاوراد والصلوات الالهامية مع ما هو عليه من الامية والعامية كما اني استدللت مما يظهر عليه من الوجد والهيام الذي ينجذب له كل من رآه من الانام ان الشيخ رضي الله عنه خارج من حضيض أراضي الطبائع والعادات عارج في أوج السعداء والسادات (3)»

وذكر ابن ابراهيم أنه وقف له على مجموع أحزابه ويسمى «مجموع الاحزاب وتيقظ أولي الالباب ومفتاح الابواب لمن أراد القرب من رب الارباب» وقال انه سكن مدة أربعة أعوام مدينة مراكش حيث قال متوسلا برجالهـــا السبعة قصيدته التي حررتها :

أهل البهجا الحمرا اسيوفكم بطار * مال سيفي ما بين اسيوفكم قاصر

وفي دخولهـــا يـقـــول :

أهـــل لحما فحماكـــم زايكت اوزار * واش ماعار اعليكم سربت لغنادر

أليـــوت الخضرا يا باهيين لسرار * بالنبي نتشفع خير لورى الطاهر

أنجوم اضياها ويا سحوب لمطار * للذي أرضو عطشانا ابشوم قاهر

ثم ذكر أنه توفي في تاسع ربيع الثاني عام ست وعشرين وثلاثمائة وألـــــف .

---

(1) الترجمة 129 من صفحة 271 الى 276 (الطبعة الاولى ـ المطبعة الجديدة ـ فـــــاس)

(2) مطبوعة مع الحزب الاعظم للقاري شارح الشفا سنة 1300

(3) ص : 272

كذلك ترجمه والدنا حفظه الله فى الجزء الاول من «أعلام الفكـــر المغربى المعاصر بالعدوتين : الرباط وسلا (1) حيث ذكر أنه دفن بالزاوية الحراقية بدرب الزهراء فى الرباط .

محمد بوزيان

من كبار أشياخ فاس فى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل الرابـــع عشر الهجرى ، اشتهر باستعمال نشب الكلمة على حد ما تثبت قصيدتـه «المحبوب» التى يقول فى أولها :

محبوب خاطرى من فكدو عمدالى * عمدالى والنوم ضاجر من لنجـال
لنجال على الخد دمعها سلسالى * سلسالى تهواكما لمطر هطـــال
هطال من افرق الـلى زاد اهبالى * اهبالى من فكد من اهويت اغزال
اغزال افلبها غيرو ما يحــــلالى * يحلالى وصلو ايلا انعم ابلوصـال

الحاج أحمد الغرابلى

من فاس ومن كبار أشياخ هذه الفترة ، كان يشتغل بالدرازة ثـــم تركها للاشتغال بكتابة الحروز والتمائم . كان بارعا فى «التضمين» كما يتضح من قصيدته «ملكة» التى يقول فى القسم الثالث منها وقد ضمـــن القافية حرفى الدال والكاف :

ايلا اوفا ميعادك
روحى انهب لفداك
ننكى اعداى واعداك
نبغى اتودنى من ودك
وازيارتى اجعلها وردك
حتى احبيب مالى بعدك
يامن اقوام قدك

---

(1) من صفحة 9 الى 13 (مخطوطة المؤلف)

مرهاف اصقيل هازم اعدوك

ويحد من ايحدوك

اضفاير اسوالف بالطيب انسيمها ادكا

تسبى عقل اللى ايشاهدك

واترصع لدرار دى اتناسب ديكا

كذلك كان بارعا فى نشب الكلمتين على حد ما تثبت هذه الاشطار من قصيدته «عين الرحمة» :

أعين الرحما الراحما يا قرت لنيام

يا قرت لنيام جد لى يا بحر التعظيم

يا بحر التعظيم والفضل يا عين الرحما

وقد كانت له مع معاصره ابن ريسون منافسة شديدة تجلت فى خصومتهما التى سبق أن ذكرناها (1) والتى تدخل هاشم السعدانى (2) لا صلاحها بقصيدته التى يقول فى حربتها :

الصلاة اعلى الماحى سيد كل ما فالحى ادرج ⁎ لفضل طه وازواجـــــــــو

زيـــن الـفـلـجـــــــا

وكانت له أيضا مع احمد المدنى التركمانى المراكشى (3) مساجلـــة مشهورة دارت حول الايمان والعمل سبق أن ذكرناها (4) ، قال فيها شاعر مراكش قصيدته التى حربتها :

اللايم خـلى لعباد كل واحـــد فـــى حالـــو

الشهادا بالله وبالرسول تكفى مولاهـــــــا

---

(1) الفصل الثالث من باب «الموضوعات» لدى الحديث عن الهجاء

(2) من كبار أشياخ هذه الفترة ، يقال أنه كان يتاجر فى البلغة بسوق السباط فى العطارين ، وكان له كناش بالدكان يدون فيه قصائده . ووقع مرة حريق فى السوق فأحرق الدكان والكناش . وقد نقل عنه أنه قال بأنه لا يستطيع من حفظه أن يعيد كتابته ، وبهذا ضاع غـير قليل من انتاجه . وقد اشتهر بقصيدته «دخول وجدة» التى يقول فى حربتها:
يالاسلام ابكوا اعلى ادخول وجدا ⁎ دون حرب اغنمها لعدو ونال لمراد

(3) كان درازا بحى أبى صالح بمراكش

(4) الفصل الثالث من باب الموضوعات

وقال فيها شاعر فاس قصيدته التى حربتها :

ألداعى بالجهل اصغ الهل العلم وما قالــوا

الشهادا من غير اعمال ليس تكفى مولاهـــا

وزد التركمانى بقصيدته التى يقول فى حربتها :

ألداعى شهد والشهادا بالله وبالرسول تكفى

واكفات وكافيا وخير فالدنيا ولاخرا اكثــر

والمومن نيتو افضل من اعمالو

ومن القصائد التى اشتهر بها الغرابلى قصيدته «لطف الله الخافى» التى يقول فى حربتها :

يــا لطـف اللــه الخـــافـــى * الطف بنا فما اجرات به القدرا

وقصيدته «مـلـكـة» التى يقول فى حربتها :

أرايت لملكا يا مولاتى المالكـــا * لك العبد وكل ما ملــــــك

نصرو ملكا احمايت الملــك

وقصيدة «المرسول» التى حربتها :

خبرنى يامرسول عن اسراج اعيانى * وشمس انهار نظفر بوصالو عواض الزين

اللــه ينصر مــولاى المــزيان

وقصيدة «الخادم والحرة» وهى التى حربتها :

قصا اجرت للخادم والحرا * يوم ظلوا فخصام اكثير على المعيار

وقصيدة «لشراف الحسنين» التى يقال انه نظمها فى مسجد سيدنـــا الحسين بالقاهرة ،وكان يزورها فى طريق عودته من الحج ، وقد ضاع منه زاده ؛ ولكنه لم يلبث أن عثر عليه بعد توسله بأبناء فاطمـــة الزهراء ؛ يقول فى حربتهـــا :

طالبكم ضيف الله سارخونا ياهـــل لحسان

من يقصدكم حاشا ايخيب يا هل البيت العدنانى

لـشراف الـحـسـنـيــــن

كذلك اشتهر بنظم قصائد للذكر كهاته التى يقول فى حربتها :

بيا حب الهادى ضى لرمـــاق * ملى نظرا فبهاه برماقـــى

كان للغرابلي تلاميذ أشهرهم محمد جسوس وعبد الهادى العامرى الذى وقفنا من شعره على قصيدة «فاطمة» ، وهما من أشياخ فاس . **وكـــان لـــه معاصرون** لم يرقوا الى درجته ، منهـــــم :

1 ـ الحاج العربى الرحوى الفيلالى : من فاس ، يقال له «المعلـــم» وهو من فقراء طائفة احمادشة ، اشتهر بقصيدته فى «المحمــــل» ، وفـــى حربتها يـــقـــول :

غارا لله يالـــوالى * مولى مكناس جد برضاك اعليا

2 ـ عبد الهادى بنانى : له قصيدتان مطبوعتان على الحجر بفاس ، أخبرنا بهما الفقيه الباحث سيدى ادريس بن الماحى :

الاولى : «الدرة البهية فى مدح رجال الشاوية» فى ثمانى صفحات.

الثانية : فى شرح ما وقع عند الفتنة التى حدثت عند خلع المولى عبد العزيز ، فى أربع صفحات . وقد وقفنا من شعره على جملة قصائد .

3 ـ عبد السلام الزفرى : من أشياخ القصر ، ولكنه أقام مدة فـــى فاس ، اشتهر بقصيدته «خلخال يامنا» التى يقول فى حربتها :

خلخال يامنا تفكيرا خلاتووامشى لى * عجبى افيوم توفى واتقول أراهمانقول

وله كذلك «الساقى» الذى يقول فى حربته :

كب يا ساقى كاس الـــــراح * كاس اعراقى فعـــــراقى
وكض اللى طايح * وكـــب للساهـــى بـــاش ايطيـــــــح

4 ـ الغالى الدمناتى : من فاس ، وكان رفيقا للزفرى وتلميذا له كذلك ، له قصيدة «مولد النور» التى يقول فى أولها :

ابديت بسم المـــولى نعـــم لغنى الستـــار
باسمو نستفتح يا صاحى فاشعــــارى

وله قصيدة فى المدح والتوسل يقول فى حربتها :

يا رسول اللـــه غثنى فنهار الميعــــــــاد
يا رسول الله ما يلى دونك حــد اسنيــــــد

وقد اشتهر بقصيدة فى مدح آل البيت والتوسل ، هذه حربتها :

يا هل البيت اسيادى لامت لشراف
زكت فحماكم زوكت لوصيف
لا تدوزونى يوم الموقف لعصيف

السلطان مولاى عبد الحفيظ العلوى

هو ابن السلطان الحسن الاول (1) ، كان خليفة فى مراكش لاخيـــه المولى عبد العزيز الذى تولى من سنة احدى عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة الى خمسة وعشرين ، ثم اعتلى العرش بعد موت أخيه حتى سنة ثلاثين حيـــث تنازل لاخيه المولى يوسف بعد أن أمضى عقد الحماية الفرنسية على المغرب(2)

يعتبر من العلماء والمؤلفين ، له :

1 ـ العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل

2 ـ كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع (فى الرد على أصحاب الطرق)

3 ـ نيل النجاح والفلاح فى علم ما به القرآن لاح

وهى كلها مطبوعة ، وله كذلك :

1 ـ منظومة فى مصطلح الحديث

2 ـ الجواهر اللوامع فى نظم جمع الجوامع (فى أصول الفقه)

3 ـ ياقوتة الحكام فى مسائل القضاء والاحكام

وكان المولى عبد الحفيظ الى جانب علمه وتأليفه شاعرا زجالا ، لـــه ديوان طبع على الحجر بفاس دون تاريخ ، يضم تسعا وثلاثين قصيدة أغلبها فى الغزل ، وبعضها فى الهجاء والتوسل .

ويبدو فى غير كثير من هذه القصائد ميل الى العناية بالاسلوب يتجلى فى استعمال النشب والتضمين .

---

(1) يقال ان ابنا آخر للسلطان الحسن الاول كان ينظم الزجل وهو المامون، وكان خليفة لوالده فى فاس . وتنسب له قصيدة «زعريا» التى يحكى أنـــه قالها اشتياقا لزوجته حين تركها فى مكناس وسافر الى مراكش . وهـــذه القصيدة هى التى تقول حربتها :

خاطرى سلبتو لى ياولد سيدنا زعريا ✲ ابقات فى مكناس الجمـــرات

وتنسب للتهامى المدغرى .

(2) كان عقد الحماية فى 11 ربيع الثانى سنة 1330 الموافق 30 مارس 1912 وكان تنازل المولى عبد الحفيظ لاخيه فى 13 غشت من نفس السنة .

أما وفاته فكانت سنة 1937 فى انجان لوبان حيث كان مبعدا عن المغرب ثم نقل جثمانه الى فاس .

أما التضمين فنظم عليه قصيدته «زهرة» على حد قوله فى القسم الاول منها جاعلا قافيته على حرفى الياء والسين :

وهو ياسيدى واهواك زاد ليا واعيت امعــاه افلمقايس

وافنيت من اشغل هجرك اياسى ٭ كيــف مـــا يعياوا اعيـــاس

لاش مـانفهـا فقيـــاس

ننشى قولى من سر صورتك ما يسلب لكياس

كيف ايسلبو فكرى اعيونها من دون القياس

من اتيــه اشغال الزيـــن والكياســا

امتا انشوف وجهك مابين اغراس حق ياسى

فـــريـــاض طــابــت الياســـو

الورد والزهر والخيلى كحوان جار ياسى

وأما النشب فيتضح من حربة قصيدته «الحاجبة» حيث يقول ناشبـــا بكلمتى الراس والناس :

من اسموم الهجرا والتيه شاب لى راســـى

راســى الحاجبا يهــوى بــدر النـــاس

الناس اللى تعشــق حالها مـا تعــدر بقياس

يــــا حســــرا الانفــاســـى

وقد ساورنا شك كثير فى أن يكون المولى عبد الحفيظ ناظم هذا الديوان حقيقة ، وسألنا غير قليل من الاشياخ فوجدناهم يشكون كذلك ، بل أخبرنا بعضهم أن الديوان نظم له أيام كان خليفة لاخيه فى مراكش ، وأن الذيـن نظموه هم ثلاثة من كبار زجالى هذه المدينة كانوا من جلسائه ، وهم :

1 ـ الحاج أحمد الزغبات

2 ـ الكبير بن عطية الذى يقال انه كان كاتبا للباشا ابن داوود وأنه توفى فى نهاية الربع الاول من هذا القرن ، وهو صاحــــب قصيدة «بودلال اهنيا»

3 ـ الاحمر المرياق الذى كان معروفا بالوجد والذى يقال انه توفى سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف .

والواقع أن سبب الشك عندنا يرجع الى جملة ظواهر لا حظناها فى الـــديـــوان :

أولاها : وجود قصائد بأكملها فى الهجاء بالاضافة الى أن معظـــم قصائد الديوان مختومة به ، فهو يقول فى حربة أحد أزجاله :

لاش تظلم قوسك تركو المن اعتن * منلايسبح فىابحور امواجو محسوب تحشا

خـلى ريحـو مـا قلبت اسفـان

وفى دخولـه يـقـــول :

مادرى رمز امعانى نايم الجفـــن * ولا يوصلللدواخل لمدارك فىاعلومنا

من لايـــدرك نهـــج اعيانـــو

مادرى كيف ارقاوا الناسفالدهن * حتى صادوا من امعانيها كنز مافنا

بنيان ابنا اقويـم عــن تيقانـــو

مادرى من لاعتق الجسد من اسجن * يومى جهللعلومفاقفرخليانمنابلادنا

يقطف مشموم ويهيج فى تفنانـو

واش تعتدا بفكرت الجاهـــل الفـــن

مـــن لايقرا اكتب علمانـــو فاهم كيف اصنعنا

وقت ما يروى ايزيد امحانـــو

ويقول فى آخر قسم من «المـرسـم» :

شتـــم اقديـــم شانـنـــــى * مـــا نرضاشــــى ابقولهـــم

نفخـــا تهلـــك تركنـــى * مـــن شاتـــم فى انظامهـــم

مـــن يتعاظـــم ما يلوشـــان * حسبـو ادميم مالـو فالخلق امزيا

ما يرقى فى ادروج اسنـــان * طبعو ابهيم ما فاز ابكل انويـــا

حتـــى لـــو طالـــوا ببهتان * فالحين ما يرجعو الا مخزيـــا

ويقول كذلك فى القسم الخامس والاخير من قصيدة «كنت هانى» :

كل دعوا بفنون القول صاهضـــا * ناس الدعوات ما يلهم تفـــويض

مادارو امعانى ترجيــح ولقضا * حتما ليا انجبهم فى تربيـــض

كل مايا يفصح بها امخوضـــا * ليس يسوا اكــلام ناس التخويض

ما نبالى بكلاب الدور افلفضــا * حـق لهم جيــت معراض اعريض

ولسنا نتصور شخصا جمع بين مركزين عظيمين : الملك من جهة بما يفرضه من سلطة وسطوة ، والعلم من جهة ثانية بما يكتسى من صبغة التجلة والاحترام، ثم يكون له فى نفسه هذا الاحساس بالمنافسة ومايترتب عليه من خصام وهجاء لزجالين آخرين ، مهما علا شأنهم فهو دون الملك العالم ، وما نظنهم كانوا يجرؤون على مواجهته أو مبادلته نقدا أو معارضة بله الخصام والهجاء، وهو فن لا شك يقوم على المواجهة والتبادل .

الثانية : تغزله في نساء يذكر أسماءهن مثل :

«حجوبة» التى يقول فى حربة قصيدتها :

واعلاش يا محجوب ننساك وافراقك عز اعليا

وادمـوع اعيانـى لضنـاك سـاهـرا داج

و«رقية» ويقول فى حربة قصيدتها :

اليوم نبغى ارمزك يلمع بالشفر ⁂ زورى رسمو ايزول حقا تخمامـر

بشرى بمجيك يالريم ارقيا

ويقول فيها قصيدة أخرى هذه حربتها :

كنت امسلى اقديم من قبل انشوف ابصـارو

مـن صالت بـالـزيـن ولفخـر

تستاهل فالريام تعظيم النصر ارقيا

و«امينا» التى يقول فى حربتها :

شـير بحداقـى ⁂ واعط امدام صافى بالرضا الاشواق

بوجـود امينـا ليلت لبها شارقا

و«لالا ربيعا» وفى حربتها يقول :

الله ينصر زهو اللحظيـن ⁂ والظرافـا مصباح الزين لالا ربيعا

لوجيبـا نـور المطبـوع

وله فيها قصيدة ثانية يقول فى حربتها :

ربيعـا قـوت الـروح ⁂ من اهواها نرجا منو اصلاح

يوم اتواصل بعطوف عاينا بفصاحا

و«زهرا» وهذه حربتهـا :

لازلت امــن اهــواك فانزايــه واعراس

كيف نقطــع منــك يــا زهرا اياســى

وله فيها قصيدة ثانية هذه حربتها :

عنوا اليوم زارت زهرا لرسام ناكرا

نكــوا قلــب اللــى مــا ادرى

من خزرات اللحظ منها واسهوم

و«هنيــا» ويقول فى حربتها :

دام الله ابها امحاسنك مــن فاقت لهــلال

قد اسهوم البين ولمزارگ دون ادزيــــــا

من لازال القلب كايراجى بك اهنيا

وهى ظاهرة نراها تتناقض مع تقاليد الملوك العلويين التى تقتضى عدم الكشف عن نساء القصر والتصريح باسمائهن حتى لا يعرفن ، وخاصة من تكون لهن مكانة فى نفوسهــم .

الثـالـثـة : المعانـاة من الحب واظهار الخضوع والطاعة للمحبوب على حد مايبدو من حربات القصائد المشار اليها سالفا ، وعلى حد ما يقول فى الابيات الاولى من قصيدة «الغــروب» :

ذكرنى لغروب فى اصفورتو لونــو مغيــار

ظن اخليل اصغا من اقوال العادل بهديــر

واتوارى لحجاب ترك رسمو منــو مهجــور

وافجات اسرارى وحالتو عــدت المــدرار

من طعنوه اشفار الريام بالطعنا فاضمــــير

واتهدم صبرو لادرى مــن حكمو مشهــور

واتمادى هــولو من اسكاب ادمــوعــى فسحار

واتحكــم قــولــو افساكنى واسرع بالنــذير

يا حسرا لسموم مالكى من صعبو بالنفــور

مــا حادر عيبى ولا فهــم ابشارت لشفـــار

كن اظلام الليل حامــل من قبحــو تغييــر

خلانی بضناه فی امهامه حكمـــو مقصـــور

وافنايا واصفورت ورقتی يعطـــوك لخبـــار

لاش اتزيد اتسال امن احوالو يكفيك اخبـير

والعارف من شوفت لعيون ايميـز مدعـــور

ويقول فی حربة قصيدة «زهـــــرة» :

بالتيه ولبها والشفرين اتزاد هول اعياطـــو

من يوم فيـــه زارت زهرا ونا فی احكام شطط

ويقول فی آخر قسم من قصيدة «هنية» :

من بايـــع للزين والبها والتيـــه ألـــدلال

وامطايب لحديث كاتخامر به اغنيـــــــا

ما مثلو سلطان امن اسلاطن سعدويا

فمثل هذا الشعور لا يحسه ملك ما نظن الا أن الحياة كانت متيســـرة له بمختلف امكانيات اللهو ووسائل الامتاع ، وأنه كان يأخذ منها ، ان لـــم يكن فی اسراف ، فبما يكفيه لوعة الحرمان . وحتی ان كان يحس شيئا من ذلك الشعور فنخوة الملك تحول دون اظهاره والتعبير عنه ، الا أن يكـــون حديثه فی ذلك من باب المحاكاة والتقليد .

ومع هذا فنحن نلاحظ ظاهرتين لعلهما تحولان دون ترجيح الشك الذی ساورنا ان لم تنفياه :

الاولی : ان الـــديوان طبع فی عهد سلطنـــة المولی عبـــد الحفيظ كمـــا يتضح مما كتب فی الصفحة الاولی عنوانا له ، حيث نقرأ :

«هذا ديوان فائق ومجموع رائق بارع عظيم الشان شامل الدرر المعانی وفحوی البيان جمع من الملاحـــة أصفاها وأعلاها ومن الرقائق والحكم أوفاها وأغلاها فأصبحت به نفوس ذوی الادب فی ابتهاج وهمم العوانی فی تحريك وانزعاج ، وكيف لا وهو من بنات افكار من لا يضاهی نجاره ولا يماثـــل فخاره ، كوكب الادب الوقاد ، الناظم الناثر ،المشارك الحجة النقاد سلطان البلغاء الذی تاهت العقول فیتصانيفه وحارت الاوهام فی فنون تصاريفـــــه أمير المومنين ناصر الملة والدين سيدنا ومولانا عبد الحفيظ ، لازال حسامـــه

منتصبا لكل فظ غليظ ، أدام الله نصره وتأييده وخلد ملكه ومآثره العديدة آميـــن» .

الـثـانـيـة : تتجلى في النفس الذى يعلو هذه الازجال ، وهـــو نفس ـ يبدو من الشعر الذى سبق أن مثلنا به ـ أنه غير طبعي ، نحس فيه بعض التكلف ، كأن الناظم ، لطغيان اللغة المثقفة عليه ، يجد صعوبة فـــي استعمال اللهجة الدارجة وتطويعها للتعبير . ثم انا لا نلبث نلاحظ بعـــض التعابير العربية التى لم نألفها عند الزجالين ، منها استعماله «حيص بيص» في آخر بيت من أول أقسام قصيدة له في التوسل والاستغاثة حيث يقول :

من اعلا واطغى اتهد ذاتـــو يـــا لجليـــل

حتـى يبقـى ايشـــوف نفســـو لدليـــلا

في حيص وبيص ما سالى بالحيـــلا

واستعماله المثل العربي «الصيف ضيعت اللبن» في آخر دخـــول قصيدة له في الحكم حيث يقول :

عاد يبحث الشخص افغير ما تقن * قل المن جايرمى اشهاقو في اكلامنا

الصيف ضيعت البانـــو

واستعماله «خبط عشـــواء» في أواخر أبيات قصيدة «الـداعى» حيث يـقـــول :

لاتعاند جاهـل يهـــوا امخابطا * خبط العشوا ما يمثل تخباطك

واللي معدور ما يخيط اخياطا

ادريـــس العـلـمـــى

شيخ أشيـــاخ فـــاس بعد الحاج احمـــد الغرابـــلى ، أخذ عن الشيخ التهامي الغرفي الفيلالى الذى كان مقيما في فاس يحترف البناء . كان يقصـــدء الاشياخ من كل مدن المغرب ليأخذوا عنه كلامه ، ومن خارج المغرب كذلك حيث يقال ان بعض أشياخ الجزائر كانوا يفدون عليه أمثال الحاج محمـــد العلقا وقاضا الكصاب وعبـد الكريم دالي والمنـور التلمسانى ومولاى الجيلالى الزيــانـــى .

كان بارعا في قصائد «التصلية» ومدح الرسول عليه السلام ، على حـــد

ما تثبت قصيدته «عين الرحمة» التى يقول فى حربتها :

يالهادى عين الرحما الحال ضاق * غثنا يا محمد طيب لخلـــوق

ومن تصلياته هذه التى يقول فيها :

صلى الله اعليك يالماحى محمد ياشريف لاسم سيد لملاح

يا من بـــك الناس فارحـــا

من شهد بك نال ربحو واصلاحو

اصلاتك كنزى وراس مالى وربحى واذخيرتى اصلاتك هى المفتاح

تفتــح لــى لقفال قاصحــا

واتلين لقلــوب بعد يقصاحــو

وكان بارعا كذلك فى قصائد التأمل والموعظة ، ومنها قصيدة وقفنا منها على هذه الابيات :

لا غنى يرحم ابلفقير معتا لقلوب اقساهـــا

اقسى من لحجر يفجر سيل ابمـــــاه

لا صغير ايوقر لكبير قلت الناس احياهـــا

والخمر والميسر والزنا جاهم يا محـــلاه

لاصلا فى اوقتها ولامـــن فيهم اداهـــا

من غير الغيبا امع اشتم والكذاب الخـــاه

غرتهـــم الفانيا وعادت لهـــم انزاهـــا

ولا انساوا الآخرا وكل واحد ماذا يرجـــاه

ابسطنا لكفوف للــذى خالقهـــا مولاهـــا

وينجينا سامع الدعا مـــن شر ويـــلاه

يكرمنا بالدين وليقين والخمسا واصلاهـــا

والتقديس والحمد وشكر للمعبود اللـــه

وقد ظهر تفوقه فى الغزل من قصيدة «غارو لعواتق» التى لم نوفق منها الا الى هذه الابيات :

غاروا لعواتق من اجمالك ياد البدر الشريف يازهو العاشق

ياللى زينك ما رينـــاه

مكوانى فايق امن اجفاك أولفى جفنى وسيف تيهانك واسق

كل كهلى بحمول اسفـــاه

مدرا يا حادق واش قلبك عن محبوبو اشفيق من حالو شافق

يالى غـــيرك ما نهـــواه

بالقول الصادق يالبدر عوضك مالى اصديق لن حبك سابق

افلكنان امورث مشـــواه

والسابق لاحق امن اجبينى كتب اقلام اترفيق سبحان الرافق

ما يواخذ عبدو بخطـــاه

وقد وقفنا فى أوراق للشيخ أحمد سهوم على قصيدة فى رثائه لم يذكر ناظمها ، نسوق منها هذه الابيات :

وكحت لعيون يـــا حبيبى من لدمـــوع

والقلب مـــن لفراق محســـوك امقطـــع

والجسم ابد العـــداب يا سيـــدى مصروع

والعقل امع الضمير بالشوق اتزعـــــزع

واسيارى واهنـــا اوجدانـــى ملســـوع

والنفس املاحقـــا افصـــدرى لليـــع

والروح السايـــر امـــع النعش المرفـــوع

يمتا تسخا ابـذاك لضريـــح اترجـــع

الصبر اعلى لفراق مـــا عطانى طـــوع

بعد ما كـــان عنـــد الشدات امطـــوع

باكى شاكى افريد ما رايـــم لجمـــوع

انقيـــل فـــالضنـــا ونمســـى نتضرع

محمد المدغرى المكنى العيساوى الفلوس

آخر كبار أشياخ فاس ، توفى سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف وهو دون الستين . انتسخنا غير قليل من قصائده من كنانيش لاحد حفاظ شعره كان يشتغل معه فى الدرازة هو السيد ادريس المرونى الفاسى .

كان ينظم فى كل الفنون ، ولكنه اشتهر بالقول فى الموضوعـــات الدينية ، ومن خير الامثلة على ذلك قصيدته التى يقول فى حربتها ، وهى

فى مدح الرسول عليه السلام :

صلى الله اعليك يالتقى محبوب الباقى ※ يـــا مـــول الحجـا الواثقـــا

يامحمد صاحب اللوا والتاج والبراقى ※ لغرامـــك لخـــلاق شايقــا

وقصيدته التى يقول فى الشوق للديار المقدسة ، وهذه حربتها :

يالمولى زكى اسمى باسم الحـــاج ※ ابجاه من حج وطاف وزار حرم طه

وقد اشتهر كذلك بقصائده الوطنية ، ومنها هذه القصيدة التى مدح بها محمد الخامس ، وفى حربتها يقول :

دام اللـه ايـام صولت النـــور المحمـــدى

من به اضوا نجم غربنـــا سيـدى محمـــد

حاز الفخر ومجـــد ولمزيا نجـــل المهتـــاد

سلطان المغرب نورنـــا سيـــدى محمـــد

ومنها قصيدة «النجمة» التى رمز بها للحرية ، وقد جعل الليل والنهار يتصارعان من أجلها ، يقصد بالليل الاستعمار ، وبالنهار الوطن ، يقول فى حربتهـــــا :

سمعوا يا حضار مــا جرى للضى ألبهيـــم

عن حسن النجما اتحاربو فى ساير لاكـــام

وانصار الضى وحازها الرسمـــو وانحاز اللـــوم

وقد ذكر لنا الفقيه السيد محمد بن الهاشمى الفاسى ـ وهو من حفاظ شعر الفلوس ـ أن كثيرا من قصائد هذا الشاعر الوطنية ضاعت بسبـــب احجام المنشدين عنها لخوفهم من سلطة ادارة الحماية ، بل ان الفلوس نفسه خشى الامر بعد أن حذره رجال السلطة فأخذ مجموعة من قصائده الوطنية ودفنها فى احدى المقابر حتى لا يعثر فى بيته على شيء منها اذا ما فتش ، علما بأنه كان غالبا ما يخفى اسمه «محمد» فى قصائده بمثل هذه الرموز :

1) اسمى لللا والبا .

2) اسمى كعب .

3) اسمى عبك .

وهى كلها كلمات مجموع قيمة حروفها اثنان وتسعون ، وهى قيمة

حروف م ح م د ، ولكن السلطات الاستعمارية كان لها من عيونهـــا وجواسيسها من يدركون مثل هذه الرموز .

بنعيسى الدراز

أكبر زجالي مدينة مكناس منذ بداية القرن ولا يزال ، وهو رجـــل مسن يناهز الثمانين وأمي ، كان يشتغل بالدرازة ومنها اكتسب لقبه ،زارنا في بيتنا بفاس لمدة أيام أملى علينا خلالها بعض قصائده وقصائد غيره ، وأفادنا بأخبار ومعلومات كثيرة يتصل جلها بمعاصريه .

يكاد كل شعره يكون في الغزل ، ومن قصائده التي يعتز بها «زهرة» التي يقول في حربتها :

بمزاري بمـــزاري * جدلي بوصالك نبرا

يـــا مولاتـــي زهـــرا

ويقول في دخولها :

سلطان حبك اسكن لي فصميم السيار

يا راحت لعقل يا قرت لبصار

يا طلوع البدر السيار

شف دمعي هاوي مدرار

ورخ اسطار

فوق لخدود بجهار

والبين زاد حسرا

وكد جمرا

اكدات حمرا

ما تطفيها امياه لنهاري

ولا اطبيب يوقي من ذا التشحار

كضاري كضاري * افنا ونرجا مـول القدرا * يشفي ذاتي تبـــرا

الحاج محمد بن عمر الملحوني

شيخ أشياخ مراكش ، زرناه في بيته حيث قضينا معه يومين أملى

علينا خلالهما من كنانيشه مقتطفات من قصائده وغيرقليل من الفوائد.وقدذكر لنا أنه تلمذ على الشيخ اسماعيل عميد الزجل فى وقته ، وأنه كان ينظم فى مدح مولاى يوسف (I) جد الملك الحسن الثانى ، وان عمره الآن يقرب من الخامسة والسبعين . وهو على جانب غير يسير من المعرفة فضلا عن القراءة والكتابة ، وينظم فى كل الفنون . وقد واكب بزجله الحركة الوطنية فى مراكش ونظم قصائد فى أزمة نفى محمد الخامس سنة ثلاث وخمسيـــن وتسعمائة وألف .

وفهمنا من كلامه فى السرابة أنه خير من نظم فيها من أشياخ العصر . ومن سرابة له يصف فيها ثورة الشعب على اثر نفى السلطان نسوق هـذه الابيـــات :

يـا عـل معظم يــوم السبت بانت ارجـــال

فالمداين خرجت بطراردها كاتقاتــــــــــل

شبان افحـول خـارجيـــن اكفــول

ذالهـــذا جذبـــان الحال سار فـى حال

كل واحد بلسانــــو كيصرخ قايــــل

وينـــادى فالجـــايف ولحفـــول

يا هل الشعب المغربى اكهـــول واطفال

ما بقـــى بعد اليوم اصبر يا لسايـــل

بــــه الشبان بالجميـــع اتقـــول

يوم لخميس (2) امضى وابقى الحرب مازال

عمـــر الثـــورا ماتهنا الشعب حامـــل

واليـــوم اهلو سيبـــو لحمـــول

والشيخ ابن عمر لا يتجاوب مع أحداث وطنه الصغير فحسب ، وانما هو يتجاوب كذلك مع وقائع الوطن الكبير على حد ماتثبت قصيدة قالها فى حرب فلسطين الاخيرة (3) ، هذه حربتها :

(I) تولى على اثر تنازل أخيه مولاى عبد الحفيظ سنة I330 ه الموافق سنة I9I2 م وتوفى سنة I346 ه الموافق I927 م حيث خلفه نجله محمـد الخامس .

(2) اشارة الى أن النفى تم يوم الخميس (20 غشت I953) .

(3) خامس يونيو I967 .

صونوا بيت المقدس يارجال النجدا نصروا الدين ياهل ليمان

واحموه من لعدا اتفر منو ساير ليهود

ومن أروع ما للشيخ ابن عمر بعد سراربه ووطنياته قصائده الغزلية كما تثبت هذه الابيات من «أمينـــا» :

أمينـــا حبـك نـيران	*	اعـلـى نـيـــران
كاديا فصميم الوجـــدان	*	وســط اكـنـانـي
أمينا هـــاذي لـــزان	*	أو الـطـوفــان
فوق خدي أو الويــدان	*	فـالـجـريـانـي
أمينـــا قلبـي لهفــان	*	جسمـي سخفــان
لاتخليني فالحـرمــان	*	راه اضنـــانـي
أمينـــا مانـي نعسـان	*	مـانـي يـقـظـان
كيف بت انقيل ولهــان	*	وسـط امكـانـي
أمينـــا قلبـي مــلآن	*	مـحنـا واحـــزان
مابقـي ينفعني كتمـــان	*	بيــن امحـانـي

عثمــان الــزكــي

أكبر شيوخ الرباط المعاصرين ، وممن كانت تشد اليهــم الرحلـة . والاسف أنا لم ندركه حيث كان قد توفي حين بدأنا نعنى بهذا الفن .

كان كثير النظم في الازمات السياسية والاقتصادية على حد ما تكشف عنه قصيدة له في التوبة ، يقول في حربتها :

يا طالب لمــــان	*	تب واعمل ما أمر به ربنــــا

وفي بعض أقسامها يقول :

حدثتـك بلســـان	*	ساكن المساكن كان اتريد وعظنـا
والـلي زاد ايبـــان	*	ما حفر قبر اللـي يكرهنـــا
قالوا ناسي ازمــــان	*	ولا بني لنا قصر الي ايحبنـــا
لو طاروا جنحــان	*	ما يلو قدرا لنفعنا وضرنـــا
واش اللي مديــــان	*	كيداين أمرو معروف عندنــا
مـا وافــق صدقــان	*	غير من كره اغلب ايدو املينـا
سال اهل التبيـــان	*	والحديث ايخبروك ابغايت لنـا

وانصت للقـــــرآن * لا تجسس عل لقوام لمؤمنـــا
واجز هل لحســان * ابلحسان او بدعوت خير عمنـا
لا تشهـــد نقصـــان * افلعباد اللى بالمـــولى اميقنـــا
لا تعمـــل عديـــان * غير زوج اللى هم اسباب اذنبنـــا
لفسق والشيطـــان * خالف امرهم قبل انشاهد لفنـــا

ومن شعره فى غير هذا الموضوع قصيدة فى الهجرة النبوية ، هـــذه حربتها :

يا محمد يا خير خلق الله * صلى الله اعليك يا طه

عبد القادر الجرارى

من كبار أشياخ الرباط وأحد أعضاء جوق الاذاعة للطرب الملحون ، وهو تلميذ الشيخ عثمان الزكى ، تذاكرنا معه غير ما مرة فأفدنا منه ؛ ولعله أكثر الاشياخ المعاصرين ثقافة ومعرفة بأصول الزجل وقواعده . له دكان فى حى فران الزيتونة يبيع فيه الدقيق ، وكان من قبل يحترف فيه النجارة .

من انتاجه قصيدة فى أزمة البون «بطاقة التموين» يقول فى حربتها :

حرت ابقلت لبـــزار والفاخـــر
والزيت والسمن والصابون امع السميد عاد اهموم السكر

وقصيدة فى الذكر حربتها :

اللهـم صـل اعـلى النبـى راكـب البـراق
محمـــد الزكـى نعـم المجـــد التقـــى

وله فى معارضة «الداعى» (I) لعباس بوستة المراكشى قصيدة هذه حربتها :

تاك بشار السعـــد وفرحنـــا اكمـــل
ومـــن اظلمنا القـــى افعالـــو واعمالـــو
الـويـــل رام لـــو * ولى عند الناس فالمهملا

(I) وحربتها :
راب سور الدعى واتشتت الشمل * وارجالو ما جزوا ليه اعلى مالـــو
جـــاه عاملـــــو * لمرقى شانو افكل اعمالا

وفي أحد أقسامها يشير الى فرنسا وما لاقت من ويلات في الحرب العالمية وما واجهت من الوطنيين في حركة «اللطيف» المشهورة ، فيقول :

يامن اعيا كهلو بتقال ادلحمـــل ٭ فالحين ارميه جاب ربي حمالـــو
اللـــى ايحملـــو ٭ ملا كان افطرقتو لحمـــــالا
غير جاير كان امن الجور ليس مل ٭ ويقول اهمام ابلجيوش وعمالـــو
ومن احتملـــو ٭ وارضاوا اشروطو ابغير ايمالا
كان ظنو باقي دالشرط ينكمـــل ٭ لكن الله جاب لو من رتمالـــو
ابشر دام لـــو ٭ بسيوف اللطيف والبسمـــلا
بعد عزو فيامو صادف لهمـــل ٭ ضاع افملكو وزاد بهلو وابمالـــو
الهـــم شاملـــو ٭ عاد يشتهي طرقت الحمـــالا
بات ملك واصبح ينكس لخمـــل ٭ ويخمم في ابلاه شي ايكون اعمالـــو
واسقام لـــو ٭ ليس اوجد لبـــدو اولا لكمالا

ومن أروع شعره قصيدة «ألف باء» تتبع فيها حروف الهجاء ، ليس في أول الابيات فحسب وانما في القافية كذلك ، يقول في حربتها :

يا راسي مـــن لـــوزار تب ٭ واسترجع من وهـــم لعيـــوب
تنتهي واترك فعل الذنـــوب ٭ خـــاف اللـــه التـــواب

يبدأها بقوله على حرف الالف :

أســم المـــولى فالمبتـــدأ ٭ ساس النظـــام افمـــا انشـــأ
واللـــى بهـــا جيجـــو امـــلا ٭ يدرك بها مرتـــــــاب

الى أن يقول على حرف الياء :

يارب كمـــــل لي ارجـــاى ٭ جـــاوز عني وامحـــى اخطـــاى
يوم اسؤالي ايحضرو امعـــــاى ٭ ليس يعجـــز افلـــجـــواب

ثم يختمها بتوسل يتتبع فيه الحروف على هذا النحو :

بالالف الف بينـــــنـــا ٭ وآتـــى بالنصر الـــدينـــا
انتبعو منهاج ايقينـــــا ٭ ايعـــود احكمنـــا غـــلاب
. . . .
باليـــا يسر أمـــر الضعيـــف ٭ عبد القادر يمشـــي اخفيـــف
لمقـــام المبـــرور الشريف ٭ ثـــم ينـــزع تسقـــاب

وواضح أن القصيدة بائية حيث جعل الروى باء فى كل الابيات ، ولكنه نوع فى قوافى الاشطار الثلاثة الاولى من كل بيت . وقد ذكر لنا أنه يطلق على هذا الاسلوب اسم الدربلة والعزرودة والمرشوش (I)

والشيخ الجرارى بعد هذا مشهور بقصيدته فى «المعراج»

الحاج محمد الصوفي

شيخ أشياخ الرباط والرئيس الحالى لجوق «الطرب الملحون» بالاذاعة المغربية ، وهو على قسط لا بأس به من المعرفة ويشتغل محاسبا فى السوق الرئيسية للخضر . أطلعنا على بعض كنانيشه التى انتسخها بنفسه وأخبرنا أن أكثر نظمه فى الغزل ، من ذلك قصيدته «فوزية» التى يقول فى حربتها :

صل بجمالك عن جمع لبنات يا قد الرايـــا

ياخدود الـورد المفتـــوح ياغزالى فوزيــــا

وقصيدته «نزهة» وهذه حربتها :

آش يـزها مـن لايزهـا ابزين مولاتى نزها

آش را من لاغنم امع لغزال فرجا وانزاهـــا

وقصيدة «كريمة» وفى حربتها يقول —

جـــد ابغـايت لمـــــرام * يامصباح الخودات لالا كريمـــا

بـردنـــى رانـا المغـــروم * نضحـــى سالـــى مكــــروم

ومن أروع قصائده «الحمام» ، يقول فى حربتها :

بالله ياحمام ادى عنوانى امـــع الســـــلام

لسبيغت النواجـل آمنـــا زينت السميـــا

و «الخاتم» وحربته :

خاتـم ولفى تـاج لبها اتوضر وامشـى لى —

كيف المعمول ايلا اتسال عنو درت لجمـــال

كما أن له بعض القصائد ينظمها فى المناسبات الوطنية كقصيدته التى قدم فى الصيف الماضى بمناسبة ذكرى «ثورة الملك والشعب» فى العشرين

(I) الدربلة المرقعة ؛ العزروده : دودة سوداء مخططة بالاصفر ؛ المرشوش قرنفل أبيض مخلوط بألوان أخرى .

مـن غشت ، والتي يقول في حربتها :

من اعظمها ذكرى يامن اتسال تاريخ امخلـــد

ثورة الملك امع الشعب يوم الاستعمار انفاه

لكن المولى جاد اعليه أيدو واكرم مثواه

زجالـــون آخـــرون

نبغ من المعاصرين كثير من الزجالين غير من ذكرنا ، منهم من وقفنا على نماذج من انتاجهم (I) ، ومنهم من لم نقف لهم على شيء ، نرى تكملة لهذا الفصل أن نستعرض أسماء بعضهم مرتبة حسب مدنهم :

أولا : مـراكش :

I ـ العباس الحرار : صاحب «الشيبية» التي يقول في حربتها :

يالغابط فاحـوال الفانيا استرجع ⁂ شف اللحيا بعد اكحالها ابياضت

وله «الفجر» ، يقول في حربته :

يقـظ جفنـك يـانايـــــم ⁂ قم اتودى حق لكريم من لاينام

مولانا خـــيرو دايم

وقد وقفنا له من قصائده على «الوصاية» وعلى قصيدة فخرية .

2 ـ أحمد الراس : كان بارعا في قلب القصائد **ومسخها** ، وقـد سبق أن مثلنا لذلك (2) .

3 ـ عباس بن بوستة : كان قهوجيا ، وقفنا من شعره على ثـلاث قصائد ، احداها في أحوال الناس واثنتان في الهجاء . له كذلك قصيـــدة تأملية يقول في حربتها :

لاتغرب فالغرب امع لقاربـــــا ⁂ الغرب اغريب سايرا فيه اغريبـا

من اغرايبو عن اهلو غربا

كان كثير الميل الى الحكمة والموعظة ، ومن أشهر أبياته التي سارت كالمثل قـــوله :

(I) انظر الدليل الملحق بالرسالة .

(2) انظر آخر الجزء الاول من فصل «مع الحياة» من باب الموضوعـــات (ملاحظة عن شعر الفكاهة) .

يحصد حب لكذوب من ازرع المحال

4 ــ محمد الروداني : له «خديجة» ، وفي حربتها يقول :

ياهلي رغبو فيا بوشفار وداجـــا * شمس الضحا الواضح كمرا في داج

في داجي في داجي كان راجي لك اخدوج

5 ــ محمد بن موسى الشريف : كان بارعا في النظم على وزن مكسور الجناح ، ومن شعره نسوق هذه الابتهالات :

مرغت في ابواب رحمتك هاذ لخدود

وانويت فيك يا سيدي ظن اكميل

ايلا اعصيت أنا عبد اذليل

طامع فالخير اقريب اجزيل

ما نخاف امن الدنيا ايلا اصفات ايماني

ومن اطلب شي ايقصدو ايلا اصفات النيا

وقد وقفنا من قصائده على : «لغزال محمد» و «الحجام» و «زينـــــب»

6 ــ عبد الرحمن بن الحاج الطاهر : كان دباغا ، توفي منذ نحو ربع قرن ، له «شمعة» ولكنه جعلها خصاما بين بنت البر وبنت البحر ، اذ أن الشمع اما ان يتخذ من شهد النحل أو مسحوق السمك ، وهي فريدة من نوعها ، يقول في حربتها :

غنمي غايت لفراح ألشمعا بك أبنت الطميم لخلاق زاهيا

عيدي لي سبت لبكا من قادم للآن

7 ــ ولد احجـــــام .

8 ــ مـــولاي ابيـــه .

9 ــ محمد بن لكبير : من كبار الاشياخ المعاصرين ورئيس «جمعية هواة الملحون» ، قابلناه في احدى زياراتنا لمراكش ، وهو ممن يناهز الثمانين ومن قصائـــده التي يعتـــز بها قصيدتـــه فـــي حرب فلسطين الاخـيرة وهذه حربتها :

الله أهل لسلام بادروا بالتوبا واستغفروا وطلبوا مولانا

يفجي هذا الغما اعلى لجميع ايشفي لمصـــــاب

10 ــ محمد المختار الشرايبي : اشتهر بقصيدته «مول الكمية» التي

قالها فى الشيخ عبد العزيز التباع . ونذكر – ونحن فى سن الطفولة – أنه كان يزور السيد الوالد كلما حل بالرباط وانه كثيرا ما كان ينشـــد قصيدته المشار اليها و«الفياشية» ، وكنا نحفظ غير قليل من أبيـــات القصيدتين لكثرة ما كان ينشدهما .

وهو ينظم في المعرب كذلك ، ومن شعره فيه قصيدة يمدح بهـــا السيد فتح الله بنانى الرباطى شيخ الطريقة الفتحية الدرقاوية ، يقول فى أولهـــــا :

آل فتـــح لكـــم جمال بديـــع * طاب أصلا ومنه طابت فــــروع
لائحا فى الوجود بدرا منيــــرا * ماله مشبـــــه ولا مـــــن يـروع
طلعت شمسه على الكل بالفتـــح يراها من كان فيه ولـــــــوع
طبـــق الارض ذكـــره ولـــــه * فى كل افق من الفتوح جمـــوع

بل ان اللغة المعربة كانت تطغى عليه حتى فى زجله على حد ما يبدو من الابيات الاولى لقصيدته «مول الكمية» حيث يقول :

أمـــــول الكميـــــــا * للـــــه غـــــير اعـليـــا
اطلب ربـــى فيـــــا * يوفـــــى ليا قصــــدى
بـــــك اتوسلت للـــــه * وبجـــــاه ارسول اللـــــه
قـــدرك مـــا نتمنـــــاه * أطـــالـــــع السعـــــد

II – محمد بن بوستة : من الاشياخ الناشئين ، قابلناه فى بيت شيخه الحاج محمد بن عمر بمراكش فأملى علينا نص «التويزة» التى اشترك فى نظمها مع الشيخين ابن الكبير وابن عمر والتـى تقـول ردمتهـا (I) :

وادرك هاد لمريض باللطف الخافى

ثـانيـــا : فـــاس :

I – الهادى بنانى : كان عطارا

2 – محمد الجابرى : كان درازا وكان معروفا بالوجد ، له «فاطمة» .

3 – محمد لحلو : صاحب قصيدة «البون» التى حررتها :

يـانعـــم الستــــار * جد برحمتك يالكريم غثنا

توفى منذ سنوات قليلة

(I) للتويزة «ردمة »كالعروبى ، وهو الاسم الذى يطلق على آخر شطر .

4 ـ عبد العزيز بن ادريس الوزاني : وقفنا له على قصيدة «سابغ الشفر» وأخرى في المدح النبوي ؛ ويقال ان له قصيدة في «الزهو» فاق فيها التهامي المدغري . ومن أشهر شعره قصيدة في مدح الرسول عليه السلام ، يقول في حربتها :

عول ياساهي اعلى الرحيل احتال * اصغ افايت الرسال هاك لشـــال

واتعلق فالماحي اوزوگ فالبتول اترك لخديل

5 ـ عبد العزيز اعنون : وقفنا من شعره على «أم كلثوم» .

6 ـ محمد الشنتوي : له «الياسمين»

7 ـ الطيب الدباغ : له التوسل الذي يقول في حربته :

عـارى اعليك يـا محمـــد * لله لا اتشافى فيا لعدا

8 ـ محمد الدباغ .

9 ـ علال العلوي : هو أخو محمد بن عرفة الذي نصبته حكومـة الحماية الفرنسية سلطانا على المغرب بعد أن نفت محمد الخامس . وهـو مقاول في البناء ، قابلناه في فاس ، ووقفنا من انتاجه على قصيدة «المجد» من مطالع قصائده قوله :

أنا تكلي فالله يوقينـــي * لقديم الدايم من لا ينام اولا اتراه اعيـــان
جيد لجواد الا ايحافينـي * المالك لكريم الغني من لاتنطرد من بابو سعيان

ومن قوله في المدح النبوي قصيدة هذه حربتها :

صلوا على الرسول التقي طه ايمام هل ليقين
محمد الشفيع الشافع من جا ابشير بالقران

ومن شعره في الوعظ قصيدة «الفجر» التي يقول في حربتها :

يـــارب جـــد جـدلـــي * بالتوبـا أباسـط الستـــر
نخلف ما ضاع افلعمـــر * نفـــدي ما ضـــاع لـــي
اخطيا وانعود امقابل لفجر

أخبرنا شيخ مراكش الحاج محمد بن عمر الملحوني أن الشيخ العلوي هو أحسن زجالي فاس المعاصرين .

10 ـ عبد القادر الودغيري : تلميذ بوزيان ، كان درازا في فاس ثم انتقل الى الرباط موظفا بدار الاذاعة . من شعره الديني قوله من قصيدة :

المومن ايكون اعتقـادو اصحيـــح فالله

عند باب التوحيد احبيس حق يحميـــه

لو ايكون افحلقوم الليث فاتـح الهــاه

ينحضـا ابقدرة السميع ما يحاديـــه

ولو ايكون افمنصب لحجار حــاط بعضــاه

يتعدى مفدى ابراهيـــم ما اتآديـــه

ولو ايكون اعلى نحرو سن سيف مضــاه

ينفدا مفدى اسماعيل طوع أبيـــه

ولو ايكون ادخل بطن الحوت بست اخطاه

ينفذا مفدى ابن كنعان يونس انبيـــه

هكذا حال امن اختبرو الحـــى منـــان

للصبر ينحاز افراجو ايبادر ايهـــون

ومن شعره الغنائي قصيدة «جمهور البنات» وفيها يقول :

آش را من لا را هيفــــان * بلـــد لحضر فيهـــا واثبـــات

بالكياسا والميز اكما اشهوتـــى * والباقا فالزهو الا فيها بـــاس

وكل وحدا تنهض فرحا ابزورتى * بجفال امنظما للزهو انفـــاس

غير لوتار والحـ الفا اسجيتـــى * من صوت الباهيات وكض لحساس

حيث وقفوا للرقص افجات كربتى * دى عن هاذى اتميس كغصن الياس

II — أحمد سهوم : من أشياخ فاس المقيمين فى الرباط ، كان له طوال سنة خمس وستين وتسعمائة وألف برنامج يقدمه فى الاذاعة بعنوان «ركن الادب الشعبي» استفدنا منه . وقد أطلعنا على بعض الاوراق والتقاييد فأفدنا منها غير قليل من النصوص والمعلومات . وفيها وقفنا له على قصيدتين : احداهما «محكمة الضمير» والثانية فى تحية مؤتمر القمـة العربى الـــذى انعقد بالدار البيضاء فى سبتمبر من السنة المذكورة .

ومن شعره كذلك قصيدة قالها فى مدح الملك الحسن الثانى بمناسبة الدروس التى يحييها فى شهر رمضان المعظم ، يقول فى حربتها :

ياراحت لرواح ولقلوب امع لفكار

والمهجات ولكباد يا رمز وحدة شعبنا

يا تاج اوطانا الحسن الثانى

وله من القصائد الغزلية «سعاد» ، وفى حربتها يقول :

يالى سعـــدى بـــك اسعـــاد * فى اركابـك ساير لسعـــاد

سعداتى ياسعاد منك اسعـــادى * سعد سعدى بهلال اسعود السعديا

ثـالـثـا : الـربـاط :

1 ـ الشيخ فاضل : كان حجاما

2 ـ الشيخ التهامى : ابنه ، ويذكرون أن له قصيدة جفرية قالها فى التنبؤ باحتلال فرنسا للمغرب تسمى «الموندو» ، والاسف أنا لم نهتد اليـهـا .

3 ـ المعطى بن صالح الشرقى : وقفنا من شعره على قصيدتين فى «الذكـر» .

4 ـ محمد بن احمد الشرقاوى : شيخ عثمان الزكى ، له قصيدة فى قبة بناها السلطان الحسن الاول يقول فى حربتها :

فرحوا ياهل النيا جل افرايـــح * اعلى فرحتنا يفرح كل اوطـــان

اعلى قبتك ومولاى الصالـــح * بانيها لهمام سيدنا مولاى الحسن

5 ـ الشيخ محمد الضعيف : وقفنا من شعره على قصيدة فى مدح الرسول عليه السلام .

6 ـ التهامى بنانى : كان «مجادليا» أى حرارا وكان من الذاكريـن وأهل الجذب ، وهو شيخ الريش

7 ـ المكى الريش : كان ينظم فى الذكر وهذه حربات بعض قصائده .

أ ـ اللهم صل اعلى لحبيب المحبوب التقى * محمد خير لورى انعشقـــو

ب ـ يا عشـاق النبى المـاحـــى * صلوا وسلموا اعلى كوكب للماح

ج ـ تهامـــا ناس لحســـان * نسعى من قلبى ولسان

غارا ياقنديل وزان * يـامولاى عبـــد الله

8 ـ بوعزة الدريبكى : من قصبة الودايا ، اشتهر بقصيدته التـــى حربتها :

عذرونى يا هلى ولاش اتلومونى هكذا افحالى

سروا خلوا كل حال ايسير اعلى حالـــــو

9 ـ محمد بن يوسف : انتسخ لنا من شعره قصيدة فى المـــدح النبوى .

10 ـ محمد الفلوس العلمى : كان خرازا ، اشتهر بالذكر ، وهذه حربة بعض قصائده فيه :

يا عشاق النبى الهـــادى * صلوا وسلموا اعلى شافع لعباد

11 ـ الشيخ لحلو : اشتهر بقصيدته «زهرة» التى يقول فى حربتها :

أنـا امزاوگ افزينـك أسلطانت لبدور

ألــلا ازهـــور

من بك طلعت الزهرا * وانت لـلا ازهـيرو

12 ـ الطاهر افقير : كان حرارا

13 ـ ادريس بن بوشعيب : ويعرف بالغياط مازال على قيد الحياة ويقول فى المناسبات .

رابـعـا : ســلا

1 ـ أنجار : صاحب «الذهبية المشهورة .

2 ـ محمد الشليح : له قصيدة «الكاس» .

3 ـ الحاج محمد بن على : وهو غير محمد بن على المسفيوى نزيل هذه المدينة ودفينها

4 ـ العربى معنينو : ذكر الادريسى فى «كشف الغطا» (1) أنه كان صاحب كتاب قرآنى .

5 ـ الشيخ البرى : له «المرحول» لزيارة بعض الصالحين .

6 ـ حمان النجار

7 ـ حسن اليعقوبى : اشتهر بقصيدته «العصرية والزمنية» .

خـامـسـا : أزمـــور :

1 ـ احمد بن رقية : وقفنا من شعره على قصيدة «الشمعة» . لــه

---

(1) ص : (114) .

قصيدة فى «الزهو» يقول فى حربتها :

الزهو فكتوب التنزيل والسرار الى موهوبا من لجليل العالى

ولفراسا فى هــــل لعقول

2 ـ البصير الزمورى : انتقل الى العرائش وبها توفى ودفن ، يقال ان له «الحراز» و «الادريسية» و «اليوسفية» وهى قصيدة فى سيدنا يوسف .

3 ـ ادريس الزمورى : يعتبر من كبار الاشياخ ، ولكن شعره نبذ لاتصاله بسلطة الحماية ومدحه لرجالها وأعوانها . وقفنا مـن شعره على قصيدة قالها فى تدشين محمد الخامس لمدارس باب شالة . وهو أخو المرحوم أحمد الزمورى الذى تولى قضاء مدينة الدار البيضاء .

سادسا : تطوان :

1 ـ محمد المودن التطوانى : له قصيدة فى مدح محمد الخامس .

2 ـ محمد حسن : أمدنا بغير قليل من النصوص ، وله قصيدة فى ذكرى المنظرى مؤسس مدينة تطوان .

سابعا : أسفى :

1 ـ ابراهيم السوفانى .

2 ـ محمد بن على الدمناتى : انتقل الى سلا وبها توفى ودفن ، وقفنا على جملة من قصائده .

ثامنا : وزان :

عبد العزيز الوزانى : أحد أشياخ هذه المدينة وعلمائها ، له قصيدة فى الشوق لزيارة البقاع المقدسة يقول فى حربتها :

الرباح فى اصلاتو هما واتجارا

أيارب لعباد كمل قصدى نمشى انحج ونطوف

ونشاهد لبقيع والبيت وعرفا

تاسعا : شفشاون :

محمد العلمى ولد زيطانة : وقفنا من قصائده على «فاطمة» و «التوبة».

عاشرا : تافيلالت :

سيدى أحمد لحبيب : ذكر الادريسى فى «كشف الغطا» (I) أنه من طبقة عبد العزيز المغراوى .

الحادى عشر : صفرو :

لحسن الصفريوى : يقال انه نظم فى احدى الليالى ست قصائد فى «الزهو» . توفى منذ حوالى خمسة عشر عاما .

الثانى عشر : بنى ملال :

مولاى عبد الرحمن بوقطيب .

الثالث عشر : الدار البيضاء :

مولاى أحمد بن عبد السلام العلوى : من علماء هذه المدينة العدول ، أطلعنا على ديوان له نظم أغلب قصائده فى فترة الشباب وقبل أن يبدأ دراسته بالقرويين . اتصلنا به أكثر من مرة وحاولنا مذاكرته فى الفن ولكنه كان يصرح لنا بأنه لم يعد يخوض فيه .

❀ ❀ ❀

وبعد ، فاذا كان لنا أن نقول كلمة عن القصيدة الزجلية فى العصر الحديث فهى أنها **تجمدت** فى صور ونماذج غدت لها سيطرة على هؤلاء الاشياخ الذين ذكرنا وعلى غيرهم ممن لم نذكر ؛ خضعوا لها مشدودين الى من سبقهم من الشعراء ، يتبعون ظلهم ويحتذون نماذجهم ، قانعين برؤيتهم لا ينظرون الا من خلالها ، وبتعابيرهم وأساليبهم لا يحيدون عنها ، عاجزين عن الانطلاق فى ميدان التجربة والابداع ، لا نجد عندهم غير أفكار وصور متكررة تتردد بنفس الالفاظ ، بعيدة عن احساسهم الذاتى وعن روح العصر . وحتى الذين عانوا تجربة ما فانهم لا يحاولون استيحاءها والتعبير عنها من خلال واقع حالهم الوجدانى وتعمقه لاستخراج أفكار ومعانى وأقوال جديدة ، ويكتفون بالنظر الى ما عند غيرهم يقتبسون منه دون محاولة لتكييفه أو تطويره ، وتلك أقصى درجات الجمود والتقليد ، لا يعقبها الا الفناء والموت .

(I) صفحة : II2 .

المــصـــــادر

مـصـــادر عـامــــة

أولا ـ المـخـطـوطـة :

I ـ ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبى المحاسن وشيخه المجذوب
لعبد الرحمن الفاسى
خزانة الرباط العامة : نسختان 326 ك ـ 2302 ك

2 ـ أعلام الفكر المغربى المعاصر فى العدوتين الرباط وسلا
لعبد الله بن العباس الجرارى (والدنا حفظه الله)
مخطوطة المؤلف (الخزانة العباسية)

3 ـ الاقنوم فى مبادىء العلوم
لعبد الرحمان الفاسى
خزانة الرباط العامة : نسختان II 2I د ـ I5 ك

4 ـ بلوغ الامل فى فن الزجل
مخطوط الزيتونة 4467

5 ـ ثمرة أنسى فى التعريف بنفسى
لسليمان الحوات
مخطوطة خاصة للاستاذ سعيد أعراب

6 ـ جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس
المكتبة الوطنية بمدريد 4879

7 ـ الحسام المشرفى فى الرد على اكنسوس المراكشى
للعربى المشرفى
أ - مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 2276
ب ـ نسخة مصورة بخزانة الرباط العامة رقمها I207

8 ـ الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف من المحاسن والمفاخر
لابى عبد الله محمد بن عبد القادر بن احمد الكلالى الشهـــير

بالكردودى

خزانة الرباط العامة رقم 1584 D

9 ـ الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح (ديوان شعر معرب)

للحاج ادريس بن علي السناني لحنش

خزانة الرباط العامة 1378 ك

10 ـ روض الآداب

لاحمد الحجازي ـ ثلاث نسخ :

مكتبة أيا صوفيا (السليمانية ـ اسطنبول) 4017

مكتبة أحمد الثالث (قصر توبكابى ـ اسطنبول) 2293

مكتبة راغب باشا (اسطنبول) 1115

11 ـ رياض الورد الى ما انتهى اليه هذا الجوهر الفرد

لمحمد الطالب بن الحاج

خزانة الرباط العامة 396

12 ـ سجع الورق المنتحبة في جمع الموشحات المنتخبة

للسخاوى

مكتبة فاتح (السليمانية ـ اسطنبول) 3918

13 ـ السفينة (الجزء الرابع)

لمباركشاه

فيض الله Feyzullah مكتبة ملت Millet (اسطنبول)1612.

14 ـ شرح على نونية أبى الحسن الششترى

لاحمد زروق

مكتبة دير الاسكوريال 4186

15 ـ شرح القصيدة العقيقية لسعيد التلمساني وتسمى : «الآداب الرقيقة فيشرح العقيقة ، وان شئت قلت الدرة الانيقة فى شرح العقيقة ، وان شئت قلت التحف المهدية فى شرح السعدية»

لمحمد بنناصر المعروف بابى رأس

خزانة الرباط العامة 1656 د

16 ـ العاطل الحالي والمرخص الغالي

لصفي الدين الحلي

مكتبة بايزيد (اسطنبول) 5542 (علما بأنه مطبوع ، نشره هوينرباخ)

17 ـ العقيدة الادبية في السبعة فنون المعنوية

لاحمد الرباط

مكتبة اسعاد أفندي (السليمانية ـ اسطنبول) 2867

18 ـ فتح الانوار في بيان ما يعين على مدح المختار

لابراهيم التادلي

خزانة الرباط العامة 3285 د

19 ـ فهرسة

لمحمد التاودي بن سودة

الخزانة العباسية رقم 3388 (خزانة السيد الوالد) .

20 ـ كتاب الحايك في الموسيقى الاندلسية

الخزانة العباسية (غير مرقم) .

نشره فرناندو مارتينيز ولكنه اقتصر على ايراد كلام الحايك في التعريف بالنوبات وترجمته دون ايراد النصوص (انظره في المطبوعات الاجنبية) .

21 ـ كتاب مجموع موشحات .

مكتبة أيا صوفيا (السليمانية ـ اسطنبول) 2243

22 ـ لحن العامه

لابن هشام اللخمي

مكتبة دير الاسكوريال ـ نسختان : 46 ـ 99

23 ـ مجموع قصائد وموشحات في المديح النبوي مرتبة على نوبات الانشاد .

لاحمد بن محمد العربي أحضري المراكشي (مخطوطة خاصة بالكاتب)

24 ـ مسالك الابصار وممالك الامصار

للعمري

جامعة اسطنبول 4355 AY

25 ـ منظومة في الموسيقى

للحوات

المكتبة الملكية بالرباط 4229

26 ـ موسوعة المغرب العربي (يشرف عليها المكتب الدائم للتعريب بالرباط

مادة : الآلة (الموسيقى)

لعبد الله بن العباس الجراري

27 ـ النور اللامع البراق في ترجمة محمد الحراق

لمحمد بن العربي الدلائي الرباطي

مكتبة تطوان العامة (وتوجد نسخة بخزانة الرباط العامة

رقمها 960)

ثانيا : المطبوعة :

أ ـ الكتب العربية :

28 ـ الابتهاج بنور السراج (شرح على منظومة سيدي العربي المسطاري)

لاحمد بن المامون البلغيثي

مطبعة محمد أفندي مصطفى ـ مصر 1319 .

29 ـ ابن سناء الملك أو مشكلة العقم والابتكار في الشعر

للدكتور عبد العزيز الاهواني

مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة 1962 .

30 ـ البيان والتبيين

لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1948 .

31 ـ البيان المغرب في أخبار المغرب

لابن عذاري المراكشي

طبعة لبنان

32 ــ اتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس

لعبد الرحمن بن زيدان

الطبعة الاولى ــ الرباط .

33 ــ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم

للمقـــدســـى

طبعة ليدن 1909

34 ــ الاحكام فى أصول الاحكام .

لعلى بن حزم الظاهرى

الطبعة الاولى ــ مطبعة السعادة ــ مصر

35 ــ الزاوية

للتهامى الوزانى

مطبعة الريف ــ تطوان ــ 1942

36 ــ أزهار الرياض فى أخبار عياض

لاحمد المقرى ــ تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد

الحفيظ شلبى نشر المعهد الخليفى للابحـاث المغربيـة ــ بيت

المغرب ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة1940

37 ــ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

لاحمد بن خالد الناصرى

طبعة القاهرة 1894 ــ طبعة دار الكتاب 1956 (الدار البيضاء) .

38 ــ الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام

لعباس بن ابراهيم

الطبعة الاولى (المطبعة الجديدة) فاس 1936 .

39 ــ الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب

لمحمد بن الطيب العلمى

طبعة حجرية

40 ــ الانيس المطرب القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة

فـــاس

لمحمد بن عبد الحليم المعروف بابن أبى زرع

طبعة حجرية

41 ــ تاج العروس من جواهر القاموس

لمحمد مرتضى الزبيدى

42 ــ تاريخ خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر

لمحمد المحبى

المطبعة الوهبية ــ مصر ــ 1284

43 ــ تاريخ عبد الرحمن بن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الاكبر)

مطبعة بولاق

44 ــ الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا

لابى القاسم الزيانى

نشر عبد الكريم الفيلالى ــ وزارة الانباء ــ المغرب 1967 .

45 ــ التشوف الى رجال التصوف

ليوسف بن يحيى التادلى المعروف بابن الزيات ــ تحقيق أدولف فور

نشر معهد الابحاث العليا المغربية ــ 1958

46 ــ تفسير القرآن العظيم

لاسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى

الطبعة الثالثة ــ مطبعة الاستقامة ــ القاهرة 1375 (1956)

47 ــ جذوة الاقتباس

لابن القاضى

طبعة حجرية

48 ــ جواهر الكمال فى تراجم الرجال (القسم الثانى من كتاب : أسفى وما اليه)

لمحمد الكانونى

المطبعة العربية ـ الدار البيضاء

49 ـ دائرة المعارف الاسلامية

الترجمة العربية ـ القاهرة

50 ـ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر

لمحمد بن علي بن مصباح المعروف بابن عسكر

طبعة حجرية

51 ـ ديوان أبى الحسن الششترى

تحقيق الدكتور على سامى النشار

الطبعة الاولى ـ الاسكندرية 1960

52 ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب (العدد السابع)

لعبد الله كنون

53 ـ الرحلـــــــة

لابن بطوطـــة

طبعة بـــاريس

54 ـ رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا

لاخوان الصفا

طبعة صادر ـ بيروت

55 ـ رسائل موحدية

نشر ليفي بروفنسال

56 ـ ركب الحاج المغربى

لمحمد المنونى

طبعة معهد مولاى الحسن ـ تطوان 1953

57 ـ رياض النفوس

لابى عبد الله المالكى ـ تحقيق د . حسين مؤنس ـ القاهرة1951

58 ـ الزجل فى الاندلس

للدكتور عبد العزيز الاهوانى

نشر معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة 1957

59 ـ السعادة الابدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية

لمحمد بن عبد الله الموقت

المطبعة الحلبية ـ مصر ـ 1341

60 ـ سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر

لابن معصوم

طبعـــة مصر

61 ـ الشذرات (التقاط الفوائد وغرر العوائد)

لمحمد الرضى السنانى

مطبعة بوشنتوف ـ الدار البيضاء

62 ـ صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادى عشر

لمحمد الصغير الافرانى

طبعة حجرية

63 ـ الطقاطيق الشعبية

لبهيجة صدقى رشيد

نشر اللجنة الموسيقية العليا ـ سلسلة تراثنا الموسيقـــــــى

القاهرة .

64 ـ العربية دراسات فى اللغة واللهجات والاساليب

ليوهان فوك **Johann Fück** ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

مطبعة دار الكتاب العربى ـ القاهرة 1951

65 ـ فى اللهجات العربية

للدكتور ابراهيم أنيس

الطبعة الثانية ـ لجنة البيان العربى ـ القاهرة 1952

66 ـ القاموس المحيط

للفيروزبادى

67 ـ قصة المـــوال

لميـــلاد واصف

القاهـــرة

68 ـ القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب
تصنيف نور الدين عبد القادر
المطبعة الثعالبية ـ الجزائر

69 ـ كشف الغطا عن سر الموسيقى ونتائج الغناء
لادريس الادريسي
الطبعة الاولى ـ الرباط 1935

70 ـ كشف القناع عن آلات السماع
لابى على الغوثى بن محمد الجزائرى
مطبعة جوردان ـ الجزائر

71 ـ الكنز المكنون فى الشعر الملحون
لقاضى محمد الجزائرى
المطبعة الثعالبية ـ الجزائر 1928

72 ـ لحن العـــوام
لابى بكر محمد الزبيدى ـ تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب
الطبعة الاولى ـ القاهرة 1964

73 ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر
لضياء الدين بن الاثير
طبعة الحلبى ـ مصر 1939

74 ـ المحاضرات
للحسن بن مسعود اليوسى
طبعة حجرية

75 ـ مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبى المحاسن
لمحمد العربى بن أبى المحاسن الفاسى
طبعة حجرية

76 ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب
لعبد الواحد المراكشى ـ تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمى
طبعة القاهرة

77 ـ المغرب فى حلى المغرب

لابن سعيد تحقيق الدكتور شوقى ضيف

طبعة دار المعارف ـ القاهرة

78 ـ المقدمـــة

لابن خلدون

مطبعـة بــولاق

79 ـ ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع وما لهما من الاتباع

لمحمد المهدى بن أحمد بن على بن أبى المحاسن الفاسى

طبعة حجرية

80 ـ المنـــاقـــب

لمحمد بن أحمد الحضيكى

الطبعة الاولى

81 ـ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهـــم

الوارثين وظهور المهدى وتاريخ الموحدين

لابن عبد الملك البرجى المعروف بابن صاحب الصلاة ـ تحقيق

عبد الهادى التازى

82 ـ نشر المثانى

لمحمد بن الطيب بن عبد السلام القادرى

طبعة حجرية

83 ـ نقد النثر

لقدامة بن أبى جعفر ـ تحقيق الدكتور طه حسين وعبد الحميد

العبـــادى

نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1938

84 ـ النهاية فى غريب الحديث والاثر

للمبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن الاثير

85 ـ نوبة الاصبهان

تنظيم Aracadio de larrea بمساعدة الفريد البستانى

نشر معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية ـ
تطوان 1956

86 ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج
لاحمد بابا التمبكتي
طبعة فاس 1317 هـ .

87 ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان
لاحمد بن خلكان
طبعة القاهرة 1355

ب ـ الكتب الاجنبية :

A. BEL — 88
La religion musulmane en Berbérie (étabissement et développement de l Islam en barberie).

E.F. Gautier — 89
Les siècles obscurs du Maghreb

Fernando Valderrama Martinez — 90
EL concionero de EL-HAIK
Instituto General Franco de estudios E investigation hispano-arabe Tétuan 1954.

H. de castries — 91
Les gnomes du Medjdoub - Paris 1896.

Jean Léon Africain — 92
Description de l'Afriqu :
Ed. CH. SCEFER - Paris

J. Scelles - Millie et B' Khalif. — 93
Les quatrains de Medjdoub le sarcastique, poéte maghrébin du XVI S
G. P. Maisonneuve et Larose - Paris 1966.

Louis Brunot : — 94
a- Sur le théme verbal F'al en dialectal marocain.
Mélanges W. Marcais - Paris 1950.

b. Introduction à l'arabe marocain. 95
G.P. Maisonneuve et Cie Paris 1950.

M. EL FASSI 96
Chants anciens des femmes de Fés
Editions Seghers - Paris 1967.

ج - المجـــلات :

97 _ مجلة الاذاعة والتلفزة المغربية _ العدد 12 السنة الثانية
يوليوز غشت 1966
(الملحون بين ماضيه وحاضره لاحمد سهوم)

98 _ مجلة البحث العلمى _ العدد الاول _ السنة الاولى ، يناير _
أبريل 1964 (المغرب)
(الادب الشعبى المغربى الملحون لمحمد الفاسى)

99 _ مجلة البحث العلمى _ العدد الرابع والخامس _ السنة الثانية،
يناير غشت 1965 .
(لغة الملحون لمحمد الفاسى).

100 _ مجلــة البينة _ السنــة الاولى _ العــدد الرابع _ غشت 1962
(المغـــــرب)
(نظرة عن الادب الشعبى بالمغرب لمحمد الفاسى)

101 _ مجلة تطوان _ العدد الخامس 1960 (المغرب)
(من أدبنا الشعبى لعبد الله كنون)

102 _ مجلة هسبرس (المغرب)
Hésperis TX 1950 Fas 1 (G.P.S. Colin : notes de dialectologie arabe)

103 _ مجلة هسبرس
Hespéris 1938 1er trimestre (M. T. Buret : «Sidi quaddur EL-alami notes biographiques» dans : communications)

104 _ مجلة الفنون الشعبيــة _ العــدد الاول _ السنــة الاولى _
القاهرة 1965

أ ـ (المأثورات الشعبية للدكتور عبد الحميد يونس)

ب ـ (الشعر الشعبي في تونس لمحمد المرزوقي)

105 ـ مجلة معهد الدراسات الاسلامية ـ مدريد ـ العدد الخامس 1957

(الدكتور محمود مكي

Egipto y la historiographia arabico - espagnola

106 ـ مجلة معهد المخطوطات (جامعة الدول العربية ـ القاهـــرة)

المجلد الثالث 1957

(الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامـة

للدكتور عبد العزيز الاهواني) .

107 Annales de l'institut d'études orientales Faculté des lettres de l'université d'Alger T. 4 1938 - P 8

(مقال حول تعريب الشمال الافريقي لوليام مرسي)
W. Marçais)

مـصـادر الـنـصـوص الـزجـلـيـة

أولا : المخطوطة (مجاميع وكنانيش)

أ ـ مجموعة الخزائن العامة :

1 ـ خزانة الرباط العامة :

108 ـ مجموع رقم 774 حرف د

109 ـ مجموع رقم 960 حرف د

110 ـ كنـاش رقم 1518 حرف د

111 ـ كنـاش رقم 1656 حرف د

112 ـ كنـاش رقم 2067 حرف د

113 ـ قصيدة رقم 1115 حرف د (الجمهور للعلمـــي)

114 ـ قصيدة رقم 1458 حرف د (داليـة ابن رموية)

115 ـ قصيدة رقم 1480 حرف د (ذكر لعبد الورات)

116 ـ ديوان في الثناء على حمدون بن الحاج (روضة النيلوفر نناء الناس عليه وبعض مناقبه التي هي أعطر من الادفر) : رقم

383 حرف د

117 ـ كناش رقم 108 حرف ج

118 ـ كناش رقم 595 حرف ج

119 ـ كناش رقم 1644 حرف ك

120 ـ كناش رقم 3027 حرف ك

121 ـ كناش رقم 165 حرف ق

122 ـ قصيدة رقم 1017 حرف ق (الفياشية)

2 ـ مكتبة تطوان العامة :

123 ـ مجموع رقم 589

124 ـ مجموع رقم 866

3 ـ خزانة مراكش :

125 ـ قصيدة الكفيف الزرهونى فى هزيمة أبى الحسن المرينى بالقيروان فى آخر مجموع رقم 184

4 ـ المكتبة الوطنية بمدريد :

126 ـ مجموع اشعار غير مرتب رقم 5307

5 ـ مكتبة دير الاسكوريال :

127 ـ مجموع رقم 523

ب ـ مجموعة الخزائن الخاصة :

1 ـ المكتبة الملكية بالرباط :

128 ـ مجموعة قصائد للمغراوى رقم 860

129 ـ كناشة عبد الله الشرقى رقم 5958

130 ـ كناش رقم 1502

131 ـ كناش رقم 2097

132 ـ كناش غير مرقم يضم قصائد لعبد الله الهبطى

2 ـ خزانة الاستاذ ادريس بن الماحى :

133 ـ كناش أغلب قصائده لعبد القادر العلمى (رمزنا له بـ : م 1)

134 ـ كناش يضم قصائد للتهامى المدغرى (رمزنا له بـ : م 2)

3 ـ خزانة الاستاذ عبد السلام بن سودة :

135 ـ كناش (رمزنا له بـ : س)

4 ـ خزانة الفقيه محمد الهسكوري :

136 ـ كناش رمزنا له بـ : هـ

5 ـ خزانة الشيخ الزجال مولاى احمد بن عبد السلام العلوى :

137 ـ ديوانه (رمزنا له بـ : ع)

ج ـ مجموعة الكاتب الخاصة :

138 ـ كناش رقم 1

139 ـ كناش رقم 2

140 ـ كناش رقم 3

141 ـ كناش رقم 4

142 ـ كناش رقم 5

143 ـ كناش رقم 6

144 ـ كناش رقم 7

145 ـ كناش رقم 8

146 ـ كناش رقم 9

147 ـ كناش رقم 10

148 ـ كناش رقم 11

149 ـ كناش رقم 12

150 ـ كناش رقم 13

151 ـ كناش رقم 14

152 ـ كناش رقم 15

153 ـ كناش رقم 16

154 ـ كناش رقم 17

155 ـ كناش رقم 18

156 كناش رقم 19

157 ـ كناش رقم 20

158 ـ كناش رقم 21

159 ـ كناش رقم 22

160 ـ كناش رقم 23

161 ـ كناش رقم 24

162 ـ كناش رقم 25

ثانيا : المطبوعة :

163 ـ ديوان الاخضر بن خلوف (الجزائري)

164 ـ ديوان فائق ومجموع رائق للسلطان مولاى عبد الحفيظ العلوى
طبعة حجرية

165 ـ ديوان محمد الحراق
أ ـ طبعة حجرية
ب ـ طبعة مكتبة المعارف بمكناس .

166 ـ كتاب نفح الازهار ووصف الانوار وأصوات الاطيار ونغم الاوتار .
Anthologie d'auteurs arabes
احتيار القال عبد الرحمان وبخوشه محمد
المطبعة المهدية ـ تطوان 1934

167 - Sonneck
chants arabes du Maghreb - 1885

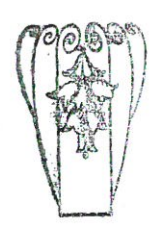
168 - A. Fischer
Das liederbuch eines marokkanischen Sangers (Leipzig 1918)

ثالثا : المنشدة : (انظر كذلك فهرس الاذاعة الملحق بالدليل)

169 ـ شريط تسجيل بأربعة وجوه رقم 19 (تسجيلات الكاتب الخاصة)

170 ـ شريط تسجيل بأربعة وجوه رقم 21 (تسجيلات الكاتب الخاصة)

الفهـــــرس



تنبيه واعتذار

نلفت نظر القارىء الكريم الى :

1 ـ أننا عمدنا الى كل الكلمات التى يستهل نطقها بسكون ، فبدأناها بحرف ألف حتى يسهل الاهتداء الى هذا النطق .

2 ـ أننا لم نتمكن فى كل الرسالة من كتابة القاف التي تنطق جيما مغلقة كافا بثلاث نقط ، كما جرت العادة بذلك ، والسبب ان التصفيف تم فى ثلاث آلات (اللينو) لم تكن تتوفر منها على الكاف المنقوط الا واحدة . كذلك حاولت الثانية تميزه بكتابته بالاسود ، اما الثالثة فلم تميزه وكتبته كافا مجرداً

ونعتذر له عن الاخطاء المطبعية التي قد يصادفها والتي حاولنا جهد الامكان تلافيها بالتصحيح اكثر من مرة . كما نعتذر عن بعض الهفوات التي حدثت عند الطبع النهائي ، والتي لاحظنا منها خلال المراجعة السريعة اثنتين :

1 ـ فى صفحة 593 سطر 9 وقع خلط فى عجز البيت ، وصوابه :
قبطات لكتاب اطواتو

2 ـ فى صحفة 630 نسيت كتابة سطر ، محله بعد السطر الثاني وهو :
الله فنمت الى الصباح فوجدت الفار اكل سواد الصحيفة دون بياضها